

أيام العرب

في الإسلام

تأليف

محمد أبو الفضل إبراهيم   علي محمد البجاوي

دار إحياء الكتب العربية
عيسى البابي الحلبي وشركاه

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة الطبعة الأولى

قدَّمْنا إلى قراء العربية كتابنا « أيام العرب فى الجاهلية » ، يلمّ أشتات تلك الأيام ، ويؤلّفُ بينها ؛ فاستقبله الأدباء والمؤرخون استقبالًا كريمًا ، وعَدُّوه مرجعهم الأول فى تلك الأيام .

وكنا قد وعدنا فى مقدمته بكتاب « أيام العرب فى الإسلام » ؛ واستنجزَنَا بعضُ القراء وعْدَنا ، ورغبوا إلينا فى إخراج هذا الكتاب ، حتى تتم به تلك الحلقة التاريخية الأدبية التى بدأناها .

وها نحن أولاء نقدمه إليهم إنجازاً لوعدنا ، ووفاء لحقهم علينا ، وإتماماً لعملنا .

وسيطالعون فى هذا الكتاب أشهر أيام العرب فى الإسلام ، وقد صيغت حوادثها صياغة قصصية أحكِمت حلقاتها ، واتصلت أجزاؤها ، ولمع أبطالها .

وفى ثناها نصوص أدبية فى الذّروة العليا من الأدب ، قد ضبطت كلماتها ، وشرحت ألفاظها ، وعرضت وسط حوادثها .

فهذا الكتاب تاريخ مجيد ، وقصص رائع ، وأدب رفيع .

وقد يكون من الخير للأمم العربية أن يظهر فيها هذا الكتاب فى هذه الآونة التى توالت فيها عليهم أحداث ، وتتابعت مِحَن ، وخاضوا غمار حروب ، فلم يهنوا ولم يضعفوا .

وسيجدون فى الأيام تاريخهم المشرق الوضّاء ، وجنودهم الأَجْرَاء الشجعان ، وقوّادهم الصناديد المحنّكين .

وسيرون كيف تغلّب هؤلاء على الصعاب ، وكيف فتحوا الممالك والأمصار ، وكيف شاعت فيهم روح التضحية ، فرفَعُوا شأنَ أمتهم ، وثبّتوا دعائم نهضتهم ، وأقاموا صرح ملكهم .

لعل فى هذا كله هداية ، ولعل فيه قدوة ، ولعل فيه درسا .

المؤلفان

مقدمة الطبعة الثانية

هذه هى الطبعة الثانية من الكتاب ، نقدمها لقرائنا بعد أن هذّبنا فيها ، وأصلحنا ما كان قد ندّ فى الطبعة الأولى .

وقد زدنا فيها أياماً للعرب كانت غرّة فى أيامهم ، ومثلًا بارزاً فى جهادهم ، وعلَما على عروبتهم ونصرهم ، لنصل الماضى بالحاضر ، ونعرّف بمواقف العروبة فى أيامها الخالية والحاضرة .

فنحن اليوم نعيش فى ماضينا التليد ، وعلينا أن نحيي من أمجادنا ماخلّده التاريخ من مآثر ، وما سجله من مفاخر ، ولهذا أضفنا إلى الكتاب فصولا ، شملت أيام العرب مع الصليبيين وغيرهم ، مما تتم به سلسلة الأيام الخالدة فى تاريخ العرب والعروبة .

والله نسأل أن يوفقنا إلى ما فيه خير أمّتنا العربية .

المؤلفان

مقدمة الطبعة الثالثة

هذه هى الطبعة الثالثة من كتابنا « أيام العرب فى الإسلام » ، نقدمها للقراء بعد أن أعدنا النظر فيه ، وزدنا فى ضبطه ، وأكثرنا من شرح الألفاظ الغريبة .

ثم زدنا فى فهارس الكتاب ليسهل الانتفاع به والرجوع إليه .

والكتاب ـ كما عرفه القراء ـ مرجع لأيام العرب ووقائعها وفتوحاتها فى الإسلام ؛ وهو مكمل لصِنْوِه « أيام العرب فى الجاهلية » .

والله نسأل أن ينفعَ به الشادين فى الأدب ، والمتطلعين إلى الوقوف على مجد العرب القديم وتراثهم المجيد .

المؤلفان

ربيع الأول ١٣٨٨هـ (يونيه ١٩٦٨م)

بسم الله الرحمن الرحيم

١ — يوم بدر*

قدم رسولُ الله من غَزْوَة الْعُشَيْرَةِ[1] ، ولم يمكث بالمدينة إلا أياماً قلائل ، حتى أغار كُرْز بن جابر الفِهرىّ على سَرْحِ[2] المدينة ، فخرج رسولُ الله فى طلَبِه ، حتى بلغ سَفَوان[3] ، وفاتَه كُرْز فلم يُدْرِكْه[4] .

ثم بعث رسولُ الله عبدَ الله بن جَحْش[5] مع رَهْطٍ من المهاجرين ، وكتب له كتاباً ، وأمره ألَّا يفتحَه حتى يسيرَ يومين ، ثم ينظر فيه فيمضى لما أمره به ، ولا يَسْتَكْرِه أحداً من أصحابه .

فسار عبدُ الله يومين ، وفتح الكتاب ، فإذا فيه : « إذا نظرتَ فى كتابى هذا فامْضِ حتى تنزلَ نَخْلَةَ ـ بين مكَّةَ والطائف ـ فترصَّدْ[6] بها قريشاً ، وتَعَلَّمْ لنا من أَخْبارِهم » .

فلما نظر عبدُ الله بنُ جَحْش فى الكتاب قال : سَمْعاً وطاعة . ثم قال لأصحابه : قد أمرنى رسولُ الله أن أَمْضِيَ إلى نَخْلَةَ أَرْصُدُ بها قريشاً حتى آتِيَه منهم بخَبَرٍ ؛

---

* سيرة ابن هشام : ٢ ـ ٢٣٨ ، تاريخ الطبرى : ٢/٢٦٧ . وكان ذلك اليوم فى السنة الثانية من الهجرة ، وبدر : ماء مشهور ، بين مكة والمدينة بينه وبين البحر ليلة .

(١) قبل هذا اليوم غزوة ودان (قرية جامعة بين مكة والمدينة) ، وتسمى أيضاً غزوة الأبواء ، وقد خرج فيها النبي يريد قريشاً وبنى ضمرة ، فوادعته فيها بنو ضمرة ، ثم رجع النبى إلى المدينة ولم يلق حرباً . ثم غزوة العشيرة (بطن ينبع) ، وقد خرج لغزو قريش ، ووادع فيها بنى مدلج وحلفاءهم ثم رجع إلى المدينة ولم يلق حرباً . (٢) السرح : المال السائم .

(٣) سفوان : واد من ناحية الحجاز . (٤) هذه غزوة بدر الأولى . (٥) هذه سرية عبد الله بن جحش . (٦) رصده : ترقبه .

وقد نهانى أن أستكرِهَ أحداً منكم ، فمن كان منكم يريدُ الشهادةَ ويرغبُ فيها فلينْطَلِق ، ومَنْ كَرِهَ ذلك فليَرْجِعْ ، فأمّا أنَا فماضٍ لأمرِ رسول الله .

فمضى ومضى معه أصحابُه ، لم يتخلّفْ منهم أحد ، وسلَكَ على طريق الحجاز ، حتى إذا كان ببعض الطريق أضلَّ سعدُ بن أبى وَقّاص وعُتْبَةُ بن غَزْوَان بعيراً لهما كانا يَعْتَقِبَانِه[١] ، فتخلّفا فى طلبه .

ومضى عبدُ الله بن جَحْش وبقيةُ أصحابه حتى نزل نَخْلة ، فمرّت عليه عِيرٌ[٢] لقريش فيها عَمْرُو بْنُ الحَضْرَمِىّ .

فلما رآهم القومُ قد نزلوا قريباً منهم هَابُوهم ؛ وتشاورَ أصحابُ النبىّ فى الأمر ، وقالوا : لَئِنْ تَرَكْنَا القومَ هذه الليلةَ ليدخُلُنَّ الحَرَم ، وليمتنِعُنَّ به منكم ؛ ولئن قتلناهم لنقتلنّهم فى الشهر الحرام . وتردّدوا وهَابوا الإقدام عليهم، ثم شجّعوا أنفسهم، وأجمعوا على قَتْلِ مِنْ قَدَرُوا على قَتْلِهِ منهم ، وأَخْذ ما معهم . وقتلوا عمرو بن الحَضْرَمِىّ ، وأسروا أَسِيرَيْن[٣] .

وأقبل عبدُ الله بن جَحْش وأصحابُه بالعير وبالأسيرَيْن حتى قَدِموا على رسولِ الله بالمدينة ؛ فلما رآهم النبىُّ قال : ماأَمَرْتُكُمْ بقتالٍ فى الشهر الحرام .

فلما سمعوا مقالةَ النبى سُقِط فى أيْدِيهم ، وظنّوا أنهم قد هلكوا ، وعنّفهم إخوانُهم من المسلمين فيما صنعوا ؛ وقالت قُرَيش : قد استحلَّ محمدٌ وأصحابُه الشهرَ الحرام ، وسفكوا فيه الدم ،وأخذوا فيه الأموال ،وأَسَرُوا الرجال . وأَكْثَرَ الناسُ فى ذلك ؛ فأَنْزَلَ اللهُ على رسوله : ﴿[٤]يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ

---

(١) يعتقبانه : يتعاقبانه فى الزكوب واحـدا فواحداً . (٢) العير : الإبل والدواب التى كانوا يركبونها فى التجارة . (٣) هما عثمان بن عبد الله ، والحكم بن كيسان .

(٤) سورة البقرة : ٢١٧ .

قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدٌّ عَنْ سَبِيلِ ٱللهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِنْدَ اللهِ وَٱلْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ ٱلْقَتْلِ (١) وَلَا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّى يَرُدُّوكُمْ عَنْ دِينِكُمْ إِنِ ٱسْتَطَاعُوا ﴾ .

فلما أنزلَ اللهُ فيهم هذا القرآنَ ، وفرَّجَ اللهُ عن المسلمينَ ما كانوا فيه من الخوف قَبَضَ رسولُ الله العِيرَ والأَسِيرين .

وبعثت إليه قريشٌ فى فداء أسيرَيها ، فقال الرسول : لا نُفْدِيكُموها حتى يقدمَ صاحِبَانا (٢) ، فإنَّا نخشاكم عليهما ، فإن تقتلوها نقتل صاحبَيْكم . وقدم صاحِبا الرسول ، فقبل رسولُ الله الفِدَاء .

ثم إنَّ رسولَ الله سَمِع بأَبى سفيانَ بنِ حَرْب مُقْبِلاً من الشام فى عِيرٍ عظيمة لِقُرَيْش ، فيها أموالٌ وتجارة ؛ فندَب (٣) المسلمين إليها ، وقال : هذه عِيرٌ لقُرَيْش فيها أموالُهم ، فاخرُجُوا إليها . فانتَدَب الناسُ (٤) .

وكان أبو سفيان ، حين دنَا من الحجاز يتحسَّسُ الأخبارَ ، ويسألُ مَنْ لَقِيَ من الرُّكْبَان ؛ تخوُّفاً على أموالِ قريش ، حتى أصاب خَبَراً من بعض الناس ؛ أَنَّ محمداً قد استَنْفَرَ أصحابَه له ولِعيرِه (٥) ؛ فحَذِر عند ذلك ، واستأجر ضَمْضم بن عمرو الغِفَارِيّ ؛ وبعثه إلى مكة ، وأمره أن يأتِيَ قريشاً فيَسْتَنْفِرَهم إلى أموالهم ، ويخبرَهم أنّ محمداً قد عَرَض له فى أصحابه . فخرج ضَمْضم مُسْرِعاً إلى مكة .

* * *

هذا ما كان من أبى سفيان ، أما فى مكّة فقد كان حديثُ الناس فيها يتصل

---

(١) أى إن قتلتم فى الشهر الحرام فقد صدوكم عن سبيل الله ، وعن المسجد الحرام. ولإخراجكم منه أكبر عند الله من قتل من قتلتم . (٢) هما سعد بن أبى وقاص ، وعتبة بن غزوان ، وهما اللذان أضلا بعيرهما . (٣) ندبه إلى الأمر : دعاه وحثه ووجهه.

(٤) انتدب الناس : أجابوا وأسرعوا . (٥) الاستنفار : الاستنصار ، أى طلب منهم الخروج لأبى سفيان وعيره .

بالعير بسببٍ آخر ؛ فقد رأت عاتكةُ بنتُ عبد المطلب ـ قبل قُدُوم ضَمْضَم مكة بثلاث ليال ـ رُؤْيا أفزَعَتْهَا ، فبعثَتْ إلى أخيها العباس بن عبد المطلب ، فقالت له : يا أخى ؛ إنى رأيتُ الليلةَ رُؤْيا تخوَّفتُ أن يدخل عَلى قومك منها شرٌّ ومُصيبة ، فاكْتمْ عنى ما أُحَدِّثُكَ به . قال لها : وما رأيتِ ؟ قالت : رأيتُ راكباً أقبل على بعيرٍ له حتى وقف بالأَبْطَح(١) ، ثم صرخ بأعلى صوته : أَلَا انفِرُوا لِمَصَارِعكم فى ثلاث ! فأَرَى الناس اجتمعوا له . ثم دخل المسجدَ والناسُ يَتْبَعُونه ، فبينما هم حولَه مَثُلَ(٢) به بَعيرُهُ على رأسِ أبى قُبَيْس(٣). فصرخَ بمثلها ، ثم أخذ صَخْرَةً فأرسلها، فأَقبلتْ تَهْوِى حتى إذا كانت بأسفل الجبل ارفضَّتْ(٤) ، فما بقى بيتٌ من بيوتِ مكة ولا دَارٌ إلا دخلتها منها فِلْقَة(٥) .

قال العباس : واللهِ إن هذه لَرُؤْيا ! وأنتِ فاكْتُمِيها ، ولا تَذْكُريها لأحد .

ثم خرج العباس فلَقِىَ الوليدَ بن عُتْبَةَ ـ وكان صديقاً له ـ فذكَرَها له ، واستكتمه إيَّاها ، ولكن الوليدَ ذكرها لأبيه عُتْبَةَ ، فَفَشَا الحديثُ بمكة ؛ وتحدثَتْ به قريشٌ فى أنديتها .

وغدَا العباسُ بنُ عبد المطلب يطوفُ بالبيت ؛ وأبو جهل بن هشام فى رَهْطٍ من قريش قُعُود يتحدَّثون برؤيَا عاتكة ، فلمَّا رآه أبو جهل قال : يا أبا الفضل ؛ إذا فرغت من طَوَافِكَ فأقْبِلْ إلينا .

فلمَّا فرغ أقبل حتى جلس معهم ، فقال : يا بنى عبد المطلب ، متى حدَثَتْ فيكم هذه النبيّة ؟ قال العباسُ : وما ذَاك ؟ قال : تلك الرؤيا التى رأت عَاتِكة . قال : وما رأَتْ ؟ قال : يا بنى عبد المطلب ؛ أما رَضِيتم أن يتنبَّأ رجالُكم حتى تتنبَّأ نساؤكم ! لقد زعمَتْ عاتكة فى رؤياها أن راكبا أقبل إلى مكة فقال : انفروا فى

---

(١) الأبطح : مسيل واسع فيه دقاق الحصى ، وأبطح مكة : مسيل واديها . (٢) مثل به : قام منتصبا (٣) أبو قبيس : جبل بمكة . (٤) ارفضت : تفتتت . (٥) فلقة : قطعة .

ثلاثٍ ! فسنتربَّصُ بكم هذه الثلاث ، فإنْ يك حقًّا ما تقول فسيكون ، وإن تمضِ الثلاث ولم يكن من ذلك شيء نكتبْ عليكم كتاباً أنكم أكذبُ أهلِ بيتٍ في العرب .

فلم يكن من العباس إليه شيء ، إلا أنه جَحَدَ ذلك ، وأنكر أن تكونَ قد رأتْ شيئاً . ثم تفرّقوا . وفي المساء لم يبق امرأةٌ من بني عبد المطلب إلا أتت العباس ، فقُلْنَ : أقرَرْتمْ لهذا الفاسق الخبيث[١] أنْ يقعَ في رِجالكم ، ثم قد تناول النساء وأنت تسمعُ ، ثم لم يكن عندك غيرةٌ لشيء مما سمعْتَ ! فقال : قد فعلت ، وايمُ الله لأتعرّضنّ له ، فإنْ عادَ لأقتصَّنَّ .

وغدا العباسُ في اليوم الثالث من رؤيا عاتكة ، وهو مُغضَب ، ودخل المسجد فرأى أبا جهل ، ومشى نحوَه يتعرَّضُه ليعودَ لبعض ما قال فيقَع به ، فإذا به يخرج نحو بابِ المسجد يشتدُّ[٢] ، فقال في نفسه : أكلُّ هذا فرَقا[٣] مني !

ولم يكن فزعا منه ، ولكنه كان قد سمع صوتاً لم يسمعه ، ذلك صوتُ ضَمْضم الغِفَاريّ وهو يصرُخ ببطنِ الوادي ، واقفاً على بعيره ، قد حوّل رَحْله ، وشقّ قميصَه ، وهو يقول : يا معشرَ قريش ؛ اللَّطيمةَ اللَّطيمةَ[٤] ! أموالكم مع أبي سُفيان ، قد عرَض لها محمد في أصحابه ، لا أرى أن تدْرِكوها ! الغَوْثَ الغَوْثَ !

وشُغِل الناسُ بما جاء به ضَمْضم الغِفَاريّ ، وتجهّزوا سِراعاً ، وقالوا : أيظنُّ محمدٌ وأصحابه أنها عِيرُ ابن الحضْرَميّ[٥] كلا ! ليعلمُنَّ غيرَ ذلك .

وكانوا بين رجلين : إما خارج ، وإما باعث مكانه رجلا . وأوْعَبَتْ[٦] قريش ، فلَمْ يتخلَّف من أشرافها أحَد ، إلا أنّ أبا لهب تخلّف وبعث مكانه العاص بن هشام

---

(١) يردن أبا جهل . (٢) يشتد : يعدو ويسرع . (٣) فرقاً : خوفاً .
(٤) اللطيمة : العير تحمل المسك . (٥) هي التي خرج إليها عبد الله بن جحش في سريته كما تقدم في هامش صفحة ٧ . (٦) أوعب القوم : خرجوا كلهم للغزو .

ابن المغـيرة ، وكان قد لَاطَ(١) له أربعة آلاف درهم كانت له عليه ، أفلس بها ، فاستأجره بها على أن يكونَ عنه فى هذا البَعْث .

ولمـا فَرَغت قريش من جَهَازهم ، وأجمعوا المَسِير ، ذكروا ما كان بينهم وبين بنى بكر بن عبد مَنَاة من الحرب(٢) ، فقالوا : إنا نخشى أن يَأْتونا من خَلْفِنَا ! وكاد ذلك يَثْنِيهم ؛ فتبدَّى لهم سُرَاقة بن مالك ــ من أشراف كنانة ــ فقال لهم : أَنَا لـكم جَارٌ مِنْ أن تَأْتِيَـكم كِنَانة من خَلْفَـكم بشيء تـكرهونه ؛ فخرجوا سِرَاعاً .

***

وخرج رسولُ الله فى أصحابه وأَمامه رايتان : إحداهما مع علىّ فى المهاجرين ، والأخرى مع سَعْد بن مُعَاذ فى الأنصار .

وكانت الإبلُ سبعين ، فاعْتَقَبُوها(٣) ؛ وسار النبيُّ فى طريقه إلى مكة ؛ حتى إذا

---

(١) لاط ، أى ألصق به أربعة آلاف .

(٢) كان سبب الحرب التى كانت بين قريش وبين بنى بكر أن ابنا لحفص بن الأخيف القرشى خرج يبتغى ضالة له بضجنان ، وهو غلام حدث فى رأسه ذؤابة ، وعليه حلة له ، وكان غلاما وضيئا نظيفا ، ومر بعامر بن يزيد بن الملوح سيد بكر ، فرآه فأعجبه ، فقال له : من أنت يا غلام؟ قال : أنا ابن لحفص بن الأخيف القرشى . وولى الغلام . فقال عامر بن يزيد : يا بنى بكر ، أما لـكم فى قريش دم ؟ قالوا : بلى ، والله إن لنا فيها لدما . قال : ما كان رجل ليقتل هذا الغلام برجله إلا كان قد استوفى دمه . فتبعه رجل من بنى بكر فقتله بدم كان له فى قريش .

فتـكلمت فيه قريش ، فقال عامر بن يزيد : يا معشر قريش ، قد كانت لنا فيـكم دماء ، فإن شئتم فأدوا ما لنا قبلـكم ونؤدى ما لـكم قبلنا . وإن شئتم فإنما هى الدماء رجل برجل ، فتجافوا عما لـكم قبلنا ونتجافى عما لنا قبلـكم . فهان ذلك الغلام على هذا الحى من قريش ، وقالوا : صدق! رجل برجل . ولهوا عنه ولم يطلبوا به .

وبينما كان أخو هـذا الغلام — وهو مكرز بن حفص — يسير بمر الظهران رأى عامر بن يزيد على جمل له ، فأقبل عليه حتى أناخ به ، وعامر متوشح بسيفه ، فعلاه مكرز بالسيف حتى قتله، ثم خاض بطنه بسيفه ، وأتى بالسيف إلى مكة ، وعلقه فى أستار الـكعبة . فلما أصبحت قريش رأت سيف عامر . فعرفوه ، وقالوا : إن هذا سيف عامر عدا عليه مكرز بن حفص فقتله .

وبينما هم فى حربهم حجز الإسلام بين الناس فتشاغلوا به ، حتى إذا أجمعت قريش المسير إلى بدر ذكروا الذى بينهم وبين بنى بكر . . .

(٣) اعتقبوها ، أى ركبوها واحداً بعد الآخر .

كان قريباً من الصَّفْراء بعث بَسْبَسَ بن عَمْرو ، وعَدِىَّ بن أبى الزَّغْباء الُجهنيّين إلى بَدْرٍ يتحسَّسَان له الأخْبَار عن أبى سفيان بن حرب وعِيره .

وسار حتى نزل وادى الذَّفِران[١] ، وهناك أتاه الخبرُ عن قريش بمسيرهم ليمنعوا عِيرَهم ؛ فاستشار الناسَ وأخبرهم عن قريش ، فقام أبو بكر فقال وأَحْسَن . ثم قام عمرُ بن الخطاب فقال وأحسن . ثم قام المِقْدَادُ بن عَمْرو فقال : يا رسولَ الله ؛ امْضِ لما أَرَاكَ الله فنحنُ معك ، والله لا نقولُ لك كما قالت بنو إسرائيل لموسى ﴿ اُذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَا هُنَا قَاعِدُون ﴾[٢] . ولكن اُذْهَب أنت وربُّك فقاتِلَا إنَّا معكما مقاتلون ، فوالذى بعثك بالحقِّ لو سِرْتَ بنا إلى بَرْكِ الغِمَاد[٣] لجالَدْنَا[٤] معك مِنْ دُونه حتى تبلُغَه . فقال له رسولُ الله خيرا ، ودعا له . ثم قال رسول الله : أَشِيروا علىَّ أيها الناس ـ وإنما يريد الأنصار[٥] .

فقال سَعْدُ بن مُعاذ : والله لكأنَّكَ تريدُنا يا رسولَ الله ! قال : أَجَلْ . قال : قد آمنَّا بك وصدَّقناك ، وشَهِدْنَا أنَّ ما جئْتَ به هو الحقّ ، وأعطيناك على ذلك عهودَنَا ومواثيقَنا على السمع والطاعة ، فامْضِ يا رسولَ الله لما أَرَدْتَ ، فنحنُ معك ؛ فوالذى بعثَكَ بالحقّ لو استعرضْتَ بنا هذا البَحْرَ لَخُضْنَاهُ معك ، ما تخلّف مِنّا رجلٌ واحد ، وما نَكْرَهُ أن تَلْقَى بنا عدوَّنا غدا ، إنَّا لَصُبُرٌ فى الحرب ، صُدُقٌ فى اللقاء ، ولعلّ الله يريكَ منا ما تقرُّ به عينُك ؛ فسِرْ بنا على بَرَكَةِ الله .

---

(١) الذفران : واد قرب وادى الصفراء . (٢) سورة المائدة : ٢٣ . (٣) برك الغماد : مثلثة الغين : موضع ، أو هو أقصى معمور الأرض . (٤) جالدنا : جاهدنا .

(٥) وذلك أنهم حين بايعوه بالعقبة قالوا : يا رسول الله ، إنا برآء من ذمامك حتى تصل إلى ديارنا ، فإذا وصلت إلينا فأنت فى ذمتنا ، نمنعك مما نمنع منه أبناءنا ونساءنا ، فكان رسول الله يتخوف ألا تكون الأنصار ترى عليها نصره إلا ممن دهمه بالمدينة من عدوه ، وأن ليس عليهم أن يسير بهم إلى عدو من بلادهم .

فسُرَّ رسولُ الله بقوْلِ سَعْد ، ونَشَّطه ذلك ثم قال : سِيرُوا وأبشِرُوا فإن الله تعالى قد وعدنى إحْدَى الطَّائِفتَيْن ، والله لكأنى الآن أنظرُ إلى مَصَارِع القوم .

ثم ارتحل رسولُ الله من ذَفِران حتى نزل قريبا من بَدْر ، وركب هو ورجل من أصحابه ، وسار حتى وقف على شيخٍ من العرب ، فسأله عن قُرَيش وعن محمد وأَصْحَابه ، وما بلغه عنهم ، فقال الشيخ : لا أُخبركما حتى تُخبرانى ممن أنتما ؟ فقال رسول الله : إذا أخبرتَنا أخبرناك . قال : أوَذَاك بذاك ! قال : نعم . قال الشيخُ : فإنه بلغنى أن محمداً وأصحابه خرجوا يوم كذا وكذا ، فإن كان صدق الذى أخبرنى فهم اليوم بمكان كذا وكذا ـ للمكان الذى به رسولُ الله ـ وإنه بلغنى أنَّ قريشاً خرجوا يوم كذا وكذا ؛ فإنْ كان الذى أخبرنى صَدَقنى فهم اليوم بمكانِ كذا ـ للمكان الذى به قُرَيش . فلما فرغ من خبره قال : مِمَّن أنتما ؟ فقال رسولُ الله : نَحْنُ من ماء . ثم انصرف عنه .

ثم رجع رسولُ اللهِ إلى أصحابه ، فلما أَمْسى بعثَ علِيَّ بن أبى طالب ، والزُّبير بن العوَّام ، وسعد بن أبى وقَّاص ، فى نفر من أصحابه إلى ماء بَدْر يلتمسون الخبرَ عليه ، فأصابوا رَاوِيةً[1] لقريش ، فيها أَسْلم ـ غلام بنى الحجّاج ـ وعَرِيض أبو يسار ـ غلام بنى العاص بن سعيد ـ فأتَوْا بهما ، وسألوهما ، ورسولُ الله قائمٌ يصلِّى ، فقالا : نحن سُقَاةُ قريش ، بعثونا نسقيهم من الماء . فكَرِه القومُ خبرَهما ، ورجَوْا أن يكونا لأَبى سفيان ، فضربوهما ، فلما أَذْلَقُوهما[2] قالا : نحن لأبى سفيان ؛ فتركوهما . وركع رسولُ الله وسَجَد سَجْدَتين ، ثم سلَّم وقال : إذا صَدَقا كُم ضربتموهما ، وإذا كذَبا كم تركتموهما ! صدَقا والله ، إنهما لقُرَيش ؛ أخبرانى عن قريش ؛ قالا : هم والله وراءَ هذا الكَثِيب الذى ترى بالعُدْوَةِ القُصْوَى[3] .

---

(١) الراوية : البعير أو البغل أو الحمار يستقى عليه . (٢) أذلقوهما : بالغوا فى ضربهما وأضعفوهما . (٣) عدوة الوادى : شاطئه .

فقال لهما رسولُ الله : كم القومُ ؟ قالا : كثير . قال : ما عِدَّتهم ؟ قالا : لا ندرى . قال : كم يَنْحَرُون كلَّ يوم ؟ قالا : يوماً تسعا ويوماً عَشْرا . فقال رسول الله : القومُ فيما بين التسعمائة والألف . ثم قال لهما : فَمَنْ فيهم مِنْ أشرافِ قريش ؟ قالا : عُتبة بن ربيعة ، وشَيْبَة بن ربيعة ، وأبو البَخْتَرِىّ بن هشام ، وعَدًّا كثيرا من رجال قريش .

فأقبل رسولُ الله على الناس فقال : هــذه مَــكَّة قد ألْقَتْ إليــكم أفلاذَ[1] كِبدِها .

ومضى بَسْبَس بن عمرو وعـدِىّ بن أبى الزَّغباء حتى نزلا بَدْرا ، فأناخا إلى تلٍّ قريب من المـاء ، ثم أخذا شَنًّا[2] لهما يستقِيَانِ فيه ، فسمعا جارتين من جَوَارِى الحاضِر[3] ، وهما تتلازَمَان[4] ، والملزومة تقول لصاحبتها : إنما تأتى العِيرُ غداً أو بعد غد ، فأعمل لهم ، ثم أقْضيك الذى لكِ .

فركبا بعيرَها ، ثم انطلقا حتى أتَيا رسولَ الله ، فأخبراه بما سمعا .

***

وأقبل أبو سفيانَ بن حَرْب يتقدّمُ العِيرَ حَذِرًا ، حتى وردَ المـاء ، فرأى رجلا ، فقال له : هل أحسستَ أحداً ؟ فقال : ما رأيتُ أحداً أنْـكِرُه ، إلّا أنى قد رأيتُ راكبين قد أنَاخَا إلى هـذا التلّ ، ثم استقَيَا فِى شَنٍّ لهما ، ثم انطلقا . فأتى أبو سفيان مُنَاخَهما[5] فأخذ من أبعار بعيرهما ففتّه ، فإذا فيه النَّوَى ، فقال : هذه عَلَائِفُ[6] يَثْرِب[7] . ورجع إلى أصحابه سريعاً فضرب وَجْه عِيره عن الطريق ،

---

(١) الأفلاذ : جمع فلذة : القطعة . (٢) الشن : القربة الخلق الصغيرة .
(٣) الحاضر : القوم النازلون على الماء . (٤) تتلازمان : تتماسكان .
(٥) مناخهما : المكان الذى أناخا فيه بعيرهما . (٦) يريد ما يعلفه أهل المدينة ولا يرسلونه للرعى ، فهو جمع علوفة. (٧) يثرب : اسم من أسماء المدينة .

فَسَاحَلَ(١) بها ، وترك بَدْرا يسارا ، وانطلق مُسرعا .

وأقبلت قريش حتى نزلوا الُجحْفة(٢) ؛ ولما رأى أبو سفيان أنه قد أَحْرَزَ عِيرَه أرسل إلى قريش : إنكم إنما خرجتُم لتمنعوا عِيرَكم ورِجالكم وأموالكم ، وقد نَجَوْنا بها ، فارجعوا .

فقال أبو جهل بن هشام : واللهِ لا نَرْجِع حتى نَرِدَ بَدْرًا(٣) ، فنقيم عليه ثلاثا ، فنَنْحَر الُجزُر ، ونُطعم الطعامَ ، ونَسْقِى الخمر ، وتَعْزِف علينا القِيَان ، وتسمع بنا العربُ وبمسيرنا وَجَمْعِنا ، فلا يزالون يَهابُوننَا أبداً بعدها ؛ فامضوا .

فقال الأَخْنَس بن شَرِيق(٤) : يا بنى زُهْرة ، قد نَجَّى الله لكم أموالكم ، وخلَّص لكم صاحبكم - مَخْرَمَة بن نَوْفَل - وإنما نَفَرْتُم لتمنعوه ومالَه ، فاجعلوا بى جُبْنَها ، وارجعوا ، فإنه لا حاجةَ لكم بأَنْ تخرجوا فى غير ضَيْعَةٍ(٥) ، لا ما يقولُ هذا - يعنى أبا جهل . فرجعوا ، ولم يشهدها زُهْرِىّ واحد .

ومضت قُرَيش حتى نزلوا بالعُدْوَة(٦) القُصْوَى من الوادى ، وكان الوادى دَهْسًا(٧) ؛ وبعث الله السماءَ ، فأصاب رسولَ الله وأَصْحابه منها ماء لَبَّدَ الأرْض ، ولم يمنعهم عن المسير ، وأصاب قريشاً منها ماء لم يقدروا على أَنْ يَرْتحِلُوا معه .

* * *

وخرج رسولُ الله يُبَادِرُهم إلى الماء ، حتى إذا جاء أَدْنى ماءٍ من بَدْرٍ نزل به ، فقال الُحباب بنُ المنذر : يا رسولَ الله ؛ أرأيتَ هذا المنزل ؟ أمنزلا أَنْزَلَكَه الله

---

(١) ساحل ؛ أى أتى بالعير ساحل البحر . (٢) الجحفة : موضع بين مكة والمدينة .
(٣) كان بدر موسما من مواسم العرب يجتمع لهم به سوق كل عام . (٤) كان حليفاً لبنى زهرة ، وكان فيهم مطاعاً . (٥) الضيعة : المعاش والتجارة . (٦) العدوة : الشاطئ .
(٧) الدهس : الأرض السهلة يثقل فيها المشى .

ليس لنا أن نتقدَّمه ولا نتأخّر ، أم هو الرأىُ والحربُ والمكيدةُ ! قال : بل هو الرأىُ والحربُ والمكيدة . قال : يارسولَ الله ، فإنَّ هذا ليس بمنزل ، فانْهَضْ بالناس حتى نأتىَ أَدْنى ماء من القوم فننزِلَه ، ثم نُعَوِّر ماوراءه من القُلُب(١) ، ونَبْنى عليه حَوْضاً فنملؤه ماء ، ثم نقاتِلُ القومَ فنشرب ولا يشربون .

فقال رسول الله : لقد أشرتَ بالرأى . ونهض مَنْ معه مِن الناس ، فسار حتى إذا أتى أدنى ماء من القوم نزل عليه ، ثم أمر بالقلُبِ فعُوِّرَتْ ، وبنى حوضاً على القَليب الذى نزل عليه فمُلِئَ ماء .

ثم قال سَعْدُ بن معاذ : يانبيَّ الله ؛ ألا نَبْنِى لك عَرِيشاً(٢) تكونُ فيه ، ونُعِدّ عندك ركائبك ثم نَلْقَى عَدُوَّنا ، فإن أعزَّنا الله وأظهرَنا على عدوِّنا كان ذلك ما أَحْبَبْنا ، وإن كانت الأُخْرَى جلستَ على ركائبك فلحقت بمَنْ وراءنا مِنْ قومنا ؛ فقد تخلَّف عنكَ أقوام ـ يانبيَّ الله ـ مانحن بأشدَّ لك حبًّا منهم ، ولو ظنُّوا أنك تَلْقَى حَرْباً ماتخلَّفُوا عنك ؛ يمنعُكَ الله بهم ، يناصحونك ويجاهدون معك . فأَثْنَى عليه النبيُّ ودعا له بخير . ثم بُنِىَ لرسول الله عَرِيش فكان فيه .

* * *

ولما اطمأنّتْ قُرَيش فى مُقامِها بعَثُوا عُمَيْر بن وَهْب وقالوا له : احْزُرْ(٣) لنا أصحابَ محمد . فجال(٤) بفرَسِه حَوْل العَسْكر ، ثم رجع إليهم ، فقال : ثلاثمائة رجل ، يزيدون قليلا أو ينقصون ، ولكن أمهلونى حتى أنظرَ : أَلِلْقَوْمِ كَمِين أو مَدَدٌ ؟ فضرب فى الوادى حتى أَبْعَدَ فلم ير شيئا ، فرجع إليهم وقال : ماوجدتُ شيئاً ، ولكنى قد رأيتُ ، يامعشر قريش ، البَلَايَا(٥) تحمِلُ المنايا ، نَوَاضِح(٦)

(١) نعورها ، أى ندفنها ونسد عيونها التى ينبع منها الماء ، والقلب : جمع قليب ؛ وهو البئر.
(٢) العريش: الخيمة، أوالبيت الذى يستظل به . (٣) الحزر: التقدير. (٤) جال :طاف.
(٥) البلايا : جمع بلية ، وهى الناقة التى أبلاها السفر . (٦) النواضح : الإبل التى يستقى عليها ، واحدها ناضح .

يَثْرِبَ تحملُ الموتَ النَّاقِع[1]، قومٌ ليس معهم مَنَعَةٌ ولا ملجأ إلّا سيوفهم ، والله ما أرى أن يُقْتَلَ رجلٌ منهم حتى يَقْتُلَ رجلا منكم ؛ فإذا أصابوا منكم أعداءَهم فما خَيْرُ العَيْشِ بعد ذلك ! فرَوْا رَأْيَكُمْ .

فلمّا سمع ذلك حكيمُ بن حِزَام مشى في الناس حتى أتى عُتْبَةَ بنَ ربيعة ، فقال : ياأبا الوليد ؛ إنّك كبيرُ قريش وسيّدُها والمطاعُ فيها ، فهل لك إلى خير تُذْكَرُ به إلى آخر الدهر ؟ قال : وما ذاكَ ياحكيم ؟ قال : ترجعُ بالناس وتَحْمِل أَمْرَ حليفك عَمْرو بن الحضْرَمى[2] . قال : قد فعلت . أنتَ علىَّ بذلك ، إنما هو حليفى فعلىَّ عَقْلُه[3] وما أُصِيبَ من ماله . فأْتِ أبا جَهْل ، فإنى أَخْشَى على أَمْرِ الناس منه .

ثم قام عُتبة بن ربيعة خطيبا ، فقال : يامَعْشَرَ قريش ؛ إنكم واللهِ ماتصنعون بأن تَلْقَوْا محمّداً وأصْحَابَه شيئًا ، والله لئن أَصَبْتُمُوه لايزال الرجلُ ينظرُ فى وَجْهِ رجل يكره النظرَ إليه ؛ لأنه قتل ابْنَ عمه أو ابنَ خاله ، أو رجلا من عشيرته ، فارجعوا وخلُّوا بين محمد وسائر العرب ، فإن أصابوه فذاكَ الذى أردتُم ، وإن كان غير ذلك أَلْفَاكُم قد سالمتموه .

وانطلق حكيمٌ يَؤُمُّ[4] أبا جَهْل ، فوجده قد نَثَلَ[5] دِرْعاً له من جِرَابِها فهو يهَيِّئُها ، فقال له : ياأبا الحكم ؛ إنّ عُتْبَةَ أرسلنى إليك بكذا وكذا . . . . فقال : انْتَفَخَ وَاللهِ سَحْرُه[6] حين رأى محمداً وأصحابه ! كلاّ والله لا نَرْجِعُ حتى يحكمَ الله بيننا وبين محمد ، وما بِعُتْبَةَ ماقال ، ولكنّه قد رأى أنّ محمداً وأصحابه أَكَلَةُ جَزْور[7] وفيهم ابنه ، فتخوّفكم عليه .

---

(١) موت ناقع : دائم . (٢) هو الذى قتل فى سرية عبد الله بن جحش .
(٣) العقل : الدية . (٤) يؤم : يقصد . (٥) نثل درعا : ألقاها عنه ، وأخرجها
(٦) السحر : الرئة وما حولها ، وهو كناية عن شدة الخوف وتمكن الفزع .
(٧) أى عددهم قليل .

ثم بعث إلى عامِر بن الحضْرَمى فقال : هذا حليفُكَ يريدُ أَنْ يرجعَ بالناس ، وقد رأيتَ ثأْرَكَ بعَيْنِك ، فقُم فانشُد خُفرَتَك(١) ومَقْتَل أخيك .

فقام عامر بن الحضْرَمىّ فصَرَخَ : واعمْرَاه ! فحميَت الحربُ ، وحَقِب(٢) أمرُ الناس ، واسْتَوْسَقُوا(٣) على ماهم عليه من الشرّ ، وأُفْسِدَ على الناس الرأْىُ الذى دعاهم إليه عُتْبَة .

فلما بلغ عُتْبَةَ قولُ أبى جهل : انْتَفَخ واللهِ سَحْرُه ــ قال : سَيَعْلَمُ من انتفخ سَحْرُه ، أنا أم هو !

***

ثم خرج الأَسْوَد بن عبد الأسد المخزومىّ ــ وكان رجلا شَرِساً سيء الخُلُق ــ فقال : أعاهدُ الله لأشربنّ من حَوْضهم ، أو لأَهْدِمَنَّه ، أو لأموتَنَّ دونه .

ولمّا رآه المسلمون خرج إليه حمزةُ بنُ عبد المطاب ، فلما الْتقَيا ضربَهُ حَمْزَةُ فأطنّ(٤) قدمَه بنصْفِ ساقه ، وهو دون الحوض ، فوقع على ظهره تشخُب(٥) رِجْله دماً ؛ ثم حبَا إلى الحوض حتى اقتحم فيه ، يريد أن يُبِرّ(٦) يَمينه ، واتّبعه حمزة فضربه حتى قتله فى الحوض .

ثم خرج بعده عُتْبة بن ربيعة بين أخيه شَيْبَة ، وابنه الوليد ، حتى إذا فَصَل(٧) من الصَّفِّ دعا إلى المبارزة ، فخرج إليه فِتْيَةٌ من الأنصار ثلاثة ، فقال : من أنتم ؟ قالوا : رَهْط من الأنصار . قال : ما لنا بكم من حاجة . ثم نادى منادٍ : يا محمد ؛ أَخْرِج إلينا أكْفاءَنا من قومنا . فقال رسول الله : قُمْ يا عُبَيْدة بن الحارث ، قم يا علىّ .

---

(١) خفرتك ، أى عهدك . (٢) حقب أمر الناس : اشتد . (٣) استوسقوا : اجتمعوا .
(٤) أطن قدمه : قطعها . (٥) تشخب : تسيل . (٦) أبر يمينه : أمضاها على الصدق .
(٧) فصل من الصف : خرج منه .

فلما قاموا ودنَوْا منهم قالوا : مَنْ أنتم ؟ قال عُبيدة : أنا عُبيدة . وقال حمزة : أنا حمْزة . وقال علىّ : أنا علىّ . فقالوا : نعم ، أَكْفاءٌ كِرَام .

وبارز عُبَيدةُ — وكان أسنَّ القوم — عتبةَ بن ربيعة ، وبارز حمزةُ شيبةَ بن ربيعة ، وبارز علىٌّ الوليدَ بن عتبة .

فأما حمزة فلم يُمهِل شيبةَ أنْ قتله ، وأما علىّ فلم يمهل الوليدَ أن قتله ، واختلف عبيدة وعُتْبة بينهما ضربتين ، كلاهما أثبت[1] صاحبَه . وكرّ حمزة وعلىّ بأسيافهما على عُتبة ، فذَفَّفا[2] عليه ، واحتملا صاحبهما عُبيدة فجاءا به إلى أصحابه ، وقد قُطعت رِجْله ، فمخها يسيل ، فلما أتوْا به رسول الله قال : ألستُ شهيدا يارسول الله ؟ قال : بلى .

ثم تزاحف الناسُ ، ودنا بعضهم من بعض ، وأمر رسولُ الله أصحابه ألّا يحملوا حتى يأمرَهم ، وقال : إن اكْتَنَفَكُم[3] القوم فانْضَحُوهم[4] عنكم بالنَّبْلِ[5] .

وخرج رسولُ الله يُعَدِّلُ صفوفَ أصحابه ، وفى يده قِدْح[6] يُعدِّل به القوم ، فمرَّ بسَوَّاد بن غَزِيَّة ، وهو مستَنْتِلٌ[7] من الصَّفِّ ، فطعن فى بطنه بالقِدْح ، وقال : استَوِ ياسوَّاد . فقال : يا رسولَ الله ، أَوْجَعْتَنى ، وقد بعثَك اللهُ بالحقّ والعَدْلِ ، فأَقِدْنى[8] . فكشف رسولُ الله عن بطنِه وقال : استقِدْ . فاعتنق سوَّاد رسولَ الله وقبَّل بطنَه . فقال النبىّ : ما حملكَ على هذا يا سَوَّاد ؟ قال : يا رسولَ اللهِ ، حَضَر ما ترى ، فأردتُ أن يكون آخرَ العهد بك أن يَمَسَّ جِلدى جلدك . فدعا له الرسولُ بخير .

---

(١) أثبت صاحبه : أى عرفه . (٢) ذفف على الجريح : أجهز عليه .
(٣) اكتنفكم القوم : أحاطوا بكم . (٤) انضحوهم : ادفعوهم . (٥) النبل : السهام .
(٦) القدح : العود . (٧) مستنتل : متقدم . (٨) أقدنى : اقتص لى من نفسك .

ثم عدَّل رسولُ الله الصفوفَ ، ورجع إلى العَرِيش ، فدخله ومعه أبو بكر ، وأخذ رسولُ الله يُنَاشِد ربَّه ما وعده من النَّصْرِ ، ويقول فيما يقول : اللهم إنْ تَهْلِكْ هذه العِصَابةُ اليوم لا تُعْبَد . وأبو بكر يقول : يا نبيَّ الله ، بَعْضَ مناشدَتِكَ رَبَّك ؛ فإنَّ الله منجزٌ لك ما وعدك .

وخَفَق رسول الله خَفْقَةً(١) ، وهو فى العريش ، ثم انْتَبَه فقال : أَبْشِر يا أبا بكر ، أتاك نصرُ الله . هـذا جبريلُ آخِذٌ بعِنَان(٢) فرسٍ يقودُه على ثنايا النَّقْع(٣) . ثم خرج رسولُ الله إلى الناس فحرَّضهم وقال : والذى نَفْسُ محمدٍ بيده لا يقاتِلُهم اليوم رجل فيُقْتَل صابرا محتَسِباً ، مُقْبِلًا غيرَ مُدْبِرٍ إلَّا أَدْخَلَه الله الجنة .

فقال عُمَير بن الحُمَام ـ وفى يده تمراتٌ يأكلهنّ : بَخْ ، بَخْ(٤) ! فما بينى وبين أن أَدْخُلَ الجنة إلا أن يقتلَنى هؤلاء ! ثم قذف التمراتِ من يده ، وأخذ سيفه فقاتل حتى قُتل .

ثم أخذ رسولُ الله حَفْنَةً من الحَصْبَاءِ(٥) فاستقبل بها قريشاً ، وقالَ : شاهَتِ(٦) الوجوه ! ثم نَفَحهم(٧) بها ؛ وأمر أصحابَه أن يَشُدُّوا عليهم ، فكانت الهزيمة ، وقُتِل مَنْ قتِل مِنْ صَنَادِيد(٨) قريش ، وأُسِرَ مَنْ أُسِرَ من أشرافهم .

ووضع القومُ أيديَهم يَأْسِرُون ، ورسولُ الله فى العَرِيش ، وسعدُ بن معاذ قائم على باب العريش مُتَوَشِّحاً السيف فى نَفَرٍ من الأنصار يَحْرُسُونه ، ويخافون عليه كَرَّة العدو .

ورأى رسولُ الله الكراهة فى وَجْه سَعْد بن مُعاذ لِمَا يَصْنَعُ الناس ، فقال له :

---

(١) خفق : حرك رأسه إذا نعس . (٢) عنان : زمام . (٣) النقع : الغبار .
(٤) بخ : كلمة تقال عند الرضا والإعجاب بالشىء ، أو الفخر والمدح . (٥) الحصباء : الحصى
(٦) شاهت : قبحت . (٧) نفحهم : رماهم . (٨) الصنديد : السيد الشجاع .

والله لكأنّكَ يا سَعْدُ تَكْرَهُ ما يَصْنَعُ القوم ! قال : أجَلْ يا رسولَ الله ! كانت أولَ وَقْعَةٍ أوقعها الله بأهل الشِّرْكِ ، فكان الإثْخَانُ(١) فى القتل أحبَّ إلىّ من استبقاء الرجال .

ثم قال النبىّ لأصحابه : إنى قد عَرَفْتُ أنَّ رجالا من بنى هاشم وَغَيْرِهم قد أُخْرِجُوا كرها لا حَاجَةَ لهم بِقِتَالِنا ، فمن لَقِىَ منكم أحدا من بنى هاشم فلا يقتله ، ومن لَقِىَ أبا البَخْتَرِىّ(٢) بن هشام فلا يقتله ، ومَن لقىَ العباسَ بن عبد المطلب فلا يقتله ، فإنه إنما خرج مُسْتَكْرَها .

فقال أبو حذيفة : أنقتلُ آباءنا وأبناءنا وإخواننا وعشيرتَنا ونترك العباس ! والله لئن لقِيتُه لأُلْحِمَنَّهُ(٣) السَّيْفَ . فبلغت رسول الله مقالتُه ، فقال لعمر بن الخطاب : يا أَبا حَفْص ؛ أَيُضْرَب وجْهُ عمِّ رسول الله بالسيف ! فقال عمر : يا رسولَ الله ، دَعْنى أضربْ عنق أبى حذيفة ، فوالله لقد نافق . فكان أبو حذيفة يقول : ما أنا بآمنٍ من تلك الكلمة التى قلْتُ يومئذ ، ولا أَزَالُ منها خائفا إلّا أنْ تكفِّرَها عنِّى الشهادة(٤) .

ورأى أميّةُ بن خلَف عبدَ الرحمن بن عوف ، ومعه أدْرَاعٌ له قد استلَبها ، فقال له : هل لك فِى أنْ تَأْسِرَنى ؟ فأنا خيرٌ لك من هذه الأدراع التى معك ! فطرح الأدراعَ من يده ، وأخذ بيده ويَدِ ابنه ومشى بهما .

وسار عبدُ الرحمن بن عوف بين أميّة وبين ابنه ، فقال له أميّة : من منكم المُعْلَمُ

(١) أثخن فى العدو : بالغ الجراحة فيهم ، وأثخن فى الأرض قتلا : إذا أكثره .

(٢) إنما نهى الرسول عن قتل أبى البخترى لأنه كان أكف الناس عن رسول الله وهو بمكة ، وكان لا يؤذيه ، ولا يبلغه عنه شيء يكرهه ، وكان ممن قام بنقض الصحيفة التى كتبت على بنى هاشم وبنى المطلب . (٣) ألحمتك عرض فلان : إذا أمكنتك منه تشتمه . وألحمته سيفى : مكنته منه . (٤) قتل يوم اليمامة شهيدا .

بريشةِ نعامةٍ فى صدرِه ؟ قال : ذاكَ حمزةُ بنُ عبد المطلب . قال : ذاكَ الذى فعل بنا الأفاعيل !

ورآه بلال[١] ، وهو يقودُها ، فقال : رأسُ الكُفْر أميةُ بن خَلَف ! لا نَجَوْتُ إن نجَا ، فقال عبد الرحمن بن عوف : يا بلال ؛ إنه أسيرى . قال بلال : لا نجوتُ إن نجا . قال عبد الرحمن : أتسمع يابن السَّوْدَاء ! قال : لا نجوْتُ إن نجا . ثم صرخ بأعلى صوته : يا أنصار الله ؛ رأسُ الكفر أمية بن خَلَف ، لا نجوت إن نجا ! فأَحاطوا بهم ، حتى جعلوهم فى مثل المَسَكَة[٢] ، وعبد الرحمن يَذُبُّ عنه .

فضرب رَجُلٌ ابنَ أمية فخرَّ صريعا ، وصاح أميّة صيحةً شديدة ، فقال له عبد الرحمن : انجُ بنفسك ولا نجَاء ! فوالله ما أُغنى عنك شيئًا ؛ فهبَرُوها[٣] بأسيافهم حتى فرغوا منهما[٤] .

ولما فرغ رسولُ الله من عَدُوِّه أمر أن يُلْتَمس أبو جهل فى القَتْلى ، وقال : انظروا — إن خفِىَ عليكم فى القتلى — إلى أثَر جرح فى ركبته ، فإنى ازدحمتُ يوما أنا وهو على مَأْدُبة لعبد الله بن جُدْعَان ، ونحْنُ غلامان ، وكنتُ أشَفَّ[٥] منه بيسيرٍ فدفعته ، فوقع على ركبتيه ، فجُحِش[٦] فى إحداهما جَحْشاً لم يزل أثرُه به .

ومرّ عبد الله بن مسعود فوجده بآخر رَمَقٍ فعرفه ، فوضع رِجله على عنقه ، وقال له : هل أخْزَاك الله يا عدوَّ الله ! قال : وبماذا أخزَانى ؟ أعْمَد[٧] من رَجلٍ قتلتموه ! أخبرْنى لِمَن الدائرةُ اليوم ؟ قال : للهِ ولرسوله . ثم قال له : لقد ارتقيتَ

---

(١) كان أمية يضرب بلالا بمكة ليترك الإسلام .

(٢) المسكة : السوار والخلخال . (٣) هبروها : قطعوا لحمها . (٤) كان عبد الرحمن يقول : يرحم الله بلالا ، ذهبت أدراعى ، وفجعنى بأسيرى .

(٥) أشف منه : أكبر منه . (٦) جحش : خدش . (٧) أعمد : أعجب .

مُرْتَقًى صعبا يا رُوَيْعِيَ الغنم ! ثم احتزَّ رَأْسه ، وجاء به إلى رسولِ الله ، وقال : هذا رأسُ عدوّ الله أبي جهل .

وأمر رسولُ الله بالقتلى أن يُطْرَحوا فى القَليب ، فأُلْقُوا فيه ، ولمَّا سُحِب عُتْبَة بن ربيعة إلى القَلِيب نظر رسولُ الله فى وَجهِ أبى حذيفة بن عتبة فإذا هو كئيبٌ قد تغيَّر لَوْنه ، فقال : يا أبا حذيفة ؛ لعلك قد دخلك من شأنِ أبيك شىء ؟ فقال : لا والله يا رسولَ الله ، ما شككت فى أبى ولا فى مصْرَعِه ، ولكنى كنْتُ أعرِفُ من أبى رأياً وحِلْماً وفَضْلا ، فكنتُ أرجو أن يهدِيَهُ ذلك إلى الإسلام ، فلما رأيتُ ما أصابه ، وذكرتُ ما مات عليه من الكفر ، بعد الذى كنتُ أرجو له أحزَنَنى ذلك . فدعا له الرسولُ بخير.

ولما صار القتلى فى القَليب وقف عليهم رسولُ الله، فقال : يَأَهلَ القَلِيب ، هل وجدتُم ما وعدكم ربُّكم حقّا ؟ فإنى وجدتُ ما وعدنى ربى حقا . فقال أصحابه : يا رسولَ الله ؛ أتُكلِّمُ قوما موْتى ؟ قال : ما أنتم بأسْمَعَ لما أقولُ منهم ، ولكنهم لا يستطيعون أن يجيبونى . ثم قال : يا أهلَ القلِيب ؛ بئس عشيرة النبىّ كنتم لنبيّكم ! كذَّبتمونى وصدَّقنى الناس ، وأخرجتمونى وآوَانِى الناس ، وقاتلتمونى ونصَرَنى الناس .

* * *

ثم أمر الرسولُ بجمع ما فى العَسكر من الغنائم ، واختلف المسلمون فيه ، فقال مَنْ جمعُوه : هو لنا . وقال الذين كانوا يقاتِلون العدوّ ويَطْلُبونه : نحن شَغَلْنا عنكم العدوَّ حتى أصَبْتُمُوه . وقال الذين كانوا يحرُسون رسولَ الله : والله ما أنتم بأحق به منا ، لقد رأينا أن نقتلَ العدوَّ إذ منَحَنَا الله أكتافهم ، ولقد رأينا أن نأخذَ

المتاعَ حين لم يكن دونه مَن يمنعه ، ولكنّا خِفْنا على رسولِ الله كرَّةَ العدوّ فقمْنا دونه ، فما أنتم بأحقَّ به منا !.

ولكنَّ رسولَ الله أمر الناس أن يَرُدُّوا مابأيديهم من النَّفَل[١] ؛ ثم بعث منْ يبشِّرُ أهلَ المدينة بما فتح الله عليه وعلى المسلمين .

وسار قَافِلاً إلى المدينة ، ومعه الأسارَى من المشركين ، والنَّفَلُ الذى جمعوه حتى إذا كان ببعض الطريق[٢] قسّم النَّفل على المسلمين على السواء .

ثم ارتحل حتى إذا كان بالرَّوْحاء[٣] لقِيَه المسلمون يهنِّئُونه بما فتح الله عليه وعلى مَنْ معه من المسلمين ، فقال لهم سلمة بن سلامة : ما الذى تهنِّئُوننا به ! فوالله إن لقينا إلا عجائزَ صُلْعاً كالبُدْن[٤] المعقَّلة فنحرناها ، فتبسّم رسول الله ، ثم قال : يابْنَ أخى ، أولئك الملأ[٥] .

ثم مضى رسول الله حتى قدم المدينة قبل الأسرى بيوم .

ولما جِئَ بالأسرى فرَّقهُم رسول الله بين أصحابه ، وقال : استَوْصُوا بالأسارى خيرا.

وجمع أصحابَه ثم قال : ماتقولون فى هؤلاء الأسرى ؟ فقال أبو بكر : يارسولَ الله، قومُك وأهلُك ، استَبْقِهم واستأْنِ بِهم[٦] ، لعلَّ الله أن يتوبَ عليهم . وقال عُمَر : يارسولَ الله ؛ كذّبوك وأخرجُوك ، قدِّمْهُم واضْرِبْ أعناقهم : وقال عبد الله بن رَوَاحة : يارسولَ الله ؛ انظر وادِياً كثيرَ الحطَبِ فأدْخِلْهم فيه ، ثم أضْرِمْه عليهم نارا . فقال له العباس : قطعَتْكَ رَحِمُك ! وسكت رسولُ الله فلم يُجبهم ، ثم دخل .

---

(١) النفل: الغنيمة . (٢) نزل النبى بمضيق الصفراء على كثيب قسم فيه النفل .

(٣) الروحاء : موضع بين الحرمين على ثلاثين أو أربعين ميلا من المدينة. (٤) البدن : جمع بدنة ، والبدنة من الإبل والبقر ، كالأضحية من الغنم تهدى إلى مكة ، تطلق على الذكر والأنثى .

(٥) الملأ : الأشراف . (٦) استأنى به : انتظر وتربص ولم يعجل .

فقال ناس : يأخذُ بقولِ أبى بكر . وقال ناس : يأخـذُ بقَوْلِ عُمر . وقال ناس : يأْخذ بقول عبد الله بن رَوَاحة . ثم خرج عليهم رسول الله فقال : إن الله عزّ وجلّ ليُلِينُ قلوبَ رجالٍ فيه ، حتى تـكونَ ألين من اللبن ، وإن الله ليشدِّد قلوبَ رجالٍ فيه حتى تـكونَ أشدَّ من الحجارة ؛ وإنّ مثلَك ياأبا بكر مثلُ إبراهيم قال : ﴿فمَنْ تبِعنى فإنه منِّى ومَنْ عصانى فإنك غفورٌ رحيم﴾ . ومثلك مثلُ عيسى ، قال : ﴿إن تعذِّبهم فإنهم عبادُك ، وإن تغفرْ لهم فإنك أنتَ العزيز الحكيم﴾. ومثلُك ياعمر مثلُ نوح ، قال: ﴿ربِّ لاتذرْ على الأرض من الكافرين ديّاراً﴾[1] . ومثلك كمثلِ موسى،قال : ربنااطْمِس[2] على أموالهم، واشدُدْعلى قلوبهم، فلايؤمنواحتى يرَوُاالعذاب الأليم . ثم قال : أنتم اليوم عالة[3] فلا يُفلِتَنَّ منكم أحدٌ إلا بفداءٍ أو ضَرْب عُنُق.

فلما كان الغدُ غدا عُمَر على النبىّ وهو قاعد مع أبى بكر ، وإذا هما يبكيان ، فقال : يارسولَ الله ؛ أخبِرنى ماذا يبكيك أنتَ وصاحبك ؟ فإن وجدتُ بكاءً بكيت ، وإن لم أجد تباكَيْتُ[4] لبكائكما . فقال رسول الله : نَبْكى للّذى عرض علىّ أصحابُك من الفِداء ، لقد عُرِض علىّ عذابُكم أدنى من هذه الشجرة؛ وأنزَل الله عزّوجل: ﴿ مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يُثْخِنَ[5] فِي ٱلْأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْآخِرَةَ ﴾[6] .

* * *

وكان أول من قدم مكّة بعد بَدْر الحيسُمَان الخزاعىّ ، فقالوا له : ما وراءك ؟ قال : قُتِل فُلان وفلان ؛ وجعل يُعَدِّدُ أشرافَ قريش ، فقال صَفْوَان بن أُميّة : والله مايَعْقِل هذا . قال : والله قد رأيتُ أباك وأخاك حين قُتِلا .

---

(١) دياراً : أحدا . (٢) أهلكها . (٣) عالة : نتكفل بكم . (٤) التباكى : تكلف البكاء . (٥) يثخن : حتى يبالغ فى قتل أعدائه . (٦) سورة الأنفال ، آية ٦٧ .

ثم أقبل من بعده أبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب ، فقال له أبو لَهَب : هلمَّ إلىّ ، فعندك ـ لعمْرى ـ الخبَر . فجلس إليه . والناسُ قيامٌ عليه ، فقال له : يابْنَ أخى ؛ أَخْبِرنى كيف كان أمرُ الناس ؟ قال : واللهِ ما هو إلا أنْ لَقِينا القومَ فمنحناهم أكتافَنا يقتلوننا كيف شاءوا ، ويأْسِرُوننا كيف شاءوا . وَايْمُ الله ما لُمْتُ الناس ، لقــد لقينا رِجالا بِيضاً على خَيْل بُلْقٍ بين السماء والأرض ، والله ما تُليقُ شيئاً[1] ، ولا يَقُومُ لها شىء .

ونَاحَتْ قريشٌ على قتْلَاها ، ثم قالوا : لاتفعلوا ؛ فيبلغَ محمداً وأصحابه فيَشْمَتُوا بكم ، ولا تبعثُوا فى أسْرَاكم حتى لا يشتدُّوا فى الفِدَاء .

وكان الأسودُ بنُ المطلب قد أُصيب له ثلاثة من ولده[2] ، وكان يحبّ أن يبكى على بَنِيه ، فبينما هو كذلك إذ سمع نائحةً من الليــل ، فقال لغلامٍ له وقد ذهب بصَرُه : انظر ، هل أُحِلَّ النَّحِيبُ ؟ هل بكَتْ قريش على قتْلَاها ؟ لعلِّى أبكى ، فإنّ جوفى قد احترق ! فلما رجع إليه الغلامُ قال : إنما هى امرأةٌ تبكى على بعير لها أضلّتْه ، فقال :

أَتبْـكى أنْ يَضِلَّ لها بعــيرٌ ... ويمنعُها من النوم السهودُ !
فلا تبكى على بَـكْرٍ ولـكنْ ... على بَدْرٍ تقاصرتِ الجدودُ[3]
على بَدْرٍ سَرَاة بنى هُصَيص ... ومَخْزُومٍ ورَهْط أبى الوليد
وبَـكِّى إنْ بكَيْتِ على عَقِيل ... وبَـكِّى حارثاً أَسَدَ الأُسُودِ
وبَـكِّيهم ولا تَسِمِى جميعا ... وما لِأَبى حَلِيمَةَ من نَدِيدِ[4]
ألَا قدْ ساد بعــدَهُمُ رجالٌ ... ولولا يومُ بدْر لم يَسُودُوا[5]

---

(١) ما تليق شيئا : ما تمسك أو ما تبق شيئاً . (٢) زمعة ، وعقيل ، والحارث بن زمعة.
(٣) البـكر : الفتى من الإبل . (٤) لا تسمى : لا تسأمى والنديد : الشبيه والمثيل .
(٥) فى البيت إقواء ، وهو اختلاف حركة الروى .

ثم بعثت قريشٌ فى فِدَاءِ الأسرى ، فقدم مِكْرَزُ بن حَفص فى فداء سُهَيل بن عمرو ، وقاوَلهُم فيه ، فلما انتهى إلى رضاهم قالوا : هاتِ الذى لنا . قال : اجعلوا رِجْلى مكانَ رِجْله ، وخَلُّوا سبيلَه حتى يبعثَ إليكم بفدائه . فخلّوا سبيل سهيل ، وحبسوا مِكْرزاً مكانه عندهم ، فقال مِكْرَز :

فَدَيْتُ بأَذْوَادٍ ثمانٍ سِبَاً فَتًى ... ينالُ الصميمَ غُرْمُها لا المَوَالِيَا[1]
رهنْتُ يَدِى، والمالُ أيسَرُ من يَدِى ... عَلَىَّ ، ولكنّى خَشِيتُ المخازِيا
وقلت : سهيلٌ خَيْرُنا فاذهبوا به ... لأَبنَائنا حتى نُدِيرَ الأَمانيا

وبَعَثَتْ زينبُ بنتُ رسول الله فى فداء أبى العاص بن الربيع[2] بمال ، وبعثت فيه بِقِلَادَةٍ لها كانت خديجةُ أدخلتها بها على أبى العاص حين بَنَى عَلَيْها ، فلما رآها رسول الله رقّ لها رِقَّةً شديدة وقال : إن رأيتم أن تُطْلِقُوا لها أسيرَها ، وتردُّوا عليها مالها فافعلوا ! فقالوا : نعم يا رسولَ الله ، فَأَطْلَقُوه وردُّوا عليها الّذى لها .

وكان أبو عَزّة الجُمَحِىّ رجلا محتاجا ، فقال : يا رسولَ الله ؛ لقد عرفتَ مَا لِيَ من مالٍ ، وإنى لَذُو حاجَةٍ وعِيَال ، فامنُنْ علىّ ، فمَنَّ عليه الرسول ، وأخذ عليه ألّا يُظَاهِرَ[3] عليه أحدا .

وكان فداء المشركين يومئذ نحو أَرْبَعَةِ آلاف دِرْهم ، إلَّا مَنْ لا مَالَ له ، فقد مَنَّ عليهم النبيّ صلى الله عليه وسلم .

وجلس عمير بن وَهْب الُجمَحِىّ مع صَفْوان بن أُمَيّة ، وتذكرا قَتْلَى بدر ، فقال صَفْوَان : والله ما فى العيش بعدهم خَيْر . فقال له عمير : صدقتَ والله ! أما والله

---

(١) الأذواد : جمع ذود ، وهو من الإبل ما بين الثلاث إلى العشر . الصميم : الخالص النسب.
(٢) كان زوجها ، وكانت خديجة خالته . (٣) لا يظاهر : لا يعين عليه أحداً .

لولا دَيْنٌ عليّ ليس عندى له قضَاء ، وعِيالٌ أَخْشَى عليهم الضَّيْمَةَ بعدى لركبت إلى محمد حتى أقتله ؛ فإنَّ لى قِبلَهُمْ عِلَّةً : ابنى أَسِيرٌ فى أيديهم .

فاغتنمها صَفْوَان ، وقال له : علىَّ دَيْنُك ، أنا أَقْضِيه عنك ، وعيالُك مع عيالى أُواسِيهم ما بَقُوا . قال عُمير : فاكْتُمْ شَأْنى وشَأْنَك . قال : أفعل .

ثم أمر عُمير بسيفهِ فشُحِذ له وسُمَّ ، وانطلق حتى قدم به المدينة .

فبينا عُمر بن الخطاب رضى الله عنه فى نَفَرٍ من المسلمين يتحدّثون عن يوم بَدْرٍ ، ويَذْكُرُون ما أكرمهم اللهُ به ، إذ نظر عُمر فرأى عميرَ بْنَ وَهْب حين أناخ على باب المسجد متوشِّحاً السيف ، فقال : هذا الكلبُ عدوّ الله ، ما جاء إلا لشرّ .

ثم دخل على رسول الله فقال : يا نبيّ الله ؛ هذا عميرُ بنُ وَهْب قد جاء متوشِّحاً سَيْفَه . قال : فأَدخله علىّ . فأقبل عمر حتى أخذ بحِمَالَة[1] سيفه فى عُنقه ، فلبَّبه[2] بها ، وقال لرجالٍ ممَّنْ كانوا معه من الأنْصَار : ادخُلوا على رسولِ الله فاجْلِسُوا عنده ، واحذَروا عليه من هذا الخبيث ؛ فإنه غيرُ مَأْمُون .

ودخل به على رسول الله ، فلما رآه قال : أَرْسِلْهُ يا عُمر ، ادْنُ يا عُمَيْر ؛ فدنا ، ثم قال له : ما جاء بك يا عُمَيْر ؟ قال : جئتُ لهذا الأسير الذى فى أيديكم فأَحْسِنُوا فيه . قال : فما بالُ السيفِ فى عُنُقِك ؟ قال : قبَّحَها اللهُ من سُيُوفٍ ، وهل أغنَتْ عنّا شيئاً ؟ قال : اصْدُقنى ما الذى جئتَ به ؟ قال : ما جئتُ إلّا لذلك . قال : بل قَعَدْتَ أنتَ وصفوان بن أُمَيّة فى الحِجْرِ فذكرتما أصحابَ القَلِيبِ من قُرَيْشٍ ، ثم قلتَ : لولا دَيْنٌ علىَّ وعِيَالٌ عندى لخرجتُ حتى أَقْتُلَ محمداً ، فتحمَّل لك

---

(١) حمالة السيف : ما يعلق به .

(٢) لببه بها : جعلها فى عنقه وجره بها .

صَفْوَان بن أُمية بِدَيْنِكَ وعِيَالِكَ على أن تَقْتُلَنى له ، واللهُ حَائِلٌ بينك وبينَ ذلك .

قال عُمَيْر : أشهدُ أنكَ رسولُ الله ؛ قد كنا نُكَذِّبُكَ بما كُنْتَ تأتينا به من خَبَرِ السماء وما ينزلُ عليك من الوَحْىِ ، وهذا أمرٌ لم يَحْضُرْهُ إلّا أنا وصَفْوَان ، فوالله إنى لأَعْلَمُ ما أَتَاكَ به إلّا الله ؛ فالحمدُ لله الذى هَدانى للإسلام وسَاقَنى هذا المَسَاق .

فقال رسول الله : فَقِّهُوا أخاكم فى دِينه ، وأَقْرِئُوهُ القرآنَ ، وأَطْلِقُوا له أسيرَه . ففعلوا ثم قال : يا رسول الله ؛ إنى كنتُ جاهداً على إطفاء نُورِ الله ، شديدَ الأَذَى لِمَنْ كان على دِينِ الله ، والآن أحبُّ أَنْ تأذنَ لى فأقدم إلى مكةَ فأدعوَهم إلى اللهِ تعالى ، وإلى رسوله ، وإلى الإسلام ، لعلَّ الله يهديهم ، وإلّا آذَيْتُهُمْ فى دينهم كما كنتُ أُوذِى أصحابكَ فى دِينهم . فأذن له رسولُ الله فلحق بمكةَ ، ولما قابله صَفْوَان حلف أَلّا يُكَلِّمَهُ أبداً ، ثم أقام بمكةَ يَدْعُو إلى الإسلام ويُؤْذِى مَنْ خَالَفه أذًى شديداً ، فأسلم على يده نَاسٌ كثيرٌ(١) .

---

(١) لما انقضى أمر بدر أنزل الله سورة الأنفال بأسرها . وارجع إلى ابن هشام : ٢ـ٢٦٨

٢ — يوم أُحُد (*)

لما أصيبت قُريش يومَ بَدْر (١) ، ورجع فَلُّهم (٢) إلى مكّة ، وعاد أبو سفيان بِعِيرِه ، مشى عبدُ الله بن أبى ربيعة ، وعِكْرِمَة بن أبى جهل ، وصَفْوان بن أميَّة فى رجالٍ من قريش ممن أُصيب آباؤُهم وأبناؤهم وإخوتهم يوم بَدْر ، فكلّمُوا أبا سفيان ومَنْ كانت لهم فى تلك العِير تجارة ، فقالوا : يا معشر قريش ؛ إن محمداً قد وتَرَكُم (٣) ، وقتَل خِيارَكم ، فأعينونا بهذا المال على حَرْبِه ، فَلعلّنَا نُدْرِكُ منه ثأرنا بمَنْ أصاب منا ، ففعلوا ، واجتمعت قريشٌ ومَنْ أطاعها من قبائل كنانة وأهل تِهامة لحربِ رسولِ الله .

وبعثَتْ قُرَيش الشعراءَ لِيُثِيرُوا قبائلَ العرب ويجمعوهم حولَهم ، وأغرَوْهم بالمال مرَّة ، ومَنَّوْهم الأمانىّ مرةً أخرى ؛ فهذا أبو عَزَّة الجُمَحىّ قد منَّ عليه رسولُ الله يوم بَدْر ، إذ كان فقيراً ذا عِيَال وحاجة ، وكان فى الأسارى ، فقال : يا رسولَ الله ؛ إنى فقيرٌ وذو عِيَال وحاجة قد عرَفْتَها ، فامْنُنْ علىّ . فمنَّ عليه الرسول . هذا أبو عزّة يقول له صَفْوان بن أمية : يا أبا عزَّة ، إنك امرؤ شاعر فأعِنَّا بلسانك واخرج معنا ، فقال : إن محمداً قد مَنَّ علىّ ، فلا أريد أن أظاهِرَ (٤)

---

* سيرة ابن هشام : ٣ — ٣ ، تاريخ الطبرى : ٣ — ٩ ، وكان هذا اليوم فى السنة الثالثة من الهجرة . وأحد : جبل تلقاء المدينة .

(١) بعد غزوة بدر لم يقم رسول الله بالمدينة إلا سبع ليال ، ثم غزا بنى سليم، فبلغ ماء من مياههم يقال له « الكدر » فأقام عليه ثلاثاً ، ثم رجع إلى المدينة ولم يلق حرباً . ثم كانت غزوة السويق — وكان أبو سفيان قد نذر حين رجع من مكة أن لا يمس رأسه ماء من جنابة حتى يغزو محمداً — فخرج فى مائتى راكب من قريش ليبر بيمينه ، ولكنه لم يلتق بالمسلمين فى حرب ، إذ خرج النبى فى طلبهم ففاتوه . (٢) فلهم: المنهزمون منهم . (٣) وتركم: جعل لكم عنده ثأراً .

(٤) أظاهر : أعين وأساعد .

عليه . قال : فأعِنَّا بنفسك ، فلكَ علىّ إن رجعتَ أن أعينَك ، وإن أُصِبْتَ أن أجعلَ بناتك مع بناتى ، يُصيبهنَّ ما أصابهنَّ من عُسْر ويُسْر . فخرج أبو عزّة يسيرُ فى تِهامة ، ويدعو بنى كِنانة ويقول :

أيَا بنى عبدِ مَنَاةَ(١) الرُّزَّامْ(٢) أنتمْ حُمَاةٌ وأبُوكمُ حَامْ
لا تَعِدُونى نصْرَكم بعدَ العامْ لا تُسْلِمُونى لا يحلّ إسلام

وخرج مُسَافع بن عبد مناف إلى بنى مالك بن كنانة يحرِّضهم ويدعوهم إلى حَرْبِ رسولِ الله ، فقال نحوا مما قاله أبوعَزّة ، ودعا جُبَير بن مُطْعِم غلاماً له حبشيًّا ، يقال له وَحْشِىّ يقذف بِحَرْبةٍ له قَذْفَ الحبشة ، قلّما يُخطِىء بها ، فقال له : اخْرُج مع الناس ، فإن أنتَ قتلتَ حَمْزَة بعمِّى(٣) فأنت عتيق .

وخرجت قُريش ، بأَحَابيشها(٤) ، ومَنْ تبعها منْ بنى كِنَانة وأهْل تِهامة ، وخرجُوا معهم بالظُّعُن(٥) التماسَ الحفيظةِ ولئلا يفرُّوا .

وخرج أبو سفيان بن حَرْب — وهو قائدُ الناس — بهنْد بنت عُتْبَة ، وخرج عِكْرِمة بن أبى جهل بأمِّ حكيم بنت الحارث ، وخرج الحارث بن هشام بفاطمة بنت الوليد ، وكذلك غيرهم .

وأقبلوا جميعا حتى نزلوا بعَيْنَيْن(٦) فى جبل ببطْن السَّبْخَة على شَفِير(٧) الوادى مما يَلى المدينة .

فلما سمع بهم رسولُ الله المسلمون ، وعرفوا أنهم نزلوا حيثُ نزلوا قال النبىُّ للمسلمين : إنى رأيتُ والله خَيْراً ، رأيتُ بقراً تُذْبَح ، ورأيت فى ذُبَابِ سيفى

(١) فى اللسان : بنى عبد مناف . (٢) الرزام : جمع رازم : من رزم الرجل على قرنه إذا برك عليه . (٣) كان عمه طعيمة قتل يوم بدر.
(٤) الأحابيش : هم القبائل الذين حالفوا قريشاً وهم تحت جبل يسمى حبشيا ، فسموا بذلك .
(٥) الظعن : جمع ظعينة وهى المرأة ما دامت فى الهودج . (٦) عينين — بكسر العين وفتحها : جبل بأحد . (٧) شفير : ناحية .

ثَلْمًا[١]. ورأيتُ أنى أَدخلتُ يَدِى فى دِرْعٍ حصينة ؛ فأوَّلتُهَا المدينة[٢] ؛ فإن رأيتم أن تُقيموا بالمدينة وتَدَعوهم حيثُ نزلوا ، فإن أقامُوا أقاموا بشرِّ مُقام ، وإنْ همْ دخلوا علينا قاتَلْنَاهم فيها .

فقال رجالٌ من المسلمين : يارسولَ اللهِ ؛ اخْرُجْ بنا إلى أعدائنا لايَرَوْن أنَّا جَبُنَّا عنهم وضَعُفْنا . فقال عبدُ الله بن أُبىّ : يارسولَ الله ؛ أَقِمْ بالمدينة ولا تَخْرُجْ إليهم ، فوالله ماخرجْنا منها إلى عَدُوٍّ لنا قطّ إلا أصابَ مِنَّا ، ولا دَخَلها علينا عدوٌّ إلا أَصَبْنَا منه . فدَعْهُم يارسولَ الله ، فإنْ أقاموا أقاموا بشرٍّ مَحْبِس ، وإن دخلوا قاتلهم الرجالُ فى وجوههم ، ورماهم النساء والصبيانُ بالحجارة من فوقهم ؛ وإن رجعوا رجعوا خائبين كما جاءوا .

ولكن بعضَ المسلمين ـ ممَّنْ أحبُّوا لقاءَ قُرَيش ـ مازالو برسولِ الله حتى دخل بيتَه ، فَلَبِس لَأْمَتَه[٣] ، ثم خرج . فلما رأَوْه قد لبس السِّلَاحَ ندموا ، وقالوا : بِئْسَ ماصنَعْنا ! استكرهْنَا رسولَ الله ، ولم يَكُنْ ذلك لنا ، أُشير على النبي والوحْىُ يَأْتِيه !

وقاموا فاعتَذَرُوا إليه وقالوا : اصنَعْ مارأيت ، فقال رسولُ الله : ماينبغى لنبىٍّ إذا لَبِسَ لَأْمَتَه أن يضعَها حتى يُقاتلَ .

واستعمل رسولُ الله بالمدينة ابنَ أمِّ مَكْتُوم ، يُصلِّى بالناس ، وخرج فى أَلْفٍ من أصحابه ، حتى إذا كان بالشَّوْط ـ بين أُحُدٍ والمدينة ـ انْخَزَلَ عنه عبد الله ابن أُبىّ بثُلُثِ الناس وقال : أطاعهم فخرج وعصانى ، والله ماندْرِى عَلَامَ نقتُلُ أنفسَنا هاهنا أيُّهَا الناس !

---

(١) ذباب السيف : حده أو طرفه . ثلم السيف : كسر حرفه . (٢) حدث بعضهم أن رسول الله قال : فأما البقر فناس من أصحابى يقتلون ، وأما الثلم الذى رأيت فى ذباب سيفى فهو رجل من من أهل بيتى يقتل . (٣) اللأمة : الدرع .

واتَّبعه عَبْدُ الله بن عَمْرو، وهو يقول له ولمن معه: ياقوم؛ أذكِّركم اللهَ! لاتخذُلوا قومَكم ونبيَّكم! قالوا : لو نعلَمُ أنكم تقَاتِلون ماأَسْلَمناكُم، ولكنا لانرَى أن يكونَ قتال، فلما استعصَوْا عليه وأبَوْا إلّا الانصرافَ قال لهم : أبْعَدَكم الله ياأعداءَ الله ! فسيُغنِي الله عنكم نبيَّه .

ولم يَثْنِ ذلك المسلمين، فسارُوا نحو هدَفِهم .

ثم قال رسولُ الله لأصحابه : مَنْ رَجُلٌ يخرجُ بنا على القوم من كَثَبٍ[1]، من طريقٍ لايمرُّ بِنَا عليهم ؟ فقال أبو خَيْثَمة : أنا يارسولَ الله . ونَفَذ بهم فى حَرّة بنى حارِثَة[2] وبَيْنَ أموالهم، حتى سلَكَ فى مالٍ لِمرْبَع بن قَيْظِيّ ـ وكان رجلا مُنَافِقاً ضَرِيراً ـ فلما سمع حِسَّ رسول الله ومَنْ معه من المسلمين قام يَحْثِى[3] التُّرابِ فى وُجوههم، ويقول : إنْ كنتَ رسولَ الله فإنى لاأُحِلُّ لكَ أَنْ تدخلَ حائطى[4]، ثم أخذ حَفْنَةً من تُرَاب فى يَدِه وقال : واللهِ لو أَعْلَم أنى لاأُصيبُ بها أحداً غيرك يامحمد لضربْتُ بها وجْهَك ؛ فابْتَدَرَه[5] القومُ ليقتلوه، فقال النبيُّ صلى الله عليه وسلم: لاتفعلوا ؛ فهذا الأعمى أعمى القلب أعمى البصر .

ومضى رسولُ الله على وَجْهه حتى نزل الشِّعْب[6] من أُحُد، فى عُدْوَة[7] الوادى إلى الجبل ، فجعل ظَهْرَه وعَسْكره إلى أُحُد، وقال : لا يُقَاتِلَنَّ أَحَدٌ منكم حتى نَأْمُرَه بقتال . وأمَّرَ عبد الله بن جُبَير على الرُّماة، وقال له : انْضَح[8] الخيلَ عنَّا بالنَّبْل لايأتونا من خَلْفِنا، وإن كانت لَنَا أو علينا فاثْبُتْ مكانَكَ ، لانُؤْتَيَنَّ مِنْ

---

(١) كثب : قرب . (٢) الحرة : أرض ذات حجارة نخرة سود . (٣) حثىا التراب يحثوه ، ويحثيه : رماه . (٤) الحائط : البستان . (٥) ابتدره القوم : عجلوا إليه وأسرعوا.
(٦) الشعب : الطريق فى الجبل . (٧) عدوة الوادى : شاطئه ، وهى مثلثة العين .
(٨) انضح الخيل بالنبل : رماها ليدامها ويبعدها .

قِبلِك . وظَاهرَ رسولُ الله بين دِرْعَين ، ودفع اللواءَ إلى مُصْعَب بن عُمير .

أما قريشٌ فقد عَبَّأَتْ[١] ثلاثة آلاف رجل ، معهم مائتا فَرس قد جَنَبُوها[٢] ، وجعلوا على مَيْمَنَةِ الخيل خالدَ بن الوليد ، وعلى مَيْسَرتِها عِكْرِمَةَ بن أبي جهل .

وقال أبو سفيان لأصحاب اللِّوَاءِ منْ بني عَبْدِ الدار ، يُحرِّضهم على القتال : يا بني عبد الدار ؛ إنكم قد وُلِّيتمْ لِوَاءَنَا يوم بَدْر فأصَابنَا ما قد رأيتم ؛ وإنما يُؤْتَى الناسُ منْ قِبَلِ رَايَاتِهم ، إذا زالتْ زَالُوا ، فإمّا أن تَكْفُونا لِوَاءنا ، وإما أن تُخَلُّوا بيننا وبينه . فهمُّوا به وتواعَدُوه ، وقالوا : نحن نُسْلِمُ إليك لِوَاءَنا ! ستعلمُ غداً إذا التقيْنا كيف نصنع !

والتقى الناسُ ، ودَنَا بعضهم من بَعْض ؛ فقامت هِنْد بنت عُتْبَة في النِّسْوَة اللائي معها ، وأخذْنَ الدُّفُوفَ يضْرِبْنَ بها خلفَ الرجال يحرِّضْنَهُم ، فقالت هند :

وَيهاً[٣] بني عبد الدارْ   وَيهاً حُماة الأدْبَارْ !

* ضَرْباً بكلّ بتَّارْ[٤] *

***

إن تُقْبِلُوا نُعَانِقْ   ونفْرِش النَّمَارِقْ[٥]

أوْ تُدْبِرُوا نُفَارِقْ   فِرَاقَ غَيْر وَامِقْ[٦]

وقال النبيّ صلى الله عليه وسلم : مَنْ يَأْخُذُ سيفي هذا بحقّه ؟ فقام إليه رجالٌ فأمْسكه عنهم ، حتى قام إليه أبو دُجَانة[٧] فقال : وما حَقُّهُ يا رسولَ الله ؟ قال : أَنْ تضربَ به العدوّ حتى ينْحَنِيَ . قال : أنا آخُذه بحقِّه . فأعطاه إياه . فلما أخذه من يد رسول الله أخرجَ عصابته الحمراء فعَصَب بها رَأْسَه ، وخرج وهو يقول :

---

(١) عبأ الجيش : جهزه وهيأه ورتبه للحرب . (٢) جنبوا الخيل : سيروها بجانبهم حتى إذا فتر المركوب تحولوا إلى المجنوب . (٣) إغراء . (٤) البتار : السيف القاطع .

(٥) النمارق : جمع نمرقة ، والنمرقة : الوسادة الصغيرة ، أو الطنفسة فوق الرحل .

(٦) وامق : محب . (٧) هو سماك بن خرشة .

إنّى امرؤٌ عاهَدَنى خَليلى ... ألّا أقومَ الدَّهْرَ فى الـكيُّولِ[١]

أضرب[٢] بسَيْفِ اللهِ والرَّسول ... ضربَ غُلَامٍ ماجدٍ بُهْلولِ[٣]

ثم جعل يتبخْتَرْ بين الصَّفَّيْنِ ، فقال رسولُ الله حين رآه : إنها لمِشْيَةٌ يُبْغِضها الله إلّا فى مثل هذا الموطن . وجعل أبو دُجانةَ لا يلْقَى أحداً إلّا قتَله ، حتى انتهى إلى نِسْوَةٍ فى سَفْحِ جبل ، معهنّ دُفوف لهنّ ، وفيهنّ امرأة تقول :

نحنُ بنــاتُ طارِقْ ... إن تُقْبلوا نُفَارِقْ

. . . .

فرفع السيفَ ليضربها ، ثم كفّ عنها ؛ لأنه أكرم سيفَ رسول الله أن يضربَ به امرأة .

ونظر وَحْشِىّ غلام جُبَيْر بن مُطْعم إلى حَمْزة يهدُّ الناسَ بسَيْفه ما يُبقى على شىء ، فهزّ حَرْبتَه ، ودفعها إليه فخرّ صريعا .

وقاتَلَ مُصْعَب بن عُمَيْر حتى قُتِل ، فأعطى النبىُّ اللواءَ علىَّ بن أبى طالب ، فقاتل به ، وقاتل المسلمون حتى أنزل اللهُ نصْرَه عليهم ، وصدَقَهُم وعده ؛ فهزموا المشركين ؛ وحَسُّوهم[٤] بالسيوف حتى كشفوهم عن المَعْسكر ، وأصابوا أصحاب اللواء[٥] .

ولما هُزِم المشركون ، ورآهم الذين كانوا من وراء المسلمين فى الجبَل ، قال بعضهم لبعض : هلمُّوا فأدرِكوا الغنيمَة قبل أن يَسْبقَنا إليها أحدٌ ! وتركوا أماكنهم ، فخلَّوْا ظهورَ المسلمين للخَيْل ،

---

(١) الـكيول : مؤخر الصفوف . (٢) قال فى اللسان : « سكنت الباء فى أضرب لـكثرة الحركات » ، وارجع إلى الفائق ٢ـ٣٩٤ . (٣) البهلول : السيد الجامع لـكل خير .

(٤) حسوهم : قتلوهم قتلا ذريعاً مستأصلا . (٥) لم يزل لواء المشركين صريعاً حتى أخذته عمرة بنت علقمة الحارثية ، فرفعته لقريش فاجتمعوا حوله ، وفى ذلك قال حسان :

فلولا لواء الحارثية أصبحوا ... يباعون فى الأسواق بيع الجلائب

وأُتِىَ المسلمون مِنْ خَلْفِهم ، فانكشفوا وأصاب منهم المشركون . وصرخ صَارِخٌ يقول : إن محمداً قد قُتِل ؛ فانْكَفَأَ المسلمون ، وانكفأ عليهم الكفار[١] ، وخلص العدوُّ إلى رسول الله ، فدُثَّ[٢] بالحجارة حتى وقع لِشِقِّه ؛ فأُصِيبَتْ رَبَاعِيَتُه[٣] ، وشُجَّ فى وجهه ، وكُلِمَتْ شَفَتُه[٤] ، وجعل الدمُ يسيل على وجهه ، فصار يَمْسَحُ الدم وهو يقول : كيف يُفْلِح قومٌ خَضَبُوا وَجْه نبيّهم ، وهو يَدْعُوهم إلى ربّهم[٥] !

ودخلت حَلْقَتان من حَلَق المِغْفَر[٦] فى وَجْنَتَيْه ، ووقع فى حُفْرَة ، وغَشِيَه القومُ ، فقال : مَنْ رجلٌ يَشْرِى[٧] لنا نفسه ؟ فقام زياد بن السَّكَن فى نفرٍ خمسة من الأنصار ، وقاتلوا دونَ رسولِ الله رجُلا رجُلا ، يُقْتَلون دونه ، حتى كان آخرَهم زياد ؛ فقاتل دونه حتى أثْبَتَتْهُ الجِراحة[٨] ؛ ثم فاءت فِئَةٌ من المسلمين فأَجْهَضُوهم عنه[٩] ، فقال رسولُ الله : أَدْنُوهُ منى . فأَدْنَوْه منه ، فوسَّدَه قدَمه ، ومات وخَدُّه على قَدَمِ رسول الله .

وقاتلت أمُّ عُمارة نُسَيْبَة بنت كعب ، وقد وصفت ما كان منها إذ ذاك فقالت : خرجتُ أَوَّلَ النهار ، وأنا أنظرُ ما يصنَعُ الناسُ ، ومعى سِقَاءٌ لى فيه ماء ، فانتهيتُ

---

(١) انكفأ القوم : انهزموا ، وانكفأ عليه : مال . (٢) دث بالحجارة : رمى بها .

(٣) الرباعية كثمانية : إحدى الأسنان الأربعة التى تلى الثنايا بين الثنية والناب .

(٤) الكلم : الجرح ، والشج : الشق .

(٥) كان الذى أصابه عتبة بن أبى وقاص ، وقال حسان فى ذلك :

فأخزاك ربى يا عتيب بن مالك ولقاك قبل الموت إحدى الصواعق
بسطت يميناً للنبى تعمداً فأدميت فاه قطعت بالبوارق
فهلا ذكرت الله والمنزل الذى تصير إليه عند إحدى البوائق !

البوائق : جمع بائقة ، وهى الداهية لأنها تهلك من تنزل به .

(٦) المغفر : شبيه بالدرع ، ذو حلق ، يجعل على الرأس فى الحرب .

(٧) يشرى : يبيع . (٨) أثبتته : جعلته ثابتاً فى مكانه لا يفارقه ، من شدتها .

(٩) فاءت : رجعت ، وأجهضوهم : أزالوهم

إلى رسول الله وهو فى أصحابه ، والدولةُ والرِّيحُ[١] للمسلمين ؛ فلما انهزم المسلمون انْحَزْتُ إلى رسولِ الله ، فقمتُ أُبَاشِرُ القتالَ ، وأَذُبُّ عنه بالسيف ، وأَرْمِى عن القَوْس حتى خَلَصَتِ الجِرَاحُ إلىّ .

وترَّس[٣] دون رسول الله أبو دُجَانة بنفسه ، يَقَعُ النبل فى ظهره وهو مُنْحَنٍ عليه ، حتى كَثُرَ فيه النبل . وكذلك فعل سَعْدُ بن أبى وقَّاص وغيره .

وساد الناسَ هَرْجٌ ومَرْجٌ[٤] بَعْدَ الهزيمة وقول النـاس : قُتِلَ محمدٌ ! إلى أن عرفه كعبُ بنُ مالك ؛ إذ رأى عينيه تَزْهَرَانِ[٥] من تحت المِغْفَر ، فنادى بأعلى صوته : يا معشرَ المسلمين ؛ أَبْشِرُوا ، هذا رسولُ الله ! فأشار إليه الرسول : أن أَنْصِتْ .

فلما عرف المسلمون رسولَ الله نَهَضُوا به ، فأخذ علىّ بن أبى طالب بيـده ، ورفعه طَلْحَةُ بن عُبيد الله حتى استوى قائماً ؛ ومصّ مالك بن سنان الدَّم عن وَجْهِهِ ، ونزع أبو عبيـدة إحدى الحَلْقَتَيْنِ ، فسقطت ثنيَّتُه وهو يعالج إخراجها ، ثم نزع الأخرى فسقطت ثنيَّتُه الأُخْرى ، ونهض معهم نحو الشِّعْب ، يصاحبه أبو بكر وعُمر ورَهْطٌ من المسلمين .

ولما أَسْنَد[٦] رَسُول الله فى الشِّعْب أدركه أُبَىّ بن خَلَف وهو يقول : أَيْنَ محمد ؟ لا نجوتُ إنْ نجوتَ ! فقال القومُ : يا رسول الله ؛ أيعطف عليـه رجلٌ منا ؟ فقال رسولُ الله : دَعُوه . فلما دَنَا منه تناول الحَرْبَة ، ثم استقبله فطَعَنَه فى عُنُقه طَعْنَةً تدَأْدَأَ[٧] منها عن فَرَسه مِراراً ، ورجع إلى قريش وقد خُدِش فى عنقه خَدْشاً غيرَ كبير ، فقال : قتلنى والله محمد ! قالوا : ذهب واللهِ فؤادك ، والله ما بك من بَأْس ؟

(١) الغلبة والنصر . (٢) أذب : أدافع . (٣) التترس التستر بالترس ، والمراد: وقف دونه يقيه بترسه . (٤) هرج ومرج : اختلاط واضطراب . (٥) تزهران : تضيئان وتلمعان .
(٦) أسند فى الجبل : صعد فيه . (٧) تدأدأ : مال .

قال : إنه كان قال لى بمكة : أنا أقتلك ! ثم مات بِسَرِف[١] ، وهم قافلونَ به إلى مكة[٢] .

وانتهى رسولُ الله إلى فَمِ الشِّعب ، وبينما هو هناك ومعه نَفَرٌ من أصحابه إذْ عَلَتْ عاليةٌ من قُرَيْش الجبل ، فقال النبيُّ صلى الله عليه وسلم : اللهم إنه لا ينبغى لهم أن يَعْلُونا . فقاتل عمر ورَهْط من المهاجرين حتى أهبطوهم من الجبل .

وقُتِل من المسلمين عددٌ كبير[٣] ، ووقفت هند بنت عتبة والنسوة اللاتى معها يُمَثِّلْنَ بالقتلى من أصحاب رسول الله : يَجْدَعْنَ الآذان والأنوف ، حتى اتخذت هندٌ من آذان الرجال وآنُفِهم خَدَما[٤] وقَلَائد ، وأعطت هِنْد خدَمها وقلائدها وقِرَطتها وَحْشيًّا غلام جُبَيْر بن مُطْعِم ، وبَقرَتْ[٥] عن كَبِد حَمْزَة فلاكَتْها[٦] ؛ فلم تستطع أن تُسِيغَها فلَفَظَتْهَا ، ثم علَتْ على صَخْرَةٍ مُشْرِفَةٍ فصرخت بأعلى صوتها قائلة :

نَحْنُ جَزَيْنَاكُمْ بيــوم بَدْرِ والحربُ بعد الحَرْبِ ذاتُ سُعْرْ[٧]
ما كان عَنْ عُتْبَة لى من صَبْر ولا أخى وَعَمِّـه وبِكْرِى[٨]
شفيتُ نَفْسِى وقضيتُ نَذْرِى شفيتَ وَحْشِيُّ غليـلَ صَدْرِى
فَشُـكْرُ وَحْشِىٍّ علىَّ عُمْرِى حتى تَرِمَّ أَعْظُمِى فى قَبْرِى[٩]

---

(١) سرف : موضع على ثلاثة أميال من مكة . (٢) قال حسان فى ذلك :

لقـــد ورث الضلالة عن أبيه أبىٌّ يوم بارزه الرسول

(٣) قال أبو سفيان بن حرب يذكر صبره فى ذلك اليوم ومعاونة ابن شعوب شداد :

ولو شئت نجتنى كميت طمرة ولم أحمـل النعماء لابن شعوب
فما زال مهرى مزجر الكلب منهم لدى غـدوة حتى دنت لغروب

فأجابه حسان :

ذكرت القروم الصيـد من آل هاشم ولست لزور قلتـــه بمصيب
أتعجب أن أقصـدت حمزة منهم نجيباً وقد سميته بنجيب !

(٤) خدماً : جمع خدمة وهى الخلخال . (٥) بقرت : شقت . (٦) لاكتها : مضغتها .
(٧) السعر : العذاب . (٨) أبوها عتبة ، وأخوها الوليد ، وعمها : شيبة ، وبكرها : ابنها حنظلة ، وأربعتهم قتلوا يوم بدر . (٩) ترم : تبلى .

فأجابتها هند بنت أثاثة بن عبّاد فقالتْ :

خَزِيتِ فى بَدْرٍ وبعد بَدْرٍ ... يا بنت وقّاعٍ عظيم الكُفْرِ (١)
صبّحَكِ اللهُ غَداةَ الفجر ... مِلْهاشميّين الطِّوَالِ الزُّهْرِ (٢)
بكلِّ قطّاعٍ حُسَامٍ يَفْرِى (٣) ... حمزةُ لَيْثى وعَلِىٌّ صَقْرِى
إذ رام شَيْبٌ (٤) وأبوكِ غَدْرِى ... فخضَّبا منه ضواحِى النَّحْرِ (٥)
* ونَذْرُكِ السَّوْءَ فشرُّ نَذْرِ *

ثم إن أبا سفيان بن حَرْب أشرف على الجبل ، وصرخ بأعْلَى صوته فقال : أفى القوم محمد ؟ ثلاثاً . فنهاهم رسول الله أن يجيبوه . ثم قال : أفى القوم ابنُ أبى قُحَافَةَ ؟ ثلاثا . فنهاهم رسولُ الله أن يجيبوه . ثم قال : أفى القوم ابنُ الخطاب ؟ ثلاثا . فنهاهم رسول الله أن يجيبوه . ثم التفت إلى أصحابه فقال : أمّا هؤلاء فقد قُتِلُوا ؛ لو كانوا فى الأحياء لأجَابُوا ! فلم يَمْلِكْ عُمَرُ بن الخطاب نَفْسَه أن قال : كذبتَ يا عدوَّ الله ! قد أبْقى الله لكَ ما يُخْزِيك . فقال : اعْلُ هُبَل ، اعلُ هُبَل (٦) . فقال رسولُ الله : أجيبوه . قالوا : ما نَقُول ؟ قال : قُولُوا : اللهُ أَعْلَى وأَجَلّ . قال أبو سفيان : أَلَا إنّ لنا العُزَّى ولا عُزَّى لكم ! فقال رسولُ الله قولوا : اللهُ مولانا ولا مَوْلَى لكم . قال أبو سفيان : يومٌ بِيَوْمِ بَدْر ، والحربُ سِجَال (٧) ! إنَّ مَوْعِدَكُمْ بَدْرٌ للعام القَابِل ! فقال رسول الله لرجلٍ من أصحابه : قل : نعم ؛ هو بَيْنَنَا وبينك مَوْعِد (٨) .

---

(١) وقاع : كثير الوقوع فى الدنايا . (٢) ملهاشميين : من الهاشميين . الزهر : الكرام .
(٣) يفرى : يقطع (٤) شيب : شيبة . (٥) ضواحى النحر : ما ظهر من الصدر .
(٦) هبل : صنم . (٧) الحرب سجال : أى لجماعة مرة ، ولجماعة مرة أخرى .
(٨) خرج رسول الله فى شعبان سنة أربع لميعاد أبى سفيان حتى نزل بدراً ، وأقام عليه ثمانى ليال ينتظر أبا سفيان ، وخرج أبو سفيان فى أهل مكة ، ثم بدا له الرجوع ، فانصرف رسول الله إلى المدينة ولم يلق حرباً ، وهذه هى غزوة بدر الآخرة .

ثم بعث رسولُ الله عليّ بن أبى طالب فقال : اخْرُجْ فى آثارِ القوم ، فانظر ماذا يَصْنَعون ، وماذا يريدون ! فإن كانوا قد جَنَبُوا[1] الخيل ، وامْتَطَوُا الإبلَ فإنّهم يُرِيدون مكّةَ ، وإن ركبوا الخيلَ وساقُوا الإبلَ فإنهم يُريدون المدينة ، والذى نفسى بيده لئن أَرادوها لأَسيرنَّ إليهم فيها ، ثم لأُناجِزَنَّهم . فخرج علىّ فى آثارهم ليرى مايصنعون ، فإذا هُمْ قد جَنَبُوا الخيل ، وامتَطَوُا الإبل ، وتوجَّهُوا إلى مكة .

وفرغ الناسُ لقَتْلَاهم ، فقال رسول الله : مَنْ رجلٌ ينظرُ لى مافعل سَعْدُ بن الربيع ؛ أفى الأحياء هو أمْ فى الأموات ؟ فقال رَجـلٌ من الأنصار : أنا أنظر لك يارسولَ الله مافعل سَعْد . فنظر فوجده جَريحاً فى القتلى ، به رَمَق[2] . فقال له : إن رسولَ الله قد أمرنى أنْ أنظرَ أفِى الأحيـاء أنتَ أم فى الأموات ؟ قال : أنا فى الأموات . فأَبْلِغ رسول الله عنى السلام ، وقل له : إن سعدَ بن الربيع يقول لك : جزاكَ الله عنّا خيْرَ ما جزَى نبيًّا عن أمته ، وأبْلِـغ قومَك عنى السلام ، وقل لهم : إن سعدَ بن الربيع يقولُ لـكم : إنه لاعُذرَ لـكم عنـد الله إن خُلِص إلى نبيّـكم وفيكم عَيْنٌ تَطْرِف . ثم لم يبرح حتى مات ؛ فجاء رسولَ الله فأخبره خبرَه[3] .

وخرج رسولُ الله يلتمسُ حَمزة بن عبد المطلب ، فوجده ببطْنِ الوادى قد بُقِرَ بَطْنُه، ومُثِّل به ، فجُدِعَ أنفهُ وأذناه، فقال حين رأى مارأى : لولا أن تَحزَنَ صَفِيّة وتـكونُ سنّةً من بعدى ، لتركتُهحتى يكونَ فى بطون السباع وحَواصِل الطير . ولئن أَظهرَنى[4] اللهُ على قريش فى موْطنٍ من المواطن لأُمَثّلَنَّ بثلاثين رجلا منهم .

---

(١) جنبوا الخيل : جعلوها بجانبهم لم يركبوها ، حتى إذا فتر المركوب تحولوا إلى المجنوب .
(٢) الرمق : بقية الحياة . (٣) دخل رجل على أبى بكر ، وبنت لسعد بن الربيع جارية صغيرة يقبلها ، فقال له الرجل : من هذه ؟ قال : هذه بنت رجل خير منى ؛ هو سعد بن الربيع .
(٤) أظهرنى : نصرنى .

ولما رأى المسلمون حُزْنَ رسول الله وغيْظَه مما فُعِل بعمِّه قالوا : والله لئن أظْفَرَنا الله بهم يوما من الدهر لنمثِّلَنَّ بهم مُثْلَةً لم يُمَثِّلْها أحدٌ من العرب[١].

ووقف رسولُ الله على حمزة ، وقال : لَنْ أُصـاب بمثلك أبدا ، ماوقفْتُ موقفا قطُّ أغيظ إلىَّ من هذا ! ثم أمَرَ به فَسُجِّىَ[٢] ببُرْدَةٍ ، ثم صلّى عليه ، ثم أُتِىَ بالقتلى يُوضَعون إلى حمزة ، فصلّى عليهم وعليه معهم .

وأقبلت أختُه صفيّةُ بنت عبـد المطلب لتنظرَ إليـه ، فقال رسول الله لابنها الزبير بن العوام : الْقَها فأرْجعها حتى لاترى ما بأخيها . فقال لهـا : ياأمّ ؛ إن رسولَ الله يأمُرك أن ترجعى . قالت : ولِمَ ؟ وقد بلغنى أن قد مُثِّل بأخى ؛ وذلك فى اللهِ قليل ! فما أرْضَانا بما كان ! لأحتَسِبنَّ ولأصبرَنَّ إن شاء الله !

فلما جاء الزُّبير إلى رسول الله وأخبره بذلك قال : خَلِّ سبيلها . فأتته فنظرت إليه وصلَّت عليه واسترْجَعَت[٣] واستغفرت له، ثم أمر به رسولُ الله فدُفِن .

وأشرف رسولُ الله على القَتْلى ، وقال : أنا شهيدٌ على هؤلاء ، إنه مامن جَرِيحٍ يُجْرَحُ فى سبيل الله إلا والله يبعثُه يوم القيامة يَدْمَى جُرْحه ، اللَّوْنُ لَوْنُ دَمٍ ، والريح ريح مِسْك . انظروا أكثرَ هؤلاء جَمْعاً للقرآن فاجعـلوه أمام أصْحَابه فى القبر . ثم قال : انظروا إلى عَمْرو بن الجَمُوح وعَبْدِ الله بن عَمْرو، فإنهما كانامتصافيَيْن فى الدنيا ، فاجعلوهما فى قبرٍ واحد .

ثم انصرف راجعا إلى المدينة فلقيته حَمْنَةَ بنت جَحش ، فنعى لها أخاها عبد الله ابن جحش فاسترجعت واستغفرَتْ له ، ثم نَعَى لهـا خالَها حمزة بن عبد المطلب فاسترجعت واستغفرت له ، ثم نَعَى لهـا مُصْعَب بن عُمَيْر ـ زوجها ـ فصاحت

---

(١) عن ابن عباس أن الله أنزل فى ذلك : « وإن عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به ولئن صبرتم لهو خير للصابرين » فعفا رسول الله وصبر ، ونهى عن المثلة . (٢) سجى : غطى .

(٣) قالت : إنا لله وإنا إليه راجعون .

وَوَلْوَلَتْ . فقال رسول الله : إنَّ زوجَ المرأَةِ منها بمكان .

***

ومرَّ رسولُ الله بِدَارٍ من دُورِ الأنصار ، فسمع منهم البكاء والنَّوَاح على قَتْلَاهم ، فذَرَفت عَيْنَا رسولِ الله وبكى ، ثم قال : لكنّ حمزة لا بَوَاكِىَ له ! فذهب سَعْدُ بن معاذ وأُسَيد بن حُضَير إلى دُور الأنصار فأمر نساءهم أن يذهَبْنَ فيبكين على عمِّ رسول الله . وسمع النبيُّ بكاءهنّ على حمزة فخرج إليهنّ ، وهُنَّ على باب المسجد وقال : رحِمَ اللهُ الأنصار ! فإن المُوَاساَة منهم ما علمتُ لقَديمَةٌ ، مُرُهنَّ فَلْيَنْصرِفْنَ .

ومرَّ فى طريقهِ على امرأة من بنى دينار قد أُصيبَ زوجُها وأخوها وأبوها بأُحُد ، فلما نُعُوا إليها قالت : فما فعل رسولُ الله ؟ قالوا : خيرا ، هو بحمد الله كما تُحبِّين . قالت : أرُونيه حتى أنظرَ إليه ، فأُشِيرَ لها إليه حتى إذا رَأَتْهُ قالت : كلُّ مصيبةٍ بَعْدَكَ جَلَل [١] !

ولما انتهى رسولُ الله إلى أهله ناول سيفَه ابنته فاطمة وقال : اغْسِلِى عن هذا دَمَه يا بنيّة ، فوالله لقد صدقنى اليوم . وناولها علىُّ بن أبى طالب سيفَه فقال : وهذا أيضا فاغْسِلِى عن دَمَه ، فوالله لقد صدقنى اليوم .

ولَمَّا كان الغَدُ خرج رسولُ الله مُرْهِباً للعدوِّ ، ولِيَبْلُغَهُم أنه خرج فى طلبهم فيظنوا به قُوَّة ، وأن الذى أصابهم لم يُوهِنْهم عن عدوِّهم . وأذَّن مؤذنُه ألّا يخرجَنَّ معنا أحدٌ إلا من حضر يومنا بالأمس ، فكلّمه جابر بن عبد الله فقال : يا رسولَ الله ، إن أبى كان خلّفَنى على أخواتٍ لى سَبْع وقال : يا بنىّ ؛ إنه لا ينبغى لى ولا لكِ

---

(١) جالل : يسيرة .

أن نترُكَ هؤلاء النسوة لا رجلَ فيهنّ ، ولستُ أُوثِرك بالجهاد مع رسول الله على نفسى ، فتخلَّفْ على أخواتك ، فتخلَّفت عليهنّ . فأذِن له بالخروج .

***

وخرج رسولُ الله حتى انتهى إلى حَمْراء الأسد ـ وهى من المدينة على ثمانية أميال ـ فمرّ به مَعْبد الخزاعى (١) ، فقال : يا محمد ؛ والله لقد عزّ علينا ما أصابك فى أصحابك ، ولوَدِدْنا أنّ الله عافاكَ منهم . ثم سار مَعْبَد الخزاعى ، حتى لَقِىَ أبا سفيان ابن حرب ومَنْ معه بالرَّوْحاء (٢) ، وقد أجمعوا الرّجعة إلى رسولِ الله وأصْحابه ، وقالوا : أصَبْنا حَدّ (٣) أصحابه وأشرافهم وقادَتَهم ، ثم نرجع قبل أن نستأصلَهم ! لنكُرّنّ على بقيَّتِهم فلنفرُغَنّ منهم . فلما رأى أبو سفيان معبداً الخزاعىّ قال : ما وراءك يا معبد ؟ قال : قد خرج محمدٌ فى أصحابه يطلبُكم فى جَمْعٍ لم أرَ مثلَه قطُّ ؛ يتحرّقون عليكم تحرُّقا ، وقد اجتمع معه مَنْ كان تخلّف عنه فى يومكم ونَدِموا على ما ضيّعوا وفيهم من الحنَقِ عليكم شىء لم أرَ مثلَه قطّ ! قال : ويْحَكَ ما تقول ! قال : والله أرى أنّك لا ترتحل حتى ترى نواصِىَ الخيْل . قال : فو الله لقد جمعنا الكرّة عليهم لِنَسْتأْصِل بقيَّتَهم . قال : فإنى أنهاك عن ذلك ، ووالله لقد حملنى ما رأيْتُ عَلَى أنْ قلتُ أبياتا من الشّعر . قال : وما قلتَ ؟ قال : قُلْتُ :

كادتْ تُهَدُّ من الأَصْواتِ راحلتى ... إذ سَالَتِ الأَرْضُ بالجُرْدِ الأَبابيلِ (٤)
تَرْدِى بأُسْدٍ كِرَامٍ لا تنابلةٍ (٥) ... عند اللقاءِ ولا مِيلٍ معَازِيلِ (٦)

---

(١) كانت خزاعة ، مسلمهم ومشركهم موضع سر رسول الله بتهامة ، لا يخفون عنه شيئاً كان بها . (٢) الروحاء : موضع بين الحرمين على ثلاثين ميلا من المدينة . (٣) حد أصحابه : بأسهم . (٤) تهد : تسقط من الإعياء لهول ما ترى . والجرد : الخيل الكريمة . والأبابيل : الجماعات . (٥) ردى الفرس : رجمت الأرض بحوافرها ، أو هو بين العدو والمشى . التنابلة : القصار . (٦) الميل : الذين لا يثبتون على السرج . والمعازيل : العزل من السلاح .

فظَلْتُ عَدْواً أظُنُّ الأرضَ مائلةً ... لمّا سَمَوْا برئيسٍ غيرِ مَخْذُولِ
فقلت : ويلُ ابْنِ حَرْبٍ مِنْ لقائكمُ ... إذا تَغَطْمَطَتِ البَطْحاءُ بالجيلِ[1]
إني نذيرٌ لأهْلِ البَسْلِ ضاحيةً ... لكلِّ ذي إرْبة منهم ومعقولِ[2]
مِنْ جَيْشِ أحمدَ لا وخْشٍ[3] قنابِلُهُ ... وليس يوصَفُ ما أنذرتُ بالقِيلِ

* * *

ومرَّ بأبي سُفْيان رَكْبٌ من عَبْدِ القَيْس فقال : أين تريدون ؟ قالوا : نُرِيد المدينة ، قال : لِمَ ؟ قالوا : نُرِيدُ المِيرة[4] . قال : فهل أنتم مبلِّغُون عني محمداً رسالةً أُرْسِلُكم بها إليه ، وأُحَمِّل لكم إبلَكم هذه غداً زَبِيباً بعُكَاظ إذا وافَيْتُمُوها ؟ قالوا : نعم . قال : فإذا وافيتُموه فأخْبِرُوه أنَّا قد أجمعنا السيرَ إليه وإلى أصحابه لنَسْتأصِلَ بقيَّتهم .

فمرَّ الركبُ برسول الله ، وهو بحَمْراء الأسد ، فأخبروه بالذى قال أبو سفيان ، فقال : حَسْبُنا الله ونِعْمَ الوكيل !

وأراد أبو سفيان السير إلى المدينة ليَستأْصِل أصحابَ رسول الله ، فقال صفوان بن أمية بن خلف : يا قوم ، لا تفعلوا ، فإنَّ القومَ قد حَرِبُوا[5] ، وقد خشينا أن يكونَ لهم قتالٌ غير الذى كان ، فارْجعوا . فرجعوا ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم — وهو بحَمْراء الأَسد حين بلغه أنهم همُّوا بالرَّجْعة : والذى نفسى بيده ؛ لقد سُوِّمَت[6] لهم حِجارة لو صُبِّحوا بها لكانوا كأمْسِ الذَّاهِب .

* * *

(١) تغطمطت : اضطربت ، والجيل : الصنف من الناس . (٢) البسل : الحرام ، ويريد بأهل البسل مكة ، والإربة : العقل . (٣) الوخش : صغار الناس ورذالهم . القنابل : طوائف الناس والخيل . (٤) الميرة : جلب الطعام . (٥) حربوا : غضبوا وتغيظوا .
(٦) سومت : أرسلت .

وقدم رسول الله المدينة ، وكان عبد الله بن أبىّ بن سَلُول له مقام يقومه كلّ جمعة لا يُنْكَرُ ، شرَفًا له فى نفسه وفى قومه ، وكان إذا جلس رسولُ الله يوم الجمعة ، وهو يخطُب الناس قام فقال : أيّها الناس ؛ هذا رسولُ الله بين أظهركم ، أَكْرَمَكم الله وأعزّكم به ، فانصرُوه وعزِّروه(١) واسْمَعُوا له وأَطيعوا ، ثم يجلسُ ؛ حتى إذا صنع يوم أُحُد(٢) ما صنع ، ورَجَع بالناس قام يفعلُ ذلك كما كان يفعل ، فأخذ المسلمون بثيابه من نوَاحِيه ، وقالوا : اجْلِسْ أى عدوّ الله ! لَسْتَ لِذَلك بأهل ، وقد صنعتَ ما صنعتَ .

فخرج يتخطَّى رقابَ الناس وهو يقول : والله لكأنما قلتُ بُجْراً(٣) أَنْ قمتُ أشدِّدُ أمرَه . فلقيَه رجلٌ من الأنصار بباب المسجد . وقال له : مالكَ وَيْلَكَ ! قال : قمتُ أشدِّدُ أمرَه ، فوثب علىّ رجالٌ من أصحابه يَجْبِذُونني(٤) ويعنِّفونني لكأنما قلتُ بُجراً أن قُمْتُ أشدِّد أمره ! قال : وَيْلَكَ ! ارجع يستَغْفِر لك رسولُ الله . قال : والله ما أَبْتَغِى أَنْ يستغفر لى .

* * *

وكان يوم أُحُد يومَ بَلَاء وتمحيص ، اختبر اللهُ به المؤمنين ومَحَق المنافقين ، ممّن كان يُظهِر الإيمان بلسانه ، وكان يوما أكرم الله فيه من أراد كرامته بالشهادة من أهل ولايته .

* * *

ومما قِيلَ من الشِّعْر فى هذا اليوم قول حسان بن ثابت يجيب هبيرة بن أبى وَهْب(٥) :

---

(١) عزروه : عظموه . (٢) أى رجوعه بثلث الناس . (٣) البجر : الشر والأمر العظيم .
(٤) يجبذوننى : يجذبوننى . (٥) ديوانه : ٤٢٤ .

سُقْتُمْ كِنَانَةَ جَهْلًا مِنْ سَفَاهَتِكُمْ (١) ... إلى الرَّسُولِ فَجُنْدُ اللهِ مُخْزِيهَا

أَوْرَدْتُمُوهَا حِيَاضَ الْمَوْتِ ضَاحِيَةً (٢) ... فَالنَّارُ مَوْعِدُهَا وَالْقَتْلُ لَاقِيهَا

جَمَعْتُمُوهُمْ أَحَابِيشاً بِلَا حَسَبٍ (٣) ... أَئِمَّةَ الْكُفْرِ غَرَّتْكُمْ طَوَاغِيهَا

أَلَا اعْتَبَرْتُمْ بِخَيْلِ اللهِ إِذْ قَتَلَتْ (٤) ... أَهْلَ الْقَلِيبِ وَمَنْ أَلْقَيْنَهُ فِيهَا (٥)

كَمْ مِنْ أَسِيرٍ فَكَكْنَاهُ بِلَا ثَمَنٍ ... وَجَزِّ نَاصِيَةٍ كُنَّا مَوَالِيهَا (٦)

---

(١) فى الديوان: «من عداوتكم» . (٢) الضاحية : البارزة . (٣) فى الديوان : «أنتم أحابيش جمعتم بلا نسب» . (٤) فى الديوان : «هلا . . . . إذ لقيت» .

(٥) فى الديوان : « ومن أرديته فيها» . القليب : البئر ، ويريد بأهل القليب : من قتل فى بدر من المشركين فطرح فى القليب . (٦) مواليها : أهل النعمة والفضل عليها . يريد أنهم فكوا كثيراً من أسرى قريش يوم بدر بغير فداء فكانوا لذلك أصحاب النعمة .

٣ – يوم الرَّجيع(*)

قدم على رسول الله بعد أُحُد رَهْطٌ من عَضَل والقَارَة(١) ، فقالوا : يا رسولَ اللهِ ، إنّ فينا إسلاما وخَيْرًا ، فابْعَثْ معنا نَفَراً من أَصْحابك يفقِّهُونَنا في الدين ، ويُقرِئُونَنَا القرآنَ ، ويعلِّمُونَنا شرائعَ الإسلام .

فبعث رسولُ الله معهم ستةً من أصحابِه ، وأمَّرَ عليهم مَرْثَد بن أبي مَرْثَد الغَنَويّ ، فخرج مَرْثَد مع القوم ، حتى إذا كانوا على الرَّجيع غَدَرُوا(٢) بهم ، واستصرخوا عليهم هُذَيْلا .

ولم يلبث أصحابُ النبي صلى الله عليه وسلم أن رأوا الرجالَ في أيديهم السيوفُ ، فأخذوا أسيافَهم ليقاتِلُوهم ، فقالوا لهم : إنا لا نريدُ قَتْلَكم ، ولكنا نريدُ أن نُصيبَ بكم شيئاً من أهْلِ مكة ، ولكم العهدُ والميثاقُ ألَّا نقتلكم . فقال مَرْثَد ابن أبي مرثد ورَجُلان معه(٣) : لا نقبلُ من مُشْرِكٍ عَهْدًا ولا مِيثاقاً ، وقاتلوا حتَّى قُتِلوا جميعاً .

وأمّا الثلاثة الآخَرُون(٤) فرَغِبُوا في الحياة ، وأَعْطَوْا بأيديهم ، فأَسَرُوهم ، وخَرَجُوا بهم إلى مَكَّةَ ليَبِيعُوهُمْ هناكَ .

---

* سيرة ابن هشام : ٣ – ١٦٠ ، تاريخ الطبري : ٣–٢٩ ، معجم البلدان ٤–٢٢٨ ، وكان هذا اليوم في السنة الرابعة من الهجرة . والرجيع : ماء لهذيل.

(١) عضل والقارة : قبيلتان من كنانة . (٢) قال حسان يهجو هذيلا :

هم غدروا يوم الرجيع وأسلمت ... أمانتهم ذا عفة ومكارم
رسول رسول الله غدرا ولم تكن ... هذيل توقى منكرات المحارم

(٣) هما خالد بن البكير ، وعاصم بن ثابت بن أبي الأفلح . (٤) هم زيد بن الدثنة ، وعبد الله بن طارق ، وخبيب بن عدي .

أما أَحَدُهم ، وهو عبدُ اللهِ بنُ طارق فقد انتزع يدَه من القِرَان(١) حينما وصل إلى الظَّهْرَان وأراد الفِرَار ، فقتلوه .

وأمّا ثانِيهم ، وهو خُبَيْب بن عَدِىّ ، فقد ابتاعه بعضُ أهلِ مكَّةَ ليقتلَه بأبيه ، وخرجوا به من الحَرَم ليقتلُوهُ ، فقال : ذَرُونى أُصَلِّ ركعتين ؛ فصلَّى سجْدَتين ، ثم قال : لولا أن يقولوا: جَزِعَ من الموت لزِدْت ، وما أُبَالِى على أىِّ شِقَّىَّ كان لِلّهِ مَصْرَعى !

ثمَّ رفعوه على خَشَبَةٍ ، فلمَّا أَوْثقُوه ؛ قال : اللهمَّ إنا قد بلَّغْنَا رسالةَ رسولك ، فبلِّغه الغداةَ مايُصْنَعُ بنا . اللهمَّ أَحْصِهم عدَداً ، واقْتُلْهُمْ بَدداً ، ولا تُغَادِرْ منهم أَحداً . . . ثم قتلوه .

وأمّا الثالث ، وهو زَيْدُ بن الدَّثِنَة ، فقد ابتاعه بمكَّة صفوانُ بن أُميَّة ليَقْتُلَه بأبيه أُميّة بن خَلَف .

وبعث به صَفْوان مع مَوْلًى له إلى التَّنْعِيم(٢) ليَقْتُلَه ، واجتمع إليه رَهْطٌ مِنْ قُرَيْشٍ ، فيهم أبو سفيان بن حَرْب ، فقال له أبو سفيان حين قُدِّم ليُقْتَل : أنشُدك الله يازَيْد ، أتحبُّ أنّ محمداً عندنا الآن مكانَك نضربُ عُنُقَه ، وأنك فى أهلك ! قال : والله ما أحبُّ أن محمداً تُصيبُه شوكةٌ تُؤْذِيهِ وأنا جالسٌ فى أهلى !

قال أبو سُفْيَان : ما رأيتُ فى النَاسِ أحداً يحبُّه أصحابُه كما يحبُّ هؤلاء محمداً .

ولما قُتِل الذين وجَّهَهُم النبىّ صلى الله عليه وسلم إلى عَضَل والقارَة ، وبلَغَه خبرُهم بعث عَمْرو بن أُميّة الضَّمْرِىّ إلى مكّة مع رجلٍ من الأنصار ، وأمرهما بقَتْل أبى سفيان ابن حرب ــ قال عمرو :

---

(١) القران : الحبل . (٢) التنعيم : موضع على ثلاثة أميال من مكة .

بعثنى رسولُ الله بعد قَتْل أصحابه الذين بعثهم إلى عَضَــل والقارَة ، وبعث معى رجلا ، وقال : ائتيا أبا سفيان بن حَرْب فاقتُلاه . فخرجتُ أنا وصاحبى ، ومعى بعيرٌ لى ، وليس مع صاحبى بعير ، وبرِجْله عِلَّة ، فكنت أحمله على بعيرى ، حتى جئنا بَطْنَ يَأْجُج [١] ، فعقلنا بعيرَنا فى فِنَاء شِعْبٍ بالجبل ، وأسنَدْنَا [٢] فيه ، فقلت لصاحبى : انطلق بنا إلى دارِ أبى سفيان ، فإنى محاوِلٌ قَتْلَه ، فانظر فإن كانت مُجَاولة ، أوخشيتَ شيئاً فالْحق ببعيرك فاركبه ، وائتِ رسولَ الله بالمدينة فأَخْبِره الخبر ، وخَلِّ عنى فإنى رجلٌ عالم بالبلد ، جرىء عليه .

ودخلنا مكة ، ومعى مثــلُ خافِيَة النَّسْر [٣] ، قد أعددتُه إن عاقنى إنسانٌ قتلتُه به .

فقال لى صاحبى : هل لك أن نبدأ فنطوفَ بالبيت ونصلِّىَ ركعتين ! فقلتُ له : أنا أعلمُ بأهل مكةَ منك ، إذا أظلموا رشُّوا أفنِيتَهم ثم جلسوا فيها ، وأنا أَعْرَف بها من الفرَس الأبْلَق .

فلم يزلْ بى حتى أَتَيْنَا البيتَ فَطُفْنَا به ، وصلَّينا ركعتين ، ثم خرجنا فمررنا بمجلس من مجالسهم ، فعرفنى رجلٌ منهم فصرخ بأعلى صوته : هذا عمْرو بن أميَّة ! فتبادَرَ أهــلُ مكّة ، وقالوا : ما جاء عمرو بخــير ! وقاموا فى طلبى وطلبِ صاحبى ، فقلتُ له : النجاءَ ! هذا والله ما كنتُ أَحْذَر ، فانْجُ بنفسك !

وخرجنا نَشْتَدُّ [٤] حتى أَصْعَدْنا فى الجبــل ، فدخلنا غاراً فبِتْنَا فيــه ليلتَنا ، وأعجزناهم فرجعوا ، وقد استَتَرْتُ دونهم بأحجار حين دخلتُ الغار ، وقلتُ لصاحبى : أمهلنى حتى يسكُنَ الطلبُ عنا ، فإنهم والله سيطلبوننا ليلتَهم هذه ، أو يومَهم هذا حتى يُمْسُوا .

---

(١) يأجج : موضع بمكة . (٢) يقال أسند فى الجبل : إذا صعد فيه . (٣) يريد خنجره .
(٤) نشتد : نعدو .

وإنى لفى هـذا الغار إذ أقْبل عثمان بن مالك يَخْتِل[١] بفرسٍ له ، فلم يزل يدنو حتى قام علينا بباب الغَار ، فقلت لصاحبى : هذا والله ابنُ مالك ، لئِنْ رآنا لَيُعْلِمَنَّ بنا أَهْلَ مكة .

فخرجتُ إليه فوَجَأْته[٢] بالخنجر تحت الثّدْى ، فصاح صيحةً أَسْمَع أهلَ مكّة ، فأقبلوا إليه ورجعتُ إلى مكانى فدخلتُ فيه ، وقلتُ لصاحبى : مكانَك ! واتبّع أهلُ مكة الصوت يشتدّون ، فوجدوه وبه رَمَق ، فقـالوا : ويلك ! مَنْ ضربك ؟ قال : عمرو بن أميَّة ؛ ثم مات ، ولم يخبرهم بمـكاننا .

فقالوا : واللهِ لقد علمنا أنه لم يأتِ بخير ، وشَغَلَهم صاحبُهم عن طلبنا ، فاحتملوه ؛ ومكثنا فى الغار يومين حتى سكَنَ عنّا الطلب .

ثم خرجنا إلى التّنْعيم ، فإذا خشبة خُبَيْب بن عدىّ ، فقال لى صاحبى : هل لك فى خُبيب تُنْزِله عن خشبتهِ ؟ فقلت : أين هو ؟ قال : هو ذاك حيث ترَى . فقلتُ : نعم ، فأمْهِلنى وتنحَّ عـنِّى . قال : ولـكنّ حولَه حرّاساً يحرسونه ! قلت : إن خشيتَ بأساً فخذ الطريقَ إلى جَمَلِك فاركَبْه ، والْحقْ برسول الله فأخبره الخبر .

فاشتددْتُ إلى خشبته فاحتَلَلْتُه ، واحتملتُه على ظهرى ، فو الله ما مشيتُ إلا نحو أربعين ذراعا حتى نَذِروا[٣] بى ، فطرحتُه ، فما أَنْسَى وَجْبَتَه[٤] حين سقط ، واشتدُّوا فى أَثَرِى ، فأخذتُ طريقى إلى أن أعْيَوْا ورَجعُوا .

وانطلق صاحبى إلى بعيره فركبه ، ثم أتى الرسولَ فأخْبَرَه أمرنا ، وأقبلتُ أَمْشِى حتى إذا أشرفتُ على غارٍ بضَجْنَان[٥] دخلتُ فيه ، ومعى قوسى وأَسهمى . فبينا أنا فيـه إذ دخلَ علىَّ رجلٌ من بنى الدِّيل بن بكر ، أعورُ طويلٌ ،

---

(١) يختل به، أى يداوره ويطلبه من حيث لا يشعر . (٢) وجأته : ضربته . (٣) نذر بالأمر: علمه فحذره . (٤) الوجبة : السقطة مع الهدة . (٥) ضجنان : جبل قرب مكة .

يسوقُ غنماً له ، فقال : مَنْ الرجل ؟ فقلت : رجل من بنى بكر ! قال : وأنا من بنى بكر ، ثم اضطجع معى فيه ، وَرَفع عقيرَته يتغنَّى ، ويقول :

ولستُ بمُسْلِمٍ ما دمتُ حيًّا ولستُ أَدِينُ دِينَ المسلمينا

فقلت : سوف تَعْلَم . ولم يلبث الأعرابىّ أن نام وغطَّ فقمتُ إليهِ ، فقتلته أسوأَ قِتْلة ، ثم مِلْتُ إليه فجعلتُ سِيَةَ(١) قوسى فى عينه الصحيحة ، وتحاملتُ عليها حتى أخرجتُها من قَفَاه .

وأخذت المحجّة(٢) كأنّى نَسْر ، وكان النَّجاء ؛ حتى إذا كنتُ بالبَقيع(٣) ، رأيتُ رجلين قد بَعَثَتْهُما قريش يتحسَّسَان من أمر الرسول ، فعرفتهما ، وقلتُ لهما : استأْسِرا(٤) . فقال : أنحنُ نستأسِرُ لك ! فرمتُ أحدَهما بسهم فقتلتُه ، ثم قلتُ للآخر : استأسِرْ ؛ وأوثقته ، وقدِمتُ به على رسول الله .

ولما قدمتُ المدينةَ مررتُ بجماعةٍ من الأنصار ، فقالوا : هذا واللهِ عَمْرُو بن أُميَّة ؛ وسمع الصبيانُ قولَهم ، فاشتدُّوا إلى رسول الله يُخْبِرونه .

وذهبتُ إلى النبىّ ، وقد شَدَدْتُ إبهام أسيرى بوتَرِ قَوْسِى ، فنظر إلىّ وضَحِك حتى بَدَتْ نَواجِذُه ، ثم سألنى فأخبرتُه الخبر ، فدعا لى بخير .

---

(١) سية القوس : ما عطف من طرفيها . (٢) المحجة : المقصد والطريق . (٣) البقيع : مقبرة بالمدينة . (٤) استأسرا كونا أسيرين .

٤ — يوم بئر مَعُونة*

قـدم أبو بَرَاء عامرُ بن مالك مُلاعِبُ الأسِنَّة(١) على رسول الله في المدينة ، وأهدى إليه هَدِيَّة ، فأبى رسولُ الله أن يقبلَها ، وقال : يا أبا بَرَاء ؛ لا أقبلُ هذه الهديةَ ، فأَسلِمْ إن أردتَ أن أقبلَ هديَّتك . ثم عرض عليه الإسلام ، وأخبره بما وعدَ اللهُ المؤمنين من الثواب ، وقرأ عليه القرآنَ ، فلم يُسْلِم ولم يَبْعُد من الإسلام . وقال : يا محمد ؛ إنّ أمرَك هذا الذى تدعو إليه حسنٌ جميل ؛ فلو بعثتَ رجالا من أصحابك إلى أهل نجد فدَعَوْهم إلى أمرك رجوتُ أن يستجيبوا لك !

فقال رسولُ الله : إنى أَخشى عليهم أهلَ نجد ؛ فقال أبو بَراء : أنا لهم جارٌ ؛ فابعثهم فليَدْعُوا النَّاس إلى أمْرك .

فبعث رسولُ الله المنذرَ بن عمرو(٢) فى أربعين رجلا من أصحابه ، فساروا حتى نزلوا بئر مَعونَة ، فقال بعضهم لبعض : أيُّكم يُبَلِّغ رسالةَ رسولِ الله أهلَ هـذا المـاء ؟ فقال حَرام بن مِلْحَان : أنا أبلِّغُ رسالةَ رسولِ الله . وخَرَج حتى أتى حِواءً(٣) منهم ، فاحْتَبَى أمامَ البيوتِ ؛ ثم قال : يا أهل بئرِ معونة ! إنى رسولُ محمد إليكم ، إنى أشهدُ أن لا إله إلا الله ؛ وأنّ محمداً عبدُ ورسولُه ، فآمِنوا بالله ورسوله . فخرج إليه عامر بن الطُّفَيْل من كِسْرِ البيت(٤) برُمْحٍ ؛ فضرب به فى جَنْبه حتى خرج من الشّقِّ الآخر؛ فقال : اللهُ أكبر ! فُزْتُ وربِّ الكعبة(٥) !

* سيرة ابن هشام : ٣ـ١٨٤ ، تاريخ الطبرى : ٣ـ٣٣ . كان فى السنة الرابعة من الهجرة. وبئر معونة بين أرض بنى عامر وحرة بنى سليم . (١) سيد بنى عامر بن صعصعة . (٢) قيل : سبعين رجلا . (٣) العرب تقول لمجتمع بيوت الحى : محتوى ومحوى وحواء . (٤) كسر البيت : جانبه . (٥) يريد أنه فاز بالشهادة ، فله الجنة .

واتَّبعوا أَثَره حتى أتَوْا أصحابَه ، واستعانوا عليهم بقبائل من بنى سُليم ، وخرجوا جميعاً حتى غَشُوا[1] القوم ، فأحاطُوا بهم فى رِحالهم .

ولما رآهم المسلمون أخذوا السيوفَ ، ثم قاتلوهم حتى قُتِلوا عن آخرهم ؛ إلّا كعب بن زيد ، فإنهم تركوه وبه رَمَقٌ ، فارتُثَّ[2] من بين القتلى ، وعاش حتى قُتِل يَوْمَ الخندق .

وكان فى سَرْحِ[3] القوم عَمْرو بن أُميّة الضَّمْرىّ ورجلٌ من الأنصار[4] ، فلم يُنْبِئْهما بمُصاب أصحابهما إلّا الطيرُ تحومُ على العسكر ؛ فقالا : والله إن لهذه الطير شأنا . فأقبلا لينظرا ، فإذا القومُ فى دِمائهم ، وإذا الخيلُ التى أَصابتهم واقفة ؛ فقال الأنصارىّ لعمرو بن أُميَّة : ما ترى ؟ قال : أرى أن نَلْحق برسول الله فنخبرَه الخبر . فقال الأنصارىّ : لكنى لا أرغبُ بنفسى عن مَوْطنٍ قُتل فيه المنذر بن عمرو ! ثم قاتل القومَ حتى قُتِل ، وأُخِذ عمرو بن أمية أَسيرا .

فلمّا أخبرهم أنه من مُضَر أَطْلَقَه عامرُ بنُ الطفيل ، وجزّ ناصيتَه وأعتقه ؛ فخرج عمرو بن أمية حتى إذا كان قريباً من المدينة أقبل رَجُلان من بنى عامر ؛ حتى نزلا معه فى ظلٍّ هو فيه ــ وكان مع العامِرَيَّيْنِ عَقْدٌ من رسولِ الله وَجوارٌ لم يَعْلَمْ به عَمْرُو ابن أميّة ــ فسألهما حين نزلا به : ممن أنتما ؟ قالا : من بنى عامر . فأمهلهما حتى إذا نَامَا عَدَا عليهما فقتلهما ، وهو يرى أنه أصاب بهما ثَأْرَه من بنى عامر بما أصابوا من أصحاب رسول الله .

وقَدِم عمرو بن أميــة على رسول الله فأخبره الخبر ، فقال له : لقد قتلْتَ

---

(١) غشيه : جاءه (٢) يقال للرجل إذا ضرب فى الحرب فأثخن وحمل وبه رمق : ارتث.
(٣) السرح : شجر كبار عظام يستظل فيه . (٤) أحد بنى عمرو بن عوف

قتيلين لَأَدِيَنَّهُمَا(١) . ثم قال رسولُ الله : هذا عملُ أَبِى بَرَاء ! قد كنتُ لهذا كارهاً متخوِّفا .

وشَقَّ على أَبى بَرَاء ما أصاب أصحابَ الرسول بسببه وجواره ، وقال حسان يحرِّضه على عامر بن الطُّفَيل(٢) :

بنى أُمِّ البنين أَلَمْ يَرُعْكُمْ ... وأنتم من ذوائبِ أَهْلِ نَجْدِ(٣)

تَهَكُّمُ عامرٍ بِأَبى بَرَاءٍ(٤) ... لِيُخْفِرَه ، وما خَطأٌ كعَمْدِ(٥)

أَلَا أَبْلِغْ ربيعةَ ذا المَسَاعِى(٦) ... فما أَحدثْتَ فى الحدثانِ بَعْدِى !

أبوكَ أبو الحروبِ أبو بَرَاءٍ(٧) ... وخالك ماجدٌ حَكَمُ بْنُ سَعْدِ

فلمّا بلغ أبا بَرَاء قولُ حسّان حمل على عامر بن الطّفيل ، فطعنه ، فأخطأ مَقْتَلَهُ ووقع عن فرسه ، فقال : هذا عَمل أبى بَرَاء ؛ إن أَمُتْ فدمى لعَمِّى فلا يُتْبَعَنَّ به ، وإن أَعِشْ فسأرى رأيى فيما أَتى إلىّ .

---

(١) أدينهما : أدفع ديتهما . (٢) ديوانه : ١٠٧ . (٣) هم أبو براء وإخوته ، ويريد بالذوائب رؤساءهم . (٤) «تهكم» فاعل «يرعكم» فى البيت قبله . (٥) ليخفره : لينقض عهده .

(٦) المساعى : المكرمات . وفى الديوان : ألا من مبلغ عنى ربيعا .

(٧) فى الديوان : أبو الفعال .

٥ — يوم بنى النَّضِير*

لمَّا قَتَل عَمْرو بن أمية الضَّمرِى رجلين من بنى عامر(١) ـ وقد كان لهما من رسول الله جِوَارٌ وعَهْد ـ كتب إليه عامر بن الطُّفيل العامرىّ يقول : إنك قتلتَ رجلين لهما منك جِوَارٌ وعَهْد ، فابعَثْ بدِيَتِهما .

فخرج رسولُ الله إلى بنى النَّضِير يستعينُهم فى دِيَةِ ذَيْنِكَ القتيلين ، فلمّا أتاهم ، وسألهم المَعُونَةَ قالوا : نعم ، يا أبا القاسم ، نُعينُك على ما أحببتَ . ثم خلا بعضُهم إلى بعض ، فقالوا : إنكم لن تجدوا هذا الرجلَ على مثلِ حالِه هذه ـ وكان رسولُ الله قد جلس إلى جَنْبِ جدارٍ من بيوتهم ـ فأيّكم يعلو هذا البيت فيُلقِى عليه صخرةً فيقتله بها فيُرِيحنا منه !

فقال عَمْرو بن جَحّاش : أنَا لِذَلِك ! فصعد لِيُلْقِيَ عليه الصخرة . فأتى رسولَ الله الوحْىُ من الله بما أراد القومُ ، فقام وخرج راجعاً إلى المدينة ، وترك أصحابَه فى مجلسهم .

ولما استبطأ رسولَ الله أصحابُه قاموا فى طلبه ، فلَقُوا رجلا مُقْبِلًا من المدينة فسألوه عنه فقال : رأيتُه داخلا المدينة .

فأقبلوا حتى انتهَوْا إليه ، فأخبرهم بما كانت اليهودُ تريدُ به من الغَدْر ، ثم قال : ادْعُوا إلىَّ محمد بن مسلمة . فأَتَى ، فقال له : اذهبْ إلى يهودَ ،

---

* سيرة ابن هشام : ٣ـ١٩١ ؛ الطبرى : ٣ـ٣٦ . وقد كان فى السنة الرابعة من الهجرة وبنو النضير حى من اليهود سكن المدينة .

(١) انظر يوم « بئر معونة » صفحة ٥٢ من هذا الكتاب .

فقل لهم : اخرجوا من بلادِى فلا تساكِنونى ، وقد هَمَمْتُم بما هممتم به من الغَدْرِ .

فجاءهم محمدُ بن مسلمة فقال لهم : إن رسولَ الله يأمركم أن تَظْعَنُوا[١] . فقالوا : يا محمد ؛ ما كنا نظنُّ أن يجيئَنا بهذا رجلٌ من الأَوْس ! فقال : تغيَّرَت القلوبُ ومحا الإسلام العهودَ ! فقالوا : نتحمَّل[٢] !

ولكن عبد الله بن أُبَىّ أرسلَ إليهم يقول : لا تخرجوا فإنّ معى من العرب وممّن انْضَوَى إلىّ من قومى ألفين ؛ فأقيموا فهُمْ يدخلون معكم ، وقُريظة كذلك تدخل معكم .

فبلغ كعبَ بن أَسَدٍ القُرَظىّ ذلك ، فقال : لا ينقض العهدَ رجلٌ من قُرَيْظَة وأنا حىّ .

فقال رجل منهم لكبيرهم ابن أخطب : يا حُيَىّ ؛ اقبَلْ هذا الذى قاله محمد قبل أن تقبلَ ما هو شرٌّ منه . قال حُيَىّ : وما هو شرٌّ منه ؟ قال : أخذ الأموال وسَبْى الذرّية ، وقتل المقاتلة ؛ فأَبى حُيَىّ ، وأرسل جُدَىّ بن أَخْطب[٣] إلى رسولِ الله يقول : إنا لا نَرِيم[٤] دارَنا ، فاصنَعْ ما بَدَا لك .

فكبَّرَ رسول الله وكبَّرَ المسلمون معه ، وقال : حاربَتْ يهود !

وانطلق جُدَىّ بن أَخْطَب إلى عبد الله بن أُبَىّ يستمدّه فلم يستَجِبْ له ، فرجع وأخبر حُيَيًّا بذلك ؛ فقال : هذه مَكِيدَةٌ !

وزحف إليهم رسولُ الله ، وحاصرهم ستّ ليال فتحصَّنُوا منه فى الحصون ،

---

(١) أن تظعنوا : أن ترحلوا . (٢) نتحمل : نرتحل . (٣) أخوه .

(٤) لا نريم : لا نبرح .

فأمر بقَطْـع النخيل والتَّحريق فيها ، فنادَوْه : يا محمد ؛ قد كنتَ تَنْهَى عن الفساد ، وتَعِيبهُ على مَنْ صنعه ، فما بالُ قَطْع النخيل وتحريقها !

ولما يَئِسوا من المعونة ، وطال بهم الحِصَار ، وقذف الله فى قلوبهم الرُّعْبَ سألوا رسولَ الله أن يُجْلِيَهُمْ ويَكُفَّ عن دمائهم ، على أنَّ لهم ما حَمَلَت الإبل من أموالهم إلى الْحَلَقة[١] ، ففَعل .

فاحتملوا من أموالهم ما استقلّت الإبل ، فكان الرجلُ منهم يهدمُ بيتـه ، فيضعه على ظهر بَعِيره . فينطلقُ به ، فخرج بعضهم إلى خَيْبَر ، ومنهم من سار إلى الشام[٢] .

---

(١) الحلقة : اسم لجملة السلاح والدروع وما أشبهها . (٢) نزل فى بنى النضير سورة الحشر بأسرها .

٦ — يوم الخَنْدَق*

خرج نَفَرٌ من اليهود[١] حتى قدِموا على قُرَيْش فى مكة ، فدعَوْهم إلى حَرْب رسول الله ، وقالوا لهم : إنا سنكونُ معكمحتى نستأْصِلَه ؛ فقالت لهم قريش : يامعشر يهود ، إنكم أهلُ الكتاب الأول ، وأهل العِلم بما أصبَحْنا نختلفُ فيه نحن ومحمد ، فدينُنَا خيرٌ أم دينُه ؟ قالوا : بل دينُكم خيرٌ من دينه ! وأنتم أولى بالحقِّ منه! فسَرَّ قريشاً ماقالوا ، ونَشِطُوا لما دَعَوْهم إليه من حَرْب رسول الله ، واجتمعوا لذلك واتَّعَدوا له . ثم خرج أولئك النَّفَرُ من اليهود حتى جاءوا غَطَفان ، فدَعَوْهم إلى حَرْبِ المسلمين ، وأخبروهم أنهم سيكونون معهم عليهم ، وأنَّ قريشا قد تابَعُوهم على ذلك ؛ فأجابوهم .

وخرجت قريشٌ ، وقائدها أبو سفيان ، وخرجت غَطَفان وقائدها عُيَيْنَةُ بن حِصْن ، والحارث بن عوف فى بنى مُرّة ، ومِسْعَر بن رُخَيْلة فيمن تابَعه من أشْجَع .

ولما سمع رسولُ الله بما أَجْمَعُوا له من الأَمْرِ ضرب الخَنْدَق على المدينة ، وعمل فيه بنفسه ، وعمل معه المسلمون حتى أحكموه .

ولما فرغوا منه خرج رسولُ الله فى ثلاثة آلاف من المسلمين جعلوا ظهورَهم إلى سَلْع[٢] ، وضربوا عسكرهم هناك . وأمر بالذَّرارِيِّ والنساء فجُعِلوا فى الآطام[٣] .

---

* سيرة ابن هشام : ٣ـ٢٢٩ ، تاريخ الطبرى : ٣ ـ٤٣ . كان فى السنة الخامسة من الهجرة

(١) منهم سلام بن أبى الحقيق ، وحيي بن أخطب ، وكنانة بن الربيع ، وهوذة بن قيس ، وأبو عمار الوائلى فى نفر من بنى النضير ونفر من بنى وائل ، وهم الذين حزبوا الأحزاب على رسول الله . (٢) سلع موضع بقرب المدينة . (٣) الآطام : جمع أطم ، وهو حصن مبنى بالحجارة.

وأقبلت قريش حتى نزلت بمجتَمع الأَسْيالِ فى عشرة آلاف من أحابيشهم ومَنْ تَبِعهم من بنى كِنانة وتِهامة . وأقبلت غَطَفَان ومَنْ تبِعَهم مِنْ أهل نجد ، حتى نزلوا بذَنَبِ نقَمَى ، إلى جانب أُحد .

وخرج حُـيَىّ بن أَخْطَب(١) حتى أتى كَعْب بنَ أسد(٢) ، فلما سمع كعب به أَغْلَقَ دونه بابَ حِصْنِه ، فاستأذن عليه فأبى أن يَفْتَحَ له ، فناداه حُـيَىّ : يا كعب ؛ افتحْ لى ، قال : ويحك ياحُـيَىّ ! إنك رجلٌ مشئوم ، وإنى قد عاهدتُ محمداً ، فلستُ بناقضٍ مابينى وبينَه ، ولم أرَ منه إلّا وفاءً وصِدْقاً . قال : افتح لى أُكلّمك. قال : ما أنا بفاعل ، قال : ماأغلقتَ الْحِصْن دونى إلا لتخوّفك على جَشِيشَتِك(٣) أن آكلَ منها معك ! فأحفظ(٤) الرجلَ . ففتح ، فقال له : ويحك يا كعب ! جئتُك بعِزّ الدهر ، وببحر طَامٍ(٥). جئتُك بقريش : قادتِها وسادَتِها ، حتى أنزلتهم بِمُجْتَمَع الأسيال ، وجئتُك بغَطَفَان : قادتِها وسادتِها حتى أنزلتهم بذَنَب نقَمَى ، قد عاهدونى وعاقَدُونى على ألّا يَبْرَحُوا حتى نستأصلَ محمداً ومَنْ معه .

قال كعب : جئتَنى والله بذُلّ الدهر ، وبجَهَامٍ قد هَرَاق(٦) ماءه ، فهو يُرْعد ويُبْرِق ليس فيه شىء ، ويْحَكَ ياحُيَىّ ! دَعْنِى وما أنا عليه ، فإنى لم أرَ من محمد إلا صِدْقاً ووفاءً . ولكنّ حُيَيّاً لم يزلْ بكَعْبٍ يَفْتِلُ منه فى الذّرْوَة والغارب(٧)، حتى أعطاه عهداً وميثاقاً : لئن رجعَتْ قريش وغطفان ولم يُصِيبوا محمداً دخلت

---

(١) كبير بنى النضر كما تقدم . (٢) صاحب عقد بنى قريظة وعهدهم ، وكان وادع النبى على قومه وعاهده على ذلك وعاقده . (٣) الجشيشة : واحدة الجشيش ، وهو أن تطحن الحنطة طحنا جليلا ثم تصب بها القدر ، ويلقى عليها لحم أو تمر فيطبخ . (٤) أحفظ الرجل: أغضبه.

(٥) أراد تشبيه القوم فى كثرتهم بالبحر الزاخر . (٦) الجهام : السحاب الرقيق الذى لا ماء فيه ، وهراق : صب . (٧) أصل الغارب مقدم السنام ، والذروة أعلاه ؛ أراد أنه ما زال يخادعه ويتلطفه حتى أجابه ، وأصله أن الرجل إذا أراد أن يؤلف البعير الصعب لينقاد له جعل يمر يده عليه ويمسح غاربه ويفتل وبره حتى يستأنس ، ويضع فيه الزمام .

معك فى حِصْنِك حتى يُصيبَنى ما أَصابك . ونَقَض كعبُ بن أسد عهدَه ، وبَرِئ مما كان بينه وبين رسولِ الله .

فلما انتهى إلى الرسولِ الخبرُ بعث سعدَ بن مُعـاذ[١] وسعد بن عُبادة[٢] ، وعبدَ الله بن رَوَاحة[٣] ، وخوَّات بن جُبَير[٤] ، وقال لهم : انطلقوا حتى تنظروا : أحقٌّ ما بَلَغنَا عن هؤلاء القوم أم لا ! فإن كان حقًّا فالْحَنُوا لى لَحْنًا[٥] أعرفه ، ولا تَفُتُّوا فى أعضادِ الناس ، وإن كانوا على الوَفَاء بَيْننا وبينهم فاجْهَرُوا به للناس . فخرجوا حتى أتَوْهم ، فوجدوهم على أخبثِ ما بلغهم عنهم ، نالُوا من رســول الله ، وقالوا : مَنْ رسول الله ! لا عَهْد بيننا وبين محمد ولا عَقْد ! فشاتَمهم سَعْدُ بن عُبادة وشاتموه ، وكان رجلا فيه حِدَّةٌ . فقال له سعدُ بن مُعاذ : دَعْ عنك مُشاتمتَهم ، فما بيننا وبينهم أَرْبَى[٦] من المشاتمة .

ثم أَقْبَل سعد بن مُعاذ وسَعْد بن عُبادة ومَنْ معهما إلى رسولالله فسلَّموا عليه ، وقالوا : عَضَل والقَارَة[٧] ! فقال رسول اللهُ : أَبْشِروا يا مَعْشَرَ المسلمين !

وعَظُمَ عند ذلك البلاء على المسلمين ، واشتدَّ الخوفُ ، وأتاهم عدوُّهم من فوقهم ومِنْ أسفلَ منهم ، حتى ظنَّ المؤمنون كلَّ ظنّ ، ونَجَم[٨] نفاق المنافقين ، حتى قال قائلهم[٩] : كان محمد يَعِدُنا أن نأكلَ كنوزَ كسرى وقَيْصَر ، وأحدُنا اليـومَ لا يأمَنُ على نفسِه أن يذهبَ إلى الغائط !

---

(١) سيد الأوس . (٢) سيد الخزرج . (٣) أخو بنى الحارث بن الخزرج .
(٤) أخو بنى عمرو بن عوف . (٥) أشيروا إلى ولا تفصحوا ، وعرضوا بما رأيتم .
(٦) أربى : أعظم وأكثر . (٧) أى كغدر عضل والقارة؛ حينما اعتدوا على خبيب وأصحابه يوم الرجيع . (٨) نجم ظهر . (٩) هو معتب بن قشير .

وأقام الرسولُ على الخندق ، وأقام عليه المشركونَ بِضْعا وعشرين ليلةً ، لم يكن بينهم حَرْبٌ إلا الرَّمى بالنَّبْلِ والحِصَار . فلما اشتدَّ البلاء على الناس بعث رسولُ الله إلى عُيَيْنَة بن حِصْن ، وإلى الحارث بن عَوْف — وهما قائدا غَطَفان — فعرض عليهما أن يُعطيَهما ثلث ثِمارِ المدينة على أن يَرْجِعا بِمَنْ معهما ، وجرى بينه وبينهما الصُّلْح ، حتى كتبوا الكتابَ ، ولكن لم تقع الشهادة ، ولا عزيمة الصلح إلا المراوضةَ(١) فى ذلك .

ثم استشار رسولُ الله فى ذلك سعد بن مُعاذ وسعد بن عُبَادة ، فقالا له : يا رسولَ الله ؛ أَمْر تحبُّه فنصنعه ، أم شيء أَمَرَكَ الله به لا بدَّ لنا من العمل به ، أم شيء تصنعه لنا ! قال : بل شيء أصنَعُه لكم ؛ والله ما أصنعُ ذلك إلا لأننى رأيتُ العربَ قد رَمَتْكُم عن قَوْسٍ واحدةٍ وكالَبُوكُم(٢) من كلّ جانب ، فأردتُ أن أكسِرَ عنكم من شوكتهم . فقال سعد بن مُعاذ : يا رسول الله ؛ قد كُنَّا نحن وهؤلاء القوم على شِرْكٍ باللهِ وعبادةِ الأوثان ، لانعبدُ الله ولا نعرفُه ، وهم لايطمعون أن يأكلوا منها تَمْرة إلا قِرًى(٣) أو بَيْعاً ، فَحِينَ أكرَمَنا اللهُ بالإسلام ، وهدَانا له وأعزّنا بك وبه نُعطيهم أموالَنا ! والله ما لنا بهذا حاجة ، والله لا نُعطيهم إلا السيفَ حتى يَحْكُمَ الله بيننا وبينهم . قال رسول الله : فأنت وذاك ! وتناول سعدُ بن معاذ الصحيفةَ فمحا ما فيها من الكتاب(٤) ، ثم قال : لِيُجْهِدوا(٥) علينا .

وأقام رسولُ الله والمسلمون ، والعدوُّ يحاصرُهم ، ولم يكن بينَهم قِتَال ، إلا أن فَوَارِس(٦) من قريش قد تهيئُوا للقتال ، ثم خرجوا على خَيْلِهم حتى مرُّوا بمنازلِ بنى كِنَانة ، فقالوا : تهيّئُوا يا بنى كِنانة للحرب ، فستعلمون مَن الفرسان اليوم !

---

(١) المراوضة : المجاذبة والمفاوضة . (٢) كالبوكم : اشتدوا عليكم ، وكثر شرهم .
(٣) القرى : ما يقدم للضيف . (٤) الكتاب : الكتابة . (٥) أجهدوا علينا العداوة : جدوا فيها . (٦) منهم عمرو بن عبد ود وعكرمة بن أبى جهل ، وهبيرة بن أبى وهب ، وضرار بن الخطاب .

وأقبلوا نحو الخندَق حتى وقفُوا عليه ، فلمّا رأوه قالوا : والله إن هذه لمَكِيدةٌ ما كانت العربُ تكيدُها (١) ! ثم تيَمَّمُوا مكاناً ضيِّقا من الخندق ، فضربوا خيولَهم فاقتحمت منه ، فجالت بهم فى السَّبخة — بين الخنْدَق وسَلْع — وخرج علىّ بن أبى طالب فى نفَرٍ من المسلمين حتى أخذُوا عليهم الثُّغْرَة التى أقْحَمُوا منها خيلَهم ، وأقبلت الفرسان تُعْنِق (٢) نحوَهم ؛ فوقف عمرو بن عبد ودّ (٣) ، وقال من يُبَارِزُ ؟ فبرز له علىّ بن أبى طالب ، وقال له : يا عَمْرو ، إنك كنتَ عاهدتَ اللهَ ألّا يدعوكَ رجلٌ من قريش إلى إحدى خَلّتَيْن إلا أخذتَها منه . قال له : أجَلْ ! قال علىّ : فإنى أدعوكَ إلى النِّزال . قال : ولمَ يابْنَ أخى ؟ فو الله ما أحِبُّ أن أقتلَك ! قال له علىّ : ولكنى واللهِ أحبُّ أن أقتلَك ! فحَمِى (٤) عمرو عند ذلك ونزل عن فرسه ، وعقَره وضرب وَجْهَه ، ثم أقبل على علىّ فتنازَلا وتجاوَلا ، فقتله علىّ ، وخرجت خيلُهم منهزمةً حتى اقتحمت من الخندق هاربة . ومرَّ يومئذ سَعْدُ بن معاذ بحِصْن بنى حارثة — وهو من أحْرز حصون المدينة — وعليه دِرْع قصيرة ، قد خرجت منها ذِرَاعه كلُّها ، وفى يده حربتُه يرقدُ بها (٥) ويقول :

لَبِّث قليــلا يَشْهَدِ الهَيْجَا حَمَلْ ... لا بأسَ بالموتِ إذا حانَ الأجَلْ (٦)

فقالت له أُمُّه — وكانت فى الحِصْن هى وعائشة : الحقْ يابنى ، فقد والله أخَّرْت ، فقالت لها عائشة : ياأمَّ سعد ؛ والله لوَدِدْت أنَّ دِرْعَ سعدٍ كانت أسْبَغَ مما هى (٧) ! ثم رُمِى سعد بن مُعاذ بسَهْمٍ ، فقَطعَ منه الأكْحَل (٨) .

---

(١) يقال : إن سلمان الفارسى أشار به على رسول الله . (٢) العنق : ضرب من السير السريع . (٣) من الفرسان الذين اقتحموا الخندق . (٤) حمى : غضب .

(٥) يرقد : يسرع بها . (٦) لبث : انتظر ، والهيجا : الحرب ، وحمل : اسم رجل ، وحان : قرب . (٧) كان ذلك قبل أن يضرب الحجاب . (٨) الأكحل : عرق فى الذراع .

وكانت صفيةُ بنت عبد المطلب فى فَارِع — حِصْن حسّان بن ثابت — وكان حَسّان فيه مع النساء والصبيان ، فمرّ رجلٌ من يهُود ، فجعل يُطِيف بالحِصْن ، ولما رأته صَفِيّة قَالت : إن بنى قُرَيظة قد قطعَتْ ما بينها وبين رسول الله من عهد ؛ وليس بيننا أحدٌ يدفعُ عنّا ، ورسولُ الله والمسلمون فى نُحُورِ[1] عدوهم ، لايستطيعون أن ينصرفوا عنهم إلينا إن أتانا آتٍ . ثم قالت لحسّان : إن هذا اليهوديّ — كما ترى — يُطيف بالحصن ، وإنى واللهِ ما آمَنُه أن يَدُلَّ على عوْرتنا مَنْ وَرَاءَهُ من يهُود ، وقد شُغِلَ عنا رسولُ الله وأصحابُه ، فانزلْ إليه فاقتُله . فقال حَسّان : يغفرُ الله لك يابنةَ عبد المطلب ! والله لقد عرفتِ ما أنا بصاحبِ هذا . فلما قال لها ذلك ولم تَرَ عند شيئاً احتجزَتْ[2] ، ثم أخذت عموداً ، ونزلَتْ من الحصن ، وضربته بالعمود حتى قتلَتْه .

ولما فرغت منه رجعت إلى الحِصْنِ فقالت : يا حسان ؛ انزل إليه فاسلُبْه فإنه لم يمنعنى من سَلَبه إلا أنه رجل ، قال حسان : مالى بسَلَبه منْ حاجة يابنة عبد المطلب !

وأقام رسولُ الله وأصحابُه فى خَوْفٍ وشدّة ، لِتَظَاهُر عدوِّهم عليهم ، وإتيانهم إياهم من فَوْقِهم ومن أسفل منهم .

ثم إن نُعيمَ بن مسعود أتى رسولَ الله فقال : يا رسولَ الله ، إنى قد أسلمتُ ، وإنّ قوْمِى لم يعلموا بإسلامى فمُرْنى بما شئت ، فقال رسولُ الله : إنما أنتَ فينا رجلٌ واحدٌ ، فخَذِّلْ[3] عنّا إن استطعتَ ، فإن الحرْب خُدْعة .

فخرج نُعيم بن مسعود حتى أتى بنى قُرَيظة — وكان لهم نديماً فى الجاهلية — فقال : يا بنى قريظة ؛ قد عرفتم وُدِّى إياكم ، وخاصَّةَ ما بينى وبينكم . قالوا : صدقتَ ،

---

(١) أصل النحور الصدور ، وهو يريد أنهم مشتبكون مع عدوهم . (٢) أى شدت وسطها بما يقويه . (٣) أى ادخل بينهم حتى يخذل بعضهم بعضاً .

لستَ عندنا بمتَّهَم . فقال لهم : إن قريشاً وغَطفان ليسوا مثلَـكم . البلدُ بلدُكم ، فيه أموالُـكم وأبناؤكم ونساؤكم ، لاتقدرون على أَنْ تتحوَّلوا منه إلى غـيره ، وإنّ قريشاً وغَطفان قد جاءُوا لحرْب محمد وأصحابه ، وقد ظاهَرْتمُوهم[1] عليه ، وبلدُهم وأموالُهم ونساؤهم بغـيره ، فليسوا مثلَـكم ، فإنْ رأَوْا نُهْزَةً[2] أصابوها ، وإن كان غير ذلك لحقُوا ببلادهم ، وخَلَّوْا بينَـكم وبين الرجل ببلدكم ، ولا طاقةَ لـكم به إنْ خَلَا بكم ؛ فلا تقاتِلُوه مع القوْم حتى تأْخُـذُوا منهم رُهُنا من أشرافهم ، يـكونون بأيديكم ثِقَةً لـكم، على أَنْ تقاتِلُوا معهم محمداً حتى تُنَاجِزُوه . فقالوا له : لقد أشرتَ بالرأى .

ثم خرج حتى أَتَى قُرَيشا ؛ فقـال لأَبى سفيان ومَنْ معـه من رجال قريش : قد عرفتُم وُدِّى لـكم ، وفِرَاق محمـدا ، وإنه قد بلغنى أمرٌ قد رأيتُ عَلَىَّ حقًّا أن أُبلِغَـكموه نُصْحاً لـكم ، فاكْتُمُوا عَنّى . قالوا : نفعل . قال : تعلَّمُوا[3] أنَّ مَعْشَرَ يَهُود قد ندِموا على ماصنَعُوا فيما بينهم وبين محمد ، وقد أرسلوا إليه : إنَّا قد ندمنا على مافعلنا ، فهل يرضيك أن نأخذ لك من القبيلتين من قريش وغطفان رجالا من أشرافهم ، فنعطيَـكهم فتضرب أعناقهم ، ثم نـكون معك على مَنْ بقِىَ منهم حتى نَسْتَأْصلهم ؟ فأَرسل إليهم : أَنْ نعم ؛ فإن بَعَثَتْ إليـكم يهودُ تلتَمِس منـكم رُهُنا من رِجالـكم ، فلا تدفعوا إليهم رجلًا واحداً .

ثم خرج حتى أتى غَطفَان ، فقال : يامعشر غَطفَان ؛ إنـكم أَصْلى وعشيرتى وأحبُّ الناسِ إلىّ ، ولا أرَاكم تَتَّهموننى . قالوا : صدقْتَ ، ماأنت عندنا بمُتَّهَمٍ ! قال : فاكْتُمُوا عنى، قالوا : نفعل ، فما وراءك؟ فقال لهم مثلَ ماقال لقريش ،وحذَّرَهم كما حذَّرهم .

---

(١) ظاهرتموهم : عاونتموهم . (٢) نهزة : فرصة . (٣) تعلموا : اعلموا .

فلما كانت ليلة السبت من شوّال أرسل أبو سفيان بن حَرْب ورءوسُ غطفان إلى بنى قُريظة عِكْرِمَةَ بن أبى جهل فى نفرٍ من قريش وغطفان ، فقالوا لهم : إنا لَسْنَا بِدَارِ مُقَامٍ ، وقد هلك الُخفُّ والحافر(١) . فاغْدُوا للقتال حتى نناجِزَ محمداً ،ونفرغ مما بيننا وبينه . فأرسلوا إليهم : إنّ اليومَ يوم السّبت ، وهو يوم لانعملُ فيه شيئا،وقد كان أحدثَ فيه بعضُنا حدثاً فأصابه مالم يَخْفَ عليكم ، ولَسْنَا مع ذلك بالذين نقاتِلُ معكم محمداً حتى تعطونا رُهُناً من رجالكم ، يكونون بأيدينا ثقةً لنا حتى نُنَاجزَ محمداً ؛ فإنّا نَخْشَى إن ضَرَّسَتْكُم(٢) الحرب ، واشتدَّ عليكم القتال أن تَنْشَمِرُوا(٣) إلى بلادكم وتتركونا ، والرَّجُلُ فى بلدنا ولا طاقةَ لنا به .

فلما رجعت إليهم الرسلُ بما قالت بنو قُرَيظة قالت قريش وغَطفان : إن الذى حَدّثكم به نُعَيم بن مسعود لَحَقٌّ . وأرْسَلُوا إلى بنى قُرَيظة : إنّا والله لاندفعُ إليكم رجلا واحداً مِنْ رجالنا ، فإن كنتم تريدون القتالَ فاخرجوا فقاتلوا . فقالت بَنُو قُرَيظة حين انتهت إليهم الرسلُ بهذا : إن الذى ذكرَ نُعَيم بن مسعود لَحَقّ . مايريدُ القومُ إلّا أَنْ تقاتلُوا ، فإن رأَوْا فُرْصةً انتهزوها ،وإن كان غير ذلك انشمروا إلى بلادهم ، وخلّوْا بينكم وبين الرجل فى بلدكم .

فأرسلوا إلى قُرَيش وغَطَفَان : إنا واللهِ لانقاتِلُ معكم محمداَ حتى تُعطُوا رُهُنا . فأبَوْا عليهم ، وخذّل الله بينهم ، وبعث عليهم الريحَ فى ليال شاتيةٍ باردة ، فجعلتْ تَكْفَأُ(٤) قدورَهم ، وتطرح أبنيتَهُمْ .

فلما انتهى إلى رسولِ الله مااختلف من أمرهم ، وما فرّق من جماعتهم ، دعا حذيفَة بن اليمانِ ، فبعثه إليهم لينظرَ مافعلَ القومُ ليلا .

---

(١) يريد الإبل والخيل . (٢) ضرستكم : نالت منكم . (٣) تنشمروا : تسرعوا فى الرجوع . (٤) تكفأ قدورهم : تقلبها .

قال حذيفةُ : لقد رأيتُنَا مع رسول الله بالخندَق ، وقد صَلّى هَويًّا (١) من الليل ، ثم التفت إلينا فقال : مَنْ رجلٌ يقومُ فينظرُ لنا ما فعل القومُ ثم يرجع ؟ فما قام رجلٌ من القوم مِنْ شدَّةِ الخوف ، وشدةِ الجوع ، وشدّة البَرْد . فلما لم يَقُمْ أحدٌ دعانى رسولُ الله، فلم يكن بُدٌّ من القيام حين دَعَانى ، فقال : يا حُذَيْفة ؛ اذهَبْ فادخُلْ فى القوم فانظر ماذا يصنعون ، ولا تحدِثْ شيئاً حتى تأتينَا .

فذهبتُ فدخلتُ فى القوم ، والريحُ وجنودُ اللهِ تفعلُ بهم ما تفعلُ ، لا تَقِرُّ لهم قِدْراً ولا ناراً ولا بناء . فقام أبو سفيان فقال : يا مَعْشَرَ قريش ! لينظر امرؤ مَنْ جليسُه !

فأخذتُ بيد الرجل الذى كان إلى جَنْبى ، فقلت : من أنتَ ؟ قال : فلان ابن فلان . ثم قال أبو سفيان : يا معشر قريش ؛ إنكم والله ما أصبحتم بِدَارِ مقام ، لقد هلك الكُرَاع (٢) والخُفّ ، وأخلفتْنا بنو قريظَة ، وبلَغَنَا عنهم الذى نكره ، ولقِينا من شدَّةِ الريح ما تَرَوْنَ ، لا تطمئنُّ لنا قِدْرٌ ، ولا تقومُ لنا نار ، ولا يستمسكُ لنا بِناَء ، فارتحلوا فإنى مُرْتحل . ثم قام إلى جَمَلِه وهو معقول ، فجلس عليه ، ثم ضربه ، فوثب به على ثلاث ، فو الله ما أَطْلَق عِقَالَه إلّا وهو قائم ، ولولا عهدُ رسولِ الله إلىَّ ، إذ قال لى : « لا تحدِثْ شيئاً حتى تأتينى » لقتلتُه بسَهْم .

فرجعتُ إلى رسول الله ، وهو قائمٌ يُصَلّى ، فلما سَلَّمَ أخبرتُه الخبر .

وسَمِعَت غَطَفَان بما فعلت قريش ، فانشمروا راجعين إلى المدينة .

---

(١) هويا من الليل : جزءا منه . (٢) الكراع . الخيل .

٧ — يوم بنى قُرَيْظة*

أصبح النبيُّ منصرِفاً عن الخندَق ، راجعاً إلى المدينة ، ووضع المسلمون السِّلَاح ، ولما كان الظُّهْر أَمر رسولُ الله مؤذِّناً فأذَّن فى الناس : مَن كان سميعاً مُطيعاً ، فلا يُصَلِّيَنَّ العصرَ إلّا فى بنى قُرَيْظَة .

وقدَّمَ رسول الله عليَّ بن أبى طالب برايتِه إلى بنى قُرَيْظَة ، وابتدرها الناس(١) ، وسار عليٌّ حتى إذا دَنَا من حصُونِ بنى قُرَيظة سمع منها مقالةً قبيحة عن رَسول الله ، فرجع حتى لَقِيَ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم بالطريق ، فقال : يا رسولَ الله ؛ لا عليك ألّا تَدْنُوَ من هؤلاء الأخابث(٢) . قال : وَلِمَ ؟ أظنُّك سمعتَ لى منهم أذًى ! قال : نعم ، قال : لو رَأَوْنى لم يقولوا من ذلك شيئاً .

ولما أتى رسولُ الله بنى قُرَيظة نزل على بِئْرٍ من آبارِها يقال لها : بئر أَنَّى ، وتلاحقَ به الناسُ ، وحاصرهم رسولُ الله خمساً وعشرين ليلة حتى جَهَدَهم الحِصَارُ ، وقذَفَ الله فى قلوبهم الرُّعْبَ .

فلما أيقنُوا أن رسول الله غيرُ منصرِفٍ عنهم حتى يُنَاجِزَهم ، قال كعب بن أَسَدٍ لهم : يا معشر يَهُود ؛ قد نزل بكم من الأمر ما تَرَوْنَ ، وإنى عارضٌ عليكم خِلَالًا ثلاثاً ، فخذوا أيَّها شئتم ، قالوا : وما هى ؟ قال : نُتَابع هذا الرجلَ ونُصَدِّقه ، فو الله لقد تبيَّن لكم أنه نبيٌّ مُرْسَل ، وأنه الذى تجدونه فى كتابكم ، فتأمنون على

---

* سيرة ابن هشام : ٣ : ٢٥٢ ، تاريخ الطبرى : ٣ : ٥٢ . وكان هذا اليوم فى ذى القعدة وصدر ذى الحجة من السنة الخامسة .

(١) ابتدر القوم أمراً : بادر بعضهم بعضاً إليه ، أيهم يسبق إليه فيغلب عليه .

(٢) الأخابث : جمع الأخبث ، وهو ضد الأطيب من الولد والناس .

دمائكم وأموالكم وأبنائكم ونسائكم . قالوا : لا نُفارِق حُكْمَ التوراة أبداً ، ولا نستبدلُ به غيرَه . قال : فإذا أبيتم عليّ هذه ، فهَلُمُّوا فلْنقْتُل أبناءنا ونساءنا ، ثم نخرجْ إلى محمد وأصحابِه مُصْلِتين[١] سيوفنا ، ونحن لم نترك وراءنا ثَقَلاً[٢] ، حتى يحكمَ الله بيننا وبَيْنَ محمد ؛ فإن نَهلِك نَهلِك ولم نترك وراءنا نَسْلاً نخشى عليه ، وإن نَظْهر فلعمري لنجِدَنَّ النساءَ والأبناء . قالوا : نقتل هؤلاء المساكين ؛ فما خيرُ العَيْشِ بعدهم ! قال : فإن أبيتُمْ عليّ هذه فإن الليلة ليلةُ السبت ، وإنه عسى أن يكونَ محمد وأصحابُه قد أَمِنُونا فيها ، فانزلوا لعلَّنا نُصيبُ من محمد وأصحابه غِرّةً . قالوا : نُفْسِدُ علينا سَبْتَنَا ، ونُحْدِثُ فيه مالم يُحْدِثْهُ مَنْ كان قبلنا إلا أصابه المَسْخ . قال: مابات رجلٌ منكم منذ ولدته أمُّه ليلةً من الدهر حازِماً !

ثم إنهم أرسلوا إلى النبي صلى الله عليه وسلم : أنِ ابْعَثْ إلينا أبا لُبَابة[٣] بن عبد المنذر لنستشيرَه ، فأرسله إليهم . فلما رأوه قام إليه الرجال ، وبَهَش[٤] إليه النساء والصبيان يبكُونَ فى وجهه ، وقالوا له : ياأبا لُبَابَة، أترَى أن ننزلَ على حُكْم محمد؟ قال : نعم ، وأشار بيده إلى حَلْقِه[٥].

ثم نزلت بنو قُرَيْظَة على حُكْم رسول الله ؛ فتواثبت الأَوْس فقالوا : يارسولَ الله ؛ إنهم كانوا موالِيَنَا دون الخَزْرَج ، وقد فعَلْتَ فى موَالى إخواننا بالأمس ماقد علمت[٦] .

---

(١) أصلت سيفه : جرده من غمده . (٢) كل شيء يحرص عليه، فهو ثقل .

(٣) أخو بنى عمرو بن عوف ، وكانوا حلفاء الأوس . (٤) بهش إليه : ارتاح وخف إليه . (٥) قال أبو لبابة : فو الله ما زالت قدماى حتى عرفت أنى قد خنت الله ورسوله . ثم انطلق أبو لبابة على وجهه ، ولم يأت رسول الله حتى ارتبط فى المسجد إلى عمود من عمده . وقال : لا أبرح مكانى هذا حتى يتوب الله على مما صنعت ، وبقى كذلك حتى تاب الله عليه ، وأطلقه رسول الله.

(٦) قد كان رسول الله حاصر بنى قينقاع ، وكانوا حلفاء الخزرج ، فنزلوا على حكمه ، فسأله إياهم عبد الله بن أبى ساول فوهبهم له .

فلما سمع رسولُ الله مقالة الأوْس قال : ألا ترضَوْن يامَعْشَرَ الأوسِ أن يحكمَ فيهم رجلُ منكم ؟ قالوا : بلى : قال : فذَاكَ إلى سعد بن مُعاذ .

وقد كان سعد فى خَيْمةِ امرأةٍ من المسلمين كانت تداوى الجرحى ؛ فلما حكّمه رسولُ الله فى بنى قُرَيظة أتاه قومه فحملوه على حمارٍ قد وطَّئوا له بوسادةٍ من أدم ؛ وأقبلوا به على رسول الله وهم يقولون : ياأبا عمرو ؛ أحْسِن فى مواليك ؛ فإنَّ محمدا إنما ولَّاكَ لتحْسِن فيهم . فلمَّا أكثروا عليه قال : لقد أَنَى لسَعْدٍ ألَّا تأْخُذَه فى الله لَوْمَةُ لائم .

فلما انتهى سَعْدٌ إلى رسول الله قال لهم : قوموا إلى سيِّدِكم . فقاموا إليه ، ثم قالوا : ياأبا عمرو ؛ إن رسولَ الله قد ولَّاكَ أمرَ مواليك لتحكمَ فيهم . فقال : عليكم بذلك عَهْدُ الله وميثاقُه أنَّ الحكم فيهم ماحكمت ؟ قالوا : نعم . وقال رسول الله : نعم ، قال سعد : فإنى أحكمُ فيهم أن يُقتَل الرجال وتقسَّم الأموالُ وتُسْبَى الذرارى والنساء . فقال رسول الله لسعد : لقد حَكَمْتَ فيهم بحُكْم الله .

فصاح علىّ : يا كتيبةَ الإيمان ! وتقدَّم هو والزبير بن العوَّام ، وقال : والله لأذُوقَنَّ ماذاقَ حمْزَة ، أو لأفتحَنَّ حِصْنَهُم . فقالوا : يامحمد ، ننزلُ على حُكم سَعْد بن مُعاذ .

ثم استُنْزِلوا . وحَبَسهم رسولُ الله بالمدينة ، وخرج إلى سوق المدينة فخَنْدَق بها خنَادقَ ، ثم بعث إليهم فضُرِبت أعناقهم[1] فى الخنادق .

وكانوا يُسَاقون أرْسَالًا[2] ، وفيهم حُيَىّ بن أخْطَب[3] ، وكعب بن أسد ؛

---

(١) كانوا نحو سبعمائة . (٢) أفواجاً : فرقا متقطعة ، بعضهم يتلو بعضاً . (٣) قد كان حي بن أخطب دخل بنى قريظة فى حصنهم حين رجعت عنهم قريش وغطفان وفاء لكعب بن أسد بما كان عاهده عليه .

فقالوا لكعب ، وهم يسيرون إلى رسولِ الله : يا كَعْبُ ؛ ما تراه يصنعُ بنا ؟ قال : أفى كل موْطِنٍ لا تعقلون ! ألا تَرَوْن الدَّاعِى لا ينزِع ، وأنه من ذُهب به منكم لا يَرْجِع ! هو والله القتْل .

وأُتِىَ بحُيَىّ بن أخْطَب مجموعةً يداه إلى عُنقه بحبل ، وعليه حُلّةٌ فُقَّاحِيّة(١) قد شقَّها عليه من كلّ ناحية قَدْرَ أنملة لئلا يُسْلَبها . فلما نظر إلى رسول الله قال : أما والله ما لُمْتُ نَفْسِى فى عداوتك ، ولكنه من يَخْذُلِ اللهُ يُخْذَل . ثم أقبل على الناسِ فقال : أيها الناس ؛ إنه لا بَأْسَ بأَمْرِ الله ، كتابٌ وقَدَر ، ومَلْحَمَةٌ كتبها الله على بنى إسرائيل . ثم جلس فضُرِبت عُنقه(٢) .

ثم إنَّ رسولَ اللهِ قسَّم أموال بنى قُرَيْظَة ونساءَهم وأبناءَهم على المسلمين ؛ ولما انقَضَى شأْنُ بنى قُرَيظة انفجر جُرْح سَعْد بن معاذ فمات منه(٣) .

---

(١) تشبه لون الورد حين ابتدأ تفتحه .

(٢) قال جبل بن جوال الثعلبى :

لعمرك ما لام ابن أخطب نفسه ... ولكنه من يخذل الله يخذل
لجاهد حتى أبلغ النفس عذرها ... وقلقل يبغى العز كل مقلقل

(٣) قال رجل من الأنصار يرثيه :

وما اهتز عرش الله من موت هالك ... سمعنا به إلا لسعد أبى عمرو

وقالت أم سعد حين احتمل نعشه وهى تبكيه :

ويل أم سعد سعدا ... صرامة وحدا
وسؤددا ومجدا ... وفارساً معدا
* سدّ به مسدا *

٨ — يَوْمُ ذِى قَرَد*

قال سَلَمَةُ بن الأَكْوَع : أقبل رسولُ اللهِ عائدا إلى المدينةِ ، وبَعَثَ بظَهْرِه(١) مع رَباح غُلامه ؛ وخرجتُ معه بفَرَسٍ لطَلْحة بن عُبَيْدِ الله ، فلمّا أصبَحنا إذا عبدُ الرحمن بن عُيَيْنة قد أغار على ظَهْر رسول الله فاستاقه أجمع ، وقتل راعِيَه .

قلتُ لرَباح : خُذ هذا الفرسَ وأَبْلِغه طلحة ، وأَخبِر رسولَ اللهِ أنَّ المشركين قد أغاروا على سَرْحه(٢) .

ثمّ قمتُ على أَكَمَةٍ(٣) ، فاستقبَلتُ المدينةَ ، فناديتُ ثلاثةَ أصواتٍ : واصَبَاحَاه(٤) ! ثم خرجتُ فى آثارِ القوم أَرْمِيهم بالنَّبْل .

وما زلتُ أَرْمِيهم وأَعْقِرُ بهم(٥) ، فإذا رجع إلىَّ فارسٌ منهم أتيتُ شجرةً وقعدتُ فى أَصْلِها ، فرميتُه فعقرْتُ به ؛ وإذا تضايَق الجبلُ ودخَلوا فى مُتضايَق عَلَوْتُ الجبلَ ، ثم رَدَيْتُهُم(٦) بالحجارة ؛ وما زلْتُ كذلكَ حتى ما تركتُ بعيراً من ظَهْرِ رسول الله إلا جعلتُه وراءَ ظَهْرِى ، وحتى أَلْقَوْا أكثرَ من ثلاثين رُمْحاً وثلاثين بُرْدَةً يستخفُّون بها ، لا يُلْقونَ شيئاً إلا جعلتُ عليه آراماً(٧) حتى يعرفه رسول الله وأصحابه .

---

* سيرة ابن هشام : ٣ : ٣٢٣ ، الطبرى : ٣ : ٦٠ . كان فى ذى الحجة من السنة السادسة وذو قرد : موضع قرب المدينة . (١) الظهر : الإبل التى يحمل عليها ويركب . (٢) السرح : الماشية تسرح فى المرعى . (٣) الأكمة : التل أو الموضع يكون أشد ارتفاعاً مما حوله .

(٤) العرب تقول عند الغارة عليهم فى الصباح : ياصباحاه ! ينذرون الحى أجمع بالنداء العالى.

(٥) أى أقتل مركوبهم . (٦) رديتهم : رميتهم .

(٧) الآرام : الأعلام .

ثمَّ انتهَوْا إلى مُتضايَق من ثنيّة (١) ، وإذا هم قد أتاهم عُيَيْنة بن حِصْن مُمِدًّا ، فقعَدُوا ينضَحُون(٢) ، وقعدتُ على قَرْن (٣) فوقَهم ؛ فنظر عُيَيْنة فقال : ما الذى أرى ؟ قالوا : لقينا من هذا البَرْحَ(٤) . والله ما فارقنا هذا منذ غلَس ٍ يرمينا حتى استنفد كلَّ شىء فى أيدينا . قال : فَلْيقُمْ إليه منكم أربعة .

فعمَدَ إلىَّ أربعةٌ منهم ؛ فلمّا أمكَنونى من الكلام قلتُ : أتعرفونى ؟ قالوا : مَنْ أنت ؟ قلت : سلَمة بن الأكْوَع ؛ والذى كرَّم وجْه محمد ، لا أطلبُ أحدا منكم إلّا أدركْتُه ، ولا يطلبنى أحد فيدركنى . قال أحدهم : إنّى أظن . ورجعوا ، فما برحتُ مكانى ذاك حتى رأيتُ فوارسَ رسولِ الله يتخلّلُون الشجر ؛ أولهم الأخْرَم الأسَدِىّ ، وعلى أثرِه أبو قَتَادة الأنصارىّ ، يتبعه المِقْداد بن الأسود الكندىّ .

فأخذتُ بِعِنَان فرسِ الأخرم ، فقلت : يا أَخْرَم ؛ إن القوم غيرُ قليل فاحذرهم حتى يلحقَ بنا رسولُ الله وأصحابُه . فقال : يا سلَمَة ؛ إنْ كنتَ تؤمِنُ بالله واليوم الآخر وتعلم أنّ الجنةَ حقّ ، والنارَ حقّ ، فلا تَحُلْ بينى وبين الشهادة . فخلّيْتُه .

فالتقى هو وعبدُ الرحمن بن عُيَيْنة ، فعقر الأخْرَمُ بعبد الرحمن فرسَه ، وطعنه عبدُ الرحمن فقتله ؛ ولكنَّ أبا قَتادة لحق عبد الرحمن ، فطعنه طَعْنَةً قاتلة .

وتبعتُهم أعْدُو على رِجْلَىَّ حتى ما أرى ورائى مِنْ أصحابِ محمدٍ ولا غبارِهم شيئا، وعَدلوا(٥) قبل غُروبِ الشمسِ إلى شِعْبٍ(٦) فيه ماء يقال له ذو قَرَد ، يشربون منه وهم عِطَاش ، فنظروا إلىَّ أعدو فى آثارِهم ، فحلّأْتهم(٧) عن الماء ، فما ذاقُوا منه قَطرَة .

---

(١) الثنية: الطريق فى الجبل . (٢) ينضحون: يرمون بالنبل . (٣) القرن : أعلى الجبل
(٤) البرح : الشر والعذاب . (٥) عدلوا : مالوا . (٦) الشعب : ما انفرج بين الجبلين
(٧) حلأه عن الماء : طرده ومنعه .

وعطف عليّ واحد منهم ، فرميته بسَهمٍ فأَصابه فى كَتِفه . ثم جئتُ إلى رسول الله وهو على الماء الذى حَلَّأْتُهم عنه ، فإذا هو قد أخذَ تِلْكَ الإبلَ التى استنقذت مِنَ العَدُوّ ، وكلَّ رُمْح وكلَّ بُرْدَةٍ ، وإذا بلالٌ قد نحر ناقةً من تلك الإبل ، وهو يَشْوِى لرسولِ اللهِ من كَبِدِها وسَنَامها . فقلتُ : يا رسولَ الله ؛ خَلِّنى أنْتَخِب من القوم مائةَ رجل ، فأتبع بهم هؤلاء الفارين ، حتى لا يبقَى منهم أحدٌ !

فضحك رسول الله وقال : أ كنتَ فاعلا ! فقلت : نعم ، والذى أ كرمك . ولما أصبحنا أردفنى رسولُ الله على العَضْبَاء[1] . ورجعنا قافلينَ إلى المدينة .

---

(١) أصل العضباء : الناقة المشقوقة الأذن ، وهى هنا لقب لناقة رسول الله ، ولم تكن عضباء .

٩ – يوم بنى المُصْطلِق*

بلغ رسولَ اللهِ أنّ بنى المُصْطَلِق يجمَعون له ، وقائدُهم الحارثُ بن أبى ضِرار ، فخرج إليهم حتى لقيهم على ماء يقال له المُرَيْسِيع(١) ، وتزاحفَ الناسُ واقتتلوا ، فهزَمَ المسلمون بنى المُصْطَلِق ، وقتلوا منهم خَلْقاً كثيرا .

ورجع الناسُ إلى الماء ، وأقبلَ عمرُ بن الخطاب على فرسٍ يقودُه جَهْجَاه بن مسعود ، وازدحم هذا مع سِنَان بن وَبْرَة الجُهَنِىّ – حليف بنى عوف بن الخزرج – على الماء ، واقتتلا ، فصرخ الجهنىّ : يا معشر الأنصار ! وصرخ جَهْجاه: يا مَعْشَر المهاجرين ! ولما سمع عبدُ الله بن أُبَىّ غضب وقال : أوَقَدْ فعلُوها ! قد نافرُونا وكاثرُونا فى بلادِنا . أمَا واللهِ لئِنْ رجَعْنَا إلى المدينة لَيُخْرِجَنَّ الأعزُّ منها الأذَلّ .

ثم أقْبَل على مَنْ حَضَر مِنْ قومه وقال : هذا ما فعلتم بأنفُسكم ! أحلَلْتُموهم بلادَكم ، وقاسَمْتُموهم أموالَكُم . أمَا واللهِ لو أمسكتمْ عنهم ما بأيديكم لتحوَّلوا إلى غيرِ دارِكم .

وسمع ذلك زيدُ بن أرْقَم ، فمشى إلى النبىِّ صلّى الله عليه وسلَّم وأخبَره الخبر . وكان عمرُ بن الخطاب عند رسول الله حينذاك وسمعَ الحديثَ ، فقال : مُرْ بقَتْلِه يا رسولَ الله ؛ فقال : فكيف يا عُمَر إذا تحدَّث الناسُ أنَّ محمداً يقتل أصحابَه ! لا ، ولكن أذِّنْ بالرحيل .

---

* سيرة ابن هشام : ٣ : ٣٣٣ ، الطبرى ٣ : ٦٣ . كان فى السنة السادسة من الهجرة . وبنو المصطلق : جماعة من خزاعة .

(١) المريسيع : بئر لخزاعة ، وقد تضاف إليه غزوة بنى المصطلق ، فيقال : غزوة المريسيع .

فارتحل الناسُ وعلم عبدُ الله بن أُبَىّ بما بلغ رسول الله ، فمشى إليه وحلَفَ أنه ما تـكلّم بذلك الـكلام ، فقال بعضُ مَنْ حضر مِنَ الأنصار : يا رسولَ الله ؛ عسى أن يكون الغلامُ قد أوْهَم(١) فى حديثِه ولم يحفَظْ ما قال الرجل !

وسار رسولُالله ؛ فلقِيَه أُسَيْد بن حُضَير ، فحيّاه بتحيّةِ النبوّة ، وسلّم عليه، ثم قال : يا نبىّ الله ؛ لقد رُحْتَ(٢) فى ساعةٍ مُنْـكَرَة ما كنتَ تَرُوحُ فى مثلها . فقال رسولُ الله : أَوَما بلغَك ما قال صاحبُـكم ! قال : وأىُّ صاحبٍ يا رسولَ الله ! قال : عبدُ الله بن أُبىّ . قال : وماذا قال ؟ قال : زعم أنهُ إنْ رجع إلى المدينة أخرج الأعزّ منها الأذلّ . قال : يا رسولَ اللهِ ؛ فأنتَ الذى تخرجُه منها إن شئتَ ، هو واللهِ الذليلُ وأنتَ العزيز ! يا رسولَ اللهِ ، ارفُق به ، فقد جاءنا اللهُ بكَ ، وإنَّ قومه لينظِمون له الخرز ليُتوّجوه ، وإنه ليَرَى أنك قد استَلبْتَه المُلْكَ .

ثم مَشَى رسُولُ اللهِ بالناس يومَهم ذلك حتى أمْسى ، ولَيْلتَهم حتى أصبح ، وصَدْرَ يومِهم ذلك حتى آذتهم الشمسُ . ثم نزل بالناس فلم يلبثوا أن وجدوا مَسَّ الأَرْضِ حتى وقعوا نِياماً . وإنما فعل ذلك رسولُ اللهِ ليشغَل الناسَ عن الحديثِ الذى كان مِنْ عَبْدِ الله بن أُبىّ .

وبلغ عبدَ الله بنَ عبد الله بن أُبَىّ ما كان من أَمْر أبيه ، فقال يا رسولَ اللهِ ؛ إنى قد سمعتُ أنك تريدُ قتْلَ أبى لِما بلغك عنه ، فإن كنتَ لا بُدَّ فاعلًا فمُرْنى أَحمِل إليك رأْسَه ، والله ما عَلِمَ الناسُ رجلاً أبرَّ بوالده منى ، ولـكنى أخشى أن تأمرَ غيرى بقَتْلِه ثم لا تستريح نفسى حتى أقتلَ ذلك الذى أمرته بقَتْله ، فأكون قد قَتَلْتُ رجلا مؤمنا بكافرٍ فأَدْخُل النار . فقال رسول الله : بل نترفّق به ونحْسِن صُحْبَتَه مابقِى معنا .

---

(١) أوهم : غلط ولم يتحقق . (٢) رحت : رجعت .

وقسّم رسولُ الله سبَايا بنى المُصْطَلِق ، فوقَعَتْ جُوَيْرِية بنتُ الحارث لثابت ابن قيس فكاتبَتْه(١) على نفْسِها ، فأتتْ رسولَ الله تَسْتَعِينُه فى أمرِها ، وقالت : يا رسول الله ؛ وقعتُ فى نصيبِ ثابت بن قيس فكاتَبْتُه على نفسى ، وجئتُك أستعينُك على ذلك . فقال : وهَلْ لَكِ فى خَيْرٍ من ذلك ؟ قالت : وما هو يا رسول الله ؟ قال : أَقضى عنكِ كِتابَتَك وأتزوّجك . قالت : نعم ، يا رسول الله ، قال : قد فَعَلْت .

وذاع الخبرُ بين الناس ، فأرسلوا ما بأيديهم ، وأَعتقوا نحو مائة أهل بيت من بنى المُصْطَلِق ، وقالوا : أصهار رسول الله .

ودفع رسولُ الله جُوَيْرِية إلى رجل من الأنصار وديعةً حتى قدم المدينة ، وهناك أقبل أَبوها ـ الحارث بن أَبى ضِرار ـ بفِدَاء ابنته ، وقال : يا محمد ؛ أسرتم ابنتى ، وهذا فِداؤها .

ودَفع الفِدَاء إلى النبىّ صلى الله عليه وسلم وأخذ ابْنَتَه ، وأسلم الحارثُ وابنتُه ، فخطبها رسول الله إلى أبيها ، ثم تزوَّجها(٢) .

---

(١) المكاتبة : أن يتفق السيد مع مولاه على مبلغ من المال ، فإذا أداه عتق .

(٢) فى هذه الغزوة كان حديث الإفك ، وهو مبسوط فى كتابنا : « قصص القرآن » .

١٠ — يوم الحُدَيْبِيَّة*

خرج رسولُ الله قاصِدًا مكة لزيارة البيتِ ، لا يَبْغِى حَرْباً ولا قِتَالًا ، ولـكنّه استَنْفَرَ[١] المسلمين ومَنْ حوله من الأَعْراب أَنْ يخرجُوا معه ، خشية أن تَعْرِض له قُرَيش بحرب ، أو يصدُّوه عن البيت ، فتثَاقَل الأعراب ، وقالوا : أنذهبُ إلى قومٍ قد غزَوْا محمداً فى عُقْرِ داره بالمدينة ، وقتلوا أصحابَه ، فنقاتلهم معه ! واعتلّوا بشغلهم بأموالهم وأهليهم[٢] .

وخرج رسولُ الله بمَنْ معه من المهاجرين والأنصار ، ومَنْ لحقَ به من العرب ليس معهم من السلاح إلا السُّيوفُ فى القُرُب[٣] ، وساق معه الهَدْىَ[٤] ، وأَحْرَمَ بالعُمْرَة[٥] ليأمَنَ الناسُ حَرْبَـه ، وليعلموا أنه جاء زائراً للبيت ، معظماً له .

ولمّا كان بعُسْفَان[٦] لَقِيَه بِشْر بن سفيان فقال : يا رسولَ الله ؛ هـذه قريش قد سمِعَتْ بمَسيرك ، فخرجوا معهم العُوذُ المَطَافيل[٧] ، وقد لبسوا جلودَ النُّمور ، ونزلوا بذى طُوًى[٨] ، وعاهدوا أنفسهم أَلَّا تدخلها عليهم أبدا ؛ وهذا خالدُ بن الوليد فى خيلهم بكُرَاع الغَمِيم[٩] .

---

* الطبرى : ٣ ــ ٧١ ، سيرة ابن هشام : ٣ــ ٣٥٥ ، السيرة الحلبية : ٣ ــ ١٠ ، سيرة دحلان : ٢ــ١٩٢ . كان فى السنة السادسة من الهجرة . والحديبية : موضع بينه وبين مكة مرحلة واحدة ، وفى يائها الثانية التشديد والتخفيف . (١) استنفر المسلمين : استنجدهم واستنصرهم .

(٢) وذلك قوله تعالى : (سيقول لك المخلفون من الأعراب شغلتنا أموالنا وأهلونا) .

(٣) القرب : جمع قراب ، وهو غمد السيف . (٤) الهدى : ما أهدى إلى مكة من النعم .

(٥) العمرة : الطواف بالبيت والسعى بين الصفا والمروة فقط ، والفرق بين الحج والعمرة أن العمرة تجوز للإنسان فى السنة كلها ، والحج فى وقت معروف من السنة ، مع زيادة بعض الأعمال .

(٦) عسفان : موضع بين مكة والمدينة . (٧) العوذ : جمع عائذ ، وهى الناقة الحديثة النتاج . والمطافيل : التى لها أطفال . (٨) ذو طوى : واد بمكة (٩) كراع الغميم : موضع بين مكة والمدينة .

فقال رسول الله : يا وَيْحَ قريش ! قد أكَلَتْهمُ الحرب ، ماذا عليهم لو خَلّوا بينى وبينَ سائر العرب ؛ فإن أصابونى كان ذلك الذى أرَادُوا ، وإن أظْهَرَنى الله عليهم دخَلوا فى الإسلام وَافِرين ، وإن لم يفعلوا قاتَلُوا وبهم قوّة ، فما تظنُّ قريش ! فو اللهِ لا أزالُ أُجاهدُهم على الذى بعثنى الله به حتى يُظْهِرَه الله أو تنفَرِدَ هذه السالفة[1] ! ثم قال : مَنْ رجلٌ يخرجُ بنا على طريق غير طريقهم التى هم بها ؟ فقال رجل من أسلم : أنا يا رسولَ الله . ثم سلك بهم طريقاً وَعْرا ، وخرجوا منه بعد أن شقَّ عليهم ذلك ، فأمرهم الرسول : أن اسلكوا ذات اليمين . ولما سار الجيش رأت خيلُ قريش قَتَرَةَ[2] الجيش ، وأن رسول الله قد خالفهم عن طريقهم ، فركضُوا راجعين إلى مكة .

وسار رسولُ الله حتى إذا سلك فى ثنيَّة المُرَارِ[3] بركت ناقتُه ، فقال الناس : خَلَأَت الناقة[4] ! فقال : ما خَلَأَتْ وما هو لها بخُلُق ، ولكِنْ حَبَسها حابسُ الفِيلِ عن مكّة ، لا تَدْعُونى قريش اليوم إلى خُطة يسألوننى فيها صِلَةَ الرحم إلا أعطيتهم إياها .

ونزل رسولُ الله بأقصَى الحديبية . ولما اطمأنَّ به المقام جاء بُدَيل بن وَرْقَاء الخزاعى فى نفرَ من قومه[5] ـ وكانوا عَيْبَة[6] نُصْحِ رسول الله من أهل تهامة . فقال: إنى تركتُ كعْبَ بن لؤىّ وعامر بن لؤىّ قد نزلوا أعْدَادَ مياهِ الحدَيْبية[7]، معهم أسلحتهم ، وهم مقاتِلوك وصادُّوك عن البيت فقال رسول الله : إنَّا لم نأْتِ لقتالِ أحد ، ولكنا جئنا مُعْتَمرين ، وإنَّ قريشاً قد نهكتْهمُ الحرب ، وأضرَّت بهم ،

---

(١) السالفة : صفحة العنق ، وكنى بانفرادها عن الموت . (٢) قترة الجيش : الغبار الذى يثور عند سيره . (٣) عند الحديبية . (٤) خلأت : حرنت ولم تسر . (٥) قومه : خزاعة . (٦) عيبة الرجل : موضع سره . (٧) العد ـ بالكسر ـ : الماء الدائم الذى له مادة لا انقطاع لها مثل ماء العين وماء البئر ، وجمعه أعداد .

فإن شاءوا مادَدْناهم مُدّة ، ويخلُّوا بينى وبين الناس ، فإن أظهرْ فإن شاءوا أن يَدْخُلوا فيما دخل فيه الناس فَعَلُوا ، وإلّا فقد جَمُّوا[(١)] ، وإن أبَوْا ، فو الذى نفسى بيده لأُقَاتِلنَّهم على أمرى حتى تنفردَ سالِفَتى ، أو لينفذنَّ الله أمرَه . فقال بُدَيل : سنبلِّغهم ما تقول .

وانطلق حتى أتى قريشاً ، فقال : إنا قد جئناكم من عند هذا الرجل ، وسمعناه يقولُ قولا ؛ فإنْ شئتم أن نعرضَه عليكم فعلْنَا . فقال سفهاؤهم : لا حاجةَ لنا أن تحدِّثونا عنه بشيء . وقال ذَوُو الرأى منهم : هاتِ ما سمعتَه . فقصّ عليهم ما سمع من الرسول ، فقالوا : وإنْ كان لا يريد قتالًا فَلَنْ يدخلها علينا عَنْوَةً أبداً ، ولا تتحدَّثُ العربُ عنّا بذلك .

ثم بعثت قريش إلى الرسول مِكْرَز بن حفص ، فلما رآه مُقْبِلاً قال : هذا رجل غادرٌ . فلما انتهى إليه كلَّمه نحوْاً مما قال لبُدَيل وأصحابه ، فرجع إلى قريش ، فأخبرهم بما قال الرسول .

ثم بعثوا إليه الحُلَيْس بن علقمة — وكان يومئذ سيد الأحابيش[(٢)] — فلما رآه الرسول قال : إنَّ هذا من قوم يتألّهون[(٣)] ، فابعثوا الهَدْىَ فى وجهه حتى يَرَاهُ . فلما رأى الهَدْى يَسِيل عليه من عُرْض[(٤)] الوادى فى قَلَائده[(٥)] — وقد أكل أوبارَهُ من طول الحبْس — عن مَحَلِّه[(٦)] رجع إلى قُرَيش ، ولم يصل إلى رسولِ الله إعْظاما لما رأى ، وأخبر قريشا بما رأى ، فقالوا له : اجلس ؛ فإنما أَنْتَ أعرابىّ لا عِلمَ لك ، فقال :

---

(١) جموا استراحوا وكثروا . (٢) الأحابيش : أحياء من القارة انضموا الى بنى ليث فى الحرب التى وقعت بينهم وبين قريش قبل الإسلام ، سموا بذلك لاسودادهم . (٣) التأله : التعبد (٤) العرض : الجانب والناحية . (٥) القلائد : ما يعلق فى أعناق الهدى ليعلم أنه هدى.

(٦) محله : موضعه الذى ينحر فيه من الحرم .

يامعشر قريش! والله ماعلى هذا حالفناكم ، ولا على هـذا عاقدناكم ، أيُصَدُّ عن بَيْتِ الله منْ جاء معظِّماً له ! والذى نفسُ الحليس بيده لَتُخَلُّنَّ بين محمدٍ وبين ماجاء له ، أو لأنفِرَنَّ بالأحابيش نفْرَة رجلٍ واحد . قالوا : مَهْ ! كفَّ عنا ياحُلَيْس حتى نأخذَ لأنفسنا مانَرْضَى به .

ثم بعثوا إلى رسول الله عُرْوة بن مسعود الثقفيّ ، فقال لهم : يامعشَرَ قريش ؛ إنى قد رأيتُ ما يَلْقَى منكم مَنْ بعثتموه إلى محمدٍ ـ إذا جاءكم ـ من التَّعْنِيف وسوء اللفظ ، وقد عرفْتم أنى والدٌ وأنِّى وَلَد[(١)] ، وقد سمعتُ بالذى نابَكم ، فجمعتُ مَنْ أطَاعنى مِنْ قومى ، ثم جئتكم حتى آسيْتُكم بنفسى[(٢)] . قالوا : صدقْتَ ، ماأنت عندنا بمتَّهَم .

فخرج حتى أتى رسولَ الله ، فجلس بين يديه ، ثم قال : يامحمد ؛ أجَمَعتَ أوشابَ[(٣)] الناسِ ، ثم جئتَ بهم إلى بَيْضتِك تَفُضُّها[(٤)] ! إنها قريشٌ قد خرجت معها العوذُ المطَافِيلُ[(٥)] قد لبسوا جلودَ النمور ، يعاهدون أنفسهم ألا تدخلها عليهم عَنْوَةً أبدا ، وايمُ الله لكأنى بهؤلاء قد انكشفوا[(٦)] عنكَ غدا . فقال أبو بكر : أنحن ننكشفُ عنه ! قال : مَنْ هذا يامحمد ؟ قال : هذا ابن أبى قُحَافة ، قال : أما والله لولا يَدٌ كانت لكَ عندى لكافأتُك بها ، ولكن هذه بتلك . ثم جعل يتناولُ لحية الرسول وهو يكلِّمه ، فجعل المغيرة بن شُعْبة يَقْرَع يده إذا تناول لحية الرسول ويقول : اكفُفْ يدك . فقال عُرْوة : وَيْحَك ! ماأفظَّك وأغلظك ! فتبسّم رسول الله

---

(١) أى كالوالد لهم فى حب الخير لهم ، وأنه كالولد لهم ، لأن أمه سبيعة بنت عبد شمس .

(٢) آسيتكم : جعلتكم فى مالى أسوة بنفسى . (٣) أوشاب : أخلاط . (٤) بيضتك : أصلك وعشيرتك . وتفضها : تكسرها . (٥) العوذ : النياق الحديثات النتاج . والمطفل : التى لها طفل ، وجمعها مطافيل . (٦) انكشفوا عنك : انهزموا وتركوك وحدك أمام عدوك .

فقال عروة : مَنْ هـذا يامحمد ؟ قال هـذا : ابنُ أخيك المغيرة بن شعبة . قال : أي غُدَر ! وهل غسلْت سوءتك إلّا بالأمس[١] ! ثم إن عروة جعل يرْمُق أصحابَ النبيّ بعينه ، فرآهم إذا أمرهم ابتدروا أمره[٢] ، وإذا توضّأ كادوا يقتتلون على وَضوئه[٣] ، وإذا تكلّموا عنده خفضوا أصواتهم ، وما يُحِدُّون النظر إليه تعظيماً له .

ثمّ رجَع إلى قريش فقال : يامعشَر قُريش ، إنى قد جئتُ كِسْرَى فى ملكه ، وقَيْصَر فى ملكه ، والنجاشيّ فى ملكه ، وإنى مارأيت فى قومٍ قطّ مثل محمدٍ فى أصحابه ، ولقد رأيتُ قوما لايُسلمونه لشيء أبدا ، فرَوْا رأيكم !

ثم دعا رسولُ الله عمرَ بن الخطاب ليبعثَه إلى مكة ، فيبلّغ عنه أشرافَ قريش ماجاء له . فقال : يارسولَ الله ، إنى أخاف قريشاً على نفسى ، وليس بمكّةَ من بنى عدِيّ[٤] أحدٌ يمنعنى ، وقد عرفَتْ قريش عَداوَتى إياها ، وغِلْظتى عليها ، ولكنى أدلّك على رجلٍ هو أعزّ بها منى ، هو عثمان بن عفّان .

فدعا رسولُ عثمانَ ، وبعثَه إلى أشراف قريش ، يخبرُهم أنه لم يأتِ لحرب ، وإنما جاء زائرا لهذا البيت معظّما لحرمته . فخرج عثمانُ إلى مكة ، فلقيَه أَبَان بن سعيد، فنزل عن دابّتِه ، وأجاره ، حتى بلّغ رسالةَ رسول الله .

وانطلق عثمان حتى أتى أبا سفيان وعظماء قريش ، فبلّغهم عن رسول الله ماأرسله به . فقالوا لعثمان ، حين فرغ من رسالته : إن شئتَ أن تطوفَ بالبيت فطُفْ به . قال : ما كنتُ لأفعَل حتى يطوفَ به رسولُ الله . فاحتَبَسَتْه قريش عندها .

---

(١) كان المغيرة قد قتل ثلاثة عشر رجلا من بنى مالك ، فودى عروة المقتولين ، وأصلح الأمر بذلك . (٢) ابتدروا أمره : بادر بعضهم بعضاً إليه ، أيهم يسبق إليه فيغلب .

(٣) الوضوء ــ بفتح الواو : الماء الذى يتوضأ به . (٤) قوم عمر .

فبلغ رسولَ الله والمسلمين أن عثمان قد قُتِل . فقال الرّسول : لا نبرحُ حتى نناجزَ(١) القوم ، ودعا الناسَ إلى البَيْعَة ، ونادى المنادى : أيها الناس ، البيعةَ البيعةَ ! فثارُوا إلى رسول الله ، وهو تحت شجرةٍ فبايعوه . ثم أتى رسولَ الله أن الذى وصل من أمر عثمان باطل .

***

ثم بعثت قريش سُهيل بن عمْرو إلى رسولِ الله ، وقالوا له : إيت محمداً فصالِحْه ، ولا يكنْ فى صُلْحه إلا أنْ يرجعَ عنّا عامَه هذا ، فو الله لا تحدِّثُ العربُ أنه دخلها علينا عَنْوَةً أبدا .

فأتاه سُهَيل بن عمرو ، فلما رآه الرسولُ قال : قد أراد القومُ الصلح حين بعثوا هذا الرجل . فلما انتهى سُهيل بن عمْرو إلى رسول الله تكلّم فأطال الكلام ، وتراجعا ، ثم جرى بينهما الصُّلْحُ .

فلما الْتَأم الأمر ، ولم يبقَ إلا الكتاب(٢) وثَبَ عمر بن الخطاب فأتى أبا بكر ، فقال : يا أبا بكر ؛ أليس برسولِ الله ؟ قال : بلى ، قال : أو لَسْنَا بالمسلمين ؟ قال : بلى ، قال : أو ليسوا بالمشركين ، قال : بلى ، قال : فعلامَ نُعْطِى الدَّنِيَّة(٣) فى ديننا ! قال أبو بكر : يا عمر ، الْزَم غرْزَه(٤) ؛ فإنى أشهدُ أنه رسول الله . قال عمر : وأنا أشهدُ أنه رسول الله .

ثم أتى النبيَّ صلى الله عليه وسلم ، فقال : يا رسول الله ؛ ألستَ برسول الله ؟ قال : بلى ، قال : أو لسنا بالمسلمين ؟ قال : بلى ، قال : أو ليسوا بالمشركين ؟

---

(١) نناجز : نقاتل . (٢) الكتاب : الكتابة والتدوين . (٣) الدنية : الذل والصغار والهوان . (٤) الغرز : بمنزلة الركاب للسرج فى الأصل ، أى لاتحد عن طريقه ، ولا تختر لنفسك إلا ما يختاره .

قال : بلى . قال : فعَلَامَ نُعْطِي الدَّنِيَّةَ فى ديننا ؟ قال : أنا عبدُ الله ورسوله ، لَنْ أخالِفَ أَمْرَه ، ولن يُضيّعنى[1] .

ثم دعا رسولُ الله عليَّ بن أبى طالب ، فقال : اكْتُبْ : «بسم الله الرحمن الرحيم». فقال سُهيل : لا أعرف هذا ، ولكن اكتب: باسمك اللهم. فقال رسولُ الله : اكْتُبْ باسمك اللهم . فكتبها ، ثم قال : اكتب : « هذا ما صالح به محمد رسول الله سُهيل ابن عمر ... » قال سهيل : لو شهدتُ أنك رسولُ الله لم أقاتلك ، ولكن اكتب اسمك واسمَ أبيك . فقال رسول الله : اكتب : «هذا ما صالَحَ عليه محمد ابن عبد الله سُهَيل بن عمرو ، واصطلحا على وَضْعِ الحرب عن الناس عَشْرَ سنين ، يأمَنُ فيهنَّ الناسُ ، ويكفُّ بعضُهم عن بَعْضٍ ، على أنه من أتى محمداً من قريش بغير إذْنِ وَليِّه ردَّه عليهم ، ومن جاء قريشا ممَّن مع محمد لم يردّوه عليه ، وأن بيننا عَيْبَةً[2] مكفوفة ، وأنه لا إسْلَالَ ولا إغْلَالَ[3] ، وأنه من أحبَّ أن يدخُلَ فى عَقْد محمد وعَهْده دخل فيه ، ومن أَحبَّ أن يدخلَ فى عَقْد قريش وعَهْدِهم دخل فيه» .

فتَوَاثَبَتْ خُزَاعة فقالوا : نحن فى عَقْد محمد وعَهْدِه ، وتواثبت بنو بكر وقالوا : نحن فى عَقْد قريش وعَهدهم .

ثم اتفقوا أن يعودَ المسلمون هذا العامَ فلا يدخلوا مكة ، وأنه إذا كان عامٌ قابل يدخلها الرسول بأصحابه ؛ ومعهم سِلَاح الراكب ، السيوف فى القُرُب ، ويقيمون بها ثلاثا[4] .

---

(١) كان عمر يقول : ما زلت أتصدق وأصوم وأصلى وأعتق من هذا الذى صنعته يومئذ مخافة كلامى الذى تكلمت به . (٢) العيبة : ما يجعل فيه الثياب ، والمكفوفة : المشرجة ، ومعناه : إن بيننا وبينهم فى هذا الصلح صدراً معقوداً على الوفاء بما فى الكتاب . (٣) الإسلال : السرقة الخفية والإغلال : الخيانة . (٤) قد كان أصحاب رسول الله خرجوا وهم لا يشكون فى الفتح لرؤيا رآها الرسول . فلما رأوا ما رأوا من الصلح والرجوع دخل عليهم من ذلك أمر عظيم .

وبينما رسول الله يكتُب الكِتَابَ هو وسُهَيل بن عمرو ؛ إذ جاءه أبو جَنْدَل بن سُهيل بن عمرو يرسُفُ فى الحديد ، قد انفلت إلى رسول الله .

فلما رأى سُهَيل أبا جَنْدَل قام إليه فضرب وجهه وأخذ بتَلْبيبه[1] ، ثم قال : يا محمد ، قد لجّت[2] القضيَّةُ بينى وبينك قبل أن يَأْتيكَ هذا . قال : صدقت . فجعل يَنْتِرُه[3] بتَلْبِيبه ، ويجرُّه لِيَرُدَّه إلى قريش ، وجعل أبو جَنْدَل يصرخ بأعلى صوته : يامعشر المسلمين ؛ أأُرَدُّ إلى المشركين يَفْتِنُونَنى فى دينى ! فزاد ذلك الناس إلى مابهم .

فقال الرسول : ياأبا جَنْدَل ؛ اصبرْ وَاحْتِسبْ ؛ فإنَّ الله جاعلٌ لك ولمَنْ معك من المستضعفين فَرَجاً ومخرجا ، إنَّا عَقَدْنا بيننا وبين القوم صُلْحا ، وأعطيناهم على ذلك ، وأعطَوْنا عَهْد الله . وإنا لانَغْدِر بهم .

فلما فرغ من الكتاب شهد على الصُّلح رجال من المسلمين ورجال من المشركين ، ثم قال النبى صلى الله عليه وسلم لأصحابه : قوموا فانْحَروا ثم احلِقوا، فلم يَقُمْ منهم أحد . فدخل على أمِّ سلَمة ، فذكر لها مالَقِىَ من الناس ، فقالت له : اخرُج ، ثم لا تكلِّم أحداً منهم كلمةً حتى تنْحَر وتدْعُو حالِقَك ! فقام فخرج، فلم يكلِّمْ أحداً منهم كلمةً حتى نَحَر بدَنَتَه ، وحَلَق رأسه . فلما رأوا ذلك قاموا فنحروا وحلقوا .

وقفل الرسولُ إلى المدينة ، لم يدخل مكة ، ولم يلق حَرْبا .

ولما قدم المدينة أتاه أبو بَصير ــ عُتبة بن أسَيد ــ لاجئا ، فكتب فى ردّه أزْهَرُ

---

(١) أخذ فلان بتلبيب فلان ؛ إذا جمع عليه ثوبه الذى هو لابسه عند صدره وقبض عليه يجره.
(٢) لجت القضية : انعقدت ، وانتهى أمرها . (٣) النتر : الجذب .

ابن عبد عوف ، والأخنس بن شَريق كتابا ، وبعثا به رجلا من بنى عامر ، ومعه مولى يَهْدِيه الطريق ؛ فقَدِما على رسولِ الله بالكتاب ، فقرأه أُبَىّ بن كعب على رسول الله ، فإذا فيه : قد عرفتَ ماشارَطْنَاكَ عليه مِنْ رَدِّ مَنْ قدِم عليك من أصحابنا ، فابعَثْ إلينا بصاحبنا . فقال رسول الله : ياأبا بصير ؛ إنا قد أعطينا هؤلاء القوم ماعلمْتَ من عهد ، ولا يصلحُ فى ديننا الغَدْر ، وإن الله جاعل لك ولمن معك من المستضعفين فَرَجاً ومَخْرجاً ، فانطلِقْ إلى قومك . فقال : يارسولَ الله ؛ أتردُّنى إلى المشركين يفتنوننى فى دينى ! قال : ياأبا بَصير ؛ انطلق ، فإنَّ الله سيجعلُ لك ولمَنْ حولك من المستضعفين فرَجا ومخرجا .

فانطلق أبو بَصير معهما حتى إذا كان بذى الحُلَيْفَةِ[1] جلس إلى جدارٍ ومعه صاحباه ، فقال أبو بَصير لأحدِ صاحبيه ـ ومعه سيفُه : أصارمٌ سيفك هذا ياأخابنى عامر ؟ فقال : نعم ؛ انظُرْ إليه إن شئتَ ، فاستلَّه أبو بَصِير ثم عَلَاه به حتى قتَله . وخرج المَوْلَى سريعا حتى أتى الرسول ، وهو جالس فى المسجد ، فقال له : قتلَ صاحبُكم صاحبى .

وما برح حتى طلع أبو بَصير متوشّحاً بالسيف ، ووقف على رسولِ الله ، فقال : يارسولَ الله ؛ وَفَتْ ذِمَّتُك ، وأدّى اللهُ عنك ، أَسْلَمْتَنِى بيد القومِ ، وقد امتنعتُ بدينى أنْ أُفْتَن فيه أو يُعْبَث بى . فقال رسول الله : ويلِ أُمّه مِحَشّ[2] حَرْب لو كان معه رِجال !

وقال لأبى بَصير : اذْهَب حيثُ شئت ، فخرج أبو بَصير حتى نزل على

(١) موضع فى تهامة .
(٢) فلان محش حرب : موقد نارها .

ساحل البحر بطريق قريش إلى الشام بالتجارة ، واجتمع إليه كثيرٌ من المسلمين[1] كانوا احتُبِسوا بمكة ، ورَصَدُوا لكل قرشيٍّ يذهب ، لا يظفرون بأحد منهم إلّا قتلوه ، ولا تمرّ بهم عِير إلا أخذوها ، حتى ضَجَّت قريش وكتَبَتْ إلى رسول الله تسأله بأرحامها إلا آوى هؤلاء ، فلا حاجة لهم بهم . فآواهم رسولُ الله ثم استقدمهم إلى المدينة .

---

(١) كان منهم أبو جندل بن سهيل .

١١ — يوم مُؤْتة*

أرسل النبيُّ صلى الله عليه وسلم الحارثَ بن عُمير الأزْدِيَّ بكتاب إلى أمير بُصْرَى[١] من قِبَل الحارثِ بن أبي شمر الغسّانيّ ، فلما نزل مُؤْتَة عرض له شُرَحبيل ابن عَمرو الغسّانيّ ، فقال له : إلى أين تريدُ ؟ فقال : الشام . فقال : لعلك من رُسُلِ محمد ! قال : نعم . فأمر به فأُوثِق ، ثم قدَّمَه فضَرب عُنُقَه .

ولما علم رسول الله بذلك بعث بَعْثَهُ إلى مُؤْتة ، واستعمل عليه زيد بن حارثة ، ونَدَبَ[٢] القومَ . وقال : إن أُصيبَ زيد فجعفر بن أبي طالب على الناس ، فإن أُصيب جعفر فعبدُ الله بن رَوَاحَةَ على الناس . وأمرهم أَنْ يأْتُوا مقتل الحارث ابن عمير ، وأَنْ يدْعُو مَنْ هناك إلى الإسلام ، فإن أجابوا إلّا فَلْيَسْتَعِينوا عليهم بالله ويُقاتلوهم .

فتجهّز الناسُ وتهيَّئُوا للخروج ، وكانوا ثلاثةَ آلاف ، ولما حان موعدُ خروجهم ودّع الناسُ أمراءَ النبيّ وسلّموا عليهم ، فلما وُدِّع عبد الله بن رَوَاحة مع مَنْ وُدِّع بكى . فقالوا : ما يبكيك يابنَ رَوَاحة ؟ فقال: أما والله مابي حُبُّ الدنيا ولا صَبَابَةٌ[٣] بكم ، ولكني سمعتُ رسول الله يقرأُ آيةً من كتاب الله يذكر فيها النار : ﴿وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتْماً مَقْضِيًّا﴾[٤]. فلستُ أَدْرِي كيف لى

---

* سيرة ابن هشام : ٣-٤٣٧ ، الطبرى : ٣- ١٠٧ ، السيرة الحلبية : ٣-٧٦ ، سيرة دحلان : ٢ - ٢٣٩ . وكان هذا اليوم في السنة الثامنة من الهجرة . ومؤتة : موضع بالشام على مرحلتين من بيت المقدس .

(١) بصرى : بلد بالشام . (٢) ندب القوم : دعاهم إلى الخروج . (٣) الصبابة : الشوق، أو رقته وحرارته . (٤) سورة مريم ٧١ .

بالصَّدَر[1] بعد الورود ! فقال المسلمون : صَحِبَكم الله ، ودفع عنكم ، وردّكم إلينا صالحين . ثم قال عبد الله بن رَوَاحة :

لكنّنى أسألُ اللهَ مغفرةً وضربةً ذاتَ فَرْغٍ تقذِفُ الزَّبَدا[2]
أو طعنةً بِيَدَىْ حرّانَ مُجْهِزَةً[3] بحَرْبَةٍ تُنْفِذُ الأحشاء والكبدا
حتى يُقَالَ إذا مرُّوا على جدَثِى[4] أَرْشَدَهُ اللهُ مَنْ غازٍ وَقَدْ رَشَدَا

ثم خرج القومُ وخرج الرسولُ يشيِّعُهم ، وَلمَّا وَدَّعَهم قال : أُوصيكم بتقوى اللهِ وبمَنْ معكم من المسلمين خيراً ، اغزُوا باسمِ الله فى سبيل الله مَنْ كفر بالله ، لا تَغْدِرُوا[5] ، ولا تَغُلُّوا[6] ، ولا تقتلوا وَلِيداً ولا امرأة ، ولا كبيراً فانياً ، ولا منعزِلا بصَوْمعةٍ ، ولا تقرَبوا نخلاً ، ولا تقطعوا شجراً ، ولا تهدِموا بيْتاً .

ثم مَضَوْا حتى نزلوا مَعَان من أَرْض الشام ، فبلغ الناس أنَّ هِرَقْل قد نزل مَآبَ — من أرض البلقاء — فى مائة ألف من الروم ، وانضمَّ إليهم لَخْم وجُذَام وبهْراء وبلِىّ . فلما بلغ ذلك المسلمين أقاموا على مَعَان ليلتين يفكِّرون فى أمرهم وقالوا : نَكْتُبُ إلى رسول الله فنُخْبِرُه بعددِ عدوِّنا ، فإما أن يمدَّنا بالرجال ، وإمَّا أن يأمُرَنا بأمره فنَمْضىَ له .

فقال عبدُ الله بن رَوَاحة : يا قوم ، إن التى تكرهون لَلَّتى خرجْتم تطلبون من الشهادة . وما نقاتلُ الناس بعددٍ ولا قُوَّةٍ ولا كَثْرَةٍ ، ولا نقاتلُهم إلا بهذا الدين الذى أكْرَمَنا اللهُ به ، فانطلِقُوا فإنما هى إحدى الحسنَيَيْن : إما ظهور وإما شهادة .

---

(١) الصدر : الرجوع . (٢) ذات فرغ : واسعة يسيل دمها . (٣) مجهزة : سريعة القتل : (٤) الجدث : القبر . (٥) الغدر : نقض العهد . (٦) غل وأغل : خان .

فقالَ الناس : قد صدق والله ابنُ رَوَاحة .

* * *

ثم مضى الناسُ حتى إذا كانوا بتُخُوم[١] البَلْقَاء لقِيَتْهُم جموعُ هِرَقْل من الروم والفرس عند مَشَارِف من قرى الشام . ولما دنا العدوّ انحاز المسلمون إلى مُؤْتَة ، ثم تعبَّئوا لهم ، وجعلوا على ميمنتهم قُطْبَة بن قتادة من بنى عُذْرَة ، وعلى ميسرتهم عَبَاية ابن مالك من الأنصار ، وحمل الراية زيد بن حارثة .

ثم التقى الجمعان ، وقاتل زيد بنُ حارثة حتى شاط[٢] فى رِمَاح القوم . فأخذ الراية جعفر بن أبى طالب وارتجز :

يا حبّذَا الجنَّةُ واقترابهـا طيِّبَةً وبارداً شَرَابهَا
والروم رُومٌ قد دَنَا عذابهـا كافرةً بعيدةً أنسابهـا
* علىَّ إذ لاقيتها ضِرَابها *

ثم لم يلبث أن قُتِل .

وأخذ عبد الله بن رَوَاحة الرَّاية وتقدّم بها على فرسه ، وارتجز :

أقسمتُ يا نفسُ لتنزلنّهْ لتنزلنَّ أو لتُكرَهِنّهْ
إن أجلبَ[٤] الناسُ وشدّوا الرَّنَّهْ[٥] مالى أراكِ تكرَهِينَ الجنَّهْ !
قد طالما كنتِ مُطْمئِنَّهْ هل أنتِ إلا نُطْفَةٌ فى شَنَّهْ[٦]

* * *

يا نفسِ إلّا تُقْتَلى تموتى هـذا حِمَامُ الموتِ قد صَلِيتِ

---

(١) التخوم : مايفصل بين الأرضين من المعالم والحدود . (٢) شاط : إذا سال دمه وهلك.
(٣) الضراب : المجالدة والقتال . (٤) أجلب الناس : صاحوا واجتمعوا . (٥) الرنة : الصيحة الحزينة . (٦) النطفة : الماء القليل ، والشنة : القربة الخلق .

وما تمنيتِ فقد أُعطِيتِ إن تفعلى فِعلَهما هُدِيتِ[1]

وأخذ سيفه وقاتل حتى قُتِل .

وحينئذ اختلط المسلمون والمشركون ، وأراد بعضُ المسلمين الانهزامَ فجعل عُقْبَة بن عامر يقول : يا قوم ، يُقْتَلُ الإنسانُ مقبلا خَيْرٌ من أن يُقتل مدبراً .

ثم أخذ الراية ثابتُ بن أرقم ، وقال : يا معشر المسلمين ، اصطلِحوا على رجلٍ منكم . قالوا : أنت ، قال : ما أنا بفاعل . فاصطلح الناس على خالد بن الوليد ، فلما أخذ الرايةَ دافعَ القومَ وخَاشَى[2] بهم ، ثم انحاز كلٌّ من الفريقين عن الآخر من غير هزيمة على أحدهما ، وانصرف الناس ، فقَفَل[3] بهم إلى المدينة .

وتلقّاهم الرسولُ ، ولقيهم الصِّبيان يشتدّون ، ورسولُ الله مع القوم على دابته ، فقال : خذوا الصبيان فاحملوهم وأعطونى ابن جعفر ، فأُتى بعبد الله ، فأخذه وحمله بين يديه ، وجعل الناسُ يَحْثُون على الجيش التراب ، ويقولون : يا فُرّار ، فررْتُم فى سبيل الله ! فيقول الرسول : ليسوا فُرّاراً ، ولكنهم الكُرّار .

---

(١) يريد صاحبيه : زيدا وجعفراً .

(٢) خاشى بهم : أبقى عليهم وحذر فانحاز (اللسان ــ خشى) . (٣) قفل : رجع .

١٢ — يوم الفَتْح*

خرج مالك بن عَبَّاد(١) ـ حليف بنى بكر ـ تاجراً ، وكان ذلك قبل الإسلام . فلما توسَّطَ أرضَ خُزَاعة عَدَوْا عليه فقتلوه ، وأخذوا مالَه ، فعَدَتْ بنو بكر على رجلٍ من خُزَاعة فقتلوه ، ثم عدَتْ خُزَاعة على بنى الأسود بن رَزْق ـ وهم أشرافُ بنى بكر ـ فقتلوا منهم بعَرَفة عند أَنصاب(٢) الحَرَم .

وبَينَا بنو بكر وخُزاعة على ذلك حَجَز بينهم الإسلام ، وتشاغل الناسُ به .

ولما كان صُلْح الحُدَيْبية بين رسول الله وبينَ قريش كان فيما شَرَطُوا على رسولِ الله ، وشَرَطَ لهم أنه مَنْ أحبَّ أن يدخُلَ فى عَهْدِ محمد وعَقْدِه دخل فيه ، ومَنْ أحبَّ أن يدخُلَ فى عهد قريش وعَقْدِهم دخَل فيه ؛ فدخلَتْ بنو بكر فى عَقْدِ قريش ، ودخلت خُزاعةُ فى عَقْدِ رسول الله .

فلما كانت تلك الهُدْنة اغتنمتها بنو بكر ، وأرادوا أن يُصيبوا من خُزَاعَة بأُولئكَ النفَرِ الذى أصابوا منهم ، فخرج نَوْفل بن معاوية — من بنى بكر — حتى بيَّتَ(٣) خُزاعة ، وهم على ماء لهم يقالُ له الوَتِير(٤) ، فأصابوا منهم رجلا ، وتحاوزوا(٥) واقتتلوا ، ورَفَدَتْ(٦) قريشٌ بنى بكر بالسِّلاح ، وقاتلَ معهم من قريش مَنْ قاتل مُسْتَخْفِياً ، حتى حازُوا خُزاعة إلى الحرَم .

---

* سيرة ابن هشام : ٤ـ ٣ ، الطبرى : ٣ـ ١١٠ ، وكان هذا اليوم فى شهر رمضان سنة ثمان من الهجرة .

(١) من بنى الحضرمى ، وكان حلف بنى الحضرمى إلى الأسود بن رزق الديلى ، وهم أشراف بنى بكر . (٢) أراد بالأنصاب الحجارة التى وضعت لتكون علامات وحدودا بين الحل والحرم. (٣) بيتهم : أوقع بهم ليلا . (٤) الوتير : ماء بين عرفة إلى أدام . (٥) تحاوز الفريقان : انحاز كل واحد عن الآخر . (٦) رفدت : أعانتهم .

فلما تظاهرت قريشٌ على خُزاعة ، وأصابوا منهم ما أصابوا ، ونَقَضُوا ما كان بينهم وبين رسول الله من العهد والميثاق بما استحلُّوا من خُزَاعة ، خرج عمرو بن سالم الُخزاعىّ ، حتى قدِم على رسولِ الله بالمدينة ، فوقف عليه وهو فى المسجد جالس بين ظَهْرانى الناسِ فقال :

لا هُمَّ إنى ناشدٌ محمّــدا حِلْفَ أبينــا وأبيه الأَتْلَدَا[1]

فوالداً كُنَّا وكنتَ وَلدا ثُمَّتَ أَسْلَمْنا فــلم نَنْزِعْ يدَا

فانْصُرهَدَاكَ اللهُ نَصْراً أعْتَدَا[2] وادعُ عبــاد الله يأتُوا مَدَدا

فيهم رســولُ الله قد تجرَّدا أبيضَ مثلَ البَدْرِ يَنْمى صُعُدا

إنْ سِيمَ خَسْفاًوَجْهُهُ تَرَبَّدَا[3] فى فَيْلَقٍ[4] كالبحرِ يجرى مُزْبِدَا

إنَّ قُرَيشاً أخلفوكَ المَوْعِـدَا ونقضـــوا ميثاقَك المؤكَّدَا

وجعلوا لى فى كَدَاءٍ[5] رُصَّدَا وزعموا أن لستُ أدعو أحَدَا

وهُمْ أذلُّ وأقــلُّ عَدَدَا هُمْ بيَّتُونا بالوَتِير هُجَّدَا[6]

* فقتلونا رُكَّعاً وَسُجّدا *

فقال رسولُ اللهِ ـ حين سمع ذلك : قد نُصِرْتَ يا عَمْرو ! وجاء بُدَيل بن وَرْقاء فى نفرٍ من خُزاعة،حتى قدموا على رسول الله فأخبروه بمَنْ أُصيب منهم ، وبمظاهرة[7] قريش بنى بكر عليهم ، ثم انصرفوا راجعين إلى مكة .

وقال رسول الله للناس : كأنى بأَبى سُفْيَان قد جاء ليَشُدّ العَقْد ، ويزيدَ فى المدة .

---

(١) ناشد : طالب . الأتلد : القديم . (٢) أعتدا : حاضراً .

(٣) الخسف : الذل ، وسيم الخاسف : كلفه ، وتربد : تغير .

(٤) الفيلق : العسكر الكثير . (٥) كداء : موضع بمكة . (٦) الوتير : اسم ماء .

(٧) المظاهرة : المعاونة .

ومضى بُدَيل وأصحابُه ، فلقُوا أبا سفيان بعُسْفَان(١) قد بعَثَته قريش إلى النبىّ ليشدَّ العَقد ، ويزيد فى المدة ، وقد رَهِبُوا الذى صنعوا .

فقال أبو سفيان : من أينَ أَقْبلتَ يا بُدَيل ؟ قال : سِرْتُ فى خزاعة فى هذا الساحل ، وفى بطن هذا الوادى . قال : أَجئتَ محمداً ؟ قال : لا .

فلما راح بُدَيل إلى مكة قال أبو سُفيان : إن كان بُدَيل قد ذهب إلى المدينة فقد أكلت راحلتُه النوَى ، ثم عَمِد إلى مَبْرَك ناقته فأخذ من بَعْرِها فَفَتَّه ، فرأى فيه النوى ، فقال : أَحْلِفُ لقد جاء بُديل محمداً !

* * *

ثم خرج أبو سُفيَان حتى قدِم المدينةَ فدخل على ابنته أمِّ حَبيبة ـ زوج رسول الله ـ فلما ذهب ليجلسَ على فراش رسول الله طوَتْهُ عنه ، فقال : يا بُنَيَّة ؛ والله ما أدرى ، أرغبتِ بى عن هذا الفراش ، أم رغبتِ به عنى ؟ قالت : بل هو فراش رسول الله ، وأنتَ رجل مُشْرِكٌ ، فلم أحبَّ أن تجلسَ على فراش رسول الله ! قال : لقد أصابكِ يا بنيَّةُ بعدى شَرٌّ !

ثم خرج حتى أتى رسولَ الله ، فكلَّمه فلم يَرُدَّ عليه شيئاً . ثم ذهب إلى أبى بكر فكلَّمه أَنْ يكلّم رسولَ الله . فقال : ما أنا بفاعل . ثم أتى عمر بن الخطاب فكلّمه ، فقال : أنا أشفَعُ إلى رسول الله ، فوالله لو لم أجد إلا الذرَّ(٢) لجاهدتكم به .

ثم خرج فدخل على علىّ بن أبى طالب ، وعنده فاطمةُ ومعها الحسن بين يديها ، فقال : يا علىّ ؛ إنك أمسُّ القوم بى رَحِماً ، وأقربهم منى قَرابة ، وقد جئتُ فى حاجةٍ فلا أرجِعنّ ـ كما جئتُ ـ خائبا . اشفَعْ لنا إلى محمد ، قال : وَيْحك يا أبا سفيان !

---

(١) عسفان : موضع على مرحلتين من مكة . (٢) الذر : صغار النمل .

والله لقد عزم رسولُ الله على أمرٍ ما نستطيع أن نكلِّمه فيه ، فالتفت إلى فاطمة فقال : يابنةَ محمد ؛ هل لكِ أن تأمرى بُنَيَّك هذا فيجيرَ(١) بين الناس ، فيكون سيِّدَ العرب إلى آخر الدهر ! قالت : والله ما بلغ بُنَيِّ ذاك أن يُجيرَ بين الناس، وما يُجيرُ على رسولُ الله أَحَد ، قال : يا أبا الحسن ؛ إنى أرى الأمورَ قد اشتدَّت علىّ فانصَحْنى . فقال : واللهِ ما أعلمُ شيئاً يُغْنى عنك شيئاً . ولكنك سيّدُ بنى كِنانة ، فقم فأَجِرْ بين الناس ، فالحق بأَرْضِك . قال : أَوَ ترى ذلك مُغْنياً عنى شيئا ! قال : لا ، والله ما أظنّ ، ولكن لا أجدُ لك غير ذلك .

***

فقام أبو سفيان فى المسجد فقال : أيها الناس ، إنى قد أجرتُ بين الناس . ثم ركب بعيره فانطلق .

فلما قدِم على قريش قالوا : ما وراءكَ ؟ قال : جئتُ محمدا فكلّمتُه ، فو الله ما ردّ علىّ شيئاً . ثم جئتُ ابنَ أبى قُحافة فلم أجدْ عنده خيرا ، ثم جئتُ ابن الخطاب فوجدته أعْدى القوم ، ثم جئتُ علىَّ بن أبى طالب فوجدتُه أَلْيَنَ القوم ، وقد أشار علىَّ بشىء صنعتُه ، فو الله ما أدرى هل يُغنيني شيئا أم لا ؟ قالوا : وبماذا أمركَ ؟ قال : أمرنى أن أجير بين الناس ففعلت . قالوا : فهل أجاز ذلك محمد ؟ قال : لا ؛ قالوا : وَيْلَكَ ! والله إنْ زاد على أن لَعِب بك ، فما يُغْنى عنا ما قلت ، قال : الله ما وجدتُ غَيْرَ ذلك .

وأمر رسول الله بالجهاز ، وأمر أهلَه أن يجهِّزوه،ودخل أبو بكر على ابنته عائشة وهى تحركُ جهازَ النبىّ ، فقال : أى بنيّة ، أمركم رسولُ الله أن تجهِّزوه ؟ قالت :

---

(١) يجير بين الناس : أى يفصل بينهم ويمنعهم من البغى والعدوان .

نعم فتجهزْ . قال : فأين تَرَيْنه يريد ؟ قالت : والله ما أدرى ! ثم إنّ رسولَ الله أَعْلَم الناس أنه سائر إلى مكة وأمرهم بالجدّ والتهيُّؤ ، وقال : اللهمَّ خُذِ العيونَ والأخبارَ عن قريش حتى نَبْغَتَها(١) فى بلادها . فتجهزَّ الناس .

ولَمَّا أجمع رسولُ الله المسيرَ إلى مكة كتب حَاطِبُ بن أبى بَلْتَعة كتابا إلى قريش يخبرُهم بالذى أجمع عليه رسولُ الله من السير إليهم ، ثم أعطاه امرأةً ، وجعل لهـا جُعْلا(٢) على أن تبلِّغه قريشا ، فجعلتهُ فى رأسها ثم فتَلتْ عليه قرونها ، وخرجت به .

وأتى رسولَ الله الخبرُ من الوحى ، فبعث علىَّ بن أبى طالب والزبيرَ بن العوام ، وقال لهما : أدرِكا امرأة قد كَتَب معها حاطِبٌ بكتابٍ إلى قريش يحذِّرُهم ما قد أجمعنا له فى أمرهم .

فخرجا حتى أدركاها بالخليقة(٣) ، فاستَنْزلاها ، والْتَمسَا الكتابَ فى رَحْلها فلم يجِدَا شيئاً . فقال لهـا علىّ : إنى أحْلِف ما كذَب رسولُ الله ، ولا كذِبنـا ، ولتُخْرِجنَّ لنا هذا الكتاب أو لنكشفنَّك ! فلما رأتِ الجدَّ منه قالت : أعْرِضا عنى ، فأعرضا عنها ، فحلَّت قرونَ رأْسها واستخرجت الكتابَ منه ، فدفعته إليهما فجاءا به إلى النبىّ .

ودعا رسولُ الله حاطِبا ، فقال : يا حاطبُ ؛ ما حملكَ على هذا ؟ فقال : يا رسول الله ؛ أما والله إنى لمؤمن بالله ورسوله ؛ ماغَيْرتُ ولا بدّلت ، ولكنى كنتُ امرأً ليس لى فى القوم أصلٌ ولا عشيرة ، وكان لى بين أظْهُرِهم أهلٌ وولد ، فصانَعْتُهم عليهم . فقال : عمر : يا رسول الله ، دَعْنى أضرب عنُقَه ؛ فإنّ الرجلَ قد نافَق .

---

(١) نبغتها : نفاجئها . (٢) جعلا : ما يجعل مقابل عمل . (٣) الخليقة : ماء بين مكة واليمامة.

فقال رسولُ الله : ومايُدرِيك ياعمر ! لعــلّ الله قد اطّلع على أصحاب بَدْرٍ يوم بَدْر ، فقال : اعملوا ماشئتم ، فقد غفرتُ لكم(١) .

ثم بَرِح رسولُ الله المدينةَ ، واستخلف عليها أبا رُهْم كلثوم بن حُصَين .

ومضى النبيّ لسَفَره ، حتى نزل مَرّ الظّهْران(٢) فى عشرة آلاف من المسلمين ، وكانت قد عُمِّيت الأخبارُ عن قريش فلم يأتِهم خبرٌ عن رسول الله ، ولم يَدْرُوا ماهو فاعل . وخرج فى بعض تلك الليالى أبو سفيان بن حَرْب ، وحكيم بن حزام ، وبُدَيل بن وَرْقاء ، يتحسّسُون الأخبار ، وينظرون هل يجدون خَبرا أو يسمعون به!

قال العباس بن عبد المطلب : ولما نزل رسولُ الله مَرّ الظّهْران قلتُ : ياصباح قريش ! واللهِ لَئِن بغتَها(٣) رسولُ الله فى بلادها فدخل مكةَ عَنْوَة ، إنه لهلاكُ قريش آخرَ الدهر . وجلس على بغلة رسول الله البيضاء ، وقال : أخرُجُ إلى الأَرَاك لعلى أرَى حَطّابا(٤) ، أو صاحب لبنٍ ، أو داخلا يدخلُ مكة فيخبرهم بمكان رسول الله فيأتونه فيستأْمنونه .

فخرجتُ ؛ فوالله إنّى لأَطوفُ فى الأَرَاكِ ألتمسُ ماخرجتُ له ، إذ سمعتُ صوتَ أَبى سفيان بن حرب ، وحكيم بن حزام ، وبُدَيل بن ورقاء ، وقد خرجوا يتحسّسُون الخبر عن رسول الله ، فسمعت أبا سفيان يقول : والله مارأيتُ كاليوم قطُّ نيرانا . فقال بُدَيل : هذه والله خُزَاعة قد حَمَشَتْها(٥) الحرب . فقال أبو سفيان : خُزاعةُ أذلُّ وأقلُّ من أَنْ تكونَ هذه نيرانها ! فعرفتُ صوته ، فقلت : يا أبا حَنْظلة ،

---

(١) أنزل الله تعالى فى حاطب : « يأيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوى وعدوكم أولياء تلقون إليهم بالمودة . . . » سورة الممتحنة . (٢) مرالظهران : واد قرب مكة . (٣) بغتها : فاجأها . (٤) الحطب : ما أعد من الشجر وقوداً ، وحطبه : جمعه . (٥) حمشتها الحرب : أغضبتها .

فعرف صوتى، فقال: أبو الفضل! قلت: نعم، فقال: لبَّيْك فِدَاكَ أبى وأمى! قلت: ويحك يا أبا سفيان ! هذا رسولُ الله قد دلَف[١] إليكم بما لا قِبَلَ لكم به ، قال : فما الحيلة فِدَاكَ أبى وأمى ! قلت: تَرْكبُ عَجُزَ هذه البغلة فأَستأمِنُ لك رسولَ الله ؛ فوالله لئن ظفِر بك ليضربَنَّ عُنُقَك . فردَفَنى[٢]، فخرجتُ به أركضُ بغلةَ النبىّ نحوَ المسلمين ، فكلّما مَرَرْت بنارٍ من نيران المسلمين ونظروا إلىّ قالوا : عمُّ رسول الله على بَغْلة رسول الله ؛ حتى مرَرْت بنار عمر بن الخطاب فقال : أبوسفيان ! الحمد لله الذى أَمْكن منك بغير عَقْدٍ ولا عهد ! ثم اشْتَد[٣] نحو النبىّ ، وركضت البغلةُ وقد أردفتُ أبا سفيان حتى اقتحمت على باب القبة ، وسبقْتُ عمر بما تسبقُ به الدابةُ البطيئةُ الرجل البطىء ، فدخل عمر على رسول الله فقال : يا رسول الله ، هذا أبو سفيان عدوّ الله قد أَمْكن الله منه بغير عَهْد ولا عقْد ، فَدَعْنى أضرب عنقه .

فقلت : يا رسولَ الله ، إنى قد أجَرْتُه ، ثم جلستُ إلى النبىّ فأخذتُ برأسه فقلتُ : والله لا يناجيه اليوم أحدٌ دونى ، فلما أكثر عُمَر فى شأنه قلتُ : مهلا يا عمر ؛ فوالله لو كان من رجال بنى عَدِىّ[٤] بن كعب ما قلتَ هذا ، ولكنك عرفْتَ أنه من رجال بنى عبد مناف . فقال : مَهْلاً يا عباس ، فوالله لإسلامُك يوم أسلمتَ كان أحبَّ إلى رسول الله منْ إسلام الخطَّاب لو أسلم . فقال رسول الله : اذهبْ به يا عباس إلى رَحْلك ، فإذا أصبحتَ فأْتنى به .

فذهبتُ به إلى رَحْلى ، فباتَ عندى . فلما أصبح غَدَوْتُ به إلى رسول الله ، فلما رآه قال : وَيحَك يا أبا سفيان ! ألم يأْنِ[٥] لك أن تعلم أنه لا إلهَ إلا الله ! قال : بأبى أنْتَ وأمى ! ما أحلمَك وأكرمَك وأوصلك ! والله لقد ظننتُ أن لو

(١) دلف : تقدم . (٢) تبعنى . (٣) اشتد : عدا وأسرع . (٤) قوم عمر .
(٥) لم يأن لك : ألم يحن لك الوقت الذى تعلم فيه . . .

كان مع الله إلهٌ غيرُه لقد أغنى عنّى شيئاً ، قال : وَيْحَكَ ياأبا سفيان ! أَلَم يأْنِ لك أَنْ تعلمَ أَنى رسولُ الله ! فقال : : بأبى أنتَ وأمى ! ماأوصَلك وأحلمك وأكرمك ! أمّا هذه ففى النَّفْسِ منها شىء . فقال العباس : وَيْلك ! أَسْلِمْ ، واشْهَد أن لا إله إلا الله ، وأنّ محمدا رسول الله قبل أن تُضْرَب عنقُك ، فشهد شهادةَ الحقّ . فقال رسول الله للعباس حين تشهّد أبو سفيان : انصَرِفْ ياعباس فاحبِسْه عند خَطْمِ(١) الجَبَلِ بمَضيقِ الوادِى حتى تمرَّ عليه جُنُود الله ، فقلت : يارسولَ الله ، إنّ أبا سفيان رجلٌ يحبُّ الفخْر ، فاجعلْ له شيئاً يكون له فى قومه . فقال : نعم ، مَنْ دخل دارَ أبى سفيان فهو آمن ، ومَنْ دخلَ المسجدَ فهو آمِن ، ومَنْ أغلقَ عليه بابه فهو آمِن .

فخرجتُ فحبستُه عند خَطْمِ الجبل بمضيقِ الوادى ، فمرّتْ القبائل على راياتها ، وكلّما مرت قبيلة ، قال : ياعباس ؛ مَنْ هذه ؟ فأقول : سُليم ، فيقول : مالى ولِسُلَيم ! ثم تمرُّ القبيلةُ فيقول : ياعباس ؛ من هؤلاء ؟ فأقول : مُزَينة ، فيقول : مالى ولِمُزَينة ! حتى نفدت القبائل ، ماتمرُّ قبيلةٌ إلا يسألنىعنها ، حتى مرَّ رسولالله فى كتيبته الخَضْرَاء(٢) ، فيها المهاجرون والأنصار لايُرَى منهم إلا الحَدَقُ(٣) من كثرة الحديد ، فقال : سبحان الله ياعباس ! مَنْ هؤلاء ؟ قلت : هذا رسولُ الله فى المهاجرين والأنصار ، قال : مالأحدٍ بهؤلاءِ قِبَلٌ ولا طاقةٌ ، والله ياأبا الفضل لقد أصبح مُلْكُ ابنِ أخيكَ عظيما ، قلت : ياأبا سفيان ؛ إنها النبوّة ، قال : فنعم إذَنْ ، قلت : الْحَقْ بقومك الآن فحذِّرهم .

---

(١) خطم الجبل : مقدمه . (٢) إنما قيل لها خضراء لكثرة الحديد وظهوره فيها .
(٣) جمع حدقة ، وهى سواد العين .

فخرج أبو سفيان سريعاً حتى أتى مكة ، فصرخ فى المسجد : يامعشرَ قريش ؛ هذا محمدٌ قد جاءكم بما لا قِبَلَ لكم به ، فمَنْ دخل دَارَ أبى سُفْيان فهو آمِن . فقامت إليه هند بنتُ عُتْبَة فقالت : اقتلوا هذا الحميتَ الدَّسِم الأَحْمَش[١] . قُبِّح من طَلِيعَةِ قوم ! قال : ويلكم ! لاتغرَّنّكم هذه من أنفسكم ؛ فإن محمداً قد جاءكم بما لا قِبَل لكم به ، فمَنْ دخل دارَ أبى سفيان فهو آمِن . قالوا : قاتلك الله ! وما تغْنى عنا دَارُكَ ! قال : ومَنْ أَغْلَق عليه بابَه فهو آمن ، ومَنْ دخل المسجد فهو آمِنٌ . فتفرّق الناسُ إلى دُورهم وإلى المسجد .

ولما انتهى رسولُ الله إلى ذِى طُوًى[٢] وقف على راحلته مُعْتَجِرا بشقّة بُرْد حِبَرة حَمْرَاء[٣] ، وإنه ليضَعُ رأْسَه تواضعا لله حين رأى ما أكرمه الله به من الفتْح، حتى إن عُثْنُونه[٤] ليكادُ يمسُّ واسطةَ الرَّحْل .

وبَينْا رسولُ الله بِذِى طُوى ،وقف أبو قُحافة وقال لابنةٍ له : أى بُنيّة، اظْهرِى بى على أبى قُبَيْس[٥] . فأشرفَتْ به عليه ــ وقد كُفَّ بصره ــ فقال : أى بُنَيَّة ؛ ماذا تَرَيْن ؟ قالت : أَرى سواداً مجتمعاً ، قال : تلك الخيل ، قالت : وأَرى رجلا يسعى بين يدَىْ ذلك السَّوَادِ مقبلا ومُدْبرا . قال : أى بنيَّة ؟ ذلك الوازع[٦] . ثم قالت : قد والله انتشر السَّوَاد ، فقال : إذَنْ دفعَت الخيل ، فأَسرعى بى إلى بيتى ، فانحطّت به ، وتلقّاه الخيلُ قبل أَنْ يصلَ إلى بيته ، وكان فى عنق الجارية طَوْقٌ

---

(١) أصل الحميت : زق السمن ، وهى تعنى أبا سفيان استعظاما لقوله . الدسم : الدنئ من الرجال، ورجل حمش الخلق : دقيق الحلقة ، قالته فى معرض الذم. (٢) ذو طوى : مثلث الطاء : موضع قرب مكة . (٣) معتجرا : معتما ، والشقة : النصف ، والحبرة : ضرب من ثياب اليمن .

(٤) عثنون : لحية . (٥) أبوقبيس: جبل بمكة . (٦) الوازع فى الحرب : الموكل بالصفوف يتقدم الصف فيصلحه ، ويتقدم ويؤخر .

من وَرِقٍ(١) ، فتلقّاها رجل فقطعه من عنقها(٢) .

وكان رسولُ الله قد فرّق جيشَه من ذى طُوًى ، فأمر الزبير بن العوّام أن يدخلَ فى بعض الناس من كُدًى(٣) ، وأمر سَعْد بن عُبَادة(٤) أن يدخلَ فى بعض الناس من كَدَاء(٥) ، وأمر خالد بن الوليد فدخل من اللِّيطِ(٦) أسفل مكّة فى بعض الناس ، وأبو عُبيدة بن الجرّاح بالصفّ من المسلمين يتصبّبُ(٧) لمكّة بين يدى رسول الله . ودخل النبى من أذَاخر(٨) حتى نزل بمكّة ، وضُرِبت له هناك قُبَّتُهُ .

وكان صَفْوان بن أميّة وعِكْرمة بن أبى جهل ، وسُهيَل بن عَمْرو قد جمعوا ناسا بالخَنْدَمة(٩) ليقاتلوا ، وكان حِمَاس بن قَيْس يُعِدُّ سِلاحاً قَبْلَ دخول رسول الله ويُصْلِحُ منه ، فقالت له امرأتهُ : لماذا تُعِدُّ ما أرى ؟ قال : لمحمد وأصحابه ، قالت : واللهِ ما أرى أنه يقومُ لمحمد وأصحابه شىء ، قال : والله إنى لأرجو أن أُخدمَك بعضَهم .

ثم شهد الخَنْدَمَة مع صَفْوان وسُهيَل وعِكْرمة . فلما لقِيَهم المسلمون من أصحاب خالد ناوَشُوهم شيئاً من قتال فانهزموا . وخرج حمَاس منهزما حتى دخل بيتَه ، ثم قال لامرأته : أَغْلِق علىّ بابى ، قالت : فأين ما كنتَ تقول ؟ فقال :

---

(١) ورق : فضة . (٢) ولما وصل رسول الله إلى مكة ودخل المسجد أتى أبو بكر بأبيه يقوده فلما رآه رسول الله قال : هلا تركت الشيخ فى بيته حتى أكون أنا آتيه فيه ! قال أبو بكر : يا رسول الله ، هو أحق أن يمشى إليك من أن تمشى إليه أنت ، فأجلسه بين يديه ثم مسح صدره وقال : أسلم ، فأسلم . ثم قام أبو بكر فأخذ بيد أخته وقال : أنشد الله والإسلام طوق أختى ، فلم يجبه أحد فقال : أى أخية ، احتسبى طوقك ، فوالله إن الأمانة فى الناس اليوم لقليل .

(٣) كدى : جبل أسفل مكة على طريق اليمن . (٤) زعم بعض أهل العلم أن سعداً — حين وجه داخلا — قال : اليوم يوم الملحمة ، اليوم تستحل الحرمة . فسمعها رجل من المهاجرين فقال : يا رسول الله ، اسمع ما قال سعد بن عبادة ، ما نأمن أن تكون له فى قريش صولة ، فقال : رسول الله لعلى بن أبى طالب : أدركه فخذ الراية منه ، فكن أنت الذى يدخل بها . (٥) كداء : جبل بأعلى مكة . (٦) الليط : موضع أسفل مكة . (٧) يتصبب : ينحدر . (٨) أذاخر : موضع قرب مكة (٩) الخندمة : جبل .

إنكِ لو شهدتِ يومَ الخندَمَهْ ... إذ فرَّ صفوانُ وفرَّ عِكْرِمَهْ
وأبو يزيدَ قائمٌ كالمُؤْتِمَهْ ... واستقبلتْهم بالسيوفِ المُسْلِمَهْ(١)
يقْطَعْنَ كلَّ ساعد وجُمْجُمَهْ ... ضَرْباً فلا يُسْمَعُ إلا غَمْغَمَهْ
لهم نَهِيتٌ(٢) خَلْفنا وهَمْهَمَهْ ... لم تَنْطِقِى فى اللوم أدْنَى كَلِمَهْ

وكان رسولُ الله قد عَهِد إلى أُمرائه من المسلمين ـ حين أمرهم أن يدخلوا مكّة ـ ألَّا يقتلوا أحـداً غير من قاتلَهم إلاّ نفراً سمَّاهم ، أمر بقتْلهم ، وإن وُجدوا تحت أستار الكعبة(٣) .

ولما نزل رسولُ الله مكة ، واطمأنَّ الناسُ خرج حتى جاء البيت فطاف به سَبْعا على راحِلَته يستلم الرُّكْنَ بمِحْجَن فى يدِه(٤) . فلما قضى طوافَه دعا عثمان بن طلحة ، فأخذ منه مفتاحَ الكعْبَة ، ففُتِحت له فدخلها : ثم وقف على باب الكعبة ، وقد استكفَّ(٥) له الناسُ فى المسجد ، فقام رسولُ الله على باب الكعبة فقال :

« لا إله إلّا الله وحدَه لاشَرِيكَ له ، صدَقَ وَعْدَه، ونصر عبدَه وهزم الأحزابَ وحْدَه ، ألَا كلّ مَأْثُرَة أو دَمٍ أو مالٍ يُدَّعَى فهو تحت قدمىَّ هاتين إلا سِدَانَةَ البيتِ وسِقَاية الحاجّ . ألَا وقتيلُ الخطأ شِبْهِ العَمْد بالسَّوْط والعصا ففيه الدِّيَةُ مغلَّظة مائة من الإبل ، وأربعون منها فى بطونها أولادُها . يا مَعْشَر قريش ، إن الله قد أَذْهبَ عنكم نَخْوَةَ الجاهليّةِ وتَعظُّمها بالآباء ، الناسُ من آدم ، وآدمُ من تراب . ثم تلا : ﴿ يَـأَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾ .

ثم قال : يا معشر قريش ، ما تَرَوْن أنى فاعلٌ بكم ؟ قالوا : خيراً ، أخٌ كريم وابن أخٍ كريم ، قال : اذهبوا فأنتم الطُّلَقَاء .

---

(١) المؤتمة : التى قتل زوجها . المسلمة : المسلمون . (٢) النهيت : الزئير . (٣) منهم عبد الله بن سعد أخو عامر بن لؤى ، وعبد الله بن خطل ، والحويرث بن نقيذه . (٤) المحجن : عود معوج الطرف يمسكه الراكب للبعير فى يده . (٥) استكف له : اجتمعوا له.

ثم جلس رسولُ الله فى المسجد ، فقام إليه علىّ بن أبى طالب ومفتاحُ الكعبة فى يده ، فقال : يا رسول الله ؛ اجمع لنا الحِجابةَ مع السقاية ، فقال النبى : أينَ عثمانُ ابن طلحة ؟ فدُعِى له فقال : هاكَ مفتاحَك يا عثمان ، اليومُ يومُ برٍّ ووفاء . ثم قال لعلىّ : إنما أُعطيكم ما تُرْزَءون لا ما تَرْزَءون(١) .

ثم اجتمع الناسُ بمكّة لبيعةِ رسول اللهِ على الإسلام ، فجلس لهم على الصَّفا ، ولما فرغ النبىّ من بَيْعة الرجال بايَع النساء ، واجتمع إليه نساء من قريش ، فيهنّ هند بنت عُتْبة متنقّبةً متنكِّرة لحدَثها وما كان من صنيعها بحَمزة ، فلما دنَوْن منه ليبايِعْنه ، قال رسولُ الله : تبايِعْنَنِى على ألَّا تُشرِكْنَ بالله شيئاً ؟ فقالت هند : والله إنك لتأخذُ علينا أمراً ما تأخذُه على الرجال ، وسنؤتيكه ، قال : ولا تسرقْنَ ، قالت : والله إن كنتُ لأُصيب مِنْ مالِ أبى سفيان الهَنَة والهَنَة(٢) ، وما أدرى أكان ذلك حلاًّ لى أم لا ؟ فقال أبو سفيان — وكان شاهداً لما تقول : أمّا ما أَصَبْت فيما مضى فأنتِ منه فى حِلّ ، فقال رسولُ الله : وإنك لهند بنتُ عتبة ؟ قالت : أنا هند بنت عتبة ، فاعْفُ عما سلف ، عفا الله عنك . قال : ولا تزْنِين ، قالت : وهل تزْنى الحرة ! قال : ولا تقتُلْنَ أولادكنّ ، قالت : قد ربّيْنَاهم صغاراً وقتلتَهم يوم بدْرٍ كبارا ، فأنت وهم أعلم ، فضحك عمر بن الخطاب من قولها حتى استغرب(٣) . قال : ولا تأتِينَ بِبُهتان(٤) تَفْتَرِينه بين أيديكُنّ وأرجلكنّ ، قالت : إنّ إتيان البهتانِ لقبيحٌ ، ولَبَعْضُ التجاوز أَمْثَل . قال : ولا تعصيننى فى معروف ، قالت : ما جَلَسْنَا هذا المجلس ونحن نريدُ أن نَعْصِيَك فى معروف . فقال رَسول الله لعمر : بايِعْهُنّ ، واستغفرْ لهنّ ، فبايعهنّ عُمَر .

---

(١) رزأه : أصاب منه خيرا . (٢) الهنة : الشىء القليل .
(٣) استغرب فى ضحكه : بالغ فيه . (٤) أى لا يأتين بولد من غير أزواجهن فينسبنه إلى الزوج فإن ذلك بهتان وفرية . ويقال : كانت المرأة تلتقطه فتتبناه .

١٣ — يوم حُنَيْن *

سمعت هوازنُ بخروج(١) رسولِ الله من المدينة ، وظنُّوا أنه يريدُهم ، فاجتمعوا له ، فلما أتاهم أنه قد اتَّجَه إلى مكة ، وأنه قد فتح الله عليه بها ، خافوا أن يسيرَ إليهم ويَغْزُوَهم ، ومشت أشرافُ هَوازِن وثَقِيف بعضها إلى بعض ، وقالوا : إن محمداً قد فرغ لنا ، ولا مانعَ له دوننا ؛ فالرأيُ أن نغزوَه قبل أن يغزوَنا ، وأَجْمَعُوا أمرهم على ذلك(٢) .

وكان جِمَاعُ الناس حينئذ إلى مالك بن عوف النَّصْرِيّ ، فلما أجمع مالكٌ المسيرَ لقتال المسلمين حَطَّ مع الناس أموالَهم ونساءهم وأبناءهم .

ونزل بأَوْطَاس(٣) فاجتمع إليه الناس ، وفيهم دُرَيد بن الصِّمَّة(٤) ـ وكان شيخاً كبيراً ليس فيه شيء إلا التيمّن برأيه ومعرفته بالحرب ـ في شِجَارٍ(٥) له يُقادُ به بَعِيرُه ، فقال دُرَيد : بأيّ وادٍ أنتم ؟ قالوا : بأَوْطَاس ، قال : نعم مجالُ الخيل ! لا حَزْنٌ ضَرِس ، ولا لَيِّنٌ دَهِس(٦) . مالي أسمعُ رُغَاءَ البعير ونُهاقَ الحمير ويُعَارَ(٧) الشَّاء ، وبكاءَ الصغير ؟ قالوا : ساق مالك بن عَوْف مع الناس أموالَهم وأبناءهم

* سيرة ابن هشام : ٤ ـ ٦٥ ، السيرة الحلبية : ٣ـ١٢١ ، سيرة دحلان : ٢ ـ ٣١٣ ، الطبرى ٣ـ١٢٥ . وكان هذا اليوم فى اليوم فى السنة الثامنة من الهجرة . وحنين : واد إلى جنب ذى المجاز ، ويسمى غزوة أوطاس ، وهوازن .

(١) كان قد خرج لفتح مكة . (٢) لم يتخلف من هوازن إلا كعب وكلاب . (٣) أوطاس: واد فى ديار هوازن ، وفيه عسكروا هم وثقيف . (٤) كان رئيس بنى جشم وسيدهم وأوسطهم ، ولكن السن أدركته حتى ضعف ضعفاً شديداً . (٥) الشجار : الهودج الصغير الذى يكفى واحدا فحسب . (٦) الضرس : ما خشن من الآكام ، والدهس : السهل اللين لا يبلغ أن يكون رملا وليس هو بتراب ولا طين . (٧) يعار : صوت .

ونساءهم . فقال : وأين مالك ؟ فدُعِى له ، فقال : يا مالك ، إنك قد أصبحتَ رئيسَ قومك ، وإن هــذا يومٌ له مابعده من الأيام ؛ مالِى أسمعُ رُغَاءَ البعيرِ ونُهَاقَ الحمير ويُعَارَ الشاء وبُكاء الصغير ! قال : سُقْتُ مع النـاس أبناءهم ونساءهم وأموالهم ، قال : ولِمَ ؟ قال : أردتُ أن أجعلَ خَلْفَ كلّ رجل أهــلَه وماله ليقاتِل عنهم . فأنْقَضَ به[1] ، ثم قال : راعى ضأنٍ والله ! هل يردُّ المنهزمَ شىء ! إنها إن كانت لك لم ينفعْك إلا رجــلٌ بسيفه ورمحه ، وإن كانت عليك فُضِحْتَ فى أهلِك ومالك . مافعلت كعْب وكِلاب[2] ؟ قال : لم يشهد منهم أحدٌ ، قال : غاب الحدّ والجدُّ[3] ، ولو كان يوم عَلاءٍ ورفعة لم تغِبْ كعب ولا كِلاب ، ولوددتُ أنكم فعلتم مافعلوا ، فمَن شهِدَها منكم ؟ قالوا : عَمْرو بن عامر وعَوْف بن عامر ، قال : ذانك الجذَعَان[4] من بنى عامر لا ينفعان ولا يضرّان . يامالك ، إنك لم تصنع بتقديم البَيْضَة[5] ـ بَيْضَة هوازن ـ إلى نُحُورِ الخيْلِ شيئاً ؛ ارْفَعْـهم إلى مُتَمَنَّع بلادهم وعُلْيا قومهم ، ثم الْقَ الصُّبَّاء[6] على مُتُون الخيل ، فإن كانت لك لَحِقَ بك مَنْ وراءك ، وإن كانت عليك أَلْفَاكَ ذلك وقد أَحْرَزْتَ أهلَك ومالَك ، قال : والله لاأفعــل ؛ إنك قد كَبِرْتَ وكَبِرَ علْمُك لَتطيعُنّنى يامعشرَ هوازن أو لأتّــكئَنّ على هذا السيف حتى يخرجَ من ظَهْرِى . قال دُرَيد : هذا يومٌ لم أشْهدْه ، ولم يَفُتْنى :

يالَيتَنى فيهـا جَذَعْ[7] أَخُبُّ فيهـا وأَضَعْ[8]
أَقودُ وَطْفَاءَ الزَّمَعْ[9] كأنها شاة[10] صَدَعْ[11]

---

(١) أنقض به : نقر بلسانه فى فيه كما يزجر الحمار ؛ فعل ذلك استجهالا له . (٢) كعب وكلاب : قبيلتان فى هوزان . (٣) الحد : البأس ، والجد : الحظ .

(٤) الجذعان : مثنى جذع ، بالفتح وهو صغير السن . (٥) البيضة : أصل القوم ومجتمعهم .

(٦) جمع صابئ ، وكانوا يسمون المسلمين صباء ، لأنهم خرجوا من دين قريش إلى الإسلام .

(٧) الجذع يريد : شابا . (٨) الخبب والإيضاع : ضربان من السير . (٩) الزمعه : هنة زائدة وراء الظلف ، وجمعه زمع . ـ والوطف : أصله كثرة شعر الحاجبين والعينين ، يريد فرساً هذه صفتها . (١٠) الشاة : يريد الوعل . (١١) الصدع : الفتى الشاب القوى .

وبعث مالكُ بنُ عوف عُيوناً من رجاله لينظروا له ، ويأتوه بخبَر النـاسِ . فرجعوا إليه وقد تفرّقت أوصالُهم ، فقال : وَيْلَكُم ! ماشأْنُكم ؟ قالوا : رأينا رجالا بِيضاً على خَيْـلٍ بُلْق ، فوالله ماتماسكْنا أنْ أصابنا ماترى ، فلم يَنْهَه ذلك عن وَجْهِهِ ، ومضى على ما يريد !

ولما سمع بهم رسولُ الله بعث إليهم عَبْدَ الله بن أبي حَدْرَد ، وأمره أن يدخلَ في الناس ، فيقيمَ فيهم حتى يأتيَه بخبَرٍ منهم ، ويعلم عِلْمَهم ؛ فانطلق فدخل فيهم ، فأقام معهم حتى سمع وعلم ماقد أجمعوا له مِنْ حَرْب الرسول ، وعلم أَمرَ مالك وهوازن وما هم عليه .

ثم أتى النبيَّ صلى الله عليه وسلم وأخبَرَه خبرَهم ، فقـال : انتهيتُ إلى خِباَء مالك بن عوف ، وعنده رؤساء هَوَازن ، فسمعتُه يقول : إن محمـداً لم يُقاتلْ قوماً قطّ قبل هذه المرة ، وإنما كان يلقى قوماً أَغْماراً[1] لاعِلْمَ لهم بالحرب فيظهر عليهم ، فإذا كان السَّحَر فصُفُّوا مواشيَكم ونساءَكم وأبناءَكم مِنْ ورائكم ، ثم تكون الحَمْلةُ منكم ، واكسروا أغْمادَ سيوفكم فتلقوْنه بعشرين ألف سيف ، واحملوا حَمْلةَ رجلٍ واحدٍ ، واعلموا أن الغَلبة لمن حَمَلَ أولًا .

فدعا رسولُ الله عمرَ بن الخطاب ، فأخبره خبرَ ابنِ أبي حَدْرَد ، فقـال عمر : كذب ، فقال ابنُ أبي حَدْرَد : إن تكذّبْني فطالما كذّبْتَ بالحقّ ياعمر ، فقال عمر : أَلَا تسمع يارسولَ الله إلى ما يقول ! فقال : قد كنتَ ضَالاً فهداك الله ياعُمَر .

ولما أجمع النبيُّ السيرَ إلى هَوَازن ليَلْقاهم ذُكِرَ له أنّ عند صفوان بن أُميّة أدراعاً وسلاحاً — وهو يومئذمُشْرِك — فأرسل إليه ، فقال : ياأبا أميّة ، أعِرْنا سلاحَك

---

(١) الأغمار : جمع غمر ، بضم أوله ، وهو الجاهل الغر الذى لم يجرب الأمور ، ويطلق على كل من لا غناء عنده ولا رأى .

هذا نَلْقَى فيه عدوَّنا غداً . فقال صفوان : أَغَصْباً يا محمد ! قال : بل عاريةٌ مضمونةٌ حتى نؤدِّيها إليك . قال : ليس بهذا بأس ، فأعطاه مائة دِرْع بما يكفيها من السلاح .

ثم خرج النبيُّ ومعه ألفان من أهل مكة ، مع عشرةِ آلاف من أصحابه الذين فتح الله بهم مكةَ ، فكانوا اثنى عشر ألفاً ، واستعمل رسولُ الله عتّاب بن أَسِيد(١) على مكة أميراً على الناس ، ثم مضى على وجهه يريد لقاء هوازِن .

ولما استقبل المسلمون وادِىَ حُنَين انحدروا فى وادٍ من أودية تِهامَة ، وكان القومُ قد سبقوهم إلى هذا الوادى ، فكَمَنُوا لهم فى شِعَابه وأَحْنَائِه ومضايقه(٢) ، وقد أجمعوا وتهيّئوا وأعدُّوا ، فما راعَهمُ إلا الكتائبُ(٣) قد شدّت عليهم شدّة رجل واحدٍ ، واستقبلوهم بالنّبْل كأنهم جرادٌ مُنْتَشِر .

وانهزمَ الناس أجمعون ، فَانْشَمَرُوا(٤) لا يَلْوِى أحدٌ على أحدٍ ، وانحاز(٥) الرسولُ ذات اليمين ، ثم قال : أين أيُّها الناسُ ؟ هلمّوا إلىّ ، أنا رسولُ اللهِ ، أنا محمد ابنُ عبد الله ! وانطلق الناس ، إلّا أنه قد بقِىَ مع رسول الله نفرٌ من المهاجرين والأنصار وأهل بيته .

ولما انهزم الناس ، ورأى مَنْ كان مع رسولِ الله من جُفَاة مكّةَ الهزيمة تكلّم رجالٌ بما فى أنفسهم ، فقال أبو سفيان : لا تنتهى هزيمتُهم دون البحر ، وقال كَلَدة ابن الحنبل : أَلَا بَطَلَ السحرُ اليوم ! وقال شيبة بن عثمان(٦) : اليوم أُدْرِكُ ثأرى .

---

(١) عتاب بن أسيد : استعمله النبي على مكة عام الفتح ، ثم أقره أبو بكر فاستمر فيها إلى أن مات يوم مات أبو بكر . (٢) الشعاب : جمع شعب ، وهو الطريق فى الجبل . (٣) الكتيبة : جماعة الخيل إذا أغارت ، من المائة إلى الألف . (٤) انشمر الرجل ، إذا مرجادا ومضى .

(٥) انحاز : عدل . (٦) كان أبوه قتل يوم أحد .

سأقتل محمداً . ورأى رسولُ الله الناسَ لا يَلْوون على شيء ؛ فقال : يا عباسُ ؛ اصرخ : يا معشرَ الأنصار، يا أصحاب السَّمُرَة[١] ! فنادى العباسُ : يا معشر الأنصار! يا معشر أصحاب السمُرة ! فأجابوا : لبَّيْكَ ! لبَّيْك !

وكان الرجلُ منهم يذهب ليَثْنِيَ بعيره فلا يقدر على ذلك ، فيأْخذ دِرْعَه فيقذفها فى عنقه ، ويأْخذ سيفه وتُرْسَه ، ثم يترك بعيره ويخلِّى سبيله فى الناس ، ثم يؤُمّ الصوت حتى ينتهيَ إلى رسول الله ، حتى إذا اجتمع إليه مائةُ رجل منهم استقبلوا الناس فاقتتلوا ، وأشرفَ رسولُ الله فنظر إلى مُجْتَلَدِ القوم[٢] ، فقال : الآن حَمِيَ الوطيس[٣] .

ورأى الناسُ رجلا من هوازن على جَمَلٍ أحمر ، بيده رايةٌ سوداء ، فى رأس رُمْح طويل يتقدّم هَوازن ، إذا أدركَ طعن برمحه ، وإذا فاته الناسُ رفع رمحه لِمَن وراءه فاتبعوه ، فهوَى[٤] له علىٌّ بن أبى طالب ورجلٌ من الأنصار يُرِيدَانِهِ ، فأَتاه علىٌّ من خَلْفِه، فضرب عُرقوبَى الجمل فوقع على عَجُزه ، ووثب الأنصارىّ عليه فضربه ضربةً أطنَّ[٥] قدمَه بِنِصْفِ ساقه ، فانجعف[٦] عن رَحْله .

واجْتَلَد الناسُ ، فما رجعت راجعةُ الناس مِنْ هزيمتهم حتى وجدوا الأسارى عند رسول الله .

والتفت رسولُ الله إلى جانبه فرأى أبا سفيان بن الحارث ، وهو آخذٌ بِثَفَر[٧] بَغْلَتِه ، فقال : مَنْ هذا ؟ قال : أنا ابنُ أمّك يا رسولَ الله !

---

(١) السمرة : الشجرة التى كانت تحتها بيعة الرضوان عام الحديبية .

(٢) مجتلد القوم : موضع الجلاد ، وهو الضرب بالسيف فى القتال . (٣) الوطيس : شيء يتخذ مثل التنور يختبز فيه ، وهذا كناية عن اشتباك الحرب وقيامها على ساق . وقيل الوطيس : حجارة مدورة فإذا حميت لم يمكن أحداً الوطء عليها ، وهذا يضرب مثلا للأمر إذا اشتد .

(٤) هوى له : أسرع . (٥) الإطنان : سرعة القطع . (٦) انجعف : انقلب.

(٧) الثفر : السير الذى فى مؤخر السرج .

والتفت فرأى أمَّ سُلَيم مع زَوْجها ، وهى حازمةٌ وسطها ببُرْدٍ لها ، ومعها جَمَلُ زوجها ، وقد خشيت أن يَعُزَّها[١] الجمل ، فأَدْنَتْ رأْسَه منها ، وأدخلت يدَها فى خِزَامَتِه[٢] مع الخِطام ، فقال لها الرسول : أم سليم ، قالت : نعم ! بأَبى أنت وأمى يا رسول الله ! اقتُل هؤلاء الذين ينهزمونَ عنك ؛ كما تقتل الذين يقاتلونك ؛ فإنهم لذلك أهل ، فقال رسول الله : أو يَكْفِى الله يا أمَّ سُلَيم ! وقال لها أبو طلحة زوجها : ما هذا الخِنْجَر الذى معك يا أمَّ سليم ؟ قالت : خِنْجر أخذتُه ، إن دَنَا مِنى أحدٌ من المشركين بَعَجْتُه به[٣] ، قال : ألا تسمعُ يا رسولَ الله ما تقول أمُّ سُلَيم الرُّمَيْصاء[٤] !

وانهزمت هوازنُ ، فاستحرّ[٥] القتلُ مِنْ ثَقِيف فى بنى مالك ، فقُتِلَ منهم كثير ؛ وكانت رايتُهم مع ذى الخِمار[٦] ، فلما قُتِل أخذها عثمان بن عبد الله فقاتل بها حتى قتل ؛ ولما بلغ رسولَ الله قتلُه قال : أَبْعَده الله فإنه كان يُبْغِض قريشاً .

وكانت رايةُ الأَحلافِ[٧] مع قارِب بن الأسود[٨]، فلما هُزِم الناس أسندَ رايتَه إلى شجَرةٍ ، وهرب هو وبنو عمّه وقومه من الأَحْلاف ، فلم يُقْتَل منهم إلّا رَجُلَان .

ولما انهزم المشركون أتَوُا الطائف ومعهم مالك بن عوف ، وعسكرَ بعضُهم

---

(١) يعزها : يغلبها. (٢) الخزامة : حلقة من شعر تجعل فى وترة أنف البعير يشد فيها الزمام . (٣) بعجته به : شققت به بطنه . (٤) الرميصاء ، من الرمص ، وهو قذى تلفظه العين . (٥) استحر : اشتد . (٦) قال عباس بن مرداس فيه :

ولم يكُ ذو الخِمَارِ رئيسَ قَوْمٍ   لهُمْ عَقْلٌ يُعَاتِبُ أو نَكِيرُ

(٧) الأحلاف : قوم من ثقيف ، وكانت ثقيف فرقتين : بنو مالك والأحلاف .

(٨) يقول فيه عباس بن مرداس :

أطاعُوا قارباً ولهم جدودٌ   وأحلامٌ إلى عِزٍّ تَصِيرُ

بأَوْطاس ، وتوجّه بعضهم نحو نخْلة ، وتبعتْ خيلُ رسولِ الله مَنْ سَلَك فى نخْلة ، فأدرك رَبيعة بن رُفيع دُرَيدَ بن الصِّمَّة فأخذ جمله ، وهو يظنُّ أنه امرأة ، وذلك أنه فى شِجارٍ له فإذا برجُل ؛ فأناخ به ، فإذا شيخٌ كبير ، وإذا هو دُرَيد بن الصِّمّة ، ولا يعرفه الغلام ، فقال له دريد : ماذا تريدُ بى ؟ قال : أقتلُكَ ، قال : ومَنْ أنتَ ؟ قال : أنا ربيعة بن رُفَيع ، ثم ضربه بسيفه فلم يغْنِ فيه شيئاً ، فقال : بئس ما سلَّحَتْك أُمك ! خُذ سَيْفى هـذا من مؤخّر الرَّحْل — وكان فى الشِّجَار — ثمّ اضرِبْ به ، وارفع عن العِظام ، واخفض عن الدماغ ؛ فإنى كذلك كنتُ أضربُ الرجال ، ثم إذا أتيتَ أمك فأخبرها أنك قتلتَ دُرَيد بن الصِّمَّة ؛ فربَّ يوم قد منعتُ فيه نساءك ، فضربه فوقع ، فتكشَّف[1] ؛ فإذا عِجَانه[2] وبطون فَخِذَيْه مثل القرطاس من ركوبِ الخيل أعْرَاء[3] . ثم مات .

وبعث رسولُ الله فى آثار من توجّه قِبَل أوْطاس أبا عامر الأشعرى ، فأدرك من الناس بعض مَنِ انهزم ، فتناوش[4] القومُ فى القتال ، فرمى سلَمَة بن دُرَيد أبا عامر الأشعرى بسهم فأصاب ركبته فقتله ، فقال :

إنْ تَسْأَلُوا عَنِّى فإنى سَلَمَهْ ابنُ سَمَادِيرَ لِمَنْ توسَّمَهْ[5]
* أَضْرِبُ بالسَّيْفِ رُءوسَ المُسْلِمَهْ *

وولّى الناس أبا موسى الأشعرىّ ، فقاتلهم حتى فتح الله على يديه وهزمهم .

وخرج مالكُ بن عوف عند الهزيمة ، فوقف فى فوارس من قومه على ثَنِيَّةٍ[6] من الطريق ، وقال لأصحابه : قِفُوا حتى تمضِىَ ضعفاؤكم ويَلْحَق أُخرا كم ، فوقف

---

(١) تكشف ، الكشف : رفعك الشىء عما يواريه ويغطيه .

(٢) العجان : الاست . (٣) أى من غير سروج ، ويقال إن ربيعة لما رجع إلى أمه أخبرها بقتله دريداً . فقالت : أما والله لقد أعتق أمهات لك ثلاثاً .

(٤) تناوش القوم فى القتال ، إذا تناول بعضهم بعضاً بالرماح ولم يتدانوا كل التدانى .

(٥) سمادير : أمه . (٦) الثنية : الطريقة فى الجبل كالنقب .

هناك حتى مضى مَنْ كان لحق بهم من مُنهزِمَةِ الناس . فقال لأصحابه : ماذا تَرَوْن ؟ قالوا : نَرى قوماً واضِعِى رِماحهم بين آذن خيلِهم ، طويلةً بوادُّهم (١) ، فقال : هؤلاء بَنو سُلَيم ؛ ولا بأْس عليكم منهم . فلما أقبلوا سلكُوا بَطْنَ الوادى . ثم طلعت خيل أخرى تتبعها ، فقال لأصحابه : ماذا ترون ؟ قالوا نرى قوماً عارِضِى رماحهم أغْفَالا(٢) على خيلهم ، فقال : هؤلاء الأَوْس والخزرج ، ولا بأسَ عليكم منهم . فلما انتهوْا إلى أَصْل الثَّنيّة سلكوا طريقَ بنى سُلَيم . ثم طلع فارس فقال لأصحابه : ماذا ترون ؟ قالوا : نرى فارساً طويل البادِّ ، واضعا رُمْحَه على عاتقه ، عاصبا رأسه بِمُلاءة حَمْرَاء . فقال : هذا الزبير بن العوام ، وأحلف باللَّاتِ لَيخالطنّكم(٣) ! فاثبُتُوا له . فلما انتهى الزُبيْر إلى أصل الثَنِيّة أبصر القوم فصَمَد لهم ، فلم يزل يُطَاعنهم حتى أزاحهم عنها .

ثم جُمعت إلى رسول الله سبايا حُنَين وأموالُها ، وأمر رسول الله بالسبّايا والأموال إلى الجِعْرَانة(٤) ، فحُبِست بها(٥) .

وقدم فَلُّ ثَقِيف الطائف ، وأغلقوا عليهم أبوابَ مدينتها ، وصنعوا الصنائع للقتال ؛ فسار رسولُ الله حتى نزل قريباً من الطائف ، فضرب به عسكره ، وقُتل ناسٌ من أصحابه بالنَّبْل ، ولم يقدر المسلمون أن يدخلوا حائطَهم الذى أغلقوه دونهم . فلما أُصيب أولئك النّفر بالنَّبْل ، وضع النبىّ صلى الله عليه وسلم عسكره عند مسجده الّذى بالطائف ، وحاصرهم بِضْعاً وعشرين ليلة . ثم رماهم بالمَنْجنيق(٦) ،

---

(١) بوادهم جمع باد ، وهو أصل الفخذ . (٢) أغفال : جمع غفل ، وهو مالا علامة له .
(٣) يخالطنكم ، خالطه : مازجه . (٤) الجعرانة : موضع قريب من مكة ، وأهل الحديث يكسرون عينه ، ويشددون راءه . (٥) مرّ رسول الله يومئذ بامرأة وقد قتلها خالد بن الوليد ، والناس يجتمعون عليها فقال : ماهذا ؟ فقالوا : امرأة قتلها خالد بن الوليد . فقال لبعض من معه : أدرك خالداً ، فقل له : إن محمداً ينهاك أن تقتل وليداً أو امرأة أو عسيفاً .
(٦) المنجنيق : آلة ترمى بها الحجارة فى الحرب .

ودخل نفرٌ من أصحاب رسول الله تحت دَبّابةٍ[١] ، ثم زَحَفُوا بها إلى جدار الطائف ليخرقوه ؛ فأرسلت عليهم ثقيف سِكَكَ الحديد مُحَمّاةً بالنار فخرجُوا من تحتها ، فرمتْهم ثقيف بالنبل ، فقتلوا رجالا منهم ؛ فأمر النبيّ بقَطْع أعناب ثقيف ، فوقع الناس فيها يَقْطَعُون .

وتقدّم أبو سفيان بن حَرْب ، والمغيرة بن شُعبة إلى الطائف ؛ فناديا ثَقِيفاً : أَنْ أمِّنُونا حتى نكلّمكم ، فأمّنوها . فدَعَوَا نساءً من قريش وبنى كِنانة ليخرجْنَ إليهما ، وهما يخافان عليهنّ السِّباء[٢] فأَبَيْنَ ، فقال لهما ابنُ الأسود بن مسعود : يا أبا سفيان ، يا مغيرة ؛ ألا أدلّكما على خيرٍ مما جئتما له ؛ إن مالَ بنى الأسود بن مسعود حيث قد علمتُما ؛ إنه ليس بالطّائف مالٌ أبعدُ رِشاءً[٣] ولا أشدُّ مؤونةً ، ولا أبعَدُ عمارة من مالِ بنى الأسود ، وإن محمداً إنْ قطعه لم يعمُرْ أبدا . فكلّماه فلْيأْخذه أو ليدَعْه لله والرّحِم ؛ فإن بيننا وبينه من القرابة ما لا يجهل . فكلّما الرسول فيه، فتركهلم .

ثم إن خُوَيلة[٤] ابنة حكيم قالت : يا رسولَ الله ؛ أعطنى — إنْ فتح الله عليك الطائف — حُلِيَّ بادِيَة ابنة غَيْلان ، أو حُلِيّ الفارعة بنت عقَيل — وكانتا من أَحْلَى[٥] نساء ثَقِيفٍ — فقال لها الرسول : وإن كان لم يُؤْذَنْ لى فى ثقيف يا خُوَيلة ، فخرجت خُويلة فذكرتْ ذلك لعُمَر بن الخطاب ، فدَخل على رسول الله ، فقال : ما حديثٌ حدّثَتْنيه خُويلة زَعَمَتْ أنكَ قلتَه ؟ قال : قد قلتُه ، قال : أو ما أُذِنَ لك فيهم يارسولَ الله ! قال : لا ، قال : أفلا أؤذّنُ بالرحيل ؟ قال : بلى. فأذّن عمر بالرّحيل .

---

(١) الدبابة : آلة تتخذ للحروب فتدفع فى أصل الحصن فينقبونه وهم فى جوفها .
(٢) السباء : الأسر . (٣) الرشاء: الحبل . (٤) خويلة: امرأة عثمان بن مظعون .
(٥) أحلى أى أكثرهن حلياً .

وانصرف الناس عن الطائف بعد القتال والحِصَار ، وسار الرسولُ بمن معه من المسلمين حتى نزل الجِعْرانة ، وكان سَبيُ هوازن قد قدم إليها .

وأتى رسولَ الله وفدُ هَوَازن وقد أسلموا ، فقالوا : يارسولَ الله ؛ إنّا أصلٌ وعشيرة ، وقد أصابنا من البَلَاء مالا يخفى عليك ؛ فامْنُنْ علينا مَنَّ الله عليك . وقام رجلٌ من هَوَازن ـ أحد بنى سَعْد[1] ؛ فقال : يارسول الله ؛ إنما فى الحظائر عمّاتُك وخالاتك وحَوَاضِنك[2] اللائِى كُنَّ يَكْفُلْنك ، ولو أننا مَلَحنا[3] للحارث ابن أبى شَمِر أو للنعمان بن المنذر ، ثم نزل منّا بمثل مانزلتَ به رَجَوْنَا عطفَه وعائدته[4] ، وأنت خيرُ المكفولين ، ثم قال :

امنُنْ علينا رسولَ الله فى كَرَمٍ فإنَّكَ المرء نَرْجُوهُ وننتظِرُ
امنُنْ على بَيْضَةٍ[5] قدْ عاقَها قدَرٌ مُمزَّقٍ شَمْلُها ، فى دَهرِها غِيَرُ[6]

فقال رسولُ الله : أبناؤكم ونساؤكم أحبُّ إليكم أم أموالكم ؟ فقالوا : يارسولَ الله ، خيَّرْتَنا بين أحسابِنَا وأموالنا ؛ بل تَردُّ علينا نساءنا وأبناءنا ؛ فهم أحبُّ إلينا ، فقال : أمّا ما كان لى ولبنى عبد المطلب فهو لكم ؛ فإذا أنا صلّيتُ الظهرَ بالناس فقولوا : إنا نستشفعُ برسولِ الله إلى المسلمين ، وبالمسلمين إلى رسول الله ، فى أبنائنا ونسائنا ؛ فسأُعطيكم عند ذلك وأسألُ لكم .

فلما صلّى رسولُ الله بالناس الظُّهْر قاموا فتكلَّموا بالذى أمرَهم به ، فقال رسولُ الله : أمّا ما كان لِى ولبنى عبد المطّلب فهو لكم ، فقال المهاجرون : وما كان لنا فهو لرسول الله ، وقالت الأنصار : وما كان لنا فهو لرسول الله ، وقال الأقرع بن

---

(١) كان النبى صلى الله عليه وسلم مسترضعاً فى بنى سعد . (٢) حواضن : جمع حاضنة ، وهى المربية . (٣) ملحنا ، أى أرضعناها . (٤) عائدته ، أى فضله . (٥) البيضة هنا : الأصل والعشيرة. (٦) غير الدهر : أحداثه .

حابس : أمّا أنا وبنو تميم فلا ، وقال عُيينة بن حِصْن : أمّا أنا وبنو فَزارة فلا ، وقال عباس بن مِرْداس : أما أنا وبنو سُلَيم فلا ؛ فقالت بنو سُلَيم : ما كان لنا فهو لرسول الله ، فقال العباسُ لقومه : وهَّنْتمونى[١] ! فقال الرسول : أمّا مَنْ تمسّك منهم بحقِّه من هذا السَّبْى فلَهُ بكلِّ إنسان ستُّ فرائض[٢] من أول شىء نُصيبُه ؛ فرَدُّوا إلى الناس أبناءَهم ونِساءهم .

ثم قال الرسول لوَفْد هوازن : مافعل مالك بن عوف ؟ قالوا : هو بالطائف مع ثَقِيف ، فقال : أخبروا مالكا أنه إن أَتَى مسلما ردَدْتُ عليه أهله وماله ، وأعطيته مائةً من الإبل .

ولما عرف مالك ذلك خرج من الطائف مستَخْفِياً ، فأمر براحلته فهُيِّئَتْ له ؛ وأمر بفرس فأُعِدَّ له ، وخرج ليلا على فرسه يركضُه حتى أتى راحلَتَه — حيث أمر بها أن تُحْبَس له — فركبها ، ولحق برسول الله ، فأدركه بالجِعْرانة ؛ فردّ عليه أهلَه وماله ، وأعطاه مائة من الإبل ؛ وأسلم فحَسُن إسلامه ، واستعمله رسولُ الله على قومه ومن أَسْلَم من تلك القبائل حول الطائف .

ولما فَرَغ رسولُ الله من ردِّ سبايا حُنَيْن إلى أهلها ركب واتَّبعه الناسُ يقولون : يارسولَ الله ؛ اقسِمْ علينا فَيْئَنا[٣] من الإبل والغنم ، حتى ألجئُوه إلى شَجَرة ، فاختطفت الشجرة عنه رداءه ، فقال : ردُّوا علىَّ ردائى أيُّها الناس ؛ فوالله لو كان لكم بعدد شجر تِهامَة نَعَما[٤] لقَسَمْتُهُ عليكم ، ثم ما أَلفيْتُمونى بخيلاً ولا جبَانا ولا كَذُوبا . ثم قام إلى جَنْب بَعير ، فأخذ وبَرَةً من سَنامه فجعلها بين إصبعيه ، ثم رفعها وقال : أيُّها الناس ؛ إنه والله ليس لى مِنْ فَيْئكم ولا هذه الوبَرَة إلا الخُمْس[٥] ، والخُمْس مردود إليكم ؛

---

(١) وهنتمونى : أضعفتمونى بمخالفتكم رأيى . (٢) جمع فريضة ، وهى البعير المؤخوذ فى الزكاة.
(٣) الفىء : الغنيمة . (٤) النعم : الإبل والشاء ، أو خاص بالإبل . (٥) كان الأمير فى الجاهلية يأخذ الربع من الغنيمة ، وجاء الإسلام فجعله الخمس ، وجعل له مصارف .

فأدّوا الخِياط والمِخْيَط[١] ، فإنّ الغُلُول[٢] يكونُ على أهله عَاراً وَناراً وشَنَاراً[٣] يوم القيامة .

فجاءه رجل من الأنصار بكُبّة[٤] من خيوط شَعْر ، فقال : يا رسولَ الله ؛ أخذتُ هذه الكُبَّة أعمل بها بَرْذَعَة بعيرٍ لى دَبِر[٥] ، قال : أمَّا نصيبى منها فلكَ ، فقال : إنه إذا بلغَتْ هذه فلا حاجةَ لى بها . ثم طرحها من يده .

ووزَّع الرسولُ الغنائمَ ، وأعطى ما أعطى فى قريش وقبائل العرب ، ولم يكن فى الأنصار منها شىء ؛ فوجَدَ[٦] هذا الحىّ من الأنصار فى أنفسهم ، وكثُرت منهم القالَة ؛ حتى قائلهم: لَقِىَ رسولُ الله قومَه ! فدخل عليه سعدُ بن عُبَادة فقال : يا رسول الله ، إنَّ هذا الحىّ من الأنصار قد وجَدُوا عليك فى أنفسهم لِمَا صنعتَ فى هذا الفَىْء الذى أصَبْتَ ؛ فقد قسَّمْتَه فى قَوْمِك ، وأعطَيت عطايا عِظاماً فى قبائل العرب ، ولم يكُ فى هـذا الحىِّ من الأنصار منها شَىْءٌ ، قال : فأين أنتَ مِنْ ذلك يا سعد ؟ قال : يا رسولَ الله ؛ ما أنا إلا مِنْ قومى . قال : فاجمَعْ لى قومَك فى هـذه الحظِيرَة . فخرج سَعد ، فجمع الأنصارَ فى تلك الحظيرة ؛ فلما اجتمعوا أتاه سعدٌ فقال : قد اجتمع لك هذا الحىُّ من الأنصار .

فأتاهم رسول الله ، فحمِد الله وأثنى عليه بما هو أهلُه ، ثم قال : يا معشر الأنصار ؛ ما قَالةٌ بلغتنى عنكم ، وموجِدَة وجَدْتمُوها علىَّ فى أنفسكم ! ألم آتِكم ضُلَّالا فهداكم الله، وعَالَةً[٧] فأغناكم الله ، وأعـداء فألَّفَ الله بين قلوبكم ! بلى ، والله ورسوله أمنُّ وأفضل . ثم قال : أَلا تُجيبوننى يا معشرَ الأنصار ! قالوا : بماذا نُجيبُك يا رسول الله ؟ لله ولرسولِه المنُّ والفضلُ ! قال : أما والله لو شئتُم لقلتُم فصدَقْتم

---

(١) الخياط والمخيط : الخيط والإبرة . (٢) الغلول : الخيانة . (٣) الشنار : أقبح العيب والعار . (٤) الكبة من كل شىء : ما اجتمع منه . (٥) البرذعة : الحلس يلقى تحت الرحل . والدبرة : قرحة الدابة ، والبعير دبر . (٦) وجد : غضب . (٧) العالة : الفقراء .

ولَصُدِّقتم : أتيتنا مكذَّبا فصدَّقناك ، ومَخْذُولا فنصرناك ، وطَرِيداً فآوَيْناك ، وعائلا فآسَيْنَاك(١) ، أوجَدْتم يا معشرَ الأنصار فى أنفسكم فى لُعَاعَة(٢) من الدنيا ، تألَّفْتُ بها قوما ليُسْلِمُوا ، ووكَلْتُكم إلى إسلامكم ! ألا تَرْضَوْن يا معشر الأنصار أن يذهبَ الناسُ بالشاة والبعير ، وترجعوا أنتم برسولِ الله إلى رحالكم ! فوالذى نفسُ محمدٍ بيده لولا الهجرةُ لكنتُ امرأً من الأنصار ، ولو سلك الناس شِعْباً(٣) وسَلَكَتِ الأنصارُ شِعْباً لسلكتُ شِعْبَ الأنصار، اللهم ارحم الأنصار وأبناءالأنصار وَأبناء أبْنَاء الأنصار !

فبكى القوم حتى أَخْضَلُوا لِحَاهم(٤)، وقالوا : رضينا برسول الله قِسْماً(٥) وحظًّا ، ثم انصرف رسولُ الله، وتفرّقوا(٦) .

***

ولما قَدِم رسول الله من مُنْصَرفه عن الطّائف كتب بُجير بن زهير إلى أخيه كعب(٧) يخبره أنَّ رسول الله قتل رجالا بمكة ممن كان يهجوه ويُؤْذيه ، وأنَّ من بقىَ من شعراء قريش قد هربوا فى كل وَجْه ؛ فإن كانت لك حاجة فطِرْ إلى رسول الله فإنه لا يقتل أحداً جاءه تائبا ، وإن أنت لم تفعل فانجُ إلى نَجائك(٨) من الأرض . فلما بلغ كعبا الكتابُ ضاقت به الأرض ، وأشفق على نفسه، وأَرْجَف به(٩)

(١) آسيناك : جعلناك كأحدنا . (٢) لعاعة بقية يسيرة . (٣) الشعب : الطريق بين الجبلين ، (٤) أخضلوا لحاهم : بلوها بالدموع . (٥) القسم : النصيب . (٦) قال حسان ابن ثابت يعاتب النبى فى حرمانه الأنصار :

وأنتِ الرَّسُولَ فقُلْ يا خَيْرَ مُؤتَمَنٍ ... للمؤمنينَ إذا ما عُدِّدَ البَشَرُ
عَلامَ تُدْعَى سُلَيْمٌ وَهْىَ نَازِحَةٌ ... قدام قومٍ هُمُ آوَوْا وهُمْ نَصَرُوا
سَمَّاهُمُ اللهُ أنْصَارًا بنصرهمُ ... دينَ الهدَى وعوانُ الحربِ تَسْتَعِرُ

العوان : التى قوتل فيها المرة بعد المرة .

(٧) كان كعب قد قال شعراً لم يرضه النبى . وانظر سيرة ابن هشام ٣ـ١٥٠ .

(٨) النجاء : الخلاص والنجاة . (٩) أرجف به : خاض فيه .

مَنْ كان فى حاضره من عدوّه ، فقالوا : هو مَقْتُول . فلما لم يجد بُدًّا قال قصيدته التى يمدح فيها رسول الله ، وذكر فيها خَوْفَه وإرْجَاف الوُشَاةِ به من عدوّه ، ثم خرج حتى قدم المدينة ، فنزل على رجل كانت بينه وبينه معرفةٌ من جُهَينة ؛ فغدا به إلى رسول الله حين صلَّى الصبح ، وأشار إلى رسول الله ، وقال له : هذا هو ، فقم إليه فاستأمنه(١) .

فقام إليه ، ووضع يدَه فى يده ـ وكان النبىّ لا يعرفه ـ فقال : يارسول الله ؛ إنَّ كعب بن زهير قد جاء ليستأمنَ مِنْكَ تائباً مسلماً ، فهل أَنتَ قابلٌ منه إن أنا جئتُكَ به ؟ فقال : نعم ، قال : أنا يارسولَ الله كعبُ بن زهير !

فوثب عليه رجل من الأنصار فقال : يارسول الله ؛ دَعْنى وعدوّ الله أَضرب عنقه ؛ فقال : دَعْه عنك ، فإنه قد جاء تائبا نازِعاً عمَّا كان عليه .

فقال قصيدته :

بانَتْ سعـــادُ فقلبى اليومَ مَتْبُولُ مُتَيَّمٌ إثْرَها ، لم يُفْدَ مَكْبُولُ(٢)
وما سُعَادُ غـــداةَ البيْنِ إذ رَحَلوا إلا أَغَنُّ غَضِيضُ الطَّرْفِ مكحولُ(٣)
هَيْفَاءُ مقبــلةً ، عَجْزَاءُ مُدْبِرَةً(٤) ، لا يشتكى قِصَرٌ منهـــا ولا طولُ
تَجْلُو عوارِضَ ذِى ظَلْمٍ إذا ابتسمَتْ كأنه مَنْهَلٌ بالرَّاحِ مَعْلُولُ(٥)
شُجَّتْ بذى شَبَمٍ من ماءِ مَحْنِيَــةٍ صافٍ بأَبْطَحَ أَضْحَى وهْوَ مَشْمُولُ(٦)

---

(١) استأمنه : اطلب منه أن يؤمنك . (٢) بانت : فارقت . متبول : مصاب ، بالتبل ، وهو الذحل والعداوة ، ويقال : قلب متبول ؛ إذا غلبه الحب وهيمه . مكبول : مقيد .

(٣) الأغن من الغزلان وغيرها : الذى فى صوته غنة . غضيض الطرف : مسترخى الأجفان .

(٤) هيفاء : ضامرة البطن والخصر . عجزاء : عظيمة العجيزة .

(٥) تجلو : تكشف . عوارض : ثنايا . الظلم : ماء الأسنان وبريقها . النهل : الشرب الأول ، والعلل : الشرب بعد الشرب تباعاً .

(٦) شجت : مزجت . الشبم ؛ يروى بكسر الباء وفتحها على الاسم والمصدر : البارد . المحنية من الوادى : منعرجه حيث ينعطف . الأبطح : مسيل واسع فيه دقاق الحصى . مشمول : هبت عليه ريح الشمال ، وهى باردة .

تَنْفِى الرياحُ القَذَى عنه وأَفْرَطَهُ   من صَوْبِ غاديةٍ بِيضٌ يعاليلُ(١)
فيالها خُلَّةً لَوْ أَنَّهـا صَدَقَتْ   بوَعْدِها أو لَوَ انَّ النُّصْحَ مقبولُ(٢)
لكنها خُلَّةٌ قد سِيطَ من دَمِها   فَجْعٌ ووَلْعٌ وإخْلَافٌ وتبديلُ(٣)
فما تَدُومُ على حالٍ تكونُ بها   كما تَلَوَّنُ فى أثوابها الغُولُ
وما تُمسِّك بالعهد الذى زعَمَتْ   إلا كما يُمْسِكُ الماءَ الغرابيلُ
فلا يغرَّنْك ما منَّتْ وما وعدَتْ   إن الأمانىَّ والأحلامَ تضليلُ
كانت مواعيدُ عرقوبٍ لها مثَلاً   وما مواعيدُها إلا الأباطيلُ(٤)

***

أَرْجُو وآمُلُ أن تَدْنُو مودّتُها   وما إخال لدَيْنَا منكِ تَنْوِيلُ(٥)
أمستْ سُعَادُ بأرضٍ لايبلِّغُها   إلا العِتَاقُ النّجيباتُ المراسيلُ(٦)
ولن يُبَلِّغَها إلا عُذَافِرةٌ   لها على الأَيْنِ إرقالٌ وتبغيلُ(٧)
من كلِّ نضَّاخةِ الذِّفْرَى إذا عَرِقَتْ   عُرْضَتُهَا طَامِسُ الأعلامِ مجهولُ(٨)
ترمى الغيوبَ بعينىْ مفْرَدٍ لَهَقٍ   إذا توقَّدَتِ الحِزَّانُ والمِيلُ(٩)

---

(١) القذى : ما فى الماء من أجسام غريبة . وأفرطه : عجل إليه وملأه . غادية : سحابة تمطر بالغداة . يعاليل : حباب الماء ، وهو رغوة الماء .

(٢) الخلة : الصداقة .

(٣) سيط : خلط . فجع : فجيعة . الولع : الكذب .

(٤) عرقوب : اسم رجل يضرب به المثل فى خلف الوعد .

(٥) إخال : أظن . تنويل : نوال .

(٦) المراسيل : جمع مرسال ، وهى السريعة السير .

(٧) العذافرة : الناقة الشديدة . الأين : الإعياء . الإرقال : ضرب من العدو فوق الخبب. التبغيل: مشى فيه سعة ، كأنه شبه سيرها بسير البغل لشدته .

(٨) الذفرى : الموضع الذى يعرق من البعير خلف الأذن . عرضتها : همتها .

(٩) المفرد : الثور الوحشى ، شبهها به. واللهق : الأبيض ، والحزان : جمع حزيز ، وهو المكان الغليظ الصلب .

ضَخْمٌ مُقلَّدُهَا ، فَعْمٌ مُقيَّدُهَا ... فى خَلْقِها عن بناتِ الفَحْلِ تَفْضِيلُ(١)
غَلْبَاءُ وَجْنَاءُ عُلْكُومٌ مُذَكَّرَةٌ ... فى دَفِّهَا سَعَةٌ ، قُدامها مِيلُ(٢)
وجِلدُها من أُطُومٍ لا يُؤَيِّسُهُ ... طِلْحٌ بضاحية المَتْنَيْنِ مَهْزُولُ(٣)
حَرْفٌ ، أخوها أبوها من مُهجَّنَةٍ ... وعَمُّهَا خالُهَا ، قَوْدَاءُ شِمْلِيلُ(٤)
يَمشى القُرَادُ عليها ثم يُزْلِقُهُ ... منها لَبَانٌ وأقرابٌ زهاليلُ(٥)
عَيْرَانَةٌ قُذِفَتْ بِالنَّحْضِ عن عُرُضٍ ... مِرْفَقُهَا عن بناتِ الزَّوْرِ مَفتُولُ(٦)
كَأَنَّ مَا فَاتَ عينيها ومَذْبحَها ... من خَطْمِهَا ومن اللَّحْيَيْنِ بِرْطِيلُ(٧)
تُمِرُّ مِثْلَ عَسِيبِ النَّخْلِ ذا خُصَلٍ ... فى غارزٍ لم تُخَوِّنه الأحاليلُ(٨)
قَنْوَاءُ فى حُرَّتَيْهَا للبصيرِ بها ... عِتْقٌ مُبِينٌ وفى الخدَّينِ تسهيلُ(٩)

(١) المقلد: العنق . مقيد : موضع القيد فى رجلها . والفعم : الممتلىء.

(٢) غلباء : غليظة الرقبة . وجناء : تامة الخلق ، عظيمة لحم الوجنة ، صلبة شديدة . العلكوم : القوية الصلبة . ناقة مذكرة : متشبهة بالجمل فى الخلق . الدف : الجنب . قدامها ميل : طويلة العنق. والميل مد البصر .

(٣) الأطوم : السلحفاة البرية أو الزرافة ، يصف جلدها بالقوة والملاسة . لا يؤيسه : لا يؤثر فيه . الطلح : القراد . الضاحى : البارز . المتنان . الجانبان .

(٤) تشبه الناقة بالحرف من حروف المعجم إذا كانت ضامرة ، وبحرف الجبل إذا كانت غليظة مهجنة : كريمة . قوداء : طويلة العنق والظهر . شمليل : خفيفة سريعة . وأبوها أخوها ، وعمها خالها يريد أنها مداخلة النسب فى الكرم ، فلم يدخل فى نسبها أجنبى .

(٥) اللبان : الصدر . الأقراب : الخواصر . زهاليل : ملساء ناعمة ، جمع زهلول .

(٦) عيرانة : صلبة ، تشبيهاً لها بعير الوحش ، والألف والنون زائدتان . النحض : اللحم. وقذفت باللحم ، يريد أنها ممتلئة الجسم . عن عرض : تعترض فى مرتعها. الزور : الصدر ، وبناته: ما حواليه من الأضلاع وغيرها .

(٧) فات : تقدم . مذبح : مكان الذبح . الخطم : الأنف . اللحى : الحنك . البرطيل : حجر مستطيل عظيم ، شبه به رأس الناقة ، كأن الذى تقدم عينيها ومذبحها من الخطم والحنك حجر عظيم . (٨) العسيب : جريد النخل . خصل : جمع خصلة ، وهو اللفافة من الشعر . غارز : ضرع . تخونه : تنقصه . الأحاليل جمع إحليل ، وهو مخرج اللبن من الضرع . يعنى أنه قد نشف لبنها ، فهى سمينة لم تضعف بخروج اللبن منها .

(٩) القنواء : المحدوبة الأنف . حرتيها : أذنيها . سهل الخدين : غير مرتفع الوجنتين .

تَخْدِى على يَسَرَاتٍ وَهْىَ لاحِقَةٌ ... ذَوَابِلٌ مَسُّهُنَّ الأَرْضَ تَحْلِيلُ(١)
سُمْرُ العُجَايَاتِ يَتْرُكْنَ الحَصَى زِيَماً ... لَمْ يَقِهِنَّ رُءُوسَ الأُكْمِ تَنْعِيلُ(٢)
كَأَنَّ أَوْبَ ذِرَاعَيْهَا إذا عَرِقَتْ ... وقد تَلَفَّعَ بالقُورِ العَسَاقِيلُ(٣)
يوماً يَظَلُّ به الحِرْبَاءُ مُصْطَخِداً ... كَأَنَّ ضَاحِيَهُ بالشمس مَمْلُولُ(٤)
وقال للقوم حاديهم وقد جَعَلَتْ ... وُرْقُ الجَنَادِبِ يَرْكُضْنَ الحَصَى: قِيلُوا(٥)
شَدَّ النَّهَارِ ذِرَاعَا عَيْطَلٍ نَصَفٍ ... قامت فجَاوَبَهَا نُكْدٌ مَثَاكِيلُ(٦)
نَوَّاحَةٌ رِخْوَةُ الضَّبْعَيْنِ ليس لها ... لَمَّا نَعَى بِكْرَهَا النَّاعُونَ معقولُ(٧)
تَفْرِى اللَّبَانَ بكَفَّيْهَا، ومِدْرَعُهَا ... مُشَقَّقٌ عن تَرَاقِيهَا رعابيلُ(٨)

* * *

يَسْعَى الغُوَاةُ جَنَابَيْهَا، وقولُهُمُ: ... إنك يابْنَ أبى سُلْمَى لمقتولُ

---

(١) تخدى: تسرع . يسرات البعير: قوائمه . اللاحقة الضامرة . ذوابل: يابسة . مسهن الأرض تحليل، أى تمس الأرض مساً خفيفاً سريعاً كمن يحلف على شىء أن يفعله فيفعل منه اليسير يحلل به يمينه . (٢) سمر: ليست برخوة . العجايات: أعصاب قوائم الإبل والخيل، واحدته عجاية زيما: متفرقاً . الأكمة: ما اجتمع من الحجارة فى مكان واحد . التنعيل: أن يوضع للحافر طبق من حديد يقيه الحجارة .

(٣) أوب: رجوع . القور: جمع قارة، وهى الأصاغر من الجبال . العساقيل: جمع عسقول . السراب . قال ابن سيده: أراد: وقد تلفع القور بالعساقيل، فقلب .

(٤) الحرباء: حيوان برى له سنام كسنام الجمل، يستقبل الشمس ويدور معها حيث دارت، ويتلون ألوانا . مصطخدا: منتصبا مصطليا بحر الشمس . ضاحيه: ما برز منه للشمس وظهر . مملول: محروق، أى كأن ما ظهر منه للشمس مشوى بالملة من شدة حره .

(٥) الحادى: الذى يسوق الإبل . ورق: جمع أورق، وهو الأخضر يضرب إلى السواد . الجنادب: جمع جند، وهو صغار الجراد . قيلوا: فعل أمر من «قال»، إذا استراح وقت القيلولة .

(٦) شد النهار: وقت ارتفاعه وعلوه . العيطل: الناقة الطويلة . النصف: بين الشابة والكهلة . النكد: جمع ناكد، وهى التى لا يعيش لها ولد . مثاكيل: جمع مثكال، وهى التى فقدت ولدها .

(٧) النواحة: النائحة التى تبكى ولدها . الضبعين، مثنى الضبع وسط العضد . المعقول: العقل .

(٨) تفرى: تقطع . اللبان: الصدر . المدرع: القميص . التراقى: جمع ترقوة، وهى أعلى الصدر . رعابيل: قطع .

وقال كلُّ صـــديق كنتُ آمُلُهُ   لا أُلْـهِيَنَّكَ إنى عنك مشغولُ(١)
فقلتُ : خَلُّوا سبيلى لا أبا لـكُمُ   فـكلُّ ما قدّر الرحمنُ مفعولُ
كلُّ ابن أُنثَى وإن طالت سلامته   يوماً على آلةٍ حَـدْباء محمولُ(٢)
نُبِّئْتُ أنَّ رســولَ الله أَوْعَدَنى   والعفوُ عنـــد رسول الله مأمولُ(٣)
مَهلًا هداكَ الذى أعطاكَ نافلةَ(٤) الْـ   قُرْآنِ فيهـا مواعيظٌ وتفصيلُ
لا تأخـذَنّى بأقوالِ الوُشَاةِ ولَمْ   أُذْنِبْ ولو كثرتْ فِىَّ الأقاويل
لقـــد أقومُ مَقاماً لو يقومُ بِهِ   يرَى ويسمَعُ ما قد أَسمع الفيـــلُ
لظَلَّ يُرْعَدُ إلّا أن يكونَ له   من الرسول بإذنِ الله تَنْويلُ(٥)
ما زلتُ أَقْتَطِعُ البَيْـداءَ مُدَّرِعاً   جُنْحَ الظلامِ وثوبُ الليل مَسْدُول(٦)
حتى وضعتُ يمينى ما أنازِعُها   فى كفِّ ذى نَقَماتٍ قِيلُه القيـــلُ
فلَهوَ أَخْوَفُ عنـــدى إذْ أكلِّمُـه   وقيـــل إنك منسوب ومسئُولُ
من ضَيْغَمٍ بضَرَاء الأرضِ مَخْدَرُهُ(٧)   فى بَطْنِ عَثّر غِيلٌ دونَه غِيــلُ(٨)
يَغْدُو فيَلْحِمُ ضِرْغامَيْن ، عَيْشُهُما(٩)   لَحْمٌ من الناس معفورٌ خَرَادِيلُ(١٠)
إذا يُسَاوِرُ قِرْناً لا يَحِـلُّ لَهُ   أن يَتْرُكَ القِرْنَ إلا وهو مَفْلُولُ(١١)
منـــه تظَلُّ سباعُ الجوِّ نافِرَةً   ولا تَمَشَّى بواديه الأَرَاجيـــلُ(١٢)
ولا يزال بواديه أخـــو ثِقَـةٍ   مضرَّجَ البَزِّ والدِّرْسانِ مأكولُ(١٣)

* * *

(١) لا ألهينك : لاأشغلنك عما أنت مهتم به . (٢) الآلة الحدباء : النعش الذى يحمل عليه الموتى . (٣) أوعدنى : تهددنى . (٤) النافلة : العطية .

(٥) التنويل : العطاء ، وهو يقصدالعفو . (٦) البيداء : الصحراء (٧) الضيغم: الأسد ، ضراء الأرض : ماواراك من الشجر . مخدره : غابته وأجمته . (٨) عثر : موضع تنسب إليه الأسود الغيل : الأجمة . (٩) يلحم : يطعم اللحم . (١٠) معفور : معفر ، والخراديل : القطع .

(١١) يساور : يواثب . (١٢) الأراجيل : الجماعات من الرجال .(١٣) البز: السلاح . الدرسان : جمع درس ، وهو الثوب الخلق البالى .

إنَّ الرسـولَ لَنُورٌ يُستضاء به   مُهَنَّدٌ من سيوفِ الله مَسْلُولُ

فى عُصْبَةٍ من قريشٍ قال قائلُهم   ببطْنِ مكَّةَ لما أسلمُوا : زُولُوا

زالُوا فما زال أَنْكاسٌ ولا كُشُفٌ   عنـد اللقاء ولا مِيلٌ مَعَازِيلُ(١)

شُمُّ العرانينِ أبطالٌ لَبوسُهُم   من نَسْجِ داوُدَ فى الهيجا سرابيلُ(٢)

بيضٌ سوابِغُ قد شُكَّتْ لها حَلَقٌ   كأنها حَلَقُ القَفْعَاءِ مَجْدُولُ(٣)

ليسوا مَفَارِيحَ إن نالتْ رِمَاحُهُمْ   قوماً ، وليسوا مَجَازِيعاً إذا نِيلُوا(٤)

يمشُونَ مَشْىَ الجمالِ الزُّهْرِ يَعْصِمُهُمُ   ضَرْبٌ إذا عَرَّدَ السُّودُ التنابيلُ(٥)

لا يقعُ الطَّعْنُ إلّا فى نُحورِهِمُ   وما لهم عن حياضِ الموتِ تَهليلُ(٦)

---

(١) أنكاس: جمع نكس ـ بالكسر : الرجل الضعيف . الكشف : جمع أكشف ، وهوالذى لاترس معه فى الحرب . الميل : جمع أميل وهو الذى لاسيف معه . والمعازيل : جمع معزال ، وهو من لا سلاح معه . (٢) السرابيل : الدروع . (٣) شكت : نسجت . القفعاء : شجر ينبسط على وجه الأرض ، يشبه حلق الدروع . مجدول : محكم الصنعة . (٤) مفاريح : جمع مفراح . ومجازيع : جمع مجزاع . (٥) عرد : هرب ، والتنابيل ، جمع تنبال ، وهو القصير .
(٦) تهليل : فرار .

١٤ — يوم تَبُوكَ*

علم النبيّ صلى الله عليه وسلم أنّ نصارىَ العربِ قد اجتمعوا مع جُنْد الرّوم لمحاربته، ووصلت مقدِّمتُهم إلى البَلْقاء(١) ؛ فأمر أصحابَه بالتهيُّؤ لغزْوهم ، وذلك فى زمن عُسْرةٍ من الناس ، وشدّةٍ من الحرّ ، وجَدْبٍ من البلاد، وحينَ طابت الثمارُ ، فالنّاس يحبّون المقام فى ثمارِهم وظلالهم ، ويكرهون الشخوصَ عنها .

وكان رسولُ الله قلّما يخرجُ فى غزوة إلّا كَنّى(٢) عنها ، وأخبر أنه يريد غيرَ الوَجْهِ الذى يقصِد إليه ، إلّا غزوة تَبوكَ فإنه بيّنها للناس ؛ لبُعْد الشُّقّةِ ، وشدّة الزّمان ، وكثرة العدوّ الذى يصمِدُ(٣) له ، ليتأهّبَ النّاس لذلك أُهْبَته .

أمر الرسولُ الناس بالجَهاز(٤) ، وأخبرهم أنه يُرِيدُ غَزْوَ الروم ؛ فتجهّزَ الناسُ، على مافى أنفسهم من الكُرْهِ لذلك الوَجْه ، لما عرفوا من كثرة الروم وقوتهم ، واثّاقلَ بعضُ المنافقين ، وعرف الرسولُ أمرهم بفراسته حيناً ، وبوَحْى الله أحياناً .

وفى ذات يوم — وهو فى جهازه ذلك — قال للجدّ بن قيس(٥) : ياجدّ ، هل لكَ العامَ فى جلادِ بنى الأَصْفَر(٦) ؟ فقال : يارسولَ الله ، أَوَ تأذنُ ولا تَفْتِنّى !

---

* الطبرى : ٣ — ١٤٢ ، ابن هشام : ٤ — ١٦٩ ، السيرة الحلبية ٣ — ١٤٧ ، سيرة دحلان ٢ — ٣٦٧ . كان فى رجب سنة تسع من الهجرة . وتبوك : موضع من أدنى أرض الشام ، وسميت أيضاً غزوة العسرة لقوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِى سَاعَةِ الْعُسْرَةِ ﴾ ، وتعرف بالفاضحة لافتضاح المنافقين فيها .

(١) البلقاء : أرض بالشام. (٢) كنى : تكلم بكلام وأراد غيره. (٣) صمده وصمد إليه : قصده . (٤) جهاز المسافر (بالفتح والكسر) : ما يحتاج إليه. (٥) فيه نزل قوله تعالى : ﴿ وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ ائْذَنْ لِى وَلَا تَفْتِنّى أَلَا فِى الْفِتْنَةِ سَقَطُوا وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ ﴾ (٦) بنو الأصفر هم الروم .

فوالله لقد عَرَف قومى أنَّه ما مِنْ رَجل بأشدَّ عُجْباً بالنساء منى ، وإنى أَخْشَى إن رأيتُ نساءَ بنى الأصفر ألّا أصْبِر ! فأعرض عنه الرسولُ ، وقال : قد أَذِنْتُ لك .

وقال قومٌ من المنافقين بعضُهم لبعض : لاتنفِروا فى الحرِّ ؛ زهادةً فى الجهاد ، وشكًّا فى الحق ، وإرجافاً بالرسول ، ففضح الله ما بيَّتُوا ، وأنزل على نبيِّه فيهم : ﴿وَقَالُوا لَا تَنفِرُوا فِى الحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلًا وَلْيَبْكُوا كَثِيراً جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾[١] .

وبلغ رسولَ الله أنَّ ناساً مِنَ المنافقين يجتمعون فى بيت سُوَيلم اليهودىّ ، يُثَبِّطون الناسَ عن الخروج للغَزْو ؛ فأراد أن يَقْضِىَ على الفتنة فى مَهْدِها ، ويطفئ جَذْوَة الشرّ قبل أَنْ تستفحل نارُها ، فبعث إليهم طَلْحَةَ بن عبيد الله فى نفرٍ من أصحابه ، وأمره أن يحرِّقَ عليهم البيت ، فخرَّب طلحةُ عُشَّ النِّفاق ، وحرّق وَكْرَ المنافقين .

وجدّ رسول الله فى التهيّؤ للسَّفر ، وأمر الناس بالجَهاز والانكماش[٢]، وحضَّ أهل الغِنَى على النفقة والحُمْلَان[٣] فى سبيل الله ، ورغَّبهم فى ذلك ، فحمل رجالٌ من أهلِ الغِنَى واحتسبوا[٤] ، وأنفق عثمان فى ذلك نفقةً عظيمةً لم يُنْفِقْ أحدٌ مثلها .

وتسابقَ المسلمون إلى إعداد العُدَّة للغَزْوِ والجهاد ، وعجز البكّاءون ــ وهم سبعة نفر من الأنصار وغيرهم[٥] ــ فاستحملوا رسولَ الله، وكانوا أهلَ حاجة ، فقال: لاأَجِدُ

---

(١) سورة التوبة ٨٢ . (٢) الانكماش : الإسراع . (٣) الحملان ، مصدر كالحمل ، والحملان : مايحمل عليه من الدواب فى الهبة خاصة . (٤) احتسب بكذا أجرا عند الله : اعتده ، ينوى به وجه الله . (٥) هم : سالم بن عمير ، وعلبة بن زيد ، وعبد الرحمن بن كعب ، وعمرو بن حمام بن الجموح ، وعبد الله بن المغفل المزنى ، وهرمى بن عبد الله ، وعرباض بن سارية الفزارى .

ما أحملكم عليه ، فتولَّوْا ، وأعينُهم تفيضُ من الدمع حَزَنا ألَّا يجدوا ما ينفقون .

ورأى واحدٌ من المؤمنين اثنين منهم ، وهما يبكيان ، فقال : ما يبكيكما ؟ قال : جِئْنا رَسولَ الله ليحملَنا ، فلم نجد عنده ما يحمِلُنا عليه ، وليس عندنا ما نتقوّى به على الخروج معه ؛ فأعطاهما ناضحاً له[١] ، وزوّدهما شيئاً من تمر ، فخرجا مع الرسول .

وأجمع الرسولُ السيرَ ، وضرب عَسْكَرَه على ثَنِيَّة الوداع ، وتخلَّف عنه نفرٌ من المسلمين من غير شكٍّ وارتيابٍ ؛ فقد كانوا رجالَ صدقٍ لا يُتَّهمون فى إسلامهم[٢] .

وسار معه عبد الله بن أُبَىّ ، وضرب عَسْكَرَه قريباً منه ، ولكنّه لم يلبث أن تخلَّف فيمن تخلّف من المنافقين وأَهْلِ الرِّيب .

واستعمل رسولُ الله على المدينة — حين خرج إلى تَبُوك — سِبَاع بنَ عُرْفُطَة ، وخلّف علىَّ بن أبى طالب على أهله ، وأمره بالإقامة فيهم ، فأَرجف[٣] بذلك المنافقون وقالوا : ما خلّفَه إلّا استثقالا له وتخفُّفاً منه ، وسمع ذلك علىّ ، فأخذ سلاحه وخرج حتى أتى رسول الله ، وهو نازِلٌ بالْجُرْف[٤] ، فقال : يا نبىَّ الله ؛ زَعَم المنافقون أنك استثقلتَنى وتخفّفتَ منى ! فقال : كذبوا ؛ ولكنى خلّفْتُك لِمَا تركتُ ورائى ، فارجع فاخْلُفنى فى أَهلى وأهلِك ؛ أفلا تَرْضَى أن تكونَ مِنِّى بمنزله هارونَ مِنْ موسى إلا أنه لا نبىَّ بعدى ! فرجع علىٌّ إلى المدينة ، ومضى الرسول على سفره .

ومرّ النبىّ فى طريقه بالحِجْر[٥] ، فسجَّى ثوبَه على وَجْهه ، واستحثَّ الناس ، ثم قال : لا تدخلوا بيوتَ الّذين ظلموا إلا وأنتم باكُونَ ؛ خوفا أَنْ يصيبكم مثل ما أصابهم .

ثمَّ نزل بالحِجْر ، واستقَى الناسُ من بئرها ، فلما راحوا قال لهم رسول الله :

---

(١) الناضح : الجمل الذى يستقى عليه الماء . (٢) منهم كعب بن مالك ، ومرارة بن الربيع ، وهلال بن أمية . (٣) أرجف فى الشىء وبه : خاض فيه . (٥) الجرف : موضع قرب المدينة . (٥) الحجر : بلاد ثمود .

لا تشربوا من مائها شيئا ، ولا تتوضَّئوا منه للصلاة ، وما كان من عجين عجنتموه فاعلِفُوه الإبل ، ولا تأكلوا منه شيئاً ، ولا يخرجَنّ أحـدٌ منكم الليلة إلا ومعه صاحبٌ له .

وأصبحَ النّاس ولا ماءَ معهم ، فشـكَوْا ذلك إلى الرسول ، فدعا الله فأَرسل سحابةً أمطرتْ حتى ارْتَوَى الناسُ ؛ واحتملوا حاجتَهم من المـاء . وتابع المسلمون السَّيْر ، حتى إذا كانوا ببعضِ الطريق ضلّت ناقةُ الرسولِ ، فخرج أصحابُه فى طلبها ، فقال أحد المنافقين(١) : أليس محمدٌ يزعم أنه نبىٌّ ، ويخبركم خبرَ السماء ! فـكيف لا يدرى أَيْنَ ناقتُه !

فقال رسولُ الله لأصحابه : إن رجلا قال : هذا محمدٌ يخبركم أنه نبىٌّ ، ويزعمُ أنه يخبركم بأَمْرِ السماء ، وهو لا يدرى أين ناقتُه ! وإنى والله ما أَعْلَمُ إلَّا ما علّمنِى الله ، وقد دلّنى الله عليها ، وهى فى الوادى فى شِعْب(٢) كذا ، قد حَبَسَتْها شجرةٌ بزمامها ، فانطلِقوا حتى تأتونى بها . فذهبوا فجاءوا بها .

ثم مضى رسولُ الله سائرا ، فجعل يتخلَّفُ عنـه الرجل ، فيقول : يا رسول الله ، تخلّف فلان ، فيقول : دَعُوه فإنْ يَكُ فيه خَيْرٌ فسيلحِقُه الله بكم ، وإن يكُ غيرَ ذلك فقد أراحكم الله منـــه ، حتى قيل : يا رسولَ الله ؛ قد تخلّف أبو ذرٍّ وأبطأَ به بعيرُه ، فقال : دَعُوه فإن يكُ فيه خير فسيُلْحِقُه اللهُ بكم ، وإن يك غيرَ ذلك فقد أراحكم الله منه .

وتلوَّم(٣) أبو ذرٍّ على بعيره ، فلما أبطأَ عليه أخذ متاعَة فحمله على ظهره ، ثم

---

(١) هو زيد بن اللصيت . (٢) الشعب : ما انفرج بين جبلين . (٣) التلوم : التلبث والانتظار.

خرج يتبعُ أثر الرسول ماشيا ، ونزل الرسولُ فى بعض منازله ، فنظر ناظرٌ من المسلمين . فقال : يا رسولَ الله ؛ إن هـذا لرجلٌ يمشى على الطريق وَحْدَه ، قال الرسول : كن أبا ذرّ ! فلما تأمله القومُ قالوا : هو والله أبو ذَرّ ! فقال الرسول : رحم الله أبا ذرّ ! يمشى وحدَه ، ويموت وحدَه ، ويُبْعَث وحدَه .

ولما انتهى رسول الله إلى تبُوك لم يلق حرباً، وصالح أهلها وقفل راجعاً .

وفى عودته أتاه يُحَنّه بن رؤبة ، صاحب أَيْلة، فصالَحه وأعطـاه الجزية ، وأتاه أهل جَرْباء وأَذْرُح(١) فأَعطَوْه الجزية ، فكتب رسول الله لهم كتاباً فيه : بسم الله الرحمن الرحيم . هذه أَمَنَةٌ من الله ومحمد النبيّ رسول الله ليُحَنّه بن رُؤْبة وأهل أَيْلَة ، سُفُنهم وسَيَّارَتهمْ فى البرّ والبحر ، لهمْ ذِمّةُ الله وذِمّة محمد النبيّ ومَنْ كان معهم من أهلِ الشام وأهل اليمن ، وأهلِ البَحْرِ ، فَمَنْ أحدثَ منهم حَدثاً ، فإنه لا يحولُ مالُه دونَ نفسه ، وإنَّهُ طيبٌ لمن أخذه من الناس ، وإنه لا يَحِلُ أن يمنعوا ماء يَرِدُونَه ، ولا طريقا يُريدونَه من برٍّ أو بَحْرٍ .

ودعا رسولُ الله بخالد بن الوليد، فبعثه إلى أُكيدِر دومَة ـ وكان رجلا من كِنْدَة، قد مُلِّكَ عليها ، وهو نَصْرانىّ ، وقال له : إنك ستجده يصيد البقر ؛ فائْتَمَرَ خالدٌ بأَمر النبيّ ، وسار إليه فى جُنْدٍ من المسلمين .

وفى ليلة مقمرة صائفةٍ ، كان أُكَيْدِرُ دَوْمة على سَطْحٍ له ، ومعه امرأته ، فباتت البقر تحكُّ بقرونها بابَ القصر ، فقالت امرأته : أرأيتَ مثلَ هـذا قطّ ؟ قال : لا والله ، قالت : فمن يَتْرُكُ هـذه ؟ قال : لا أحد ، ونزل فأَمر بفرسه فأُسرج له ، وركب معه نفر من أهل بيته ، فيهم أخٌ له يقال له حسَّان ، فركب وخرجوا معه

---

(١) جرباء وأذرح : بالشام .

بِمَطَارِدِهم(١) ، فلما خرجوا تلقَّفَتْهم خيلُ رسول الله فأخذتهم ، وقتلوا أخاه ، وقد كان عليه قبَاء من ديباج مُخَوَّص بالذهب ، فاسْتَلَبه خالد ، وبعث به إلى النبيّ صلى الله عليه وسلّم قبل قدومه عليه . ولما رآه المسلمون جعلوا يلمَسُونه بأيديهم ويتعجَّبون منه ، فقال رسول الله : أتعجبون من هذا ! فوالذى نفس محمد بيده ، لَمناديل سَعْد بن مُعاذ فى الجنّة أحسنُ من هذا !

ثم قدم خالد بأُكَيدِر على رسول الله ، فحقَن له دمَه ، وصالحه على الجِزية ، ثم خلَّى سبيله ؛ فرجع إلى قريته ، وأقام رسولُ الله بتَبُوك بضعَ عشرة ليلة لم يجاوزْها، ثم انصرف قافِلًا إلى المدينة .

وأقبل حتى نزل بذى أوان(٢) ، وكان أصحاب مسجد الضِّرار قد أتَوْه ، وهو يتجهَّزُ إلى تبُوك ، فقالوا : يا رسول الله ؛ إنّا قد بنينا مسجداً لذى العِلّة والحاجة ، والليلة المَطيرة ، والليلة الشاتية ، وإنا نحبّ أن تأْتِيَنا فتصلِّيَ لَنَا فيه ، فقال : إنى على جناح سفر وحال شُغل ، ولو قد قدِمنا إن شاء الله لأتيناكم فصلّينا لكم فيه .

ولما عاد أتاه خبرُ المسجد وما يُراد به من الكَيْد والأذى؛ فدعا مالكَ بن الدُّخْشُم ومعن بن عَدِىّ ، وقال : انطلقا إلى هذا المسجد الظالم أهله فاهْدِماه وحرِّقاه .

فخرجا حتى أتيا رَهْط مالك بن الدُّخْشُم ، فقال مالكٌ لمعن : أَنْظِرنى حتى أخرجَ إليك بنارٍ من أهلى . ودخل إلى أهله ، فأخذ سَعَفاً من النخل ، فأَشعل فيه نارا ، ثم خرجا يشتدّان حتى دخلا المسجد وفيه أَهلُه ، فحرّقاه وهدماه وتفرّقوا عنه(٣) .

---

(١) المطرد : رمح قصير تطعن به الوحش . (٢) ذوأوان : موضع بينه وبين المدينة ساعة من نهار .

(٣) نزل فيهم قوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقاً بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِمَنْ حَارَبَ اللهَ وَرَسُولَهُ مِنْ قَبْلُ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَى وَاللهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴾ .

وقدم رسولُ الله المدينـةَ ، وكان قد تخلّف عنه رَهْطٌ من المنافقين ، وتخلّف كذلك من المسلمين ـ من غير شكٍّ ولا نِفَاق ـ كعب بن مالك ومُرارة بن الربيـع وهلال بن أميّة ؛ فقال رسولُ الله لأصحابه : لاتـكلِّمُنّ أحـداً من هؤلاء الثلاثة . فاعتزل المسلمون كلامَ أولئك النَّفَر .

***

قال كعب بن مالك : ماتخلّفت عن رسول الله غَزْوَةً غزاها قطّ ، غـير أنّى كنتُ قد تخلّفتُ عنه فى غزْوَة بَدْرٍ ، وكانت غزوة لم يعاتب الله ولا رسولُه أحـداً تخلَّفَ عنها ، وذلك أنّ رسولَ الله إنما خرج يُرِيدُ عِيرَ قريش حتى جمع اللهُ بينـه وبين عدوّه على غير ميعاد ، ولقد شهِدْتُ مع رسول الله العَقَبة[١] حتى تواثَقْنا على الإسـلام ، وما أحبُّ أنَّ لى بهـا مشهدَ بدر ؛ وإن كانت غزوة بدر أَذْكَرَ فى الناس منها .

وتخلّفت عن رسول الله فى غزوة تبُوك ، وقد كنتُ قويًّا ميسورا[٢] ، وكان النبيّ قلّما يريد غَزْوَةً يَغْزُوها إلّاورَّى بغيرها ، حتى كانت غزوة تبُوك ، فغزاها فى حرٍّ شـديد ، واستقبل سفَراً بعيداً ، وقَصَد غَزْو عددٍ كبير ، فجَلّى للناسِ أمرَهم ليتأهّبوا لذلك أُهْبَته ، وأخـبرَهم بوجهه الذى يريد ، والمسلمون حينئذ كثيرٌ ، لايجمعهم دِيوانٌ مكتوب .

وغزا رسولُ الله تلك الغزوةَ حين طابت الثّمار ، وأُحِبَّتِ الظلال ، وتجهّز ، وتجهّز المسلمون معه ، وجعلت أغْدُو لأتجهَّزَ معهم ، فأرجع ولم أقضِ حاجةً ، فأقول فى نفسى: أنا قادرٌ على ذلك إن أردتِ . فلم يزَلْ ذلك يتمادَى بى حتى شمّر بالنّاس الجِـدّ ،

---

(١) العقبة : مكان بين مكة ومنى ، وفيه بايع الرسول الأنصار قبل الهجرة .

(٢) قال كعب : ما اجتمعتْ لى راحلتان قط حتى اجتمعتا فى تلك الغزوة .

وأصبح رسولُ اللهغازِياً والمسلمون معه ، ولم أقض ِ من جهازِى شيئاً . فقلت : أتجهزُ بعده بيوم أو يومين ثم ألحق بهم ، فغدوت بعد أن فَصَلوا[١] لأتجهزَ ، فرجعت ولم أقض ِ شيئاً ، ثم غـدوتُ فرجعت ولم أقض ِ شيئاً ؛ فلم يزلْ ذلك يتمادَى بى حتى أسرعوا وتفرّط[٢] الغَزْوُ ، فهممت أَنْ أَرتحلَ فأُدرِكَهم ؛ وليتنى فعلت ! ولـكنّى لم أفعل ؛ وجعلتُ إذا خرجت فى الناس بعد خروج النبيّ يحزننى أنّى لاأرى إلا رجلا مَغموصاً[٣] عليه فى النفاق ، أو رجلا ممّن عذر الله من الضّعفاء ، ولم يذكرنى رسولُ الله حتى بلغ تَبُوكَ ، فقال وهو جالس مع القوم هنـاك : مافعـل كَعْب بن مالك ؟ فقال رجـل من بنى سلِمة : يارسول الله ؛ حبَسه بُرْداه والنظر فى عِطْفَيْه . فقال له مُعاذ بن جبل : بئسَ ما قلْتَ ! والله يارسولَ الله ماعلمنا منـه إلا خيراً . فسكت رسول الله .

فلما بلغنى أَنَّ النبيّ توجّهقافلا من تَبُوكَحَضَرنى بثّى ، فجعلت أتذكّرالـكذب وأقول : بماذا أخرج من سخْطَةِ رسولِ الله غدا ! وأستعين على ذلك بكلّ ذى رَأْىٍ من أهلى ؛ فلما قيل : إنّ رسول الله قد أظلّ قادما ، عرفتُ أنّى لاأنجومنه إلابالصّدق، فأجمعت أن أَصْدُقه ، وصبّح الرسولُ المدينة ، وكان إذا قدم من سفر بَدَأ بالمسجد ، فركع فيه ركعتين ثم جلس للناس . فلمـا فعل ذلك جاء المخلّفون فجعلوا يحلفون له ويعتذرون ، وكانوا بضعةً وثمانين رجلا ، فيقبل منهم الرسول علانيتَهم وأيمانهم ، ويستغفر لهم ، ويَـكِل سرائرَهم إلى الله ؛ حتى جئتُ فسلّمتُ عليـــه ، فتبسّم تبسُّم المغضَب ، ثم قال لى : تعـاله ! فجعلتُ أمشى حتى جلستُ بين يديه ، فقال لى : ما خلّفك ! ألم تـكن ابتَعْتَ ظهرَكَ ؟ قلت : إنّى يارسول الله لو جلستُ عنـد

---

(١) فصل من البلد : خرج . (٢) تفرط الغزو وتفارط : فات وقته . (٣) هو مغموص عليه : مطعون فى دينه .

غيرِكَ من أهــل الدنيا لرأيتُ أنى سأخرجُ من سَخطِه بعُذْر، ولقد أُعطيتُ جدَلا ، ولــكن والله لقد علمت لئن حدّثتُك اليوم حَدِيثاً كَذِبا لترضينَّ عنى ، وليوشــكنَّ الله أنْ يسخطَ علىّ. ولئن حدّثتُك حديثا صدقا تجدُ علىّ فيه، وإنى لأرجو عُقْباى من الله فيه . ولا والله ما كان لى عذر ،والله ما كنتُ قطّ أقوى ولا أيسرَ منى حين تخلّفت عنك ! فقال رسولُ الله : أمّا هذا فقد صدقت فيه ، فقُم حتى يقضىَ الله فيك .

فقمتُ وثارَ مَعِى رجالٌ من بنى سلِمة فاتّبعونى ، فقــالوا لى : والله ما علمناك كنتَ أذنبتَ ذنبا قبل هذا ، ولقد عجزت ألّا تــكون اعتذرتَ إلى رسول الله بما اعتذر به إليــه المخلّفون ؛ قد كان كافيك ذَنْبَك استغفارُ رسول الله لك . فوالله ما زالوا بى حتى أردتُ أن أرجعَ إلى النبىّ فأُكذّب نفسى ، ثم قلت لهم : هل لَقِى هــذا أحدٌ غيرى ؟ قالوا : نعم رجلان قالا مثلَ مقَالَتِكَ ، وقيل لهما مثل ما قيل لك . قُلْتُ : مَنْ هما ؟ قالوا : مُرارة بن الربيع وهــلال بن أميّة . فذكروا لى رجلين صالحين فيهما أُسوة ، فصَمَتُّ حين ذكروهما لى .

ونهى رسولُ الله عن كلامنا نحن الثلاثة من بين مَنْ تخلّف عنه ، فاجْتَنَبنَا الناس وتغيّروا لنا ، حتى تنكّرَت لى نفسى والأرض فما هى بالأرض التى كنت أَعْرِف ، فلبثنا على ذلك خمسينَ ليلةً ، فأما صاحباى فاسْتَكانا وقعدا فى بيوتهما ، وأما أنا فكنتُ أشبَّ القومِ وأجلدَهم، فكنت أخرجُ وأشهدُ الصّلَوات مع المسلمين ، وأطوفُ بالأسواق ، ولا يكلّمنى أحد ، وآتِى رسولَ الله فأسلّم عليه وهو فى مجلسه بعد الصلاة فأقول فى نفسى : هــل حرّك شفتيه بردِّ السلام علىّ أم لا ؟ ثم أُصلّى قريبا منه ، فأُسارِقه النظَر ، فإذا أقبلتُ على صلاتى نظر إلىّ ، وإذا التفتُّ نحوه أعرض عنّى ، حتى إذا طال ذلك علىّ من جفوة المسلمين مشيتُ حتى تسوّرت جدار حائط أبى قَتادة ــ وهو ابنُ عمّى ، وأحبُّ الناس إلىّ ــ فسلّمت عليه ، فوالله

ما ردّ عليّ السلام ، فقلت: يا أبا قَتادة؛ أنشدك الله هل تعلَمُ أنى أحِبُّ اللهَ ورسوله! فسكَت ، فعُدْتُ فناشدْتُه فسكت عنّى، فعدت فناشَدته فسكت عنّى، فعدت فناشدته، فقال : اللهُ ورسوله أعلم . ففاضَت عيناى ووثبت ، فتسوَّرت الحائط .

ثم غدوتُ إلى السوق ، فبينا أنا أمْشِى إذا نبَطِىٌّ يسأل عنى من نَبَطِ الشام ممن قدم بالطعام يَبِيعُه بالمدينة ، يقول: مَنْ يدُلّ على كعب بن مالك؟ فجعل الناس يُشِيرون له إلىَّ حتى جاءنى فدفع إلىّ كتابا من ملك غسّان ، فى سَرَقةٍ(١) من حرير فإذا فيه : أمّا بعد فإنه قد بلغنا أنَّ صاحبَك قد جفاك، ولم يجعلك الله بدارِ هَوَان ؛ ولا مَضْيَعة، فالحقْ بنا نُواسِك . قلت ـ حين قرأته : وهذا من البلاء أيضا ، قد بلَغ بى ما وقعتُ فيه أنْ طمِعَ فىّ رجلٌ من أهل الشِّرك ! ثم عمَدت به إلى تنُّور فسَجَرْتُه(٢) به .

فأقمنا على ذلك ، حتى إذا مضت أربعون ليلة إذا رسول رسولُ الله يأتينى فقال : إنّ رسولَ الله يأمرك أن تعتزِلَ امرأتَك ! قلت: أطلّقها أم ماذا؟ قال : لا، بل اعتزلها ولا تقرَبها ، وأرسلَ إلَى صاحبيَّ بمثل ذلك . فقلت لامرأتى : ألحقِى بأهلك فكونى عندهم حتى يقضىَ الله فى هذا ما هو قاضٍ .

وجاءت امرأةُ هلال بن أمية رسولَ الله، فقالت له : يا رسولَ الله ؛ إن هلال ابن أُميّة شيخ كبير ضائع لا خادمَ له ، أفتكرَهُ أنْ أخدُمه ؟ قال : لا ، ولكن لا يقرَبنَّك ، قالت : والله يا رسول الله ؛ ما به حركة إلىَّ ؛ والله ما زال يبكى منذ كان مِنْ أمْرِه ما كان إلى يومه هذا ، ولقد تخوَّفتُ على بصره .

فقال بعضُ أهلى : لو استأذنتَ رسولَ الله لِامْرَأَتِك ، فقد أذِن لامرأة

---

(١) السرق ، محركة : شقق الحرير الأبيض أو الحرير عامة ، والواحدة بهاذ .
(٢) سجرته : أو قدته .

هلال بن أميّة أن تخدمَه ! قلت : والله لا أستأذِنُه فيها ، فما أدرى ما يقول لى فى ذلك إذا استأذَنته فيها ، وأنا رجلٌ شابٌ !

فلبثنا على ذلك عشر ليالٍ ، فكمَل لنا خمسون ليلة ، ثم صلّيتُ الصبح : صبح خمسين ليلة ؛ على ظَهْرِ بيت من بيوتنا على الحال التى ذكر اللهُ منا ، قد ضاقت علينا الأرضُ بما رَحُبَت وضاقت علىَّ نفسى ، وقد كنت ابتنيتُ خيمةً فى ظهر سَلْع(١) ، فذهبت إليها . وبينما أنا فيها سمعتُ صوتَ صارخٍ أوْفَى على ظهر سَلْع ، يقول بأعلى صوته : يا كعب بن مالك ؛ أبْشِرْ ! فخررتُ ساجداً ، وعرفتُ أن قد جاء الفرج .

وآذَنَ رسولُ الله للناس بِتَوْبَةِ اللهِ علينا حين صلّى الفجر ، فذهب الناسُ يبشّروننا ، وذهب نَحْوَ صاحبىَّ مُبَشِّرُون ، وركض رجلٌ إلىّ فرساً ، وسعى ساعٍ مِنْ أَسْلم ، حتى أوْفَى على الجبل ، فكان الصوت أسْرَعَ من الفرس .

فلما جاءنى الذى سمعتُ صوتَه يبشّرنى نزعتُ ثوبىّ فكسوتهما إياه بِبشارة ، ووالله ما أمْلِكُ يومئذ غيرهما ! واستعرتُ ثوبين فلبستهما ، ثم انطلقت أتيمّم الرسولَ. وتلقّانى الناسُ يبشّروننى بالتوبة ، ويقولون : لِتَهْنِئْك توبةُ اللهِ عليك ! حتى دخلت المسجد ورسولُ الله جالس وحولَه الناس ، فقام إلىَّ طلحة بن عبيد الله ، فحيّانى وهنّأنِى ، ووالله ما قام إلىّ رجلٌ من المهاجرين غيره .

فلما سلّمت على رسول الله قال لى ــ ووجهُه يبرق من السرور : أبْشر بخير يومٍ مرّ عليك منذُ ولدتك أمّك ! قلت : أمِن عندك يا رسول الله أم من عند الله ؟ قال : بل من عند الله !

فلما جلستُ بين يديه قلت : يا رسولَ الله ، إنَّ من توبتى إلى الله عزّ وجلّ أن أنْخَلِع من مالى صدقةً إلى الله وإلى رسوله . فقال : أمسِك عليك بعضَ مالك ،

---

(١) سلع : جبل بالمدينة .

فهو خيرٌ لك . قلتُ : إنّى ممسكٌ سهمى الذى بخيبر . ثم قلت : يا رسول الله إن الله قد نجانى بالصدقِ ، وإن مِنْ توبتى ألا أحدِّثَ إلا صِدْقاً ما حَيِيتُ . والله ما أعلم أحداً من الناس أبْلاهُ الله فى صدق الحديث منذ ذكرتُ لرسول الله أفضلَ مما أبلانى، والله ما تعمّدت من كِذْبَةٍ منذ ذكرت ذلك للنبى إلى يومى هـذا ، وإنى لأرجو أن يحفظنى الله فيما بقى .

وأنزل الله تعالى : ﴿ لَقَدْ تَابَ اللهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رَءُوفٌ رَحِيمٌ * وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا حَتَّى إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَنْ لَا مَلْجَأَ مِنَ اللهِ إِلَّا إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ * يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ ﴾(١) .

فوالله ما أنعم اللهُ علىَّ نعمةً قطّ ، بعد أن هدانى للإسلام ، كانت أعظم فى نفسى من صِدْقى رسولَ الله ، ومجافاتى الـكذبَ عليه ، فنجّانى اللهُ من الهلاك ، كما هلك الذين كذَبوه ، فإن الله تعالى قال فى الذين كذَبوه حين أنزل الوحى شرّ ما قال لأحد : ﴿ سَيَحْلِفُونَ بِاللهِ لَكُمْ إِذَا انْقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا عَنْهُمْ فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رِجْسٌ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ * يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنْ تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنَّ اللهَ لَا يَرْضَى عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ ﴾(٢) .

---

(١) سورة التوبة : ١١٧ ـ ١١٩ . (٢) سورة التوبة : ٩٥ ، ٩٦ .

١٥ — يوم السّقيفة*

لما سَمِع عمرُ بن الخطّاب بموتِ النبيِّ صلى الله عليه وسلم قال : إنّ رجالا من المنافقين يزعمونَ أنّ رسولَ الله مات ، وإنه خارج إلى مَنْ أرجَفَ بذلك(١) . ثم جاء أبو بكر فصعِد المنبر ، وقال لعمر : أَنْصِتْ . ثم تكلّم فقال : مَن كان يعبدُ الله فإن الله حيٌّ لا يموت ، ومَنْ كانَ يعبدُ محمداً فإنّ محمداً قد مات . ثم قرأ : ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقِبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللهَ شَيْئاً ﴾(٢) .

فكأنّ الناسَ ماعرفوا أنّ هذه الآية نزلت على رسول الله ، حتى تلاها أبو بكر. قال عمر : والله ماهو إلا أن سمعتُ أبا بكر يتلوها ، فعُقِرتُ(٣) حتى وقعتُ على الأرض ماتحملني رجلاى ، وعرفت أنّ رسولَ الله قد مات .

واجتمع الأنصارُ فى سَقيفة بنى ساعدة ، فقالوا : نُولّى هذا الأمر بعد محمد سعدَ ابن عُبادة ، وأخرجوا سعداً إليهم وهو مريض ، فلما اجتمعوا قال لابنه : إنّى لاأقدرُ لشَكْوَاى أن أُسمِع القوم كلّهم كلامى ، ولكن تلقَّ منى قولى فأَسْمِعْهُمُوه ، فكان يتكلّم ويحفظُ قوله فيرفعُ صوته ويُسْمِعُ أصحابَه . قال ـ بعد أن حمد الله وأثنى عليه : يامعشرَ الأنصار ، لكم سابقةٌ فى الدين ، وفضيلةٌ فى الإسلام ليست

---

* الطبرى : ٣ ـ ١٩٩ ، سيرة ابن هشام : ٤ ـ ٣٣٥ . والسقيفة : شبه البهو الواسع له سقف ، فعيلة بمعنى مفعولة .

(١) أرجف بالشيء : خاض فيه . (٢) سورة آل عمران : ١٤٤ .

(٣) عقرت : دهشت ، من العقر ، وهو أن تسلم الرجل قوائمه إلى الخوف فلا يقدر أن يمشى من الفرق والدهش .

لقبيلة من العرب . إن محمداً عليه السلام لبث بضْعَ عشرة سنة فى قومه يدعوهم إلى عبادة الرحمن وخَلْع الأندادِ والأوثان ، فما آمنَ به من قومه إلا رجالٌ قليل ؛ وما كانوا يقدرون على أن يمنعوا رسولَ الله ، ولا أن يُعزُّوا دينــه ، ولا أن يدفعوا عن أنفسهم ضَيْماً(١) عُمُّوا به ، حتى إذا أراد بكم الفضيلَة ، ساق إليكم الكرامةَ ، وخصّكم بالنعمة ، فرزقكم الله الإيمانَ به وبرسوله ، والمنْعَ له ولأصحابه ، والإعزازَ لدينه ، والجهادَ لأعدائه ؛ فكنتم أشدَّ الناس على عدوّه من غيركم ، حتى استقامت العربُ لأَمْرِ اللهِ طوعاً أو كَرْهاً ، وأعطى البعيدُ المقَادة صاغراً دَاخراً(٢) ، حتى أثْخَنَ(٣) الله عزّ وجلّ لرسوله بكم الأرض ، ودَانَتْ بأسيافكم له العربُ ، وتوفّاه اللهُ وهو عنكم راضٍ ، وبكم قريرُ عَيْن . استبِدُّوا بهــذا الأمر دون الناس ، فإنه لكم دونَ الناس .

فأجابوه بأَجْمعِهم : أن قد وُفِّقت فى الرأى ، وأصبتَ فى القول ، ولن نَعْدُوَ مارأيتَ ، نولّيك هذا الأمر فإنك فينا مُقْنِــع ، ولصالح المؤمنين رِضىً .

ثم ترادُّوا(٤) فى الكلام بينهم فقالوا : فإنْ أبَتْ مُهاجرةُ قريش فقالوا : نحن المهاجرون وصحابة رسول الله الأولون ونحن عشيرتُه وأولياؤه ، فعَلَامَ تُنازِعُونَنا هذا الأَمْرَ بعده ! فقالت طائفةٌ منهم : فإنَّا نقول : إذَنْ منّا أميرٌ ومنكم أمير ، ولن نَرْضَى بدون هذا الأمرِ أبدا .

فقال سعد بن عُبَادة ، حين سمعها : هذا أَوّلُ الوهَن !

وأتى عمرَ الخبرُ فأقبل إلى منزل النبيّ ، وأرسل إلى أبي بكر وهو فى الدّار ، وعلىٌّ بنُ أبى طالب دائبٌ فى جهاز رسول الله ؛ أن اخرج إلىّ ، فأرسل إليــه :

---

(١) الضيم . الظلم . (٢) داخرا : ذليلا . (٣) أثخن فلان : أوهن ، والمراد أخضع
(٤) راده الشيء : رده عليه .

إنى مشتغلٌ، فقال : إنه قد حدثَ أمرٌ لابدّ لك من حضوره ، فخرج إليـه ، فقال له : أما علمتَ أنّ الأنصارَ قد اجتمعوا فى سَقِيفة بنى ساعدة يريدون أن يولّوا هـذا الأمر سعد بن عُبادة ، وأحسنُهم مقالةً مَنْ يقولُ : منّا أميرٌ ومن قريش أمير .

ومَضَيا مسرعَيْن نحوهم ، فلقِيا أبا عُبَيْدَة بن الجرّاح فمشَوْا إليهم ثلاثتهم، فجاءوا وهم مجتمعون فى السَّقِيفة ، وإذا بين الأنصار رجلٌ مُزَمَّل فقـالوا : مَنْ هذا ؟ قيل : سعد بن عُبادة ، قالوا : ما شأنُه ؟ قيل : وَجِع(١) . وقام رجلٌ من الأنصار فحمد الله وأثنى عليه وقال : أمّا بعد ، فنحن الأنصار ، وكتيبةُ الإسلام ، وأنتم يا معشرَ قريش رهطُ نبيّنا ، وقد دفّت إلينا من قومكم دافّةٌ(٢) . . .

قال عمر : فلما رأيتهم يريدون أن يختزلونا(٣) من أصلنا ويَغْصِبُون الأمر ــ وقد كنْتَ زَوَّيت(٤) كلاما أردت أن أقوم به فيهم ، فلمّا ذهبتُ لأبتدئَ المنطق قال لى أبو بكر : رُوَيداً حتى أتـكلّم ، ثم انطقْ بما أحببتَ . فنطق فما شيء كنتُ أريدُ أَنْ أقولَه إلا وقد أتى به أو بأحسنَ منه .

فبدأ ، وحمد الله وأثنى عليه ثم قال :

إن اللهَ بعث محمداً رسولا إلى خَلْقه ، وشهيداً على أُمّته ، ليعبدوا الله ويُوَحّدوه وهم يعبدون من دونه آلهة شـتّى ، ويزعمون أنها لهم عنده شافعة ، ولهم نافعة ، وإنما هى من حَجَرٍ منحوت وخشَبٍ مَنْجُور(٥) ، ثم قرأ : ﴿ ويعبدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ مالا يَضُرُّهُم ولا يَنفَعُـهُم ويَقُولُونَ هَؤُلاءِ شُفَعَاؤُنَا عِندَ اللهِ ﴾ ، ﴿ مَا نَعْبُدُهم إلا

---

(١) وجع : مريض . (٢) يقال : دفت دافة ، إذا أتى قوم من أهل البادية وأقحموا .
(٣) أن يختزلونا : يريدون أن يقتطعونا ويذهبوا بنـا منفردين . (٤) زويت : جمت ، والمراد أعددت . (٥) النجر : النحت .

ليقرِّبونا إلى الله زُلفَى ﴾، فعظُم على العرب أنْ يتركُوا دينَ آبائهم، فخصَّ اللهُ المهاجرين الأوّلين من قومه بتصديقه والإيمان به والمواساة له، والصبر معه على شدَّة أذى قومهم لهم، وتكذيبهم إياهم، وكلُّ الناس مخالفٌ لهم زارٍ[1] عليهم، فلم يَستوحِشُوا[2] لقلَّةِ عددهم، وشَنَفِ[3] الناس لهم، وإجماعِ قومهم عليها، فهم أوّلُ مَنْ عبدَ الله فى الأرض، وآمنَ باللهِ وبالرسول، وهم أولياؤه وعشيرته، وأحقُّ الناس بهذا الأمر مِنْ بعده، ولا ينازِعُهم فى ذلك إلا ظالم. وأنتم يامعشرَ الأنصار، مَنْ لا يُنكَر فَضْلُهم فى الدِّين ولا سابقتُهم العظيمةُ فى الإسلام، رضيَكم اللهُ أنصاراً لدينِه ورسولِه، وجعل إليكم هجرتَه، وفيكم جِلَّة أزواجِه وأصحابه؛ فليس بعد المهاجرين الأوّلين عندنا بمنزلتكم، فنحن الأمراء وأنتم الوزراء، لا تُفْتَاتُون[4] بمشورة، ولا تُقْضَى دونكم الأمور.

ثم قام الُحبَاب بن المنذر، فقال:

يا معشرَ الأنصار؛ أملِكوا عليكم أمرَكم؛ فإنّ الناسَ فى فَيْئكم وفى ظِلِّكم، ولن يجترئَ مُجترئٌ على خِلافِكم، ولن يصدُرَ الناسُ إلاّ عن رأيكم، أنتم أهلُ العزِّ والثَّرْوَة، وأولو العَدَد والمَنعة والتجربة، وذَوُو البأْس والنَّجْدة، وإنما ينظرُ الناسُ إلى ما تصنعون، ولا تختلفوا فيفسُدَ عليكم رأيُكم، وينتقضَ عليكم أمرُكم؛ فإنْ أَبَى هؤلاء إلّا ما سمعتم فمنّا أمير ومنكم أمير.

فقال عمر: هيهات! لا يجتمع اثنان فى قَرَنٍ[5]، والله لا تَرضى لكم العربُ أن يؤمّروكم، ونبيُّها من غيركم، ولكنّ العربَ لا تمتنِعُ أنْ تولِّيَ أمرها مَنْ كانت النبوّة فيهم، ووَلِيُّ أمورهم منهم، ولنا بذلك على مَنْ أَبَى الحجّةُ الواضحةُ الظاهرة

---

(١) زار: عائب. (٢) استوحش: وجد الوحشة. (٣) شنف: كره وبغض.
(٤) هذا الأمر لايفتات: لا يفرت. وكل من أحدث دونك شيئا فقد فاتك به وافتات عليك فيه. (٥) قرن: حبل.

والسلطان المبين ، مَنْ ذَا ينَازِعُنَا سلطانَ محمدٍ وإمارته ، ونحن أولياؤه وعشيرته إلا مُدْلٍ بباطل ، أو مُتَجانِف(١) لإثم ، أو متورّط فى هَلَكةٍ !

فقام الحُباب بن المنذر ، فقال :

يامعشر الأنصار ؛ أملِكوا على أيديكم ، ولا تسمعوا مقالَة هـذا وأصحابه ، فيذهبوا بنصيبكم من هذا الأمر ، فإن أبَوْا ما سألتموه فأَجْلُوهم عن هـذه البلاد ، وتولَّوْا عليهم هذه الأمور ؛ فأنْتُم والله أحقُّ بهذا الأمر منهم ، فإنه بأسيافكم دَانَ لهذا الدينِ مَنْ دَانَ ، ممن لم يكن يَدِين . أَنَا جُذَيلُها المحكَّك(٢) ، وعُذَيقُها المرَجَّب(٣) ! أما والله لئن شِئتم لَنُعِيدَنَّها جَذَعَة(٤) .

فقال عمر : إذَنْ يقتلَك اللهُ ، قال : بل إيّاك يقتل ! فقال أبو عبيدة : يامعشرَ الأنصار ؛ إنكم أوّلُ مَنْ نصر وآزَرَ ، فلا تكونوا أوّل من بدّلَ وغيّر .

ثم قام بشير بن سعد فقال : يامعشر الأنصار ؛ إنا والله لئن كنا أولى فضيلة فى جهاد المشركين ،وسابقةٍ فى هذا الدين ماأردنا إلّا رِضاَ رَبّنا ،وطاعةَ نبينا ، والكدْح لأنفسنا ؛ فما ينبغى لنا أن نستطيل على الناس بذلك ، ولا نبتغى به من الدنيا عرَضا ، فإن الله ولىُّ المِنّة(٥) علينا بذلك . ألَا إنَّ محمداً ـ صلى الله عليه وسلم ـ من قريش ، وقومُه أحقُّ به وأَوْلى ، وايمُ اللهِ لايرانى اللهُ أُنازِعُهم هذا الأمرَ أبدا ، فاتَّقوا الله ولا تخالفوهم ولا تنازعوهم .

فقال أبو بكر : هذا عمر ، وهذا أبو عبيدة ، فأيّهما شِئْتُم فبايِعُوا ، فقالا : لا ، والله لانتولّى هذا الأمرَ عليك ، فإنك أفضلُ المهاجرين ، وثانى اثنين إذهما فى الغار ،

---

(١) متجانف : مائل . (٢) الجذيل : تصغير الجذل ، وهو أصل الشجرة ، وهو عود ينصب للإبل الجربى لتحتك به . والمحكك : الذى تتحكك به . (٣) العذيق : تصغير العذق ، وهو النخلة . والمرجب : الذى جعل له رجبة ، وهى دعامة تبنى حولها من الحجارة ، والمراد أنه رجل يستشفى برأيه وعقله . (٤) الجذعة : الشابة الفتية ؛ يريد الحروب والغارات . (٥) المنة : النعمة .

وخَليفةُ رسولِ الله على الصلاةِ ، والصلاةُ أفضلُ دِين المسلمين ، فمن ذا ينبغى له أن يتقدَّمك أو يتولّى هذا الأمرَ عليك ! ابسُط يدَك نبايعك .

فلمّا ذهبا ليبايعاه سبقهما إليه بشير بن سعد فبايعه ، فناداه الحُباب بن المنذر : يابشير ؛ عَقَقْت[١] عقَاقِ ! ما أحوجك إلى ماصنعت ؟ أنفِسْتَ[٢] على ابن عمّك الإمارة ؟ فقال : لا ، والله ، ولكنى كرهتُ أن أنازع قوماً حقّاً جعله الله لهم .

ولما رأت الأوس ماصنع بشيرُ بن سعْد ، وما تدْعُوا إليه قريش ، وما تطلب الخَزْرج من تأمير سعد بن عُبادة — قال بعضهم لبعض — وفيهم أُسَيد بن حُضَير، وكان أحد النّقباء : والله لئن وليّتْها الخزرج عليكم مرّةً لازالت لهم عليكم بذلك الفضيلة، ولا جعلوا لكم معهم نصيباً أبداً . فقومُوا فبايِعُوا أبا بكر ، فقاموا إليه فبايعوه .

فانكسر على سعد بن عبادة وعلى الخزْرج ما كانوا أجمعوا له من أمرهم ، وأقبلت أَسْلَم بجماعتها حتى ضاقت بهم السِّكك[٣] : وتمّت البيعة لأبى بكر ، وأُخْمِدَتْ تلك الفتنة .

---

(١) عققت : من العقوق ، وهو ضد البر . وعقاق : اسم العقوق .

(٢) نفس عليه الشيء : حسده ، ولم يره أهلا له . (٣) كان عمر يقول : ما هو إلا أن رأيت أسلم فأيقنت بالنصر .

١٦ – يوم ذى القَصَّة *

مات رسولُ الله صلى الله عليه وسلم ، فاجتمعت أَسَد وغَطَفان وَطَـيِّئ على طُلَيْحَة ابن خُوَيْلد الأسدىّ(١) ، إلّا ما كان مِنْ بعْضِ خواصّهم ، واجتمعت أَسَد بسَمِيراء(٢) وغَطَفان بجنوب طَيْبَة(٣) ، وطَيّئ على حدُودِ أرضهم ، واجتمعت ثعلبة بنُ سعد ومَنْ يليهم من مُرَّة وعَبْس بالأَبْرَق من الرَّبَذَة ، وتأشَّب(٤) إليهم ناسٌ من كِنانة ، فلم تحملهم البلاد ، فافترقوا فِرْقتين : أقامت فرقة منهم بأبْرَق الرَّبَذَة(٥) ، وسارت الأخرى إلى ذِى القَصَّة ، وأمدَّهُمْ طُلَيْحَة بحِبال بن سَلَمة بن خُوَيْلد(٦) وجعله أميراً عليهم .

وهناك أرسلوا وفْداً منهم إلى المدينة ، ونزلوا على وُجوهِ الناس ، ثم تَحمَّلُوا(٧) بهم على أبى بكر ، على أنْ يُقيموا الصلاةَ ، وعلى ألّا يُؤْتُوا الزكاة .

فقال أبو بكر : والله لو منعونى عِقالًا(٨) لجاهدتُهم عليه .

---

* لأبى بكر على عبس وذبيان. كان فى سنة ١١. وذو القصة : موضع بينه وبين المدينة أربعة وعشرون ميلا فى طريق نجد ، وبهذا اليوم عز الإسلام وذل المشركون ؛ وكان نصر المسلمين يشبه نصرهم يوم بدر . الطبرى ٣–٢٢٧ ، ابن خلدون ٢–٦٥ .

(١) طليحة بن خويلد الأسدى : كان واحداً من وفد بنى تميم الذين قدموا على النبى صلى الله عليه وسلم ؛ أسلم هو وأخوه سلمة ، ثم ادعى النبوة ، حتى كانت هزيمته على يد خالد بن الوليد ، فهرب إلى الشام ، ثم أحرم بالحج بعد أن عاد للاسلام ، وشهد القادسية ونهاوند مع المسلمين ، ثم استشهد فيها سنة ٢١ هـ . (٢) سميراء : موضع فى طريق مكة . (٣) من أسماء المدينة .

(٤) التأشب : التجمع من هنا وهنا . (٥) أبرق الربذة : موضع من منازل ذبيان ، قرب المدينة . (٦) هو ابن أخى طليحة بن خويلد . (٧) تحملوا بهم: ذهبوا بهم . (٨) العقال : صدقة عام يقال : أخذ منهم عقال هذا العام ، إذا أخذت منهم صدقته. وقال بعضهم: أراد أبو بكر : بالعقال الحبل الذى كان يعقل به الفريضة التى كانت تؤخذ فى الصدقة .

فرجع الوفدُ إلى أَقْوامهم بِذِى القَصَّـة ، وأخبروهم برأى أبى بكر وقالَتِه فيمنْ يَمنعُ الزكاة ، وحدّثوهم عن قِلّة المسلمين بالمدينة ، وأطمعوهم فيهم .

أما أبو بكر فإنه توجَّس شرًّا منهم فأعَدَّ العُدّة لِغَدْرهم ، وجعل على أنْقَابِ[(١)] المدينة نفراً ، منهم علىّ بن أبى طالب ، والزّبير بن العوام ، وطلحة بن عبيـد الله ، وعبد الله بن مسعود . وأخـذ أهلَ المدينة بحضور المسجد . وقال لهم : إنّ القوم قد رَأَوْا منكم قِلّة ، وإنّكم لاتدرون : أليلا تُؤْتَوْنَ أم نهارا ، وأدناهم منكم على بَرِيد[(٢)] ، وقد كانوا يأمُلون أن نَقْبَلَ منهم ونُوَادعهم ، وقد أبَيْنا عليهم ، ونَبَذْنا إليهم عَهْدَهم ، فاستَعِدّوا وأعِدّوا .

ولم يكنْ إلا ثلاث ليال من عَوْد الوَفْدِ حتى طرق القومُ المدينةَ مع الليل وخَلَّفوا بعضَهم بذى حُسًا[(٣)] ليكونوا لهم رِدْءًا[(٤)] ، وكان الذين على الأنْقاب قد بَثُّوا عُيونَهم حتى لا يؤخذوا على غِرَّة ، فلما عرف هؤلاء خبر القوم نبّهوا مَنْ علىالأنقاب ، فأرسلوا إلى أبى بكر بالخبر . فأرسل إليهم أبو بكر : أنِ الزموا أماكِنَكم . ففعلوا .

وخرج فى أهل المسجد على النّوَاضِح[(٥)] ، فتقهقر العدو ، فاتبعهم المسلمون على إبلهم ، حتى بلغوا ذا حُسًا فخرج عليهم الرِّدء بأنحاء[(٦)] قد نَفَخوها ، وجعلوا فيها الحبال ، ثم دَهْدَهُوها[(٧)] بأرجلهم فى وجوهِ الإبل ، فنفرتْ إبلُ المسلمين وهُمْ عليها ولا تنفِرُ الإبل من شىء نِفارَها من الأنْحاء ، فعاجتْ[(٨)] بهم ، ما يملكونها

---

(١) الأنقاب : جمع نقب ، وهو الطريق . (٢) البريد : فرسخان ، أو اثنا عشر ميلا ، أوما بين المنزلين. القاموس . (٣)ذو حساً : موضع بنجد، من ديار عبس وغطفان . (٤) الردء : العون والمدد . (٥) النواضح من الإبل : ما يستقى عليها ، واحدها ناضح . (٦) الأنحاء : جمع نحى (بكسر النون وسكون الحاء) وهو الزق . (٧) دهدهوها : دحرجوها .

(٨) عاجت : رجعت .

حتى دخلت بهم المدينة ؛ من غير أن يُصابَ أَحَدٌ من المسلمين أو يُصْرَع ، ولكنْ هؤلاء المرتدَّة ظنوا الوَهَن بالمسلمين ؛ حتى قال شاعرهم :

أَطَعْنا رَسولَ اللهِ ما كانَ بيننا فَيا لَعبادِ اللهِ مالِأَبى بكر !
أيورثُنا بَكْراً إذا ماتَ بعدَه ! وتلك لعمرُ اللهِ قاصمةُ الظَّهْرِ !
فهلّا رددتُمْ وفْدَنا بِزَمانِهِ وهلا خَشيتم حِسَّ راغيةِ الْبَكْرِ!
وإنّ التى سألوكُمُ فمنعتمُ لكالتمرِ أو أحْلَى إلىَّ من التّمْرِ

ثم أرسلوا لأقوامهم بالقَصَّة بالخبر ، فقدموا عليهم .

أما أبو بكر ، فإنه بات ليلتَه يتهيّأ ، فعبَّى الناس ، ثم خرج وعلى ميمَنته النعمان ابن مُقرِّن ، وعلى مَيْسَرَتِه عبد الله بن مقرِّن ، وعلى السَّاقة(١) سُوَيد بن مُقرّن ، فما طلع الفَجْرُ إلّاوهم والعدوّ فى صَعِيد واحد، فاقتتلوا ، وماذرَّ(٢) قَرْنُ الشمس حتى وَلَّى العَدُوّ الأدبار ، وقُتِل حِبال بن سلَمة . وتبعهم أبو بكر حتى نزل بذى القصَّة ، فتركوها ووَلّوا منهزمين ، ورجع أبو بكر إلى المدينة ، فكان أوَّلَ الفتح وفاتِحَةَ الجِهاد مع المرتدّين .

ولم يكد أبو بكر يذهب إلى المدينة حتى وثب المرتدّون من عَبْس وذُبيان على مَن فيهم من المسلمين ، فقتلوهم . ولمَّا علم أبو بكر بِفَعْلتِهِمْ حلف ليَقتلنّ فى كل قبيلة بمن قتلوا من المسلمين وزيادة .

وكان لوَقعة ذى القَصَّة أثرها ، إذ هرع بعدها فريقٌ من المسلمين يُؤَدُّون الزكاة ، وطرقوا المدينة بالصدقات ، وكان فيمن قدم صَفْوان ـ وهو ابن أمية ـ والزِّبْرِقان من رؤساء بنى تميم ، وعدىّ بن حاتم عن طيىء .

---

(١) ساقة الجيش : مؤخره . (٢) ذر . ظهر وبرز .

١٧ — يوم بُزَاخَةَ*

لما قدم أُسَامَةُ بن زَيْد(١) من غزوته استخْلفه أبو بكر على المدينة ، وقال له ولجنده : أَرِيحوا(٢) ، وأَرِيحوا ظَهْرَكم(٣) . ثم خرج إلى ذِي القَصَّة ؛ فقال له المسلمون : نَنْشُدُكَ اللهَ ياخليفةَ رسولِ الله أن تُعرِّض نفسَك ، فإنك إن تُصَبْ لم يكن للناسِ نِظَامٌ ، ومُقامُك أشدُّ على العدوّ ، فابعث رجلاً ، فإن أُصيب أمَّرْت آخر . فقال : لا والله لاأفْعَل ، ولأُواسِيَنّكم بنفسي . ومضى حتى انتهى إلى الرَّبَذَة(٤) ، فلقى بنى عَبْس وذُبْيَان وجماعة من بنى عبد مناة بن كنانة ، فقاتلهم وهزمهم، وأجْلاهم عن مواقعهم ، ثم رجع إلى المدينة .

ولكن هؤلاء المنهزمين لم يثوبوا إلى رُشْدهم ، ولم يَرْجعوا لإيمانهم ؛ بل انحازوا إلى طُلَيحة بن خُوَيلِد المتَنَبِّئ فى بنى أَسَد ، وقد اعتصم ببُزَاخَة يَدْعُو النّاس إليه .

ولما اطمأنَّ أبو بكر إلى أنَّ أُسامةَ وجنده استراحوا وأراحُوا ظَهْرَهم خرج بهم إلى ذى القَصَّة ، ووزَّعَ الجُنْدَ ، وجعل على كلّ لواء أميرا .

فعقد لخالدِ بن الوليد اللّواء الأوّل ، وأمره بطُلَيْحة بن خُوَيلد ، فإذا فرغ سار إلى مالك بن نُوَيْرَة بالبُطاح(٥) إن أقام له . وعقَد لعِكْرِمة بن أبى جهل ، وأمره

---

* لخالد بن الوليد على أسد وغطفان . كان فى سنة ١١ وبزاخة : ماء لبنى أسد . الطبرى : ٣/٢٢٥ . ابن الأثير ٣/١٦٦ . ابن خلدون ٢/ ٧٠ . معجم البلدان ٢/١٦١ .

(١) كان ذلك بعد شهرين من خروجه لغزو الروم ؛ حيث بلغ البلقاء ، وبث خيوله فى قبائل قضاعة ، وعاد ظافراً . (٢) يقال : أراح الرجل : إذا استراح ورجعت إليه نفسه .

(٣) الظهر : الدابة . (٤) الربذة : موضع قرب المدينة .

(٥) البطاح ، بالضم : ماء فى ديار بنى أسد .

بمُسَيْلِمَة . باليَمامة . وللمهاجر بن أبى أميّة ، وأمره بقِتَال العَنْسىّ بصنْعاء اليمن ، وأن يمضى إلى كِنْدة بحضْرَموت ، ولخالد بن سعيد ووجَّهَه إلى مَشارِف الشام ، ولعمرو ابن العاص ووجَّهَه إلى قُضاعة ؛ ولحُذَيفة بن مِحْصن الغَلْفانىّ ؛ وأمره بالتوجه إلى أهل دَبَا بعُمان . ولعَرْفجة بن هَرْثَمة ووجّهه إلى أهـل مَهرَة . ولسُوَيْد بن مُقرِّن وأمَره بتِهامة اليمن ، وللعَلاء بن الحضْرَمىّ وأمَره بالبحرين. وبعث شُرَحبيل بن حَسَنَة فى أَثَرِ عِكْرِمة بن أبى جهل ، وقال له : إذا فرغ من اليَمامة فالحق بقُضاعة وأنتَ على خَيْلك . وعقد لطُرَيفة بن حاجز ووجَّهه إلى بنى سُلَيم ومَنْ معهم من هَوازن .

ثم كتب لـكل منهم عَهْداً ؛ هذا نصه : هـذا عهدٌ من أبى بكر خليفةِ رسول الله صلى الله عليه وسلم لفُلان حين بَعثه فيمن بَعثه ، لقتال مَنْ رجـع عن الإسلام ؛ وعهد إليه أن يَتَّقِىَ الله ما استطـاع فى أَمْرِه كلِّه ، سِرِّه وعلانيته . وأمره بالجِدِّ فى أمرِ الله ، ومجاهدةِ مَنْ تولّى عنه ، ورَجع عن الإسلام إلى أمانىّ الشيطان بعد أن يُعْـذِرَ إليهم فيدعوَهم بداعية الإسلام ، فإن أجابوه أَمْسَك عنهم ، وإن لم يجيبوه شَنّ[(١)] غارَته عليهم حتى يُقِرُّوا له ، ثم ينبئهم بالّذِى عليهم والذى لَهُم ، فيأخذ ما عليهم ويعطيهم الذى لهم ، لا يُنْظِرهم[(٢)] ، ولا يردُّ المسلمين عن قتال عدوّهم ؛ فمَنْ أجاب إلى أَمْرِ الله عز وجل ، وأقرّ له قَبِلَ ذلك منه ، وأعانه عليهِ بالمعروف ؛ وإنمـا يقاتَلُ من كفر بالله على الإقرار بما جاء من عند الله ، فإذا أجاب الدَّعْوة لم يكن عليه سَبِيل ، وكان الله حسيبَه بعد فيما استسرّ[(٣)] به . ومن لم يُجب داعيةَ الله قُتل وقُوتِل حيث كان، وحيث بلغ مُراغَمَهُ[(٤)]، لا يقبل من أحد شيئاً أعطاه إلّا الإسلام، فمن أجابه ، وأقرّ قَبِل منه وعَلِمه ، ومَنْ أبى قاتَلَه ، فإن أظهره الله قتَل

---

(١) شن الغارة : صبها من كل وجه . (٧) لا ينظرهم : لا يؤخرهم .
(٤) استسر : استتر . (٤) المراغم : المهاجر (اسم مكان) .

منهم كلَّ قِتْلة بالسلاح والنِّيران ، ثم قسَّم ما أفاء الله عليه . إلا الخُمس فإنه يُبلِّغناه ؛ وأَنْ يمنَع أصحابه العجَلة والفساد ، وألّا يُدخل فيهم حَشْواً حتى يعرفهم ويعْلم ما هم ، لئلّا يكونوا عيونا ، ولئـلا يُؤْتَى المسلمون من قِبلَهم ، وأن يَقتَصِد بالمسلمين ويرْفُق بهم فى السَّيْر والمنزلِ ، ويتفقّدَهم ولا يعجِل بعضَهم عن بعض ، ويَسْتوْصِيَ بالمسلمين فى حسن الصُّحْبَةِ ولِينِ القوْل .

* * *

ثم كتب للمرتدين كتاباً عامًّا جاء فيه :

بسم الله الرحمن الرحيم .

من أبى بكر خليفةِ رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى مَنْ بلَغه كِتابى هذا من عامَّة وخاصة ، أقام على إسلامه أو رجع عنه .

سلامٌ على من اتَّبَع الهُدَى ، ولم يرجع بعـد الهدى إلى الضلالة والعمَى ، فإنى أَحمد إليكم اللهَ الذى لا إله إلا هو ، وأشهدُ أن لا إله إلا الله وَحْدَه ، لا شريكَ له ، وأنَّ محمداً عبده ورسوله ، نُقِرُّ بما جاء به ، ونُـكَفِّرُ من أَبَى ، ونُجاهده .

أما بعد ، فإن الله تعالى أرسلَ محمـداً بالحقّ من عندِه إلى خَلْقِه بشيراً ونذيراً ، وداعياً إلى الله بإذنِه وسراجاً منيراً ، ليُنذِر مَنْ كان حياً ويُحق الحقَّ على الكافرين ، فهدَى الله بالحق مَنْ أجابَ إليه ، وضرب رسولُ الله صلى الله عليـه وسلم بإذْنِه من أَدْبَر عنه ، حتى صار إلى الإسلام طَوْعاً وكرهاً .

وقد توَفَّى الله رسولَه صلى الله عليـه وسلم ، وقد نفَّذ لأمر الله ، ونصحَ لأمته ، وقضَى الذى عليه ، وكان الله قد بَيَّن له ذلك ، ولأهل الإسلام فى الكتاب الذى أنزل فقال : ﴿ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ ﴾ . وقال : ﴿ وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِنْ قَبْلِكَ

ٱلْخُلْدَ أَفَإِنْ مِتَّ فَهُمُ ٱلْخَالِدُونَ ﴾. وقال للمؤمنين: ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقِبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ ٱللهَ شَيْئاً وَسَيَجْزِي ٱللهُ ٱلشَّاكِرِينَ ﴾.

فمن كان يعبدُ محمداً فإن محمداً قد مات، ومَنْ كان إنما يعبد الله وحده لاشريك له، فإنّ الله له بالمِرْصاد، حَيٌّ قَيُّوم[1] لايموتُ، لا تأخُذُه سِنَةٌ[2] ولا نَوْمٌ، حافظ لأمره، مُنْتَقِم من عدوِّه يَجْزِيه. وإنى أوصيكم بتقوى الله وحظِّكم ونصيبكم من الله، وما جاءكم به نبيُّكم صلى الله عليه وسلم، وأن تَهْتَدُوا بِهُدَاه، وأن تعتَصِموا بدين الله، فإن كلّ من لم يَهْدِه الله ضَالٌّ، وكلّ من لم يُعافِه مُبْتَلًى، وكلُّ من لم يُعِنْه مَخْذول، فمن هداه الله كان مهتدياً، ومن أضلّه كان ضالًّا، قال الله تعالى: ﴿ مَنْ يَهْدِ ٱللهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ، وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُرْشِداً ﴾، ولم يُقْبل منه فى الدنيا عمل، حتى يُقِرَّ به، ولم يُقْبَل منه فى الآخرة صَرْف ولا عَدْل[3].

وقد بلغنى رجوعُ مَنْ رَجَع مِنْكم عن دينه، بعد أن أقرَّ بالإسلام وعمل به، اغتراراً بالله، وجهالة بأَمْرِه، وإجابة للشيطان؛ قال الله تعالى: ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ ٱسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا ﴾. وقال: ﴿ إِنَّ ٱلشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴾؛ وإنى بعثت إليكم فُلاناً فى جَيْش من المُهاجرين والأنصار، والتّابعين بإحسان، وأمرته ألّا يقاتِلَ أحداً ولا يقتله، حتى يدعوَه إلى دَاعِيَة الله؛ فمن استجاب له وأقرّ، وكفّ وعمل صالحا قَبِل منه، وأعانَهُ عليه، ومن أبى أمَرْتُ

(١) قيوم: الدائم القيام بتدبير خلقه وحفظه. (٢) السنة: فتور يتقدم النوم.

(٣) الصرف: التوبة. والعدل: الفدية.

أنْ يقاتِلَه على ذلك ، ثم لايُبْـقِى على أحدٍ منهم قدَر عليه ، وأن يُحَرِّقهم بالنـار ، ويقتلَهم كل قِتلة ، وأن يَسْبِىَ النساء والذَّرَارىَّ ، ولا يقبل مِنْ أحدٍ إلا الإسْلَام، فمن اتّبعه فهوخير له ، ومَنْ تركه فلن يُعجز الله ،وقد أمرتُ رسولى أن يقرأ كتابى فى كلِّ مجمع لـكم ، والداعية الأذان ، فإن أذَّن المسلمون فأذَّنُوا كَفُّوا عنهم ، وإن لم يُؤَذِّنوا عاجَلوهم ، وإن أذَّنُوا ســألوهم ماَ عليهم ، فإن أَبَوْا عاجَلوهم ، وإن أقرُّوا قَبِلَ منهم وحَملهم على ماينبغى لهم » .

ثم تقدمت الرسل بالـكتب أمام الجنود ، وخرجت الأمراء ومعهم العهود .

* * *

وكان طُليحة الأسدىّ هذا قد ارتدّ فى حياة رسول الله صلى الله عليـه وسلم ، وادّعى النُّبُوَّة ، فوجّه النبي صلى الله عليه وسلم ضِرَار بن الأَزْوَر[1] إلى عمَّالِه على بنى أسد يأمرهم بالقيـام على كل مُرتدّ ، فخرج هؤلاء المسلمون مع ضِرَار ، ونزلوا بوارِدَات[2] ، ونزل طُلَيْحَة ومن معه بسَمِيراء[3] ، فمـا زال المسلمون فى نَماء ، والمشركون فى نُقْصان ، وضَعُف أَمْرُ طُلَيحة ، حتى لم يبق إلا أخْـذُه ، فضربه ضِرَارٌ بالسيف فلم يصنع فيه شيئاً ، فظَهر بين الناس أنّ السلاح لايعمل فيـه ، وكَثر جمعه .

ومات النبىّ صلى الله عليـــه وسلم وهم على ذلك ، فـكان طُلَيحة يقول : إنّ جبريل يأتينى ، وأخذ يَسْجَعُ بالأكاذيب ، وكان يأمرُهم بترك السجود فى الصلاة ويقول : إنّ الله لا يصنع بتعفير وجوهِـكم وتقبيح أَدْبارِكم شيئاً ، اذكروا الله واعبدوه قياماً . فتبعه من العرب كثير ، بعضُهم عن غَفْلة ، وبعضهم عن عَصَبيَّة ،

---

(١) كانت له صحبة ، واستشهد فيما بعد باليمامة .

(٢) واردات : موضع قرب مكة . (٣) سميراء : موضع بطريق مكة .

ولذلك كثُرَ أتباعُه من أَسَــد ، وأحلافُهم من طيء وغَطَفَان ، وقام عُيَيْنَة بن حِصْن الفَزَاريّ يقول : لَأَن نتبعَ نبيًّا من الحليفيْن : أسد وطيء ، أَحَبُّ إلينا من أن نتبع نبيًّا من قريش[١] :

فلما كان يوم القصَّة ، وهُزِمَت غَطَفان ، وكانوا قَتَلُوا المسلمين غَدْراً ، خافوا على أنفسهم ، فذهبوا إلى البُزَاخَة ، حيث انضمّوا مع إخوانهم إلى طُلَيْحَة .

فلمـا أحسَّ طُلَيحة بقدَم خالد أرسل إلى جَـديلة والغَوْث من طـّيء يأمرهم باللَّحاق به ، فتعجل إليه بعضُهم ،وأمروا قومَهم باللَّحاق بهم .

وكان أبو بكر قد بعث عديَّ بن حاتم الطائيّ قبل مَسِيرِ خالد إلى قومه ، وقال له : أَدْرِكْهم وخَــذِّلهم عن طُلَيحة . فذهب إلى الغوْث وأخـذ يَفْتِلُهمْ فى الذّرْوة والغَارِب[٢] ، ويدعوهم إلى الجماعة ، فقالوا : لانبايع أبا الفَصِيل[٣] أبداً ، فقال : لقد أَتاكم قومٌ لَيبيحُنَّ حَريمَكم ، ولَتَكْنُنَّه بالفَحْل الأكبر ، فشأنَكم به . فقـالوا له : فاستقبل الجيش فَهْنِهْ عنّا حتى نستخرجَ مَنْ لحق بالبُزاخة مِنّا ، فإنّا إن خالفنا طُليحة وهم فى يديه قتَلهم أو ارْتَهنهم .

فاستقبل عديّ خالداً وهو بالسُّنْح[٤] ، فقال : ياخالد ؛ أَمْسِك عنى ثلاثاً يجتمع لك خمسمائة مقاتل تضرب بهم عدوّك ؛ وذلك خير من أن تُعجلهم إلى النار ، وتتشاغل بهم . ففعل .

---

(١) روى الطبرى أنه كان بين أسد وغطفان وطيء حلف فى الجاهلية ، فلما كان مبعث النبى صلى الله عليه وسلم اجتمعت غطفان وأسد على طيء فأزاحوها عن دارها فى الجاهلية : غوثها وجديلتها ، ثم عادوا بعد ذلك إلى حلفهم .

(٢) يفتلهم فى الذروة والغارب : أى يخدعهم . (٣) يريدون أبا بكر .

(٤) السنح : موضع قرب المدينة ، كان به منزل أبى بكر

فعاد عَدِىّ إليهم ، وقد أرسلوا إخوانَهم إليهم ، فأتوهم من بُزاخة كالمدَد لهم ، وعاد عدىّ بإسلامهم إلى خالد .

وأعدّ خالد نفسه ليرتحلَ إلى جَديلة بالأَنْسُر [1] . فقال له عدى : إن طيّئاً كالطائر ، وإن جَديلة أحدُ جَناحى طيّىء ؛ فأجِّلنِى أياماً ، لعلّ الله أن ينتقذَ جَديلة كما انتقذ الغوْث ، ففعل . فأتاهم عدىّ ، فلم يزل بهم حتى بايعوه ، ودَعَوْا قومهم من البُزاخة ، وجاء عدىّ إلى خالد بإسلامهم ، ولحق بالمسلمين ألفُ راكب . فكان عدىّ خيرَ مولود وُلِدَ فى أرض طيّىء ، وأعظَمه عليهم بركة .

وسار خالد بالناس ، حتى إذا دنا من القوم بعث عُكّاشة بن مِحْصَن ، وثابت بن أقرم طليعة ، فلقِيَا حِبالًا أخا طُلَيْحَة ، فقتلاه . فلما بلغ مَقْتَلُه طُليحةَ خرج مع أخيه الآخر يَنْظُرَان ويسألان ، فأمّا سلَمة فلم يُمهل ثابتاً حين رآه أن قتَلَه ، وثبت عكّاشة لطُلَيْحَة . فلما رأى طليحة أنّ أخاه فرغ من ثابت ، استعان به على عُكّاشة فقتلاه ثم رجعا .

وأقبل خالد بالناس حتى مَرّوا بثابت بن أَقرم قتيلًا ، فلم يفطِنوا له حتى وطئته المطىّ بأخْفافها ، فكبُر ذلك على المسلمين ، ثم نظروا فإذا هم بعُكّاشة بن مِحصَن صريعاً ، فجزع لذلك المسلمون وقالوا : سيّدان من سادات المسلمين ، وفارسان من فُرْسانهم .

ورأى خالد ما بأصحابه من الجزَع ، فآثرَ ألّا يواجهَ بهم عدوّهم حتى تطمئنّ نفوسُهم ، فسأل عديّاً : ما الرأى ؟ فقال : الرأىُ أنْ تسير إلىّ فتقيم عندى أياما فى طيّئ ، حتى أبعث إلى كلّ قبائلها ، فأجمع لك منهم أكثر مما معك ، ثم أصحبَك إلى

---

(١) الأنسر : ماء لطيئ قرب الجبلين .

عدوّك . ففعل وانصرف معه حتى أقام بطيّئ أياماً ، ثم خرج إلى قتال طُليْحة وقومه من بنى أسد وأحلافه من غطَفَان .

قال له رجال من طيّئ : نحن نكفيك غطفَان ، فإنّ أسداً من أحْلافنا ، فقال خالد : والله ما غطفَان بأوْهَن الشوْكتَيْن ، اصمِدُوا إلى أىّ القبيلتين أحْببْتمْ ، فقال عدىّ : لو ترك هذا الدينَ أسْرتى ، الأدنى فالأدنى من قومى لجاهدتهم عليه ، فأنا أمتنِع من جهاد بنى أسد لحِلْفِهم ! لا ، لعَمْرُ الله ، لا أَفعل . فقال له خالد : إنّ جهادَ الفريقين جميعاً جِهاد ، لا تخالفْ رَأْىَ أصحابك ، امضِ إلى أحد الفريقين ، وامض بهم إلى القوم الذين هم لقتالهم أَنْشَط .

واقتتل الناسُ ، وكان عُيَينة بن حِصْن هو الذى يقودُ المعركة فى جيش طُليحة ، فى سبعمائة من بنى فَزارة ، على حين أن طُليحة يقيم مُتَلَفِّفاً فى كِساء له بفِناء بيت من شعر ، يتنبّأ لهم والناسُ يقتتلون ، فلما هزّتْ عُيَيْنةَ الحربُ ، وضَرّسَه القتال كرّ على طُليحة فقال : هل جاءك جبريل بَعْدُ ؟ قال : لا ، فرجع فقاتل حتى ضَرّسه القتال ، وهزّته الحرب ، ثم كَرّ عليه فقال : لا أبالك ، أما جاءك جبريل بعد ! قال: لا والله ، قال عُيينة : حتى متى قدْ والله بلَغ منّا ! ثم رجع إلى وَطِيس الحرْبِ فرأى خيلَ خالد تكادُ تُحيط به وبأصحابه ، فرجع إلى طُليحة فَزِعاً يكرر عليه : هل جاءك جبريل بعد ؟ قال : نعم . قال : فماذا قال لك ؟ قال : إن لك رحًى كرحاه ، وحديثاً لا تنساه . فقال عُيينة : أظنّ أنْ قد علم الله أنه سيكونُ حديث لا تنساه ! انصرفوا يا بنى فَزارة ، فهذا والله كذاب ! فانصرفوا وانهزم الناس وغَشُوا طُلَيْحَةَ يقولون : ماذا تأمرنا ؟ فوثب على فرسه ، وحمل امرأته النوّار ، وقال : مَن استطاع منكم أن يفعل مثل ما فعلت ، وينجو بأهله فليفعل :

ثم لحق بالشام(١) بعد أن ارفَضّ جَمْعُه ؛ وأقام فى بنى كلْب هناك ، ثم عاد إلى الإسلام حين بلغه أن القبائلَ التى بايَعَتْهُ قد عادت إلى الدِّين القَيِّم ، وخرج بعد ذلك مُعْتَمِراً فى خلافة أبى بكر ، فمرّ بجَنَبَاتِ المدينة ، فذكر بعضُ المسلمين لأبى بكر مكانه ، فقال : ما أَصْنَع به ! خَلُّوا عنه ، فقد هداه اللهُ للإسلام .

(١) روى ياقوت : أن عيينة بن حصن أسر وقدم به على المدينــة ، فحقن أبو بكر دمه ، وخلى سبيله . وقال بعضهم : إنه دخل جباً فاغتسل ، وخرج فركب فرسه وأهل بعمرة ، ومضى إلى مكة ، وأتى مسلماً .

٨١ — يوم البُطاح *

كان رسولُ الله صلى الله عليه وسلم قد أمّر على بطون تميم أمراء ، فرّقهم فيهم ؛ فكان الزِّبْرِقان بن بدر على الرِّباب وعَوْف والأبناء ، وقيس بن عاصم على مُقاعس والبُطون ، وصفوان بن صفوان وسبْرة بن عمرو ، على بنى عمرو ، ووكيع بن مالك ومالك بن النُّويرة ، على بنى حَنْظَلة[١] .

فلما مات النبيُّ صلى الله عليه وسلم ووُلّى أبو بكر اختلف هؤلاء : أيُؤَدُّون الزكاةَ لأبى بكر أم يُقسِّمونها فى الناس ؟ وكان فيمن أدّى الزكاة صَفْوان بن صفوان ، وفيمَنْ منعها مالكُ بن نُويرة[٢] فى قومه بنى يَرْبوع ؛ وهم بطن فى بنى حنظلة من تميم .

وبينما القومُ فى اختلافهم فجَأَتْهُمْ سَجَاح بنت الحارث ؛ قد أقبلت من الجزيرة ، وكانت سَجَاح تميميّةً من بنى يَرْبوع ، وأخوالُها من تَغْلِب بالعراق ، وقد تزوّجت فيهم ، وأقامت بينهم ، ثم تَنَصَّرَت فيمن تنصّر منهم ؛ وكانت تدّعِى الكهانة ، وتعرف كيف تقودُ الرجال ؛ فلما تراءى إليها وفاةُ محمد عليه السلام ادّعت النبوّة ، وقدمت إلى قومها من تميم ، تريد أنْ تغزوَ المدينة ، وأن تقاتل أبا بكر .

---

* لخالد بن الوليد على بنى تميم . كان سنة ١١ . والبطاح : ماء فى ديار بنى أسد . الطبرى ٣/٢٤١ . ابن الأثير ٣/١٧٣ . ابن خلدون ٢/٧٣ . معجم البلدان ٢/٢١٥ : تاريخ ابن كثير ٦/٣٢٢ . الأغانى ٤/٦٣ . الإصابة ٦/٤٠ .

(١) الرباب وعوف والأبناء ومقاعس والبطون وبنو عمرو وحنظلة : بطون فى تميم .

(٢) مالك بن نويرة : كان رجلا سريا نبيلا يردف الملوك ، وكان فارساً شجاعاً شريفاً مطاعاً فى قومه من بنى يربوع ، وكان فيه خُيلاء وتقدم ، قدم على رسول الله صلى الله عليه وسلم فأسلم ، ثم ولاه الصدقات على بنى يربوع ، ثم كان ما كان من ردته ومنعه الزكاة) حتى قتله ضرار بن الأزور ، وقال فيه أخوه متمم المراثى المشهورة .

فلما رأى بنو تميم ـ وهم على اختلافهم ـ عَزْمَها على قِتَالِ أبى بكر ، ازدادوا بين الردّةو الإسلام اضطرابا؛ ووقفت سَجَاح فى جُنْدِهاعلى حدود بنى يَرْبُوع، وأرسَلَتْ إلى زَعِيمهم مالك بن نُويرة تَطْلب المُوَادعة ، وأنبأتْهُ بِعَزْمِها على غزو المدينة ؛ فأجابها مالكٌ إلى الموادَعَة . ولـكنه صَرَفها عن غَزْوِة المدينـة ، وحرَّضها على قتالِ مَن اختلف معه من أحْيَاء بنى تميم ؛ واقتنعت سَجَاح برأيه وقالت : نعم ؛ فشأنك بمن رأيت؛ فإنّى إنماأنا امرأةٌ مِنْ بنىيَرْبُوع، وإن كان مُلْك فالملك مُلْـكُـكم. ثم أرسلت إلى بنى مالك بن حنظلة تدعوهم إلى الموادعة ، فأبوْا ، ثم أرسلت إلى وَكيع بن مالك ، فأجاب إلى ما أجاب به مَالِك بن نُويرة .

واجتمع مالك ووكيع وسَجَاح ، فسجَعت لهم سَجَاح وقالت : أعِدُّوا الرِّكَاب، واستعدّوا للنِّـهاب ، ثم أغِيروا على الرِّباب ، فليس دونهم حجاب . فاستَعَرَت نارُ الحرب بين بنى تميم ، واقتتل القوم، ومات من الجانبين خَلْقٌ كثير. ثم إنهم تَصَالحوا وعاد السلام إلىبنى تميم . ولما رأت أنَّ أمرَهالم يتمّ فى بنى تميم، قالت لجندها من ربيعة وإياد وسواهم: عليـكم باليمامة ودُفُّوا دَفيفَ(١) الحمامة، فإنها غزوة صَرَامة، لاتلحقكم فيها ملامَة . ثم نَهَدَت(٢) بمَنْ معَها إلى بنى حنيفة ؛ حيث لقيت مُسيلمة وتزوّجته .

ولمـا رأى مالكُ بنُ نويرة ما صنعت سَجاح ندِم وتحيَّر فى أمره ، وعرف وَكيع وغيرُهمن رؤساء بنى تميم قُبْح ما صَنَعُوا، فرجعوا رُجوعاً حسناً، وأخرجوا الصدقاتِ ، واستقبلوا بها خالداً ، ولم يَبْقَ فى بنى تميم إلّا مالك بن نويرة ؛ فقد اعتصم بالبُطاح .

وعلم خالدبأمره، فعزَم على المسيرإليه فتردّدت الأنصار، وتخلّفت عنه وقالوا :ماهذا بعهد الخليفة إلينا، إنّ الخليفة عَهِد إلينا: إنْ نحن فرَغنا من البُزَاخَةِ واستَبْرَأْنا بلادَ

---

(١) الدفيف من الطائر : أن يحرك جناحيه ورجليه فى الأرض .

(٢) نهد الرجل لعدوه : نهض .

القوم ، أن نقيم حتى يكتبَ إلينا . فأجابهم خالد : إنْ يكن عَهِد إليكم هذا ؛ فقدعَهِدَ إليَّ أن أمضيَ وأنا الأمير ، وإليَّ تنتهي الأخبار ، ولو أنه لم يأتني له كتاب ولاأمر، ثم رأيت فُرْصَةً فكنتُ إن أَعْلَمْته فاتَتْني لم أعلمه حتى أنتهزَها ، وكذلك لوابتُلينا بأمر لم يُعْهَدْ لنا فيه لم ندَعْ أن نَرى أفضلَ ما بِحَضْرَتنا ثم نعمل به . وهذا مالك بن نُويرة بِحِيَالِنَا ، وأنا أقصِد إليه ، ومَنْ معى مِنَ المهاجرين والتابعين بإحسان، ولستُ أُكْرِهُكُمْ .

ومضى خالد ، وندمت الأنصار ، وقالوا : إنْ أصاب القومَ خيرٌ إنه لَخَيْرٌ حُرِمْتُموه ، وإن أصابتهم مصيبة لَيَجْتَنِبَنَّكُمُ الناس ، فأجمعوا اللَّحاق بخالد ، وجرّدُوا إليه رَسُولا ، فأقام ، حتى لحقوا به .

ثم سار مع جَيْشِه حتى قدِم البُطاح ، فلم يجدوابها أَحداً، ووجدوا مالكاقدفرّقهم فى أموالهم ، ونهاهم عن الاجتماع حين اضطرب عليه أمره ،وقال : يابنى يَرْبُوع؛إنّاقد كنّا عصينا أمراءَنا إذْ دعوْنا إلى هذا الدّين ، وبطّأنا الناسَ عنه فلم نُفلح ولم نَنْجح؛ وإنّى قد نظرتُ فى هذا الأمر، فوجدت الأَمْرَ يتأتّى للقَوْمِ بغير سياسة . وإذا الأمر لايسوسُه الناس ، فإيّاكم ومناواةَ قومٍ قد صُنع لهم، فتفرّقُوا فى ديارِكم ، وادْخُلوا فى هذا الأمر . ونصحلهم بالرجوع إلى الإسلام، والتفرق فى الديار . ورجع هو إلى منزله.

وبثَّ خالد السّرايا بالبُطَاحِ ، وأمرهم بداعيةِ الإسلام ، وأن يأْتوه بكلّ من لم يُجِب ، وأن يقتلوه إن امتنع . وكان ممّا أوصى به أبو بكر : إذا نزلتم منزلًا فأَذِّنُوا وأقيموا ؛ فإن أذّنَ القومُ وأقامُوا فكفّوا عنهم ؛ وإن لم يفعلوا فلا شىءَ إلا الغارة ؛ وإن أجابوكم إلى داعيةِ الإسلام فسائِلوهم ، فإن أقرُّوا بالزّكاة فاقبَلُوا منهم ؛ وإن أَبَوْهَا فلا شىء إلّا الغارة ولا كلمة !

ولم يلبث أن جاءت الخيلُ بمالك بن نُوَيرة فى نفرٍ من قومه بنى يَرْبوع .

واختلف رؤساء الجند الذين جاءوا بمالك ومن معه فيما بينهم . أأقرّ مالك ومن معه بالإسلام وأجابوا داعيةَ الأذان ، أم أنكروا وتنكروا ؟ وكان من رؤساء الجند أبو قَتادة(١)؛ ولما سُئِل قال : إنّهم لما غَشُوا القوم راعوهم تَحْتَ اللّيْل ، فأخذ القومُ السلاح . فقلنا : إنّا المُسْلِمون . فقالوا : ونحن المسلمون . قلنا : فما بالُ السِّلاح معكم ؟ قالوا لنا : فما بال السلاح معكم ؟ قُلْنَا : فإن كنتم كما تقولون فضَعُوا السلاح . فوضعوه ، ثم صلّينا وصلّوا . وقال غيرُه : إنهم مازالوا على رِدّتهم .

ولما رأى خالدٌ اختلافَ القوم فى شأْن مالك وأصحابه أمر بِحَبْسِهم ، حتى ينظر فى أمرهم ، وكان ذلك فى ليلة باردة . ثم أمر خالدٌ منادياً فنادى : دافئوا(٢) أَسْرَاكم — وهى فى لغة كِنانة — معناها القتل ، وكان الحرّاسُ من بنى كِنانَة ، فوقعوا فيهم قتلا ، وقتل ضِرار بن الأزور مالكا .

وسمع خالد الوَاعِيــة(٣) ، فخرج وقد فرَغوا منهم ، فقال : إذا أراد الله أمراً أصابه . ولما عَلِم أبو قَتادة بمقتل مالك قال لخالد : هــذا عَمَلُك ! فزَجَره خالد ، فغضب وعاهد الله ألا يشهد حرباً بعدها مع خالد ، ومضى حتى أتى أبا بكر ، فقصّ عليه أمر خالد وقَتْله مالكاً ، وأقسم ألّا يكون أبداً فى لواء عليه خالد ، فغضب منه أبو بكر ، لأنه كان معجَباً بخالد وانتصاراته ؛ وكلمه فيه عمر فلم يَرْضَ إلّا أن يرجع إلى خالد ، فرجع إليه وبَقِى معه حتى قدِم معه المدينة .

ثم تزوّج خالد أمّ تميم ، ابنة المِنْهال زَوج مالك ، وكانت العرب تكره النساء فى الحروب .

---

(١) هو أبو قتادة الأنصارى ، واسمه الحارث بن ربعى .

(٢) أراد الإدفاء ، من الدفء .

(٣) الواعية : الصراخ .

ولما علم عمرُ بمقتل مالك؛ وما حام حوله من الرِّيب، وبخاصة حينما سمع بزواج خالد من أمّ تميم عمد إلى أبي بكر وقال: إن في سَيْفِ خالدٍ رَهَقاً[١]، فإن لم يكن هذا حقّاً حقّ عليك أنْ تقيده، ثم عاد إليه فأكثرَ وقال: عدوُّ الله عدا على امرىء مسلم فقتله، ثم نزا على امرأته – وكان أبو بكر لا يُقيد[٢] من عُمّاله ولا وَزَعته – فقال: هيه يا عمر؛ تأوّلَ فأخطأ، فارفع لسانك عن خالد، فلم أكن لأشيم[٣] سيفاً سَلَّهُ الله على الكافرين. وودَى[٤] مالكا، وكتب إلى خالد أن يقدم عليه.

وأقبل خالدُ بن الوليد قافلاً حتى دخل المسجد، وعليه قَباء عليه صَدأُ الحديد، مُعتَجِراً[٥] بعمامةٍ، قد غرَزَ فيهما أسهماً. فلما أن دخل المسجد قام إليه عُمر فانتزع الأسْهُمَ مِنْ رأسه فحطّمها، ثم قال: أرِئاء! قتَلْتَ امرأً مسلماً، ثم نزوْتَ على امرأته؛ والله لأرجمنّك بأحْجَارك! فلم يردّ خَالدٌ بكلمة، وظنّ أنّ رأيَ أبي بكر على مِثْل رأي عُمر فيه، ثم دخل على أبي بكر، وأخبره الخبر، فعذره أبو بكر وتجاوز عمّا كان في حَرْبه تلك.

ولم تمضِ إلا أيام حتى قدم مُتَمِّم بن نُوَيرة[٦]، أخو مالك إلى المدينة، وشهد مع أبي بكر صلاة الصبح ثم أنشد:

---

(١) الرهق السفه والخفة وركوب الشر والظلم وغشيان المحارم.

(٢) يقال: أقاد الأمير القاتل، قتله به قوداً. (٣) أشيم: أغمد.

(٤) وداه: أعطاه ديته، والدية: حق القتيل. (٥) الاعتجار: لف العمامة.

(٦) متمم بن نويرة: أخو مالك، وله أبلغ المراثي فيه. روى الأصمعي: قدم متمم بن نويرة العراق، فأقبل لا يرى قبرا إلا بكى عليه؛ فقيل له: يموت أخوك بالملا، وتبكى أنت على قبر بالعراق! فقال:

لقدْ لامني عِنْدَ القُبُورِ عَلَى البُكا رَفيقِي لِتَذْرَافِ الدُّمُوعِ السَّوَافِكِ
فقَالَ أتبْكِي كُلّ قبرٍ رَأيْتَهُ لِقبرٍ ثوَى بَيْنَ اللِّوَى وَالدّكادِكِ
فقُلْتُ لَهُ: إنّ الشَّجا يَبْعَثُ الشَّجا فَدَعْنِي فهذَا كُلُّهُ قبرُ مالِكِ!
ألَمْ ترَهُ فِيناَ يُقَسِّمُ مالَهُ وَتأوِي إليهِ مُرْمَلاتُ الضّرَائِكِ!

الضرائك: الفقراء السيئو الحال.

نعم القتيلُ إذا الرياح تناوَحَتْ تحت الإزار قتلْتَ يابْنَ الأَزْوَرِ
أَدَعَوْته بالله ثمّ قتلتَـه لو هُو دعاك بذمّةٍ لم يَغْدُرِ

فقال أبو بكر : والله ما دعوته ولا قتلته . ثم قال :

لايضمرُ الفحشاءَ تحتَ رِدائِه حُلوٌ شمائله عفيفُ المِئْزَرِ
ولنعم حَشْوُالدِّرْعِ أَنْتَ وحاسراً ولنعم مأوَى الطَّارِقِ المتنوِّرِ

ثم بكى حتى سالت عَيْنُه ، ثم وقع مغشيًّا عليه ؛ وطلب دِيَةَ أخيه فوَدَاه ، وتحدّث إليه فى رَدِّ سَبْى قومه ، فكتب بردّ سَبْيهم ، وأقام بالمدينة ؛ لا ترْقأ له دَمْعة على أخيه مالك .

* * *

وكان عُمر بن الخطاب يصلّى الصبح يوما ؛ فلما انفَتَل مِنْ صلاته إذ هو برجل قصير أعور ، يتنكّب قوساً ، وبيده هِرَاوة ، فقال : مَنْ هذا ؟ فقال : مُتَممٌ بن نويرة فاستنشده قوله فى أخيه ، فأنشده :

لَعَمْرِى وَمَا دَهْرِى بَتأ بين مالِكٍ ولا جَزِعٍ ممّا أَصابَ فَأَوْجَعا[1]
لقد كفّن المِنْهالُ تحت ثِيابِه فتًى غير مِبطَان العشيّات أروعا[2]

ومضى فى إنشاده حتى بلغ إلى قوله :

وكنّا كندْمانَىْ جَذِيمةَ حِقْبةً من الدّهر حتى قيل لن يتصَدّعا[3]
فلما تفرّقْنا كأنّى ومالكاً لطُولِ اجتماعٍ لم نَبِتْ ليلةً معا

فقال عمر : هذا والله التأبين ! ولوددت أنّى أحسن الشعر فأرثى أخى زيداً[4] بمثل ما رثيت به أخاك ، فقال متمّم: لو أن أخى مات على ما مات عليه أخوك ما رثيته. فقال عمر : ما عزّانى أحد عن أخى بمثل ما عزّانى به مُتَمِّمٌ !

---

(١) مادهرى : ماعادتى ، والتأبين : مدح الميت بعد موته .

(٢) المنهال : هو ابن عصمة الرياحى ؛ كفن مالكاً فى ثوبيه . غير مبطان العشيات : لا يعجل بالعشاء انتظاراً للضيفان . والأروع : الذى إذا رأيته راعك بحسنه .

(٣) الندمان : النديم ، وقد كان مالك وعقيل بن فارح نديمين لجذيمة الأبرش دهراً طويلا ، ثم قتلهما ، فى حديث مشهور.

(٤) مات زيد بن الخطاب فى غزوة اليمامة.

١٩ – يوم اليَمَامَة*

فى سنَةِ عَشْر قدمَ وَفْدُ بنى حَنِيفةَ(١) من أهل اليَمَامَةِ على رسولِ الله صلى الله عليه وسلم مُسْلِمين، وتركوا مُسَيْلِمة بن حَبيب فى رِحَالِهم، فلما أسلموا ذكروا مكانَه، فقالوا : يارسولَ اللهِ ؛ إنا قد خَلَّفنا صاحباً لنا فى رِحالنا وفى رِكابنا ، يحفظُها لنـا .

فأمر لَهُ رسولُ الله صلى الله عليـه وسلم بمِثْلِ ما أَمرَ به للقوم ، وقال : أما إنه ليس بشرِّكم مَكاناً . ثم انصرفوا . وجاءوا مُسَيْلِمة بما أعطاه رسولُ الله ، فلمـا انتهوْا إلى اليمَامة ارتدَّ وتنبَّأ لهم ، وقال : إنى قد أُشْرِكْتُ فى الأمر معه ، وقال لِمَنْ كان معه فى وَفْدِ بنى حنيفة : ألم يقُلْ لكم حين ذكرتمُونى له ! أمَا إنه ليس بِشَرِّكم مكانا ! وما ذاك إلَّا لأنه كان يعلمُ أنى قد أُشْرِكْتُ فى الأمْر معه . ثم جعل يَسْجَع لهم الأَساجيع .

وكتب إلى رسولِ الله صلى الله عليه وسلم : من مُسَيْلِمة رسولِ الله إلى محمدٍ رسول الله ، سلامٌ عليك ؛ أما بعدُ فإنى قد أُشْرِكْتُ فى الأمْرِ معك ، وإن لنا نصفَ الأرض ، ولِقُرَيْش نصف الأرض ، ولكنَّ قُرَيشاً قومٌ يَعْتَدُون .

وقدم على النبي صلَّى الله عليـه وسلم رسولان بهذا الكتاب ، فقـال لهما النبيّ حين قرأ كتابَ مُسيلمة : فما تقولان أنتما ؟ قالا : نقولُ مثلَ ماقال ، فقال : أما والله لولا أنَّ الرُّسُلَ لا تُقْتَل لضربتُ أعناقكما .

---

* لخالد بن الوليد على بنى حنيفة ، كان سنة ١١ . واليمامة معدودة فى نجد ، بينها وبين البحرين عشرة أيام ، وتعد هذه الموقعة من المواقع الفاصلة فى حروب الردة .

الطبرى ٣/١٦٢ ، ابن الأثير ٢/١٧٤ ، ابن خلدون ٢/٧٥ ، ابن كثير ٦/٣٢٣ ، ابن هشام ٤/٢٤٤ ، ٢٧٢ .

(١) حنيفة : بطن فى ربيعة .

ثم كتب إلى مُسَيْلِمة : بسم الله الرحمن الرحيم . من محمد رسولِ الله إلى مسيلِمة الكذّاب : سلامٌ على من اتّبَع الهُدَى ، أما بعد ، فإنّ الأرْضَ لِلهِ يُورِثُها مَنْ يشاءُ مِنْ عِبادِهِ والعاقِبةُ لِلْمتّقِينَ .

فلما مات رسولُ الله صلى الله عليه وسلم ، وبعث أبو بكر السّرايا(١) إلى المرتدّين أرسل عِكْرِمةَ بْنَ أبى جهل فى عسكرٍ إلى مُسَيلمة ، وأَتْبَعه شُرَحْبِيل بن حَسَنة ، وكان مُسَيْلِمةُ قد اشتدّ أمره ، والتفّ حولَه أربعون ألف مقاتل من بنى حَنِيفَة باليمامة .

فسار عِكْرِمةِ إلى اليَمَامة ، ولم يَرَ أَنْ ينتظرَ شُرَحْبيل ، ليكونَ له فخارُ النّصر . وكان عِكْرِمة بطلا مجرّبا ، وفارساً مِغْواراً ، وقد اجتمع فى لِوَائه أبطالٌ لهم فى الحروب بَلَاء ، ولكنّه لم يَثْبُتْ لقوّتهم ، ونَكَبه بنو حَنيفة ، وعلم شُرَحْبِيل بهزيمتهم فأقامَ بالطريق .

وكتب عِكْرِمَةُ لأبى بكر بالّذى أصابه وأصاب جُنْدَه ، فغضِبَ أبو بكر ، وكتب إليه : يابْنَ أُمِّ عِكْرِمَة : لاتَرْجِعَنَّ فتُوهِنَ الناسَ ؛ امضِ إلى حُذيفة وعَرْفجة ، فقاتِلْ أهل عُمَان ومَهْرَة ، ثم تسير أنتَ وجندك حتى تَلْقَى المُهاجر بن أبى أُميَة باليمن وحَضْرَمَوْت .

وكتب إلى شُرَحْبيل بن حَسَنَة يأْمُرُه بالمقام حتى يأتيه أمْرُه .

ولما قدم خالدٌ على أبى بكر مِنَ البُطَاح ، ورضى عنه وقبل عُذْرَه وصدَّقَه ، أرسله إلى مُسَيْلِمة ، وأَوْعَب(٢) معه الناسُ ، وجعل على الأنصار ثابتَ بن قَيْس والبَرَاء بن عازب ؛ وعلى المهاجرين أبا حُذَيفة ، وزَيْد بن الخطاب ، وعلى كلّ قبيلةٍ رجلا

---

(١) جمع سرية : وهى جماعة من الجنود من خمسة أنفس إلى ثلاثمائة أو أربعمائة .

(٢) أوعب الناس : خرجوا كلهم للغزو .

وقبل أن يقومَ خالد بجيشه كتب أبو بكر إلى شُرَحْبِيل بن حَسَنة كتابا آخر جاء فيه : إذا قدِم عليك خالد ، ثم فرغتُمْ إنْ شاء الله ؛ فالْحَقْ بقُضَاعة ، حتى تكونَ أنتَ وعَمْرو بن العاص على مَنْ أَبَى منهم وخَالَف .

وخرج خالدٌ فى جُنْدِه حتى أَتَى اليَمامةَ ؛ حيث كان بنو حَنِيفَة مستعدّين هناك فى جَمْعِهم الكَثِيف .

وكان مُسَيلمة يُصَانِع كلَّ أحدٍ ويتألَّفُه ، ولا يبالى أن يَطَّلع الناسُ منه على قبيح ، وكان معه نَهَارٌ الرَّجَّال ، وكان نَهَار هذا قد هاجر إلى النبىّ صلى الله عليه وسلم ، وقرأ القرآنَ ، وفَقُهَ فى الدين ، وعرف أصول الإسلام ؛ فبعثه الرسول معلِّماً لأهلِ اليَمامة يفقِّهُهم فى الدين ، ويشدُّ من عزائم المسلمين ، ويَشْغَب معهم على مُسَيْلِمَة المتنبِّئ الكاذب ؛ فكان أعظمَ فتنةً على بنى حنيفة من مُسَيْلِمة نَفْسِه ؛ شهد له أنه سمع محمداً صلى الله عليه وسلم يقولُ : إنه قد أُشْرِكَ معه ، فصدّقه القومُ واستجابوا له .

وجاء طُلَيحة النَّمَرىّ اليمامة ، فقال : أَيْن مُسَيْلِمَة ؟ قالوا : مَهْ ! رسول الله ! قال : لا حتى أراه ؛ فلمّا جاء قال له : مَنْ يأتيك ؟ قال : رَحْمان . قال : أفى نورٍ أم فى ظُلمة ؟ قال مُسَيْلِمة : فى ظلمة . فقالَ طُلَيحة : أشهدُ أنّكَ كَذّاب ، وأنّ محمداً صادق ، لكنّ كذّابَ ربيعة أحبُّ إلينا من صادق مُضَر . واتَّبَع مسيلمة ، وانْخَرَط فى جيشِه .

ولما بلغ مُسيلمةَ دُنُوُّ خالد ضرب عسكره بعَقْرَباء[١] ، واستنفر الناسَ ،

---

(١) عقرباء : منزل من منازل اليمامة .

فجعلوا يخرجون إليه .

وبينما كانت جيوشُ خالد تتلاحقُ إلى أرض اليمن ، وتبلغ أنباؤها مُسَيْلِمة خرج مُجَّاعةُ بنُ مَرارَة في جماعةٍ من بني حَنيفَة ؛ يطلبون ثأْرًا له في بني عامر وبني تميم[١] وقد خاف أنْ يفوتَه إذا شُغِل بلِقاءِ المسلمين وقِتالهم ، وأدْرَك مُجَّاعة ثأْرَه وعاد في أصحابه . ولما بلغوا ثنيّةَ اليمامة كان التَّعبُ قد أخذ منهم ، فناموا .

وأدركهم جنودُ خالد ، فوجدوهم نياما ، وأَرْسَانُ[٢] خيولِهم بأيديهم تحت خُدودهم ؛ وهم لايشعرون بِقُرْبِ الجيش منهم ، فأنبهوهم وقالوا : مَنْ أنتم ؟ قالوا : هذا مُجَّاعة ، وهذه حَنيفة ، قالوا : وأنتم ! فلا حيّاكم الله ! فأوثقوهم وأقاموا إلى أن جاءهم خالدُ بن الوليد فأتَوْه بهم ، فقال لهم : متى سمعتُم بنا ؟ قالوا : ماشَعَرنا بك ؛ إنما خرجنا لثأْرٍ لنا فيمن حولنا من بني عامر وتميم . فأمر بهم[٣] أن يُقْتَلوا ، فجادوا كلُّهم بأنفسهم دون مُجَّاعة بن مَرارَة ؛ وقالوا : إن كنتَ تريد بأهل اليمامة غداً خيراً أوشرًا فاسْتَبْقِ هذا ولا تقتله . فقتلهم خالد ، وحبس مُجَّاعة عنده كالرهينة ، وأوثقه في الحديد ، ثم دفعه إلى أمّ تميم امرأته ، وقال : استوصِى به خيراً ، ثم مضى حتى نزل اليَمامة .

وتقدَّم المسلمون حتى نزل بهم خالد على كَثِيبٍ يُشْرِف على اليمامة ، فضرب به عسكره ، ورايةُ المهاجرين مع سالم مولى أبي حُذَيفة ، ورايةُ الأنصار مع ثابت بن قَيْس ، والعربُ على راياتها ؛ ومُجَّاعة بن مرارة مُقَيَّدٌ في الخيمة مع أمِّ تميم .

---

(١) كان ثأرهم في بني عامر، أن امرأة من بني حنيفة اسمها خولة بنت جعفر ، منعه قومها منها، وأما ثأرهم في بني تميم فنعم أخذوها منهم .

(٢) أرسان : جمع رسن : الحبل وما كان من زمام على أنف .

(٣) وفي بعض الروايات أن خالداً سألهم فقال : ماتقولون ؟ قالوا : نقول منا نبي ومنكم نبي ! فعرضهم على السيف .

والتقى الناسُ واقتتلوا قتالاً شديداً ، حتى انهزم المسلمون ، وخَلَصَ بنو حنيفة إلى مُجَّاعَة وإلى خالد ؛ فزال خالد عن فُسْطَاطِه ، ودخل أناس الفُسْطاط ، وفيه مجّاعة، تحرسُه أمّ تميم زوج خالد ، فحمل عليها رجلٌ بالسيف ، فقال مُجَّاعة : مَهْ ، أنا لها جَار ! فنِعْمَتِ الحرّة ! عليكم بالرجال ؛ فرعْبَلُوا[١] الفُسْطاط بالسيوف .

ولما حلّت الهزيمةُ بالمسلمين عادوا فتَذَامَرُوا[٢]، فقال ثابت بن قيس: بئسما عوَّدْتُمْ أنفسكم يامعشرَ المسلمين، اللّهمّ إنى أبرأ إليك مما يَعْبُدُ هؤلاء ـ يعنى أهل اليمامة ـ وأبرأ إليك مما يَصْنَعُ هؤلاء ـ يعنى المسلمين ـ ثم أخذ يجالِدُ بسيفه . وجعل الصحابةُ يتواصَوْنَ بينهم ، ويقولون : يا أصحابَ سورة البقرة ، بَطَلَ السِّحْرِ اليوم ! وحفرَ ثابت بن قيس لِقَدَمَيْه فى الأرض ؛ وهو حامل اللواء ، بعدما تحنّط وتكفّن ؛ ولم يزل ثابتاً حتى قُتل . وقال أبو حذيفة : ياأهل القرآن ؛ زيِّنوا القرآن بالفعال ؛ وحمل فيهم حتى أبعدهم .

وقال زيد بن الخطّاب : أيّها الناس ؛ عَضُّوا على أضْرَاسكم ؛ واضْرِبوا عدوَّكم، وامضُوا قدُماً . والله لا أتكلّمُ حتى يَهْزِمَهم الله ؛ أو ألقى الله فأكلّمه بحجتى . ثم خرج للقتال ، فلقىَ أوّلَ مالقى الرَّجّال ؛ فاجْتَلَدا معاً ؛ ولم يلبث الرجّال إلا قليلاً حتى قتله[٣] زَيد ؛ ثم قاتل زيدٌ حتى استشهد[٤] .

---

(١) رعبلوا الفسطاط : مزقوه .

(٢) تذامروا : حض بعضهم بعضاً على الجد فى القتال .

(٣) عن أبى هريرة قال : كنت يومئذ عند النبى صلى الله عليه وسلم فى رهط ، ومعنا الرجال بن عنفوة ، فقال : إن فيكم لرجلا ضرسه فى النار أعظم من أحد ، فهلك القوم وبقيت أنا والرجال ، وكنت متخوفا ، حتى خرج الرجال مع مسيلمة وشهد له بالنبوة ، فكانت فتنة الرجال أعظم من فتنة مسيلمة . ابن كثير ٦/٣٢٣ .

(٤) فى بعض الروايات : قال عمر لعبدالله بن عمر حين رجع من غزو اليمامة : ألا هلكت قبل زيد ! هلك زيد وأنت حى ! فقال : قد حرصت على ذلك أن يكون ، ولكن نفسى تأخرت ، فأكرمه الله بالشهادة . الطبرى ٣/٢٤٩ .

ثم نَشِب شيء من الخِلاف بين المسلمين ؛ فالمهاجرون والأنصار جبَّنُوا أهـلَ البوادي ؛ وأهلُ البوادي جبَّنوا المهاجرين والأنصار . وقال أهل القُرَى : نحن أعلمُ بقتالِ أَهْلِ القرى؛ يامعشرَ أهل البادية منكم . وقال أهـل البادية : إن أهل القرى لا يُحسنون القتال ؛ ولا يدرون ما الحربُ ؛ فسترَوْنَ إذا امْتَزْنا(١) من أين يجيء الخَلَل!

فما رُئِيَ يومٌ كان أحدّ ولا أعظم نِكاية مما رُئِيَ يومئذ ؛ ولم يُدْرَ أيّ الفريقين كان أشدّ فيهم نِكاية ؛ إلّا أنَّ المصيبة كانت في المهاجرين والأنصار أكثرَ منها في أهل البادية .

وظلّت الحربُ سِجَالاً ؛ مرّة على المسلمين ومرّةً على الكافرين ؛ فقال خالد : امتازوا لنعلمَ بلاءَ كلِّ حيّ ؛ ولنعلم من أين نُؤْتَى ! فامتاز أهلُ القرى والبوادِي ، وامتازت القبائلُ من أهـل البادية وأهلِ الحاضرة ؛ ووقف بَنُو كُلِّ أبٍ على رَايتهم ؛ فقاتلوا جميعاً ، وقال أهـلُ البوادي يومئذ : الآنَ يستحرُّ(٢) القتْلُ في الأجدع(٣) الأضْعَف .

فاسْتَحَرَّ القتلُ في أهلِ القُرَى ؛ وثبت مسيْلِمة ؛ فعرف خالد أنها لا تَرْكُد إلا بقتْل مُسيلمة ؛ فبرز حتى إذا كان أمام الصفّ دعا إلى البِرَازِ وانتمى ؛ وقال : أنا ابنُ الوليد ؛ ونادى بشعارهم يومئذ : يا محمَّداه ! فجعل لا يَبْرُزُ له أحدٌ إلا قتله، ودارت رَحَى المسلمين وطحنتْ .

وأقبل المحيطون بمسيلمة يخرجون إلى لقاء خالد ، فيلقاهم الموتُ من سيفه قبل أنْ يبلغوه؛ وَكثرُ فيهم القتْل ، وشعرَ مُسَيْلِمة بالخزْي يركبه؛ فساورتْه نفسه أن يخرج

---

(١) امتاز القوم : تميز بعضهم من بعض .

(٢) استحر القتل ، إذا اشتد . (٣) الأجدع : الضعيف أيضا .

كما خرجوا ؛ لكنه أيْقَنَ أَنه مقتول إنْ خرج ، فتردّد واضطرب ؛ وإنه لَفِى اضطرابه وترَدُّده إذ شدّ خالدٌ برجاله عليه وعلى مَنْ حوله ، يُعْمِلُونَ فيهم السلاح .

ورأى محكّم بن الطُّفَيْل فِرَارَ القوْم ، ورأى المسلمون يتعقَّبونهم فصاح بهم : يابنى حنيفة ! الحَديقة ! وكانت على مقْرَبةٍ منهم ، وكانت لمسيلمة ، وتدعى حَديقة الرّحمن ، وكانت فسيحةَ الأَرجاء ، منيعة الجُدْرَان، كأنها الحِصْن ، وقد فرّوا إليها وتحصَّنوا بها مِنْ هزيمتهم ، بعد أن خرَّ الألوفُ منهم صَرْعَى ، ووقف المحكّم برجاله يَحْمِى ظهورَهم أثناء فِرارهم ، وإنّه لكذلك يحاول صَدَّ المسلمين ، ويُحَرِّضُ رجالَه على دَفْعِهم ، ويقاتلُ وإياهم أشدَّ قِتَال ؛ إذْ رماه عبدُ الرّحمن بن أبى بكر بسَهْم وقع فى نَحْره فقتله .

وأحاط المسلمون بالَحديقه ، ليجدوا فيها ثُغْرَة ، فصرخ البَرَاء بن مالك ، وقال : يامعشرَ المسلمين ؛ احملونى على الجدار حتى تطرحونى عليه ، ففعلوا ، حتى إذا وضعوه على الجدار نظر وأُرْعِد ، فنادى : أنزلونى ؛ ثم قال : احملونى ؛ ففعل ذلك مراراً ؛ ثم قال : احملونى ؛ فلمّا وضعوه على الحائط اقتحم عليهم ؛ فقاتلهم على الباب حتى فتحه للمسلمين ، فدخلوا منه زُمَراً تلمعُ فى أيديهم السيوف ، ويُطِلُّ الموتُ من حَدَقِ عيونهم ، وأغلق البابَ عليهم ، ثم رمى بالمفتاح من وراءِ الجدار ؛ فاقتتلوا قتالاً شديداً ، وأُبيدَ مَنْ فى الحديقة منهم .

وذهب فريقٌ إلى مسيلمة يقولون : أين ما كنْتَ تعدِنا ؟ قال : قاتِلُوا عن أحسابكم ، ولم يلبث الصارِخ أَنْ صرخ : إنّ مسيلِمة قد قُتِل ؛ إنّ العبد الأسود قتل مُسَيْلِمة[١] !

(١) جاء فى ابن كثير أن المسلمين حين دخلوا الحديقة من حيطانها خلصوا إلى مسيلمة ، وإذا هو واقف فى ثلمة جدار ، كأنه جمل أورق ، وهو لا يعقل من الغيظ ، فتقدم إليه وحشى بن حرب ، مولى جبير بن مطعم فأصابه ، وسارع أبو دجانة ، فضربه بالسيف فسقط ، فنادت امرأة من القصر وأأمير الوضاءة ، قتله العبد الأسود !

وبمَوْتِ مُسيلمة انتهت المعركة ؛ وخرج خالد بمُجّاعة يرْسُفُ فى الحديد ، لِيُرِيَه مسيلمة وأعْلَام جنده . فأتى على الرَّجَّال فقال : هذا الرَّجَّال ! وجعل يكشف له القَتْلَى حتى مَرَّ بمحكَّم بن الطّفيل ـ وكان رجلًا جسيماً وَسيماً ـ فلمّا رآه خالد ، قال: هذا صاحِبكم ؟ فقال : لا ، هذا واللهخيرٌ منه وأكرم ، هذا مُحَكَّم اليمامة . ثم مضى خالد يكشف له القَتْلَى حتى دخل الحديقة ، فقلّب له القتلى ؛ فإذا رُوَيْجِل أصيفِر أُخَيْنِس[1] ، فقال مُجَّاعة : هذا صاحبُكم قد فرَغْتم منه : فقال خالد لمُجّاعةَ : هذا صاحبكم الذى فعل بكم مافعل ! قد كان ذلك ياخالد .

ولمّا فرغ خالد من مُسيلمة والجند ، قال له عبدُ الله بن عمر وعبدُ الرحمن بن أبى بكر : ارتحِلْ بنا وبالناس ، فانزِل على الحصون ، فقال : دَعَانى أَبُثُّ الخيولَ فألْقُط مَنْ ليس فى الحصون ، ثم أرى رَأْيى . فبثَّ الخيولَ ، فحَوَوْا ماوجدوا من مالٍ ونساء وصبيان ، فضمّوا هذا كلّه إلى المعسكر ، ونادى بالرحيل لينزلَ على الحصون .

فقال له مُجَّاعة : إنّه والله ماجاءك إلا سَرْعَانُ[2] الناسِ ، وإنّ الحصون لمملوءةٌ رِجَالا ، فهلمّ إلى الصلح على ما ورائى . فصالحه على كلّ شيء دون النُّفوس ، ثم قال : أَنْطَلِقُ إليهم فأشاورهم ، وننظر فى هذا الأمر ، ثم أرجع إليك .

فدخل مُجَّاعة الحصونَ ، وليس فيها إلّا النساء والصبيان ، ومَشْيَخةٌ فانيةٌ ، ورجال ضَعْفى . فظاهر الحديدَ على النساء ، وأمرهن أن يَنْشُرْن شعورهنّ ، وأن يُشْرِفْنَ على رءوس الحصون .

---

(١) الخنس تأخر الأنف عن الوجه مع ارتفاع قليل فى الأرنبة ، وهو أخنس ، ومصغره أخينس

(٢) سرعان الناس ، بسكون الراء وفتحها : أوائلهم .

ثم رجع فأتى خالداً ؛ فقال : قد أبوْا أن يُجيزُوا ما صنعت ، وقد أشرف لك بعضُهم نقضاً عليّ ، وهم مِنّى بَرَاء .

فنظر خالدٌ إلى رءوس الحصون وقد اسودّت ، وقد نَهكت المسلمين الحربُ ، وأحبّوا أن يَرْجِعوا بالظّفَر والنصر ، ورأوْا أنه قد قُتِل من المهاجرين والأنصار خَلْقٌ كثير .

فرأى خالدٌ من الخير أنْ يصالِحَ مُجّاعة ، فقال له : هلمّ لأصالحك على الصّفْراء والبَيْضَاء والحَلْقة ونصف السّبْى . فقال مُجّاعَة : الآن آتِى قومى فأعرض عليهم ما قد صنعت . قال خالد : فانْطَلِقْ إليهم ، فذهب وعاد فقال : أَبَوْا ما صالحْتك، ولكن إن شئتَ صَنَعتُ شيئاً . قال : ما هو ؟ قال : تأخذُ منّى ربع السَّبْىِ وتدَع رُبْعاً ، قال خالد : قد فعلْتُ ؛ قال مُجّاعة : قد صالحتُك .

فلمّا فرغا فُتِحَت الحصون ؛ فإذا فيها النِّسَاء والصبيان ومشيخةٌ فانيةٌ ، ورجال ضِعَافٌ ، فقال خالد لمجّاعة : وَيْحَك ! خَدَعْتَنِى ، قال : قومى ؛ ولم أَسْتَطِع إلّا ما صَنَعْتُ . فأجاز خَالِد الصُّلْح .

وحُشِرَ بنو حنيفة للبَيْعة والبراءةِ مما كانوا عليه ، وجِئَ بهم إلى خالد ، فبايَعُوا وأعلنوا رجوعَهم إلى الإسلام ، وبراءتهم من الرّدّة .

ثم بعث خالد وَفْدًا من بنى حنيفة إلى أبى بكر ، فقدموا عليه ، فقال لهم أبو بكر : وَيْحَكُمْ ! ما هذا الذى كان منكم ؟ قالوا : ياخليفةَ رسولِ الله ، قد كان الذى بلغك مما أصابنا ، وقد كان امرأً لم يبارك الله له ولا لعشيرته فيه .

٢٠ — يوم جُوَاثى *

كان يقيم فى البَحْرَيْنِ (١) قبائلُ مِنْ رَبيعة من بكر وتغْلِب ، وكانوا قد وفدوا على رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ فأمّر عليهم المُنْذِر بن ساوَى (٢) .

ثم حدث أن النبيّ صلى الله عليه وسلم والمنذر بن ساوَى اشْتَكَيَا فى شهر واحد ، ومات الرسول صلى الله عليه و سلم ؛ ثم مات المُنْذِر بعده بقليل ؛ فارتدّ أهلُ البَحْرين جميعاً عن الإسلام كما ارتدّ غَيْرهُم مِنْ سائر أنحاء شِبْهِ الجزيرة ، فأما بكر فإنها ثَبَتَتْ على رِدَّتِها ، وأما عبدُ قيس فإنهم رُزِقوا الجارود بن المعلَّى ، فثناهم عن ردَّتِهم .

وكان الجارُود قَدِم على النبيّ صلى الله عليه وسلم مُرْتَادا، فقال له : أَسْلِمْ ياجارود؛ فقال : إنَّ لى دِيناً ، فقال له الرسول : إن دينَك يا جارودُ ليس بشىء ، وليس بدِينٍ . فقال له الجارودُ : فإنْ أنا أسلمتُ ، فما كان من تَبِعَةِ الإسلام فعليك ؟ قال : نعم ، فأسْلم ، ومكث بالمدينة حتى فَقُهَ ، ثم عاد إلى قومه من عَبْد قَيْس ، فدعاهم إلى الإسلام فأَسْلَمُوا كلّهم ، ثم لم يلبَثْ أَنْ مات رسولُ الله ، فقالت عبدُ قيس : لو كان محمد نبياً لما مات ؛ وارتَدّ .

---

* للعلاء بن الحضرمى على ربيعة ، سنة ١١ . وجؤاثى : حصن لعبد القيس .
الطبرى ٣/٣٥٤ . ابن الأثير ٢/١٧٨ . فتوح البلدان ٨٩ .

(١) بلاد البحرين : شقة ضيقة من الأرض على خليج فارس ، وتتصل باليمامة فى جزئها الأعلى .

(٢) كان رسول الله صلى الله عليه وسلم وجه العلاء الحضرمى إلى البحرين ليدعو أهلها إلى الإسلام أو الجزية، وكتب معه إلى المنذر بن ساوى وإلى سيبخت ، مرزبان هجر ، يدعوهما إلى الإسلام أو الجزية ، فأسلما وأسلم معهما جميع العرب هناك وبعض العجم ، وأما أهل الأرض من المجوس واليهود والنصارى فإنهم صالحوا العلاء ، وكتبوا بينه وبينهم كتابا .

فبعث إليهم الجارُود، ثم قام فخطبهم ؟ فقال: يا معشرَ عبدِ القيْس ، إنّى سائلكم عن أمر ، فأخبرونى به إن علمتموه ولا تجيبونى إن لم تعلموا . قالوا : سَلْ عمّا بَدَا لك . قال : تعلمون أنه كان لله أنبياء فيما مضى ؟ قالوا : نعم ، قال : تعلمونه أو ترَوْنه ؟ قالوا : لا ، بل نعلمه ، قال: فما فعلوا ؟ قالوا : ماتُوا ، قال : فإنّ محمداً صلى الله عليه وسلم مات كما ماتوا ، وأنا أشهد أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً عبده ورسوله . قالوا : ونحن نشهدأن لا إله إلّا الله، وأن محمداً عبده ورسوله، وأنت سيّدُنا وأفضلُنا . وثبَتوا على إسلامهم .

وأما بقيّةُ قبائِلِ ربيعة فإنهم ثَبَتُوا على رِدَّتهم ، واجتمع رَأْيُهم على أن يُلقُوا بمقاليد المُلْك إلى المُنْذِر بن النُّعمان بن المنذر ، الملقب بالمغرُور .

عند ذلك خرج الُحطَم(١) بن ضُبَيْعَة ، فيمَن اتَّبعهُ من بكر بن وائل على الرِّدَّة، ومن تأشّب(٢) إليه من غيْرِ المرتدّين ؛ مِمَّن لم يزل كافرا حتى نزل القَطِيف وهَجَر ، ثم حاصَرَ ومَنْ معه مِنَ المسلمين فى جُوَأثى ، واشتدّ عليهم الحصَار ، حتى كاد يُهلِكُهم الجوع ، وفى ذلك قول شاعرهم :

ألا أبلغ أبا بكرٍ رَسُولًا … وفتيـانَ المدينة أجمعينا
فهل لكمُ إلى قومٍ كرامٍ … قُعود فى جُوَأثى مُحصَرِينا
كأنَّ دماءهم فى كلّ فجّ … شُعاعُ الشمس يَغْشَى النَّاظرِينا
توكّلنا عَلَى الرّحمن إنَّا … وَجَدْنا الصَّبْرَ للمتوكِّلينا

***

(١) قال البلاذرى : إنما سمى الحطم لقوله :

* قدْ لَفَّهَا اللَّيْلُ بسوَّاقٍ حُطَمْ *

(٢) تأشب : اجتمع .

وكان خالد بن الوليد قد قَضَى على مُسيلمة باليمامة وأتْباعه حين عقد أبو بكر للعَلاء ابن الحضرميّ اللّواء ، وأرسله لمحاربة المرتدّين من أهل البَحْرَيْن . فلمّا كان بِحِيَالِ اليمامة أسرع مَنْ عاد إلى الإسلام من بنى حَنِيفة ينضمّون إلى العَلاء حين مرّ باليمامة ، فلحق به ثُمامَة بن أُثَال الحنفىّ فى المسلمين من بنى حَنِيفة ، ثم قيس بن عاصم المِنْقَرِىّ ثم انضمّ إليه عمْرو بن حَنْظلة وسعد بن تميم والرِّباب وغيرُهم .

قال منجاب بن راشد : فسلكَ بنا العلاء الدَّهْناء ، حتى إذا كنّا فى بُحبوحتها ، وأراد اللهُ عزّ وجلّ أنْ يُرِيَنا آياتِه نزَل ، وأمَرَ الناسَ بالنّزول ، فنفَرَت الإبلُ فى جَوْفِ الليل ، فما بقىَ عندنا بَعيرٌ ولا زَاد ، فما علمتُ جَمْعاً هَجَم عليهم من الغمّ مِثْلَ ما هجم علينا ، وأَوْصَى بعضُنا إلى بعضٍ ، ونادى منادى العَلاء : اجتمعوا ، فاجتمعنا؛ فقال : ما هذا الذى ظَهر فيكم وغَلَب عليكم ؟ فقال الناس : وكيف نُلَام ونحن إنْ بلغْنا غداً لم تَحم شمسُه حتى نَصِير حديثاً ! فقال : أيها الناس ، لا تُرَاعُوا ! ألستمْ مسلمين! ألستم مجاهدين فى سبيل الله ! ألستم أنصارَ الله! قالوا : بلَى !قال: فَأَبْشِروا ، فوالله لا يَخْذُل اللهُ مَنْ كان فى مِثْلِ حالكم .

ونادى المنادى بصلاة الصبح حين طلع الفجر، فصلّى بنا، ومنا المتيمِّم ، ومنَّا من لم يزَلْ على طُهُوره . فلما قضى صلاته جثَا لِرُكْبتَيْهِ ، وجثَا الناسُ . فنَصَب[1] فى الدُّعَاء ؛ ونَصَبُوا معه ، فلمعَ لهم سرابُ الشمس ، فالتفت إلى الصّف فقال : رائدٌ ينظر ؛ ما هذا ، ففَعل ثم رجع ، فقال : سَرَاب ، فأقبل على الدُّعاء ، ثم لمع لهم آخر وآخر إلى أن وجَدُوا الماء، فقام الناس .

قال منجاب : فمشَيْنَا إليه حتى نزلنا عليه ، فشرِبْنَا واغتسلنا ، وما تعالَى النهارُ

---

(١) نصب : جد .

حتى أقبلت الإبل تَكْرُد(١) من كلّ وجــه ، فأناخت إلينا ، فقام كلّ رجل إلى ظَهْرِه فأخذه ، ثم أرْوَيْنَاها وأسقيناها العَلَل بعد النَّهَل(٢) ، وتروّينا ثم تروَّحْنَا .

وسار العَلاء بقومه حتى نزلوا بهَجَر ، وأرسل إلى الجارُودِ يأمره أن ينزل بعبد قيس على الحُطَم مما يَليه ، وسار هو فيمَنْ معه حتى نزل عليه مما يلى هَجَر. واجتمع المشركون كلُّهم إلى الحُطَم ، وخَنْـدَقَ المسلمون على أنفسهم وكذلك المشركون ؛ فكانوا يَتَرَاوَحُون القتالَ ، ويرجعون إلى خَندقهم ، وظلُّوا كذلك شهرا .

وبينا الناس ليلةً إذ سَمِعَ المسلمون فى عسكر المشركين ضَوْضاءَ شديدة ، كأنها هزيمةٌ أو قتال ، فقال العَلاء : مَنْ يأتينا بخبرِ القوم ؟ فقال عبدالله بن حَذَف: أنا آتيكم بخبرِ القوم ، ثم ذهب وعاد ، فأخـبرهم أنَّ القومَ سُكارى ، لا يملكُ أحـدُهم دَفْعـاً عن نفسه ، فخرج المسلمون مِنْ خَنادِقهم حتى اقتَحَمُوا عليهم عَسْكَرهم ، ووضعوا السُّيُوفَ فيهم حيث شاءوا ، وفرّ المرتدُّون هُرّابا ، فإذا هم بين متردٍّ فى الخَنْدق ودَهِشٍ مقتول أو مأسورٍ ، أو ناجٍ لا يعرف لنفسه مستقرًّا ؛ واستولى المسلمون على ما فى العسْكر ، لم يُفلِتْ رجلٌ إلا بما عليه .

وأما الحُطَم فإنه قد طارَ فُؤَادُه ، وقام إلى فَرَسِه ـ والمسلمون خلالَهم ـ ليركبه ، فلمـا وضع رجلَه فى الرِّكاب انقطع به ، فمرّ به عَفيف بن المنـذر فسمِعه يستغيث ويقول : ألَا رجلٌ من بنى قَيْس بن ثعلبة يَعْقِلُنى ! فعرف صوته ، فقال له : نعم ، أعطنى رِجْلَك أعْقِلْك ، فأعطاه رجْله فأَطَنَّها(٣) من الفخذ وتركه . فقال : أَجْهِز علىّ . فقال : إنى أحبّ ألا تموت حتى أُمِضَّك(٤) ـ وكان مع عفيف عدّة من ولد أبيه

---

(١) الكرد : الدفع والطرد .

(٢) النهل : أول الشرب ، والعلل : الشرب بعد الشرب .

(٣) أطنها : قطعها . (٤) أمضك: أؤلمك .

قُتلوا ليلتئذ ــ وجعل الحُطَمُ لا يمرُّ به فى الليل أحدٌ من المسلمين إلّا قال : هل لك فى الحُطَم أنْ تقْتله ! حتى مرّ به قَيْس بن عاصم المِنْقَرِىّ ، فقال له ذلك ، فمال عليه فقتله ، فلما رأى فخِذَه نادرةً(١) قال : وَاسْوءَتاه ! لو علمت الذى به لم أُحَرِّكه .

وأصبح العَلاء فقسّم الأنْفال ؛ ونفّل رجالا من أهل البـلادِ ثياباً ، وأعطى ثُمَامَة بن أُثَالٍ الحنفىّ خَمِيصَةً(٢) ذات أعلام كانت للحُطَم يُبَاهِى بها .

وفرّ الذين نَجَوْا من الموتِ أو الأسْرِ ، وركبُوا الشِّرَاعَ إلى دَارِين ، وهى جزيرةٌ من جُزُر الخليج الفارسىّ تُوَاجه البحرين ، كان بهـا أديارٌ خمسة لخمس شُعَب من النصارى ، فتركهم العَلاء بها حتى أَيْقَنَ أنّ من بَقِىَ بالبَحْرَيْن من القبائل قد رجعوا إلى دين الله ، وكان جيشه قد زاد عَدَدُه بمن انضمّ إليه من أهل البلاد ؛ عند ذلك أمر النَّاس بالذهاب إليها حتى لا يبقى لمُرتَدٍ فى الأرض مَلْجأ .

فركبوا السُّفن ، والتَقَوْا بأعدائهم فقتـلوهم ، وضرب الإســلام رِوَاقه فى تلك الأَنْحَاء .

وكتب العلاء إلى أبى بكر رِسالةً بهزيمة القوم ، وقَتْلِ الحُطَم يقول فيهـا : أما بعد ؛ فإنّ الله تبـارك اسْمُه سَلَبَ عدوّنا عقولَهم ، وأذهب ريحَهم ؛ بشرابٍ أصابوه من النهار ، فاقتحمنا عليهم خَنْدَقَهم فوجدناهم سُكارى ، فقتلناهم إلا الشّرِيد ، وقد قتل الله الحُطَم .

فكتب إليه أبو بكر : أما بعد ، فإنْ بلغَكَ عن بنى شيبان شىء ، فابعث إليهم جنداً ، فأوطِئْهم وشرِّدْ بهم مَنْ خَلْفَهم .

فلم يجتمعوا بعد .

---

(١) نادرة : مقطوعة . (٢) الخميصة : كساء أسود مربع له علمان .

٢١ — يوم صَنْعَاء*

كان بَاذَانُ عاملا للفُرْسِ على اليمن ، فلمّا أسلم وأَسلمت اليمنُ أقرَّه رسولُ الله صلى الله عليه وسلم على ما كان فى يده حتى مات ؛ وبعد وفاته جعلَ رسولُ الله ابنَه شَهْراً والياً على صَنْعَاء ، وولّى على بَقِيّةِ اليمن عُمَّالًا آخرين ؛ وجعل مُعاذ بن جبل مُعَلِّماً ينتقلُ فى كلّ ولاية من هذه الولايات .

وحدث قبل وفاةِ رسول الله أنْ قام رجل من عَنْس[1] ، اسمُه الأسود العَنْسىّ ، وكان كاهنا ، فتَنَبَّأَ ، وتابعه قومٌ من أعْراب اليمن ؛ فاشتدّ بهم ساعدُه ، واقتحم بهم بلادَ نَجْران ، فلم تلبث أن دَانتْ له ، ودَخَل فى أمرِه عَوَامُّ مَذْحِج[2] ، وكَثُر سَوَادُه ، وَأَمِر أَمرُه[3] .

ثم قصد صَنْعاء ، فنازل عاملها شَهْراً وقتله ، وهزم الأبناء[4] لخمس وعشرين ليلة من مَخْرَجِه ، ثم تزوّج بامرأةِ شَهْر بن بَاذَان ، وجعل أمْرُه يَسْتطير استطارةَ الحريق ، وصار لايَمِيلُ إلى قوم إلا دخلوا فى أمره ، أو صانعوه ، تَقِيَّةً[5] أو بقاء على أنفسهم .

فكتب عُمَّالُ رسولِ اللهِ إليه بشأن الأسْود وما يَصْنَع ، فأرسل عليه السلام كتاباً إلى مَنْ بِصَنْعَاء من الأبْنَاء ، يأمرهم فيه بالقيام على دينهم ، والنهوض إلى

* للمهاجر ابن أبى أمية وعكرمة بن أبى جهل ، على قيس بن عبد يغوث ، سنة ١١ . وصنعاء : عاصمة اليمن . الطبرى ٣/٢٦٢ ، ابن الأثير ١٨٣٣ .

(١) عنس : قبيلة فى قحطان . (٢) مذحج : قبيلة فى كهلان . (٣) أمر أمره : اشتد .

(٤) الأبناء : قوم من العجم سكنوا اليمن . (٥) تقية : خوفا .

الحرب ، والعمل فى أمْرِ الأسود ، إمَّا غِيلةً وإما مُصادَمة ، وأن يستعينُوا بكلِّ مَنْ رَأَوْا عنده نَجْدةً ودِيناً .

عمِل القومُ بأمْرِ الرسولِ ، ولـكنّهم رأوا الأمر مُسْتَصْعَباً عليهم ؛ لأنّ الرجـل قوىُّ المِرَاسِ .

وبينما هم على هذه الحال إذ عَلِمُوا بتغيُّر الأسودعلى قَيْس بن عبد يغوث المُرادىّ رئيس ِ جنده ، وعرفوا أنه قد خَبُثَتْ نِيَّتُه فيه ، وأضمر له الشرّ ، وأعلمه أنالوَحْىَ أتاه وقال له : إن المَلَك يقول : عَمَدْتَ إلى قَيْس فأكرمتَه ، حتى إذا دخل منك كلَّ مَدْخـل ، وصار فى العزِّ مِثْلَك ، مال مَيْلَ عدوّك ، وحاوَل مُلـكَك ، وأضمر الغَدْرَ لك ؛ إنه يقول : ياأسود ، ياأسود ، ياسوأة ! ياسوأة ! اقْطُف قُنَّتَه ، وخُـذْ من قَيْس أعلاه ، وإلّا سلَبك أوْ قَطَف قُنَّتَك .

فقال قيس ــ وأقسم به : كذب ، لأَنْتَ أعظمُ فى نفسى ، وأجلُّ عنـدى من أنْ أحدِّثَ بك نَفْسى ، فقـال الأسود : أتـكذِّبُ المَلَك ! قد صدق المَلَكُ ، وعرفتُ الآن أنكَ تائب .

انتهز الأبنـاء هذه الفرصة ، ودَعَوْا قيساً إلى مايَرَوْنَ من الفَتْكِ به ، فلَبَّى ، ثم أفضَوْا إلى آزاد امرأةِ الأسود ــ وقد كان تزوّجها بعـد شَهْر بن باذان ــ بأمرهم ، وقال : من لَقِيَها منهم : يابْنَةَ العم ؛ قد عرفتِ بلاءَ قومكِ عند قتْلِ زوجك ، فهل عندكِ من مُمالأةٍ على الأسود ، وإخراجه أو قتلِه ؟ قالت : نعم ، والله ماخلق اللهُ شخصاً أبغَضَ إلىَّ منـه ، مايقومُ لِله على حقّ ، ولا ينتهى عن حُرْمة . فإذا عزمتم فآذِنُونِى (١) .

---

(١) آذنونى : أعلمونى .

ثم جاء كتابُ رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الأبناء ، ووصل كتابُه إلى أهل نَجْران ، فانحازوا إلى ناحية ، يريدون قتالَ الأسود ، وكاتبوا مَنْ بصَنْعَاء من الأبْناء ليعينُوا عليه .

غير أنّ المؤتمرين بقَتْله من الأبناء عاجَلوه فقتلوه فى قَصْره ومالأتْهم زوجُه ، وما طلعَ الفَجْرُ حتى أعلنوا أمرهم ، وفرّ أصحابُه ، وجعلوا يترددون بين صنعاء ونَجْران ، وذهب الخبَرُ إلى المدينة وقد تُوُفِّىَ رسولُ الله .

وبموت الأسود ظَنَّ المسلمون فى صَنْعَاء وما وَلِيها أن جَوَّ البلاد قد صفا ، ولكن حين جاءهم خبرُ وفاةِ الرسول عادُوا إلى أشدَّ مِمَّا كانوا عليه من الرِّدَّة ، فبعث أبو بكر إلى مَنْ بَقِىَ على إسلامِه منهم يأمرُهم بالثبات على أمرِهم حتى تُوَافيَهم النَّجَدَات .

ثم حدث أن قيسَ بن عبد يغوث رئيسَ جُنْدِ الأَسود والعاملَ على قتلِه ، بادر إلى الرِّدَّة ، وكتب إلى المنهزمين من جُنْدِ الأَسْود ، فاجتمعوا إليه ، وأراد أن يَقْتُلَ رؤساء الأبناء ، فصنع وَليمةً دعاهُمْ إليها ، فلم يَظْفَرْ بأحدٍ منهم سوى دَاذَوَيْه ، وامتنع فَيْرُوز بقبيلة خَوْلان .

ثم استَتَبَّ الأمر لقَيْس بِصَنْعَاء ، وغرّب عِيالات الأبناء ، وانضمّ إليه عوامُّ القبائل من حِمْيَر ، ودَانَ له الأمرُ ، واطمأنّ بصنعاء ؛ كما اطمأَنَّ الأسودُ من قبل .

وعرف فيروزُ ما أصابَ بنى وطنِه ؛ فاستنهضَ القبائلَ التى بقيت على إسلامها لينصروه ، فأجابه بنو عُقيل بن ربيعة ، كما أجابته عَكّ ؛ وساروا يستَنْقِذُون عِيالَ الأَبْناء ، وخرج فيروزُ على رأسهم ، فنازل قَيْسًا دُونَ صنعاء ، وأجْلاه عنها ،

وخرج هارباً فى جُنْدِه إلى حيثُ انتهوا إلى المكان الذى كانوا فيه قبل مَقْتَلِ الأسود.

وفى أثناء هذا القتال وافَى جَيْشُ المسلمين يقودُه المُهَاجِرُ بنُ أبى أمية ، وجاء على أثَرِهِ عِكْرمة بن أبى جهل بجنوده ، بعد أن انتهى من عُمان ومَهْرَة ، وبِتَعَاوُنِ هــذه الجيوش هزم اللهُ المرتدِّين ، ومنح المسلمين أَقْفِيَتَهم ، وأُسِر قَيس بن عبد يَغُوث وعَمْرو بن مَعْدِيكرب ، وكان قد ارتدَّ وانضمَّ إلى قيس .

ولما جاء عمرٌو وقيسٌ أسِيرَيْن إلى أبى بكر ، أنَّب قَيْسًا على عمله وحقن دمَه ؛ ووبَّخ عَمْراً على ما كان منه ، وقال له : أمَا تَسْتَحِى أنَّك كل يوم مهزوم أو مأسور ؟ لو نصرتَ هذا الدينَ لَرَفَعَك اللهُ ! فقال : لا جَرَمَ ! لَأَقْبَلَنَّ ، ولا أعودُ .

فأَطْلَقَهُما ؛ ورَجَعا إلى قومهما مُؤْمِنَيْنِ .

٢٢ — يوم ذات السلاسل*

لما فَرَغ خالدُ بنُ الوليدِ من اليمامة كتب إليه أبو بكر يأمره أن يتوجّه إلى العراق بعد الفتح ، حتى يَلْقَى عِياضاً . وكتب إلى عِياض[١] بن غَنْم — وهو بين النِّبَاج[٢] والحجاز : أن سِرْه حتى المُصَيَّخ[٣] ، فابْدَأْ بهــا ، ثم ادْخُلِ العراقَ من أَعْلَاها حتى تَلْقَى خالداً ، وأْذَنا لِمَنْ شاء بالرُّجوع ، ولا تَسْتَفْتِحا بِمُتَــكَارِه .

ولما قدم الـكتاب على خالدٍ وعِياض اسْتَمَدَّا أبا بكر ؛ فأمدّ خالداً بالقَعْقاع بن عَمْرو التميمي[٤] ؛ فقيل له : أتمدّ رجلًا قد انفضّ عنه جنودُه برجل ! فقال : لا يُهزَم جيش فيهم مثلُ هــذا. وأمدّ عياضاً بعبد بن عَوْف الحِمْيَرِيّ . وكتب إليهما : أن اسْتَنْفِرا مَنْ قاتلَ أهلَ الرِّدَّة ومن ثبتَ على الإسلام بعد رسولِ الله صلى الله عليه وسلم ، ولا يَغْزُوَنَّ معكم أحدٌ ارتدّ حتى أرى رَأْيِي ، واستَنْصِرَا بالمثَنَّى بن حارثة ؛ فلم يشهد الأيّامَ بالعراق مُرْتَدٌّ .

---

* لخالد بن الوليد على هرمز . المحرم سنة ١٢ . وسميت ذات السلاسل ، لأن الفرس اقترنوا فى السلاسل حتى لايفروا . أو لأن ماجمعه خالد من غنائمهم من السلاسل كان وقر بعير . وبعض المؤرخين يسميه يوم كاظمة ؛ نسبة إلى أقرب قرية من المـكان الذى وقع فيه .

الطبرى ٢/٤ ، ابن الأثير ١٨٧/٣ ، فتوح البلدان : ٢٤٢ ، ابن خلدون ٧٨/٣ .

(١) عياض بن غنم : قرشي فهرى ؛ هاجر الهجرة الثانية إلى الحبشة ، وشهد بدراً وأحــداً والخندق وكثيراً من المشاهد . مات بالمدينة سنة ٢٠ .

(٢) النباج : موضع ، على بعد عشر مراحل من البصرة .

(٣) المصيخ : موضع ، على آخر حدود الشام ؛ مما يلى العراق .

(٤) القعقاع بن عمرو من تميم ، كان أحد فرسان العرب وشعرائهم ، وكانت له صحـبة ، شهد فتوح الشام وأكثر فتوح العراق . قال له رسول الله صلى الله عليه وسلم يوماً : ما أعددت للجهاد ؟ قال : طاعة الله ورسوله والخيل .

وكان المُثَنَّى(١) قدم على أبى بكر ؛ فقال : أمِّرْنى على مَن قِبَلى من قومى ، أُقاتل من يَلينى من أهل فارس ، وأكْفيك ناحِيتى ففعل ذلك ، فجمَّع قومَه ، وأخذ يُغير بناحية كَسْكَر(٢) مَرَّةً ، وفى أسفل الفُرات مرّة ، إلى أن نزل خالد النِّبّاج فى طريقه إلى حَرْب الفُرْسِ ، فكتب إليه يَسْتَقْدِمُه ، وبعثَ إليه بكتابِ أبى بكر ، يأمرُه فيه بطاعته ، فانقضّ إليه جَوادًا حتى لحق به .

ثم قصد ـ كما أمر أبو بكر ـ الأُبُلَّة ، وقد جمع ثمانية آلاف من ربيعة ومُضَر مع ألفين ممَّنْ كانَ معه ، وكانت الأُبُلَّة الثغرَ الذى تسير التجارةُ منه إلى الهند والسِّند ، وهى أعظمُ ثُغُورِ فارس شأْنًا ، وأشدُّها شوكة ، وكان هُرْمُز أميرَ هذه المنطقةِ كلِّها مِنْ قِبَل فارس ، وهو من أَسْوَأ أُمراء الفرس مُعامَلَةً للعرَب ، فكلّ العرب عليه مَغيظ مُحنَق ، حتى ضربُوا به المَثَل فى الُخبْث والكفر ، فكانوا يقولون : أَخْبَث من هُرْمُز .

ولما شارف خالد الأُبلّة كتب إلى هُرْمُز : أما بعد فأَسْلِم تَسْلَمْ ، أو اعْتَقِدِ لنفسك وقومك الذِّمَّة ، وأَقْرِرْ بالجِزْية ؛ وإلا فلا تلومَنَّ إلا نفسَك ، فقد جِئْتُك بقوم يحبُّونَ الموتَ كما تُحِبُّونَ الحياة .

ثم فَرَّقَ جندَه ثلاثَ فرق ، ولم يحملهم على طريقٍ واحدة ، فسرَّح المُثَنَّى قبْلَهُ بيومين ودليله ظَفر ، وسَرَّح عدىّ بن حاتم وعاصم بن عمرو ، ودليلاهما مالك

---

(١) المثنى بن حارثة : ينتهى نسبه إلى شيبان ، كان إسلامه وقدومه على الرسول سنة تسع وكان شهما شجاعا ميمون النقيبة حسن الرأى ، أبلى فى حروب العراق بلاء لم ينله أحد . مات سنة ١٤ قبل القادسية .

(٢) كسكر : كورة واسعة بين الكوفة والبصرة .

ابن عبّاد وسالم بن نصر ؛ أحدُهما قَبْلَ صاحبه بِيَوْم ، ثم خرج خالد ودليلُه رافع ؛ وواعدهم جميعاً الحَفِير(١) ، ليجتمعوا به ، وليُصَادِمُوا به عَدُوَّهم .

ولما قدم كتابُ خالد إلى هُرْمُز كتب بالخبر إلى شيرى بن كسرى ، وإلى أَرْدَشِير بن شيرى ، وجمع جموعَه ، ثم تعجّل إلى كاظِمَة(٢) فى سَرَعان(٣) أَصْحا بِه ليتلقّى خالداً . ولمّا بلَغَه أنهُمْ تواعَدُوا الحَفِير، نزل وتعبّى به ، وجعلَ على مُجَنِّبَتَيْه(٤) أَخَوَيْهِ قُبَاذ وأَنُوشَجَان .

فلما أتى الخبر خالداً بأن هُرْمُزَ فى الحَفِير ، أمالَ الناسَ إلى كاظمة ، وبلغَ هرمزَ ذلك فبادره إلى كاظِمَة ، وتعبّى مع أَصحا بِه ، واقترنوا فى السَّلَاسل والماء فى أيديهم ، وقَدِم خالدٌ عليهم ، فنزل على غيرِ ماء ؛ فقالوا له فى ذلك ؛ فأمر منادِيَهُ فنادى : ألا انزِلُوا وحُطُّوا أَثْقَالَكم ؛ ثم جَالِدُوهم على الماء ، فلَعَمْرِى ليصيرَنَّ الماء لِأَصْبَرِ الفريقين ، وأَكرمِ الجندين . فَحُطَّت الأثقالُ والخيلُ وقوفٌ ؛ ثم زحَفَ إليهم حتى لاقَاهُمْ ؛ فاقتتلوا ؛ وأرسل اللهُ سحابةً فأغدرت ما وراء صفِّ المسلمين .

ثم خرج هُرمز فنادى إلى النِّزال ، فمشى خالدٌ إليه ، فالتقيا واختلفا ضربَتَيْن ، واحتضنه خالد ؛ فشدَّ أهلُ فارس يريدون قَتْلَ خالد واستخلاصَ هُرمز مِنْ يَدِه ، ولكنّ القَعْقَاع بن عمرو لم يُمْهِلْهُمْ وحمل عليهم ، وشدَّ المسلمون ، فانهزم أهلُ فارس أمامهم ، فطاردوهم وركبوا أكتافَهم إلى الليل .

وجمع خالد الرِّثَاث(٥) وفيها السَّلَاسل ، فكانت وِقْرَ(٦) بعير ، ألفَ رطل ، وأَفْلَت قُبَاذ وأَنُو شَجَان .

---

(١) الحفير : موضع بين مكة والبصرة .

(٢) كاظمة : على سيف البحرين من البصرة ؛ بينها وبين البصرة مرحلتان .

(٣) سرعان أصحابه : مقدمهم .

(٤) المجنبة : مقدمة الجيش .

(٥) الرثاث : جمع رثة ؛ وهى المتاع . (٦) الوقر ، بالكسر : الحمل الثقيل .

ولما تراجَعَ الطلبُ نادى منادِى خالد بالرَّحيل ، وسار بالناس ، واتّبعته الأثقال حتى نزل بموضع الجسر الأعظم من الفرات ــ حيث تقع البصرة اليوم ــ وسَبَى أولاد المقاتلة ، وأقرّ مَنْ لم ينهض من الفلاحين ، وجَعَلَ لهم الذِّمَّةَ ، وبلغ سَهْمُ الفارس فى يوم ذات السلاسل ألفَ دِرهم خَلَا السلاح .

وما بَقِيَ من الغنائم أرسله خالدٌ إلى أبى بكر . وكان أهلُ فارس يَجْعَلُون قَلَانِسَهم على قدر أحسابهم فى العشائر ، فمَن تمّ شَرَفُه فقيمة قلنسوته مائةُ ألف ؛ وكان هرمز أَمِيرَ الأُبُلّة ممن تمّ شرفُه ، فكانت قيمة قلنسوته مائة ألف ، ولمّا أُرْسِلت إلى أبى بكر- نَفَّلَها خالداً ، وكانت مُفَصَّصَةً بالجوهر(١) .

---

(١) كان مما بعثه خالد إلى أبى بكر فى المدينة فيل أخذه المسلمون فى الموقعة ، ولم يكن أهل المدينة رأوا فيلا فى حياتهم ؛ بل لم تر بلاد العرب كلها فيلا قبل ذلك ؛ إلا فيل أبرهة حين حاول فتح الكعبة ، فلما طاف قائد الفيل به فى المدينة عجب أهلها لمنظر الحيوان الضخم ، وتولى بعضهم الريب فى أمره . بل لقد جعلت ضعيفات النساء يقلن : أمن خلق الله هذا ! . وخيل إلى بعضهن أنه من صناعة الفرس ، ورأى أبو بكر أنه لا نفع فيه ، فرده إلى العراق مع قائده .

٢٣ — يوم الثِّنْى *

كان هُرْمز كتب إلى أردشير بأَمْرِ خالد وكتابه ، ومَسِيرِه إليه من اليمامة ، فدعا إليه قارن بن قريانس ، أحدَ الأمراء الذين تمّ شرفُهم ، وجعله على رأس قوةٍ سارت مَدَدًا لِهُرْمز .

فخرج قَارِن من المدائن ؛ حتى إذا انتهى إلى المَذَار بلغتْه الهزيمة ، وقابله المنهزمون ؛ فاستوقفهم ، وتحدَّث إليهم ، وبعث السكينةَ إلى نفوسِهم ، وضمَّهم إلى جيشِه ؛ فقال بعضُهم لبعض : إن افترقتُم اليومَ لم تجتمعوا بعدها أبداً ؛ فاجْتَمِعُوا على العَوْدِ مرّةً واحدةً ، فهذا مَدَدُ المَلِك ، وهــذا قارن ؛ لعلّ الله يُدِيلُنا[1] ويَشفِينا مِنْ عدوِّنا ؛ ونُدْرِك بعض ما أَصابُوا مِنّا . ففعلوا ، واستعمل قارن على مُجَنِّبَتَيْه قُباذ وأَنُوشرْوان .

وأَرَزَ[2] المثنى بن حارثة الشيبانىّ وأخوه المُعَنّى إلى خالد بالخبر ، بعد أن انتهى من يوم السَّلاسِل ، وقالا له : إن القومَ قد اجتمعوا بالثِّنْى : المُغِيثَ والمُغَاثَ .

فخرج خالدٌ سائراً حتى نزل المَذَار على قَارِنَ فى جموعه ؛ واقتتلوا على حَنَقٍ وحَفيظَة ، وخرج قارنُ يدعو إلى البِرَاز ؛ فبرز له خالدٌ وقتله ، ثم قتل الأنوشجان وقُباذ ؛ وهُزِمَتْ فارسُ هزيمةً عظيمة .

---

* لخالد بن الوليد على قارن بن قريانس (من الفرس) ، صفر سنة ١٢ ، والثنى : نهر فى المذار . والمذار : بلد بينها وبين البصرة أربعة أيام إلى الشمال بالقرب من واسط ، وتسمى أيضا وقعة المذار .

الطبرى ٤/٧ . ابن الأثير ٢/١٨٨ . معجم البلدان ٣/٢٥ ابن خلدون ٢/٧٩ .

(١) يديلنا : ينصرنا .
(٢) أرز : رجع .

وبعد انتهاء الموقعة ، سلّم خالد الأَسلابَ لِمَنْ سلبها ، بالغةً ما بلغت ، وقسّم الفَيْءَ ، ونَفَّل من الأخماس أَهْلَ البلاء ، وزاد سَهْمُ الفارس فى يوم الثِّنْى على سهمه فى يوم ذات السلاسل .

وبعث بِبَقِيَّةِ الأَخْمَاسِ ، ووفَّد وَفْدًا مع سعيد بن النعمان إلى أبى بكر .

ثم أقام خالد بالمَذَار يَسْبى عِيَالَات المُقَاتِلَة[1] وَمَنْ أعانهم ، وأقرّ الفَلَّاحين ومَنْ أَجَاب إلى الخراج .

ووَلّى العُمَّالَ على الجِبَايَةِ ، وأقام مَكانه يَتَجَسَّسُ الأَخْبَار .

---

(١) كان ممن سبى فى هذه الموقعة حبيب أبو الحسن البصرى، وأبوزياد مولى لمغيرة بن شعبة.

٢٤ — يوم الوَلَجة*

لما فرغ خالدٌ مِن الثِّنْى ، وأتى الخبرُ أَرْدشير اتّجه تفكيرُه إلى الاستعانة على العرب بالعرب ، وكان يطمئنّ إلى وَلَاء قبائل عربية كثيرة ؛ منها جماعات من بكر بن وائل ؛ فدَعاهم وجعل عليهم قائداً منهم ووجَّههم إلى الوَلَجة وبعث الأندرزغَر — وكان فارسيًا من مولَّدى السَّوَاد — وأرسل بَهْمن جَاذَوَيْه فى أثَره فى جيش عظيم ، وأمره أَنْ يعْبُرَ طريق الأندرزغر ، فالتقت جنودُهما بالوَلَجة ، وعسكروا فيها .

ولما بلغ خالداً خَبَرُ الأندرزغر ونزولُه الوَلَجة نادى بالرَّحِيل ، وتقدَّم إلى من خَلَّف من قُوّاده وجنوده ، وأمرهم بالحَذَر وقِلّة الغَفْلَةِ وتَرْكِ الاغترار ، وخرج سائراً فى جيشه حتى بلغ الوَلَجة ، والتقَتْ جنودُ المسلمين بجنود الأعاجم وَجْهاً لِوَجْه .

وكان خالد قد أَمَّرَ اثنَيْن مِنْ أمراء جنده أَنْ ينفصلوا أثناءَ السير عنه ، وأن يكمنوا وراءَ العدوّ ؛ فيأخذوه أثناء القتال على غِرّة ، لكنَّ هذا الكَمِين تأخَّر فلم يظهر حين كانت صفوفُ المقاتلين تترجّح ؛ متقدمة طوراً ومتراجعة طوراً .

واشتدّ القتالُ ، وظنَّ الفَرِيقان أنّ الصَّبْرَ قد نفد ، وأن المعركة لن تنتهى إلى غاية .

وبينما هم كذلك خرج الكَمِينُ فى وجهين ، فانهزمت صفوفُ الأعاجم وولَّوْا

---

* لخالد بن الوليد على الأندرزغر (الفرس) . صفر سنة ١٢ ، والولجة : من أرض كسكر فى الشمال من المذار .

الطبرى ٤/٨ ، ابن الأثير ١٨٨/٢ ، ابن خلدون ٧٩/٢ ، معجم البلدان ٤٣٣/٨ .

وأخذهم خالد مِنْ بين أيديهم ، والكَمِينُ مِنْ خَلْفِهم ، فلم يرَ رجلٌ منهم مقتلَ صاحبِه ؛ ومَضَى الأندرزغر فى هزيمته ، فمات عطشاً .

وقام خالد فى الناس خطيباً ، يرغّبهم فى بلادِ العجم ، ويُزَهّدهم فى بلاد العرب ، وقال : ألا ترون إلى الطعام كرَفْغِ(١) التراب ! وبالله لَوْ لَمْ يلزمنا الجهادُ فى الله ، والدُّعاء إلى الله عز وجلّ ولم يكن إلا المعاش ، لكان الرأى أن نُقَارِعَ على هذا الرِّيف ، حتى نكونَ أولى به ، ونُوَلِّىَ الجوعَ والإقلالَ مَنْ تولّاه ، مِمَّن اثّاقلَ عَمَّا أنتم عليه .

ثم سار فى الفلاحين بسيرته فلم يقتلهم ، وسبَى ذَرَارِىّ المقاتلة ومَنْ أعانهم ، ودعا أهل الأرض إلى الجزاء(٢) والذِّمَّة ، فتراجعوا .

---

(١) الرفغ هنا : الأرض الكثيرة التراب ، يقال: جاء فلان بمال كرفغ التراب ، أى فى كثرته

(٢) الجزاء : جمع جزية ، وهى خراج الأرض مما يؤخذ من الذمى .

٢٥ — يوم أُلَيْس*

كان خالد بن الوليد قد أصاب يوم الوَلجَة مِنْ نَصَارى بَكْر بن وائل ؛ الذين أعانوا أهلَ فارس . فغضِب لهم نصارى قَوْمِهم ، وكاتبُوا الأَعَاجم ، وكاتبتهم الأعاجم ، فاجتمعوا إلى أُلَيْس ، وعليهم عبد الأسود العِجْليّ ، وساندَه جابر بن بُجَير ، ومالك بن قيس .

وبلغ ذلك أَرْدَشير ، فكتب إلى بَهْمن جاذَوَيْه : أن سِرْ حتى تقدم أُلَيْس بجيشك إلى مَنِ اجتمع بها من فَارس ونَصارى العرب .

فانطلق بَهْمَن إلى أَرْدَشير ليَسْتأْمِرَه فيما يريدأن يشير به ، وقدَّم جابان ، وأمره أنْ يحثَّ السيرَ إلى أُلَيْس ، وقال له : كَفْكِفْ نفسَك وجندَك مِنْ قتالِ القومحتى أَلْحَقَ بك ، إلَّا أن يُعْجِلُوك .

نزل جابان أُلَيْس ، واجتمعت إليه المَسَالِح[1] التى كانت بإزاء العرب ، وانضمَّ إليه النصارَى الَّذين كاتبُوا الأعاجم من بَكْر ، وجعل يُدَبِّر أمورَ القتال .

ولم يكن خالدٌ قد وقف على نَبأ جابان وجنود فارس ، وإنَّما بلغه ما كان من تَجَمُّعِ العرب النصارى بأُلَيْس ؛ فَنَهَد[2] لهم .

---

* لخالد بن الوليد على بهمن جازويه (الفرس) . صفر ١٢ . وأليس : قرية من قرى الأنبار فى منتصف الطريق بين الحرة والأبلة .

الطبرى ٤/٩ ، ابن الأثير ٢/١٨٩ ، ابن خلدون ٢/٧٩ ، معجم البلدان ١/٣٢٨ .

(١) المسالح : جمع مسلحة ، والمسلحة : القوم ذوو سلاح . وقد تطلق على الثغر .

(٢) نهد : نهض .

فلما طلع جَابَان بأُلّيس قالت الأعاجم لجابان : أَنُمَاجِلهم أم نُغَدِّى القوم ، ولا نُريهم أنّا نحفِل بهم ، ثم نقاتلهم بعد الفَرَاغ ؟ فقال جابان : إن تركوكم فتهاونوا ؛ ولكن ظَنّى بهم أنهم سَيُعْجِلونكُمْ ويُمَاجِلونكم عن الطعام ؛ فعصوْه وبسطوا البُسُط ، ووضعوا الأطعِمة ؛ وتوافَوْا إليها .

. فلما انتهى خالدٌ إليهم، وقف وأمر بحطّ الأثقال ؛ فلما وُضِعت توَجَّه إليهم ، ووكّل حَوَامىَ يَحْمُون ظَهْرَه ؛ ثم نَدر(١) أمام الصف ، فنَادى : أين أَبْجَر ؟ أين عَبْد الأسود ؟ أين مالك بن قيس ؟ فنَكَلُوا(٢) عنه جميعا إلّا مالكا ، فبرز له ، فقال له خالد : يابْنَ الخبيثة ! ماجرّأكَ علىَّ مِنْ بينهم ، وليس فيك وفاء ! ثم ضربه فقتله ، وأَجْهَض(٣) الأعاجمَ عن طعامهم قبل أن يأكلوا . فقال جابان : ألم أَقُلْ لكم ياقوم ! أما والله مادخلتنى من رئيس وَحْشَةٌ قطّ حتى كان اليوم ، فقالوا — حيث لم يقدرُوا على الأكل — تجلُّداً : ندَعُه حتى نفْرغَ منهم ؛ ثم نعود إليه .

وجعل جابان على مُجَنِّبَتَيْه عبد الأسود وأبْجَر ، وخالد على تَعْبِئَتِه فى الأيام التى قبلها ؛ فاقتتلوا قتالاً شديداً ، والمشركون يزيدهم كَلَباً(٤) وشدّةً ما يتوقّعُون من قدوم بهْمَن جاذَوَيْه ، وصبَرُوا لِلمُسْلِمِين وصابَرُوا حتى يجيئهم المدد ؛ ورأى خالدٌ صبرَهم وقوة تَجَلُّدِهم لبأسه ، وإن لم يعرف باعثهم على هذا وذلك ، وترجّحت الموقعةُ حينا ؛ فتوجّه خالدٌ إلى ربه يَسْتَنْصِرُه ويقول : اللهمّ إن لكَ علىَّ إن مَنحْتَنَا أكْتافَهم ألّا أستبقِىَ منهم أحدا قدَرْنا عليه ، حتى أُجْرِىَ نهرهم بدمائهم !

ولم يَدَرْ خالدٌ أثناءذلك لونامن ألوان المُدَاوَرَة إلّا ضيّق به الخناقَ على أعدائه؛ فلمّا عِيلَ صبرُهم وتداعَتْ قوّتهم ، ولم يَبْقَ لهم من الهزيمة مفرٌّ تحطّمت صفوفهم ،

---

(١) ندر من بين القوم : ظهر . (٢) نكل : نكص وجبن .
(٣) أجهضهم عن طعامهم : أعجلهم . (٤) الكلب : الحرص والشدة .

وانقلبوا على أعقابهم ، يسارِعون إلى الهرب ، ولا مأْربَ لهم إلا النَّجاة .

ثمَّ أمر خالدٌ مناديَه فنادى فى الناس : الأسر ، الأسر ! لا تقتلوا إلا من امْتنع . فأقبلت الخيول بهم أفواجاً مُسْتَأْسِرين[1] ، يساقون سوق النَّعَم ، وقد وكّل بهم رجالا يضربون أعناقَهم فى النهر ، ففعل بهم ذلك يوماً وليلة ؛ والنهرُ لا يجرى دَماً؛ فقال له بَعْضُ أصحابه : لو أنك قتلتَ أهل الأرض لم تجْرِ دماؤُهم ؛ إنّ الدماء لا تَزيد على أنْ تترَقْرَقَ منذ نُهيَتْ عن السَّيلان ، ونُهيتِ الأرض عن نشف الدماء ، فأَرْسِلْ عليها الماء تَبرَّ يمينك ــ وقد كان صدَّ المــاءَ عن النهر فأعاده ــ فجرى دماً عبيطاً[2] ، فسُمِّى نهر الدم لذلك الشأن إلى اليوم[3] .

ولما هُزِم القوم وأُجْلُوا عن عسكرهم ، ورجع المسلمون من طلبهم ، وقف خالد على الطعام فقال : قد نَفَّلْتُكموه فهو لكم ، فقَعَد عليه المسلمون لعشائهم بالليل ، وجعل من لم يعرف الرّقاق يقول : ما هــذه الرِّقاع البيض ؟ وجعل مَنْ عرفها يُجيبهم ويقول لهم مازحا : هلْ سمعتُم برقيق العيش ؟ فيقولون : نَعم ؛ فيقول : هُو هذا !

وبعث خالد بالخبر إلى أبى بكر مع جَنْدل العِجْلِىِّ ، فقدم على أبى بكر بالخبر ، وبفتح أُلَيْس ، وبقدر الفَىْء ، وبِعِدَّة السَّبْى ، وبما حصل من الأخماس ، وبأهل البلاء من الناس ؛ فلما قدم على أبى بكر ورَأَى صرامتَه ، وقال له : ما اسْمُك؟ قال : جندل ، قال : وَيْهاً يا جندل :

نفسُ عِصامٍ سوَّدَتْ عِصَاما ... وعوّدته الكرَّ والإقداما[4]

وأمر له بجارية من ذلك السَّبى .

---

(١) أى يعرضون أنفسهم للأسر . (٢) عبيطا : طرياً .

(٣) روى الطبرى أنه كانت على النهر أرحاء ، طحنت فى ثلاثة أيام قوت ثمانية عشر ألفا من الجند والماء من تحتها يتدفق أحمر قانيا . (٤) البيت للنابغة الذبيانى ، ديوانه ١٠٦ .

٢٦ – يوم الحِيرَة*

لما فرغ خالدٌ من يوم أُلَّيْس أتى أَمْغِيشْيَا(١) ، فوجد أن أهلَها قد جَلَوْا عنها ، وتفرّقُوا فى السَّوَاد(٢) ، فأمر بِهَدْمِها ، وإزالةِ كلِّ شىء كان فى حَيِّزِها ، فأصابَ منها ما لم يُصِبْ مِنْ غيرها ، حتى بلغ سَهْمُ الفارس ألفاً وخمسمائة ، سوى النَّفَل(٣) الذى نُفِّلَه أهلُ البَلاء .

وكان الآزاذبه مَرْزُبَانَ(٤) الحِيْرَة فى ذلك الحين ، فلمّا علم بأخبار أُلَّيْس وخَراب أَمْغِيشْيَا وانتصار خالد عندها ، وفعاله فيهما ، أَيقن أنه غيرُ متروك، وقدَّر أنَّ خالداً سيركبُ إليه النَّهْر ، فتهيَّأ لحرْبه ، وقدّم ابنه، وأمره أن يَسُدّ قناطر الفُرَات ليعوّقَ بذلك سَيْرَ السفن إليه ؛ ثم خرج فى إثْرِه حتى عسكر خارجاً من الحِيرَة .

ولما استَقَلّ(٥) خالد مِنْ أَمْغِيشْيَا ، وحَمَلَ الرَّجْل(٦) فى السُّفن، وسار شمالا إلى ناحيةِ الحِيرَة جَنحتَ(٧) السفنُ ، وارتَطَمَتْ بقاع النهر ؛ فارتاع المسلمون لجُنُوحِها، وأَخذ الغضَبُ مِنْ خالدٍ مَأْخَذَه ، ثم سأل عن عِلّة ذلك ، فقال المَلَّاحون : إن أهلَ فارس فجَّرُوا الأنهار، فسلَكَ الماء غيرَ طريقِه ؛ فلن يأتينَا الماء إلا بسدِّ الأنهار .

---

* لخالد بن الوليد على أهل الحيرة ، ربيع الأول سنة ١٢ ، والحيرة : موضوع على ثلاثة أميال من الكوفة، على موضع يقال له النجف .

الطبرى: ٤ – ١١، ابن الأثير : ٢–١٨٩ ، ابن خلدون: ٢ – ٨٠ ، فتوح البلدان : ٢٤٥

(١) أمغيشيا ، كانت مصراً كالحيرة ، وكانت أليس من ثغورها .

(٢) السواد : قرى العراق . (٣) النفل : الغنيمة والهبة . ونفله : أعطاه النفل .

(٤) المرزبة كمرحلة : رياسة الفرس ، وهو مرزبانهم . (٥) استقل : رحل .

(٦) الراجل : ضد الفارس ، جمعه الرجل ، كصاحب وصحب .

(٧) جنحت السفينة : انتهت إلى الماء القليل فلزقت بالأرض فلم تمض .

فتعجَّلَ خالد فلقِىَ ابنَ الأزاذبه على فَم العَتيق ، وفَجَأه وجندَهُ وهم آمِنُون فى تلك الساعة ، فاقتتلوا حتى هزمهم ، وقتل ابنَ الأزاذبه ؛ وأعاد الماء يجرى فى النهر ، فعادت السُّفنُ إلى المسير ، وحملت إليه جيشَه ، فسار بهِ إلى الخَوَرْنَق والنَّجَف .

وكان الأزاذبه يُقيمُ بمسكره بين الغرِيَّيْن[1] والقَصْرِ الأبيض ، فبلغه موتُ أَرْدشير ، ثم علم بموتِ ابْنهِ ، وزحْفِ خالد نحو الخَوَرْنَقِ ؛ فولّى هارباً من غير قتال .

ووصل خالدٌ وأصحابُه فلم يَلْقَوْا عسكرا ؛ فأقاموا بين الغرِيَّيْنِ والقصر الأبيض ، وأهلُ الحيرة مُتَحَصِّنُون .

فأدخَل الخيلَ مِنْ عسكره ، وأمَرَ بكلِّ قصْرٍ رجلًا من قُوَّاده يحاصرُ أهلَه ويقاتِلُهم ؛ فكان ضِرار بن الأزْوَر محاصِراً القصر الأبيض ، وفيه إياسُ بن قَبيصة الطائىّ ، وكان ضِرَار بن الخطاب محاصِراً قَصْرَ العَدَسِيِّين وفيه عدىّ بن عدىّ ، وكان ضِرَار بن مُقَرِّن محاصراً قصْرَ بنى مازن ، وفيه ابنُ أَكَّال ، وكان المُثَنَّى محاصِراً قصرَ ابنِ بُقَيْلَة ، وفيه عمْرُو بن عبد المسيح ، وعَهِدَ إليهم جميعاً أن يبدءوا بالدُّعاء ، فإن أجابوا قَبِلُوا منهم ، وإن أبَوْا أجَّلُوهم يوما ، ثم قاتلوهم وقتلوهم .

فكان أوّل القواد الذين أنشبوا القتالَ بعد تأجيلهم يوماً هو ضِرار بن الأزْوَر ، وكان على قتال أَهْلِ القصْرِ الأبيض ؛ فأصبحوا وهم مُشْرِفون ؛ فدعاهم إلى إحدى ثلاث : الإسلام ، أو الجزاء[2] ، أو المُنَابَذَة[3] . فاختاروا المُنابَذَة ، وتنادَوْا : عليكم بالحصا ، فقال ضرار : تنحَّوا ؛ لا ينالكم الرَّمْى ، حتى نَنْظُرَ فى الذى هَتَفُوا به . فلم يلبثْ أن امتلأ رأسُ القَصْر من رجالٍ مُعَلِّقى المَخَالِى[4] ؛ يرمون المسلمين بالحصا ،

---

(١) الغريان : بناءان كانا معروفين بالكوفة .

(٢) الجزاء : جمع جزية . (٣) المنابذة : تحيز كل من الفريقين للحرب .

(٤) المخالى : جمع مخلاة .

فقـال ضرار : ارْشُقوهم ؛ فدنَوْا منهم فرشَقُوهم بالنَّبْـل ، وصَبّح كلُّ أميرٍ أصحابَه بمثل ذلك .

فافتحوا الدُّور والدِّيَرات وأكثروا القتلَ ، فنادى القسّيسون والرُّهبان : ياأهْل القصور ؛ ما يقتُلنا غيركم ! فنـادى أهلُ القصور : يا معشرَ العرب؛ قد قبِلْنا واحدةً مِن ثلاث ، فكُفُّوا عنّا حتى تُبَلِّغُونا خالـدا ، فكَفُّوا عنهم وأرسلوهم إلى خالِد .

فخلا خالدٌ بأهلِ كلِّ قصرٍ منهم دون الآخرين ، وبدأ بأصحابِ عديّ وقال : ويْحَـكُمْ ! ما أنتم ! أعَرَبٌ ؟ فما تَنقِمُون من العرب ! أم عَجم ! فمـا تنقِمون من العَدْلِ والإنصاف ! فقال له عديّ : بل عَرَبٌ عـارِبَة ؛ وأخرى مُتَعرِّبة ، فقال : لو كنتم كما تقولون لم تحادُّونا(١) وتَـكْرَهوا أمْرَنا .

فقال له عديّ : يَدُلُّكَ على ما نَقُول أنّه ليس لنا لسانٌ إلا العربية ، فقـال خالد : اختارُوا وَاحِدةً من ثلاث : أَنْ تدخلوا فى ديننـا ؛ فلَـكُمْ ما لَنَا وعليـكم ما علينا ؛ أو الجِزْية ، أو المُنابَذَة والمُناجَزَة(٢) ، فقد أتيتُـكم بقوم هم على الموت أَحْرَصُ منكم على الحيـاة . فقال : بل نُعْطيك الجِزية ، فقال خالد : تبًّا لـكم ! وَيْحَـكم ! إنّ الـكفرَ فَلاةٌ مَضَلَّة(٣) ، فأحْمَقُ العرب مَنْ سَلَـكها ، فلَقِيه دليلان ؛ أحدهما عربىّ فتركه واستدَلّ(٤) الأعجمىّ .

ولم يُغيِّرْ هـذا الـكلامُ مِنْ إصْرَارِ القومِ على دِينِهم ، فصالحوه على مائة ألف دِرهم وتسعين ألفا ، وتتابع أهلُ القصور على ذلك ، وأَهْدَوْا له الهدايا ، وبعث

---

(١) حاده : غاضبه وعاداه وخالفه .

(٢) المناجزة : المبارزة . (٣) صحراء فلاة : وأرض مضلة ــ بفتح الضادوكسرها : يضل فيها الماشى . (٤) استدل الأعجمى : طلب منه أن يدله .

بالفتح والهدايا إلى أبى بكر ، فأجاز أبو بكر المعاهدة ، وقبل الهدايا واحتسبها من الجزاء .

وكتب إلى خالدٍ : أن احْسِبْ لهم هَدِيَّتَهُمْ من الجزاء ، إلا أن تكونَ من الجزَاء ، وخُذْ بقيَّةَ ماعليهم ، فقوِّ بِهَا أصحابَك .

ثم كتب خالدٌ لأهل الحيرة هذا الكتاب :

بسم الله الرحمن الرحيم . هذا ما عاهد عليه خالدُ بن الوليد عَدِيًّا وعَمْراً ابْنى عدىّ ، وعمرَو بن عبد المسيح ، وإياسَ بن قبيصة ، وحيرىّ بن أَكَال ، وهم نُقَبَاءُ[1] أهلِ الحيرة . ورضىَ بذلك أهلُ الحيرة ، وأَمروهم به . عاهَدهم على مائة ألف وتسعين ألف درهم ، تُقْبَلُ فى كلِّ سنة جزاءً عن أيديهم فى الدنيا ، رُهْبانهم وقِسّيسيهم ، إلّا مَنْ كان منهم على غير ذى يَد ، حَبِيساً عن الدنيا ، تاركاً لها ؛ وعلى المَنَعة ، فإنْ لم يمنَعْهم فلا شىء عليهم حتى يمنَعهم ، وإن غَدَرُوا بفعل أو قول فالذِّمة منهم بَرِيئة .

وكُتب فى شهر ربيع الأول من سنة اثنتى عشرة .

ولما استقرّ خالدٌ فى الحيرة خرج إليه صَلوبَا بن نسطونا صاحب قُسّ النَّاطِف[2] ، فصالحه على بَانِقيَا[3] وبارُوسْمَا[4] وضَمِن له ما عليهما وعلى أَرضيهما من شاطىء الفُرات على عشرة آلاف ؛ فكتب لهم خالد كتاباً هذا نَصّه :

« بسم الله الرحمن الرحيم . هذا كتابٌ من خالد بن الوليد لصَلُوبَا بن نسطونا وقومه . إنى عاهدتكم على الجزْيَةِ والمَنَعَة ، على عشرة آلاف دينار ، القوىّ على

---

(١) نقيب القوم : ضمينهم ورئيسهم .

(٢) قس الناطف : موضع قريب من الكوفة . (٣) بانقيا : ناحية من نواحى الكوفة .

(٤) باروسما : من ناحية بغداد .

قدر قُوَّته ، والمُقِلُّ على قَدْرِ إقلالِه فى كلِّ سَنة ، وإنك قد نُقِّبْتَ(١) على قومِك ، وإنَّ قومَك قد رَضُوا بك ، وقد قَبِلْتُ ومَنْ معى من المسلمين ، ورضيتَ ورَضِيَ قومُك ، فلك الذِّمّة والمَنعة ؛ فإن منعنا كم فلنا الجِزْية ، وإلَّا فَلَا حتى نَمْنعكم .

ولما رأى دَهَاقِينُ(٢) البلاد ماتمَّ لخالد من الظَّفَر أتَوْه فصالحوه على ما بين الفَلاليج(٣) إلى هُرْمُزْجِرْد(٤) ، على ألفى ألفى درهم ، وكتب لهم بذلك كتاباً .

ولما تمَّ لخالد فتحُ الحيرة صلّى صلاةَ الفَتْحِ ثمانىَ ركعات ، لايُسَلِّمُ فيها ، فلمّا أتمّهُنّ انفتَلَ(٥) إلى أصحابه يقولُ : لقد قاتلتُ يوم مُؤْتَة ، فانقطع فى يدى تسعةُ أسياف ، وما لقيتُ قوما كمن لقيتُهم من أهل فارس .

ثم أقام بالحيرة وجعلها مرْكزَ قِيادَته(٦) .

---

(١) نقبت : صرت نقيبا وضميناً . (٢) الدهقان ـ بكسر الدال وضمها : زعيم فلاحى العجم ورئيس الإقليم . (٣) فلاليج السواد : قراها . (٤) هرمزجرد : ناحية من أطراف العراق (٥) انفتل : انصرف .

(٦) من طرائف ما يرويه المؤرخون إبان فتح الحيرة أن خالدا أبى أن يكتب مع القوم عهدا إلا أن تسلم كرامة بنت عبد المسيح أخت عمرو إلى شويل ؛ وإنما أصر على ذلك لما قيل من أن شويل هذا سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يذكر فتح الحيرة فسأله كرامة . فقال له : هى لك ، إذا فتحت عنوة ، وكانت كرامة بارعة الجمال فى صباها ، وكان شويل قد رآها فى شبابه ، فجن بها دهرا. وشق هذا على أهلها ، فقالت لهم : هونوا عليكم وأسلمونى ، فإنى سأفتدى ، وما تخافون على امرأة بلغت ثمانين سنة ! إنما هذا رجل أحمق رآنى فى شبيبتى فظن أن الشباب يدوم ، ورفعت إلى شويل فقالت له : ما أربك إلى عجوز كما ترى ؟ فادنى . قال : لا ، إلا على حكمى ، قالت : فلك حكمك مرسلا . قال: لست لأم شويل ، إن نقصتك عن ألف درهم .
وتظاهرت كرامة باستكثار المبلغ لتخدعه ، ثم أتته ورجعت به إلى أهلها . وسمع أصحاب شويل بما صنع فسخروا منه لقله الفداء ، وعنفه بعضهم . فكان اعتذاره : ما كنت أرى عددا يزيد على ألف . وشكا أمره إلى خالد ، وقال : كانت نيتى غاية العدد. فقال خالد: أردت أمراً وأراد الله غيره ، نأخذ بما يظهر وندعك ونيتك ، كاذباً كنت أو صادقاً .

٢٧ – يوم ذات العُيُون*

خَلَّفَ خالدُ بن الوليد على الحِيرَة القَعْقاع بن عمرو ، وخرج فى تَعْبِيَتِه ، وجعل على مقدّمته الأَقْرَع[١] بن حابس ، وسار المسلمون حتى انتهَوْا رُكْبَانًا إلى الأَنْبَار[٢] ، فرأَوْا أن أهلها قد تحصّنُوا بها ، وخَنْدَقوا عليها ، وأشرفوا من حِصْنهم. وكان يقود الجنود فيها شِيرَزَاذُ صاحبُ ساباط ، وكان أعقل أعجمىّ يومئذ .

ولما قدم خالد أَطَاف بالخَنْدَق ، وأَنْشَبَ القتال ، وتقدم إلى رُمَاته ، فأوصاهم وقال : إنّى أرى أقواماً لا عِلْم لهم بالحرب ، فارمُوا عيونَهُمْ ولا تَوَخَّوْا غيرها . فرمَوْهم ففقَئُوا ألفَ عين يومئذ ، وتَصَايَحَ القوم إذْ ذَهَبَتْ عيونُهُمْ .

ولما رأى شِيرَزَاذ ذلك رَاسَل خالداً فى الصُّلْح على أمرٍ لم يَرْضَه خالد ، فردّ رُسُلَه .

وأتى خالدٌ أضيقَ مكان فى الخندق بِرَذَايا[٣] الجيش فنحرها ، ثم رمى بها فيه فأفْعَمَه[٤] ، ثم اقتحم الخندق ، والرَّذَايَا جسورُهم .

---

* لخالد بن الوليد على شيرازاذ (الفرس) . سنة ١٢ هـ . وسميت ذات العيون لما وقع فيها من فقء عيون الأعداء .

الطبرى : ٤ – ٢٠ . ابن الأثير : ٧ – ١٩٢ . ابن خلدون : ٢ – ٨١ .

(١) الأقرع بن حابس ، ينتهى نسبه إلى تميم ، كان حكيما فى الجاهلية ، ثم وفد على النبى صلى الله عليه وسلم مسلما ، وشهد فتح مكة وحنيناً والطائف ، وهو من المؤلفة قلوبهم ، وشهد كثيراً من أيام الفتوح ، وقتل باليرموك فى عشرة من بيته .

(٢) الأنبار : مدينة على الفرات غربى بغداد .

(٣) الرذايا : جمع رذى ، والرذى : المهزول من الإبل ، الهالك .

(٤) أفعمه : ملأه .

واجتمع المسلمون والمشركون فى الخندق ، وأَرَزَ القوم(١) إلى حِصْنِهم ، ورَاسَلَ شِيرَزَاذُ خالداً فى الصلح على ما أراد ؛ فقبِل منه على أن يُخليِّه ويُلْحِقه بمَأْمَنه فى جَرِيدة(٢) خَيْل ، ليس معهم مِنَ المَتَاعِ والأموال شىْءٌ .

وخرج شيرزاذ حتى قدم على بَهْمن جاذويه ، فأخبره الخبر ، وقال له : إنى كُنتُ فى قوم ليست لهم عقول ، وأصلهم من العرب ، فسمعتُهم — حين قدم العدوُّ علينا — يَقْضُونَ على أنفسهم ، وقلّما قَضَى قومٌ على أنفسهم قضاء إلا وجب عليهم . ثم قاتلهم الجند ، ففقئُوا منهم أَلْفَ عَيْنٍ ؛ فعرفتُ أن المسالمة أسلم .

---

(١) أرز القوم : رجعوا .

(٢) الجريدة : خيل لا رجالة فيها .

٢٨ — يوم عَـيْن التّمر *

لما فرغ خالدٌ مِنْ الأَنْبار واستحكمتْ له، استخلفَ عليها الزِّبْرِقان بن بَدْر وقَصد لعَيْنِ التمر ، وفيها مهران بن بهرام فى جَمْعٍ عظيمٍ من العجَم ، وعَقّة بن أبى عقّة فى جَمْعٍ عظيمٍ من العرب ؛ فلما سمعوا بخالد، قال عَقّة لمهران : إنّ العربَ أعْلَمُ بقتال العرب ، فدَعْنا وخالداً .

قال : صـدقت ؛ لعَمرِى لأنتم أعلمُ بقِتَال العرب ، وإنكم لمِثْلُنَا فى قتال العجم ؛ وخَدَعَه واتّقَى به ، وقال : دُونَكُمُوهُمْ ، وإن احتَجْتُمْ إلينا أعنّاكم .

فلما مضى عَقّةُ نحوَ خالد قالت الأعاجم لمهران : ماحملك على أن تقولَ هـذا القول ؟ فقال : دَعُونى ، فإنى لم أُرِدْ إلا ماهو خيرٌ لكم ، وشرٌّ لهم ؛ إنه قد جاءكم مَنْ قتلَ ملوككم وفلَّ حدَّكم ، فاتّقَيْتُه بهم ؛ فإن كانت لهم على خالد فهى لكم ، وإن كانت الأخرى فلن يبلغوا منهم حتى يَهِنُوا ، فنقاتلهم ونحن أقوياء ، وهم مُضْعَفُون . فاعترفوا له بفضل الرأى .

فلزم مهران العَيْن ، ونزل عَقّة لخالد على الطريق ، وجعل على مَيْمَنَتِه بُجيرا ، أحد بنى عُبيد ، وعلى مَيْسَرَتِه الهُذَيْل بن عمران .

وجاء خالد فى تعبية جُنْده ، وقال لمجنبتَيْه : اكْفُونَا ماعنده ؛ فإنى حامل عليه . وبينا عقّة يقيم صفوفَهُ احتضنه خالد ، وأخذه أسيراً ، وانهزم صَفُّهُ من غير قتال ، فأكثر المسلمون فيهم الأسر .

---

* لخالد بن الوليد على مهران بن بهرام وعقة بن أبى عقة . كان ذلك اليوم سنة ١٢ هـ . وعين التمر : بلدة قريبة من الأنبار غربى الكوفة .

الطبرى : ٤ ــ ٢١ . ابن الأثير : ٢ ــ ١٩٣ ، ابن خلدون : ٢ ــ ٨١ ، معجم البلدان : ٦ ــ ٢٥٣ .

ولما جاء الخبر إلى مهران هرب فى جُنْدِه ، وتركوا الحِصْن . وانتهت فُلَّال عَقّة من العرب والعجم إلى الحِصْنِ ، واقتحموه واعتصموا به . وأقبل خالد فى النـاس حتى نزل الحِصْن ومعه عَقّة أسيراً ، وكان هؤلاء المنهزمون يرجون أن يكون خالد كمن كان يُغير من العرب ، فلما رأوه يُحَاوِلُ القضاءَ عليهم سألوه الأمانَ ، فأبى إلّا أن ينزلوا على حُـكْمِهِ ، فأجـابوه إلى ما طلب ، وفتحوا له باب الحصن فاعتقلهم . وأمر بعَقّـة فضُرِبَتْ عُنقه ، ولـمـا رآه الأسْرَى مطروحاً على الجسر يئسوا من الحياة .

ثم ضَرَب خالدٌ أعناقَ أهْلِ الحِصْنِ أجمعين ، وسَبَى كلَّ ماحَوى حِصْنُهُمْ ، وغَنِمَ ما فيه ، ووجد فى بِيعَتِهم[1] أربعين غُلاماً يتعلّمون الإنجيـــل ، عليهم باب مُغْلَق ، فـكسره وقال لهم : ماأنتم ؟ قالوا : رُهُن . فقسمَهم فيمن أحسنُوا البلاء ، فـكان منهم أبو زياد مَوْلَى ثقيف ، ونُصَيراً أبو البطل الفاتح موسى بن نصير ، وسيرين أبو محمد بن سيرين ، فقيه البصرة .

ثم أرسل إلى أبى بكر بالأخماس مع الوليد بن عُقْبَة ، وأخبره بالفتح .

---

(١) البيعة : متعبد النصارى .

٢٩ — يوم دُومَة الجَنْدَل *

لمَّا قدم الوليدُ بن عُقْبة من عند خالد على أبى بكر بما بعث إليه من الأخماس وجَّهه إلى عِياض بن غَنْم ، وأمدَّه به ؛ فقدِم عليه الوليد بدُومَة الجندل ، وعياض يُحَاصِرُ القوم ، وهم يحاصِرُونه ، وقد أخذوا عليه الطريقَ ، ولم يَجِدْ بعد مُداولةِ الرأىِ معه وسيلةً تُنْقِذُه من هذا الموقف ، فقال له الوليد : الرأىُ فى بعض الحالات خيرٌ مِنْ جُنْدٍ كثيف ؛ ابعثْ إلى خالد فاستمدَّه .

ففعل . وقدم رسولُه على خالد ، غِبَّ(١) وَقْعَةِ عين التمر ، فعجَّل إلى عياض بكتابه :

من خالد إلى عياض ، إيَّاكَ أُريد .

لَبِّثْ قليلاً تأتِكَ الحَلائِبُ يَحْمِلْنَ آساداً عليها القاشبُ(٢)

* كتائبٌ تَتْبَعُها كتائبُ *

ثم خلَّف خالد على عَيْنِ التمر عُوَيم بن الكاهل الأسدىّ ، وخرج فى تعبِئَتِه التى دخل فيها العين يسرع السير جُهْدَه .

ولما بلغ أهلَ دُومة مسيرُ خالد إليهم بُهِتُوا ، ثم اختلف زعماؤُهم بينهم فيما يصنعون .

وكان عليهم رئيسان : أُكَيدر بن عبد الملك والجُودِىّ بن ربيعة ، فقال أُكَيْدِر : أنا أعلمُ الناسِ بخالد ، لا أحدَ أيمنُ طائراً منه ، ولا يرى قومٌ وَجْهَ

---

* لخالد بن الوليد على أكيدر بن عبد الملك ، والجودى بن ربيعة ،كان سنة ١٢ هـ . ودومة الجندل : على سبع مراحل من دمشق .

(١) غب : بعد . (٢) القاشب : السيف الصقيل المجلو .

خالدٍ قلّوا أو كثروا إلا انهزموا عنه ، فأطيعونى وصالحوا القوم ، فأبَوْا عليه ، فقال : لنْ أُمَالِئَكم على حَرْبِ خالد[١] ، فشأنكم . وخرج لِطيّتِه .

وبلغ ذلك خالداً ، فبعث عاصم بن عَمْرو معارضاً له ، فأخذه وجاء به إلى خالد ، فضرب عنقه[٢] .

ولما نزل خالدٌ على دُومَة جعلها بينه وبين عَسْكَر عِياض ، واطمأنّ هناك ، فخرج إليه الجُودِىّ بن ربيعة ووَديعة الكلبىّ ؛ فهزمهما الله على يدى خالد وأخذهما أخذاً .

وأَرَز[٣] بَقِيّة الناس إلى الحِصْن ، فلما امتلأ أغْلق مَنْ فيه أبوابَه دون أصحابهم ، وتركوهم عُرْضَةً للمسلمين ، يقتلونهم ويأسِرُون منهم مَن يشاءون .

وأقبل خالد على الذين أَرَزُوا إلى الحِصْن فقتلهم ، حتى سدَّ بهم باب الحصن ، ودعا بالجودِىّ فضرب عُنقَه ، ودعا بالأسارى فضرَب أعناقهم أيضاً ، إلا أسارى كَلْب فإنّ عاصما قال : قد أمّنّاهم ؛ فأطلقهم له خالد ، وقال : مالى ولكم ! أتحفظون أمرَ الجاهلية ، وتُضَيِّعُون أمر الإسلام !

ثم طوّف خالد بالحصن حتى إذا كان بالباب ، أمر به فاقْتُلِعَ ، واقتحم المسلمون على مَنْ فيه ، فقتلوا المقاتلة ، وسَبَوُا النساء .

وأقام خالد بدُومَة الجَنْدَلِ ، وردّ الأَقْرَع إلى الأنبار .

(١) قال ذلك أكيدر لأنه لم ينس عام تبوك .

(٢) وهناك رواية أخرى بأنه أسر وأرسل إلى المدينة . (٣) أرز : رجع .

٣٠ – يوم اليَرْمُوك*

بعد أن عاد أبو بكر إلى المدينة ، مُنْصَرَفَه من الحج ، أراد أن يعقد لواء لخالد ابن سعيد بن العاصى[١] ، ويُوَجِّهَهُ إلى الشام ؛ فَنهاهُ عمرُ وقال : إنَّه لمخذول ، وإنه لضعيفُ التَّرْوِئَة[٢] ، فلا تَسْتَنْصِرْ به ، فلم يحتملْ أبو بكر عليه ، وأطاع عمرَ فى بَعْضِ أمره ، وعصاه فى بعض[٣] .

ثم أمر خالداً أَنْ ينزلَ تَيماء[٤] ، وألَّا يبرحَها ، وأن يدعوَ مَنْ حوله من العرب بالانضمامِ إليه ، وألَّا يَقْبَل إلَّا ممَّن لم يرتدّ ، ولا يقاتلَ إلا مَنْ قاتلَه ، حتى يَأْتِيَه أمره .

---

* للعرب على الروم، كان سنة ١٣هـ . واليرموك : واد بناحية الشام ينتهى إلى نهر الأردن . الطبرى ٤ : ٢٨ . ابن الأثير ٢ : ٢٠٠ . ابن خلدون ٢ : ٨٣ . فتوح البلدان ١٤٠ . معجم البلدان ٨ : ٥٠٤ .

(١) خالد بن سعيد : من السابقين الأولين من المهاجرين ، وقيل : كان خامس المسلمين ؛ سبقه أبو بكر وعلى وزيد بن حارثة وسعد بن أبى وقاص . واستعمله النبى صلى الله عليه وسلم على صدقات مذحج ، واستشهد يوم مرج الصفر سنة ١٤هـ .

(٢) التروئة : النظر فى العواقب .

(٣) قيل : كان سبب حنق عمر على خالد بن سعيد أن خالداً كان عاملا لرسول الله صلى الله عليه وسلم على اليمن ، فقدم بعد وفاة الرسول بشهر، والقوم فى مصابرة أهل الردة ، وكان لابساً جبة ديباج ؛ فقال عمر لمن يليه : مزقوا عليه جبته ، أيلبس الحرير وهو فى رجالنا فى السلم مهجور ! فوجدها خالد فى نفسه ، ولقى على بن أبى طالب وعثمان بن عفان ، فقال : يابنى عبد مناف ، لقد طبتم نفسا عن أمر يليه غيركم . وتربص ببيعة أبى بكر مدة ، يقول : أمرنى رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يعزلنى ، حتى قبضه الله ، فكان عمر يضطغن ذلك عليه ، ولكن أبا بكر لم يحفلها ، ولم يضطغن عليه .

(٤) تيماء : بلد فى أطراف الشام ووادى القرى ، على طريق الحاج من دمشق .

ففَصَلَ عن المدينة حتى نزل بِتَيْماء ، فاجتمعتْ إليه جموعٌ كثيرة ، وبلغ الرومَ عِظَمُ ذلك العسكر ، فأخذوا يُعِدُّون عُدَّتَهُمْ ، ويُجْمِعون رَأْيَهم .

فكتب خالدُ بنُ سَعِيد إلى أبى بكر بذلك ، وبنزول من استَنْفَرَتِ الرومُ ونَفَرَ إليهم من بَهْراء وكَلْب وسُلَيْح وتَنُوخ ولَخْم وجُذَام وغَسَّان .

فكتب إليه أبو بكر : أن أَقْدِمْ ولا تُحْجِمْ ، واستنصر الله .

فسار إليهم خالدٌ ، فلما دنا منهم تفرَّقوا وأعْرَوْا مَنْزِلَهم ، فنزله ، ودخل عامّةُ مَنْ كان قد تجمّع له فى الإسلام ، وكتب إلى أبى بكر بذلك ، فكتب إليه أبوبكر : أَقْدِمْ ، ولا تَقْتَحِمَنَّ حتى لا تُؤْتَى مِنْ خَلْفك ؛ فسار فيمن كان خرج معه من تَيْماء ، وفيمَنْ لَحِقَ به حتى نزلوا القَسْطَلَ[1] .

فسيَّرَتِ الرُّومُ إليه عَسْكرا يقودُه باهان البِطْرِيق[2] ؛ فكتب خالدٌ بذلك إلى أبى بكر ، واستمدّه .

ووافَقَ ذلك قدوم عِكْرِمة فيمن كان معه من تِهامة وعُمان والبَحْرَين ، فأمرهم أبو بكر أن يسيروا إلى خالدِ بن سعيد .

وسَارَ مع عِكْرِمة ذو الكَلَاعِ على رأس الجُنْدِ الذين صَحِبُوه من اليمن حتى يطمئنّ خالد بنُ سعيد، ويتَابِعَ مَسِيرَته .

ثم تَرَامَى إلى أبى بكر أنَّ الرُّوم اجتمعت باليَرْموك ونزلوا به ، وقالوا : والله لَنَشْغَلَنَّ أبا بكر فى نفسه عن تَوَرُّد بلادِنا بخُيوله ، فكتب إلى عَمْرو بن العاص — وكان على صدقات سَعْدٍ وعُذْرة وجُذام : إنى كنتُ قد رَدَدْتُك على العمل الذى

---

(١) القسطل : بلد فى طريق البحر الميت .

(٢) البطريق : القائد من قواد الروم ، تحت يده عشرة آلاف رجل .

كان رسولُ الله صلى الله عليه وسلم وَلّاكَهُ ؛ إنجازاً لمواعيد رسول الله صلّى الله عليه وسلم ، فقد وُلِّيتَه ثم وُلِّيته ، وقد أَحْبَبْتُ ـ أبا عبد الله ـ أن أُفْرِغَكَ لِمَا هو خيرٌ لك فى حياتك ومَعَادِك منه ، إلا أن يكون الذى أَنْتَ فيه أحبَّ إليك .

فكتب إليه عَمْرُو بن العاص : إنى سَهْمٌ من سِهَام الإسلام ، وأنتَ بعدَ الله الرَّامِى بها ، والجَامِعُ لها ؛ فانظر أَشدَّها وأَخشاها وأَفضلَها ، فارْمِ به شيئاً إن جاءك من ناحيةٍ من النواحى .

ثم كتب أبو بكر إلى الوليد بن عُقْبَة ، وكان على صدقاتِ قُضَاعة بنحو ذلك ، فأجابه بإيثارِ الجِهَادِ ، فكتب إليهما : استخلفا على أعمالكما ، واندُبا مَنْ يليكما .

فاستَخْلَف كلٌّ منهما ، وندبَا الناسَ ، فتتامَّ إليهمَا بشَرٌ كثير ، وانتظرا أَمْرَ أَبى بكر .

وقام أبو بكر فى الناس خطيبا ، فحمِد اللهَ وأَثْنَى عليه ، وصلَّى على رَسُولِه وقال: أَلَا إنَّ لكلِّ أَمرٍ جوامعَ ، فمن بلغها فهى حَسْبُه ، ومَنْ عمل لله كفاه اللهُ ، عليكم بالجِدِّ والقَصْد ؛ فإنَّ القَصْدَ أَبلغ ، أَلَا إنّه لادِينَ لأَحدٍ لا إيمانَ له ، ولا أجْر لمن لا حِسْبَةَ له ، ولا عمل لمن لا نِيَّةَ له . أَلَا وإنّ فى كتاب الله من الثَّواب على الجهاد فى سبيل الله لمَا ينبغى للمسلم أن يُحِبّ أن يُخَصّ به ؛ هى التجارةُ التى دَلَّ الله عليها ونجّى بها من الخِزْى ، وأَلْحَقَ بها الكرامةَ فى الدنيا والآخِرَة .

ثم أمدّ عَمْراً ببعضِ من انتدب[1] للغَزْو إلى مَن اجتمع إليه . وأمَّره على فلسطين ، وأَمَرَه بطريق سمَّاها له . وكتب إلى الوليد بن عُقْبَة وأمَّره بالأُرْدُنّ ،

(١) يقال : انتدب القوم من ذوات أنفسهم دون أن يندبوا .

وأمدّه ببعضهم . ودعا يزيدَ بن سفيان ، فأمّره على جُنْدٍ عظيم ، هم جمهورُ من انتدَب له ، وجعل فى جنده سُهَيْل بن عمرو وأشباهه من أهل مكة ، وشيَّعه ماشياً ، وكان مما قاله له : إذا قدمْتَ على جُنْدِكَ فأَحْسِنْ صُحْبَتَهُمْ ، وابْدَأْهم بالخير ، وعِدْهُمْ إيَّاه ، وإذا وعظْتَهُمْ فَأَوْجِزْ ، فإن كثيرَ الْكَلَامِ يُنْسِي بَعْضُهُ بَعْضاً . . . وإذا قَدِمَ عليكَ رُسُلُ عَدُوِّكَ فأكْرِمْهُمْ ، وأَقْلِلْ لُبْثَهُمْ حَتَّى يَخْرُجُوا من عَسْكَرِكَ وهُمْ جَاهِلُونَ به ؛ وامْنَعْ مَنْ قِبَلَكَ مِنْ مُحَادَثَتِهِمْ ، وَكُنْ أَنْتَ المُتَوَلِّىَ لِكَلامِهِمْ ؛ واسْمُرْ بالليل فى أصْحَابِكَ تأْتِكَ الأخبارُ ، وتنكَشِف عندك الأستار ، واصْدُق اللقاء ، ولا تَجْبُنْ فيجبُنَ الناسُ .

واستعمل أبا عُبَيْدَة بن الجرَّاح على مَن اجتمع له ، وأمَّره على حِمْص ، وخرج معه ماشياً ، والناسُ معهما وخَلْفَهُما .

وسبق الوليدُ بن عُقبة هؤلاء ، واتَّصل بجند خالد بن سَعيد فساندَه[1] . وبلغ خالداً توجُّه الأُمراءِ إليه ، فطلب الحظْوَة لنفسه ، واقتحم على الرّوم ، وأعْرَى ظَهْرَه ؛ فاستطرد[2] له باهَان ، وقصد هو ومَنْ معه إلى دمشق ، فاقتحم خالدٌ فى الجيش ، ومعه ذو الكَلاع وعِكْرِمة والوليد ، حتى إذا نزل مَرْج الصُّفَّر[3] ، بين الوَاقُوصة[4] ودمشق ، أحاط به باهَان وجنودُه ، وأخذوا عليه الطّرق ، ووجدوا سَعيد بن خالد فى جماعة من الجند ، فقتلوه وقتلوا مَنْ معه .

وأتى الخبرُ خالدَ بن سعد فخرج هارباً فى جريدة[5] ، وأفلت مَنْ أفلت مِنْ

---

(١) سانده : عاضده ، كانفه وساعده .

(٢) استطرد : تراجع خديعة ومكرا .

(٣) مرج الصفر : موضع قرب دمشق .

(٤) الواقوصة : واد فى أرض حوران .

(٥) الجريدة : الجماعة من الخيل .

أصحابه على ظهورِ الخيْلِ والإبل ، وقد أُجْهِضُوا[١] عن عَسْكَرِهِم . وانتهت هزيمةُ خالد إلى ذى المَرْوة[٢] وأقام عِكْرِمة فى النـاس رِدْءاً لهم ، وردّ باهانَ وجنودَه ، وأقام من الشام على قريب .

ولما علم أبو بكر بما نُـكِب به خالد بن سعيد قال : كان عُمَرُ وعلىٌّ أعلَم بخالدٍ منى ، ولو أطعتُهما فيه اتقَّيتُه ، ثم كتب إليه : أَقِمْ مكانك ، فلعمرى إنك مِقْدام مِحْجام نَجَّاء مِنَ الغمرات ، لا تخوضُها إلى حق ، ولا تصبرُ عليه . ثم أذِنَ له فى دخول المدينة ، فعاد ومعه الوليدُ بن عقبة، وندب الناس مع شُرَحْبِيل بن حَسَنة[٣]، بعد أن عهد إليه بعملِ الوليد .

* * *

وأَوْعَبَ[٤] القوادُ بالناسِ نحو الشام ، وظلّ عِكْرِمة رِدْءاً للناس ، وبلغَ الروم ذلك ، فـكتبوا إلى هِرَقْل ، فخرج هِرقل حتى جاء حِمْص ؛ فأعدَّ لهم الجنـودَ ، وعَبَّى لهم العساكرَ ، وأراد اشتغالَ بعضهم عن بعض لـكثرةِ جنده ورجاله .

فأرسل إلى عَمْرو بن العاص أخاه تذراق (تيودوريك) فى تسعين ألفا ، وبعث جَرَجَة نحو يزيد بن أبى سفيان ، فعسكر بإزائه ، وبعث الدراقص، فاستقبل شُرحبيل ابن حسنة ، وبعث الفِيقَار بن نسطوس فى ستين ألفا نحو أبى عُبَيدة .

فهابَهُم المسلمون، ولم يكن جَمْعُهُم يزيدُ على واحدٍ وعشرين ألفا ؛ سوى ستة

---

(١) يقال : أجهضه عن المـكان ، إذا أزاله عنه .

(٢) ذو المروة : موضع قريب من المدينة .

(٣) كان شرحبيل مع خالد بن الوليد فى العراق ، وقد جاء فى هذه الآونة إلى المدينة بأنباء النصر وبالسبي والأخماس ، فأمره أبو بكر أن يذهب إلى الشام مكان الوليد بن عقبة الذى رجع مع خالد بالهزيمة .

(٤) أوعب القوم : خرجوا للغزو .

آلاف مع عِكْرمة ، ففزعوا جميعاً بالـكُتُبِ والرسل إلى عمرو بن العاص ، واستشاروه، فقال لهم : الرَّأْيُ الاجتماع ، وذلك أَنَّ مِثْلَنَا إذا اجتمع لم يُغْلَب من قِلَّة ، وإذا نحن تفرّقنا لم تَقُمْ كلُّ فِرْقةٍ لِمن استَقْبَلَهَا ، لـكثرةِ عدوِّنا وما أعدَّ لنا .

فاتَّعَدُوا اَلْيَرمُوكَ ليجتَمِعُوا به ، وكتبوا لأبى بَـكْرٍ بمثل ما كاتَبُوا به عَمْراً ؛ فطلع عليهم كتابهُ بمثل رَأْى عمرو، وفيه : اجتمعوا فتـكوّنوا عسكراً واحداً، والْقَوْا زَحْفَ المشركين بزَحْفِـكُمْ ، فإنـكم أعوانُ اللهِ ، واللهُ ناصرٌ مَنْ نصره ، وخاذلٌ مَنْ كفره ، ولن يُؤْتَى مثلُـكم مِنْ قِلّةٍ ؛ وإنما يُؤْتَى العشرة الآلاف والزيادة عليها بذنوبهم ، فاحتَرِسُوا من الذّنوب ، واجتمعوا باليَرْمُوكِ مُتسانِدين ، وليصلِّ كلُّ رجل منكم بأصحابه .

وبلغ ذلك هِرَقْل ، فـكتب إلى بَطَارقته : أن اجتمعَوا لهم ، وانزِلوا منزلا واسعَ العَطن ، واسعَ المطَّرد ، ضَيِّق المَهْرب؛ وعلى الناس التّذراق، وعلى المقدمة جَرَجَة وعلى مُجنّبَتَيْهِ باهان والدّراقص ، وعلى الحرب الفِيقَار ؛ وأَبْشِرُوا فإنَّ باهــان فى الأثر مَدَدٌ لـكم .

فعلوا ، ونزلوا الوَاقُوصة ، على ضفَّة اليَرْمُوك ، وصار الوادى خَنْدَقاً لهم؛ وإنما أراد باهان وأصحابُه أَنْ تستفيقَ الروم ، ويأنَسُوا بالمسلمين ، وترجع إليهم أفئدتهم عَنْ طِيَرَتِها .

وانتقل المسلمون عن عسكرهم الذى اجتمعوا به ، فنزلوا بحِذَاء الروم ؛ وليس للروم طريقٌ إلّا عليهم ، فقال عمرو : أَيُّها النـاس أَبْشِرُوا ، حُصِرَتْ والله الروم ! وقَلَّمَا جاءَ محصورٌ بخير .

فأقاموا بإزائِهم شهرين لا يقدرون على شىء ، ولا يقدِرُ الرومُ منهم على شىء .

فاستمدّوا أبا بَكْرٍ حتى لايَظَلُّوا الشهورَ ؛ فيسأم الجندُ ، ويَضْعف إيمانهم بالنصر ، وتذهب ريحهُم .

فقال أبو بكر : واللهِ لأُنسِيَنَّ الرومَ وسَاوِسَ الشيطان بخالد بن الوليد ؛ وكتب إليه بالحيرة كتابا ؛ وافاه مُنْصرَفه منِ الحجّ ـ وكان خالد قد ذهب إلى مكة حاجًّا ، من غير أن يُعلِمَ الناسَ أمْرَ حَجِّه ـ جاء فيه : أنْ سِرْ حتى تأتىَ جموعَ المسلمين باليَرْمُوك ، فإنهم قد شَجُوا وأشْجَوْا[1] ، وإياك أن تعودَ لمثلِ مافعلْتَ[2] ، فإنه لم يُشْجِ الجموعَ من الناس[3] بعوْن الله شَجَاك ، ولم يَنْزِع الشَّجا من الناس[3] نَزْعَك ، فَلْيَهْنِئْك ـ أبا سليمان ـ النية والحظْوة ، فَأَتْمِم يُتَمِمِ اللهُ لك ، ولا يدخلنَّك عُجبٌ فتخسَر وتُخْذَل ، وإياك أن تُدِلّ بعمَل ، فإن الله عز وجل له المَنُّ ؛ وهو وليُّ الجزَاء .

ثم أمره أن يخرجَ فى شَطْرٍ من الناس ، وأن يخلِّف على الشطر الباقى المُثَنّى بن حارثة ، وقال له فى ختام كتابه : فإذا فتَح الله عليكم فارْدُدْهم إلى العراق وأنتَ معهم ؛ ثم أنْتَ على عَملِك .

فأحضر خالدٌ أصحابَ رسول الله صلى الله عليه وسلم واستأْثر بهم على المثنى ، وترك للمثنّى مثلَ عددِهم ممن لم يكن له مع الرسول صُحْبة . ثم نظر فيمن بقى ؛ فاختار مَنْ كان قَدِم على النبىّ صلى الله عليه وسلم وافداً أو غير وَافِد ، وترك للمثنى

---

(١) الشجا : الغصص . يريد أن المسلمين ضاقوا بعدوهم ، وضيقوا عليه ، حتى كان بعضهم لبعض كالشجا فى الحلق .

(٢) يشير إلى حجه بغير استئذان .

(٣) من الناس : صفة لمحذوف ، هو فاعل لم يشج ، ولم ينزع . أى لم يشج أعداءه أحد من الناس ؛ كما تشجيهم أنت . ولم ينزع الشجا من أوليائه أحد من الناس نزعك .

مثلَ عددِهم مِنْ أَهْلِ القناعة . ثم قسّم الجنـدَ نِصْفَيْنِ ، فغضب المثنَّى وقال : والله لا أُقيمُ إلا على إنفاذِ أمرِ أبي بكر كلّه ؛ فى استِصْحابِ نصفِ الصحابة ، أو بَعْضِ النصف ؛ وبالله ماأَرجو من النّصر إلا بهم ، فـكيف تُعرِّينى منهم .

فلما رأى ذلك خالد تلـكّأَ عليـه قليلا ، ثم عذره وأَرْضاه ، وأخـذ حاجتَه ، وانجذب ماضياً لوَجْهِهِ ، بعد أَنْ شيَّعه المثنّى إلى حيث يريد .

* * *

أخذ خالدٌ يَطْمَنُ بجيشه فى البرّ ، حتى انتهى إلى قُرَاقر[1] ؛ وأراد السير منها مُفوِّزا[2] إلى سُوى[3] . ثم قال : كيف لى بطريقٍ أَخْرُج فيـه من وراء جموع الروم ! فإنى إن استقبلتُها حَبَسَتْنى عن غِياثِ المسلمين . فـكلُّهم قال : لانَعْرِف إلا طريقاً لايحمل الجيوش ، وإنما يأخـذُهُ الرا كب الفذّ ؛ فإياك أنْ تُغَرِّر بالمسلمين .

فالتمس خالدٌ دليـلا ؛ فَدُلَّ على رافع بن عُمَيرة الطائىّ ، فقال له خالد : انطلق بالناس ، فقال له رَافِع : إنك لن تطيقَ ذلك بالخيـل والأَثقال ، والله إن الرا كب المفرَد لَيخافُها على نفسه ، وما يسلُـكُهَا إلا مغرِّرا ؛ إنها لَخمس ليال ، لا يصابُ فيها ماء ؛ مع مَضَلَّتِها . فقال له خالد : وَيْحَكَ ! إنه والله لابُدّ من ذلك . ثم وقف فى المسلمين وقال : لايختلفنّ هَدْيُـكم ، ولا يَضْمُفَنّ يقينـكم ، واعلموا أن المعونةَ تأتى على قَدْرِ النيّة ، والأجر على قدر الحِسْبَة ، وإن المسلم لاينبغى له أَن يـكترث بشىء يقعُ فيه مع معونة الله له . فتحمَّس أصحابُه وقالوا : أنت رجلٌ قد جمع الله لك الخير ، فشأْنَك .

---

(١) قراقر : ماء لـكلب .

(٢) المفوز : من يسلك المفازة ، وهى الفلاة لاماء بها .

(٣) سوى : ماء لبهراء على بعد خمس ليال من قراقر .

ثم قال لرافع بن عُميرة : إنه قد أتتنى من الأمير عزْمة بذلك ؛ فَمُرْ بأمرك .
قال : استكثروا من الماء ؛ مَن استطاع منكم أن يَصُرَّ أُذُنَ ناقته على ماء فليَفْعل، فإنها المَهالِك إلّا ما دفع الله . ابغنى[١] عشرين جزُورا عِظاماً سِماناً . فأتاه بهنّ خالد فعمِد إليها فظمّأها ، حتى إذا أجْهَدها عطَشا أوردها الماء عَللًا بعد نَهَل[٢] ، فشربتْ حتى إذا تملّأت عمِد إليها ؛ فقطع مَشافِرَها لئلا تجترّ ، وقال لخالد : سِرْ .

فسار خالد مُغِذًّا بالخيول والأثقال ، فكلما نزل منزلا شقّ بَطْنَ عَدَدٍ من الإبل، فأخذ ما فى أكراشها ، فسقاهُ الخيل ، ثم شرب الناس مما حملوا معهم من الماء ، ففعلوا ذلك أربعة أيام .

ولما خَشِيَ خالدٌ على أصحابه فى آخر يوم من المَفازة، قال لرافع بن عُميرة : ويْحكَ يا رافع ! ما عندك ؟ قال : أدركتَ الرِّى إن شاء الله — وشجّعهم ، ثم قال : أيها الناس ، انظروا عَلَمين كأنهما ثَدْيان ، فلما أتوْهُما وقف عليهما وقال : اضربوا يَمْنة ويَسْرة لِعَوْسجة[٣] كقعدة الرجل ، قالوا : ما نرَاها ؛ قال : إنا لله وإنا إليه راجعون ! ؛ هلكْتُم والله إذاً وهلكْتُ ، لا أبالكم ! انظروا ، فطلبوا فوجدوا جِذْمها[٤] ؛ فقالوا : جِذمٌ ولا نَرَى شجرة . فقال: احتفروا حيث شِئْتم . فحفروا فنبع الماء .

فلما رأى ذلك المسلمون كَبّروا ، فقال رافع : أيها الأمير ؛ والله ما وردت هذا

---

(١) ابغنى : التمس لى .
(٢) العلل : الشربة الثانية ، والنهل : الشربة الأولى .
(٣) العوسجة : شجرة كثيرة الشوك .
(٤) الجذم : الأصل .

المـاء منذ ثلاثين سنة ، وما وردْتُه إلا مرّة واحدة وأنا غلام مع أبى . فقال شاعر من المسلمين :

لِلّه عيناَ رَافعٍ أَنَّى اهْتَدَى فَوَّزَ مِنْ قُراقرٍ إلى سُوَى
خِمْسًا إذا ماسارها الجيشُ بَكَى ما سارها قبلك إنسىٌّ يُرى

وسار خالد حتى انتهى إلى سُوى، فأغارَ على أهله ـ وهم بَهْراء ـ قُبَيْلَ الصُّبْح وناسٌ منهم يشربون خمراً ، وساقيهم يغنّى ويقول :

أَلَا عَلِّلانى قبل جَيْشِ أبى بكر لعلَّ منايانا قريبٌ وما ندرى !
أَلَا عَلِّلانى بالزُّجاج وكَرِّرا علىَّ كُميتَ اللَّوْنِ صافيةً تجرى
أَلَا عَلِّلانى من سُلافَةِ قَهْوَةٍ تُسَلِّى هُمُومَ النَّفْسِ مِنْ جَيِّد الخمرِ
أَظُنُّ خيـولَ المسلمين وخالدا ستطرُقـكم قبْلَ الصباح مِنَ البِشْر (١)
فهل لـكمُ فى السَّيْر قَبْـلَ قِتالهم وقبل خروج المحصَنات من الخِدْرِ

فدهمهم وسَبَى منهم ، ثم سار على وجهه حتى أغار على غَسَّان بِمَرْج (٢) راهط ؛ فصبّحهم وقتَل وسَبى ، وسار حتى أتى على بُصْرى (٣) ، فقـاتل مَنْ بها ، وظفر بهم ، وصالحهم ، وبعث بالُخمس إلى أبى بكر ؛ ثم سار فى طريقه إلى المسلمين ، ليواجِهَ الروم.

***

وبينا هو فى طريقه إلى اليَرْموك ، لقيه رجل من رُوم العرب فقال : يا خَالِدُ ؛ إنَّ الروم فى جَمْعٍ كثير ، مائتى ألف أو يزيدون ، فإن رأيت أن ترجع على حاميتك

---

(١) البشر : من منازل تغلب بن وائل .
(٢) مرج راهط : موضع من نواحى دمشق دمشق .
(٣) بصرى : موضع بالشام .

فافعل . فقـــال خالد : أبالرُّوم تُخَوِّفنى ! والله لوددت أَنَّ الأَشْقر[١] بَرَاءٌ من تَوَجِّيه[٢] ، وأنهم أَضْعَفُوا ضِعفَهم .

وقدم خالد إلى اليَرْموك ، وعَسْكَرُ أبى عُبيدة مجـاورٌ لعسكر عَمْرو بن العاص ، وشُرَحْبيل مع يزيد ، فمسكَر على حِدَة .

وقد وافق مجيئُه محنةُ المسلمين ، حين كانُوا فى شدّة ؛ إذ جاء باَهان لحربهم بعدَد كثير ، فالتقى المســلمون بهم وهزموهم ، حتى ألجئوهم إلى الخندق ، فلزموه شهراً ، يُحَضِّضُهم القِسّيسون والشَّمامِسة والرُّهبان ، وينعَوْن لهم النصرانية ؛ حتى حمّسوهم ، وخرجوا للقتال الذى لم يكن بعده قتال مثله .

فلما أحسّ المسلمون خروجَهم ، وأرادوا الخروجَ مُتساندين ؛ سار فيهم خالد بن الوليد ، فحمِد الله وأثنى عليه ؛ وقال : إنّ هذا يومٌ من أيَّام ِ الله ، لاينبغى فيه الفَخْرُ ولا البَغْى ؛ أَخْلِصُوا جِهَادَكم ، وأَرِيدُوا الله بعملكم ؛ فإن هَذا يومٌ له مابعـدَه ، ولا تُقاتِلُوا قَوْماً على نظام ٍ وتعبِئَةٍ وأنـتم على تَسَانُدٍ وانتشار ؛ فإنّ ذلك لايَحِـلُّ ولا ينبغى ؛ وإنّ مَنْ وراءكم لو يعلم علمـكم ، حالَ بينـكم وبين هـذا ؛ فاعْمَلُوا فيما لم تُؤمَروا به ؛ بالذى ترون أنّه الرَّأْىُ مِنْ وَالِيكُمْ ومَحَبَّتِه .

قالوا : فهاتِ ، فمـا الرأى ؟ قال : إنّ أبا بـكر لم يَبْعَثْنَا إلا وهو يرى أنّا سَنَتَيَاسَرُ ، ولو علم بالذى كان ويكون لـكان قد جمعكم ؛ إنّ الذى أنتم فيه أشدُّ على المسلمين ممـا قد غَشِيَهم ، وأنفعُ للمشركين من أمدادهم ، ولقد علمت أن الدنيا فرّقَتْ بينـكم ، فاللهَ اللهَ ! فقد أفرِد كلّ رجل منكم ببلدٍ من البلدان ، لاينتقصه

---

(١) الأشقر : اسم الفرس خالد .

(٢) الوجى : أن يشتكى الفرس باطن حافره .

منه إنْ دان لغيره من أُمراء الجنود ، ولا يزيده عليه إنْ دانُوا له . إنّ تأمير بعضِكم لاينقُصكم عند الله ولا عند خليفةِ رسولِ الله صلى الله عليه وسلم ، هَلُمُّوا ؛ فإن هؤلاء قد تهيّئوا ، وهذا يومٌ له مابعْدَهُ ، إن ردَدْناهم إلى خَنْدقهم اليوم لم نزَلْ نرُدُّهم ، وإن هزَمُونا لم نُفْلِحْ بعدها ، فهلُمّوا فلْنتَعاوَر الإمارَة ، فليكن عليهم بعضُنا اليوم ، والآخرُ غدا ، والآخَرُ بعدغد ، حتّى تتأمَّروا كلُّكم ، ودَعُونى أَلِيكُم اليوم .

فأمَّروه ، وأصبح خالد أميرَ المسلمين فى ذلك اليوم . وخرجت الروم فى تعبئة لم يرَ الراءون مثلَها قطّ ، وخرج خالد فى تعبئة لم تعبِّئها العربُ قبل ذلك .

فخرج فى ستة وثلاثين كُردوساً[1] إلى الأربعين ، وقال : إن عدوّكم قد كَثُرَ وطَغَى ، وليس من التعبئة تعبئة أكثر فى رأى العَيْن من الكراديس ، فجعل القلب كَراديس وأقام فيه أبا عبيدة ، وجعل الميمنة كَراديس وعليها عَمْرو بن العاص؛ وفيها شُرَحْبِيل بن حَسنة ، وجعل المَيْسَرَة كَراديس وعليها يزيد بن أبى سفيان . وجعل لكلّ كُردوس رئيسا يَأْتمِرُ بأمْرِ رئيس الميمنة أو الميسرة أو القلْب ، وكان كل كُردوس يَزيدُ قليلا على الألف ، وجعل للجيش قاصًّا يذكّرهم ، وكان القاصّ أبا سفيان بن حَرْب ، يسير فيقِفُ على الكرادِيس فيقول : اللهَ اللهَ ! إنكم ذَادَةُ العربِ وأنصارُ الإسلام ، وإنها ذَادَة الرومِ وأَنصار الشِّرْك ؛ اللهم إنّ هذا يومٌ من أيامك ، اللهمّ أنْزِل نَصْرَك على عِبادِك !

ثم أمر خالد مُجَنِّبَتَى القَلْبِ أنْ يُنشِبا القتال ، وكان فيهما عِكرمة بن أبى جهل والقَعْقاع بن عمرو ، ففعلا .

---

(١) الكردوس : الفرقة من الخيل .

والتحم القتال ، وتَطارَدَ الفُرْسان .

وإنهم على ذلك إذ قدم البريدُ من المدينة وفيه مَحْمِيَة بن زُنَيم ، فأخذته الخيول، وسألُوه الخبر ، فلم يخبرهم إلّا بِسَلَامة ، وأخبرهم عن أَمْداد ـ وكان قد جاء بموْت أبى بكر رحمه الله ، وتأمير أَبى عُبيدة ـ فأبلغوه خالدا ، فأخبره خَبَرَ أَبى بكر ، وأسرَّه إليه ، وأخبره بالذى أَخبر به الجند ، فقال له : أحسنتَ فقِف . وأخذ الـكتاب وجعله فى كِنانَته ، وخافَ إن هو أظهر ذلك أن ينتشر له أَمْرُ الجند ، ووقف مَحْمِية مع خالد .

ثم خرج جَرَجَة(١) ونادى : ليخرجْ إلىَّ خالد فخرج له خالد ، وأقام أبا عُبيدة مكانَه ، فواقفه بين الصّفين حتى اختلفت أعناقُ دابّتيهما ، وقد أمّن أحدُهما صاحبَه . فقال جَرَجَة : يا خالد ؛ أُصْدُقنى ولا تـكْذبنى ، فإن الحرّ لا يكذب ؛ ولا تخادِعْنى ، فإنّ الـكريمَ لا يُخادع . . . بالله هل أنزَلَ الله على نبيّكم سَيْفاً مِنَ السماء فأعطاكه فلا تسلّه على قوم إلّا هزمتَهم ؟ قال : لا . قال : فـبِمَ سُمّيتَ سَيفَ الله ؟ قال : إن الله عز وجل بعث فينا نبيَّه صلى الله عليه وسلم فدعانا فنفرْنَا ، ونأَيْنَا عنه جميعاً ؛ ثم إنَّ بعضنا صدَّقه وتابعه ، وبعضنا باعَدَه وكذَّبه ، فـكنتُ فيمن كذَّبه وباعدَه وقاتَله ؛ ثم إن الله أخـذ بقلوبنا ونواصِينا ، فهَدَانا به فتابَعْناَه ، فقال : أنْتَ سيفٌ من سيوف الله ، سلّه الله على المشركين ، ودعا لى بالنصر ، فسمّيتُ سيفَ اللهِ بذلك . فأنا من أشـدّ المسلمين على المشركين . قال : صدقتنى .

ثم قال جَرَجَة : يا خالد؛ أخبرنى إلامَ تدعونى ؟ قال : إلى شهادةِ أن لا إله إلا الله

---

(١) اسم مقدم عسكر الروم يوم اليرموك ، والضبط من القاموس .

وأنّ محمداً عبده ورسوله ، والإقرارِ بما جاء به من عند الله. قال : فمَن لم يُجِبْكم ؟ قال : فالجزيةُ ونمنعُهم ؛ قال : فإن لم يُعطها ؟ قال : نُؤْذِنُه بحَرْب ثم نقاتِلُه ، قال : فما منزلةُ الذى يدخلُ فيكم ويُجيبكم إلى هذا الأمر اليوم ؟ قال : منزلتُنا واحدةٌ فيما افْتَرض الله علينا ، شريفُنا ووضيعنا ، وأوّلنا وآخرنا .

ثم قال جرَجَة : هل لِمَنْ دخل فيكم اليوم يا خالدُ مثلُ ما لكم من الأَجْر والذُّخْرِ ؟ قال : نعم ، وأفضل .

قال : وكيف يُساوِيكم وقد سبقتُمُوه ؛ قال : إنّا دخلنا فى هذا الأمر ، وبايعنا نبيَّنا صلى الله عليه وسلم وهو حَىٌّ بين أظهرِنا تأتيه أخبارُ السماء ، ويُخبرنا بالكتب ويُرِينا الآيات ، وحُقّ لمن يرى ما رأيْنَا ، ويسمعُ ما سمعنا أن يُسلم ويبايع ؛ وإنكم أنتم لم ترَوْا ما رأيْنَا ، ولم تَسمعوا ما سمعنا من العجائب والحجج ، فمَنْ دخل فى هذا الأمر بحقيقةٍ ونيَّة كان أفضلَ منا .

قال جرَجَة : بالله لقد صدقتنى، ولم تخادِعنى ولم تَأْلَفْنِى ؟ قال: بالله لقد صدقْتُكَ وما بى إليك ولا إلى أحدٍ منكم وَحْشة ، وإنّ الله لولىّ ما سألْت عنه .

فقال : صدقتَنى ؛ وقلَبَ التُّرس ومال مع خالد ، وقال : عَلِّمْنى الإسلامَ ، فمال به خالدٌ إلى فُسْطَاطه ؛ فشنّ[1] عليه قِرْبةً من ماء ، ثم صلى ركعتين .

وحملت الرومُ مع انقلابِه إلى خالد ، وهم يرَوْن أنها منه حَمْلَة. فأزالوا المسلمين عن مواقفهم ؛ وركب خالدٌ ومعه جَرَجة والرُّومُ خلالَ المسلمين ، فتنادى الناس فثابُوا ، وتراجعت الرومُ إلى مواقفهم .

فزحف خالدٌ بهم حتى تصافَحُوا بالسيوف ، فضرب فيهم خالد وجَرَجة من لدن ارتفاع النهار إلى جُنوح الشمس للغروب ، ثم أصيب جرَجَة ، ولم يصلّ صلاة

---

(١) شن : صب .

سجد فيها إلا الركعتين اللتين أسلم عليهما ، وصلّى الناسُ الأولى والعصر إيماءً .

ونَهَدَ خالد للروم ، ووقف عِكْرِمة — وكان على الحامِيَة — ونادى فى الناس : مَنْ يبايع على الموت ؟ فبايعه الحارثُ بن هشام وضرار بن الأزْوَر ، فى أربعمائة من وجوه المسلمين وفُرْسانهم ، ونشب القتال .

وكان المكان واسعَ المُطَّرد ، ضيّقَ المَهْرَب ، وتضايقت خَيْل الروم ، فلما وجدت مَذْهَباً ذهبت تشتدُّ فى الصحراء ، وأفْرَج لها المسلمون ، وترك فرسانهم الرَّجال فى مصافّهم ، وتفرّقوا فى كل مَذْهب لا يَلْوُون على شىء .

وأقبل خالدٌ والمسلمون على الرَّجْل[1] ففضُّوهم ، فكأنما هُدِم بهم حائط ، فاقتحموا فى خَنْدَقهم ، فاقتحمه عليهم ، فعَمدوا إلى الوَاقُوصة فهوَوْا فيها ، فكان عدد مَنْ تهَافَتَ فيها يزيد على مائةٍ وعشرين ألفاً ، سوى مَنْ قتل فى المعركة من الخيل والرَّجْل ؛ وقاتلوا حتى الليل ، حيث وقعت الهزيمةُ على الروم ، وقتل الله صَنَادِيدَهم وفُرْسانهم وقُتِل أخو هِرقل ! وانتهت الهزيمةُ إلى هِرقل وهو دون حِمْص فجعلها بينه وبينهم ، وأمّر عليها .

وفى ذلك اليوم أَبْلَى المسلمون وقاتلوا ، حتى النساء كان لَهُنَّ نَصِيب ، يَقُمْنَ بِسَقْىِ الجند ، ومُدَاواة الجرحى ؛ وأُصيب مِنْ وُجوهِ المسلمين أكثرُ من ثلاثة آلاف قُتِلوا جميعاً إلا من برأ منهم .

وأُتِىَ خالد بعد المعركة بعِكْرِمة جَريحاً فوضع رأسه على فخذه ، وبعمرو بن عِكْرِمة فوضع رأسه على ساقه ، وجعل يَمْسَحُ عن وجوههما ، ويَقْطر فى حلوقهما الماء ؛ ويقول : كلا ! زعم ابن الحَنْتَمَة[2] أنا لا نستشهِد !

---

(١) الرَّجل : الراجلون ، غير الركبين .

(٢) يريد عمر بن الخطاب .

ولما انتهت الموقعة سلّم خالد الكتاب إلى أبى عُبيدة بالإمارة ، ثم قال : الحمدُ لله الذى قَضَى على أبى بكر بالموت ، وكان أحبَّ إلىَّ من عُمَر ، والحمد لله الذى ولّى عُمر، وكان أبغض إلىّ من أبى بكر ثم ألزمنى حبَّه .

وقسّمت الغنائم ، فكان سَهْمُ الفارسِ ألفاً وخمسمائة . ثم نادى أبو عُبَيْدَة بالرّحيل ، فارتحل المسلمون بزَحْفِهم حتى وضعُوا عساكرهم بمَرْجِ الصُّفَّر ، وأقام فيها أبو عُبيدة وقال : لا أَبْرَح حتى يَأْتِىَ أمر عمر ...

٣١ — يوم النَّمارِق*

بعد أن وَدَّع المثنّى بن حارثة الشَّيْبانىّ خالدَ بن الوليد فى مَسيرِهِ إلى الشام أقام بالحيرة، ووضع المَسْلَحة(١) وأَذْكَى العُيُونَ .

وأما الفُرْس فإنهم قد استقاموا على شهريران بن أَرْدَشِير ، فوجَّــه إلى المثنّى جُنْداً عظيماً عليهم هُرْمز جاذويه فى عشرة آلاف ، فخرج المثنّى نَحْوه ، وجعـل على مُجَنِّبَتَيْهِ المُعَنَّى ومسعودا أخويه ، وأقام ببابل ، وفيها جاءه مِنْ كسرى شهريران كتاب جاء فيه : إنى قد بعثتُ إليـكم جنـداً من أَهْل فارس وإنما هم رُعاة الدَّجاج والخنازير، ولست أُقَاتِلك إلَّا بِهم .

فأجابه المثنّى : من المثنَّى إلى شهريران ؛ إنما أنتَ أحــدُ رَجُلَين : إمَّا باغٍ فذلك شرٌّ لكَ وخيرٌ لنا ، وإما كاذبٌ فأعظمُ الـكذَّابين عقوبةً وفضيحةً عند الله وفى الناس ـ الملوكُ . وأمَّا الذى يَدُلُّنا عليه الرَّأْى فإنـكم إنما اضطُرِرتُمْ إليهم ؛ فالحمدُ لله الذى ردَّ كيدَكم إلى رُعاةِ الدَّجاج والخنازير .

فجَزِع الفُرْس مِنْ كتابه ، ثُمَ الْتَقَتْ جيوشُ هُرمز وجيوشُ المثنّى ببابل، فاقتتلوا قتالًا شَدِيداً ، وكان فِيلُهم يَفْرَق(٢) منه المسلمون ؛ فانتدب(٣) له المثنَّى فى جَمْعٍ

---

* لأبى عبيدة على هرمز (الفرس) سنة ١٣ . والنمارق : موضع قرب الـكوفة من أرض العراق .

الطبرى ٦٢/٤ . ابن الأثير ٢١٢/٢ . ابن خلدون ٨٧/٢ .

(١) المسلحة : القوم ذو سلاح .

(٢) يفرق : يخاف ويفزع .

(٣) قال الجوهرى : يقال : ندبه للأمر فانتدب له ، أى دعاه له فأجاب .

مِنَ المسلمين وقتلوه ، وانهزم الفُرْسُ وتبعهم المسلمون إلى المدائن يَقْتُلونهم . ونزلت أنباء الهزيمة بشهريران نزولَ الصاعقةِ ؛ فَحُمَّ ومات .

وأراد الفُرسُ أن يُملّكوا عليهم ابنة كسرى لِيَفْرُغوا إلى تنظيم شُؤُونهم ، فلم يُنَفَّذْ لها أمر فَخُلِعَتْ . وخلفها على العرش سابور بن شهريران . واستوزر سابورُ الفَرُّخزاد ، وأراد أنْ يزوِّجه آزَرْميدُخت ابنة كسرى ، فغضبت ألا يكون زوجُها من بيت الملك ، وقالت لسابور : يابنَ عَمّ ؛ أتزوجنى عَبْدى ! لكنّ سابور لم يسمَعْ لقولها وأغلظ لها فى الخطاب ، فاستعانت بِأَحدِ فُتَّاكِ الأَعاجم . فلمّا كانت ليلةَ العُرْس ، ودخل الفَرُّخزاد مَخْدعَ آزَرْميدُخت ثار به الفاتكُ فقتله ومَن معه ، ثم سار بابنةِ كسرى وأعوانِها إلى سابُور فحاصروه ودخلوا عليه فقتلوه ، وجلست آزَرْميدُخت على العرش مكانه .

وترامَتْ هذه الأنباء إلى المُثنّى ، فسار بجيشه يطارِدُ الفرس حتى بلغ أبوابَ المدائن ، ثم كتب إلى أبى بكر بانتصاره على الفُرْس ، واستأْذَنه فى الاستعانةِ بمن ظَهرَتْ تَوْبَتُهم من أهل الرِّدَّة ، لكنّ انتظارَه طال ، وأبطأَ عليه ردُّ الخليفة ، فانسحبَ فى الجيش إلى أَدْنى العراقِ من حدود البادِيَة ، واستخلف بشير بن الخصاصِيَّة على مَن بالعراق من المسلمين ، وذهب بنفسه إلى المدينة لِيُقْنِعَ أبا بَكْرٍ برَأْيِه .

فقدم المدينةَ وأبو بكر مريضٌ قد أَشْفَى على الموت ، ولكنه استقبله ، وسمع إليه ، واقتنع برأيه ، وقال : عَلَيَّ بِعُمَرَ ــ وكان قد استخلفه ــ فلما جاء قال له : اسمعْ ياعُمر مأقول لك ، ثم اعمل به ، إنى لأرجو أن أموتَ مِن يومى هذا ، فإن أنا متّ فلا تُمْسيَنَّ حتى تندب الناس مع المثنى . وإن تأَخَّرْتُ إلى الليل فلا

تُصْبِحَن حتى تَنْدُبَ الناس مع المثنّى . ولا تَشْغَلَنَّكُمْ مصيبة وإن عَظُمَتْ من أَمْرِ دينكم ووصيةِ ربكم . وقد رأيتَنى مُتَوَفّى رسولِ الله صلى الله عليه وسلم وما صنعتُ ولم يُصَب الخلق بمثله ، وبالله لو أَنّى أَنِى عن أَمْرِ الله وأَمْرِ رسوله لخذَلنا ولعاقَبنا ، فاضطرمَت المدينة ناراً ، وإن فَتَحَ اللهُ على أُمراء الشام فارْدُدْ أصحابَ خالدٍ إلى العراق ، فإنّهم أهلُه وولاةُ أَمره ؛ وهم أهلُ الضَّراوَةِ بهم ، والجُرأة عليهم .

* * *

فلما فرغ عُمَرُ من أبى بكر نَدب الناس مع المُثَنّى قبْلَ صلاة الفجر ، من اللّيلة التى مات فيها أبو بكر ، ثم أصبح فبايعه الناس ، وندَبهم إلى فارس ، وتتابع الناسُ على البَيْعة ، ففرَغوا فى ثلاث ؛ كلَّ يومٍ يندُبهم فلا يَنْتدبُ أحدٌ إلى فارس ؛ وكان وجهُ فارس من أكرهِ الوجوه إليهم ، وأثقلِها عليهم ، لشدةِ سُلْطانهم وشوكتهم وعزّهم وقهرهم الأُمم ؛ فلما كان اليومُ الرابع عاد فندب الناس إلى العراق ، وتكلم المُثَنّى بنُ حارثة ؛ فقال : يأيها الناس ، لا يَعظُمَنَّ عليكم هذا الوجه ؛ فإنا قد تَبَحْبَحْنا[1] رِيفَ فارس ، وغلَبْناهُم على خير شِقَّىِ السَّواد[2] ، وشاطَرْناهم ونلْنا منهم ، واجترأ مَنْ قِبلَنا عليهم ، ولها إن شاء الله ما بعدَها .

وقام عُمَرُ فى الناس فقال : إنَّ الحجازَ ليس لكم بدارٍ إلا على النُّجْعة[3] ، ولا

---

(١) التبحبح : التمكن فى الحلول والمقام .

(٢) السواد : قرى العراق وضياعها التى فتحها المسلمون على عهد عمر بن االخطاب ، سمى بذلك لسواده بالزروع والنخيل والأشجار .

(٣) النجعة : طلب الكلأ فى موضعه .

يَقْوَى عليه أهْلُه إلا بذلك . أين الطُّرّاء[1] المهاجرون عن مَوْعودِ الله ؟ سِيرُوا فى الأرض التى وَعدكم الله فى الكتاب أن يُورِثكموها ؛ فإنه قال : «ليظهره على الدِّينِ كله » ، والله مُظْهِرٌ دينَه ، ومُعِزٌّ ناصرَه ، ومُوَلٍّ أهلَه مواريثَ الأَرض . أين عبادُ الله الصالحون !

فكان أوَّل منتدب أبُو عُبَيْد بن مسعود[2] ، ثم ثنَّى سعد بن عُبيد وسَلِيط ابن قيس . فلما اجتمع ذلك البَعْث ، قيل لعمر : أمِّرْ عليهم رجلا من السابقين من المهاجرين والأنصار .

قال : لا ، واللهِ لا أفعل ، إن الله رَفعكم بسَبْقكم وسُرْعَتِكم إلى العدو ، فإذا جَبُنْتُم وكرهتم اللقاء ، فأوْلَى بالرياسةِ منكم مَنْ سبق إلى الدَّفع ، وأجاب إلى الله ؛ والله لا أُؤَمِّر عليهم إلا أوّلَهم انتدابا .

ثم دعا أبا عُبيد فأمَّرَه ، ودعا سَليطا وسَعْداً ، فقال لهما : أما إنكما لو سبقتماه لولَّيتُكما .

ثم قال لأبى عُبَيْد : اسمع مِنْ أصحاب النبىّ صلى الله عليه وسلم ، وأشركْهم فى الأمْرِ ، ولا تجتهدْ مُسْرعاً حتى تتبيَّنَ ؛ فإنها الحربُ ، والحربُ لا يُصلِحها إلا الرجل المَكِيث[3] الذى يَعرِف الفُرْصةَ والكَفّ .

***

وعَجَّل المُثَنَّى إلى عسكره ، وأبو عُبيد بمَنْ معه ، وكانوا خمسة آلاف فى أثَرِه ،

---

(١) الطراء : الغرباء ، وهم الذين يأتون من مكان بعيد .

(٢) أبو عبيد بن مسعود : ينتهى نسبه إلى ثقيف ، وهو والد المختار بن أبى عبيد المشهور فى خلافه مع عبد الله بن الزبير .

(٣) المكيث : الرزين .

وصار أبو عُبيد يستَنْفِرُ مَنْ يَمُرُّ بهم مِنَ العَرَب ؛ فأجابه بَشَرٌ كثير. ووصل المُثنّى إلى الحيرة ؛ وجاء بعده أبو عبيد بقليل .

وكان الفُرْسُ فى ذلك العهد قد ولَّوْا عليهم آزرْميدُخت مَلِكة ، واختارت هى رستم أحدَ عظماء الفرس ، قائداً عاماً للجنود الفارسية ؛ ودانت له الفرسُ حينما ورد أبو عُبيد . وكان أول ماصنع رستم أن كتب إلى دَهاقين[١] السَّوَاد أن يَثُورُوا بالمسلمين ، ودَسَّ فى كل رُسْتاق[٢] رجلا ليثورَ بأهله؛ وكان ممن أرسله جابان ونَرْسِى من القواد ، فأثاروا الناسَ مِنْ أعلى الفرات إلى أسفله ؛ واجتمع جندٌ عظيم قام فى النَّمارق[٣] ، ونزل المُثنَّى بِخَفّان[٤] ، ثم تلاحم الجيشان ، واقتتلوا اقتتالا شديداً ، ثم انهزمت الفرس وأُسِرَ جابان ، كما أُسِرَ قائدٌ تحت إمْرَته يُدْعَى مردان شاه ؛ فأما آسِرُ مردان شاه فقتله ، وأما آسِر جابان فقد خدعه جابَان ؛ فقال له : إنكم معاشرَ العرب أهلُ وفاء ، فهل لك أن تؤمننى وأُعْطِيكَ كذا وكذا ؟ قال : نعم . قال : فأدْخِلْنى على مَلِككم حتى يكونَ ذلك بمشهدٍ منه . ففعل وأجاز أبو عُبَيد أمانَه .

ولما علم بنو تَميم أنه الرئيس قالوا لأبى عُبَيد : اقتُلْه فإنه الأمير . قال : وإن كان الأمير؛ أيؤمّنه صاحبُكم وأقتله أنا ! معاذ الله ؛ مالزِم بعضَ المسلمين فقد لزمهم كلهم !

وقسم أبو عُبَيد الغنائم ، وكان فيها عِطْرٌ كثير ونَفَل، وبَعَثَ بالأَخماس إلى عُمَر.

---

(١) الدهقان : رئيس الإقليم ، ويطلق على زعيم فلاحى العجم .
(٢) الرستاق : مجموعة القرى . (٣) موضع كما تقدم .
(٤) خفان : مأسدة قرب الكوفة (القاموس) .

٣٢ – يوم السَّقَاطيَّة*

كانت كَسْكَرُ[1] قطيمةً لِنَرْسى ابنِ خالة كسرى ؛ وكان النَّرْسِيَان[2] له يَحْمِيه ؛ لا يأكله سِوَاهُ ولا يَغْرِسُه غيرُ أهل كَسْكَر .

فلما انهزم الفرسُ يوم النَّمارق قال رستم القائد لنَرْسى : اشْخَصْ إلى قَطيعَتِك فاحْمِها من عدوك وعدوّنا ، وكُنْ رَجُلا .

فلمّا رأى أبو عُبيد الفَالَّة[3] مُتَوَجِّهين نحو نَرْسِى نادى بالرحيل ، وقال لجنده : اتَّبِعوهم .

فلمّا رأى الفرسُ تَهيُّؤَ أبى عُبَيد ورجالِه وجّهوا جَيْشاً لِيُمِينَ نَرسى ، على رأسه الجالنوس ؛ ولكن أبا عُبَيْد عاجل القومَ قبل أن يُدْرِكهم المَدد ؛ وكان المثنَّى على تعبئته الماضية ، والتقوا بالسَّقَاطِيَّة ، واقتتلوا قتالا شديدا . ثم انهزمت فارس ، وهرب نَرْسى ، وغَلَبَ المسلمون على أرضه وتَمْرِه وعسكره ، وأَخرَب[4] أبو عُبيد ما كان حول مُعسكرهم ، وجمع الغنائم ، فرأى من الأطعمة شيئاً عظيما ، فبعث فيمَنْ يليه من

---

* لأبى عبيد على نرسى والجالنوس (الفرس) . سنة ١٣ . والسقاطيه : ناحية بأرض كسكر قريبة من واسط .

تاريخ الطبرى ٤/٦٤ ، معجم البلدان ٥/٩١ ، ابن الأثير ٢/٢١٣ ، ابن خلدون ٢/٨٨

(١) كسكر : كورة واسعة ، كانت قصبتها خسرو سابور ، ثم سارت واسط قصبتها.

(٢) النرسيان ضرب من التمر يكون أجوده ، واحدته نرسيانة وأهل العراق يضربون الزبد بالنرسيا مثلا لما يستطاب . (٣) الفالة : المنهزمون. (٤) أخرب : مثل خرب بتشديد الراء.

العرب ، فانْتَقَوْا ماشاءوا ، وأُخِذت خزائنُ نَرْسى ، فلم يكونوا بشىء مما خُزِنَ أفْرَحَ منهم بالنّرْسِيَان .

فاقتسموه وجعلوا يُطعمونه الفلاحين ، وبعثوا بخُمْسه إلى عمر ، وكتبوا إليه : إنّ الله أطعمنا مطاعم كانت للأكاسرة يَحْمُونها ، وأَحْبَبْنَا أن ترَوْها ، لِتذْكرُوا إنعامَ الله وإفضالَه .

وأقام أبو عُبَيد بِكَسْكر ، وسرّح المثنّى وغيرَه من القُوّاد ، يُغيرون على النواحى ، ويفلّون[1] عَصَائبَ الجنودِ المتفرقة هناك ، ثم صالحَه مَنْ خاف ممن بَقِى.

وجاء الدّهاقينُ[2] إلى أبى عُبَيد بآنيةٍ فيها أطعمةُ فارس، وقالوا : هذه كَرامةٌ أكْرَمْنَاك بها قِرًى لك . قال : أأكرمتم الجند وقرَيْتُموهم مثله ؟ قالوا : لم يتَيسَّر ، ونحن فاعلون . قال : لاحاجةَ لنا فيه ؛ بئس المرء أبو عبيد إنْ صَحِب قوماً مِنْ بلادهم أهَرَاقُوا دماءهم دُونَه أو لم يُهرِيقوا ، فاستأْثَرَ عليهم بشىء يُصيبُه ! لاواللهِ لانأكلُ مما أفاءَ الله عليهم إلا مثلَ مايأكل أوْساطُهم . ولم يَأْكُلْ من طعامٍ أَتَى به الدّهاقينُ غدَاةَ ذلكَ اليومِ حتى عَلِم أنهم قرّبوا مثلَه لأصحابه .

ثم ارتحل أبو عُبيد ، وقدّم المثنّى فى تعبئته حتى قدم الحيرة واستقرّ بها .

---

(١) فل القوم : هزمهم .

(٢) الدهقان : زعيم فلاحى العجم ورئيس الإقليم .

٣٣ — يوم قُسّ الناطف*

رجع الجالنوس منهزماً ، ومعــه جنودُه في يوم السَّقَاطِيَّة ، فقال رُستُم : أيُّ العَجَمِ أشدُّ على العرب فيما ترَوْن ؟ قالوا : بَهمَن جاذويه[١] . فوجَّهه ومعه الفِيَلة ، وردّ الجالنوس معه ، وقال له : قَدِّم الجالنوس ، فإنْ عَادَ لمثلها فاضربْ عنقه .

وسار بَهْمَن من المَدائنِ يَقْصِدُ مُوَاجَهَةَ عدوّه والقَضَاءَ عليه ، ومعــه رايةُ كِسْرَى ، وكانت من جلود النّمر ، عَرْضُ ثمانيــة أذرع ، في طول اثْنَتَيْ عشرة ذراعاً ، ونزل بقُسّ النَّاطف .

وأقبل أبو عُبيد ، فنزل المَرْوَحَة ، وعَسْكر بهــا ، وجعل الفُرات بينه وبين العدوّ ، فبعث إليــه بَهْمَن جاذويه : إما أن تعبرُوا إلينا وندَعــكم والعبور ، وإما أن تدَعونا نَعبُرُ إليــكم .

فقال الناسُ : لاتعبرْ ياأبا عُبيــد ، نَنْهاكَ عن العبور ، فحلف ليَقطعنّ الفراتَ إليهم .

فناشده سُلَيط بن قيس ووجوه الناس ، وقالوا : إنّ العرب لَم تَلْقَ مثل جنودِ فارس مذ كانوا ، وإنهم قد حَفَلوا[٢] لنا واستقبلونا من الزُّهَاء[٣] والعُدَّة بما لم يَلْقَنا

---

* للفرس (بهمن) على العرب (أبي عبيد) سنة ١٣ . وقس الناطف : موضع قريب من الكوفة على شاطىء الفرات الشرقي . ويسمى أيضا يوم المروحة ، وهو موضع بشاطىء الفرات الغربي . وقد يسمى يوم الجسر لما كان من قطعه وراء المسلمين .

الطبري ٤/٦٧ . ابن الأثير ٢/٢١٤ . ابن خلدون ٢/٩٠ معجم البلدان ٧/٨٨ . فتوح البلدان ٢٥٢ .

(١) كان بهمن يلقب بذي الحاجب ، لأنه كان يعصب حاجبيه ليرفعهما عن عينيه كبرا .

(٢) حفلوا ، أي اجتمعوا واحتشدوا .

(٣) يقال : قوم ذو زهاء ، أي عدد كثير .

به أحدٌ منهم ، وقد نزلت منزلا لنا فيه مجالٌ وملجأ ومَرْجع ، من فرَّةٍ إلى كرَّةٍ .

فقال : لا أفْعَلُ ، جَبُنْتَ واللهِ ياسُليط ! فقال سُليط : أنا واللهِ أجْرَأُ منك نَفْساً ، وقد أشَرْنا عليك بالرأى فستعلم ! فَلَجَّ أَبُو عبيد ، وترك الرأْيَ ، وقال : لا يكونون أَجْرَأَ على الموت منّا ؛ بل نَعْبُرُ إليهم .

وكانت زوج أبى عُبيد رأت رُؤْيَا : أنّ رجلا نزل من السماء بإناء فيه شراب ، فشرب منه أبو عُبيد فى أُناس من أهله ، وأَخْبَرَتْ بذلك أبا عبيد ، فقال : هذه هى الشّهادة ، وأَوْصَى بمن يَخْلُفُهُ فى الجيش إذا مات .

وأمَرَ جنودَه بالعُبُورِ ؛ فعبَرُوا مِنَ المَرْوَحَةِ حيث تحصَّنُوا ـ إلى قُسّ الناطف ـ حيثُ أقام الفُرْس ـ وعبَرَ سُلَيط بن قَيْس فى مُقدّمة العابرين .

وكان جندُ المسلمين دونَ عشرة آلاف ، ومع ذلك ضاق بهم المكانُ الذى تركه لهم الفرسُ وراءَ الجسر ، فلم يكن لهم فيهِ مَرْجع مِنْ فرَّةٍ إلى كرَّة ، ولم يُمْهِلْهُم بَهْمَنَ حين تمَّ عُبُورُهم أن أمرَ جنودَه فحملوا عليهم ، وفى مقدمتهم الفِيَلَةُ عليها الجلاجل ، ونظرت خيولُ المسلمين إلى هذه الفِيَلَة ، وسمِعَت رنينَ جَلاجِلِها فأنْكَرَتْ ما رَأَتْ وما سَمِعَتْ ، وفرّتْ ، فلم يثْبُتْ منها إلا القليلُ على كُرْهٍ . ورشَق الفُرْسُ المسلمين بالنَّبْل فقتلوا منهم خَلْقاً كثيراً(١) .

واشتدّ الأمرُ بالمسلمين ، فترجّل أبو عُبَيد والناس ، ومَشَوْا إلى الفرس وصافحوهم بالسيوف ؛ فجعلت الفِيَلَةُ لا تَحْمِلُ على جماعةٍ إلاّ دفعتهم . فنادى

---

(١) الفاروق عمر ، للدكتور هيكل .

أبو عُبيد : احْتَوِشُوا[1] الفِيَلة ، واقطعوا بُطُنَها[2] ، واقلِبُوا عنها أهلها .

وفعل القومُ ذلك ، فما تركوا فِيلاً إلا حَطُّوا رَحْلَه ، وقتلوا أصحابه .

ووثب هو على الفيل الأبيض ، فقطع بِطَانَه ، فوقع الذين عليه ، وضرب خرطومَه بالسيف ، ولكنّ الفيل تقدّم لأبي عُبيد وضربه برجله ، فألقاه على الأرض ، ثم وقف فوقه فأزهقَ رُوحه .

فلمّا بَصُر به الناسُ تحتَ الفيل خشعت أنفسُ بعضهم ، ثم أخذ اللواء الذى أمَّره بعده ، فقاتل الفيلَ حتى تنحى عن أبي عُبيد ، فأخذه المسلمون فأحْرَزُوه ، ثم قتل الفيلَ ، وتتابع سبعةٌ من ثَقيف ، كلُّهم يأخذُ اللواء ، ويقاتل حتى يموت ، ثم أخذ اللواء المثنَّى فهرب عنه الناس .

فلمّا رأى عبدُ الله بن مَرْثَد الثقفيّ ما لَقِيَ أبو عُبيد وخلفاؤه ؛ وما يصنع الناس ، بادَرَهم إلى الجِسْرِ فقطعه ، وقال : يأيُّها الناسُ ؛ موتُوا على ما مات عليه أمراؤكم أو تَظْفَرُوا ، وحاز المشركون المسلمين إلى الجِسْر ، فتواثب بعضُهم إلى الفرات، فغرق من لم يَصْبِرْ .

وخَشِيَ المثنَّى أن تعمَّ الفوضى ، فوقف اللّواءُ بيدهِ يُنادِي : يأيها الناس ، إنَّا دونَكم فاعْبُرُوا على هينتكم[3] ، ولا تُدْهَشوا ؛ فإنَّا لن نُزَايِلَ حتى نراكم من ذلك الجانب ، ولا تُفْرِقُوا أنفسكم .

فعَبَرُوا الجِسْرَ ، وعبدُ الله بنُ مَرْثَد قائمٌ عليه يمنَعُ الناس من العُبُور ، فأخذوه وأتَوْا به المثنَّى فضرَبَه ، وقال : ما حملك على الذى صنعْتَ ؟ قال : لِيُقَاتِلُوا .

---

(١) قال فى اللسان : يقال : احتوش القوم الصيد ، إذا نفره بعضهم على بعض .

(٢) البطن : جمع بطان : الحزام . (٣) على هينتكم : أى متمهلين .

وقاتل عُرْوَة بن زَيْد الخيل قتالاً شَدِيداً ، وأبو مِحْجَن الثَّقفِىّ ، وقاتل أبو زَبيد الطائىّ ؛ حَمِيَّةً للعربية ـ وكان نصرانيًّا قدم الحيرة لبعض أمره .

ونادى المثنّى : مَنْ عبَرَ نَجا . ثم أصلح الجِسْر ، فعبَر الناس ، ثم عبر بمَنْ معه إلى المَرْوَحَة وهو جَرِيح ، ثم ارفضَّ عنه أهلُ المدينة حتى لحقوا بالمدينة ، وسار بعضهم فى البوادى استحياءً من الهزيمة .

وبعث المثنّى بخبَر الهزيمة إلى عُمر مع عَبْد الله بن زَيْد ، فلما انتهى إليه قال : ما عندك يا عبدَ الله ؟ فأخبَره خبرَ الناس ، قالت عائشةُ ـ وقد سَمِعَتْه يحدِّثُ عمر : ما سمعتُ برجل حَضَر أمْراً فحدّث عنه كان أثبتَ خَبَراً منه .

فلما قدم فَلُّ الناسِ[1] ورأى عمرُ جَزَع المسلمين من المهاجرين والأنصار من الفِرَارِ قال : لا تجزَعُوا يا مَعْشَرَ المسلمين ، أنَا فئتكم ؛ إنما انْحَزْتُمْ إلىَّ .

ثم قال : اللهمّ كلّ مسلم فى حلٍّ منى ، أنَا فِئةُ كلِّ مسلم ، مَنْ لَقِىَ العدوّ فقَطع بشىء من أمره فأنَا له فِئَةٌ ، يرحم الله أبا عُبيد ! لو كان انحاز إلىَّ لكنْتُ له فِئَة .

وسمع مُعاذ القارئُ ـ وكان ممن شهد وفرّ ـ من يقرأ[2] : ﴿ وَمَنْ يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ إلاّ مُتَحَرِّفاً لِقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزاً إِلَى فِئَةٍ فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِنَ اللهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴾ ، فبكى ، فقال له عمر : لا تَبْكِ يا مُعاذ ، أنَا فِئَتُكَ ، وإنما انْحَزْتَ إلىّ .

---

(١) الفل من الناس : المنهزمون منهم .
(٢) سورة الأنفال ، آية ١٦ .

٣٤ — يوم البُوَيْب *

بعد أَنْ بلغت الهزيمةُ بالمسلمين مبلغَها يوم قُسّ النَّاطِف ندَب[١] عُمَرُ الناسَ إلى المثنَّى بن حارثة ؛ وكان فيمن نَدَب[٢] جريرُ بن عبد الله فى قومِه من بَجِيلة ، وعِصْمَة بن الحارث فيمن تبِعَه مِنْ ضَبَّة ، وكتب إلى أُهل الرِّدة يستَنْفِرُهم ، ولم يُوَافِهِ أحدٌ إلاّ رَمَى به المثنَّى ؛ فتوافَى إليه جَمْعٌ عظيم .

وبلغ رستَم والفَيْرُزَانَ ما عليه المثنَّى ، وما يَنْتَظِر مِنَ المَدَد ، فجمعا جُنْداً عظيما جَعَلا عليه القائدَ مِهْرَان الهَمَذانىّ وأَمَرَاهُ أَنْ يُسْرِعَ السيرَ لِلِقَاءِ هؤلاء الغُزَاةِ المسلمين .

وعرف المثَنَّى مَسِيرةَ هذا الجيش ، فأَرْسَل إلى جرير وعِصْمة وكلٍّ من أتاه مُمِدًّا له يُعْلِمُهم بالخبر ، ويُواعِدُهم البُوَيب .

فانتَهوْا إلى المثنَّى وهو بالبُوَيْب ، ومِهْرَان بإزائه مِنْ وراء الفرات ، وَقَدْ أَرسَلَ

---

* للعرب (المثنى بن حارثة) على الفرس (مهران الهمذانى) . سنة ١٣ . والبويب : نهر بالعراق يأخذ من الفرات . وقد يسمى يوم مهران ، ويسمى يوم الأعشار ، لأن مائة رجل من العرب قتل كل واحد منهم عشرة من الفرس .

الطبرى ٤/٧١ ، ابن الأثير ٢/٢١٥ ، ابن خلدون ٢/٩٠ ، معجم البلدان ٢/٣١٠ ، فتوح البلدان ٢٥٣ .

(١) هذه رواية ابن الأثير وقال البلاذرى : مكث عمر بن الخطاب سنة لا يذكر العراق لمصاب أبى عبيد وسليط ، وكان المثنى مقيما بأليس يدعو العرب للجهاد . ثم إن عمر ندب الناس إلى العراق فجعلوا يتحامونه ويتثاقلون عنه ، حتى هم أن يغزو بنفسه ، وقدم عليه خلق من الأزد يريدون غزو الشام فدعاهم إلى العراق ، ورغبهم فى غنائم آل كسرى ، فردوا الاختيار إليه ، فأمرهم بالشخوص .

(٢) قال البلاذرى : وقدم جرير بن عبد الله فى بجيلة ، فسأل أن يأتى العراق على أن يعطى وقومه ربع ما غلبوا عليه ، فأجابه عمر إلى ذلك .

إلى المثنَّى : إما أن تَعبُرَ إلينا، وإما أن نعبُرَ إليك ؛ فقال المُثنَّى : اعبُروا ؛ فَعبَرَه مِهْران، ونزل مع جُنْدِه على شاطئ الفُرات .

وعبَّى المثنَّى أصحابَه ، وكان فى رمضان ، فقام خطيباً وقال : إنكم صُوَّام ؛ والصَّوْمُ مَرَقَّة ومَضْعَفَة ، وإنى أرَى من الرأى أن تُفطِروا ، فتَقْوَوْا بالطعام على عدوّكم. قالوا : نعم ، وأفطروا .

وأَبصَر المثنّى رجلا يَستَوْفِزُ ويَستَنْتِل[1] من الصّف ، فقال : مابَالُ هذا ؟ قالوا : هو مِمّن فرّ يوم الزّحف يَوْم الجِسْر[2] ، وهو يريد أن يستقتل ، فقرعه بالرمح وقال : لا أبَالَك ! الْزَمْ موقفَك ؛ فإذا أتاك قِرنُك فأغْنِه عن صاحبك ، ولا تستَقْتِلْ ، فقال : إنى بذلك لجَدير ، واستقرَّ ولزِمَ الصَّفَّ .

وأقبل الفرسُ فى ثلاثة صفوف ، مع كل صَفّ فِيل ، ورَجْلهم أمام فيَلتهم .

وأخذ المثنّى يطوفُ فى صُفُوفِه ، ويَعْهَدُ إليهم بعَهْدِه، وهو على فرسه الشَّموس، ووقف على الرَّاياتِ رايةً رايةً ؛ يُحضِّضهم ويأمرُهم بأَمْرِه ، ويَهزُّهم بأحسن مافيهم ، تحضيضا لهم ، ولكُلٍّ منهم يقولُ : إنى لأرجو ألّا تُؤتَى العربُ اليوم من قِبَلكم ، والله ما يسرّنى اليوم لنفسى شىء إلا وهو يسرّ لِعامَّتِكم . فيجيبونه بمثل ذلك .

وأنصفهم المثنّى فى القول والفِعْل ، وخَلط الناسَ فى المكروه والمحبوب ، فلم يَستَطِعْ أحد منهم أن يَعيبَ له قوْلًا ولا عَملا .

ثم قال : إنى مكبِّر ثلاثاً ، فتهيَّئوا ، ثم احمِلوا مع الرابعة .

فلما كبَّر أوّلَ تكبيرةٍ أعجلهم أهْلُ فارس وعاجلوهم ، فخالطوهم مع أوّلِ

---

(١) استوفز . تهيأ للوثوب . استنتل : تقدم .

(٢) انظر يوم قس الناطف : ص ٢٣٠ .

تكبيرة ، واختلَّتْ لِشدَّةِ الفُرْس بَعضُ صُفُوفِ المسلمين ؛ فأرسل إليهم المُثَنَّى مَنْ يقول لهم : إن الأَمير يقرأُ عليكم السلام ، ويقول : لاتَفْضَحُوا المسلمين اليوم ؛ فقالوا : نعم ، واعتدَلوا .

ولما طال القتالُ واشتدَّ عَمِد المثنى إلى أنَس بن هلال النَّمَرِيّ ؛ فقال : ياأَنَس ، إنك امرؤ عَرَبيّ[١] ، وإن لم تكن على ديننا ، فإذا رأيْتَنى حملتُ على مِهْرَان فاحمل معى.

وحمل المثنى على مِهْرَان ، فأزاله حتى دخل فى مَيْمَنَتِه ؛ ثم خالطوهم ، واجْتمع القَلْبَان ، وارتفع الغُبار ، والمجنّبات تقْتَتِل ، لايستطيعون أن يَفْرُغوا لِنَصْرِ أميرهم لا المشركون ولا المسلمون ، وارتُثّ[٢] مسعود أخو المثنّى يومئذ ، وجماعةٌ من أعيان المسلمين .

ولما أُصِيبَ مسعودُ بن حارثة تَضَعْضَع مَنْ معه ، فقال : يامعاشر بكر ؛ ارفعوا رَايَتَكُم رفعكم الله ؛ ولا يَهُولَنّكم مَصْرَعى . وكان المثنّى قال لهم : إذا رأيْتُمونا أُصِبْنا فلا تَدَعُوا ما أنتم فيه ؛ الْزمُوا مصافّكم ، وأغنوا عمَّنْ يَليكم .

وأوجع قلبُ المسلمين فى قَلْبِ المشركين ، وقَتَلَ غلامٌ نصرانىّ مِنْ تَغْلب مِهْرَان ، واستوى على فَرَسه ؛ وأخذت المجنَّباتُ يَقْتُلُ بعضُها بعضاً ؛ والمسلمون فى القَلْبِ يَدْعُون لهم بالنصر ، والمثنَّى يقول : انْصُرُوا الله يَنْصُرْكُمْ ، حتى انهزم الفُرْس وفرُّوا .

فسابَقَهُمُ المثنّى إلى الجِسْرِ فسبقهم ، وأَخذ طريقَهم ، فافترقوا بشاطئ الفُرَاتِ مصعدِين ومصوِّبِين ، واعْتَوَرَتْهم خيولُ المسلمين حتى قَتلوهم وجعلوهم جُثثاً ، فما كانت بين المسلمين والفرس وقعة أبْقَى رِمَّةً منها .

---

(١) كان أنس بن هلال من نصارى النمر ، قدم فى جمع عظيم من قومه وهم على النصرانية وقالوا نقاتل مع قومنا .

(٢) ارتث : أصبح جريحا مشارفا للهلاك .

ولما فرغوا جلس المُثَنَّى للناس من بَعْدِ الفراغ ، يحدِّثهم ويحدثونه ، وكلما جاء رجل فتحدَّث قال له : أَخبِرْنى عنك . فقال له قُرط بن جَمَّاح : قتلتُ رجلاً فوجدْتُ منه رائحةَ المسك ، فقلت : « مِهْرَان » ، ورجوتُ أن يكون إيَّاه ، فإذا هو صاحِبُ الخيل « شهر بزار » ، فواللهِ ما رأيته ـ إذْ لم يكُنْ مِهْرَان ـ شيئاً .

فقال المثنّى : قد قاتلتُ العربَ والعَجَم فى الجاهلية والإسلام ، والله لَمِائةٌ من العَجَم فى الجاهليـة كانوا أشدَّ علىّ من ألْفٍ من العرب ، ولَمِائةٌ اليومَ من العرب أشدُّ علىّ من ألف من العجم ؛ إنّ اللهَ أذهب قوّتهم وأوْهَن كَيْدَهم ؛ فلا يروعَنَّكم زُهاء[1] تَرَوْنه ، ولا سَواد ، ولا قِسِىٌّ فُجٌّ[2] ، ولا نِبال طوال؛ فإنهم إذا أُعْجِلُوا عنها ، أو فقدوها كانُوا كالبهائِم ، أينما وجهتموها اتَّجهَتْ .

وقال رِبْعِىٌّ[3] : لَمَّا رأيتُ رُكودَ الحَرْبِ واحتدامَها قلت : تترَّسُوا بالمجانّ[4] فإنهم شادُّون عليكم ؛ فاصبروا لِشدَّتين ، وأنا زَعِيمٌ لكم بالظَّفر فى الثالثة ؛ فأجابونى والله ، فوَفَّى الله كَفَالَتِى .

وقال عَرْفجة : حُزْنَا كَتيبةً منهم إلى الفُرَات ، ورجوتُ أن يكونَ اللهُ تعالى قد أذِن فى غرقهم ، وسلَّى عنّا بها مُصيبة الجِسْر ؛ فلما دخلوا فى حَدّ الإحراج كَرُّوا علينا ، فقاتلناهم قتالاً شديداً ، حتى قال بعضُ قَوْمِى : لو أَخَّرْتَ رايتَك ! فقلت : علىّ إقدامُها ، وحملتُ بها على حاميتهم فقتلتهُ ، فولّوا نحو الفُرات ، فما بلغه أحدٌ منهم فيه الرُّوح .

---

(١) عدد كثير . (٢) قوس فجاء : بان وترها عن كبدها .

(٣) هو ربعى بن عامر بن خالد التميمى . (٤) تترس . تستر بالترس . والمجن : الترس ، وجمعه مجان .

ثم عاد المثنى فقال ـ وقد نَدِم ـ على أَخْذِه بالجِسْرِ : لقد عجزْتُ عَجْزَةً وقى الله شَرَّها بمسابقتى إياهم إلى الجِسْرِ ، وقَطْعِه حتى أَحْرَجْتُهم ، فإنى غيرُ عائد ؛ فلا تعودُوا ولا تَقْتَدُوا بى أيها الناس ؛ فإنَّها كانت منى زَلَّة ؛ لا ينبغى إحْرَاجُ أحدٍ إلا مَنْ لا يَقْوَى على امتناع .

ومات أُناسٌ من الجَرْحى من أعلام المسلمين ؛ منهم خالد بن هلال ومسعود ابن حارثة ، فصلَّى عليهم المثنَّى وقال : والله لَيَهُوِّنُ علىّ وَجْدى أن شهدوا البُوَيْب ؛ أقْدَمُوا وصبَرُوا ولم يَجْزَعُوا ولم يَنْكُلُوا .

وأصاب المسلمون غنَماً ودقيقاً وبَقَراً ؛ فبعثوا به إلى عِيال مَنْ قدم من المدينة ؛ وفى هذه الموقعة يقول الأعور الشَّنّىّ :(١)

هاجت لِأَعْوَرَ دارُ الحىِّ أَحْزَانا ... واستَبْدَلَتْ بَعْدَ عَبْدِ القيس هَمْدَانا(٢)
وقد أرَانَا بها والشَّمْلُ مُجْتَمِعٌ ... إذْ بالنُّخَيْلَةِ قَتْلَى جُنْدِ مِهْرانا(٣)
أَزْمَانَ سار المُثَنَّى بالخيولِ لَهُمْ ... فَقُتِّلَ القومُ مِنْ فُرْسٍ وَجِيلَانَا
سَمَا لأجْنادِ مِهْرَانٍ وشيعتِهِ ... حتى أَبادَهُمُ مَثْنَى ووُحْدَانَا
ما إن رأَيْنَا أميراً بالعراق مَضَى ... مِثْلَ المثنَّى الذى مِنْ آلِ شَيْبانَا
إنَّ المثنَّى الأميرُ القَرْمُ لا كَذِبٌ ... فى الحرب أَشْجَعُ من ليثٍ بخَفَّانا(٤)

---

(١) الطبرى : ٣ ـ ٤٧١ . (٢) فى الطبرى « خفانا » .
(٣) النخيلة : موضع على سمت الشام فى العراق .
(٤) خفان : مأسدة مشهورة قرب الكوفة .

٣٥ — القادسية *

قال أهلُ فارس لرُستَم والفيرزان ؛ وهما على أهل فارس : أيْنَ يُذْهبُ بكما ! لم يَبْرَحْ بكما الاختلافُ حتى أَوْهَنْتما أَهْلَ فارسُ وأطمعتما فيهم عدوّهم ، وإنه لم يبلغ من خطركما أن تقرّكما فارس على هذا الرَّأى، وأن تُعرِّضاها لِلْهَلَكَةِ(١) ؛ والله لتجتمعان أو لَنبدأنَّ بكما قبل أن يَشْمَتَ بنا شامِت .

فقال الفَيْرُزان ورستَم لبُورَان ابنةِ كسرى : اكتبى لنا نساءَ كِسْرَى وسَرَارِيَّه(٢) ونساءَ آل كسرى وسَرَارِيّهم ؛ ففعلت ، ثم أخرجت ذلك إليهما .

فأرسلا فى طَلَبِهنّ ، فلم يبقَ منهنّ امرأةٌ إلا أتَوْا بها ، فأخذوهنّ بالرجال ، ووضعوا عليهن العَذاب ؛ يستدلّونهنّ على ذَكَرٍ من أبناء كسرى ، فلم يوجدْ عندهنّ منهم أحد ؛ إلا غُلام يُدعى يزْدَجِرْد من ولد شهريار بن كسرى ؛ وأمّه من أهل بادُورْيا(٣) ؛ فأرسلوا إليها ودَلَّتهم عليه ؛ فجاءوا به فملَّكوه ؛ وهو ابْنُ إحدى وعشرين سنة ، واجتمعوا عليه ، واطمأنَّت فارس ؛ وتبارى الرؤساء فى طاعته ومَعونَته .

بلغ المثنَّى بن حارثة ذلك ؛ فكتب به إلى عُمَر ، ولم يصل الكتابُ إلى عمر حتى كَفرَ أهل السَّوَاد(٤) ؛ مَنْ كان له عَهْد ، ومَنْ لم يكن له عَهْد ، وخرج المُثنَّى على حاميته حتى نزَل بِذِى قَار(٥) .

---

* الطبرى ٤/٨١ ، ومعجم البلدان ٧/٦ . كان سنة ١٤ . والقادسية : موضع بينه وبين الكوفة خمسة عشر فرسخا .

(١) الهلكة : الهلاك . (٢) سرارى: جمع سرية : الأمة التى بوأتها بيتا . (٣) بادوريا : بلد قريب من بغداد . (٤) السواد : البلاد التى افتتحها المسلمون من العراق ، سميت بذلك لسوادها بالزروع والنخيل والأشجار . (٥) ذوقار : ماء لبكر بن وائل ، قريب من الكوفة .

ثم جاءهم كتابُ عُمَرَ ، وفيه : أما بعد ؛ فاخرجوا من بين ظَهْرَيِ(١) الأَعاجم ، وتفرَّقُوا فى المياه التى تَلِي الأعاجم على حُدُودِ أرضِكم وأرضهم ؛ ولا تدَعُوا فى رَبيعة أحداً ولا مُضَر ، ولا حلفائِهم مِنْ أَهْلِ النَّجَدات ولا فارساً إلا اجْتَلَبْتُموه ؛ فإنْ جاء طائعاً وإلّا حَشَرتُموه ، احملُوا العَربَ على الجدّ إذا جدَّ العجم ، فَلْتَلْقَوْا جِدَّهم بجِدِّكم .

فكان القومُ فى أَمْوَاهِ(٢) العراق ؛ من أولها إلى آخرها مَسَالِح(٣) ؛ بعضُهم ينظر إلى بعض ، ويُغِيثُ بعضُهم بعضاً إن كَانَ كَوْن ، وذلك فى ذى القَعْدة من السنة الثالثة عشرة من الهجرة .

وفى ذى الحجة من السنة نفسها كتب عمرُ إلى عمّال العرب على الكُوَر(٤) والقبائل : لا تدَعُوا أحداً له سِلاحٌ أو فَرَسٌ أو نَجْدَةٌ أو رَأْيٌ إلّا انْتَخَبْتُموه ، ثم وجِّهْتُمُوه إلىّ ، والْعَجَل الْعَجَل !

فمضتِ الرُّسُلُ إلى مَنْ أَرسلهم إليه ، مُخْرَجَه إلى الحجّ ؛ ووافاه من القبائل مَنْ كانت طرقها على مَكّة والمدينة فى مكة ، فأما مَنْ كان من أهل المدينة على النِّصف ما بينه وبين العِراق فَوافاه بالمدينة مَرْجِعَه من الحج ؛ وأما من كانوا أسْفَل من ذلك فانضمُّوا إلى المُثنَّى . ومَنْ وَافَوْا عُمَر أَخبروه عمّن وراءهم بالحَثّ .

وفى أَوّل يومٍ من المحرم من السنة الرابعة عشرة خرج عُمر حتى نزل على ماء يُدْعَى صِرَاراً(٥) ، فعسْكَر به ولا يَدْرِى الناسُ ما يُرِيد : أَيَسيرُ أَم يُقِيم ؟ وكانوا إذا أَرادوا أَنْ يَسْأَلوه عن شىء رَمَوْه بعُثمان بن عفّان ، أو بعبد الرحمن بن عَوْف ،

---

(١) ظهرى الأعاجم : وسطهم . (٢) أمواه : جمع ماء .
(٣) المسالح : جمع مسلحة ، وهى القوم ذوو سلاح . (٤) الكور : جمع كورة ، وهى الصقع . (٥) صرار موضع على ثلاثة أميال من المدينة ، على طريق العراق .

وكانوا إذا لم يقدرْ هذان على عِلْمِ شىء مما يُرِيدون ثَلَّثُوا بالعَبَّاس ، فقال عثمان لعُمَر : ما الذى تُرِيد ؟ فنادى : الصَّلاةُ جامِعَة .

فلما اجتمع الناسُ سألهم رَأْيَهم فيمن يسيرُ على رأس الجيش إلى العراق ، فقال العامة : سِرْ وسِرْ بنَا مَعَك . فدخل معهم فى رأْيِهم ، وكَرِه أن يَدَعهم إلَّا أن يَخْرُجُوا من هذا الرأى فى رِفْق ؛ فقال : استعدُّوا وأعِدُّوا ؛ فإنى سائر إلا أن يجىء رَأْىٌ هو أَمْثَلُ[1] مِن ذلك .

ثم جمع أهلَ الرأى ، فاجتمع إليه وجوهُ أصحابِ النبى صلى الله عليه وسلم وأعلامُ العرب ، فقال أَحْضِرُونى الرَّأْىَ ؛ فإنى حائِر ، فأَجْمعَ مَلَؤُهم[2] على أن يَبْعَثَ عُمَرُ رجلًا مِنْ أَصْحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ويُقِيم هو بالمدينة ، ويَرْميه بالجنود ، فإن كان الذى يَشْتَهِى من الْفَتْح ، فهو الذى يُرِيدُ ويريدون ، وإلَّا أَعاد رجلا وندَب جُنْدا آخر ، وفى ذلك ما يَغِيظُ العدوَّ ويشُدّ أَزْرَ المسلمين ، حَتَّى يجىءَ نَصْرُ الله .

فنادى عُمَر مَرَّةً ثانيةً : الصلاةُ جامعةٌ ! فاجتمع الناسُ إليه ، وأرسل إلى علىّ كَرَّم الله وَجْهَه — وكان قد استَخْلَفه على المدينة — فأتاه ، وإلى طَلْحَة — وقد بعثه عَلَى المقدّمة — فرجع إليه .

وقام فى الناس فقال : إنَّ الله عزّ وجلّ قد جمع على الإسلام أهْلَه ، فألَّفَ بين القلوب ، وجعلهم فيه إخوانا ؛ . . . . . . وكذلك يحقُّ على المسلمين أن يَكُونُوا وأمْرُهم شُورَى بينهم وبَيْن ذَوِى الرَّأْيِ منهم ، فالناسُ تَبَعٌ لِمَنْ قام بهذا الأمر ؛ مااجتمعوا عليه ورَضُوا به لَزِم الناسَ وكانوا فيه تبعًا لهم ، . . . . . .

---

(١) أمثل : أفضل . (٢) الملأ : الأشراف .

أَيُّهَا الناسُ إنما كنتُ كرَجُلٍ منكم ، حتى صَرَفَنى ذَوُو الرَّأْيِ منكم عن الخروج ؛ فَقَدْ رأيْتُ أَنْ أُقِيمَ وَأَبْعَثَ رجلا ، وقد أحضرت هذا الأمر من قدّمت ومن خلّفت[1] .

فكان طُلْحَةُ ممَّنْ تَابَعَ الناس ، وكان عبد الرحمن بن عوف مِمَّنْ نَهاه . قال عبد الرحمن : مافديت أحداً بأبى وأمّى بعد النبى صلى الله عليه وسلم قبل يومئذ ولا بَعْدَه ؛ فقلتُ : بأبى وأمى ! أَقِمْ وابْعَثْ جنداً ؛ فقد رأيتَ قضاءَ الله لك فى جُنُودِك قَبْلُ وبعد ، فإنّهُ إن يُهزَمْ جَيْشُك ليس كهزيمتك ؛ وإنّك إن تُقْتَلْ أو تُهزَمْ فى أنفِ[2] الأمرِ خشيتُ أَلّا يُكَبِّرَ المسلمون ، وألّا يشهدُوا أَنْ لا إله إلّا الله أبداً .

فقال عمر : فأَشِيروا علىّ برَجُل .

وكان سَعْد بن أبى وَقّاص عاملا لعُمر على صَدَقات هَوازن ، وكان فيمن كتب إليه عمرُ بانتخابِ ذَوِى الرأى والنَّجْدةِ ؛ ممن كان له سِلاح أو فرس ؛ فجاء كِتَابُه: إنى قد انْتَخَبْتُ لك ألْفَ فارس ، كلُّهمْ له نَجْدَةٌ ورَأْى ، وصاحب حَيْطة ؛ يَحُوطُ حَرِيمَ قومه ، ويمنع ذِمارَهم[3] ؛ إليهم انتهت أحسابُهم ، فشَأْنَك بهم .

ووافق كتابه مشورتهم ؛ فقال عبد الرحمن : وَجَدْتُه ؛ قال : مَنْ هو ؟ قال : الأَسَد فى بَرَاثِنِه ؛ سَعْدُ[4] . ومالأَه أولو الرَّأْى .

فانتهى عُمر إلى رأْيِه ، وأرسل إلى سَعْد ؛ فقَدِم عليه ، وَأَمَّرَه على حَرْب

---

(١) يريد عليا وطلحة .. (٢) أنف الأمر : أول الأمر .

(٣) الذمار : مايلزمك حفظه وحمايته . (٤) هو سعد بن أبى وقاص مالك بن وهب وهو الذى ذكره بعد باسم سعد بنى وهيب .

العراق ، وأوصاه فقال : ياسَعْد ، سَعْدَ بنى وُهَيْب ، لايغرَّنَّكَ من اللهِ أنْ قِيل : خالُ[١] رسول الله صلى الله عليه وسلم وصاحبُه ؛ فإن الله عزّ وجل لا يَمْحُو السيِّئ بالسيِّئ ، ولكنه يَمْحُو السيِّئ بالحسن ؛ فإن الله ليس بينه وبين أحد نَسَبٌ إلا طاعتُه ؛ شريفُهم ووَضِيعهم فى ذاتِ الله سَواء ، اللهُ ربّهم وهم عِبادُه ، يتفاضَلُون بالعاقبة ؛ ويُدْرِكون ما عند الله بالطاعة ، فانظر الأمر الذى رأيتَ النبيَّ صلى الله عليه وسلم عليه مُنْذُ بُعِث إلى أن فارقَنا فالْزَمْه فإنَّه الأمرُ ؛ هذه عِظَتِى إياك ، إن تركتها ورغبتَ عنها حَبِطَ عملُك[٢] وكُنْتَ من الخاسِرين .

ولما أراد أن يُسَرِّحه دعاه فقال : إنِّى وَلَّيْتُكَ حَرْبَ العراق ، فاحفظ وصيَّتى ، فإنك تَقْدِم على أمرٍ كَرِيهٍ شديد ، لايُخلِّصُ منه إلا الحقُّ ، فعوِّدْ نفسَك ومَنْ معك الخير ، واستفتِح به . واعلم أن لكل عادةٍ عَتاداً ، فعَتادُ الخيرالصبرُ ، فالصبرَ الصَّبْرَ على ما أصابَك أو نَابك ، يجتمعْ لك خشيةُ الله . واعلم أن خشيةَ اللهِ تجتمِعُ فى أمرين : فى طاعته وفى اجتناب معْصيته ، وإنما أَطَاعَهُ من أطَاعَهُ بِبُغْضِ الدنيا وحُبِّ الآخِرة ، وعَصاه مَن عصاه بحُبِّ الدنيا وبُغْضِ الآخرة ، وللقلوب حقائق يُنْشِئُها الله إنْشاء ، منها السرُّ ومنها العلانية ، فأما العلانية فأن يكون حامده وذامُّه فى الحق سواءً ، وأما السرُّ فيُعْرَف بظهور الحكمة من قلبه على لسانه وبمحبَّةِ الناس، فلا تزهدْ فى التحبُّب، فإنّ النبيّين قد سألوا مَحَبَّتَهم، وإنّ اللهإذا أحبعَبْداً حبَّبه ، وإذا أبغض عَبْداً بغَّضَه ، فاعتَبِرْ منزلتك عند الله تعالى بمنزلتك عند الناس ممن يشرع معكَ فى أمرِك .

ثم قال عُمر : والله لأَضْرِبنَّ ملوكَ العجم بملوكِ العرب ، فلم يَدَعْ رئيساً

---

(١) كان سعد من بنى زهرة أخوال النبى ، وكان من أسبق قريشإلى الإسلام .

(٢) حبط عمله : بطل ثوابه .

ولا ذَا رَأْيٍ ولا ذا شرَفٍ ولا ذا سُلْطَة ولا خطيباً ولا شاعراً إلا رَماهُم به ، فرماهم بوجوه الناس وغُرَرِهم.

وفَصَل سَعْدٌ عن المدينة فى أربعة آلاف ، ثلاثة ممّن قدم عليه من اليمن والسَّراة وألف من سائر النـاس . وشيّعهم عمر من صِرَار إلى الأعْوَص[1] ، ثم قام فى الناس خطيباً ، فقال : إنّ اللهَ تعالى إنما ضربَ لـكم الأمثال ، وصرّف لـكمُ القولَ ليُحْيِيَ بها القلوبَ ؛ فإنّ القلوبَ ميتةٌ فى صدورها حتى يُحْيِيَها الله ، من علم شيئاً فَلْيَنْتَفِـعْ به . وإن للعــدل أَماراتٍ وتَباشيرَ ؛ فأَمّا الأَمارات فالحياء والسَّخاء والهَيْن واللِّين ، وأما التَّباشير فالرَّحْمة ، وقد جعـل اللهُ لـكل أمرٍ بابا ، ويَسَّر لـكل بابٍ مِفْتاحاً، فبابُ العَدْلِ الاعتبار، ومِفْتاحُه الزُّهْد. والاعتبار ذِكرُ الموت بتَذَكُّر الأموات ، والاستعداد له بتقديم الأعمال ؛ والزُّهد أَخْــذُ الحق من كُلِّ أَحَدٍ قِبَلَه حق ، وتأديةُ الحق إلى كلِّ أحَدٍ له حق ؛ ولا تُصَانِعْ فى ذلك أحــداً ، واكتفِ بمـا يكفى من الـكَفَاف ؛ فإنّ مَنْ لم يَـكْفِه الـكَفاف لم يُغْنِه شىء ؛ إنى بينــكم وبين الله ، وليس بينى وبينه أحدٌ ؛ وإن الله قد ألزمنى دفع الدعاء عنه ، فَأَنْهُوا شَكاتَـكم إلينا ، فمَنْ لم يستطع فإلى من يُبَلِّغُنا ، نَأْخُذُ له الحقَّ غـير منقوص . .

وأمر سَعْداً بالسَّيْرِ ، وقال : إذا انتهيت إلى زَرُود[2] فانزِلْ بهـا ؛ وتفرّقوا فيما حَوْلَك منهم ، وانتخِبْ أهْلَ النَّجْدة والرَّأى والقُوّةِ والعُدَّةِ .

ثم أمدّ عُمر سعداً بعـد خروجه بألْفَى يَمانىّ وألفى نَجْدِى من غطفان وسائر قيس .

---

(١) الأعوص : موضع قرب المدينة .

(٢) زرود : ماء على طريق الحاج إلى الـكوفة .

وقدم سَعْدٌ زَرود فى أول الشتاء فنزلها؛ وتفرَّقَتِ الجنودُ فيما حولها منْ أمْوَاه[1] بنى تميم وأسد ، وانتظر اجتماعَ الناس وأمرَ عمر ، وانتخبَ من بنى تميم والرِّباب أربعة آلاف ، وانتخب من بنى أَسَد ثلاثةَ آلاف ، وأَمرَهم أن ينزلوا على حَدِّ أرضهم بين الحَزْن والبَسِيطة[2] ؛ فأقاموا هناك بين سعد بن أبى وقاص و بين المثّنى بن حارثة ؛ وكان مع المثنّى ثمانيةُ آلافٍ من ربيعة ؛ ممن بقى بعد فُصول[3] خالد وممَّنْ بَقِى يومَ الجِسْر ، وكان مع المثنّى ألفان من اليمن . . .

وبينما الناس كذلك : سَعْد يرجو أن يَقْدُم المُثَنّى ؛ والمثّنى يرجو أن يَقْدَم عليه سعد مات المثنّى من جِرَاحَتِه يوم الجِسْرِ .

ثم نزل سعد بشَرَاف[4] ، ركتت إلى عمر بمَنْزِله وبمنازل الناس ، فكتب إليه عُمر : إذا جاءك كتابى هـذا فَعَشِّر[5] الناس وعَرِّف عليهم ، وأمِّر على أَجْنادِهم ، وعَبِّهم ، ومُرْ رُؤَساء المسلمين فَلْيَشْهَدُوا ، وقَدِّرْهم وهم شُهُود ، ثم وَجِّهْهُم إلى أصحابهم ، ووَاعِدْهم القَادِسِيَّةَ ، واضْمُمْ إليك المغيرةَ بن شُعْبة فى خَيْله ، واكتب إلىّ بالذى يستقِرُّ عليه أَمْرُهُمْ .

فبعث سَعْدٌ إلى المغِيرَةِ فانضمَّ إليه ؛ وإلى رؤساء القبائل فأتَوْهُ ، وقدَّر الناسَ وعبَّأهم ، وأمَّر أُمراءَ الأجناد ، وعرَّف العُرَفاء[6] ؛ فعرَّف على كلِّ عشرة رَجُلا ممن له وسائلُ فى الإسلام ، وأمّر على الرايات رجالاً من أهـل السابقة ؛ وولّى الحروبَ رجالا ؛ فولّى على مُقَدِّماتها ومُجَنِّبَاتهـا وسَاقَتِها[7] وطَلائعها ورَجْلها

---

(١) أمواه : جمع ماء .

(٢) يطلق الحزن على مواضع كثيرة ،أشهرها حزن بنى يربوع . والبسيطة : موضع بين الكوفة وحزن بنى يربوع .

(٣) فصول : خروج .

(٤) شراف : ماء بنجد . (٥) عشرت الشىء تعشيراً : كان تسعة فزدت واحدا حتى تم عشرة

(٦) العريف : رئيس القوم ، وجمعه عرفاء . (٧) ساقة الجيش : مؤخره .

ورُكْبانها ؛ ولم يَفْصِلْ إلا على تَعْبِيَة ؛ ولم يخرج من شَرَاف إلا بكِتاب عمر وإذْنِه .

فأما أمراء التَّعْبِيَة فاستعمل زُهْرَة بن عبد الله على المقدّمات ، وزهرة كان مَلِكَ هَجَر فى الجاهلية ، ووفد على النبى صلى الله عليه وسلم وقدّمه . واستعمل على الميمنة عبد الله بن المعتمّ ، وكان من أصحاب رسول الله . واستعمل على الميسرة شُرَحْبيل ابن السِّمْط الـكِنْدىّ ، وكان غلاماً شابًّا ؛ أبْلَى فى حَرْبِ الرِّدَّة ، وجعل عاصم بن عمرو على السَّاقة ، وسواد بن مالك على الطلائع ، وعلى الرَّجْل حمّال بن مالك الأسدىّ ، وعلى الرُّكْبَان عبد الله بن ذى السَّهْمَيْن الخَثْعَمِىّ ؛ فـكان أمراء التعبئة يلُون الأمير ، وأُمراء الأعشار يلُون أمراءَ التعبية ، وأصحابُ الرَّاياتِ يَلُون أمراءَ الأعشار ، والقُوَّادُ رءوسُ القبائل يَلُون أصحابَ الرَّاياتِ . وكان على القضاء عبد الرحمن بن ربيعة الباهلىّ ، وجُعِلَ إليه قِسْمَة الفىْء ، وجعل داعيتهم ورائدهم سلمان الفارسىّ ؛ والتّرجمان هلال الهَجَرىّ ؛ والـكاتب زياد بن أبى سفيان .

فلما فرغ سعدٌ من تَعْبِيَتِه ، وأعَدَّ لـكل شىء عُدَّته كتب بذلك إلى عمر ؛ وقبل رُجُوع الـكتاب مِن عمر قدم المُثَنَّى بن حارثة وسَلْمى بنت خَصَفَة التَّيْمية إلى سَعْد بوصيّة المثنّى بن حارثة ورأيه ؛ فذكرا رَأْيَه لسعد ؛ ألّا يقاتل عَدُوَّه من أهْلِ فارِس إذا استَجْمع أمرُهم فى عُقْرِ دارِهم ، وأنْ يُقاتِلَهُم على حدود أرضهم ، على أدنى حَجَر من أرْض العرب ، وأدْنَى مَدَرَة[1] فى أرض العَجم ، فإنْ يُظهِرِ اللهُ المسلمين عليهم فلَهُمْ ما وراءَهم ؛ وإن يكن الأخْرَى فاءوا إلى فئة[2] ، ثم يكونون أعْلَمَ بسبيلهم وأجْرَأَ على أرضهم إلى أن يردَّ الله الـكَرَّةَ عليهم .

---

(١) المدر : قطع الطين اليابس ، واحدته مدرة . والعرب تسمى القرية مدرة .

(٢) الفئة : الطائفة من الناس .

فلمّا انتهى إلى سَعْدٍ رَأْيُ المُثَنَّى ووصيتهُ ترحَّم عليه كثيراً ، وأمَّرَ المُعَنَّى على عمله ، وأَوْصَى بأهلِ بيتِه خيراً ، وخَطَبَ سَلْمَى فتزوَّجها و بَنَى بها .

ثم قدم على سَعْدٍ وهو بشَرَافَ كتابُ عمر بمثل رَأْى المُثَنَّى ، إذ قال : أما بعد ، فسِرْ مِنْ شَرَافَ نحو فارس بِمَنْ معك من المسلمين ، وتوكَّلْ على اللهِ ، واستَعِنْ به على أمرك كلّه ؛ واعلمْ فيما لديك أنَّكَ تَقْدَمُ على أُمَّةٍ عَدَدُهم كثير ، وعُدَّتُهم فَاضِلَة[١] وَبَأْسُهم شديد ؛ وعلى بلدٍ مَنِيعٍ وإن كان سهلا ، كَئُودٍ[٢] لبُحُورِه وفُيُوضه ودَآدِئه[٣] ، إلا أنْ تُوافِقوا غَيْضاً مِنْ فَيْضٍ[٤] ؛ وإذا لَقِيتُم القومَ أو أَحداً منهم فابدَءُوهم الشَّدَّ والضَّرْبَ ، وإياكم والمناظَرَةَ لجمُوعهم ، ولا يَخْدَعُنَّكم ، فإنهم خَدَعَة مَكَرَة ، أمْرُهم غيرُ أمْرِكُمْ ، إلّا أن تُجادُّوهم ؛ وإذا انتهيتَ إلى القادِسِيَّة . والقادسيةُ بابُ فارس فى الجاهلية ، وهى أجمعُ تلك الأبواب لمادتهم ، ولما يريدونه من تلك الآصُلِ[٥] ؛ وهو منزل رَغِيب[٦] خَصِيب ، دونه قناطر وأنهار مُمْتَنِعَة ، فتكون مَسالحك على أَنْقَابها[٧] ، ويكون الناس بين الحَجَر والمَدَر على حافَاتِ الحَجَر وحافَاتِ المَدَر ؛ ثمَّ الزَمْ مكانَك ، فلا تبرحْه ؛ فإذا أَحَسُّوكَ أَنْغَضْتَهُم[٨] رَمَوْكَ بِجمْعِهِم الذى يأتى على خَيْلهم ورَجْلِهم وحَدِّهم وجِدِّهم ، فإن أنتمْ صَبَرْتُم لِعَدُوِّكم ، واحتَسَبْتم لِقتاله ، ونَوَيْتم الأمانَةَ رجوتُ أن تُنصَروا عليهم ، ثم لا يجتمع لكم مثلُهم أبداً ؛ إلا أن يجتمعوا ولَيْسَتْ معهم قلوبُهم ؛ وإن تَكُنِ الأُخرى كان الحَجَرُ فى أدْبارِكم ، فانصرفتم مِنْ أدْنَى مَدَرة

---

(١) فاضلة : زائدة . (٢) عقبة كئود وكأداء : صعبة .

(٣) الدآدئ : جمع دأداء ؛ وهو الفضاء وما اتسع من القلاع والأودية.

(٤) غاض الماء غيضاً : قل ، وفاض فيضاً : كثر ، والمعنى : قليلا من كثير .

(٥) الآصل والأصول : جمع أصل . (٦) رغيب : يرغب فيه ، أو واسع .

(٧) أنقاب : جمع نقب : الطريق بين الجبلين ، يريد طرقها .

(٨) أنغضتهم : حركتهم وأثارتهم .

من أرضهم إلى أَدْنَى حَجَر من أرضكم ؛ ثم كُنْتُم عليها أجْرَأ ، وبها أعْلَم ؛ وكانوا عنها أجْبَن ، وبها أجْهل ، حتى يأتِيَ اللهُ بالفَتْح عليهم ، ويردّ لكم الكَرّة .

وكتب إليه باليوم الذى يَرْتَحِلُ فيه من شَرَاف . فسار سَعْد على تَعْبِيَتِه ، والكتبُ بينه وبين عُمَرَ متواصلة .

ثم جاءه من عُمَر كتابٌ آخر قال فيه : أما بَعْدُ فتعاهَدْ قَلْبَك ، وحادِثْ جُنْدَك بالموعظة والنية الحسنة . والصبرَ الصَّبْرَ ؛ فإنّ المعونةَ تأتى من الله على قَدْرِ النيّة ، والأجر على قَدْرِ الحَسَنة ، والحذَرَ الحذَر على مَنْ أنْتَ عليه ، وما أنتَ بسبيله ، واسألُوا الله العافيةَ ، وأكْثِرُوا من قول لا حَوْلَ ولا قُوَّةَ إلا بالله ؛ واكتب إلىّ : أيْنَ بلغَكَ جمعُهم ، ومَنْ رَأْسُهم الذى يَلِى مُصَادَمَتَكُمْ ؛ فإنّه منعنى مِنْ بَعْض ما أردْتُ الكتابَ به قِلّةُ علمى بما هَجَمْتم عليه ، والذى استقرّ عليه أمرُ عدوّكم ، فصِفْ لنا منازلَ المسلمين ، والبلدَ الذى بينكم وبين المدائن ـ صِفَةً كأنى أنظرُ إليها ؛ واجعلنى من أمْرِكم على الجَلِيّة[1] ، وخَفِ الله وارْجُه ؛ ولا تُدِلّ بشىء . واعلم أن الله قد وَعدكم ، وتوكّل لهذا الأمر بما لا خُلْفَ له ، فاحْذَرْ أن تصرفَه عنك ، ويستبدل بكم غيركم .

فكتب إليه سَعْدٌ بصفةِ البُلْدان : القَادسية بين الخَنْدَق والعَتيق ، وأنّ ما عَنْ يَسارِ القادسية بحرٌ أخضر فى جوف لَاحٍ[2] إلى الحِيرة بين طَريقين ؛ فأما أحدُهما فعلى الظهر ، وأما الآخر فعلى شاطئ نَهْرٍ يدعى الحَضُوض[3] ، يَطْلُعُ بمن سَلَكه على ما بين الخَوَرْنَق والحيرة ، وأنَّ ما عَنْ يمين القادسيّة إلى الوَلَجَة فَيْضٌ من

---

(١) الجلية : الخبر اليقين .

(٢) الجوف : المطمئن من الأرض ، ومكان لاح : ضيق .

(٣) الحضوض : نهر كان بين القادسية والحيرة .

فُيُوضِ مياهِهِم ، وأنَّ جميع مَنْ صَالَح المسلمين من أهل السَّوَاد قِبَلِى إلْبٌ[١] لأَهْلِ فارس ، قد خَفُّوا لهم واستعدُّوا لَنَا ، فهم يحاوِلون إنْغَاضنا[٢] وإقْحَامَنَا ، ونحن نحاولُ إنغاضَهم وإبْرَازَهم ، وأمرُ الله بَعْدُ ماضٍ ، وقضاؤُه مُسْلِمٌ إلى ماقدّر لنا وعلينا ، فنسأل الله خير القضاء وخَيْرَ القَدَر فى عافية .

فكتب إليه عُمَر : « قد جاءنى كتابُكَ وفهمتُه ، فأَقِمْ بمكانك حتى يُنْغِضَ اللهُ لك عدُوَّكَ . واعلم أنّ لها ما بعدها ، فإنْ منحكَ اللهُ أدْبَارَهم فلا تَنْزِعْ[٣] عَنْهُم حتى تقتحمَ عليهم المدائنَ ، فإنه خرابُها إنْ شاء الله » .

وجعل عمر يَدْعُو لسعد خاصة ، ويدعو معه للمسلمين عامة .

ثم عاد عمر فكتب إليه : « إنى قد أُلْقِى فى رُوعِى[٤] أنكم إذا لقيتم العدوّ وهزمتموهم فاطَّرِحوا الشَّك ، وآثِرُوا التّقِيَّة عليه ، فإنْ لاعَبَ أحدٌ منكم أحداً من العجم بأمان، أو قَرَفه[٥] بإشارة أو بلسان ، فكان لايدرى الأعجمى ما كلمه به ، وكان عندهم أمانا ، فأَجْرُوا ذلك له مَجْرَى الأمان ، وإياكم والضَّحِك . والوفاء الوفاءَ ! فإن الخطأَ بالغَدْرِ الهَلَكة ، وفيها وَهْنُكم ، وقوّةُ عدوكم ، وذَهَاب رِيحكم[٦] ، وإقبال رِيحهم . واعلموا أنى أُحَذِّرُكم أن تكونوا شيْناً على المسلمين ، وسبباً لتَوْهِينهمْ .

وأقامَ سَعْدٌ بالقادسيّةِ شهرا ، ثم كتب إلى عمر : لَمْ يُوَجِّه القومُ إلينا أحداً ، ولم يُسْنِدوا إلى أحدٍ قيادةَ جيش لمحاربتنا ، ومتى يبلغنا ذلك نكتبْ به ، واستنصر الله ، فإنا بمنحاةٍ[٧] دُنيا عريضة ، دونها بَأْسٌ شديد ، قد تَقَدّم إلينا فى الدعاء إليهم فقال : ﴿ سَتُدْعَوْنَ إلى قَوْمٍ أُولِى بَأْسٍ شَدِيدٍ ﴾[٨] .

---

(١) هم ألب عليه بفتح الهمزة وكسرها : مجتمعون عليه بالظلم والعداوة

(٢) إنغاضنا : إهاجتنا . (٣) تنزع : تكف . (٤) الروع: القلب . (٥) قرفه : داناه

(٦) ريحكم : قوتكم . (٧) بمنحاة : بناحية . (٨) سورة الفتح ١٦ .

وبعث سَعْــد فى مقامه ذلك إلى أسفل الفرات عاصِمَ بن عمرو ، فسار حتى أتى مَيْسان[١] ، فطلب غَنَماً أو بقراً ، فلم يَقْدِر عليهــا وأوغَلَتْ فى الآجامِ ، وأوغل خَلْفَهم حتى أصاب رجلًا على أجَمَةٍ ، فسأله واستدلّه على البقر والغنم ، فحلَفَ له ، وقال : لاأعْلَم ؛ وإذا هو رَاعِى ما فى تلك الأجَمَة . فدخل واسْتاق الثيران ، وأتى بها العسكر ، فقسم ذلك سَعْد على الناس فأخْصَبُوا أياما . وحَسِب الناس أن ذلك آيةُ تبشير يُسْتَدلّ بها على رضاء الله و نَصْرِه .

ثم إنّ سعداً بعث عيوناً إلى أهلِ الحيرة ليعلموا له خبرَ أهلِ فارس ، فرجعوا إليه بالخبرِ ، بأن الملك قد وَلّى رُسْتَم حَرْبَه ، وأمره بالعسكرة ، فـكتب بذلك إلى عُمر ، فـكتب إليــه عمر : لا يَـكْرُبنّك[٢] مايَأْتيك عنهم ، ولا مايأتونك به ، واستَعِنْ بالله، وتوكّلْ عليه، وابعث إليه رجالا من أهل المَنْظَرةِ[٣] والرأيِ والجلَدِ يَدْعُونه ، فإنّ اللهَ جاعلٌ دعاءَهم تَوْهينا لهم ، وفَلْجاً[٤] عليهم ، وا كتب إلىّ فى كلّ يوم .

ولما جاء سعداً أمرُ عُمرَ جمع نفَراًعليهم نِجارٌ[٥] ولهم آراء ، ونفرا لهم مَنظَرٌ ، وعليهم مَهابة ولهم آراء ، فأمّا الذين عليهم نجارٌ ولهم آراءواجتهاد فالنّعمان بن مقرّن، و بُسْر بن أبى رُهْم ، وحَمَلة بن جُوَيَّة الـكنانىّ ، وحَنْظَلة بن الربيع التميمىّ،وفُرات ابن حَيّان العِجْلى ، وعَدِىّ بن سُهَيل ، والمُغيرة بن زُرَارة .

وأمّا مَنْ لهم منظر لأجسامهم ، وعليهم مَهابة ولهم آراء ، فعُطارد بن حاجب ، والأشعث بن قَيْس ، والحارث بن حَسّان ، وعاصم بن عمرو ، وعمرو بن معد يكرب ،

---

(١) ميسان : بين واسط والبصرة .
(٢) كربة الغم : اشتد به . (٣) منظرة الرجل : إذا نظرت إليه فأعجبك .
(٤) فلجا : أى نصرا . (٥) النجار : شكل الإنسان وهيئته .

والمغـــيرة بن شُعْبة ، والمُثنّى بن حارثة . ثم بَعَثهم دعاةً إلى الملك ، وأنفذَهُمْ إليه بالمدائن .

فلمـا دخلوا عليـــه أمر التّرجمان بينه وبينهم ، فقال : سَلْهُمْ ما جاء بكم ؟ وما دعا كم إلى غَزْوِنَا والوُلوع ببلادنا ؟ أَمِنْ أجل أنَّا أجممنا كم[1] ، وتشاغَلْنا عنكم اجترأتُم علينا !

فقال النعمان بن مُقَرِّن لأصحابه : إن شئتُم أَجَبْتُ عنـكم ، ومَنْ شـاء آثَرْتُه . فقالوا : بل تَـكَلَّمْ ، وقالوا للملك : كلامُ هذا الرجل كلامُنا .

فتكلم النعمان بن مُقَرِّن فقال :

إن الله رَحِمَنا ؛ فأرسل إلينا رسولًا يَدُلُّنا على الخـــير ، ويأمُرنا به ، ويعرِّفُنا الشرَّ وينهانا عنه ، وَوَعدنا على إجابته خيرَ الدّنيا والآخرة ، فلم يَدْعُ إلى ذلك قبيلة إلا صارت فِرْقتين : فِرقة تقاربُه ، وفِرقة تُباعده ؛ ولا يدخل معـــه فى دينه إلّا الخواصّ . فمكث بذلك ماشاء الله أن يمكث ، ثم أُمِر أن يَنبِذَ[2] إلى مَنْ خالفه من العرب ، وأن يبدأ بهم. فدخَلُوا معه جميعا على وَجْهين : مُكْرَهٌ عليه فاغتبط ، وطائع أتاه فازداد ، فعرفْنا جميعاً فَضْلَ ما جاء به على الذى كُنَّا عليه ؛ مِنَ العَداوة والضِّيق ، ثم أمرَنا أن نَبْدَأَ بمن يَلِينا من الأُمم ، فندْعُوَهم إلى الإنصاف ، فنحن نَدْعوكم إلى ديننـا ؛ وهو دِينٌ حَسَّنَ الحسَن ، وقبَّحَ القبيح كلّه ، فإن أبيتم فأمرٌ من الشرّ ، هو أهون مِن آخرَ شرٍّ منـه الجِزَاء[3] ؛ فإن أَبَيْتُم فالمناجزة[4] ؛ فإن أجبتُم إلى ديننا خَلَّفْنا فيـكم كتابَ الله ، وأَقَمْنا كم عليه، على أن تحـكُموا بأحكامه

---

(١) أجممنا كم ، أى أرحنا كم وانصرفنا عنكم ، من أجم الماء إذا تركه يجتمع .

(٢) ينبذ إليهم : يكاشفهم بالأمر ويقاتلهم . (٣) الجزاء بالكسر : جمع جزية .

(٤) المناجزة : القتال .

ونَرْجِع عنكم وشأنكم وبلادكم ، وإن اتَّقَيْتُمونا بالجزاء قَبِلنا ومَنَعْنا كم ، وإلَّا قاتلنا كم .

فقال يزدَجِرْد : إنى لا أعلمُ فى الأرضِ أمّةً كانت أشقى ولا أقلَّ عدداً ،ولا أسوأ ذات بَيْنٍ منكم ، قد كُنَّا نُوَكِّل بكم قُرَى الضَّوَاحى فيكفوننا غاراتكم ، لاتغزوكم فارس ، ولا تَطْمَعُون أن تقوموا لهم ، فإن كان غُرُورٌ لَحِقَكم ، فلا يغرّنكم منَّا ، وإن كان الجَهْدُ[1] دعاكم فَرَضْنا لكم قُوتاً إلى خِصْبِكم ، وأكرمْنا وُجُوهَكم وكَسَوْناكم ، ومَلَّكْنا عليكم مَلِكاً يَرْفُقُ بكم . فأَسْكتَ القوم .

ثم قام المغيرةُ بن زُرَارةَ فقال : أيُّهَا الملك ، إنّ هؤلاء رُءوسُ العرب ووجوههم ، وهم أشرافٌ يستحيُون من الأشراف ، وإنما يُكرِمُ الأشرافَ الأشرافُ ، ويُعَظِّمُ حقوق الأشرافِ الأشرافُ ، ويُفَخِّمُ الأشرافَ الأشرافُ ؛ وليس كلّ ماأرْسلوا به جمعوه لك ، ولا كلّ ماتكلّمت به أجابوك عليه ، وقد أحسنوا ولايحسنُ بمثلهم إلّا ذلك ، فجاوِبْنى لِأَكون الذى أُبلِّغك ، ويشهدون على ذلك ، إنك قد وصفتَنا صفةً لم تكن عالماً بها .

فأما ماذكرتَ من سوءِ الحال ، فما كان أسْوأ حالا منّا ، وأما جوعُنا فلم يكن يُشْبِه الجوع ، كنّا نَأْكلُ الخنافِسَ والجِعْلان[2] ، والعَقارِب والحيَّات ، فنرى ذلك طعامَنا ، وأما المنازِلُ فإنما هى ظَهْرُ الأرض ، ولا نلبس إلا ماغزَلْنا من أَوْبارِ الإبل وأَشعار الغَنَم ، دِينُنا[3] أن يقتلَ بعضُنا بَعْضاً ، ويُغِيرَ بعضُنا على بَعْض ، وإن كان أحدُنا لَيدْفِنُ ابنتَه وهى حَيَّةٌ ؛ كراهيَةَ أن تأكلَ من طعامنا ، فكانت حالُنا قبل اليوم على ما ذكرتُ لك ، فبعث اللهُ إلينا رجلا معروفاً نعرفُ نَسَبه ،

---

(١) الجهد : المشقة ، وهو يريد الحاجة والفقر والجوع .
(٢) الجعلان : جمع جعل بفتح الجيم ، وهو دابة سوداء من دواب الأرض .
(٣) أى شأننا .

ونعرف وَجْهَه ومَوْلدَه ، فأرضُه خيرُ أرضِنا ، وحسَبُه خيرُ أحسابنا ، وبيتُه أعظمُ بيوتنا ، وقبيلتُه خيرُ قبيلتنا ، وهو بنفسه كان خيرَنا فى الحال التى كان فيها ، أصْدَقنا وأحلمنا . فدَعا إلى أمرٍ ، فلم يُجبْ أحدٌ غيْرُ تِرْبٍ[1] كان له ، وكان الخليفةَ من بعده ، فقال وقلنا ، وصدَّق وكذَّبنا ، وزادَ ونَقَصْنا ، فلم يقل شيئاً إلا كان ، فقذفَ اللهُ فى قلوبنا التصديقَ له واتِّباعَه ، فصار فيما بيننا وبين ربِّ العالمين ، فما قال لنا فهو قولُ الله ، وما أَمرنا فهو أمْرُ الله ، فقال لنا : إنَّ ربكم يقولُ : إنى أنا الله وَحدِى لا شريكَ لى ، كنتُ إذا لم يَكُنْ شَىْءٌ ، وكلُّ شىء هالكٌ إلّا وجهى ؛ وأنا خَلَقْتُ كل شىء ؛ وإلىّ يصيرُ كلُّ شىء ؛ وإنَّ رحمتى أدْرَكَتْكُمْ ، فبعثتُ إليكم هذا الرجلَ لأدُلَّكُمْ على السبيل التى بها أُنجيكم بعدَ الموت من عَذابى ، ولأُحِلَّكُمْ دارِى دار السلام ، فنَشْهَد عليه أنه جاء بالحقِّ من عند الحق ، وقال : مَنْ تابَعكم على هَذَا فلَهُ مالَكُمْ وعليه ما عليكم ، ومن أَبَى فأعرِضوا عليه الجِزْيةَ ، ثم امنعوه مما تمنعون منه أَنْفُسَكم ، وَمَنْ أَبَى فقاتِلوه ؛ فأنَا الحكم بينكم ، فمن قُتِل منكم أدْخَلتُه جَنَّتى ؛ ومَنْ بَقِىَ منكم أعقَبْتُه النَّصْرَ على مَنْ ناوأَه . فاخْتَرْ إن شئتَ الجزْيةَ عن يَدٍ وأنتَ صاغِرٌ[2] وإن شئتَ فالسيف ، أو تُسلم فتنجِّىَ نفسك .

فقال يزدجرد : أتستَقْبِلُنى بمثل هذا ! لولا أنَّ الرُّسُلَ لا تُقْتَل لقتلتكم ، لا شىءَ لكم عندى .

ثم قال يزدجرد : ائتُونى بوِقْرٍ[3] من تُراب ، واحملوه على أَشْرَف هؤلاء ، ثم

(١) هو أبو بكر الصديق .

(٢) وأنت صاغر ، أى وأنت ذليل راض بالضيم .

(٣) الوقر : الحمل الثقيل .

سُوقوه حتى يخرجَ من باب المدائن . وقال : ارجعوا إلى صاحبكم ، فأَعْلِموه أنى مرسلٌ إليكم رستم ، حتى يدفنَه ويَدْفِنَكم[1] فى خَنْدَقِ القادسية ، وينكِّلَ به وبكم من بعد ، ثم أورده بلادكم ؛ حتى أشغلكم فى أنفسكم بأشدَّ مما نالكم من سابور .

ثم قال : مَنْ أشرفُكم ؟ فسكتَ القومُ ، ثم قال عاصم ـ وافْتات[2] لِيأْخُذَ التراب : أنا أشرفُهم ، أنا سيِّدُ هؤلاء ، فَحَمِّلْنيه . فقال : أكَذَاكَ هو ؟ قالوا : نعم فحمَّله على عُنقه ، فخرج به من الإيوان والدَّار حتى أَتَى راحلتَه ، فحمله عليها ، ثم انْجَذَب[3] فى السَّيْر ، حتى دخل وصَحْبه على سَعْد ، وأخبروه الخبر ، فقال : أَبْشِروا ، فقد أَعطانا اللهُ أقاليدَ ملكهم[4] .

وأخذ المسلمون يزدادون فى كل يوم قوة ، ويزداد عدوُّهم فى كل يوم وَهْناً[5] .

واشتدّ ما صنع المسلمون وصنع الملك على جلساء الملك ، وراح رُسْتُم من ساباط[6] يسألُه عما كان من أمره وأمرهم ، وكيف رآهم . فقال الملك : ما كنتُ أرى أنَّ فى العرب مثلَ رِجالٍ رأيتُهم دخلوا علىّ وما أَنْتُم بأعقلَ منهم ، ولا بأَحْسَنَ جواباً منهم . وأخبرَه بكلامِ مُتَكَلِّمهم .

وقال : لقد صَدَقنى القومُ ، لقد وُعِدَ القوم أمْراً لَيُدْرِكُنّه ، أو ليموتُنَّ عليه . على أنى قد وَجَدْتُ أفضَلَهم أحمقَهم ؛ فقد ذكروا الجِزْيَة فأعطيتُه تراباً فحمله على

---

(١) يدفنه : يجهز عليه .

(٢) افتات : ادعى . (٣) الانجذاب : سرعة السير .

(٤) مفاتيح . (٥) وهنا ، أى ضعفا .

(٦) ساباط : بلد ببلاد العجم .

رَأْسِه ، فخرج به ، ولو شاء اتَّقَى بغيره ، وأنا لا أعلم .

فقال رُسْتم : أيُّها الملك ، إنه لَأَعْقَلُهم لأنه أراد أن يفتدىَ القوم بنفسه . فتطيَّر بذلك ، وأبْصَرها دون أصحابه .

وخرج رُسْتم من عنده كئيباً غضْبان ــ وكان مُنَجِّماً كاهناً ــ فبعث فى أثر الوفد ، وقال لِثقَتِه : إن أدركهم الرسولُ تلافَيْنا أرْضَنا ، وإن أعجزوه سَلَبَكُمُ اللهُ أرْضَكم وأبناءكم .

فرجع الرسولُ من الحيرة بفوَاتِهم ، فقال : ذَهب القومُ بأرضكم غيرَ ذى شَكّ .

* * *

وفيما بين ذهاب الوفد إلى يزدجرد وعودته كان العربُ يُغيرون على من دَاناهُمْ من أرض العدوّ من أَرض السَّواد ، وفزِعَ أهلُ السّواد من ذلك ، وأرسلوا إلى يزدجرد : إن العربَ قد نزلوا القادسيَّة بأَمْرٍ ليس يُشْبِهُ إلَّا الحرب ، وإنّ فِعْلَهم لا يُبقى على شىء ، وقد أَخْرَبُوا ما بينهم وبين الفرات ، وليس فيما هنالك أنيسٌ إلا فى الحصون ، وقد ذهبت الدوابُّ وكلّ شىء لم تحتمله الحصون من الأطعمة ، ولم يَبْقَ إلا أن يَسْتَنْزِلُونا ، فإن أبطَأَ عنا الغياث[1] أعطَيْنَاهُم بأيدينا .

فدعا يَزْدجرد رُسْتم ، فلما دخل عليه قال له : إنى أُريد أن أوجِّهك فى هذا الوَجْه ، وإنما يُعَدّ للأمور مَنْ كان على قَدْرِها ، وأنت رجلُ أهلِ فارس اليوم ، وقد ترَى ماجاء أهلَ فارس من أمرٍ لم يأْتِهِمْ مثلُه منذ وَلِىَ آل أردشير ، وأراه أن قد قَبِل منه ، وأثنَى عليه .

---

(١) الغياث : العون والنجدة .

فقال له الملك : أُحِبُّ أن أنظر فيما لديك لأعْرِفَ ما عندك ، فصِفْ لى العرب وفعلَهم منذ نزلوا القادسيَّةَ ، وصِفْ لى العجم وما يلقوْن منهم .

فقال رُستم : صِفَةُ ذِئابٍ صادفَتْ غِرَّةً من رِعاء فأفْسَدت .

قال : ليس كذلك ، إنما سألْتُك رجاء أن تُعرب لى عن صِفَتِهم ، فأقوّيك لتعملَ على قَدْر ذلك فلم تُصِبْ ، فافْهم عَنّى . إنمـا مَثلُهم ومثلُ أهل فارس كمثل عُقاب أوفَى (١) على جَبَل يأوى إليه الطيرُ بالليل ، فتَبيتُ فى سفحه فى أوكارِها ، فلمّا أصبحت تجلّت الطيرُ فأبصرته يَرْقُبُها ، فإنْ شَذّ شىء اختطفه ، فلمّا أبْصَرتْهُ الطيرُ لم تَنْهَضْ من مَخافَتِه ، وجعلتْ كلمـا شَذَّ منها طائِرٌ اختطفه ، فلو نَهَضَتْ نَهْضَةً واحـدةً رَدَّتْه ، وأَشَدُّ شىء فى ذلك أن تنجوَ كلُّها إلا واحداً ، وإن اختلفت لم تنهض فِرْقَةٌ إلا هلـكت ، فهذا مثَلُهم ومثـل الأعاجم ، فاعْمَلْ على قَدرِ ذلك .

وفَصَل رستم بعد تَلَبُّث (٢) وتَرَدُّد ، وسار من المـدائن حتى بلغ ساباط ، وفيها جَمَعَ آلةَ الحربِ وأداتَها ، وبعث على مقدمته الجالنوس فى أَرْبعين ألفا ، واستعمل على مَيْمَنتِه الهُرمزان ، وعلى مَيْسَرَتِه مِهْرانَ بن بهـرام ، وعلى ساقتِه البيرزان ؛ ثم أَمَرَ الجالنوس أن يصيبَ له رجلاً من العرب ؛ فأصاب رجـلاً دون قَنْطَرَة القـادسيّة ، فاختطفه ؛ ونفر العربُ خَلْفه ولـكن أحـداً لم يُدْرِكْه .

وأُدْخِلَ الرجل على رستم فقال له : ما جاء بكم ؟ وماذا تَطْلُبونَ ؟ قال : جئْنا

---

(١) اوفى : أشرف . (٢) تلبث : تباطأ .

نطلب مَوْعودَ الله ، قال : وماهو ؟ قال : أرضُكم وأبناؤُكم ودماؤكم إن أَبَيْتم أَن تُسْلِموا.

قال رستم : فإن قُتِلتم قبل ذلك ؟ قال : فى موعود الله أَنّ من قُتِل مِنّا قَبْلَ ذلك أَدْخَله الجنة ، وأنجز لمن بقِىَ مِنّاً ماقلتُ لك ، فنَحْنُ على يقين . فقال رستم : قد وُضِعْنا إذاً فى أيديكم ، قال : وَيْحَكَ يارستم ! إن أَعمالكُم قد وَضَعَتْكُم ، فأَسْلَمكم الله بها ، فلا يغرّنّك ماترى حَولَك ؛ فإنك لستَ تُحاوِل الإنس ، وإنما تحاول القضاءَ والقَدَر . فاستشاط غضباً ، وأمر به فضُرِبت عُنُقُه .

ثم خرج رستم حتى نزل بِبُرْس(١) ، فغصبَ أصحابُه الناس وفَجَرُوا ، وشَرِبوا الخمور ، فضجّ العُلُوج(٢) إلى رُستم وشكَوْا إليه مايَلْقَوْن فى أَمْوَالِهم وأَبْنائِهم ، فقام فيهم فقال : يامعشرَ أَهلِ فارس ، والله لقد صدق العربىّ ، والله ما أَسْلَمَنا إلا أعمالُنا ، والله لَلْعربُ أحسنُ سيرةً مِنْكُمْ ، إن اللهَ كان ينصركم على العدوّ ، ويُمَكّنُ لكم فى البلاد بحُسْن السيرة وكَفِّ الظلم ، والوفاء بالعهود والإحسان ، فأمّا إذ تحوّلتم عن ذلك إلى هذه الأَعمالِ ، فلا أدرى اللهَ إلّا مُغيِّراً ما بكم ، وما أنا بآمِنٍ أن ينزِع اللهُ سلطانَه منكم .

وبعث الرِّجالَ فَلَقَطوا له بعضَ من يُشْكَى ، فَأُتِى بنفرٍ فضربَ أعناقهم . ثم ركب ونادَى فى الناس بالرَّحيل ، حتى انتهى إلى الحيرَة ، ودعا أهلَها وقال لهم : ياأعداءَ الله ! فرِحْتم بدخول العربِ علينا بلادَنا ، وكنتم عيوناً لهم علينا وقوّيْتُموهم بالأَموال . فاتّقَوْه بِابْنِ بُقَيْلَة ، وقالوا له : كُنْ أنتَ الذى تُكَلّمه فتقدَّمْ ، فقال : ماأَنْتَ وقولك : إنا فَرِحْنا بمجيئهم ، فماذا فَعلوا ؟ وبأىِّ ذلك من

---

(١) برس : موضع بأرض بابل . (٢) العلوج : كبار العجم .

أمورهم نَفْرَح ! إنهم ليزعمون أنَّا عبيدٌ لهم ، وما هُم على ديننـــا ، وإنهم ليشهدون علينا أنَّا من أهل النار . وأما قولُك : إنا كنّا عيوناً لهم ، فما الذى يُحْوِجُهم إلى أن نـكونَ عيوناً لهم ، وقد هرب أصحابُـكم منهم ، وخَلّوا لهم القرى ! فليس يمنَعُهُم أحدٌ من وَجْهٍ أرادوه ، إن شاءوا أخذوا يمينا أو شمالًا ! وأما قولك : إنا قوَّيْناهم بالأموال ؛ فإنا صانَعْناهم بالأموال عن أنفُسِنا ، إذ لم تمنعونا مخافةَ أن نُسْبَى ، وأن نُحرَب وتقتَل مقاتلتنا ، وقد عجز عنهم مَنْ لَقِيَهم منكم ، فـكنّا نحن أعْجَز . ولعمرى لَأَنْتم أحبُّ إلينـــا منهم ، وأحسنُ عندنا بلاءً ، فامنعونا منهم نـَكُنْ لـكم أعواناً ، فإنما نحن بمنزلة عُلوج السَّوَاد ؛ عبيـــد من غلَب . فقال رستم : صَدَقـكم الرَّجل .

* * *

ومكث رُستُم أربعةَ أشهر لا يُقْدِمُ ولا يقاتِلُ رَجاء أن يَضْجَرُوا بمكانهم وأن يُجْهَدُوا فينصرفوا ، وكَرِه قتالَهم مَخافةَ أن يَلقَى مالقِيَ مَنْ قبْلَه ، وطاوَلَهُمْ لولاأن الملك جعل يستَعجِله . ثم نزل النَّجَف[1] .

وعرف عُمَرُ بن الخطاب أنَّ القومَ سَيُطاوِلونَهم ، فعهِد إلى سعد وإلى المسلمين أن ينزلوا حدود أرضهم ، فبعث سعد عاصم بن عمرو وجابرا الأسدىّ وغـــيرهما من رءوس القوم للإغارة ، فأغاروا ، وأَتَوْا سعداً بالفتح والغنائم والسلامة .

ثم سار رستم حتى نزل نهر العَتِيق ، وسايَرَه حتى بلغ خَفَّان[2] ، ثم طلع موضعاً يُشْرِفُ منه على المسلمين ، فراسل زُهْرة بن الْحَوِيّة ، فخرج إليه حتى واقفه

---

(١) النجف : موضع قريب من الـكوفة . (٢) خفان : مأسدة قرب القادسية .

فأراده على أَنْ يُصَالِحَهم ، ويجعل له جُعْلًا على أن ينصرفوا عنه ، وجعل يقولُ فيما يقول : أنتم جيرانُنَا ، وقد كانت طائفةٌ منكم فى سُلطاننا ، فكنّا نُحسِنُ جِوَارَهم ، ونكفُّ الأَذَى عنهم ، ونولّيهم المرافق الكثيرةَ ، ونحفظُهم فى أهل بادِيتهم ، فنرعيهم مَراعِيَنا ، ونَميرُهم من بلادنا ، ولا نمنعهم من التجارة فى شىء من أَرْضنا ، وقد كان لهم بذلك مَعَاش ؛ قال له ذلك يُعرِّض بالصُّلْح ولا يُصرِّح .

فقال له زُهْرَة : صدقْتَ ؛ قد كان ما تَذْكر ، وليس أمرُنا أمْرَ أولئك ، ولا طَلِبَتُنا طَلِبَتَهم ، إنَّا لَمْ نَأْتِكم لطاب الدنيا ، إنما طَلِبَتُنا وهِمَّتُنَا الآخرة ، كنّا كما ذكرتَ ، يَدِينُ لكم مَنْ وَرَدَ عليكم مِنّا ، ويَضْرَعُ إليكم يطلبُ ما فى أيديكم ، ثم بعث الله تبارك وتعالى إلينا رسولًا ، فدعانا إلى ربّه فأَجبناه ، فقال لنبيِّه صلى الله عليه وسلم : إنى قد سلّطْتُ هذه الطائفة على مَنْ لم يَدِن بدينى ، فأنا مُنْتَقِمٌ بهم منهم ، وأجْعل لهم الغَلَبَة ما داموا مُقِرِّين به ، وهو دينُ الحق لا يرغَبُ عنه أحد إلّا ذَلّ ، ولا يَعْتَصِمُ به أحدٌ إلّا عزّ .

فقال له رُسْتم : وما هو ؟ قال : أَمّا عمودُه الذى لا يصلح منه شىء إلا بِه فشهادةُ أَنْ لا إله إلا الله ، وأن محمداً رسول الله ، والإقرار بما جاء من عند الله تعالى ، قال : ما أَحْسَنَ هذا ! وأىُّ شىء أيضا ؟ قال : وإخْرَاجُ العباد من عبادة العِبَادِ إلى عبادة الله تعالى ، قال : حَسَن ، وأىُّ شىء أيضا ؟ قال : والناس بَنُو آدم وحَوَّاء إخوةٌ لأبٍ وأُمٍّ ، قال : ما أَحْسَنَ هذا !

ثم قال له رستم : أرأيتَ لو أنّى رَضيتُ بهذا الأمر وأجبْتُكم إليه ومعى قَوْمى كيف يكون أَمْرُكم ؟ أتَرْجِعُون ؟ قال : إى والله ! لا نقرُبُ بلادَكم أبداً

إلا فى تجارة أوْ حَاجة ، قال : صدقتَنى والله ؛ أمَا إنّ أهل فارس منذ ولى أَرْدَشِير لم يدَعُوا أحداً يَخرُجُ من عمله من السّفلة ، كانوا يقولون إذا خرجُوا من أعمالهم : تعَدّوْا طورَهم وعادَوْا أشْرَافَهم .

فقال له زُهرة : نحن خيرُ الناس للناس ، فلا نستطيعُ أن نكونَ كما تقولون نُطيع الله فى السّفلة ، ولا يضرّنا من عصى الله فينا ، وانصرف عنه .

ودعا رستم رجالَ فارس ، فذاكرهم هذا فحمُوا من ذلك وأَنِفُوا ، فقال : أبْعَدكم الله وأَسْحَقكم ! أَخْزَى الله أَخْرَعنَا وأَجْبَننَا !

***

وبَدَا لسعد أن يُرسل إلى المغيرة بن شعبة ، وبُسْر بن أبى رُهْم ، وعَرْفجَة بن هَرْثمة وحُذَيفة بن مِحْصَن ، ورِبْعىّ بن عامر ، وقِرْفَة بن زاهر التّيْمِىّ ، ومَذْعُور ابن عَدِىّ العِجْلِىّ ، والمضارب بن يزيد العِجْلِىّ ، ومَعْبَد بن مُرّة العِجْلِىّ . فلما أُحضروا لَدَيْه قال لهم: إنى مُرْسِلكم إلى هؤلاءِ القوم، فما عندكم ؟ قالوا جميعاً : نتّبِع ما تَأْمُرُنا به ، وننتهى إليه ، فإذا جاء أمرٌ لم يكن منك فيه شىء ، نَظَرْنا أَمْثَل ما ينبغى وأنفعَه للناس ، فكلّمْنَاهُم به .

فقال سَعْد : هذا فِعْلُ الحَزَمة[1] ، اذهبوا فتهيّئُوا . فقال رِبْعِىّ بن عامر : إن الأعاجم لهم آراء وآراب ، ومتى نَأْتِهم جميعاً يرَوْا أنّا احتفلْنا بهم ، فلا تزِدْهم على رجل ؛ فمالئُوه جميعاً على ذلك ؛ فقال : فَسَرِّحونى ، فأَمَرَ سَعْد أن يُسَرَّح .

وخرج رِبْعِىّ ليدخل على رُسْتم عسكره ، فاحتبسَه الذين على القنطرَة ، وأُخْبِر رستم بمجيئه ، فاستشار عُظماء أهْل فارس ، فقال : ما ترَوْنَ ؟ أنُبَاهى أم نتهاوَنُ ؟

---

(١) الحزمة : جمع حازم .

فأجمع ملَؤُهم على التَّهاوُن . فأظهروا الزِّبْرِج[١] ، وبَسَطُوا البُسُط والنَّمارق[٢] ، ولم يتركوا شيئاً ، ووُضِع لرستم سَرِيرُ الذهب ، وأُلْبس زينتَه من الأَنماطِ والوسائد المنسوجة من الذهب . وأقبل رِبْعيّ يسير على فرس له قصيرة ، ومعه سيف له مَشُوف[٣] ، وَغمْدُه لِفافة ثوبٍ خَلَق ، ورمحه مَعْلُوب[٤] بقدٍّ . معه حَجَفة[٥] من جلود البَقَر ، على وجهها أديم أحمَر مثل الرغيف ، ومعه قَوْسُه ونَبْلُه .

فلما غَشِيَ الملك وانتهى إليه ، وإلى أدنى البُسُط قيل له : انزِل ، فحملها على البساط ، فلما استوت عليه نزل عنها ، وربطها بوِسادَتَيْنِ ، فشقَّهُما ثم أدْخَل الحبل فيهما ، فلم يستطيعوا أن يَنْهَوْه ، وإنما أروْه التَّهاوُن ، وعرف ما أرادوا، فأراد استخراجهم ، وعليه درْعٌ له كأنها إضاة[٦] ويَلْمَقُه[٧] عباءة بعيره ، قد جَابَها[٨] وتَدَرَّعها ، وشدَّها على وسطه بسَلَب[٩] ، وقد شدّ رَأْسَه بمِعْجَره[١٠] ، وكان أكثر العرب شعرة ، ولرأسه أربع ضفائر قد قُمْنَ قياماً كأنهنَّ قرون الوعِلة . فقالوا : ضَعْ سِلاحَك ، فقال : إنى لم آتِكُم فأضع سلاحى بأمركم ، أنتم دعوتمونى ، فإن أبَيْتُمْ أنْ آتيَكم كما أُرِيد رَجَعْتُ .

فأخبروا رستم ، فقال : ائْذَنُوا له ، هل هو إلا رجل واحد ! فأقبل يتوكَّأ على رمحه وزُجُّه[١١] نَصل ، يُقَارِبُ الخَطْو ، ويَزُجُّ[١٢] النَّمارِق والبُسط ، فما ترك لهم نُمْرُقةً ولا بساطاً إلا أفسده ، وتركه مُنْتَهَكا مُمَزَّقاً .

---

(١) الزبرج : الزينة من وشى أوجوهر . (٢) النمارق : جمع نمرقة ، وهى الوسادة الصغيرة.
(٣) سيف مشوف : مجلو . (٤) يقال : علب الرمح على البناء للمجهول، إذا حزم مقبضه .
(٥) الحجفة : الترس من الجلد . (٦) الإضاة : الغدير .
(٧) اليلمق : القباء . (٨) فى اللسان : جبت القميص : قورت جيبه .
(٩) السلب : ليف المقل . (١٠) المعجر : ماينسج من الليف ، شبه الجوالق .
(١١) الزج : الحديدة أسفل الرمح . (١٢) يزج : يدفع بالزج .

فلما دنا من رُسْتم تعلَّق به الحرَس ، وجلس على الأرض ، ورَكز رمحه بالبُسط فقالوا : ماحملك على هذا ؟ قال : إنا لا نستحبّ القُعود على زينتكم هذه .

فكلَّمه فقال : ماجاء بكم ؟ قال : الله ابْتَعَثَنَا ، والله جاء بنا لِنُخْرِجَ مَنْ شاء من عبادةِ العِباد إلى عبادة الله ، ومِنْ ضِيق الدنيا إلى سَعتها ، ومن جَوْرِ الأديان إلى عَدْل الإسلام ، فأرسلَنا بدينه إلى خَلْقِه لندْعوَهم إليه ، فمَنْ قَبِل ذلك منا قَبِلْنَا ذلك منه ، ورجعنا عنه ، وتركناه وأرضه يَليها دُونَنَا ، ومَنْ أبى قَاتَلْناه أبداً حتى نُفْضِيَ إلى مَوْعُود الله . قال : وما موعودُ الله ؟ قال : الجنةُ لمن مَات على قتال مَنْ أَبَى ، والظَّفر لمن بَقِيَ .

فقال رستُم : قد سمعتُ مقالَتَكم ؛ فهل لكم أن تُؤَخِّرُوا هذا الأمرَ حتى ننظر فيه وتنظروا ! قال : نعم ، كم أحَبُّ إليكم ؟ أيوماً أم يومين ؟ قال : لا ، بل حتى نُكاتِبَ أهلَ رأينا ورؤساء قومنا ، فقال : إنّ مما سنّ لنا رسولُ الله صلى الله عليه وسلم ، وعمل به أئمتنا ، ألَّا نمكِّنَ الأعداء من آذاننا ، ولا نؤجّلَهم عند اللقّاء أكثر من ثلاث ، فنحن مترددون عنكم ثلاثا ، فانظر فى أمرك وأمرهم ، واخْتَرْ واحدةً من ثلاث بعد الأَجَل : اختر الإسلامَ ونَدَعك وأرْضَك ، أو الجزَاء[1] فنقبلَ ونَكُفّ عنك ، وإن كنْتَ عن نَصْرِنا غنيًّا تركناك منه ، وإن كنتَ إليه محتاجاً منعناكَ ، أو المُنَابذة[2] فى اليوم الرابع ، ولسنا نَبْدَؤُك فيما بيننا وبين اليوم الرابع إلا أن تَبْدَأَنا ، أنا كفيلٌ لك بذلك على أصحابى ، وعلى جميع مَنْ ترى . قال : أسيِّدُهم أنت ؟ قال : لا ، ولكن المسلمين كالجسد بعضهم من بعض ، يُجِيرُ أدناهم على أعْلاهم .

---

(١) الجزاء : جمع جزية . (٢) المنابذة : المكاشفة .

فخلص رستم إلى رؤساء فارس فقال : ما ترَوْن ؟ هل رأيتم كلاما قطُّ أوضحَ من كلام هذا الرجل ؟ قالوا : مَعاذَ الله ؛ أتَدِين إلى شىء من هذا ، وتدَعُ دينَك لهذا الكَلْب ! أما ترى إلى ثيابه ؟ فقال : وَيْحَكُم ! لا تنظروا إلى الثيابِ ، ولكن انظروا إلى الرّأْى والكلام والسِّيرة ، إن العرب تستخفُّ باللباس والمأكل ، ويصونون الأَحْساب ، ليسوا مِثْلكم فى اللِّباس ، ولا يرَوْنَ فيه ما ترَوْن .

وأَقْبَلُوا إليه يتناولون سِلاحَه ، ويزهِّدونه فيه ، فقال لهم : هل لكم أن ترونى فأريكم ! فأخرجَ سيفه من خِرْقَةٍ كأنه شُعْلَة نار ، فقال القوم : اغْمِدْه ، فغمَده ، ثم رمى تُرْساً ورمَوْا حَجَفته ، فخرق تُرسَهم ، وسلِمَتْ حَجَفتُه . فقال : ياأهل فارس، إنكم عظَّمْتم الطعام واللباس والشراب ، وهى عندنا صغيرة . ثم رجع إلى أن ينظروا إلى الأَجَل .

فلمّا كان من الغد بعثوا إلى سَعْد : أن ابْعثْ إلينا ذلك الرّجل ، فبعث إليهم حُذَيْفَة بن محْصَن ، فأقبل فى نحوٍ من ذلك الزِّىّ ، حتى إذا كان على أَدْنَى البساط قيل له : انزل ، قال : لو جئتُكم فى حاجتى ، فقولوا لملككم : أَلَهُ الحاجة أَمْ لى ؟ فإن قال : لى ، فقد كَذَب ، ورَجعت وتركتكم .

فقال رستم : دَعوه ، فجاء حتى وقف عليه ، وهو على سريره ، فقال : انزِل ، قال : لا أفعل ، فلما أبى سَأَله : ما بالُكَ جئْتَ ولم يجِئْ صاحبُنا بالأمس ؟ قال : إن أميرَنا يُحِبُّ أن يَعدِل بيننا فى الشدّة والرخاء ، فهذه نَوْبتِى . قال : ما جاء بكم ؟ قال : إن اللهَ عز وجلّ منَّ علينا بدِينه وأرَانا آياته حتى عرَفْناه وكنا له مُنْكرين ثم أمرنا بدعاء النّاس إلى واحدة من ثلاث ، فأيها أجابوا إليها قبِلْناها : الإسلام وننصرف عنكم ، أو الجزاء ونمنعكم إن احتجتم إلى ذلك ، أو المنابَذَة فقال:

أوالموادَعةَ إلى يومٍ ما. فقال نعم ، ثلاثاً من أمس . فلما لم يجد عنده إلا ذلك ردَّه وأقبل على أصحابه ، فقال : وَيْحَكُم ! ألا تَرَوْن إلى ما أرى ! جاء الأول بالأمس فغلبنا على أرضنا ، وحقَّر ما نُعَظِّم ، وأقام فرسه على زِبْرِجنا ورَبَطه به ؛ فهو فى يُمْنِ الطائر ؛ ذهب بأرضنا وما فيها إليهم مع فَضْل عقله ، وجاءنا هذا اليومَ ؛ فوقف علينا فى يُمْن الطائر ؛ يقوم على أرضنا دوننا . . . حتى أغضبهم وأغضبوه .

فلمّا كان من الغد أرسل إلى العرَب : ابعثوا إلينا رجلا ؛ فبعثوا إليهم المُغِيرَة بن شُعْبة . ولما جاء إلى القَنْطَرة عَبَرها إلى أَهْلِ فارِس ؛ واسْتأْذَنوا رُستمَ فى إجازته ؛ ولم يُغَيّروا شيئاً من شارتهم ؛ تَقْوِيةً لتهاوُنهم ؛ وأقبل المُغيرة عليهم ، والقومُ فى زِيِّهم ؛ عليهم التِّيجان والثِّيابُ المنسوجة بالذهب ، وبُسُطهم على غَلْوة[1] ، لا يصل إلى صاحبهم حتّى يمشى عليها .

وأقبل المغيرةُ ، وله أربعُ ضَفائر يمشى حتى جلس على سريره ووِسادته ، فوثبوا عليه ، فَتَرْتَروه[2] وأنزلوه ، ومَغَثوه[3] . فقال : كانت تبلغنا عنكمُ الأحلام ، ولا أرى قوماً أَسْفَه منكم ؛ إنا معشرَ العرب سواء ، لا يستَعْبِد بعضُنا بعضاً ، إلا أن يكونَ مُحارباً لصاحبه ، فظننتُ أنكم تُواسون قومَكم كما نتَواسى ؛ وكان أحسنَ مِنَ الذى صنعتم أن تُخْبِرونى أنَّ بعضَكم أَرْبابُ بعض، وأنَّ هذا الأمر لا يستقيم فيكم فلا نَصْنَعُه ، ولم آتكم ولكن دَعَوْتمونى ؛ اليوم علمتُ أنَّ أمرَكم مُضْمَحِلّ ، وأنكم مَغْلوبون ؛ وإن مُلْكا لا يقوم على هذه السِّيرة ولا على هذه العقول .

فقالت السِّفْلة : صَدَق والله العربى ، وقالت الدَّهاقين[4] : والله لَقدْ رَمَى

---

(١) الغلوة : مقدار مرماة . (٢) ترتروه : زحزحوه .

(٣) مغثوه : ضربا ليس بالشديد . (٤) الدهقان : زعيم فلاحى العجم .

بكلامٍ لا يزالُ عبيدُنا يَنْزِعون إليه ؛ قاتل الله أوّلينا ؛ ما كان أحمقَهم حينما كانوا يُصَغِّرُون أمرَ هذه الأمة !

فمازحه رُستم ؛ ليمحوَ ما صُنِع به ، وقال : يا عربىّ ؛ إن الحاشيةَ قدْ تصنعُ ما لا يُوَافِقُ الملك ، فيتراخى عنها مخافةَ أن يكسرها عمّا ينبغى من ذلك ؛ فالأمرُ على ما تحبّ من الوفاء وقبُول الحق ؛ ما هذه المَغَازِل[1] التى معك ؟ قال : ما ضرَّ الجمْرة ألّا تكون طويلة ! ثم رَاماهم ، فقالوا له : ما بالُ سَيْفِكَ رثًّا ! قال : رَثُّ الكُسوةِ حَديدُ المَضْرَبة ؛ ثم عاطَاهُ سيفه . ثم قال له رستم : تتكلّم أم أتكلّم ؟ فقال المُغيرة : أنتَ الذى بعثتَ إلينا ؛ فتكلَّم ، فأقام التّرجمان بينهما .

وتكلّم رُسْتم فحمِد قومه ، وعظّم أمرَهم ، وقال : لم نزَلْ متمكّنين فى البلاد ، ظاهرين على الأعْداء ، أشرافاً فى الأمم ، فليس أحدٌ من الملوك فى مثل عِزِّنا وشرَفِنا وسلطاننا ، نُنْصَر على الناس ، ويُنْصَرُون علينا إلّا اليوم واليومَين أو الشهر والشهرين للذنوب ، فإذا انتقم اللهُ فرِضىَ رَدَّ إلينا عِزَّنا ، وجَمعَنا لعدوِّنا شرَّ يوم هو آتٍ عليهم . ثم إنه لم يَكُنْ فى الناس أمةٌ أصغر عندنا أمْراً منكم ؛ كنتم أهلَ معيشة سيِّئة ؛ لا نَراكم شيئاً ولا نعدّكم ، وكنتم إذا قُحِطت أرضكم ، وأصابتْكم السَّنَة[2] استغثْتم بناحية أرضِنا ، فنأمرُ لكم بالشىء من التّمر والشعير ، ثم نَردُّكم . وقد علمتُ أنه لم يحملكم على ما صنعتم إلّا ما أصابكم من الجَهْد فى بلادكم ، فأنا آمُرُ لأميركم بكُسْوَة وبَغْل وألْف درهم ، وآمُرُ لكل رجل منكم بوِقْر[3] تمرٍ وبثوْبَيْن ، وتَنصرفُونَ عَنَّا ؛ فإنى لست أشْتَهى أنْ أقْتُلَكُمْ ولا آسركم .

---

(١) المغازل ، يريد السهام . (٢) السنة : الجدب . (٣) وقر : حمل .

فتكلَّم المُغيرةُ بنُ شعبة ؛ فحمِد الله وأثنَى عليه وقال : إنّ الله خالقُ كل شىء ورازِقُه ، فمَنْ صنع شيئا فإنما هو يصنعُه والّذِى له ، وأما الذى ذكرتَ به نفسَك وأهلَ بلادك من الظُّهور على الأعداء ، والتمكّن فى البلاد ، وعُظْم السلطان فى الدنيا ، فنحن نعرِفُه ، ولسنا نُنْكِرهُ ، فاللهُ صنَعه بكم ووضَعه فيكم ؛ وهو له دُونكم . وأمّا الذى ذكرتَ فينا من سوء الحال ، وضيق المَعيشة ، واختلافِ القلُوب فنحن نعرِفُه ، ولسنا نُنْكِرُه ، والله ابتَلانا بذلك ، وصَيَّرَنا إليه ، والدُّنْيَا دُوَل ، ولم يزل أهلُ شدائدها يتوقّعون الرَّخاء حتى يصيرُوا إليه ، ولم يزلْ أَهْل رخائِها يتوقّعُون الشدائد حتى تَنْزِل بهم ، ويَصِيروا إليها ، ولو كنتم فيما آتاكم الله ذَوِى شُكْرٍ ، كان شكرُكم يَقْصُرُ عما أُوتِيتُم ، وأسلمكم ضعف الشكر إلى تغيّر الحال .

ولو كنَّا فيما ابتُلينا به أهل كفر كان عظيمُ ما تتابع علينا مستجلباً من الله رحمةً يرفِّه بها عنَّا ، ولكنَّ الشأْن غيرُ ما تذْهبُون إليه . أوَ ممَّا كنتم تعرفوننا به ؛ أن الله تبارَك وتعالى بعث فينا رسولا ! ثم ذكر مثل الكلام الأول حتى انتهى إلى قوله : وإن احتجْتَ إلينا أن نَمْنَعَك فَكُنْ لنا عبداً تُؤَدِّى الجِزْيَة عن يَدٍ وأنت صاغر ، وإلا فالسيف . فاسْتَشَاط غضَباً ، ثم حلَفَ بالشمس لا يرتفع لكم الصُّبْح غدا حتى أقتلَكُم أجمعين .

وانصرف المغيرةُ ، وخلَصَ رُستم بأهْلِ فارس ، وقال : أين هؤلاء منكم ؟ ما بَعْد هذا ! ألم يأتكم الأوّلان فحسّراكم واستَحْرَجاكم ، ثم جاءكم هذا فلم يختلفوا وسَلَكُوا طريقاً واحداً ؛ ولزِمُوا أمراً واحداً ! هؤلاء والله الرِّجال ، صادقين كانوا أم كاذبين ، والله لَئِنْ كان بلغ من ضَوْنِهم لسرِّهم ألا يختلفوا فما قومٌ أبلغ فيما أرادوا منهم ، لئن كانوا صادقين ما يقوم لهؤلاء !

فلجُّوا وتَجَلَّدُوا ، فقال : واللهِ إنى لَأَعْلَمُ أنكم تُصْغُون إلى ما أقول لكم ، وإن هذا منكم رِثاء . . . فازدادوا لَجَاجَة .

ولم يَكَد المغيرةُ يقطعُ القنطرةَ ، ويصلُ إلى أصحابه ، حتى جاء خَلْفَه رجل من أهل فارس يقولُ له : إنّ رستم رجل مُنَجِّم ، وإنه إذ رآك حَسَبَ لك ، ونظر فى أمرك ، فقال : إنك غداً تُفْقَأ عينُك ، فقال المغيرة : بَشَّرْتَنى بخيرٍ وأجْرٍ ، ولولا أن أُجاهِد بعد اليوم أشباهَكم من المشركين لتمنَّيتُ أنَّ الأخرى ذهبت أيضاً .

***

وأرادَ سَعْدُ بن أبى وَقَّاص أن يَرْمِىَ بآخرِ ما عنده من الرأى ، فأرسل إلى رُستم بقيةَ ذَوِى الرأى ، وحَبَسَ الثلاثة[١] ؛ فخرجوا حتى أتَوْه ، وقالوا له : إن أميرَنا يقولُ لك : إنى أدعوكَ إلى ما هو خيرٌ لنا ولك ، العافية أن تقبلَ ما دَعاكَ الله إليه ، ونرجع إلى أرضنا ، وترجع إلى أرضِك ، وبعضُنا من بعض ، أَلَا إنَّ دارَكم لكم ، وأمرَكم فيكم ، وما أصبتم من ورائكم كان زيادةً لكم دوننا ، وكنا لكم عَوْناً على أحد إن أرادكم أو قوى عليكم ، اتَّقِ الله يا رُستَم ، ولا يكونَنّ هلاكُ قومِك على يديك !

فقال : إنى قد كَلَّمْتُ منكم نفَراً ؛ ولو أنهم فهموا عَنِّى رجوت أن تكونوا قد فهمتم ، وإن الأمثال أوضح من كثير من الكلام ، وسأَضْرِب لكم مثلا يُبَصِّركم ، إنكم كنتم أهلَ جهْدٍ فى المعيشة ، وقَشَفٍ فى الهيئة ، لا تَمْتَنِعُون

---

(١) هم الذين أوفدهم إليه قبل .

ولا تَنْتَصِفون فلم نُسِئ جوارَكم ، ولم نَدَعْ مواساتَكم ، تُقحَمون⁽١⁾ المرة بعد المرّة ، فَنَميرُكم ثم نردّكم ، وتأتوننا أُجراء وتُجّاراً ، ونُحسِنُ إليكم ، فلما تطاعَمْتم بطعامنا ، وشربتم شرابَنا ، وأظلّكم ظِلُّنا وَصَفتم لقومكم فدعوتموهم ، ثم أتيتمونا بهم . وإنما مَثَلُكم فى ذلك ومثلنا كمثل رجل كان له كَرْم ، فرأى فيه ثعلباً ، فقال : وما ثَعْلَب ! فانطلق الثعلب فدعا الثعالب إلى ذلك الكَرْم ، فلما اجتمعن عليه سَدَّ عليهنّ صاحبُ الكرمِ الجحْر الذى كُنَّ يدخُلْنَ منه ، فقتلَهُنَّ ، وقد علمتُ أن الذى حملكم على هذا ، الحِرْصُ والطمعُ والجَهْدُ ، فارجِعوا عَنَّا عامكم هذا ، وامْتاروا حاجتكم ، ولكم العَوْدُ كلما احتجتم ، فإنّى لا أشتهى أن أقتلكم .

فتكلّم القومُ وقالوا : أمّا ما ذكرتَ من سوء حالنا فيما مضى ، وانتشار أَمرنا فلم تَبْلُغْ كُنْهَهُ ، وبينما نحن فى أسوأ حال إذ بَعَثَ الله فينا رسولًا من أنفسنا إلى الإنس والجنّ ؛ رحمةً رَحِمَ بها مَنْ أراد رَحْمَتَهُ ، ونِقْمَةً ينتَقِمُ بها ممن ردّ كرامَتَه ؛ فبدأ بنا قبيلة قبيلة ، فلم يكن أحدٌ أشدَّ عليه ، ولا أشدَّ إنكاراً لما جاء به ، ولا أَجْهَد على قتله وردِّ الذى جاء به من قومه ، ثم الذين يَلُونهم حتى طابقناه على ذلك كلّنا ، فنَصَبْنَا له جميعاً ، وهو وَحْدَه فَرْدٌ ، ليس معه إلا اللهُ تعالى ، فأُعْطِيَ الظَّفَرَ علينا ، فدخل بَعْضُنا فى الدِّين طَوْعاً ، وبَعْضُنا كَرهاً ، ثم عرفنا جميعاً الحقَّ والصدق لِمَا أَتانا به من الآيات المعجزة .

وكان مما أَتانا به من عند ربنا جهادُ الأَدْنَى فالأَدْنَى ، فسِرْنا بذلك فيما بيننا ، نرى أنّ الذى قال لنا ووعدَنا لا ينقَض ، حتى اجتمعت العرَبُ على هذا ، وكانوا من اختلاف الرَّأْى فيما لا يطيق الخلائق تأليفَهم ، ثم أَتيناكُم بأمر ربنا ،

---

(١) تقحمون : تصابون بالقحط .

نجاهدُ فى سبيله ، ونُنفِّذُ لأمره ، ونَسْتَنْجِزُ موعودَه ، وندعوكم إلى الإسلام وحكمِه ، فإن أجَبْتُمُونا تركناكم ، ورجعنا وخَلَّفنا فيكم كتابَ الله ، وإن أبيتُم لم يحلّ لنا إلا أن نعاطيَكم القتال ، أو تفتدوا بالجزَى ، فإن فعلتم وإلّا فإنّ الله أَوْرَثَنَا أرضَكم وأموالكم وأبناءكم ، فاقبلوا نصيحتَنا ؛ فوالله لَإسلامُكم أَحَبُّ إلينا من غنائمكم ، ولَقتالُكم بعدُ أحبُّ إلينا من صُلْحِكم ، وأما ما ذكرتَ من رَثاثَتِنا وقلَّتِنا ، فإن أَداتنا الطاعة ، وقتالنا الصبر ، ومَثَلكم مَثَل رجل غَرَس أرضاً واختار لها الشجر والحبّ ؛ وأجرى إليها الأنهار ، وزَيَّنَها بالقصور ، وأقام فيها فلاحين يسكنون قصورها ويقومون على جَنَّاتِها ، فخلَا الفلاحون فى القُصور على ما لا يحبّ ، وفى الجنان بمثل ذلك . فأطال نَظِرَتَهم ، فلمّا لم يستحيوا من تلقاء أنفسهم استعتبهم فكابروه ، فدعا إليها غيرَهم ، وأخرجهم منها ؛ فإن ذهبوا عنها تَخَطَّفَهُم الناس ، وإن أقاموا فيها صاروا خَوَلًا لهؤلاء ، يملكونهم ولا يملكون عليهم ، فيسومونهم الخسْفَ أبدا . والله إن لم يكن ما نقولُ لك حقًّا ، ولم يكن إلا الدنيا ، لما كان لنا عمّا ضَرِينا به من لذيذِ عَيْشِكم ، ورأينا من زِبْرِجكم من صَبْر ولَقارَعْنَاكُم حتّى نغلبَكم عليه .

٣٦ – يوم أَرْمَاث*

لم تصلح المُفَاوَضَة ، وتهيَّأَ الفريقانِ للحَرْب ؛ قال رستم : أَتَعْبُرون إلينا أَمْ نَعْبُرُ إليكم ؟ فقالوا : بل اعْبُروا إلينا .

وأمر سَعْدٌ الناسَ أن يقِفُوا مواقِفَهم ، وأرسل إلى الفُرْس : شأنكم والعبُور .

فأرادوا القَنْطَرة ـ وكانتْ للفُرْسِ وأخذها المسلمون منهم ـ فأرسل سعدٌ إليهم : لا نَرُدُّ عليكم شيئاً قد غَلَبْناكم عليه ؛ تَكَلَّفُوا مِعْبراً غيرَ القناطر ، فباتُوا يسكُرون[1] نهر العتيق إلى الصباح بالتُّراب والقَصَب والبراذِع حتى جعلوه طريقاً .

ولبس رُستَم دِرْعَيْن ومِغْفَراً[2] ، وأَخَذَ سلاحه ، وأَمر بفرسه فأُسْرِج ، وأُتِيَ به ، ثم قال : غَدًا ندقُّهُم دَقًّا ، فقال له رجلٌ : إنْ شاءَ الله ، فقال : وإن لم يَشَأْ .

ولما عَبَرَ أهلُ فارِس أَخذوا مَصَافَّهم ، وجلس رُستم على سريره ، وعَبَّى فى القلب ثمانية عشر فِيلًا ، عليها الصناديقُ والرجال ، وأقام الجالِنوس بينه وبين مَيْمَنَتِه والبيرُزان بينه وبين مَيْسَرَتِه ، وبقيَت القنطرة بين خَيْلَيْن من خيول المسلمين وخيول المشركين .

---

* قال ياقوت : أرماث : جمع رمث ، وهو اسم نبت بالبادية ، كان أول يوم من أيام القادسية ، يسمونه يوم أرماث ، ولا أدرى أهو موضع أم أرادوا النبت المذكور .

(١) سكر النهر : سد فاه .

(٢) المغفر : زرد من حديد ينسج على قدر الرأس يلبس تحت القلنسوة .

وكان يَزْدجرد وضع رجُلًا على باب إيوانِهِ — إذ سرّح رستم — وأمره بلزومه وإخبـاره ، وآخر حيث يسمعُه من الدار ، وآخر خارج الدار ، وكذلك وضعَ على كلِّ مسافة رجلاً ، فنظّم ما بين العتيق والمـدائن رجالا ، فكان يَعْلم الأخبار حينَ حُدُوثِها ، لا يغيبُ عنه شيءٌ حدثَ في ليلٍ أو نهار .

وأَخذ المسلمون مَصَافَّهم ، ونادى مناديهم : أيّها الناس ، ألا إن الحسد لا يَحِلُّ إلّا على الجهاد ، فتحاسَدوا على الجِهاد .

وكان سَعدٌ يومئذ لا يستطيعُ أن يركَب ولا يجلس إذْ كان به حُبون[1] ، لايستطيع معها الركوبَ ولا الجلوسَ ، فأشْرَفَ على الناس من القَصْرِ ، وصار يرْمى بالرِّقاع ، فيها أمرُه ونَهْيُه إلى خالد بن عُرْفُطة ، إذ كان كالخليفة له .

وبَرِم بعضُ المسلمين بسَعْد وتندَّروا بمرضه ، واختلفوا على خالد ، فقال سعد : احملونى ، وأشْرِفوا بى على النـاس ، فارْتقَوْا به ، فأكبّ مُطّلِعاً عليهم ، وتحت صَدْرِه وِسادة ، وأخذ يأمر خالدا ، فيأمر خالدٌ الناسَ ، فلمـا رأى الجندُ ما به عذَرُوه .

وكان ممّن شَغَب على خالد بعضُ وجوهِ الناس ، فَهَمَّ بهم سعدٌ وشَتَمهم ، وقال : أمَا واللهِ لولا أنَّ عدوَّكم بحضرتـكم لجعلتُـكم نـكالًا لغيركم .

ثم أمر بجماعه — منهم أبو مِحْجَن الثّقفىّ — فحُبِسوا ، وقيّدهم فى القَصْر ، فأعلن القومُ ولاءَهم وطاعَتَهم .

ثم توجّه إلى القوم وخطبهم قائلا بعد أن حمِدَ اللهَ وأثنى عليه : إنَّ اللهَ هو الحقُّ لا شريكَ له فى الملك ، وليس لقوله خُلْف ، قال اللهُ جل ثناؤُه : ﴿ ولَقَدْ

(١) الحبون : الدماميل ، واحدها حبن .

كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ ﴾[١] . إن هذا ميراثكم وموعودُ ربِّكم ؛ وقد أباحها لكُمْ منذ ثلاث حِجَج[٢] ، فأنتم تطْعَمون منها ، وتقْتُلونَ أهلَها ، وتَجْبونهم[٣] وتَسْبونَهم إلى هذا اليوم ، وقد جاءكم منهم هذا الجمع ، وأنتم وجوهُ العرب وأعيانُهم ؛ وخِيارُ كلِّ قبيلة ، وعِزُّ مَنْ وراءَكم؛ فإن تزْهَدوا فى الدنيا ، وترغبوا فى الآخرة يَجْمَع الله لكم الدنيا والآخرة ، ولا يقرّب ذلك أحداً إلى أجَله ؛ وإن تَفْشَلوا وتَهِنُوا وتَضْعُفوا تذهبْ رِيحكم[٤] .

ثم كتب إلى الرَّاياتِ : إنى قد استخلفتُ عليكم خالدَ بن عُرْفُطَة ، وليس يمنعنى أن أكونَ مكانَه إلّا وَجعِي الذى يعودُنِي ، وما بى من الجبون ، فإنى مُكِبٌّ على وجهى وشَخْصِي لكم بادٍ[٤] ، فاسمعوا له وأَطيعوا ، فإنه إنما يأمرُكم بأمْرِي ويعمل برَأْيي .

وقُرِئ الكتابُ على الناس فقَبِلوا منه ، وتحاثُّوا على السَّمْع والطاعة ، وأَجْمَعُوا على عُذْرِ سَعْدٍ ، والرِّضا بِما صَنَع.

وقبل أن يَأْذَنَ سعد بالقتال أرسَل ذَوِي الرأى والفضْلِ والنَّجْدَةِ إلى النَّاسِ فكان من ذَوِي الرأى المُغيرة وحُذيفة وعاصم ، ومن أهل النَّجْدة طُلَيْحَة وقيس الأسديّ وغالب وعمْرُو بن معديكرب ، ومن الشعراء الشمّاخ ، والحُطَيْئَة ، وأَوْس بن مَغْراء وعَبَدة بن الطَّبيب ، وقال لهم : انطلقوا فقُوموا فى الناس بما يحقّ عليكم ، ويحقّ عليهم عند مواطِن البَأْسِ ، فإنكم من العَرَبِ بالمكان الذى أنتم به،

---

(١) سورة الأنبياء ١٠٥ . (٢) حجج : سنين . (٣) جبى الخراج جمعه ، والقوم : جمعهم
(٤) تذهب ريحكم ، أى قوتكم . (٤) باد : ظاهر .

أَنْتم شعراء الناس وخطباؤُهم وذَوُو رأْيِهم ونَجْدَتِهم وسادتهم ، فسِيروا فى الناس فذكِّروهم وحَرِّضوهم على القتال .

ولما سارُوا إلى الناس، وقف قَيْس بن هُبَيْرة الأسدىّ فقال: أَيُّها الناس، احمَدوا الله على ما هَـدا كم له وأَبْلا كُم يزِدْ كم ، واذكروا آلاءَ اللهِ وارغَبُوا إليه ، فإنَّ الجنّةَ أو الغنيمة أمامكم ، وإنه ليس وراءَ هـذا القصر إلا العَراء والأرض القَفْر ، والفَلَوات التى لاتقطعُها الأَدِلّة[1] .

وقال غالب : أيّها النـاس ، احْمَدوا الله على ماأَبْلاَ كم[2] ، وسَلُوه يَزِدْ كم ، وادْعوه يُجِبْـكم . يامعاشر مَعَدّ ، ماعِلّتُـكم اليوم وأنتم فى حصونـكم - يعنى الخيل ومعـكم مَنْ لا يَعْصِيـكم - يعنى السيوف اذكـروا حديثَ النـاس فى غَدٍ .

وقال الهـذيل الأسدىّ : يامعاشر معـدّ ، اجعلوا حُصونـكم السيوف ، وكونوا عليهم كأُسود الأَجَم[3] ، وترَبَّدوا[4] لهم ترَبُّد النُّمور ، وادَّرِعوا العَجاج[5] ، وثِقوا بالله ، وغُضُّوا الأَبْصـار ، فإذا كَلَّت السيوفُ فأَرْسِلوا عليهم الجنادِل[6] ، فإنها يُؤْذَنُ لها فيما لايُؤْذَنُ للحديد فيه .

وقال بُسْر بن أبى رُهْم الجُهَنىّ : احْمَدوا الله وصَدِّقوا قولَـكم بفِعْلٍ ، فقـد حمدتُم الله على ما هَـدا كُمْ له ، ووحَّدتموه ، ولا إله غيرُه ، وكبّرتموه ، وآمنتم بنبيِّه ورُسُله ، فلا تموتُنَّ إلا وأنتم مسلمون ، ولا يكونَنّ شىءٌ بأَهْوَنَ عليـكم من الدنيا

---

(١) الأدلة : جمع دليل . (٢) ابلاكم ، أى اختبركم . (٣) الأجم : جمع أجمة : الشجر الـكثير الملتف . (٤) تربد : تغير وتعبس . (٥) العجاج : الغبار والدخان .
(٦) الجندل : مايقله الرجل من الحجارة .

فإنّها تأْتِى مَنْ تَهاوَنَ بها . ولا تميلوا إليها ، فتَهْرُبَ منكم لِتَمِيل بكم . انصروا اللهَ ينصركم .

وقال عاصم بن عَمْرو : يامعاشرَ العرب ، إنكم أَعْيانُ العربِ وقد صمدتم لِأَعْيانِ العجم ، وإنما تُخاطِرون[١] بالجنَّة ، ويُخاطِرون بالدنيا ، فلا يكونُنّ على دُنْيَاهُمْ أَحْوطَ منكم على آخرتكم . لاتُحْدِثوا اليوم أَمْراً تكونونَ به شَيْناً[٢] على العرب غداً .

وقال ربيع السَّعْدىّ : يامعاشرَ العرب ، قاتلوا للدِّين والدنيا ، ﴿ وسارِعوا إلى مَغْفِرَةٍ من ربكم وجنةٍ عَرْضُها السَّمٰوَاتُ وَالأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلمُتَّقِين ﴾[٣] ، وإنْ عظَّم الشيطانُ عليكمُ الأَمْرَ فاذْكُرُوا الأخبارَ عنكم بالمواسم مادام للأَخْبار أهل .

وقال رِبْعِىّ بن عامر : إنَّ اللهَ قد هداكم للإسلام وجمعكم به ، وأَرَاكُم الزيادةَ ، وفى الصبر الراحة ؛ فعوِّدوا أَنْفُسَكم الصَّبْرَ تعتادُوه ، ولا تعوِّدُوها الجزَع فتعتادُوه .

وقاموا كلّهم بنَحْوٍ مِنْ هذا الكلام ، فتَوَاثَق الناسُ وتعاهدُوا .

وَفَعل أهلُ فارس فيما بينهم مِثْلَ ذلك ، وتعاهدوا وتواصَوْا .

ثم أمر سعدٌ أن يُقْرَأَ على الناس سورة الجهاد[٤] ، وكانوا يتعلمونها . ثم قال لهم : الزموا مَوَاقِفَكم ، ولا تحرِّكوا شيئاً حتى تصلُّوا الظُّهْرَ ، فإذا صلَّيْتُم الظُّهْرَ

---

(١) خاطر : راهن أوعرض نفسه للهلاك . (٢) شيناً : عيبا . (٣) سورة آل عمران ١٣٣

(٤) فى بعض الروايات : لما صلى سعد الظهر أمر الغلام الذى كان ألزمه عمر إياه — وكان من القراء — أن يقرأ سورة الجهاد ، وكان المسلمون يتعلمونها كلهم ، ثم قرئت فى كل كتيبة وهشت لها قلوب الناس ، وعرفوا السكينة مع قراءتها .

فإنى مُكَبِّرٌ تكبيرةً، فكبِّروا واستعِدُّوا. واعلموا أنَّ التكبير لم يُعْطَه أحدٌ قبلكم؛ واعلموا أنما أُعْطِيتُموه تأييداً لكم، ثم إذا سمعتم الثانية فكبِّروا ولتستتمَّ عُدَّتكم، ثم إذا كبَّرْتُ الثالثةَ فكبِّروا، ولينشّط فُرْسانكم الناس ليَبْرُزوا وليطارِدوا، فإذا كبَّرْتُ الرابعةَ فازْحفوا جميعاً حتى تُخالِطوا عدُوَّكم، وقولوا: لاحَوْلَ ولا قُوَّةَ إلا باللهِ!

ولما فرَغ القرّاء كبَّر سَعْدٌ، فكبَّرَ الذين يَلُونه تكبيرةً، وكبّر بعض الناس بتكبير بعض، فتحَشْحَشَ[1] الناسُ، ثم ثَنَّى فاستتمَّ الناس، ثم ثلَّث فبرز أهلُ النَّجدات، فأنشبوا القتال، وخرج من أهْلِ فارس أمْثالُهم، فاعتوَروا[2] الطَّعْنَ والضَّرْبَ، وبرز غالب بن عبد الله الأَسَدِيّ؛ فخرج إليه هُرمز ـ وكان مُتوَّجاً ـ فأسره غالب وجاء به سَعْداً.

وخرج عاصم بن عمرو، فطارد رَجُلًا من أهل فارس، فهرب منه واتَّبعَه حتى إذا خالط صَفَّهم التقى بفارسٍ معه بَغْلُه، فترك الفارسُ البغل، واعتصم بأصحابه، فحَمَوْه فَاسْتاقَ عاصم البغل حتى أفضى به إلى الصَّفّ، فإذا الفارس خَبَّازُ الملك، وإذا الذى معه لَطَف[3] الملك: الاخْبِصَة[4] والعَسَل المعقود، فأتى به سعداً، ورجع إلى مَوْقِفِه، فلما نظر فيه سعد قال: انطلقوا به إلى أهل مَوْقفه. وقُولُوا لهم: إن الأمير قد نفَّلكم[5] هذا فكلوه.

ومرَّ عَمْرو بن مَعْدِيكرب يُحَضِّضُ الناس بين الصَّفَّين؛ فبينا هو كذلك إذْ خرَج إليه رجل من الأعاجم، فوقف بين الصَّفين؛ فرمى بنُشّابة[6] فما أخطأتْ

---

(١) تحشحش الناس، تحركوا. (٢) اعتوروا الطعن: تداولوه وتبادلوه.
(٣) اللطف: الهدايا، واحدة لطفة. (٤) الأخبصة: الحلوى. (٥) نفلكم: أهداكم
(٦) النشابة: وحدة النشاب، وهو النبل.

سِيَة قوسه[1] ، وهو مُتَنَكِّبها ، فالتفت إليه ، وحمل عليه ، فاعتنقه ، ثم أخذ عنطقته فاحتمله ، فوضعه بين يديه ، ثم كسر عنقه ، ووضع سيفه على حَلْقِه وذبحه ، ثم أَلْقاه وقال : هكذا فاصْنَعُوا بهم .

ثم كبّر سعدٌ التكبيرة الرابعة ، آية الزحف العام ، وحمل أصحابُ الفِيَلة من الفُرْس ، ففرّقُوا كَتَائِبَ المسلمين ، وابْذَعَرّت[2] خيولهم ، وكادت بَجِيلة أن تُؤْكَل ، وفرّت عنها خَيلُها نِفاراً ، وبقيت الرَّجّالة من أهل المواقف .

فلما رأى سَعْدٌ ماحلّ بهم أعانهم ببنى أسدٍ فصمدُوا لها ، ثم أخذت الدائرة تدُور عليهم ، وكادت خيلُهم تُحْجِم وتَحِيد .

فأرسل سعدٌ إلىعاصم بن عمرو التميمىّ؛ وقال : يامعشرَ بنى تميم ، ألستم أصحاب الإبلِ والخيل ! أمَا عِندكم لهذه الفِيَلَةِ من حِيلَةٍ ! قالوا : بَلَى والله . ثم نادى فى رجالِ قومِه ، فقال لهم: ذُبُّوا[3] رُكْبَانَ الفِيَلة بالنَّبْل ، واستدبِروا الفِيَلَة ، فقطِّعوا وُضُنَهَا[4] . وخرج يحميهم ، والرَّحى تَدُورُ على أسَدٍ ، وقد جالت الميمنة والميسرة غيرَ بعيد .

وأقبلَ أصحابُ عاصمٍ على الفيَلة فأخذوا بأذْنابها ، فقطّعوا وُضُنَهَا ، وارتفع عُوَاؤُها ، فما بَقِىَ لهم يومئذ فِيلٌ إلا أُعْرِىَ ، ووقعت الصناديق التى كانت عليها ، وقُتِلَ أصحابها ، ونُفِّسَ عن أسدٍ ، وردُّوا الفُرْسَ إلى مواقفهم ، ثم اقتتلوا حتى غربت الشمس ، واستمرُّوا حتى ذهبت هَدْأَةٌ[5] من الليل ، ورجع هؤلاء وهؤلاء، وأُصِيب مِنْ أَسدٍ تلك العشيّة خَمْسمائة ، وكانوا رِدْءًا للناس .

وهذا هو اليوم الأول من أيام القادسية ؛ واسمُهُ يوم أَرْمَاث .

---

(١) سية القوس : ما عطف من طرفيها . (٢) ابذعرت خيولهم : تفرقت .
(٣) ادفعوا وامنعوا . (٤) الوضين : بطان عريض منسوج من سيور ، جمعه وضن .
(٥) أول الليل إلى ثلثه .

٣٧ — يوم أَغْوَاث*

وَرَأَتْ سَلْمَى زَوْج المُثَنَّى بن حارثة ، ثم زَوْج سعد من بعـــده ما حَلَّ بالقوم يوم أَرْماث ، وما صنع أَهْلُ فارس بهم ، فصَاحَتْ : وامثنّاه ! لا مُثَنَّى للخيل اليوم!

وكان سعدٌ لا يُطِيق جلسةً إلا مُسْتَوْفِزاً[1] أو على بَطْنِه ؛ وكان ضَجِراً من نَفسه ومن أصحابه ، فلَطَم وجهها وقال : أيْنَ المُثَنَّى من هذه الـكتيبة التي تَدُورُ عليها الرَّحَى ؟ يعني أَسَداً وعاصماً وخَيْلَه ، فقالت : أَغِيرَةً وجُبْنا ! قال : والله لا يَعْـذِرُني اليوم أحد إذا أنتِ لم تَعْـذِرِيني ، وأنتِ تَرَيْن مَا بي .

ثم أصبح القومُ من الغَدِ على تَعْبِئة ، ووكّلَ سعد رجالا بنقْلِ الشُّهَدَاء ، ووكّل آخرين بِحَمْـلِ الجرْحى إلى الْعُـذَيب[2] ، ليقومَ النساء بتمريضهم ومُدَاوَاتِهم .

وبينما القومُ على هذه الحال ، ولم يَنْشَب القتال ، إذ طلعت نواصِي خيلِ المسلمين قادمةً من الشام .

---

* يقول الدكتور هيكل فى كتابه « الفاروق عمر » ١ : ١٧٥ : « يطلق المؤرخون على هذا اليوم من أيام القادسية اسم أغواث ، ويحسب بعض المستشرقين أنهم اختاروا لهذا الاسم لأن القعقاع أغاث فيه جيش سعد بمن جاء بهم من الشام ، وليس من اليسير إقرار هذا التفسير إلا أن نجد لسائر أيام الغزاة تفسيراً من نوعه . وقد رأينا أن يوم أرماث لايمكن أن يكون لهمثل هذا التفسير . أما الليلة التى انقضت بين يوم أرماث ويوم أغواث فيطلق المؤرخون عليها اسم ليلة الهدأة . كما أنهم يطلقون اسم السواد على الليلة التى تلت يوم أغواث » . وفى ياقوت : « كان يقال لليوم الأول من أيام القادسية يوم أرماث ، ويقال لليوم الثانى أغواث ، ولليوم الثالث يوم عماس ، ولليوم الرابع يوم القادسية ؛ وفيه كان الفتح على المسلمين ، ولا أدرى هذه الأسماء مواضع أم هى من الرمث والغوث والعمس؟ » .

(١) استوفز فى قعدته : انتصف فيها غير مطمئن ، أو وضع ركبته ورفع أليتيه أو استقل على رجليه ولما يستو قائماً .

(٢) العذيب : ماء بين القادسية والمغيثة بينه وبين القادسية أربعة أميال .

وذلك أنَّ عُمر بن الخطاب أرسل إلى أبى عُبَيدة بن الجرَّاح بعد فتح دمشق أن يردَّ الجُنْدَ الذين جاءوا من العِرَاق إلى الشام مع خالد بن الوليد ، ليكونوا عَوْناً لجنود سَعْدٍ على قتال الفُرْس ؛ فكان وصولُهم إلى جيش المسلمين فى ذلك اليوم قبل انتشاب القتال ؛ وكانوا ستّةَ آلاف ، منهم خمسة آلاف من ربيعة ومُضر ، وألف من اليمن ؛ وكان الأميرُ(١) على هذا الجيش هاشم بن عُتْبَة بن أبى وقّاص ، وعلى مقدمته القَعْقَاع بن عمرو ، وعلى مُجَنِّبَتَيْهِ قَيْسُ بن هُبَيرة والهَزْهَاز بن عَمرو العجلىّ . وتعجَّلَ القَعْقَاعُ حتى قدم على المسلمين بالقادِسِيَّة صبيحة يوم أغْوَاث .

وقد أرَاد القعقاع أن يُوقِعَ الرُّعْب فى قلوب الفُرْس ، فعهِد إلى أصحابه أن يتقَطَّعُوا أعْشاراً ؛ وهم ألْف ، فكلّما بلغ عشرةٌ مَدَى البصر سرَّحوا فى آثارهم عشرة ؛ وكان قدومُ القعقاع فى العَشْرَة الأولى ، فلما أتى الناسَ سَلَّمَ عليهم وبشَّرَهم بالجنود ، ثم قال : أيُّها الناس ، إنى قد جئْتُكم فى قومٍ ، والله إن لو كانوا بمكانكم ثم أحَسُّوكم حسدوكم حُظْوَتَها ، وحاولوا أن يطيرُوا بها دونكم ، فاصْنَعُوا كما أصنع ، ثم تقدَّم ونادى : مَنْ يُبارِزُ ؟ فبرز إليه رجلٌ من الفُرس ، فقال له القَعْقَاعُ : مَنْ أنْتَ ؟ قال : أنا بَهْمَن جاذَويه ؛ فنادى : يا لَثَارَاتِ أبى عُبَيْد وسليط وأصحاب الجِسر ! واجْتَلَدَا ، فقتله القَعْقَاع ؛ وجعلت خيلُه تَرِدُ قِطعاً ، وما زالت ترد إلى اللَّيل ، وتنشّط الناس ، وكأن لم يكن بالأمس مُصيبة ؛ ثم نادى : من يُبَارِزُ ؟ فخرج إليه رجلان ، أحدها البيرُزان ، والآخر البِنْدَوان ؛ فانضمَّ إلى القعقاع الحارث بن ظَبْيَان ، فبارز القعقاع البيرزان فضربه ، فأَذْرَى(٢) رأسه ، وبارز ابنُ ظَبْيَان البِنْدَوَان

---

(١) لما قدم على أبى عبيدة كتاب عمر بصرف أهل العراق أصحاب خالد ، ولم يذكر خالدا ، ضن بخالد فلم يرسله وأرسل الجيش .

(٢) أذرى رأسه : أطارها .

فضربه فأَذْرَى رَأْسَه ؛ وجعل القعقاع يقول : يا معاشر المسلمين ؛ باشِرُوهم بالسيوف ، فإنما يُحصَد الناسُ بها ؛ ثم خرج الناس من كلّ ناحية ، وبدأ الحرب والطِّعان، وزاد الناسَ نشاطاً أن لم يروا الفيلَة بينَهم ؛ وحمل بنو عمّ القَعْقاع يومئذ عشرة عشرة من الرَّجَّالة على إبل قد أَلْبَسُوها، فهى مجلَّلة مُبَرْقَعة، تُشْبِه الفِيلَة ؛ ولَقِى أهلُ فارس من الإبل يوم أغواث أعظمَ مما لَقِى المسلمون من الفيلة يوم أرماث .

***

وكان سَعْدُ بن أبى وقاص قد حبس أبا مِحْجَن الثقفى وقيَّده فى قصره ؛ فلمَّا اشتدَّ القتالُ صعد إلى سعد يَسْتَعْفيه ويَسْتَقِيلُه ؛ ويسأله تَسرِيحَه للغزو مع المسلمين ؛ فزجره وردّه ؛ فنزل حتى أتى سلْمَى ؛ فقال : يا سلمى ؛ هل لك إلى خير ؟ قالت : وما ذاكَ ؟ قال : تُخَلِّين عنّى و تُعيرينني البلقاء ؛ فلله عَلَىَّ إن سَلَّمَنِى اللهُ أن أرجعَ إليكِ حتى أضعَ رِجلى فى قيْدى ، فقالت : وما أنا وذاكَ ! فرجع يَرْسُفُ فى قيوده ويقول :

كَفَى حَزَناً أنْ تَرْدِيَ[1] الخيلُ بالقَنَا ... وأُتْرَكَ مَشْدُوداً علىَّ وَثَاقِيا

إذا قُمْتُ عَنَّانى[2] الحديدُ وأُغْلِقَتْ ... مَصَارِيعُ دونى قد تُصِمُّ الْمُنَادِيَا

وقد كُنْتُ ذا مالٍ كثيرٍ وإخوةٍ ... فقد تركونى واحداً لا أَخَالِيَا

ولله عَهْدٌ لا أَخِيسُ[3] بِعَهْدِهِ ... لئن فُرِجَتْ أَلَّا أَزُورَ الْحَوَانِيَا[4]

فقالت سلْمَى : إنى استخَرْتُ اللهَ ورضيتُ بعهدك ؛ وأطلقتْهُ وقالت : أمّا الفَرَس فلا أُعيرها ، ورجعت إلى بيتها ؛ فاقْتادَها وأَخْرجها من باب القصر وركبها ؛ ثم دَبَّ عليها ؛ حتى إذا كان بحِيال الميمنة كبّر ، ثم حمل على ميسرة القوم يَلْعَبُ

---

(١) ردى الفرس : رجمت الأرض بحوافراها ، أو هو سير بين العدو والمشى .

(٢) عنانى : أتعبنى . (٣) لا أخيس : لا أغدر . (٤) الحوانى : موضع بيع الخمر.

برُمْحِهِ وسلاحه بين الصَّفَّيْنَ ؛ وكان يقصف الأعداء بسَيْفِه قصفاً منكَراً ، وتعجَّب الناس منه وهم لا يعرفونه ؛ وجعل سعد يقول وهو مُشْرِفٌ على الناس من فوق القصر: والله لولا مَحْبِسِ أبى مِحْجَن لقلت : هـذا أبو مِحْجَن وهذه البلقاء ! وقال بعضُ الناس إن كان الخضِر يشهد الحروب فنظنّ صاحبَ البلقاء الخضِر. وقال بعضهم : لولا أن الملائكةَ لا تباشِرُ القتالَ لَقُلْنَا مَلَكٌ .

ثم حاجَزَ(١) أهلُ فارس ، وتراجع المسلمون ، وأقبل أبو مِحْجَن حتى دخَل من حيث خرج ، ووضع عن نفسه وعن دَابَّتِه ، وأعاد رجليه فى قَيْدَيه ، وقال :

لقـد علمتْ ثقيفٌ غير فَخْرٍ ... بأنّا نحن أكرمُهمْ سيوفَا

وأكثرهم دُرُوعاً سابغاتٍ ... وأصبرُهم إذا كرهوا الوقوفَا

فإن أُحْبَس فذلكمُ بلائى ... وإن أُتْرَكْ أُذيقُهمُ الحتوفَا

فقالت له سَلْمَى : يا أبا مِحْجَن ؛ فى أىّ شىء حَبَسك هذا الرجل ؟ فقال : أمَا والله ما حبسنِى بحرام أَكلْتُهُ ولا شَرِبْتُه ؛ ولكنى كنتُ صاحبَ شراب فى الجاهليّة ؛ وأنا امرؤ شاعِرٌ يدبّ الشعْرُ على لسانى ؛ يبعثه على شفتى أحياناً ؛ فيُساء لذلك ثنائى ؛ حبسنى حين قلت :

إذا متُّ فادْفِنِّى الى أصل كَرْمَةٍ(٢) ... تُرَوِّى عِظَامِى بعد موتى عُرُوقُها

ولا تَدْفِنَنِّى بالفَلَاةِ فإنّنى ... أخافُ إذا ما مِتّ ألّا أذُوقُها

وكانت سلمى مغاضبةً لسعد عشيةَ أَغْوَاث ؛ فصالَحَتْه ؛ وأخبرته خبرها وخبر أبى مِحْجَن ، فدعا به وأَطْلَقَه ، وقال له : اذهب ؛ فما أنا مُؤَاخذك بشىء تقولُه حتى تفعله . قال : والله لا أجيبُ لسانى إلى صفة قبيح أبداً .

---

(١) المحاجزة : الممانعة .

(٢) الكرمة : شجرة العنب.

٣٨ – يوم عِمَاس *

أصبح المسلمون من اليوم الثالث وهم على مواقِفهم ، وأَصبحت الأعاجم على مواقِفهم ؛ وقد قُتِلَ من المسلمين ألفان ، ومن المشركين عَشْرَةُ آلاف . وقال سعد : من شاء غَسَّل الشهداء ، ومَنْ شاء فلْيَدْفِنْهُمْ بدمائهم .

وأقبل المسلمون على قَتْلاهم فأحرزوهم وجعلوهم، من وَرَاءِ ظهورهم، وأقبل الذين يَجمعون القتلى يحملونهم إلى المقابر ، ويُبَلِّغون الرَّثيث[1] إلى النساء .

وبات القَعْقَاع ليلته كلَّها يُسَرِّبُ أصحابه إلى المكان الذى فارقهم فيه من الأمس، ثم قال: إذا طلعتْ عليكم الشمس فأَقْبِلوا مائة مائة، كلَّما توارى عنكم مائة فلْتَتْبَعْها مائة . وقال : إن أدركم هاشمُ بنُ عُتْبَة وجاء بمن معه يشاركُ فى المعركة فذاكَ ، وإلّا فجدّدوا للناسِ رجاءً فى المَدَدِ ، فإنّ الرجاء يزيدُهم إقداماً فى الحرب، وإيماناً بالفَوْزِ فيها . ففعلوا ولم يَشْعُرْ بذلك أحد .

ولمَّا ذَرَّ[2] قرنُ الشمس طلعت نواصي الخيل فكبّر وكبّر الناس ، وقالوا : جاء المَدَدُ . وأدركَ هاشم بن عُتْبَة وجنودهُ رجالَ القَعْقَاع ، وعرف ما فعل ، فجعل رجالَه فِرَقاً ، وأمرهم أن يتلاحقوا ، وسار على رأس الفرقة الأولى ، فبلغ القادسيَّة حين أخذ المسلمون مصافَّهم للقتال : فلما رآه الناس كبّر وكبّروا معه ، وتقدّم الفُرْسان

* قال ياقوت : «عماس – بكسر العين ، كان اليوم الثالث من أيام القادسية يقال له يوم عماس ، ولا أدرى أهو موضع أم هو من العمس مقلوب المس» .

(١) الرثيث : الجريح وبه رمق . (٢) ذر : برز وظهر .

وتكتّبت الكتائب ، فاختلفوا الضرب والطعن ، ومددهم متتابع .

ولم يُضَعْضِع المددُ الذى جاء المسلمين من عزيمة الفرس ، فقد أصلحوا توابيت فِيلتهم حتى أعادوها ، وأصبحوا على مواقفهم ، وأقبلت الفِيلةُ معها الرَّجَّالَةُ يحمونها أنْ تقطع وُضُنها[(١)] ، ومع الرجّالة فُرْسان يحمونهم ، إذا أرادوا كتيبة دَلَفوا[(٢)] لها بفيل وأتباعه لِيُنَفِّروا خَيْلَهُمْ . وأنِسَت الفِيلَةُ إلى هؤلاء الحُماةِ فلم تَفْتِكْ بهم ؛ لكنها لم تفتك كذلك بعدوّهم ، لأنّ الفيلَ إذا كان وحده ليس معه أحد كان أوْحشَ ؛ وإذا أطافوا به كان آنس . فكان القتال كذلك حتى عدَل النهار ، وكان يوم عِمَاس من أوّله إلى آخره شديداً ؛ العرب والعجم فيه على السواء .

على أنَّ الفِيلَةَ ما لَبِثَتْ حين أَلِفَت الموقف واشتدَّت من حولها المعركةُ أن عادت إلى مثل فَتْكِها يوم أَرْمَاث ، ورآها سعد تُفَرِّقُ بين الكتائب ، فأرسل إلى جماعة ممّن أسلموا من فارس ، فدخلوا عليه ، فسألهم عن مَقَاتل الفِيلَةِ ؛ فقالوا : المشافر والعيون ، فأرسل إلى القعقاع وعاصم ابنى عمرو : اكفيانى الفيلَ الأبيضَ ـ وكان وكان بإزائهما ـ وأرسل إلى حَمّال والرِّبّيل الأسدِيَّيْنِ : اكفيانى الفيل الأجرب ـ وكان بإزائهما ـ وكانت الفِيلَةُ كُلّها تَتْبَعُهما .

فأخذ القعقاع وعاصم رُمْحَيْن ووضعاهما فى عينى الفيل الأبيض ، فقبَع ونفضَ رأسه ، وطرح سائسه ، ودلّى مِشْفَرَه ، فضربه القَعْقَاع بسيفه ، فرَمَى به ، ووقع لِجَنْبِه .

وحَمَل حَمّال ، وقال للرِّبّيل : اخْتَرْ ، إمّا أن تضربَ المِشْفر وأَطْعن فى عينه

---

(١) الوضن : جمع وضين ، وهو بطان عريض من جلد منسوج .

(٢) دلفت الكتيبة فى الحرب : تقدمت .

أو تطعن فى عينه وأضرب مشفره ، فاختار الضَّرْبَ ، فحمل عليه حمّال وطعنه فى عينه فأقعى ثم استوى ، وضربه الرِّبِّيل ، فأبان مِشْفَره ، ففرَّ حتى وثب فى العتيق ، وتبعتْه الفِيَلة ، وخَرَقَتْ صفوفَ الفُرْس ، وألقت مَنْ عليها ، وعَبَرَت العتيق فى أثْر الأَجرب حتى أتت المدائن بتَوابيتِها .

ولما ذهبت الفيلةُ تزاحفَ المسلمون إلى أهل فارس ، وحَماهم فرسانُهم الذين قاتلوا أول النهار ، وظل الفريقان يقتَتِلان حتى أقبَل الليلُ والغبارُ مُخَيِّمٌ ، فلا يعلمُ سعدٌ ولا يعلم رُستم لمن الدائرة ، وعلى مَنْ تدور !

وهدأ القتالُ أول الليل ، وقدَّر سعدٌ أنّ الجيشين سيقضيان الليل يستعدّانِ ليوم رابع ، ولكنَّه خشى أن يأتيَه العدوُّ من مَخَاضةٍ بأسفل العسكر ، فأرسل طَلْحَةَ وعَمْراً فى جماعة من الجند وقال لهما : إن وجدتُما القومَ قد سبقوكما إليها فانزِلا بحِيالِهم ، وإن لم تجداهمُ علموا بها ؛ فأقيما حتى يأتيكما أمرى . ولم يجدا على المَخاضَةِ أحدا ؛ فسوَّلَتْ لهما نَفساهما أن يخوضاها ، وأن يأتيا الأعاجمَ منْ خَلْفِهم ، ففعلا .

وأخذ طلحةُ مكانه وراء العسكر ، وكبَّر ثلاث تكبيرات ؛ ارتاعَ لها أهلُ فارس ؛ وظنوا أنَّ جيش المسلمين أزْمَع الغَدْرَ بهم ، وتعجَّب المسلمون لسماعها وظنُّوا أنَّ الأعاجمَ فتَكُوا برجالهم فهم يكبِّرون مستغيثين ، وأغار عَمْرٌو على جماعةٍ من الفرس أَسْفَل المخاضة ، فلم يبق لديهم رَيْبٌ فى غَدْرِ العربِ بهم ؛ فقدّموا صفوفهم زاحفين ، ورأى القَعْقاعُ صنيعَهم ، فزاحفَهم من غير أن يستَأْذِن سعداً .

وأَطَلَّ سعدٌ فرأى القعقاعَ يزاحفهم فقال : اللهم اغْفِرْها له ، وانصره ، فقد أذنتُ له ، وإن لم يستأذنِّى .

واستقبل الناسُ الفرسَ بالسيوف وخالطوهم ، فكان للسيوف قعقعةٌ كأنَّها

صوت مطارِق الحدّاد ، وبات سعد بليلةٍ لم يبت بمثلها ، ورأى العربُ والعجمُ أمراً لم يرَوْا مثلَه، وانقطعت الأصواتُ والأخبارعن رستم وسعد ، وأقبل سعد على الدّعاء، حتى إذا كان وَجْهُ الصبح علِم أن المسلمين هم الأَعْلَوْن ، وأن الغَلَبة لهم[1] .

وكان النـاسُ لم يغمضوا ليلتَهم كلها ، واشتدّ بهم التعبُ ، فسار القعقاعُ فيهم ؛ وقال : إن الدائرةِ بعــد ساعة لمن بدأ القوم ؛ فاصبروا ساعة ، واحملوا فإن النّصر مع الصبر .

فاجتمع إليه جماعةٌ من الرؤساء ، وتحاضُّوا على الموت ، وحملوا على من يَليهم ؛ واقْتَتلوا أشدَّ قتالٍ إلى أن قام قائمُ الظَّهـيرة ، وحينئذ بدأ الخلل فى صفوف الفرس ، وهبَّت ريح عاصف ، فقلعت طيَّارَة رستم عن سريره ، فهوت إلى العَتِيق ، وزَحَف القعقاعُ ومن معه إلى السرير ، فعثروا به ، وقد قام رستم عنـه ـ حين طارت الريح بالطيّارة ـ إلى بغالٍ قد قَدِمَتْ عليـه بمالٍ يومئذ ، فوقف بجوار أحـدها يستظلّ بحمله .

فمضى رستم نحو العتيق فرمى بنفسه فيــه ، ورآه هلال ـ أحد رجال القعقاع ـ فعرفه ، فاقتحم النهرَ وراءه ، ثم أخذ برجله ، وخرج به ، وضرب جبينَه بالسيف حتى قتله ، ثم جاء به حتى رمى به بين أرجل البغـال ، وصعد السرير ثم نادى : قتلتُ رستم وربّ الكعبة . فأطاف به النـاس وكبّروا ، وانهزم قَلْبُ الفرس ، وتتابعت الهزيمة .

فدعاهم الجالينُوس إلى عبور النهر على الرَّدْم ، لـكنّ الرّدم انْهَارَ بهم فى النهر ، فغَرِق بانهياره ثلاثون ألف فارس لم يُفْلِتْ منهم أحد .

وجُمِع فى ذلك اليوم من الأسلاب والأموال مالم يُجْمع مثْله ، وأرْسَــل سعد

---

(١) يسمى المؤرخون هذه الليلة ليلة الهرير .

الرُّفيل ينظر فى قَتْلى الفرس ، ويسمّى رءوسهم ؛ وتفقّد الرُّفيلُ رُسْتَم فلم يجدْه بين القتلى ، فأعلم سعدا .

فأرسل سَعْدٌ إلى هلال التَّيْمِىّ ، وقال له : ألم تبلِّغْنى أنك قتلتَ رستم ! قال : بلى ، قال : فما صنعتَ به ؟ قال : ألفيتُه تحت قوائم البغال ، قال : فكيف قتلتَه ؟ فأخبره ، حتى قال : ضربتُ جبينَه وأنفه ، قال : فجِئْنَا به ، فجاء به ، وكان قد تخفّف حين وقع إلى الماء ، فأعطاه سلَبَه الذى عليه ، فبلغ سَبْعين ألفاً .

وخرج زهرة فى آثار المنهزمين من الفرس ، فلحق الجالينوس ، وحمل عليه فقتله ، وجاء بسلَبِه إلى سَعْد ، فعرف الأَسْرَى الذين عند سعد سلَبه ، فقالوا : هذا سَلَب الجالينوس ، فقال له سعد : هل أعانك عليه أحد ؟ فقال ؛ نعم ، قال سعد : مَنْ ؟ قال : الله . فنفّله سلَبه ، ثم توقّف سعد عن عطائه ، وكتب إلى عمر . فكتب عُمَر إلى سعد : تَعْمِد إلى مثل زهرة ، وقد صَلِىَ بمثل ما صَلِى به ، وقد بقِىَ عليك من حَرْبِك ما بَقِىَ ؛ تُفْسِدُ قَلْبَه ! أَمضِ له سَلَبه ، وفَضِّلْه على أصحابه عند العطاء بخمسمائة .

ولما انكشف أهلُ فارس ، ولم يَبْقَ منهم بين الخندق والعتيق أَحَدٌ أمرَ سعد زهرة باتّباعهم ، فنادى زهرة فى المقدّمات ، وأمر القعقاع بمن سَفُل ، وشُرَحبيل بمن عَلَا ، وأمر خالد بن عُرْفطَة بسلَب القتلى وبدفن الشهداء .

وجُمعت الأسلاب والأموال ، فجُمِعَ منها شىء لم يُجْمع قبله ولا بعده مثله . وبعد أن انتهت الموقعة كتب سَعْدٌ بالفتح ، وبعدّة مَنْ قُتِلوا ، وبعدّة مَنْ أُصيب من المسلمين ، فقال :

أما بعد ، فإن اللهَ نَصَرَنا على أهل فارس ، ومنحهم سُنَن مَنْ كان قبلهم من أهل دينهم بعد قتالٍ شديد ، وقد لقُوا المسلمين بعُدّة لم يرِ الراءون مثل زُهائها ،

فلم ينفعهم الله بذلك ؛ واتّبعهم المسلمون على الأنهار وفى الفِجَاج ، وأصيب من المسلمين فلانٌ وفلان ورجالٌ من المسلمين ، لا نعلمهم ؛ الله بهم عالم ، وكانوا يُدَوُّون بالقرآن إذا جَنَّ عليهم الليل دَوِيَّ النَّحْلِ ، وهم آساد الناس ، لايُشْبِهُهم إلا الأسود، ولم يفضُل مَنْ مضى منهم مَنْ بَقِىَ إلّا بفضْلِ الشهادة ؛ إذْ لم تُكْتَبْ لهم .

وكان عمر بن الخطاب عند نزول رستم القادسية يَسْتَخْبِرُ الرُّكْبان عن جيش القادسيّة ، مِنْ حين يصبح إلى انتصاف النهار ، ثم يرجع إلى أهله ومنزله ، فلما لَقِىَ البشيرَ(١) سأله : من أَيْن ؟ فأَخبره . قال : يا عَبْد الله ، حَدِّثنى ، قال : هزَمَ اللهُ العدوَّ . وعمرُ يَخُبّ معه ويستخبره ، والرجل يسير على ناقته ولا يعرفه حتى دخل المدينة ، فإذا الناس يسلِّمون عليــه بإمرة المؤمنين ، فقال الرجل : فهلّا أخبرتَـنى رحمك الله أنك أمير المؤمنين ! وجعل عمر يقولُ : لا عليك يا أخى ! فقام عمر فى الناس ، فقرأ عليهم الفتح ، وقال : إنى حريص على ألّا أَدَعَ حاجةً إلا سددتُها ما اتَّسع بعضنا لبعض ، فإذا عجز ذلك عَنَّا تآسَيْناَ فى عيشنا حتى نستوىَ فى الـكَفاف ؛ ولَوددت أنـكم عَلِمْتُم من نفسى مثلَ الذى وقع فيها ، ولستُ معلمـكم إلا بالعمل ؛ إنى والله ما أنا بمَـلِكٍ فأَستعبدكم ، وإنما أنا عَبْدُ الله عرض علىَّ الأمانة . . . . . .

هذه هى القادسيّة التى فتحت الطريق إلى إيوان كسرى فى عاصمة مُلْـكِه ، ومهّدَت للقضاء على دولته ؛ وكان لها فى توجيه الحضارة أبلغ الأثر .

---

(١) كان هذا البشير سعد بن عميلة الفزارى رسول سعد بن أبى وقاص إلى أمير المؤمنين .

٣٩ — يوم بابل*

كان عمرُ قد كتب إلى سَعْدٍ ألّا يبرَحَ منازِلَه حتى يأتيَه أمرُه ؛ لذلك أقام سعدٌ بالقادسية فى انتظار أمرِ أمير المؤمنين عمر ؛ وأخذ المسلمون يقوِّمون أمورَهم، ويُرِيحون جُنْدَهم .

وتتابع أهلُ العراق من أصحاب الأيام الذين شهدوا اليَرْمُوك ، يمدّون أهلَ القادسيّة ، وتوافَوْا بها ، وقدمت أمدادٌ فيها مُراد وهَمْدان وأَفْناء(١) الناس ؛ وكتبوا إلى عُمَر يسألونه عمّا ينبغى أن يفعلوه .

وبعد شهرين ، وقد أجمَّ الناس ؛ جاء أمرُ عمر إلى سعد بالسير إلى المدائن ، وأن يخلِّفَ النساءَ والعيال بالعَتِيق ، ويجعل معهم كَثْفاً(٢) من الجُنْد ؛ وعهد إليه أن يُشرِكَهم فى كلّ مغنم ؛ ما داموا يخلُفُون المسلمين فى عِيالاتِهم .

وأذّن سعدٌ بالرحيل ، وقدّم زُهْرة بن الحَوِيّة إلى المكان الذى كانت به الكوفة يومئذ ؛ وكان النَّخيرجان مُعَسْكِراً به ، فارفضّ(٣) ولم يثبُت؛ حين سَمِع بمسير زُهرة إليه ، ولَحِق بأصحابه .

ثم أتبع زُهرة بعبدالله بن المتَمّ ، ثم شُرحبيل بن السِّمط ، ثم هاشم بن عُتبة ، وجعل خالد بن عُرْفُطَة على الساقة(٤) ، ثم تبعهم فُرسان المسلمين ؛ وكلُّهم فارس

---

* الطبرى ٤ : ١٦٦ . كان فى سنة ١٥ هـ، وبابل : مدينة قديمة بناها الكلدان على الجانب الأيسر من الفرات .

(١) أفناء : أخلاط . (٢) الكثف : الجماعة . (٣) ارفض : ابتعد بجنده .

(٤) ساقة الجيش : مؤخره .

مُؤْدٍ[1] ، قد نَقَل اللهُ إليهم ما كان فى عسكر رُس من سلاح وكُراع[2] ومال ، وكان ارتحالُهم لأيامٍ بقين من شوال .

ولما وصلت مُقدّمة المسلمين بُرْس[3] لقيهم جَمْعٌ من الفرس عليهم بُصْبُهْرَى ، ولم يكن بين الفريقين كبيرُ قتالٍ حتى انهزموا وصاروا إلى بابل ، ونجا بُصْبُهْرَى بطَعْنَةٍ ماتَ بعدها ، ومضى فَلُّ[4] القادسيّة وعليهم من رءوسهم النَّخيرجَان ، ومِهران الرّازِىّ والهُرْمزان ، واستعملوا عليهم الفَيْرُزَان .

ولما رأى دِهقان[5] بُرْس أنّ المسلمين قادمون على بلاده ، وقد علم أن بلدَه لا بدَّ واقعٌ فى قَبْضَتِهم ، خاف مَعرَّة دخولهم عليه عَنْوَة ، وخشى أن ينالَهُ أحدٌ منهم بسوء ؛ فبادَر إلى زُهرة ، واعْتَقَدَ[6] منه ذِمَّة ، وعَقَدَ له الجسور ، وأتاه بخبر الذين اجتمعوا ببابل لمَوَاقفَةِ[7] المسلمين .

ولما عرف زُهْرَةُ بخبر الذين اجتمعوا ببابل من فُلَّال القَادسيَّة أقام وكتب إلى سعد يُعْلِمُه بما أجمع عليه الفرس ، وما أعدّوا له ، وقد قال الفرسُ فيما بينهم : نُقَاتِلهم دَسْتاً[8] قبل أنْ نتفرّق .

فسار سعدٌ والْتقى بهم فى بابل ، ولم يكن إلا كَلَفْتِ الرِّدَاء حتى هزمهم وانطلقوا على وجوههم ، ولم يكن لهم هِمّةٌ إلا الافْتِرَاق .

---

(١) الفارس المؤدى : القوى التام عدة الحرب .

(٢) الكراع : الخيل .

(٣) برس : أجمة فى موضع قريب من بابل . وبعضهم يسمى هذه الموقعة يوم برس .

(٤) الفل : المنهزمون .

(٥) الدهقان ، بالضم ويكسر : زعيم فلاحى العجم .

اعتقد منه ذمة : أخذ منه عهدا .

(٧) المواقفة : أن الإنسان مع غيره فى حرب أوخصومة .

(٨) دستا : طابقا .

فخرج الهرمُزَان متوجِّهاً نحو الأهواز ، وخرج الفيرزان حتى نزل على نَهاوَنْد وبها كنوزُ كسرى فاحْتَوَاها ، وولّى النَّخيرجان ومِهران الرّازىّ وَجْهَيهِماَ شَطْرَ المدائن ، حتى عَبَرا بَهُرَسير إلى جانب دِجْلَة الآخر ، ثم قطعا الجسر .

وأقام سعد ببابل أياماً ، وبلغه أن النَّخيرجان ومِهْرَان استخلفا على جنودها شهريار دِهْقان كُوثى[١] ، ومَضَيَا إلى المدائن ؛ فخرج إليه سعد بالجنود ؛ والتقتْ أوائلُ جموعِ المسلمين بجنود شِهْرِيار ، فلم يُلْبِثْهُمْ حتى البِرَاز ، وقال : ألَا رجلٌ ! ألا فارسٌ منكم شديدٌ عظيم يخرُج إلىّ حتى أُنَكِّلَ به !

فقال زُهْرَة : لقد أردتُ أن أُبارِزَك ، فأمّا إذْ سمعتُ قولَك ، فإنّى لا أُخْرِجُ إليك إلَّا عَبْدًا ، فإن أقمْتَ له قتَلَك — إن شاء الله — بِبَغْيِكَ ، وإن فررتَ منه فإنما فرَرْتَ من عَبْدٍ . ثم أمر أبَا نباتة نائل بن جُعْشُم الأعْرجىّ — وكان من شجعان بنى تميم — فخرج إليه ، ومع كلّ واحد منهما الرّمح ، وكِلَاهُما وثيقُ الخلْق ؛ إلا أن شهريار مثل الجمل . فلما رأى نائلا ألقى الرمح ليعتنقه ، وألْقَى نائل رمحه ليَعْتَنِقَه ، وانْتَضَيَا سَيْفَيْهِماَ ، ثم اجتَلَدَا واعتنقا ؛ فَخَرَّا عن دابَّتَيْهِماَ ، فوقع شِهْرِيار على نائل كأنه بيت ، فضغطه بفخذه ، وأخذ الخنجر ، وأراغ[٢] حلَّ أزرارِ دِرْعه ، فوقعت إبهامُه فى فمِ نائل ، فحطّم عَظْمَها ، ورأى منه فتوراً فثاوره ، فجلد به الأرض ، ثم قعد على صَدْره ، وأخذ خِنْجره ، فكشف دِرْعه ، وطَعَنه فى بطنه وجَنْبِه حتى مات . فأخذ فرسه وسِوَارَيْه وسَلَبَه ، وانكشف أصحابُه ، فذهبوا فى البلاد .

---

(١) كوثى : موضع بسواد العراق قريب من بابل .

(٢) أراغ : أراد .

وأقام زُهْرَة بكُوثَى حتى قدم عليه سعد ، وعلِمَ خبرَ نائل مع الشِّهْرِيار ؛ فدعا أبا نائل ، وقال له : عزمْتُ عليك يا نائل لمَاَ لَبِسْتَ سِوَارَيْه وقَبَاءه ودِرْعَه ولَتركَبَنَّ بِرْذَوْنَه . وغَنَّمه ذلك كلّه ، فانطلق فتدرَّع سلبَه ، ثم أتاه فى سلاحه على دابَّته ، فقال : اخلع سِواريك إلّا أن تَرى حرباً ، فتلبسهما .

فكان أوّلَ رجل من المسلمين سُوِّر بالعراق .

٤٠ — يوم بَهُرَسِير *

قَدَّمَ سعدُ بن أبى وقّاص زُهْرَةَ بن الحوِيّة إلى بَهُرَسير ، فتلقاه شيرازاذ بساباط[١] ؛ بالصُّلْح وتأدية الجِزَاء ، فأمضاهُ إلى سعد .

وسار زُهرة حتى أتى المُظْلِم[٢] بساباط ، وكان به كتيبةٌ لكسرى تسمّى بُوران، وكان أهل هذه الكتيبة يحلفونَ بالله كل يوم : لا يزول مُلْك فارس ما عِشْنا ؛ فلقيَهم زُهْرة بجنوده فَفَلَّهم[٣] ، ثم جاء هاشم بن عُتبة بن أبى وقَّاص (ابن أخى سعد) إلى المُظْلم ووقف حتى لحق به سَعْد ؛ فوافَق ذلك رجوعُ المقرّط ـ وهو أسدٌ كان لكسرى قد أَلِفه وتَخيَّره من أسود المُظْلِم ـ فبادَر المقرّطُ الناسَ حتى انتهى إليهم سعد ؛ فنزل إليه هاشم فقتله بسيفه ؛ فقبَّل سعدٌ رأسَ هاشم ، وقبَّلَ هاشمٌ قدمَ عمّه سعد .

ثم دخل سعد إلى المُظْلم، وقرأ : ﴿ أَوَلَمْ تَكُونُوا أَقْسَمْتُمْ مِنْ قَبْلُ مَالَكُمْ مِنْ زَوَالٍ ﴾[٤] .

فلما ذهب من الليل هَدْءٌ[٥] ارتحل ، فنزل على الناس بِبَهُرَسير، وجعل المسلمون كلما قدمت خيل وقفوا ثم كَبَّروا ، حتى اجتمع إليهم آخِرُ مَنْ مع سعد .

وفى أثناء وقوفه على أبواب بَهُرَسِير بَثَّ الخيول ، فأغارت على ما بين دجلة والفرات، فأصابوا مائةَ ألف فلاح ، فقال شيرازاذ لسعد : إنَّ هؤلاء ليسوا محاربين ،

---

* تاريخ الطبرى ٤ : ١٦٧ ، ومعجم البلدن ٢ : ٣١٤ . كان فى ذى الحجة سنة ١٥ هـ .
وبهرسير : من نواحى سواد بغداد قرب المدائن .

(١) ساباط : قرب المدائن ، وتسمى ساباط كسرى .

(٢) المظلم : موضع قريب من ساباط . (٣) فلهم : هزمهم وشتت جمعهم .

(٤) سورة إبراهيم ٤٤ . (٥) هدء من الليل : جزء منه .

ولم يحرّضوا عليكم ؛ فاترُكوهم . فتركهم سَعْد له ، بعد أن كتب عليه كتاباً بأسمائهم .

ثم كتب إلى عمر يقول : إنا وَرَدْنا بَهُرَسير بعد الذى لقينا فيما بين القادسيّة وبَهُرَسير ، فلم يأتنا أحدٌ لقتال، فبَثَثْتُ الخيول ، وجمعتُ الفلّاحين من القُرَى والآجام فَرَ رأْيك .

فأجابه : إنّ مَنْ أتاكم من الفلّاحين إذا كانوا مقيمين لم يُعينوا عليكم فهو أمانُهم، ومَنْ هربَ فأدركتموه فشأنكم به .

ولما وردَ كتاب عُمر خلّى سعد عن أولئك الفلّاحين فلم يطلبهم، ودعاهم إلى الإسلام والرجوع ، أو الجزاء ولهم الذمة والمَنَعَة . فقبلوا الجزية والمنَعة ، فلم يبق فى غَرْبىّ دجلة إلى أرض العرب سَوادِىّ[1] إلّا آمن واغتبط بمُلك الإسلام .

وأقام سعد على حصار أهل بَهُرَسير شهرين ، وجُنودُه يَرْمونهم بالمجانيق والعَرّادات[2] ، ويَدِبُّون إليهم بالدّبابات[3]، ويقابلونهم بكل عُدَّة. وكان على بَهُرَسير خنادقها وحَرَسها وعُدّة الحرب ، واستصنع سعدٌ شيرازاذَ لنصب المجانيق ؛ فنصب على أهل بَهُرَسير عشرين مَنْجنيقا .

قال أنس بن الحُلَيْس : بينا نحن محاصرون بَهُرَسير أشرف علينا رسولٌ ؛ فقال: إن الملك يقول لكم : هل إلى المصالحة على أنّ لنا ما يلينا من دِجْلة وجَبَلِنا ، ولكم ما يليكم من دِجْلة إلى جبَلكم ؟ أما شَبِعْتم ، لا أشبعَ الله بُطونكم ! فردّ عليه أبو مُفَزِّر الأسود بن قُطْبة ، وقد أنطقه الله بما لا يَدْرِى .

فرجع الرجلُ ورأيناهم يَقْطَعون إلى المدائن ! فقلنا : يا أبا مُفزِّر ؛ ما قلت له ؟

---

(١) السوادى : منسوب إلى السواد ، وهو العراق .

(٢) المنجنيق : آلة ترمى بها الحجارة معربة . والعرادة : آلة أصغر من المنجنيق .

(٣) الدبابة : آلة تتخذ للحروب ، فتدفع فى أصل الحصن فينقبون وهم فى جوفها .

فقال : لا والذى بعث محمداً بالحق ماأدرى ماهو ؛ وأنا أرجو أن أكون قد أُنْطِقْتُ بالَّذى هو خَيْر .

وأخذ الناس يسألونه ، حتى سمع بذلك سعد ، فجاءه وقال له : ياأبا مُفزِّر ؛ ماقلت ؟ فوالله إنهم لَهُرَّاب . فحدَّثه بمثل حديثه إيانا ؛ فنادى فى الناس ثم نَهَدَ[1] بهم ؛ فما ظهر على المدينة أحد ، ولا خرج إلينا إلّا رجل نادى بالأمان ، فأمَّنّاه ، فقال : مابقىَ فيها أحدٌ فما يمنعكم ؟

فتسوَّرَها الرجالُ ، وافْتَتَحْناها ، فما وجدْنا أحدا إلا أَسارَى أَسرْناهم خارجاً منها ؛ فسألْناهم وذلك الرجل : لأىّ شىء هربوا ؟ فقالوا : بَعث الملِكُ إليكم يعرض عليكم الصّلحَ ؛ فأجبتُموه بأنه لايكون بيننا وبينكم صلح أبداً حتى نأكل عَسَل أفريذين بأترُجّ[2] كُوثَى . فقال الملك : واوَيْلَه ! ألا إنَّ الملائكةَ تتكلَّمُ على ألسنتهم، تردُّ علينا وتُجيبنا عن العرب. والله لئن لم يكن كذلك ماهو إلا شىء أُلْقِىَ علىّ فى هذا الرجل لننتهى . وأَرَزُوا[3] إلى المدائن بعد أن أحرقوا الجسر ، وجمعوا كلّ السفن التى تجرى فوق دجلة .

ودخل سعد والمسلمون بَهُرَسير ، وتحوّل العسكر إليها ، وحاولوا عُبورَ دِجْلة فلم يجدوا الجسر يَعبرون عليه ولم يجدوا سفناً تحملهم .

وفى جَوْفِ اللّيل لاح لهم الأبْيَض[4] ؛ فقال ضِرار بن الخطاب : الله أكبر ! أَبْيض كسرى ! هذا ما وعد اللهُ ورسوله ، وتابعوا التّكْبير حتى أصبحوا .

---

(١) نهد بهم : نهض بهم . (٢) الأترج : نبت .

(٣) أرزوا : أسرعوا ، وتجمعوا .

(٤) الأبيض : إيوان كسرى ، شاده كسرى أنوشروان سنة ٥٥٠ م .

٤١ — يوم المدائن*

بعد أن دخل سَعْد بَهُرَسير طلب السُّفن ليعبُرَ بالناس إلى المدائن ، فلم يقدِرْ على شيء ، ووجدهم قد ضَمُّوا السفُنَ ، فأقام بِبَهُرَسير أياماً من صَفَر يَمْنَعُه الإبقاء على المسلمين ، حتى أتاه أعْلاجٌ(١) ، فدلّوه على مخاضة تُخاض إلى صُلْب الوادى ، فأبى وتردَّد عن ذلك .

ثم رأى رُؤْيا أنَّ خيولَ المسلمين اقتحمتْها ، فعبرت ، فعزم على العبوْر لتأويلِ رؤياه ، وجمع الناسَ وقام فيهم وقال لهم ـ بعد أن حمِد الله وأثنى عليه : إنَّ عدوَّكم قد اعتصم منكم بهذا البَحْرِ ، فلا تخلُصون إليه ، وهم يَخْلُصُون إليكم إذا شاءوا ، فيُناوشونكم فى سفنهم ، وليس وَراءكم شىء تخافون أن تُؤْتَوْا منه ، فقد كَفَاكُموهم أهلُ الأيام ، وعطّلوا ثُغورَهم ، وأفْنَوْا ذادَتَهُمْ(٢) . وقد رأيتُ من الرَّأْى أن تبادِرُوا جِهادَ العدوّ بِنِيَّاتِكُمْ قبلأن تحصُرَكم الدنيا . ألَا إنى قد عزمْتُ على قَطْع هذا البحر إليهم .

فقالوا جميعاً : عَزَم اللهُ لنا ولك على الرُّشْد ، فافعل .

فندب سعدٌ الناس إلى العبور ، ثمّ قال : مَنْ يبدأ ويحمى لنا الفِرَاض(٣) لكيلا

* تاريخ الطبرى ٤ : ١٧٠ ، وتاريخ ابن كثير ٨ : ٦٣ . كان سنة ١٦ هـ . والمدائن : عاصمة الفرس ، بناها أنوشروان بن قباذ ، وأقام بها هو ومن كان بها من ملوك ساسان .

(١) العلج : الرجل من كفار العجم .

(٢) الذائد : الرجل الذى يحمى ويدفع وجمعه ذادة .

(٣) الفراض : جمع فرضة ؛ وهى ثغور المخاضة من الناحية الأخرى .

يمنعونا من العبور ؟ فانتدب[1] له عاصم بن عمرو ، وانتدب بعده ستمائة من أهل النَّجدات . فأمَّر عليهم عاصما ، فسار فيهم حتى وقف على شاطئ دِجلة .

وعندئذٍ قال : مَن يَنتَدِب معى لنمنع الفِرَاض من عدوّكم ولنحميَكم حتى تعبُروا ؟ فانتدب له ستون ، فتقدمهم هو إلى حافة النهر ، وهو يقول للذين تردّدوا من حَوْله : أتخافون ! وتَلَا قوله تعالى : ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ كِتَابًا مُؤَجَّلًا﴾[2] . ثم دفع فرسَه فاقتحم النهر ، واقتحم زملاؤه معه .

فلما رآهم الأعاجم وما صنعوا ، أعدُّوا للخيل التى تقدمت مثلَها ، واقتحموا عليهم دِجْلَة ، ثم دنَوْا من عاصم وقد دنا من الفِراض ؛ فقال عاصم لأصحابه : الرّماحَ الرّماحَ ! أَشْرِعُوها وتوخَّوْا العيون ، فطعنوهم فى أعينهم ، فمَنْ لم يُقتَلْ منهم صارَ أعور ، وتزلْزَلَتْ بهم خيولُهم ، حتى فرَّتْ عن الفِرَاض .

وملك الستّون الفِرَاضَ وتلاحق الستمائة .

ولما رأى سعدٌ عاصما على الفِرَاض قد منعها النـاس أَذِن للنَّاس فى الاقتحام ، وقال : قولوا : نَستَعِينُ بالله ونتوكَّلُ عليه ؛ حَسْبُنا الله ونعم الوكيل ، لا حَوْلَ ولا قوة إلا بالله العلىّ العظيم !

وتلاحقَ مُعظَمُ الجند ، وركبوا اللُّجَّ ، وإنَّ دِجْلَة لترْمِى بالزَّبد ، وإنّ الناس ليتحدثون فى عَوْمِهم ما يكترِثُون ، كما يتحدَّثُون فى مَسيرهم على الأرض .

وكان سعد وراءهم يسايرُه فى الماء سَلْمان الفارسىّ ، فعامت بهم الخيل ، وسعدٌ يقول : حَسْبُنا الله ونعم الوكيل ! والله لَينصرَنَّ اللهُ وليَّه ، ولَيُظْهِرَنَّ الله دينه ، وليهزمَنَّ الله عَدُوَّه ، إنْ لم يَكُنْ فى الجيش بَغْىٌ أو ذُنوب تَغْلِب الحسنات ،

---

(١) انتدب : خف وأسرع . (٢) سورة آل عمران ١٤٥ .

فقال له سَلْمان : ذُلِّلَتْ لهم والله البحور كما ذُلِّلَ لهم البرّ ؛ أما والّذى نفسُ سلمان بيده لَيَخْرُجُنّ منه أفواجاً كما دخلوه أفواجا .

وطبّقوا دِجْلَة خيلا ورَجِلا حتى ما يَرَى الماءَ من الشاطئ أحدٌ ، ثم خرجوا من الماء ، والخيلُ تنفض أعْرَافَها صاهلة . فلما رأى الفُرسُ ذلك انطلقوا لا يَلْوُون على شىء ، وانتهى المسلمون إلى القَصْر الأبيض ، وفيه قومٌ قد تَحَصَّنوا . فعرضوا عليهم ثلاثا ، يَخْتَارون منها أيّها شاءوا . قالوا : وما هنّ ؟ قالوا لهم : الإسلام ، فإن أسلمتم فلكُمْ ما لنا ، وعليكم ما علينا ، وإن أبيتم فالجزْيَةُ ، وإن أبيتم فمناجَزتكم ، حتى يحكُم اللهُ بيننا وبينكم ؛ فأجابوهم : لا حاجة لنا فى الأولى ولا فى الآخرة ، ولكن الوسطى .

ودخل سعد المدائن ، وانتهى إلى إيوان كسرى ، وأقبل يقرأ : ﴿ كَمْ تَرَكُوا مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ * وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ * وَنَعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَاكِهِينَ * كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْماً آخَرِينَ ﴾(١) .

وصلّى فيه صلاةَ الصبح ، ثمانىَ ركعات ؛ لم يفصِلْ بينهن ، واتّخذه مسجداً ، وفيه تماثيل الجصّ ، ولم يمتنع هو ولا المسلمون لذلك ، وتركوها على حالها . وأتمّ الصلاةَ فى المدائن ؛ إذ نوى المُقام بها . وكانت أول جمعة بالعراق ، فى صفر سنة ست عشرة .

جمع سعدٌ ما فى خزائن كسرى من الأموال والغنائم ؛ وكان ذلك شيئاً كثيراً ، وأصاب الفارسُ من المَغْنم اثنى عشر ألفاً ؛ وكلّهم كان فارساً ، ثم قَسّم دور المدائنِ بين الناس ، ثم جمع الخُمْسَ ، وجمع فيه كلّ شىء أراد أن يعجَب منه عمر ، مِنْ ثياب كسرى وحَلْيِهِ وسَيْفِهِ ، ونحو ذلك ، وما كان يعجب العرب أن يقع إليهم ، وأرسل كلّ ذلك إلى عمر .

---

(١) سورة الدخان ٢٥ ــ ٢٨ .

وكان فيما أرسله إليه بساط ذرْعُه ستون ذراعاً فى مثلها ، صوِّرت فيه طرق المملكة ، وبُسطت فيه الأرضُ مذهبة تجرى خلالها أنهار رُصّعت بالدرّ ، وجُعلت حافاته كالأرض المزروعة فيها نباتُ الربيع قام على سوق الذهب ، وجعل ورَقُه من الحرير، وثمره من الجوهر ، وأشباه ذلك .

ولما ورد الخمْس على عمر قَسَّمَه على مستحقِّيه ، ثم قال : أَشيروا علىّ فى هذا البساط ؛ فأَجمَعَ مَلَؤُهم على أنْ قالوا : قد جعلنا ذلك لك ، فرَ رَأْيَك ، إلا ما كان مِنْ علىٍّ ، فإنه قال : يا أمير المؤمنين ، لم يجعل اللهُ علمك جهلا ، ويقينك شكًّا ، إنه ليس لك من الدنيا إلا ما أعطيت فأمضيت ، أو لبست فأَبْلَيْتَ ، أو أَكَلْتَ فأَفْنَيْتَ ، وإنك إن تبْقِهِ اليوم على هذا لم تعدَم فى غدٍ مَنْ يستحق به ما ليس له . فقال عمر : صدقتَنى ونصحتَنى . ثم قطَّعه وقسمه بين الناس .

وصدَرَ بعد ذلك أَمْر عمر بولاية سَعْد بن أبى وقَّاص صلاةَ ما غلب عليه وحَرْبه ، وولَّى النعمان وسويدا ابنى عمر بن مقرّن الخراج ؛ الأول على ما سَقَتْ دِجلة والثانى على ما سَقَى الفرات .

---

٤٢ — يوم جَلولاء*

انتهى الأعاجم بعد الهرب من المدائن إلى جَلُولاء ، ورأَوا الطرق عندها تفترق إلى شتّى الأرجاء ، فقال بعضهم لبعض : إن افترقتم لَمْ تَجْتَمِعُوا أبدًا ، وهذا مكان يُفَرِّق بيننا ، فَلْنجتمع للعرب به ولْنقاتلهم ، فإن كانت لنا فهو الّذِى نُرِيد ، وإن كانت الأخرى كنا قد قَضَيْنا الّذى علينا ، وأبدَيْنا عُذْرًا .

وأرسل إليهم يَزدجردُ مِهْرَانَ الرّازىّ فى رجاله وأعوانه وجنوده ، وأقام هو بحُلْوَان يُمِدُّهم بالرِّجال والأقوات ؛ واجتمع هؤلاء وهؤلاء واحتفروا خَنْدَقا عظيما أحاطُوا به الحَسَك .

وعلم سعد بذلك فكتب إلى عُمر يستأمِرُه ، فكتب عمر إلى سَعْد : أَنْ سَرِّح هاشم بن عُتْبة إلى جَلُولاء فى اثنى عشر ألفا ، واجعل على مقدّمته القعقاع بن عمرو . وعَيِّنَ له مَنْ يكونون على الميمنة والميسرة والساقةِ بأسمائهم .

وفَصَل هاشم بن عُتْبة من المدائن فى صَفَر من السنة السادسة عشرة فى اثنى عشر ألفا ، منهم وُجُوه المهاجرين والأنصار وأعلامُ العرب ، وسار من المدائن إلى جَلُولاء حتى قَدِم على الفرُس وأحاط بهم ، فحاصرهم .

وطاوَلَهم أهل فارس ، وجعلوا لا يَخرُجون إليهم إلّا إذا أَرَادُوا ، وزاحفهم المسلمون ثمانين زَحْفاً ، وهم فى كل مرّة ينالُون من الفرْسِ . وجعل هاشم يقوم

* الطبرى ٤ : ١٧٩ . معجم البلدان ٣ : ١٢٩ . كان فى صفر سنة ١٦ وجلولاء : بلدة فى طريق خراسان فى نحو أربعين ميلا فى شمال المدائن .

فى الناس ويقول : إنَّ هـــذَا المنزلَ مَنْزِلٌ له مابَعْدَه . وجعل سعد يُمِدُّه بالفرسان ، حتى إذا كان أخيراً احتفلوا للمسلمين ، فخرجوا عليهم ، فقام هاشم فى النـاس فقال : أبلُوا فى الله بلاءً حسنا ، يتمّ عليـكم الأَجْرَ والمغنم ، واعملوا لله .

فالتَقَوْا واقتتلوا ، وبعث الله ريحاً أظلمت عليهم البـلادَ ، فلم يستطيعوا إلى المحاجَزة ، فتهافت فُرْسانُهم فى الخندق ، فلم يجـدوا بُدًّا من أن يجعلوا فُرضاً ممـا يليهم ، تَصْعَدُ منـه خيلهم ، فأفسدوا حِصْنَهم ، وبلغ ذلك المســلمين فنظروا إليـه فقالوا : نَنْهَضُ إليهم ثانيةً فندخُله عليهم أو نموت دونه .

فلما نَهدَ المسلمون الثانية خرج القومُ، فرمَوْا حول الخندق مما يلى المسلمين بحسَك الحديد ، لـكيلا يقْدَم عليهم القوم ، وتركوا للمجال وَجْهاً .

وخرجوا على المسـلمين ، واقتتلوا قتالًا شديداً لم يقتتلوا مثـله إلا ليلة الهرير ؛ إلا أنه كان أكْمَش[١] وأعجل ، وانتهى القَعْقَاع فى الوجْهِ الذى زاحف فيـه إلى باب خيلهم ، فأَخَـذ به ، وأمر منادياً فنادى : يامعشر المسلمين ، هـذا أميرُكم قد دخل خَنْدَق القومِ ، وأَخَـذ به ؛ فأَقْبِلوا إليه ، ولا يَمنعنّـكم مَنْ بينـكم وبينه من دخوله .

وإنما أَمَر بذلك لِيُقَوِّىَ المســلمين ، فحملَ المسلمون ، وهم لايشـكّون أنّ هاشما فيه ، فلم يَقُمْ لحملتهم شىء ، حتى انتهوْا إلى باب الخندق ، فإذا هم بالقعقاع بن عمرو قد أخَذَ به .

وانهزم الفُرْسُ يَمنـةً ويسرة عن المجال الذى بحيالِ خندقهم ، فهلـكوا فيما أَعَدُّوا للمسلمين ، وعُقِرتْ دَوَابُّهم ، وعادوا رَجَّالة ، وتبِعهم المسلمون فلم يُفْلِت منهم إلا القليل ، وقُتِل يومئذ مائة ألف[٢] .

---

(١) أكميش فى السير : أسرع. (٢) أورد الطبرى رواية أخرى لهذا اليوم جزء ٤ صفحة ١٨١

٣٢ – يوم تَكْرِيت*

علم سَعْدٌ بانصرافِ الفلول من الفُرس إلى تَكْرِيت وتَحَصُّنِهم بها ، ومعهم الأَخْلَاف من إياد وتغلب والنَّمِر ، فأرسل إليهم عَبْد الله بن المُعْتَمّ ، واستعمل على مقدّمته رِبْعِىّ بن الأفكل العَنَزىّ ، وعلى ميمنته الحارث بن حَسّان الذهلىّ ، وعلى ميسرته فُرات بن حَيَّان العجلىّ ، وعلى ساقته هانئ بن قَيس ، وعلى الخيل عرفجَة بن هَرْثمة . وفَصَلَ عبدُ الله بن المعتمّ فى خمسة آلاف من المدائن ، وسار إلى تَكْرِيت فوجد الفُرْسَ قد خَنْدَقُوا بها ، فحصَرَهم أربعين يوماً ، تزَاحفوا فيها أربعة وعشرين زَحْفاً ، وكانوا أهْوَن شوكة من أهل جَلُولَاء . ووكَّل عبدُ الله بن المعتمّ من يَدْعو العربَ لنُصْرته ، فاستجابوا له ، وأقبلت العُيون من تَغلِب وإياد والنَّمِر إلى عبد الله بن المعتمّ بالخبر ، وسألوه للعرب السّلْم ، وأَخبروه أنهم قد استجابوا له .

فأرسل إليهم : إنْ كُنْتم صادقين بذلك فاشْهَدُوا أنْ لا إله إلا الله ، وأنّ محمداً رسول الله ، وأقِرُّوا بما جاء به مِنْ عند الله ، ثمَّ أَعْلِمُونَا رَأْيَكم . فرجعوا إليه بقبول ذلك ، فقال لهم : إذا سمعتم تكبيرَنا فاعلَموا أنا قد نَهَدْنَا إلى الأبواب التى تلينا لِنَدْخُل عليهم منها ، فخُذُوا بالأبواب التى تلى دِجْلَة ، وكبِّرُوا واقتلوا مَنْ قَدَرْتمْ عليه .

ونَهَدَ(١) عبدُ الله والمسلِمون، وكبَّرُوا، وكبَّرتْ إياد وتغلب والنمر، وقدأخذوا

---

* الطبرى ٤ : ١٨٦ ، ومعجم البلدان ٢ : ٤٠١ ، كان فى سنة ١٦ . وتكريت : بلد بين بغداد والموصل على دجلة إلى شمال المدائن . (١) نهد : نهض وخف .

بالأبواب ، فحَسِب القومُ أنَّ المسلمين قد أتَوْهُمْ مِن خلفهم . فدخلوا عليهم مما يلى دِجْلة ، فبادروا الأبوابَ التى عليها المسلمون فأخذَتْهم السيوف ؛ سيوف المسلمين مُسْتقبلتَهم ، وسيوف العرب الذين أسلموا ليلتئذ من خَلْفهم ، فلم يُفلت منهم إلا من أَسْلَمَ ؛ من تغلِب وإياد والنمر .

وسَرَّح عبد الله بن المعتمّ ابنَ الأفكل العَنَزِىّ إلى الحِصْنَيْن نِينَوَى والموصِل ، وقال له : اسْبِق إليهما قبل وصول الأنباء إليهما ، وسَرَّح معه تَغْلب وإياد والنمر ، ومعهم رؤساؤهم ، وساروا جميعاً حتى اقْتَحَموا عليهم فيهما ؛ فنادوا بالإجابة إلى الصلح ، فأقام مَن استجاب ، وهَرَب مَن لم يَسْتَجِبْ ، فوفَّى عبد الله لمن أقام ، وصارت لهم جميعاً الذِّمّة والمَنَعة ، واقْتَسَمُوا فى تَكْرِيت كُلَّ سَهْم ألف درهم ، وبعثوا بالأخماس إلى عُمَر مع فُرات بن حيّان ، وبالفتح مع الحارث بن حسان .

٤٤ — يوم ماسَبَذَان*

لما رجع هاشم بن عُتْبَة من جَلُولاء إلى المدائن بلغ سعدا أن آذين بن الهُرْمُزَان قد جمع جمعاً ، فخرج بهم إلى السَّهْل ؛ فكتب بذلك إلى عمر .

فكتب إليه عمر : ابْعَث إليهم ضِرَار بن الخطَّاب فى جُنْد ؛ وعَيِّنَ له أمراءهم .

فخرج ضِرَار بمن معه ، حتى انتهى إلى سَهل ماسَبَذَان ، فالتقى بالفُرس . وأسرع المسلمون فى المشركين ، وأخذ ضِرَارٌ آذين أسيراً . وانهزم عنه جيشُه ، فضرب عُنُقَه .

ثم خرج فى الطَّلَب حتى انتهى إلى السَّيْرَوان ، وأخذ ماسَبَذَان عَنْوَة ، فتطاير أهلها فى الجبال ، ثم دعاهم فاستجابوا إلى الجِزْيَة ، فأقَرَّهُم فى مدينتهم .

---

* الطبرى ٤ : ١٨٧ . كان فى سنة ١٦ . وماسبذان : موضع عن يمين حلوان إلى همذان .

٤٥ — يوم قِرْقِيسِيَاء *

لما رجع هاشم بن عُتْبة من جَلُولاء اجْتَمَعَتْ جموعُ أهلِ الجزيرة بمدينة هِيت على شاطئ الفرات ، وكتب بذلك سَعْد إلى عمر ، فكتب إليه عمر : أن ابعث إليهم عمر بن مالك فى جُنْد ، وابْعَثْ على مقدّمته الحارث بن يزيد العامرىّ ، وعلى مجنّبتيْه رِبْعِىّ بن عامر ، ومالك بن حبيب .

فخرج عمر بن مالك فى جُنْدِه سائرًا نحو هِيت ، وقدّم الحارث بْنَ يزيد حتى نزل عليها ، وقد خَندق أهلُها عليهم .

فلمّا رأى عمرُ بن مالك امتناعَ القَوْم بخندقهم واعتصامَهم به استطالَ ذلك، فترك الأخْبِية على حالها ، وخلّف عليهم الحارثَ بن يَزيد فحاصرَهم ، وخرج فى نصف الناس يعارِضُ الطريق ، حتى جاء قِرْقيسياءَ فى غِرّة ، فأخذَها عَنوة ، وأجابه أهلُها إلى الجِزَاء . وكتب إلى الحارث بن يزيد فى شأن أهل هِيت : إن استجابوا فخلّ عنهم فليخرجوا ؛ وإلا فخَنْدِق على خندقهم خندقاً أبوابُه مما يليك ؛ حتى أرى مِن رأيى. فاستجابوا ، وانضم الجند إلى عمر والأعاجم إلى بلادهم[1] .

---

* تاريخ الطبرى ٤ : ١٨٧ . كان فى رجب سنة ١٦ ، وقرقيسياء : بلد عند ملتقى نهر الخابور والفرات على تخوم مابين العراق والشام .

(١) بعد هذا اليوم صار السواد كله فى يد المسلمين، فمهدوا طريق إدارته وأقاموا الجنود مرابطة فى الثغور بينهم وبين الجبال ، فكان الفلاحون للطرق والجسور والحرث والدلالة مع الجزاء عن أيديهم على قدر طاقتهم ، وكان فى صلح المسلمين لهم : أنهم إن غشوا المسلمين لعدوهم برئت منهم الذمة .

٤٦ — يوم الأهواز *

كانت الأهوازُ تُتاخِمُ حدودَ البَصْرَةِ ، وكان الهُرمزان من بيوتات فارس ، فلما انهزمَ يوم القادسيّة أقامَ بتلك البلاد ، وغلَب على مَنْ بها ، فكان يُغيرُ على أهْلِ مَيْسان ودَسْتمِيْسان(١) ؛ فلما علم بذلك عُتْبةُ بن غزْوان أمير البصرة استمدَّ سَعْدَ بن أبى وقّاص أمير الكوفة فأمدّه بنعيم بن مُقَرّن ونعيم بن مسعود ، وأمرهما أن يأتيا أعْلَى مَيْسان ودَسْتِميسان ، حتى يكونا بين الأعاجم وبين نهر تِيرَى .

وأرسل عُتبة بن غزْوان سَلْمَى بن القَيْن وحَرْمَلة بن مُرَيْطَة فى جَمْعٍ من الجند ، وأمرهما أن يكونا بين ميسان ودستميسان وبين مَناذر . فنزلا هناك ودَعَوَا بنى العَمِّ ابن مالك ، وكانوا من حاضرى تلك الجهة ، فأجاب رؤساؤهم : إنهم سيكونون عوْناً للمسلمين ، واتفقوا على إحداث ثورة بمَناذِر ونهر تِيرَى ؛ والهُرمْزان يومئذ بين نهر تِيرَى وبين دُلُث .

وفى الموعد اشتدّ القتالُ بين الفريقين وأتى الخبر الهرمزان بأنّ مَناذِر ونهر تِيرَى قد أُخِذتا ، ففتّ ذلك فى عَضُده ثم هُزم جنده ، وقتل المسلمون منهم ما شاءوا ، وأسروا منهم ما شاءوا واتبعوهم حتى وقفوا على شاطئ دُجَيْل ، وأخذوا ما دونه ، وعسكروا بحِيال سوق الأهواز ، وقد عَبر الهرمزان جسر سوقِ الأهواز وأقامَ بها .

ولما رأى الهُرْمزان ما لا طاقة له به طلب الصُّلح ، فأجابه عُتْبَةُ إلى ذلك .

---

* الطبرى ٤ : ٢٠٨ . كان فى سنة ١٧ . والأهواز : إقليم واسع، يتكون من سبع كور بين البصرة وفارس .

(١) ميسان ودستميسان : موضعان قرب البصرة .

وصالحه على الأهواز كلّها ، ماخلا نهر تِيرَى ومَناذر ، وما غُلِبوا عليه في سوق الأهواز مما أخذه المسلمون عَنْوَةً فإنه لا يُرَدّ إليهم ، وجعل عُتْبَة سَلْمى بن القَيْن على مَناذِر ، وحَرْمَلة على نهرى تِيرَى ، ووكل إليها مَسالح البصرة ، وأخذتْ طوائف بنى العَمّ تنزل البصرة .

ثم شجَر خلافٌ بين بعض رؤساء بنى العَمّ ، وبين الهرمزان فى حدود الأرَضين ، كان من نتيجته أنْ نقض الهرمزان الصّلح ومنع ماقِبَلَه ، واستعان بالأكراد ، فَكَثُفَ جُنْدُه ، وانتهى الأمر إلى عُتْبَة بن غزوان ، فكتب بذلك إلى عمر ، فكتب إليه عمر يأمره بأمْرِه ، وأمدّهم بحُرْقوص بن زُهَيْر السعدىّ ، وكانت له صحبة من رسول الله ، وأمَّره على القتال وعلى ماغَلَب عليه ، وانضمّ إليه سلْمى وحَرْملة ، وعلِمَ بأمرهم الهرمزان فنَهَد إليهم بجنوده .

ولما انتهى المسلمون إلى جِسْرِ سوقِ الأهواز أرسلوا إلى الهرمزان : إما أن تعبر إلينا ، وإمّا أن نَعْبُرَ إليكم ، فقال : اعْبُروا إلينا ، فَعَبَرُوا من فوق الجسر ، ثم اقتتلوا فوق الجسر مما يلى سوق الأهواز ، حتى هُزِم الهرمزان وجنده ، وفَرّ إلى رامهرمز .

وافتتح حُرقوص سوقَ الأهواز فأقام بها ، ونزل الجبل ، واتَّسَقَتْ له بلاد سوق الأهواز إلى تُسْتَر ، ووضع الجزية ، وكتب بالفتح والأخماس إلى عُمَر ، ووفَّد إليه وفْداً بذلك ، فحمِدَ الله ودعا له بالثَّباتِ والزيادة .

٤٧ — يوم طاووس*

كان المسلمون بالبَصْرَةِ وأرضها ـ وأرْضُها يومئذ سَوَادُها ـ ماغَلبوا عليه منها فنى أَيْديهم ، وما صُولِحُوا عليه منها؛ فنى أيدى أَهْلِه ، يُؤَدُّون الخراجَ ، ولهم الذِّمَّة والمَنعَة ، وعميد الصلح الهُرمزان .

وقد قال عمر : وددتُ أَنَّ بيننا وبين فارس جَبَلا من نار ، لايَصِلُون إلينا منه ، ولا نَصِلُ إليهم ، كما قال لأهل الكوفة : وددت أنّ بينهم وبين الجَبَل جَبَلًا من نار، لايَصِلُونَ إلينا منه ولا نَصِلُ إليهم .

وكان العَلَاء بن الْحضْرَمىّ عَلَى البحريْن أَزْمَان أبى بكر فعزلَه عمر ، وجعل قُدَامَة بن مظعون مكانَه ، ثم عَزَلَ قُدامة ، وردَّ العلاء ـ وكان العلاء يُبَارِى سعداً لصَدْعٍ صَدَعه القضَاء بينهما ، فطار العَلَاء على سعد فى الردّة بالفضل ، فلما ظفر سعد بالقادِسية ، وأزاح الأكاسرة ، وأخذ حدودَ مايلى السَّواد استعلى ، وجاء بأعظم مما كان العَلَاء جاء به .

أراد العلاء أن يضعَ شيئاً فى الأعاجم ، مع أنَّ عُمَرَ قد نهاهُ عن البحرِ حين استعمله، فلم يقدر الطاعة والمعصيةوعواقبهما .

فندب أهلَ البحرين إلى فارِس ، فتسرّعوا إلى ذلك، وفرّقهم أجناداً ، على أحدها

---

* الطبرى ٤ : ٢١٢ ، ومعجم البلدان ٦ : ١٠ . كان سنة ١٧ هـ وطاووس : موضع بنواحى فارس

الجارودُ بن المعلّى ، وعلى الآخر السّوّار بن همام ، وعلى الآخر خُلَيْد بن المنذر بن ساوى ، وخُليد على جماعة الناس .

فحملهم فى البحر إلى فارس بغير إذن عمر — وكان عمر لا يأْذَنُ لأحد فى ركوبه غازيا ، لأنه يَكْرَهُ التغرير اسْتِنَانًا بالنبىّ صلى الله عليه وسلم وبأبى بكر .

فعبرتْ تلك الجنودُ من البَحْرَيْن إلى فارس وخرجوا فى إصْطَخْر ، وبإزائهم أهلُ فارس ، وقد اجتمعوا على الهِرْبذ ، وحالوا بين المسلمين وبين سُفُنِهم ، فقام خليدٌ فى الناس فقال : أمّا بعد ، فإن الله إذا قضى أمراً جرت المقاديرُ حتى تُصِيبَه ؛ وإن هؤلاء القوم لم يَزيدوا بما صنعوا على أن دَعَوْكم لحربِهم ، وإنما جئتم لمحاربتهم والسُّفُنُ والأرضُ لمن غَلَبَ ، فاستعينوا بالصَّبْر والصلاة وإنها لكبيرةٌ إلا على الخاشعين .

فأجابوه إلى ذلك ، وصلّوا الظهر ، ثم ناهدوهم ، فاقتتلوا قتالا شديداً فى موضع يقال له طاوس ، وقُتِلَ من قُوّاد المسلمين السّوّار والجارود ، وجعل خليد يَذْمُر[1] القومَ ويحرِّضهم ، واشتدّ القتال ، وقُتل أهلُ فارس مقتلة لم يُقتَلوا مثلها قبلها .

ولم يجد المسلمون سَبيلًا إلى الرجوع فى البحر ، لأنّ الفُرْسَ أغرَقوا سفنهم فخرجوا يُريدون البصرة ، فوجدوا شَهْرَكَ قد أَخَذ على المسلمين بالطرق ، فعسكروا وامتنعوا .

ولما بلغ عمر الذى صنع العَلاء ، من بَعْثه ذلك الجيش فى البحر أُلْقِيَ فى رُوعه نحوٌ من الذى كان ، فاشتد غضَبُه على العَلاء ، وكتب يعزله ، وتوعّده ، وأمره

---

(١) يذمر : يحض ،

بأثقل الأشيــاء عليه وأبغضِ الوجوه إليه ، بتأمير سعد عليه ، وقال له : الحقْ بسعد ابن أبي وقاص فيمَنْ قِبَلك ، فخرج بمن معه نحو سعد .

وكتب عمر إلى عُتْبَة بن غزْوَان: إن العَلاء بن الحضْرَمِيّ حمل جنداً من المسلمين ، فأقطعهم أهــل فارس ، وعصاني ، وأظنه لم يُرِدِ اللهَ بذلك ، فخشيتُ عليهم ألاَّ يُنْصَروا وأن يُغْلَبوا ، فانْدُبْ إليهم الناسَ ؛ واضْمُمْهُم إليك من قبل أن يُجْتَاحُوا .

فندب عتبة الناس، وأخبرهم بكتاب عمر . فانتدَب الناسُ وخرجوا في اثني عشر ألفاً على البِغَال يَجْنُبُون[1] الخيلَ ، وعليهم أبو سَبْرَة بن أبي رُهْم .

فسار أبو سَبْرَة بالناس وساحَل ، لا يلقاه أحَدٌ ، ولا يعرِض له أحد ، حتى التقى بِخُلَيْد ، وقد كان أهلُ إصطخر وشذّاذ[2] من غيرهم هم الذين أخــذوا الطرق على جَيْش خُلَيْد .

فلما أقَامَ المسلمون مقامَهم استصرخ الأعداء أهلَ فارس كلهم ؛ فضربوا إليهم من كلّ وَجْهٍ وكُورة، فالتقوا بطاوس، وقد توافت إلى المسلمين أمدادهم؛ وإلى المشركين أمدادهم ، وبعد قتالٍ فَتَحَ الله على المسلمين وقتل المشركين .

وأصاب المسلمون منهم ما شاءوا ، وكانت هذه الغَزَاةُ هي التي شرّفت نابتَة أهل البصرة ، فكانوا أفضلَ نوابت الأمصار ، وانكفأوا بما أصابوا

---

(١) جنبه قاده : الى جنبه . (٢) الشذاذ: الذين لم يكونوا في حيهم ومنازلهم، ومفرد: شاذ.

٤٨ — يوم تُسْتَر*

لم يزل يَزْدَجِرد يُثِيرُ أهلَ فارس أسَفاً على ما خرج منهم ـ وكان مقيماً بِمَرْو ـ فكتب إلى أهل فارس يذكِّرهم الأحْقادَ ويؤنّبهم ؛ أنْ قد رضيتم يا أهل فارس ؛ أن قد غلبتكم العرب على السَّواد وما والاهُ من الأهواز ، ثم لم يرضَوْا بذلك ؛ حتى تورَّدُوكم فى بلادِكم وعُقْر داركم !

فتحرّك أهلُ فارس وأهلُ الأهواز ، وتعاقدوا وتعاهدوا ، وتواثَقُوا على النُّصرة ، وجاءت الأخبارُ حرقوصَ بن زهير ، وسَلْمى وحَرْمَلة .

ولما علم عمر بن الخطاب بذلك كتب إلى سعد أمير الكوفة أن ابعث إلى الأهواز بَعْثاً كثيفاً مع النعمان بن مُقَرِّن ، وعَجِّل ؛ وابعث سُوَيد بن مقرّن وعبد الله بن ذى السّهمين ، وجرير بن عبد الله الحِمْيَرِىّ وجرير بن عبد الله البَجَلِىّ ، فلْينزِلوا بإزاء الهُرْمُزان حتى تَتَبَيَّنُوا أمْره .

وكتب إلى أبى موسى أمير البصرة أن ابعَثْ إلى الأهواز جُنْدًا كثيفاً ، وأمِّرْ عليهم سَهْل بن عدىّ ، وعلى أهل الكوفة وأهل البصرة جميعاً أبا سَبْرة ابن أبى رُهْم ، وكلّ من أتاه مُمِدٌّ له .

وخرج النعمان بن مقرِّن فى أهل الكوفة ، فأخذ وسط السَّواد حتى قطع دِجْلَة بحِيَال مَيْسان ، ثم أخذ البرَّ إلى الأهواز ، وانتهى إلى نهر تِيرى فجَازَه ، ثم جاز مَناذِر ، وسوق الأهواز ، وخلّف حُرقوصا وسَلْمى وحَرْمَلة ، ثم سار نحو الهرمزان ـ والهرمزان يومئذ برامهرمز .

---

* الطبرى : ٤ ـ ٣١٤ . كان سنة ١٧ﻫ : وتستر : أعظم مدينة بخوزستان .

ولما سمع الهرمزان بمسير النعمان إليه بادَره ، ورجا أن ينالَ منه ، وطمع فى نصر أهل فارس وقد أقبَلُوا نحوه ، ونزلت أوائلُ أمدادهم بتُسْتَر .

فالتقى النعمان والهرمزان بأرْبُك(١) واقتتلوا قتالًا شديداً . ثم إنّ الله عزّ وجلّ هزم الهرمزان للنعمان ، وأخْلى رامهرمز وتركها ولحق بتُسْتَر ، وسار النعمان من أربُك حتى نزل برامهرمز فأقام بها .

ولما وصل أهلُ البصرة إلى سوق الأهواز جاءهم خبرُ الواقعة ، وأنّ الهرمزان لحق بتُسْتَر ، فمالوا نحوها ، وراغَ النعمان إليها من رامُهرْمز ، وقصدتْها المسالح التى تركوها خَلْفهم ، وكان عليها خرقوص وجَزء ، ولحق بهم سَلْمى وحَرْملة ، ونزل جميعهم على تُسْتَر ، وبها الهُرمزان وجنوده من أهل فارس ، وكتبوا بذلك جميعاً إلى عمر ، واستمدّه أبو سَبْرة ، فأمدّه بأبى موسى الأشعرىّ ، فى جمع آخَرَ مِنْ أهل البصرة .

فحاصروا الفرسَ أشهُرا ، وأكثروا فيهم القتلَ ، وقتَلَ البَراء بن مالك ـ فيما بين أول الحصار إلى أن فتح الله على المسلمين ـ مائةَ مُبارز سوى مَنْ قتلَ فى غير ذلك ، وفعلَ غيرُه كثيرون من صناديد المسلمين كما فعل .

وزاحفهم المشركون فى أيام تُسْتَر ثمانين زحفاً فى حصارهم ، يكونُ عليهم مرة ولهم أخرى ، حتى إذا كان فى آخر زحفٍ منها ، واشتدّ القتال قال المسلمون : يا بَرَاء ، أَقْسِم على رَبِّك ليهزمنَّهم . فقال : اللَّهُمَّ اهْزِمْهم لنا واستَشْهِدْنى .

فهزمُوهم ، حتى أدْخَلُوهم خنادقَهم ، ثم اقتحموها عليهم ، وأرَزُوا(٢) إلى مدينتهم وأحاطوا بها ، فبينما هم على ذلك ؛ وقد ضاقت بهم المدينة ، وطالت حَرْبُهم خرج إلى النعمان رجلٌ فاستأْمَنَه على أن يدُلَّه على مَدْخَلٍ يأتون منــه المدينة ، ويكون

---

(١) أربك : مدينة بالأهواز .   (٢) ارزوا إلى مدينتهم : لاذوا ورجعوا إليها .

فيه فَتْحُها فأمَّنوه ، فقال لهم : انْهدوا من قِبَل مخرج الماء ، فإنكم ستفتحونها .

فندَب النعمانُ أصحابَه فنَهَدوا فى بشرٍ كثير إلى ذلك المكان ليلًا ، وانسَرَب سُوَيْد وعَبْدُ الله بن بشر ، فاتبعهم هؤلاء وهؤلاء ؛ حتى إذا اجْتمعوا كبَّروا وكبّر المسلمون خَلْفهم ، وفُتِحَتِ الأبواب ، فاجْتَلدُوا فيها ، وأصابوا من الفُرْس مقتلةً عظيمة ، وأرَزَ الهُرْمُزان إلى القلعة ، وأطاف به الذين دَخلوا من مخرج الماء ، فلمّا عاينوه ، وأقبلوا قِبَله قال لهم : ماشئْتم ! قد تَروْن ضيقَ ماأنا فيه وأنتم ، ومعى فى جَعبتى مائة نُشّابة ، ووالله ماتَصِلون إلىّ مادامَ معى منها نُشّابة ، وما يقعُ لى سَهْمٌ ؛ وما خيرُ إسارى إذا أصَبْتُ منكم مائة بين قتيل أو جريح ! قالوا : فتريد ماذا ؟ قال : أضَع يدى فى أيديكم على حكم عمر ، يصنعُ بى ماشاء . قالوا : فلك ذلك . فرمى بقَوْسه ، وأمْكَنَهم من نفسه ، فشدّوه وثاقا ، واقتسموا ماأفاء الله عليهم . فكان سهْمُ الفارس ثلاثة آلاف والراجلِ ألفا .

وجاء مَنْ دلَّهم على المدينة ، فقال : مَنْ لى بالأمان الذى طلبته لى ولمن مالَ معى ؟ قالوا : ومَنْ مالَ معك ؟ قال : مَنْ أغلق بابه عليه مُدْخَلكم . فأجازوا ذلك لهم ، وقُتِل من المسلمين ليلتئذ أناس كثير ، منهم مجزأة بن ثور ، والبرَاء بن مالك قتلهما الهُرمزان .

وأوْفَد أبو سَبْرَةَ وَفْدا إلى البصرة فيهم أَنَس بن مالك والأحنف بن قيس ، وأرسل الهُرمزانَ معهم ، ثم خرجوا نحو المدينة ، حتى إذا دخلوا هَيَّئوا الهرمزان فى هيْئَتِه ، فألْبَسوه كُسْوَته من الدّيباج الّذِى فيه الذّهب ، ووضعوا على رأسه تاجاً مُكَلَّلا بالياقوت ، وعليه حِلْيته كيما يراه عمر والمسلمون فى هيئته . ثم خرجوا به على النّاس يُرِيدون عُمَر فى منزله ، فلم يجدوه ، فسألوا عنه ، فقيل : جَلَس فى

المسجد لوفدٍ قدموا عليه من الـكوفة ، فانطلقوا يطلبونه فى المسجد ، فلم يروْه ، فلما انصرفوا مرّوا بغلمان من أهل المدينة يلعبون، فقالوا لهم: أتريدون أمير المؤمنين؟ إنه نائم فى المسجد متوسدٌ بُرْنُسَه ـ وكان عمر قد جلس لِوَفْدِ أهل العراق فى برُنس ، فلما فرغ من كلامهم وارتفعوا عنه نزع بُرْنسه ثم توسّده فنام .

فانطلقوا ومعهم النَّظّارة حتى إذا رَأَوْه جلسوا دُونه ، وليس فى المسجد نائم ولا يَقْظَان غـيره ، والدِّرة فى يَده مُعَلّقة ، فقال الهُرمزان : أين عمر ؟ فقالوا : هو ذا . وجعل الوفد يُشيرون إلى النـاس أن اسكتوا عنه . وأصغى الهُرمزان إلى الوفد ، ثم قال : أين حَرَسُه وحجَّابه ؟ قالوا : ليس له حارس ، ولا حاجب ، ولا كاتب ، ولا ديوان : قال : فينبغى له أن يـكون نبياً ، فقالوا : بل يعمل عمل الأنبياء .

وكثر الناس ، فاستيقظ عمر باَلجلَبة ، واستوى جالساً ، ثم نظر إلى الهُرمزان ، فقال: الهرمزان ! ثم تَأمّله وتأمّل ما عليـه ، وقال : أعوذ بالله من النّار ، وأستعينُ الله . وقال : الحمد لله الذى أَذَلَّ بالإسلام هذا وأشياعَه . يامعشرَ المسلمين ؛ تمسَّـكوا بهـذا الدين ، واهتـدوا بهَدْىِ نبيـكم ، ولا تُبْطِرَنّـكم الدُّنْيا فإنها غرارة فقال الوفد : هَذَا ملِك الأهواز فـكلِّمْه ، فقال : لا ، حتى لا يَبقى عليـه من حليته شىء ، فرُمِى عنه بـكل شىء عليـه إلا شيئاً يستره ، وألبسوه ثوباً صفيقا .

فقال عمر : هِيهِ ياهرمزان ! كيف رأيت وَبال الغدر وعاقبة أَمْرِ الله ! فقال : ياعمر ، إنا كنَّا وإيا كُمْ فى الجاهلية ، كان الله قد خلَّى بيننا وبينـكم ، فغلبنا كم إذ لم يكن معنا ولا معـكم ، فلما كان معكم غلبتمونا ، فقال عمر : إنما غلبتمونا فى

الجاهلية باجتماعكم وتفرُّقنا ، ثم قال : ما عُذْرُك وما حُجَّتُك فى انتقاضك مرّة بعد مرّة ؟ فقال : أخاف أَنْ تقتلَني قبل أن أخبرك . قال : لا تخف ذلك . واستسقَى ماء ، فأُتِيَ به فى قَدَحٍ غليظ . فقال : لو متُّ عطشاً لم أستطع أن أشرب فى مِثْل هذا . فأُتِيَ به فى إناء يرضاه ، فجعلت يدُه ترْجُف ، وقال : إنى أخاف أن أُقْتَل وأنا أشرب الماء . فقال عمر : لا بأس عليك حتى تشرَبه ، فأكْفَأه . فقال عمر : أعيدُوا عليه ، ولا تجمعوا عليه القتْلَ والعطَش . فقال : لا حاجةَ لى فى الماء ؛ إنما أردتُ أن أستأمِن به . فقال له عمر : إنى قاتلك . قال : قد أَمَّنْتَنى ، فقال : كذَبْتَ ! فقال أنس : صدق يا أمير المؤمنين ، قد أمَّنته ، قال : ويحك يا أنس ! أنا أُؤَمِّن قاتل مَجْزأة والبَرَاء ! والله لتأتينَّ بمخرج أو لأعاقبنّك . قال : قلتَ له : لا بأس عليك حتى تخبرَنى ، وقلتَ له : لا بأس عليك حتى تشربه ، وقال له مَنْ حوله مثل ذلك . فأقبل على الهُرْمزان وقال : خَدَعْتَنى ، والله لا أنخدع إلّا لمسلم ، فأسلم وفرض له على ألفين ، وأنزله المدينة .

---

٤٩ — يوم السُّوس*

لما انتهى فَلُّ جَلُولَاء إلى يَزْدجرد وهو بحُلْوان دعا بخاصَّته والمَوْبَذ ، فقال : إنَّ القوم لا يَلْقَوْن جَمْعاً إلا فَلُّوه ، فما تَرَوْن ؟ فقال المَوْبَذ : نرى أن تخرج فتنزل إصطَخر ، فإنها بيتُ المملكة ، وتضمّ إليك خَزَائنك وتُوَجِّهَ إليها الجنود .

فأخذ برأيه ، وسار ومَنْ معه حتى نزلوا إصطخر ؛ وأبو موسى محاصرٌ السُّوس ؛ فوجّه سِيَاه إلى السُّوس والهرمزان إلى تُسْتَر .

وبلغ أهلَ السُّوس أمرُ جَلُولاء ونزول يَزْدَجرد إصْطَخر منهزماً ، فسألوا أبا موسى الصُّلح ، فصالحهم ، وسار إلى رامهُرمز .

ولما علم سِياه بذلك دعا الرؤساءَ الذين كانوا خرجوا معه من أصبهان وقال لهم : قد علمتم أنّا كنّا نتحدّث أنَّ هؤلاء القوم أهلَ الشقاء والبؤس سيغلبون على هذه المملكة ، وتروثُ دوابُّهُمْ فى إيوانات إصْطَخر ومصانع الملوك ، ويشدّون خيولهم بشجَرِها ، وقد غَلَبوا على ما رأيتم ، وليس يَلْقَوْن جنداً إلا فَلُّوه ، ولا ينزلون بحصن إلا فتَحوه ، فانظروا لأنفسكم . قالوا : رأينا رأيك ، قال : فإنِّى أرى أن نَدْخل فى دينهم .

ووجّه شيرويه فى عشرة من الأساورة إلى أبى موسى يأخذ شروطًا على أن يدخلوا فى الإسلام .

فقدم شيرويه على أبى موسى ؛ فقال : إنّا قد رغبنا فى دينكم فَنُسْلِم ، على أن نقاتل معكم العجم ، ولا نقاتل معكم العرب ، وإن قاتَلَنا أحدٌ من العرب منعتمونا منه ، وننزل حيث شئنا ، ونكون فيمن شئنا منكم ، وتُلْحِقونا بأَشْرَف العطاء ،

---

* الطبرى ٤ : ٢١٨ . كان سنة ١٧ . والسوس : بلد بخوزستان .

وَيَعْقد لنا الأمير الذى فوقك بذلك ، فقال أبو موسى : بل لكم ما لنا وعليكم ما علينا ! قالوا : لا نرضى .

وكتب أبو موسى إلى عمر بن الخطاب فى ذلك ، فكتب عمر إلى أبى موسى : أَعْطِهم ما سألوك . فكتب لهم أبو موسى ، فأسلموا وشهدوا مَعَه حصار تُسْتَر ، فلم يكن أبو موسى يرى منهم جدًّا ولا نِكاية ، فقال لسياه : يا أعور ، ما أنت وأصحابك كما كُنَّا نرى . قال : لسنا مثلكم فى هذا الدين ، ولا بصائرُنا كبصائركم؛ ولم تُلْحِقْنا بأشرف العطاء .

فكتب أبو موسى إلى عمر فى ذلك ، فكتب إليه عمر : أن ألحقهم على قَدْر البلاء فى أفضل العطاء وأكثرِ شىء أخذَه أحدٌ من العرب .

ففرض لمائةٍ منهم فى ألفين ألفين ، ولستّة منهم فى ألفينْ وخمسمائة .

وحاصروا حِصْناً بفارس ؛ فانسلّ سياه فى آخر الليل فى زىّ العجم حتى رمى بنفسه إلى جَنْبِ الحِصْنِ ، ونَضَح ثِيابَه بالدم . وأصبح أهلُ الحصن ، فرأَوْا رجلا فى زيّهم صريعاً ، فظنُّوا أَنه رجلٌ منهم أُصيبوا به ، ففتحوا بابَ الحصن ليُدْخِلوه ؛ فثار وقاتلهم حتى جلوْا عن باب الحصن وهربوا ، ففتح الحصن وحده ، ودخله المسلمون .

٥٠ — يوم نَهَاوَنْد

قال عُمَرُ لوَفْدِ أَهْلِ البَصْرَة : لعلّ المسلمين يُفضُون إلى أهل الذمّة بأذى ، وبأمورٍ لها ينتقضون بكم ، فقالوا : ما نَعْلَم إلّا وفاءً وحُسْنَ مَلَكَة ، قال عمر : فما بالهم يَنْتَقِضُون ! فلم يَجِدْ عند أَحَدٍ منهم جواباً يشفيه إلّا ما كان من الأَحْنف ابن قَيْس إذ قال : يا أميرَ المؤمنين ، أُخْبِرُك ، أنّك نهيتَنا عن الانسياح فى البلاد ، وأَمرتنا بالاقتصار على ما فى أيدينا ، وإنّ مَلِكَ فارسَ حيٌّ بين أَظْهُرِهم ، وإنهم لا يزالون يُسَاجِلُونَنا ما دام مَلِكُهم فيهم ، ولم يجتمع مَلِكان فاتفقا حتى يُخْرِج أحدها صاحبَه ؛ وقد رأيتَ أنّا لم نأخذ شيئاً بَعْدُ إلّا بانبعاثهم وغدْرِهم ، وإنّ مَلِكهم هو الذى يَبْعَثهم ، ولا يزالُ هذا دأبهم حتى تأذَنَ لنا فنسيحَ فى بلادهم ، ونُزِيلَ مَلِكهم ، ونُخْرِجَه من مملكته وعِزِّ أُمته ، فهنالك ينقطعْ رجاءُ أهل فارس .

فقال عمر : صدقْتَنى والله ، وشَرَحْتَ لى الأمر على حَقِّه . ثم نظر فى حوائجهمَ وسَرَّحَهُمْ .

وجاء الخبرُ عمرَ أنْ أهلَ فارس كاتَبُوا مَلِكهم يَزْدَجرد وهو يومئذٍ بمَرْو (١) ليكونَ على رأس حركتهم حتى يجتمع الناسُ وينضموا تحت لوائه ، فلما جاءته الكُتُب ، ورأى فيها اجتماعَ كلمة الفرس وشدة حماستهم لدفع عدوِّه وعدوِّهم تبدَّل

* للنعمان بن مقرن على الفرس . . كان سنة ٢١ ، ونهاوند : من بلاد الفرس ، قرب همذان الطبرى ٤ : ٢٣١ ، معجم البلدان ٨ : ٣٢٩ .

(١) كان يزدجرد قد اضطرب فى أرجاء فارس منذ فر من المدائن ثم استقر فى مرو .

يأسهُ أملاً، واضطرابه طمأنينة، فكاتبَ أهلُ الجبال وسائرَ الولايات والبلاد في مملكته يشجِّعهم ويدعوهم إلى قتال العرب، فتحرَّكوا وتكاتبُوا[1]، وركب بعضهم إلى بعض، وأَجْمَعُوا على تَلْبِيَةِ نداء الملك، وبعث كلُّ أميرٍ جندَه إلى نَهَاوَنْد، حتى بلغَ عددهم مائةً وخمسين ألفاً، واجتمعوا بإمْرَةِ الفيرزَان.

فلمّا اجتمعوا عنده قال لهم: إن عمر لمَّا طال مُلكُه انتهك حرمتَنا وأخذَ بلادَنا، ولم يَكْفِه ذلك حتى أغزانا في عُقْرِ دارنا، وأخذ بيتَ المملكة، وهو آتيكم إن لم تأتُوه، وليس بمُنْتَهٍ حتى تُخْرِجُوا مَنْ في بلادكم من جُنْدِه. ونقل الأمراء حديثَه إلى جنودهم، فاشتعلتْ حَمَاسَتُهم.

وكان سعدُ بنُ أبي وَقَّاص كتب إلى عمر: يقال: إن أهلَ الكوفة يستأذِنونك في الانسياح، وكان عمر منعهم من ذلك، فلما بلغه تجمُّعُ الفرس شخص إليه بالخبر مشافهة، بعد أن استخلف عبدَ الله بن عبدِ الله بن عِتْبَان على الكُوفة.

ثم لم يلبث عبدُ الله أن كتب إلى عمر يقول: إنّ أهلَ فارس قد تجمعوا، فإن جاءونا قبل أن نُبَادِرَهم الشدَّة ازدادوا جُرْأَةً وقوّة، وإن نَحْنُ عاجلناهم كان لنا ذلك عليهم.

ولما توالت الأخبارُ والرُّسُل عند عمر أخذ يفكّر في أمرِ الفرس، فبدأ باستشارة الهُرمزان، وقال له: انصح لي، فإنك أعلمُ بأهل فارس، قال: نعم! إن فارسَ اليوم رأْس وجناحان. قال له: فأين الرَّأْسُ؟ قال: بنَهَاوَنْد، ثم ذكر موضع الجناحين وقال: الرَّأْيُ عندي يا أمير المؤمنين أنّك إن تقطع الجناحين يَهِن الرأس. فقال

---

(١) تكاتبوا: كتب بعضهم إلى بعض

عمر : كَذَبْتَ يا عـدوَّ الله ! بل أَعمِـد إلى الرأسِ فأَقطعه فإذا قَطعه الله لم يَعْصِ الجناحان .

ثم أراد أن يَسير بنفسه، فقالوا له : نُذكِّرُكَ الله يا أميرَ المؤمنين أن تسير بنفسك إلى حَلْبَـة العجم ، فإن أُصِبْتَ لم يكن للمسلمين نظام .

فرأى أن يستشيرَ المسلمين فى جمعٍ عام ، وأمر أن يُنادَى فى النـاس : الصلاة جامعة ! فاجتمع الناسُ ، وقام على المِنْبر وأخبرَ الناس الخبر واستشارهم وقال : هذا يومٌ له مابعدَه من الأيام ؛ ألا وإنِّى قد هممتُ بأمرٍ ، وإنى عارضُه عليـكم فاسْمَعوه ، ثم أخبرونى وأوْجزُوا ، ولا تَنازَعُوا فتفشلوا وتَذْهَبَ رِيحُـكم ، ولا تُـكْثِرُوا ولا تُطيلوا فيَلْتَـوِىَ عليـكم الرَّأْىُ ، أفمن الرأى أن أَسير فِيمَنْ قِبَلى ومَنْ قَدَرْتُ عليه حتى أنزل منزلا وسطا بين هـذين المِصْرَين ، فأستنفرهم ، ثم أكون لهم رِدْءًا حتى يفتح اللهُ عليهم ويقضى ما أحب ؟

فتـكلّم القوم ، وتشعّبت بينهم الآراء ، ثم قام طلحة بن عُبَيْد الله ، فتشهَّدَ ثم قال: أما بعدُ يا أميرَ المؤمنين فقد أحكمَتْكَ الأمور ، وعَجمَتْكَ البلايا، وأنت وشأنَك، وأنت ورأْيك ؛ لا نَنْبُو فى يديك ، ولا نَـكِلُ عليك . إليك هـذا الأمر ، فمُرْنا نُطِع ، وادْعُنا نُجِبْ ؛ فإنك وَلِىُّ هـذا الأمر ، وقد بلوتَ وجرّبتَ واختبرت ، فلم ينـكشفْ شىء من عواقب قضاء الله لك إلا عَنْ خيار . ثم جلس .

فعاد عمر فقال : إن هذا يومٌ له ما بعده من الأيام فتـكلّموا .

فقام عثمان بن عفان فتشهد وقال : أَرَى يا أميرَ المؤمنين ، أن تـكتبَ إلى أهـل الشام فيسيروا من شامهم ، وتـكتبَ إلى أهل اليمن فيسيروا من يَمَنِهم . ثم تسير

أنت بأهل هذين الحرَمين إلى المِصْرَيْن، فتلقى جمعَ المشركين بجَمْعِ المسلمين، فإنك إذا سرتَ بِمَنْ معك وعندك ، قلَّ فى نفسك ما قد تكاثَر من عَدد القوم ، وكنت أعزَّ عزًّا وأكثر . ياأمير المؤمنين ، إنك لاتستبقى من نَفْسِك بعد العرب باقية ، ولا تمتنع من الدنيا بعزيز ، إن هذا اليوم له ما بعده من الأيام ؛ فاشْهَدْه برأيك وأَعْوَانِك ، ولا تَغِبْ عنه . ثمَّ جلس .

فعاد عمر فقال : إن هذا يومٌ له ما بعده من الأيام . فتكلموا .

فقام علىٌّ بن أبى طالب فقال : أما بعد ياأميرَ المؤمنين ، فإنك إن أَشْخصْتَ أهلَ الشامِ من شأمهم سارت الروم إلى ذَراريّهم ، وإن أشخصت أهل اليمن من يمنهم سارت الحبشةُ إلى ذراريّهم ، وإنك إن شخصت من هذه الأرض انتقضَتْ عليك الأرضُ من أطرافها وأقطارها ، حتى يكونَ ماتدعُ وراءك أهمَّ مما بين يديك من العَوْرات والعيالات .

أَقْرِرْ هؤلاء فى أمصارهم ، واكتب إلى أهل البَصْرَة فليتفرّقوا فيها ثلاث فِرَق: فلتقم فرقةٌ لهم فى حَرَمِهم وذراريّهم، ولتَقُمْ فرقة فى أهل عَهْدهم لئلاينتقضوا عليهم ، ولتَسِرْ فرقةٌ إلى إخوانهم بالكوفةِ مددا لهم . إن الأعاجمَ إن ينظرُوا إليك قالوا : هذا أميرُ العرب وأصلُ العرب ، فيكون ذلك أشد لِكَلَبهم ، فيتألَّبُوا عليك .

وأمّا ما ذكَرْتَ من مَسِيرِ القوم ، فإن الله أكرهُ لمسيرهم منك ، وهو أقْدَرُ على تغييرِ ما يكره ، وأما ماذكرتَ من عددهم ، فإنا لم نقاتل فيما مضى بالكَثْرَةِ ، ولكنا كُنَّا نقاتل بالنصر ، فأَقِمْ مكانك .

فقال عمر : أَجَلْ والله ، لئن شخصتُ من البلدة لتنتقضَنَّ علىّ الأرض من

أطرافها وأكنافها ، ولئن نظرتْ إلىّ الأعاجم ليمدّنّهم مَنْ لم يمدّهم ، وليقولُنّ : هـذا أَصْلُ العرب ، فإذا اقتطعتموه اقتطعتم أصلَ العرب . فأشيروا علىّ برجل أُوَلّه ذلك الثّغرَ غدا .

قالوا : أنت أَفْضلُ رأيا، وأحسن مقدرة . قال: أشيروا علىّ به ، واجعلوه عِرَاقيًّا. قالوا : يا أميرَ المؤمنين ، أنتَ أعلمُ بأهلِ العراق ، وجُنْدُهُ قد وَفَدُوا عليك ، ورأيتَهم وكلّمتَهم . فقال : أما والله لَأُوَلّيَنّ أمْرَهُم رجلًا ، ليكونَنّ أولَ الأسنّة إذا لَقِيَها غدا ، فقيل : مَنْ ياأمير المؤمنين ؟ فقال : النعمان بن مُقَرّن . فقالوا : هُوَ لها !

فكتب عمر إلى النعمان ــ وكان على الخراج بكَسْكَر[1] :

بسم الله الرحمن الرحيم . من عبدالله عُمَرأمير المؤمنين إلى النعمان بن مُقَرّن : سلامٌ عليك ، فإنى أحمد إليك اللهَ الذى لا إله إلا هو ، أما بعد ، فإنه بلَغنى أن جموعاً من الأعاجم كثيرة قد جُمِعُوا لكم بمدينة نَهَاوَنْد ، فإذا أتاك كتابى هذا فسِرْ بأَمْر الله وبعَوْن الله ، وبنصر الله بمَنْ معك من المسلمين ، ولا تُوَطِّئَنَّهُم وَعْراً فتؤذيهم ، ولا تمنعْهم حقَّهم فتكفرهم ، ولا تدخلنّهم غَيْضَةً[2] ، فإنّ رجلا من المسلمين أحبُّ إلىّ من مائة ألف دينار ، والسلام عليك .

ثم كتب لأهلِ الكوفة أنْ يُوَافوا النعمان وعليهم حُذَيْفَةُ بن اليَمَان ، وكتب لأبى موسى أن يسير بأهل البصرة ، وأرسل إليه جموعاً من المدينة فيهم عَبْدُ الله ابنُ عمر .

---

(١) كسكر : كورة قصبتها واسط .

(٢) الغيضة : الأجمة أو مجتمع الشجر فى مغيض ما .

ثم كتب للنعمان : إنْ حَدَثَ بك حَدَث فعلى الناس حُذَيفة بن اليمان ؛ فإن حدث بحُذَيْفة حَدَث فعلى الناس نُعيم بن مُقَرِّن .

وبعث السائبَ بن الأقرع ـ وكان رجلاً كاتباً حاسباً ـ فقال له : الحَقْ بهذا الجيش فكُنْ فيهم ، فإنْ فتح اللهُ عليهم فاقْسِمْ على المسلمين فَيْئَهم ، وخُذْ خُمسَ اللهِ وخُمسَ رسولِه ، وإن أُصيبَ هذا الجيش فاذهب فى سَوادِ الأرض، فبطْنُ الأرض خيرٌ من ظَهْرِها .

وكتب إلى سَلْمَى بن القَيْن وحَرْمَلة بن رَيْطة، وأمراءِ الجند الذين كانوا بين فارس والأهواز : أن اشْغَلوا فارسَ عن إخوانكم ، وحُوطوا بذلك أمتّكم وأرْضكم ، وأقيموا على حدود ما بين فارس والأهواز حتى يأتيكم أمرى .

فقطعوا بذلك على أهل نَهاوند أمْدَاد فارس .

وجاء أهلُ الكوفة فوافوُا النعمانَ ومعهم كتابٌ من عمر وفيه : إن معك حدَّ العرب ورجالَهم فى الجاهلية ، فأدْخِلْهم دون مَنْ هو دونَهم فى العلم والحرب واستعِنْ بهم ، وسَلْ طُلَيحة بن خُوَيلد الأسدىّ وعمرو بن أبى سلمى العَنَزىّ وعمرو ابن معديكرب الزُّبيدىّ ، ولا تُوَلِّهمْ شيئاً .

واجتمعت جموعُ الفرس ، وأرسل بُندار ـ وكان من أعْلَاجهم ـ أن أرْسِلوا إلينا رجلاً نُكَلِّمُه ، فأرْسَلوا إليه المغيرة بن شعبة .

قال المغيرة فى خَبَرِه : لمّا دخلت على بُنْدار علمت أنه قد استشار أصحابه ، فقال : بأىّ شئ نأْذَنُ لهذا العربىّ ؟ بِشارَتِنا وبَهْجَتِنا ومُلْكِنا ، أم نتقشّف له فيما قِبَلنا حتى يزهَد ؟ قالوا : بل بأفْضَل ما تكونُ الشَّارَة والعُدَّة ؛ فتهيّئوا بها .

فلما أتيتُهم رأيتُ حُرّاسَه بحرابهم التى تلمع ، كأنّهم الشياطين ؛ وإذا هو على سرير من ذهب ، على رأسه التّاج .

قال : فمضيتُ كما أنا ، ونكّست ، ثم دُفِعت ونُهنِهْت . فقلت : الرسلُ لا يُفعَل بهم هذا ، فقالوا : إنما أنت كلبٌ ، فقلت : معاذَ الله ! لأَنا أشْرَفُ فى قومى من هذا فى قومه : فانتهرونى ، ثم قالوا : اجلس ، وأجلسونى . فقال لى ـ والترجمان بيننا ـ : إنكم معشر العرب أبْعَدُ النّاس من كلّ خير ، وأطول الناس جوعا ، وأشقى الناس شقاء ، وأقذَر الناس قَذراً ، وأبعدهم دارا ، وما منعنى أن آمرَ هؤلاء الأساوِرَة حولى أن ينتظموكم بالنُّشّاب إلا تنجُّسا لِجيَفِكم ، فإنكم أرْجاس ، فإن تذهبوا نخلّ عنكم ، وإن تأبَوْا نرِكُمْ مصارعَكم .

قال المغيرة : فحمدت الله وأثنيتُ عليه ، وقلتُ : والله ما أخطأْت من صِفَتِنا شيئًا ولا مِنْ نَعْتِنا ، إنا كُنا أبْعَدَ الناسِ داراً ، وأشدَّ الناس جُوعا ، وأَشْقَى الناس شقَاء ، وأبعد الناس من كل خير ، حتى بعثَ الله إلينا عزَّ وجل رسولَه صلى الله عليه وسلم ، فوعدنا النصر فى الدنيا ، والجنة فى الآخرة ؛ فوالله ما زِلْنَا نتعرفُ من ربِّنَا منذ جاءنا رسولُه الفتحَ والنصر حتى أتيناكم ، وإنّا والله لا نرجعُ إلى ذلك الشَّقَاء أبداً حتى نَغْلِبَكم على ما فى أيديكم ، أو نُقْتَل بأرضكم ، ثم قمت وقد أرْعَبْتُ العِلْج .

ثم أَمر النعمانُ بن مُقَرِّن بالتَّعبئة ، فسارت جيوشُ المسلمين حتى التقوْا بالفرس وَجْهاً لوجه .

فلما رآهم النعمانُ كبّر وكبّر الناسُ معه ، مما أوقع الرعبَ فى قلوب الأعاجم .

فأمرالنعمان بحطّ الأثقال وبضرب الفُسْطاطِ ، فضُرِبَ وهو واقف ، وتعاوَنَ على بنائه أشرافُ أهل الكوفة .

وأَنْشَب النعمان القتال بعد ما حطّ الأثقال ، فاقتتلوا يومين والحربُ بينهم فى ذلك

سِجَال . ثم انْجَحَر الأعاجمُ فى خنادقهم ، وحصَرهم المسلمون ، فأقاموا فيها ماشاء الله ؛ لا يخرجون إلا إذا أرادوا الخروج .

فاشتدّ ذلك على المسلمين ، وخافوا أن يطُول أمرُهم ، حتى إذا كان ذات يوم فى جُمعة من الجمَع تجمّع أهلُ الرأى من المسلمين ، فتكلّموا وقالوا : نَراهُمْ علينا بالخيار(١) .

وأتَوُا النعمانَ فى ذلك ، فوافَقُوه وهو يروِّى(٢) فى الذى روَّوا فيه ؛ فقال : على رِسْلكم لا تبْرحوا . وبعث إلى مَنْ بقى من أهل النّجدات والرَّأْيِ فى الحروب ، فتوافَوْا إليه .

فتكلم النعمان وقال : قد ترَوْن المشركين واعتصامهم بالحصون من الخنادق والمدائن ، وأنّهم لايخرجون إلا إذا شاءوا ، ولا يقدرُ المسلمون على إخْراجهم وانْبعاثهم قَبْل مشيئتهم ، وقد ترَوْن الذى فيه المسلمون من الضِّيق لذلك ، فما الرَّأْىُ الذى به نستخرجُهم إلى المنَابذة(٣) وترك التّطْويل؟

فتكلَّم عمرو بن ثُبَىّ ـ وكان أكبرَ الناس يومئذ سنّاً ، وكانوا إنما يتكلَّمون على الأسنان ـ فقال : التحصُّن عليهم أشدُّ من المطاولة عليكم، فدَعْهم ولا تُحْرِجْهُمْ، وطاوِلْهم ، وقاتِلْ مَنْ أتاك منهم . فردُّوا عليه جميعاً رأْيَه ، وقالوا : إنَّا على يقين من إنجازِ رَبِّنا موعدَه لنا .

وتكلم عَمْرو بن معدِيكرب فقال : ناهِدْهُمْ وكاثِرْهم ولا تَخَفْهُم . فردُّوا عليه جميعاً رأيه ، وقالوا : إنما تُناطح بنا الجُدْران ، والجدرانُ لَهُمْ أعوان علينا .

وتكلم طُلَيحة الأسدىّ ؛ فقال : قد قالا ولم يُصيبا ؛ وأما أنا فأرى أن

---

(١) كانوا معتصمين بالحصون من الخنادق والمدائن ويخرجون متى شاءوا .
(٢) يروى : يفكر (٣) المنابذة : المكاشفة .

تبعث خيـلًا مُؤْذِيَة ، فيحدِقوا بهم ويرموهم لِينْشِبوا القتـالَ ويحمّشوهم[١] ؛ فإذا اسْتَحْمَشوا واختلطوا بهم وأرادوا الخروج أَرَزُوا[٢] إلينـا استطراداً ؛ فإنا لم نستطرد لهم فى طول ماقاتلناهم . وإنا إذا فعلْنـا ذلك ، ورأوْا ذلك منا طمعوا فى هزيمتنا ، ولم يشـكّوا فيها ، فخرجوا فجادُّونا وجادَدْناهم ؛ حتى يَقْضِيَ الله فينا وفيهم ما أحبَّ ، فوافقوه على رَأْيِه .

***

وأمر النعمان القَعْقَاع بن عمرو ـ وكان على المجرَّدَة ـ فأَنْشَبَ القتال بعد احتجازٍ من العجم؛ فلمّا خرجوا نـكص ثم نـكص ثم نـكص؛ واغتنمها الأعاجم؛ ففعلوا كما ظَنَّ طُلَيْحَة ؛ وخرجوا، فلم يبق أحدٌ إلّا من يقوم لهم على الأبواب، وانقطعوا عن حِصْنِهم بعضَ الانقطاع ؛ والنعمان بن مقرّن والمسلمون على تعبيتهم فى يوم جمعـة فى صَدْر النهار ، وقد عهد النعمانُ إلى الناس عَهْدَه ، وأمرَهم أن يَلْزموا الأرض ولا يقاتلوهم حتى يَأْذَنَ لهُم ، ففعلوا. وأقبل المشركون عليهم يرْمُونَهم حتى أفشَوْا فيهم الجراحات، وشكا بعضُ الناسِ ذلك إلى بعض ، ثم قالوا للنعمان : ألا ترى ما نَحْنُ فيه ؟ ألا ترى إلى ما لَقِي الناسُ ؟ فما تَنْتَظِر بهم ! ائْذَن للناس فى قتالهم .

فقـال لهم النعمان : رُوَيْداً رويدا . وقالوا له ذلك مرارا ، فأجابهم بمثـل ذلك مرارا ؛ رُوَيْداً رويدا . فقال المغيرة حين رأى كَثْرَتهم : لم أر كاليوم فشلا ؛ لو أن هـذا الأمرَ إلىّ علمتُ ما أصنع ، فقال النعمان ـ وكان رجـلًا لينا : رويداً تَرَ أمرك ؛ وقد كنت تَلِى الأمر فتُحْسِن ؛ فلا يَخذلنـا الله ولا إياك ؛ ونحن نرجو فى المُـكْث مثل الذى ترجو فى الحَثّ .

---

(١) يحمشونهم: يغضبوهم ويدفعونهم إلى القتال . (٢) أرزوا إلينا : رجعوا لاجئين وتجمعوا.

وجعل النّعمانُ ينتظر بالقتال إكمال ساعات كانت أحبَّ إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم أَنْ يَلْقَى فيها العدوّ وذلك عند الزّوال وتفيّؤ الأَفْياء ومَهَبّ الرياح . فلما كان قريبا من تلك الساعة تَحَشْحَش[1] النّعمان . وسار فى الناس على بِرْذَوْنٍ أَحْوَى[2] قريب من الأرض ؛ فجعل يقف على كلّ رَايَةٍ ، ويحمد الله ويثنى عليه ، ويقول : قد علمتم ما أعزّكم اللهُ به من هـذا الدّين ، وما وَعدكم من الظّهور ، وقد أَنْجز لكم هَوَادِيَ ما وعدكم وصُدورَه ؛ وإنّما بقيتْ أعجازُه وأكارِعُه ؛ والله مُنْجزٌ وَعْدَه ، ومُتْبِعٌ آخر ذلك أوّلَه ، واذكروا ما مَضَى إذ كنتم أَذِلّةً ، وما استقبلكم من هذا الأمر وأنتم أَعِزّة ؛ فأنتم اليوم عِبادُ اللهِ حقًّا وأَوْلِياؤه ، وقد علمتُم انقطاعكم عن إخوانكم من أَهْل الكوفة ، والذى لهم فى ظفركم وعِزّكم ، والذى عليهم فى هزيمتكم وذُلّكم ، وقد تَرَوْنَ مَنْ أنتم بإزائه من عدوّكم ، وما أَخطَرتُم وما أَخطَرُوا لكم[3] ؛ فأمّا ما أَخْطَروا لكم فهذه الرِّثَّة[4] ، وما تَرَوْن من هذا السواد ، وأما ما أخطَرْتُم لهم فدِينُكم وبَيْضتكم ؛ ولا سواء ما أَخْطَرْتُم وما أخطروا ؛ فلا يكونُنَّ على دنياهم أَحْمَى منكم على دينكم ، واتّقى اللهَ عبدٌ صَدقَ اللهَ وأَبْلَى فأَحْسَنَ البلاء ، فإنكم بين خَيْرٍ منتَظرِين به إحدى الحسنيين ، من بين شهيد حيّ مرزوق أو فَتْح قريب وظَفَرٍ يسير ، فكفى كلّ رجل منكم ما يَليه، ولم يَكِلْ قِرْنَه إلى أخيه ، فيجتمع عليهِ قِرْنُه وقرنُ نفسه وذلك من المَلأَمَة ، وقد يقاتل الكَلْبُ عن صاحبه ، فكلٌّ رجل منكم مُسَلَّطٌ على ما يليه ، فإذا قضيتُ أمرى فاستعِدُّوا ، فإنى مُكَبِّرٌ ثلاثا ، فإذا كبَّرت التكبيرةَ الأولى فلْيتَهيّأْ مَنْ لم يكن تهيّأ ، فإذا كبَّرْتُ الثانية فليشدّ عليه سلاحه ، وليتأهبْ للنهوض ، فإذا كبّرتُ

---

(١) تحشحش : تحرك . (٢) أحوى : أسود ضارب إلى الخضرة ، أو أحمر ضارب إلى السواد
(٣) أخطروا المال : جعلوه خطرا بين المتراهنين .
(٤) الرثة : السقط من متاع البيت .

الثالثة فإنى حاملٌ إن شاء الله ، فاحملوا معاً ، اللهم أعِزّ دينك ، وانصُرْ عبادك ، واجعل النُّعمان أوّلَ شهيدٍ اليوم على إعزاز دينك و نَصْرِ عبادك !

فلما فرغ النُّعمان من التقدّم إلى أهل المواقف ، وقضى إليهم أمرَهم رجع إلى موقفه ، فكبّرَ الأولى والثانية والثالثة ، والناسُ سامعون مُطيعون مستعدون للمناهضة .

وحمل النعمان وحَمَل الناس ، ورايةُ النعمان تنقضُّ نحوهم انقضاضَ العُقاب ، والنعمان مُعْلِمٌ ببياض القباء والقلنسوة ، فاقتتلوا بالسيوف قتالاً شديداً ، لم يَسْمَع السامعون بوقعةٍ يوماً قطّ كانت أشدّ منها .

فقتلوا فيها من أهل فارس بين الزّوال والإعتام ، ما طبّق أَرْض المعركة دماً يَزْلَقُ الناسُ والدوابُّ فيه ، وأُصيب فُرْسَانٌ من فرسان المسلمين فى الزّلق فى الدماء ، فزَلِق فرسُ النُّعمان فصُرِعَ ، وأُصيبَ النعمان حين زلق به فرسُه وصُرِع ، وتناول راية نُعيم بن مُقَرِّن أخوه قبل أن تَقَع ، وسَجّى النعمانَ بثوبٍ ، وأتى حذيفة بالرّاية فدفعها إليه — وكان اللواءُ مع حُذيفة — فجعل حذيفة نُعَيم بن مُقَرِّن مكانه ، وأتى المكان الذى كان فيه النعمان فأقام اللِّوَاء ، وقال المغيرة : اكْتُمُوا مُصَابَ أميركم حتى ننظرَ ما يصنعُ الله فينا وفيهم ؛ لكيلا يَهِنِ الناس .

واقتتلوا ، حتى إذا ظلّهم الليلُ انكشف المشركون . ومات منهم مائةُ ألفٍ أو يزيدون ، ولم يُفْلِت إلا الشّريد ، ونجا الفيرزان وهرب نحو هَمَذان . ورآه نُعيم ابن مُقرِّن ، فدفع القعقاع فى أثره ، فأدركه حين انتهى إلى ثنيّة همذان ، والثنيّة مشحونة من بغال وحمير ، مُوقرة عسَلاً عاقته عن الهرب ، وحبسته ، فقُتِل على الثَّنيَّة بعد ما امتنع ، وقال المسلمون : إن لله جنوداً منها الْعسَل .

ومضى الفُلّال[1] حتى انتهوا إلى مدينة هَمَذان ، والخيلُ فى آثارهم ، فدخلوها فنزل المسلمون عليهم وحَوَوْا ما حَوْلها .

---

(١) الفلال : الجماعة المنهزمون .

ودخل المسلمون بعد هزيمة المشركين نَهاوَند ، واحتوَوْا ما فيها وما حولها ، وقسَّم حذيفة بن اليمان بَيْن الناس غنائمهم ، فكان سهم الفارس ستة آلاف ، والرَّاجل ألفين ، ونفَّلَ مَنْ شاء مِنْ أهل البلاء ، ورفع ما بقى من الأخماس إلى السَّائب صاحب الأقباض ، ليبلِّغها إلى عُمَر ، ويبشِّره بالفتح .

قال السَّائب : فلما فتح اللهُ على المسلمين نَهاوَنْد أصابوا غنائمَ عظاماً ، فوالله إنى لَأَقْسِمُ بين الناس إذ جاءنى عِلْج من أهلها ، فقال : أتؤمِّننى على نفسى وأهلى وأهل بيتى ، على أن أَدُلَّك على كنوز آل كسرى ، تكونُ لك ولصاحِبك ، لا يشرَكك فيها أحد ؟ قلت : نعم ، قال : فابْعَثْ معى من أَدُلُّه عليها . فأتى بسَفَطين[1] عظيمين ليس فيهما إلا اللؤلؤ والزبرجد والياقوت . فلما فَرَغْتُ من قَسْمى بين الناس احتملتهما معى ، ثم قدِمْتُ على عمر بن الخطاب . فقال : ما وراءك يا سَائِب ؟ فقلت : خير يا أمير المؤمنين ، فتح الله عليك بأعظم الفتح ، واستشهد النعمان بن مُقَرِّن ــ رحمه الله ــ فقال عمر : إنا لله وإنا إليه راجعون ! ثم بكى فنَشَج أشدَّ نشيج . ثم قام ليدخُلَ ، فَقُلْتُ : إنَّ معى مالاً عظيما قد جئتُ به . ثم أخبرتُه خَبَرَ السَّفَطين . فقال : أَدْخِلْهُما بيت المال حتى نَنْظُرَ فى شأنهما ، والْحَقْ بِجُنْدِك .

قال : فأدخلتهما بيتَ المال وخرجْتُ سريعاً إلى الكوفة .

قال السائب : وبات عُمَرُ تلك الليلةَ التى خرجتُ فيها ؛ فلما أصبح بعث فى أثَرِى رسولا ، فوالله ما أدركنى حتى دخلتُ الكوفة ، فأنختُ بعيرى وأناخ بعيرَه معِى . فقال : الْحَقْ بأميرِ المؤمنين ، فقد بعثنى فى طلبك ، فلم أَقدِر عليك إلا الآن .

(١) السفط : كالجوالق أو كالقفة .

قال السائب له : وَيْـلَك ! ماذا ؟ ولماذا ؟ قال : لا أَدْرِى والله . فركبْتُ معه حتى قدمت عليه . فلما رآنى قال : ما لى ولابن أمِّ السائل ! بل ما لابْنِ أُمِّ السائب وما لى !

قلت : وما ذاك يا أميرَ المؤمنين ؟

قال : ويحَكَ ! والله ما هو إلا أن نِمْتُ فى اللَّيْـلة التى خرجتَ فيها ، فباتت ملائـكةُ ربى تَسْحَبنى إلى ذينك السَّفَطَين يَشْتَعِلان ناراً ، يقولون : لنـكوينّك بهما ؛ فأقول : إنى سأقسمهما بين المسلمين . فخُذْهما عنِّى لا أَبَا لَكَ ! والحق بهما ، فبعهما فى أَعطية المسلمين وأرزاقهم .

قال السائب : فخرجتُ بهما حتى وضَعْتُهُما فى مسجد الـكوفة ، وغشيَنى التجّار ، فابتاعهما منى عَمْرو بن حُريث المخزومىّ بأَلْفَى ألف ، ثم خرج بهما إلى أرض الأعاجم ، فباعهما بأربعة آلاف ألف ، فما زال أكثرَ أَهْل الـكوفة مالاً بعد .

---

٥١ — يوم الجمل*

لما قُتِل عثمان(١) ، رضى الله عنه اجتمع أَصحابُ رسول الله صلى الله عليه وسلم من المهاجرين والأنصار ، وفيهم طَلْحة(٢) والزُّبَيْر(٣) ، وأَتَوْا عليًّا ، وقالوا له : إنّه لابدّ للناس من إمامٍ ، فقال : لا حاجةَ لى فى أَمركم ، فمن اخْتَرْتُم رضِيتُ به . فقالوا: ما نختارُ غيركَ ، وتردَّدُوا إليه مراراً، وقالوا له فى آخر الأمر: إنا لانعلمُ أحداً أحقَّ به منك ، ولا أقدمَ سابقة ، ولا أقربَ قَرَابةً من رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ فقال : لا تفعلوا ، فإنى أَكونُ وزيراً خيرٌ من أن أكون أميراً . فقالوا : والله ما نَحْنُ بفاعلين حتى نُبايعك ، قال : ففى المسجد ، فإن بَيْعَتى لا تكون خفيَةً ، ولا تكونُ إلّا فى المسجد .

فخرج إلى المسجد ، وعليه إزارٌ وعمامةُ خَزٍّ ، متوكئاً على قَوْس، فبايعه الناس،

---

* تاريخ الطبرى ٥ : ١٥٢ ، تاريخ ابن الأثير ٣ : ٩٤ ، تاريخ ابن كثير ٧ : ٢٢٥ . كان فى سنة ٣٦ .

(١) قتل عثمان لثمانى عشرة ليلة خلت من ذى الحجة سنة ٣٥ .

(٢) هو طلحة بن عبيد الله القرشى التيمى ، المعروف بطلحة الفياض . أسلم على يدى أبى بكر الصديق ، ثم هاجر إلى المدينة ، وآخى رسول الله صلى الله عليه وسلم بينه وبين أبى أيوب الأنصارى ، وشهد المشاهد كلها مع رسول الله إلا بدرا ، فإنه كان بالشام لتجارة ، وكانت له فى أحد اليد البيضاء ، وشلت يده بها حينما وقى بها رسول الله ، فلما كانت قضية عثمان اعتزل عنه ، وقتل يوم الجمل وعمره ستون عاما : ابن كثير ٧ : ٢٤٧ .

(٣) هو الزبير بن العوام بن خويلد الأسدى ، أسلم وعمره خمس عشرة سنة ، وهاجر إلى الحبشة ثم إلى المدينة ، وآخى رسول الله بينه وبين سلمة بن سلامة ، وشهد المشاهد كلها مع رسول الله ، وصحب أبا بكر فى خلافته وأحسن صحبته ، وخرج مع الناس مجاهدا وشهد اليرموك وله فى ذلك اليوم بلاء مشهور ، ودافع عن عثمان فى حصاره ، وفى يوم الجمل ذكره على بأمر كان بينهما عند الرسول ، فاعتزل القتال ، وكر راجعا إلى المدينة فقتله عمرو بن جرموز ، ولما سمع على بذلك حزن عليه ، ابن كثير ٧ : ٢٤٨ .

وكان أوّل مَنْ بايعه طَلْحَةُ بن عُبَيد الله ، فنظر إليه حبيب بن ذُؤَيب ، فقال : إنا لله ! أوّل من بدأ بالبَيْعَة يدُه شلّاء ! لا يتمّ هــذا الأمر . وبايعه الزبير . فقال لهما علىّ : إن أحبَبْتُما أنْ تبايعانى ، وإن أحببتما بايعتــكما ، فقالا : بل نُبايعك .

وجىء بسَعْدِ بن أبى وقاص ليبايـع ، فقال : لا أبايعُ حتى يبايعَ النــاس ، والله ما عليك مِنّى بأس ، فقال علىّ : خَلُّوا سبيلَه .

وجىء بعَبْدِ الله بن عمر ليبايع فقال : لا أبايعُ حتى يبايعَ الناس ، قال له علىّ : ائْتِنِى بحَميل(١) ، قال : لا أَرى لك حَميلا ، قال الأَشْتَر : خلّ عَنّى أَضْرِب عنقه ، قال علىّ : دَعُوه ؛ أنَا حَميلُه ، إنك ما علمتُ لَسَيِّئُ الخُلق صغيراً وكبيراً . وتخلّف عنه جماعةٌ من الأنصار ، وهرب قومٌ من أهل المدينة إلى الشام .

ولما تمّت البيعة ، ورجع إلى بيته، دخل عليه طَلْحة والزُّبَيْر فى عدد من الصحابة فقالوا : يا علىّ ، إنا قد اشترطنا إقامةَ الحدود ، وإنّ هؤلاءِ القومَ قد اشتركوا فى قَتْلِ هذا الرجل ، فقال لهم : إنى لستُ أَجْهَلُ ما تعلمون ، ولــكنى كيف أَصنع بقوم يملِــكوننا ولا نملِــكهم ! ها هم أُولاء قد ثارت معهم عُبْدانــكم ، وثابَتْ إليهم أَعرابــكم ، وهم خِلالــكم يَسُومونــكم ما شاءوا ، فهل ترَوْن موضعا لقدرة على شىء ممّا تريدون ؟ قالوا : لا ، قال : فلا والله ، لا أَرى لــكُمْ إلا رأياً ترَوْنه إنْ شاء الله ، إنّ هذا الأمرَ أمرُ جاهلية ، وإنّ لهؤلاء القومِ مادّة ، وذلك أنّ الشيطان لم يشرعْ شريعةً قطّ فيبرح الأرض مَنْ أَخذ بها .

---

(١) الحميل : الــكفيل .

. إنّ الناس من هـذا الأمرِ ـ إن حُرِّك ـ على أمور : فرقة لا ترى ما ترَوْن ، وفرقة ترَى ما لا ترَوْن ، وفرقـةٌ لا ترى هذا ولا هـذا حتى يهدأ الناس ، وتقع القلوبُ مواقعَها ، وتُؤْخذ الحقوق ، فاهدءوا عنّى ، وانظروا ماذا يأتيكم ، ثم عُودُوا .

ثم اشتّد على قُرَيش ، وحال بينهم وبين الخروج ، وبخاصة حينما علم بهرب بنى أُمَيّة . وتفرّق القوم ، بعضهم يقول : واللهِ لَئِن ازداد الأمر لا قَدَرنا على انتصارٍ من هؤلاء الأشرار ، لَتَرْكُ هذا إلى ما قال علىّ أَمْثل ، وبعضهم يقول : نقضى الذى علينا ولا نؤخّره ، واللهِ إن عليّاً لمستغْنٍ برأيه ، وأمرُه عناد ، لا نراه إلا سيكون على قريش أشدَّ من غيره .

ثم رأى علىّ أن يكونَ أول أعماله عزلُ جميع وُلَاةِ عثمان قبل أن تصل إليه بَيْعَةُ أهل الأمْصار ، وقد حذّره عاقبةَ ذلك المغيرةُ بن شعبة أولا وابن عباس ثانياً ، فأبى ذلك إباءً تامّا .

قال ابن عباس: دعانى عثمان فاستعملنى على الحجّ ، فخرجتُ إلى مكة ، فأقمت للناس الحجَّ ، وقرأت عليهم كتابَ عثمان إليهم ، ثم قدمتُ المدينة ، وقد بُويع لعلىّ ، فأتيته فى داره ، فوجدت المغيرةَ بن شعبة مستخلياً به ، فحبَسنى حتى خرج مِنْ عنده ، فقلت : ماذا قال لك هذا ؟ فقال : قال لى قَبْلَ مَرَّتِه هذه : أَرْسِلْ إلى عبد الله بن عامر[1] وإلى معاوية وإلى عمـال عثمان بعهودهم ، وأَقِرَّهم على أعمالهم ليُبايِعوا لك الناس ، فإنهم يُهدِّئون البلاد ، ويُسَكِّنون النـاس . فأبيتُ ذلك عليه يومئذ ، وقلت : لا ولِّيتُ هؤلاء ، ولا مثلُهم يُوَلَّى . فانصرف من عندى وأنا أعرِفُ

(١) كان عبد الله بن عامر والى عثمان بن بن عفان على البصرة .

فيه أنه يرى أنى مخطئ ، ثم عاد إلىّ الآن . فقال : إنى أشرت عليك أوّل مرة بالذى أشرتُ عليك ، وخالفْتَنى فيه ، ثم رأيتُ بعد ذلك رأياً ، وأنا أرى أن تَصْنعَ الذى رأيت ، فتنزعَهم وتستعينَ بمن تَثِقُ به ، فهم أهونُ شوكةً مما كان .

قال ابنُ عباس : فقلت لعلىّ : أما المرةُ الأولى فقد نَصحك ، وأما المرة الآخرة فقد غشّك ، فقال علىّ : ولِمَ نصحنى ؟ قلت: لأنك تعلم أن معاويةَ وأصحابَه أهلُ دنيا فمتى تُثَبِّتْهم لا يبالوا بمن وَلِى هذا الأمر ، ومتى تعزْلهم يقولوا : أَخذ الأمر بغير شُورَى ، ويؤلِّبون عليك فينتقض عليك أهلُ الشام وأهلُ العراق ، مع أنى لا آمَنُ طَلحة والزبير أن يَكُرّا عليك .

فقال علىّ : أمّا ما ذكرتَ من إقرارهم ، فوالله ما أشكّ أنّ ذلك خيرٌ فى عاجل الدّنيا لإصلاحها ، وأمّا الذى يلزَمُنى من الحقّ والمعرفة بعمّال عثمان فوالله لا أُوَلِّى أحدا منهم أبداً ، فإن أقْبلُوا فذلك خيرٌ لهم ، وإن أَدْبَروا بَذَلْت لهم السيف .

قال ابنُ عباس : فأطِعْنى وادخُلْ دارك ، والحق بمالك بينْبُع ، وأغلق بابك عليك ، فإن العرب تجول جولةً وتضطرب ولا تجدُ غيرك ، فإنك والله لئن نهضتَ مع هؤلاء اليوم ليُحَمِّلنَّك الناسُ دَمَ عثمان غدا .

فأبى علىٌّ ، وقال لابن عباس : سِرْ إلى الشام فقد ولَّيتُكَها . فقال ابن عباس : ما هذا برَأْى ؛ معاويةُ رجلٌ من بنى أميّة ، وهو ابن عمّ عثمان وعاملُه على الشام ، ولستُ آمناً أن يَضرب عنق لعثمان ، أو يحبسنى فيتحكّم علىّ . فقال له علىٌّ : ولِمَ ؟ قال : لِقرابة ما بينى وبينك ، وإنّ كلّ ما حُمِل عليك حُمِل علىّ ، ولكن اكتب إلى معاوية فمنّه وعِدْه ، فأبى علىّ، وقال : والله لا كان هذا أبدا .

***

ثم فرّق العمّالَ على الأمصـــار ، فبعث عثمان بن حُنَيف على البصرة ، وعُمارة ابن شهاب على الـكوفة ، وعُبيـــد الله بن عباس على اليمن ، وقيس بن سَعْد على مصر ، وسهل بن حُنَيْف على الشام .

فأما سهل فإنه خرج حتى إذا كان بتَبُوك لقيَتْه خيـــل ، فسألوه : من أنت ؟ فقال : أميرٌ على الشام . قالوا : إن كان عثمانُ بعثك فأهْلًا بك ، وإن كان غـيرُه بعثك فارجع . قال : أوَما سَمِعتم بالذى كان ؟ قالوا : بلَى ، فرجع إلى علىّ .

وأما قَيْسُ بن سَعْد فإنه سار حتى أتى مصر ، فافترق عليـــه أهلُها فرقاً ، فرقة دخلت فى الجماعة وكانوا معه ، وفرقة وَقَفَتْ واعتزلتْ وقالوا : إن قتَل قتلةَ عثمان فنحن معكم ، وإلّا فنحن على جَدِيلتنا[1] ، حتى نُحرّكَ أو نصيب حاجَتَنَا ، وفرقة قالوا : نحن مع علىّ ، وكتب قيس بذلك إلى علىّ .

وأما عثمان بن حُنيف فإنه سار حتى أتى البصرة ، ولم يردّه أحدٌ عن دخولها ، ولم يجد لابن عامر[2] فى ذلك رأياً ولا استقلالا بحَرب ، وافترق الناس بها ، فاتَّبَعَتْ فرقة القوم ، ودخلت فرقة فى الجماعة ، وقالت فرقة : ننظر مايَصْنَع أهلُ المدينـــة ، فنصنع كما صنعوا .

وأما عُمارة فأقبل حتى إذا كان بزُبالة[3] لقيـــه طُليحة بن خُويلد الأسدىّ ، وكان حين بلغهم خبر عثمان خرج يَدْعو إلى الطّاب بدمه ، ويقول : لَهفى على أمرٍ سبَقنى ولم أدركه :

ياليتَنِى فيها جَــذَعْ أكُرُّ فيهــا وأضَعْ

---

(١) الجديلة : الشاكلة والناحية . (٢) كان والى عثمان عليها ، وهو عبد الله بن عامر .
(٣) زبالة : منزل بطريق مكة من الـكوفة ، وهى قرية عامرة بها أسواق (ياقوت) .

فطلع إليـه عُمارة قادِماً على الكوفة ، فقـال له : ارجع ، فإن القوم لايريدون بأمـيرهم بَدَلًا ، وإن أَبَيْتَ ضَرَبْتُ عنقك ، فرجع عُمـارة إلى علىّ وأخبره الخبر .

وانطلق عُبيد الله بن عباس إلى اليمن، فجمع يَعْلَى (١) كل شىء من الجباية وتركه وخرج بذلك وهو سائر على حاميته إلى مكة فقدمها بالمال .

* * *

ولمـا رجع سَهْل بن حُنيف من طريق الشام ، ورجع مَنْ رجع، دعا علىّ طلحة والزبير ، فقال : إن الذى كنت أحذّركم قد وقع ، وإن الأمرَ الذى قد وقع لايُدْرَك إلّا بإماتته ، وإنها فتنة كالنار ، كلّما سُعّرت ازدادت واستنارتْ ، فقالا له : فأْذنْ لنـا أن نخرج من المدينة ، فإما أن نـكابر ، وإما أن تَدَعنا ، فقال : سأُمْسِك الأمر ما استمسك، فإذا لم أجد بُدًّا فآخِرُ الدواء الـكىّ .

ثم أرسل إلى معاوية سَبْرة الجهنىّ يطلبُ إليه أن يُبايِع ، فلمـا قدم عليـه لم يكتب معاوية بشىء ولم يُجبه ، حتى إذا كان الشهر الثالث من مقتل عثمان ، أراد معاويةُ أن يعلنَ خلافتَه ، فدعا برجل من بنى عَبْس ، فدفع إليه طوماراً (٢) مختوماً عنوانه : « من معاوية إلى علىّ » .

وقال له : إذا دخلت المدينـة فاقبض على أسفل الطُّومَار ، وارفعـه حتى يراه الناس .

---

(١) هو يعلى بن أمية والى عثمان على اليمن .

(٢) الطومار : الصحيفة .

فلما قدم العبسيّ المدينة رفع الطُّومَارَ كما أَمَرَه مُعَاوِيةُ ، وخرج الناس ينظرون ، فتفرّقوا إلى منازلهم ، وقد علموا أنَّ معاوية مُعترض ، ثم مضى الرسول حتى دخل إلى عليّ ، فسلَّمه الطومار ففَضَّه ، فلم يجد فيه شيئاً ، ثم سأل الرسول : ما وَرَاءك ؟ قال : إنى تركتُ قوماً لا يَرْضَوْن إلّا بالقَوَد ، قال : مِمَّن ؟قال : مِنْ خَيْطِ نفسك، وتركتُ ستّين ألف شيخٍ يبكون تحت قميص عثمان ، وهو منصوب لهم ، قد ألبسوه مِنْبر دمشق . فقال عليّ : مِنّى يطالبون دَمَ عثمان ! ألستُ مَوْتُوراً كتِرَةِ عثمان ! اللهم إنى أَبْرَأُ إليك من دم عثمان ، نجـا والله قَتَلة عثمان إلا أن يشاء الله ، فإنه إذا أراد أمراً كان .

وأحبَّ أهلُ المدينة أن يَعلموا ما رَأْيُ عليّ فى معـاوية وانتقاضه ، ليعرفوا بذلك رأيه فى قتال أهل القِبْلة ؛ أيجسُر عليه أو ينـكُل عنه ـ وقد بلغهم أن الحسَنَ بن عليّ دخل عليه ودعاه إلى القعود وتَرْكِ الناس ـ فدسّوا إليه زياد بن حنظلة التميميّ ، فجلس إليه ساعةً ثم قال له عليّ : يا زياد ، تيَسَّر[1] ، فقال : لأيّ شيء؟ قال : تغزو الشام ، فقال زياد : الأَنَاةُ والرِّفْقُ أَمْثَل .

ومَنْ لم يصانعْ فى أمورٍ كثيرةٍ ... يُضَرَّسْ بأنْيابٍ ويُوطَأْ بمَنسِمِ

فتمثل عليّ :

مَتَى تجمعِ القلْبَ الذكىّ وصارماً ... وأَنْفاً حَمِيًّا تجتنبْـك المظالمُ

فخرج زياد على الناس ، فسألوه عمّا وراءه ، فقال : السيف ؛ ثم دعا عليّ ابنه محمداً فأعطاه لِوَاءه ، وعَبَّأَ جُنْدَه ، واستخلف على المدينة قُثَم بن العبـاس ، وأقبل على التهيؤ والتجهز ، وفيما هو فى ذلك فَجَأَهُ أمر عائشة وطلحة والزُّبَيْر .

***

(١) تيسر ، أى أعد نفسك .

كانت عائشةُ قد خرجت من المدينة وعثمان محصورٌ بها ، وقصدت إلى مكة للحجّ ، ولما عزمت على العودة إلى المدينة لقيها بِسَرِف(١) عبْد بن أم كلاب ، فقالت له : مَهيْم! قال : قتلوا عثمان ، ومكثوا ثمانيا ، قالت : ثم صنعوا ماذا ؟ قال : أخذَها أهل المدينة بالاجتماع ، فجازتْ بهم الأمورُ إلى خير مَجاز ، واجتمعوا على علىّ أبى طالب ، فقالت : ليتَ أن هذه انطبقت على هذه إن تمّ الأمرُ لصاحبك . رُدُّونى إلى مكة . وانصرفتْ وهى تقول : قُتل والله عثمان مظلوماً ، والله لأطلبنّ بدمه ، فقال لها ابنُ أم كلاب : ولِمَ ؟ فوالله إن أوّلَ مَنْ أمال حَرْفَهُ لأَنت ، ولقد كنتِ تقولين : اقتلوا نَعْثَلاً(٢) ، قد كفر ! قالت : إنهم استتَابوه ثم قتلوه ، وقد قلتُ وقالوا ، وقَوْلى الأخير خير من قولى الأول ، فقال لها ابن أم كلاب :

مِنْكِ البَدَاء ومنكِ الغِيَرْ ... ومِنْكِ الرِّياحُ ومِنْكِ المَطَرْ
وأنتِ أَمرتِ بقتلِ الإمامِ ... وقلتِ لنا إنه قد كفرْ
فَهِبْنَا أَطَعْناكِ فى قَتْلِهِ ... وقاتِلُهُ عندَنَا مَنْ أَمَرْ
ولم يَسْقُط السقفُ من فوقنا ... ولم ينكسفْ شَمْسُنَا والقَمَرْ
وقد بايع الناسُ ذا تُدْرَإِ(٣) ... يزيل الشَّبا ويُقِيم الصَّعَرْ
ويَلْبَسُ للحرب أثوابَها ... وما مَنْ وَفَى مِثْلُ مَنْ قد غَدَرْ

ثم انصرفتْ إلى مكة ، وهى لا تقولُ شيئاً ، حتى نزلتْ على بابِ المسجد ، فقصدت للحِجْر ، وسُتِرت فيه ، واجتمع الناس حولها ، فقالت : أيها الناس ، إن

---

(١) سرف : موضع من مكة على عشرة أميال .

(٢) نعثل : رجل من أهل مصر طويل اللحية ؛ قيل إنه كان يشبه عثمان ، وكان عثمان إذا نيل منه وعيب عليه شبه بهذا الرجل لطول لحيته ، ولم يكونوا يجدون فيه عيبا غير هذا ــ اللسان ٤ : ١٩٣ .

(٣) يقال : رجل ذو تدرأ وتدرأة ، أى مدافع ذو عز ومنعة .

الغَوْغَاءَ من أهل الأَمصار وأهل المياه وعَبِيد أهل المدينـة اجتمعوا على هـذا الرجل المقتول ظُلْماً بالأمس ، ونَقِمُوا عليه استعمالَ مَنْ حَدثت سنُّه ، وقد استُعمل أمثالُهم من قبله ، ومواضعَ من الْحِمَى حَمَاها لهم فتابعهم ونَزَع لهم عنها . فلما لم يجدوا حُجَّةً ولا عذراً بَادَرُوا بالعدوان ، فسفـكوا الدم الحرام ، واستحلّوا البلد الحرام والشهرَ الحرام ، وأخذوا المال الحرام ، والله لَإِصبعٌ من عثمانَ خَـيْرٌ من طِبَاقِ[1] الأرض أمثالهم ، ووالله لو أن الذى اعتَدَوْا به عليه كان ذنباً لخلَص منه كما يخلص الذهب من خَبَثِه أو الثوب من دَرَنه ، إذ مَاصُوه[2] كما يُمَاصُ الثوب بالماء .

فقال عبد الله بن عامر الحضرمىّ ـ وكان عامل عثمان على مكة ـ أنا أوّلُ طالب ، فـكان أوّل مجيب ؛ وتبعه بنو أُمية ، ممن هرب من المدينة إلى مكة بعد قتل عثمان ، ثم تبعهم سَعِيد بن العاص والوليد بن عُقْبـة وسائر بنى أمية ، وقدم عليهم عبد الله ابن عامر من البصرة بمالٍ كثير ، ويَعْلَى بن أمية من اليمن ، ومعه سِتَّمائة بعير وستمائة ألف درهم ، وأناخ بالأَبْطَح[3] .

* * *

وقدم طلحة والزُّبَيْر من المدينـــة ، فلقيا عائشة ، فقالت : ما وراءكما ؟ فقالا : إننا تَحَمَّلْنَا[4] هُرّاباً من المدينـة ، من غَوْغاء وأعراب ، وفارقنا قوماً حَيَارَى ، لايعرفون حقًّا ، ولا يُنـكرون باطلا ، ولا يمنعون أنفسهم ، فقالت : انهضوا إلى هذه الغَوْغاء .

ثم أخـــذوا يتداولون ويتشاورون أين يذهبون . قال بعضهم : نَذْهبُ إلى الشام ، فقال ابن عامر : قد كفا كم الشامَ معاوية ، ائتوا البَصْرَة ، فإن لى بهـا

---

(١) طباق : ملء .

(٢) الموص : الغسل بالأصابع ، أرادت أنهم استتابوه عما نقموا منه فلما أعطاهم ماطلبوا قتلوه (النهاية) .

(٣) الأبطح : مكان فى مكة . (٤) تحملنا : رحلنا .

صَنَائع ، ولهم فى طَلْحَــة هَوًى ، فقالوا : قَبّحك الله ! فوالله ما كنتَ بالمُسالم ولا بالمُحَارب ، فهـلّا أَقَمْتَ كما أقام معاوية فنُـكْفَى بك ، ثم نأتى الـكُوفَة ، فنَسُدَّ على هؤلاء القوم المذاهبَ ! فلم يجدوا عنــده جواباً ، ثم استقام الرأىُ على البَصْرَة .

وكانت عائشةُ تَنوِى الذهاب إلى المدينــة ، وكان معها أَزْوَاجُ رسول الله صلى الله عليه وسلم على هذا القَصْد ، فقالوا لها : يا أُمَّ المؤمنين ، دَعِى المدينة ، فإن مَنْ معنا لا يُقْرَنُون لتلك الغوغاء التى بها ، واشْخَصِى معنا إلى البصرة ، فإنا نأتى بلداً مُضَيَّعاً ، وسيحتجُّون علينا فيه ببَيْعة علىّ بن أبى طالب ، فتُنهضينهم كما أَنْهَضْتِ أهل مـكة ، ثم تقعدين ، فإن أصلح الله الأمرَ كان الذى تُريدين ، وإلا احتسبنا ودَفَعْنا عن هذا الأمر بجهدنا حتى يَقْضى الله ما أَراد ، فلما قالوا لها ذلك ووجدت أن الأمر لا يكون مستقيما إلا بها قالت : نعم .

ولمّا رأى أَزْوَاجُ الرسول ذلك تَركْنَ عائشة ، إلّا حفصة بنت عمر فإنها رأت السيرَ معها .

ولما علم عبدُ الله بن عمر بذلك طلب إلى حَفْصَةَ أن تَقْعُد فقعدت ، وبعثت إلى عائشة أن عبدَ الله بن عمر حال بينى وبين الخروج ، ودعوا عبـد الله بن عمر ليسير معها ، فأبى وقال : أنا من أهل المدينة ، أَفْعَـل ما يفعلون .

فقالت : يغفر الله لعبد الله .

وبَعثت أمّ الفضل بنت الحارث رجلا من جُهَينة يدعى ظَفَرا ، واستأجرته على أن يَأْتِى عليًّا بكتابها ، ويخبره بأَمْرِ القوم .

ولما التأم جمعُ القوم ولم يَبْقَ إلا الخروج قالوا : كيف نستقلّ وليس معنا مال

نُجَهِّزُ به الناس ، فقال يَعْلَى بن أمية : معى ستمائة ألف وستمائة ناقة فاركبوها ، وجهّزهم ابن عامر بمالٍ كثير ، ثم نادى المنادى : إن أُمَّ المؤمنين وطلحة والزبير شاخصون إلى البَصْرَة ، فمن كان يريد إعزازَ الإسلام ، والطّلَب بِثأْرِ عثمان ، ولم يكن عنده مَرْكب ، ولم يكن له جهاز فهذا جهاز ، وهذه نَفَقَة .

فحمّلوا ستمائة رَجل على ستمائة ناقة سوى مَنْ كان له مركب ، وكانوا جميعاً ألفا ، ثم نادوا بالرحيل ، ولحقهم الناس فكانوا فى ثلاثة آلاف رجل .

ولما خَرَجت عائشة من مكة أذّنَ مَرْوان حين فَصَل منها ، ثم جاء إلى طلحة والزبير فقال : علَى أيّكما أسلِّم بالإمْرة ، وأُؤَذن بالصلاة ؟ فقال عبد الله بن الزبير : عَلَى أَبى عبد الله — يَعْنى الزبير ، وقال محمد بن طلحة : على أبى محمد[1] — يعنى طلحة . فأرسلت عائشة إلى مَرْوان وقالت: مالك ؟ أتريد أن تُفَرِّق أمرنا ! لِيصلّ ابنُ أختى ، فكان يصلّى بهم عبدُ الله بن الزبير ، حتى قدم البصرة .

ثم شيّع عائشة أمّهات المؤمنين إلى ذات عِرْق[2] ، فبكَوْا على الإسلام ، فلم يُرَ يوم كان أكثر باكياً وباكية من ذلك اليوم ، وكان يسمى يومَ النَّحِيب .

وفى ذات عِرْق لقى سَعِيد بن العاص مَرْوان بن الحكم وأصحابه بها فقال : أين تذهبون وتتركون ثأْرَكم على أَعْجَازِ الإبل وراءكم — يعنى عائشة وطلحة والزُّبَيْر — اقتلوهم ، ثم ارجعوا إلى منازلكم ، فقالوا : نَسير ، فلعلّنا نَقْتُل قَتَلَةَ عُثْمانَ جميعاً .

ثم خلا سعيدٌ بطَلْحَة والزبير ، فقال : إن ظَفِرتما لمَنْ تجعلان الأمر ؟

---

(١) روى عن معاذ بن عبيد أنه كان يقول : والله لوظفرنا لاقتتلنا ، ما كان الزبير يترك طلحة والأمر ، ولا كان طلحة يترك الزبير والأمر .

(٢) ذات عرق : مكان بالبادية ميقات العراقيين .

اصْدُقَانِي . قالا : نجعله لأحدنا ، أيّنا اختاره الناسُ . قال : بل تجعلانه لولد عثمان ؛ فإنكم خرجتم تطلبونَ بدمه ، فقالا : نَدَع شيوخَ المهاجرين ، ونجعلها لأبنائهم الأيتام ! قال : فلا أراني أسْعى إلّا لإخراجها من بني عبد مناف . ثم رجع ، ورجع معه عبدُ الله بن خالد بن أسيد ، فقال المغيرة بن شعبة : الرَّأْي ما رَأَى سَعِيد ؛ مَنْ كان هنا من ثقيف فليرجع ، فرجع مَنْ كان معهم من ثقيف .

وأعطى يعلَى بن منية عائشة جملا اسمه عسكر ، كان اشتراه بثمانين ديناراً(١) ، فركبته ، وارتحلوا جميعاً نحو البصرة ، فلما كانوا بفنائها لقيهم عُمير بن عبدالله التميمىّ ، وقال : يا أُمَّ المؤمنين ؛ أنشدكِ اللهَ أن تقدمي اليومَ على قوم لن تراسلي منهم أحداً ، فمجّلى ابنَ عامر ، فإنّ له بها صَنَائِعَ ، فلْيذهبْ إليهم ليَلقوا الناس إلى أن تقدمى ، ويسمعوا ما جئْتم به ، فأرسلته ، فاندسَّ إلى البصرة ، وأتى القوم ، وكتبت عائشة إلى رجال من أهل البصرة وإلى الأحنف بن قيس وإلى غيره من وجوه القوم ، وأقامت بالحفير(٢) تَنْتَظِرُ الجوابَ .

---

(١) روى الطبرى حديثا آخر فى أمر الجمل : « عن صفوان بن قبيصة الأحمسى قال : حدثنى العرنى صاحب الجمل قال : بينما أنا أسير على جمل إذ عرض لى راكب ، فقال : يا صاحب الجمل ؛ تبيع جملك ؟ قلت : نعم ، قال : بكم ؟ قلت : بألف درهم ، قال : مجنون أنت ! جمل يباع بألف درهم! قال : قلت: نعم ، جملى هذا ! قال : ومم ذلك ؟ قلت : ماطلبت عليه أحداً قط إلا أدركته ، ولاطلبنى وأنا عليه أحد قط إلا فته ، قال : لو تعلم لمن نريده لأحسنت بيعنا ، قال : قلت : ولمن تريده ، قال : لأمك ، قلت : لقد تركت أمى فى بيتها قاعدة ماتريد براحا ، قال : إنما أريده لأم المؤمنين عائشة ، قلت : فهو لك ، فخذه بغير ثمن ، قال : لا ولكن ارجع معنا إلى الرحل فلنعطك ناقة مهرية ، ونزيدك دراهم ، قال : فرجعت ، فأعطانى ناقة لها مهرية ، وزادونى أربعمائة أو ستمائة درهم ، ثم قال لى : ياأخا عرينة ، هل لك دلالة بالطريق ؟ قلت : نعم ، أنا من أدل الناس ، قال : فسر معنا . فسرت معهم ، فلا أمر على واد ولاماء إلا سألونى عنه ؛ حتى طرقنا ماء الحوأب ، فنبحتنا كلابها ، قالوا : أى ماء هذا ؟ قلت : ماء الحوأب ، قال : فصرخت عائشة بأعلى صوتها ، ثم ضربت عضد بعيرها فأناخته ، ثم قالت : أنا والله صاحبة كلاب الحوأب طروقا ردونى ، تقول ذلك ثلاثا ، فأناخت وأناخوا حولها ، وهم على ذلك ، وهى تأبى ، حتى كانت الساعة التى أناخوا فيها من الغد ، جاءها ابن الزبير ، النجاء النجاء ! فقد أدرككم والله على بن أبى طالب » .

(٢) الحفير : موضع بين مكة والبصرة .

ولما بلغ ذلك أهلَ البصرة دعا عثمان بن حُنيف عمران بن حصين – وكان رجلَ عامة – وألزمه بأبى الأسود الدؤليّ – وكان رجل خاصة – وقال لهما : انطلقا إلى هذه المرأة ، فاعِلَماَ عِلْمَهاَ ، وعِلْم مَنْ معها ، فخرجا حتى انتهيا إليها بالحفير ، فأذِنَتْ لهما ، فدخلاوسلّما ، وقالا : إنأميرَنا بعثنا إليك لنسألك عن مسيرك ، فهل أنْتِ مُخْبِرَتنا ؟ فقالت : والله ما مِثْلى يُغطّى لبنيه الخبر ، إن الغوْغاء ونزّاع القبائل غَزَوْا حرم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ما نالوا من قَتْل إمام المسلمين بلا تِرَةٍ ولا عُذْر ، فاستحلّوا الدمَ الحرام وسفكوه وانتهبوا المال الحرام ،وأحلّوا البلدَ الحرام والشهرَ الحرام ومزّقوا الأعراض والجلود ، وأقاموا فى دار قومٍ كانوا كارهين لمقامهم ضارّين مُضرّين ،غير نافعين ولا متّقين ، لا يقدرون على امتناع ولا يأمنون . فخرجتُ فى المسلمين أعلمهم ما أَتَى هؤلاء القوم ، وما فيه الناس وراءنا ، وما ينبغى لهم أن يأتوا فى إصلاح هـذا ، وقرأت : ﴿ لا خَيْرَ فى كثير من نَجْواهم إلا مَنْ أمر بصـدقة أو معروف أو إصلاحٍ بين الناس ﴾[1] ، فهذا شأننـا إلى معروف نأمُركم به ، ومُنْكَرٍ ننهاكم عنه .

ثم خرج أبو الأسود وعمران مِنْ عندها ، حتى أتيا طلحة ، فقالا : ما أَقْدمك ؟ قال : الطلبُ بدم عثمان قالا : ألَمْ تُبَايِعْ عليا ؟ قال بلى واللُّجُّ[2] فى عنقى ، وما أستقيل عليا إن هو لم يَحُلْ بيننا وبين قَتَلَة عثمان .

ثم أتيا الزّبير ، فقالا : ما أقدمك ؟ قال : الطلب بدم عثمان ، قال : ألم تبايعْ عليا ؟ قال : بلى واللُّج فى عنقى ، وما أستقيل عليا إن هو لم يحل بيننا وبين قَتَلة عثمان .

---

(١) النساء ١١٤ .   (٢) اللجّ : السيف .

ثم رجعا إلى عائشة فودعاها ، وودعت عمران ، وقالت : يا أبا الأسود ، إيّاك أن يقودَكَ الهوى إلى النار ﴿ كُونوا قوّامين لله شُهداء بالقِسْطِ ولا يجرمنّكم شنآنُ قومٍ على ألّا تَعْدِلوا اعدلوا هو أقربُ للتقوى ﴾(١) ثم سرحتهما ، ونادى مناديها بالرّحيل ، ومضى الرجلان حتى دخلا على عثمان بن حنيف ، فبدر أبو الأسود عمران فقال :

يا بن حُنَيفٍ قد أُتيت فانفِرْ ....

فقال عثمان : إنا لله وإنّا إليه راجعون ! دارت رَحَى الإسلام وربِّ الكعبة ! أشرْ عليّ يا عمران ، قال: إنى قاعد فاقعد ،فقال عثمان: بل امنعهم حتى يأتىَ أمير المؤمنين على . قال عمران : بل يحكم الله بما يريد . وانصرف إلى بيته ، وقام عثمان فى أمره ، فأتاه هِشام بن عامر ، فقال: يا عثمان ، إن هذا الأمر الذى تروم يُسلِم إلى شرّ ما تكره، إن هذا إلا فتق لا يُرْتق ، وصدعٌ لا يجبر ، فسامحهم حتى يأتى أمرُ عليّ ولا تحادّهم، فأبى ؛ ونادى عثمان فى الناس ، وأمرهم بالتهيُّؤ ، ولبسوا السلاح ، واجتمعوا إلى المسجد الجامع .

وأقبل عثمان ، ودسّ إلى الناس قيس بن العقديّة ، ليعرف ما عندهم ، فقال : إنّ هؤلاء القوم الذين جاءوكم ، إن كانوا جاءوكم خائفين ، فقد جاءوا من المكان الذى يأمن فيه الطيْر ، وإن كانوا جاءوا يطلبون بدم عثمان ، فما نحن بقَتَلَةِ عثمان ، أطيعونى فى هؤلاء القوم ، فردُّوهم من حيث جاءوا . فقام الأسود بن سريع السّعدىّ ، فقال : ما زعموا أنّا قتلة عثمان ! فإنّما فزعوا إلينا ليستعينوا بنا على قَتَلَةِ عثمان منّا ومن غيرنا ، فَحصَبه(٢) الناس ، فعرف عثمانُ أنّ لهم بالبصرة ناصراً .

---

(١) المائدة ٨ . (٢) حصبه : رماه بالحصى .

وأقبلت عائشة فيمن معها حتى إذا انتهوْا إلى المرْبد[1] ، ودخلوا من أعلاه ، أمسكوا ووقفوا حتى خرج عثمان بن حُنيف فيمنْ معه ، وخرج إليها من أهل البصرة من أراد أن يخرج ويكون معها ، واجتمعوا بالمربد حتى غصّ بالناس ، وكان طلحة والزبير فى ميمنة المربد ، وعثمان فى ميسرته .

ثم وقف طلحة، وحمِد الله وأثنى عليه، وذكر عثمانَ وفضْلَه ، والبلد وما استحلّ منه ، وعظَّم ماأتى إليه ، ودعا إلى الطلب بدَمِه ، وحثّهم عليهم ؛ وقال : إن فى ذلك إعزازَ دينِ الله عزّ وجلّ وسُلْطانِه ، وأما الطّلبُ بدم الخليفة المظلوم فإنه حدٌّ من حدود الله ، وإنّكم إن فعلتم أصبْتم ، وعاد أمرُكم إليكم ، وإن ترَكْتم لم يقم لكمْ سلطان ، ولم يكن لكم نظام .

وتكلَّم الزُّبيْرُ بمثل ذلك ، فقال منْ فى الميْمنَةِ : صدَقا وبرّا وقالَا الحق ، وأمَرا به .

وقال مَنْ فى الميسرة : فَجَرا وغدَرا وقالا الباطل وأمَرا به . قدْ بايَعا ثم جاءا يقُولان مايقولان ! وتحاثى[2] الناسُ وتحاصَبوا[3] وأرْهَجُوا[4] .

فتكلّمت عائشةُ ، وكانت جَهوريّة يعلو صَوْتُها كثرة، كأنه صوت امرأة جليلة ، وحمِدت الله وأثْنَتْ عليه وقالت : كان الناسُ يتجنَّوْن على عثمان ، ويزْرُون على عمّالِه ، ويأْتُونَنا بالمدينة فيستشيروننا فيما يُخْبِروننا عنهم ، فننظر من ذلك فنجده بَرِيًّا تقيًّا وفيًّا ، ونجدُهم فَجَرةً غدَرةً كذَبة ، يحاولون غيرَ مايُظهرون ، فلما قوُوا على المكاثَرة كاثرُوه ، فاقتحموا عليه دارَه ، واستحلّوا الدّم الحرام والمالَ الحرام

---

(١) المربد : محلة عظيمة بينها وبين البصرة ثلاثة أميال .

(٢) تحاثى الناس : رمى بعضهم بعضاً بالتراب . (٣) تحاصبوا: رمى بعضهم بعضاً بالحصباء .

(٤) أرهجوا : أثاروا الغبار .

والبلدَ الحرام ، بلا تِرَةٍ ولا عُذْر ، ألا إنّ مِمّا ينبغى ، لاينبغى لـكم غيرُه ، أَخْذَ قَتَلَةِ عثمان ، وإقامة كتاب الله عز وجلّ : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيباً مِنَ الـكِتابُ يُدْعَونَ إِلَى كتابِ اللهِ لِيَحْـكُمَ بينهم ﴾[١] .

فافترق أصحابُ عثمان بن حُنَيْف فرقتين ، فقالت فرقة : صَدَقَتْ والله وبرّتْ ، وجاءت والله بالمعروف ، وقال الآخرون : كذبتمْ والله مانَعْرِفُ ماتقولون .

فلمّا رَأَت عائشةُ ذلك انحدرتْ وانْحَدَرَ معها أهلُ الميمنة مفارقين لعثمان بن حُنيف حتى وقفوا بالمِربد ، وبقى أصحابُ عثمان يتدافعون حتى تحاجَزُوا ، ثم مال بعضهم إلى عائشة ؛ وأخذ عثمان ومَنْ معه الطريقَ إلى المسجد

ثم أقبل جارية بن قُدامة السَّعْدِىّ نحوَ عائشة ، وقال : ياأمَّ المؤمنين ، والله لَقَتْلُ عثمان أهْونُ من خُروجك مِنْ بَيْتِك على هذا الجمل المَلْعُون عُرْضة للسلاح ، إنّه قد كان لك من الله سِتْر وحُرْمَة ، فهتـكتِ سِتْرَك ، وأَبحْتِ حُرْمتك ، إنه مَنْ رأى قتالَك فإنّه يرى قَتْلك ، إن كنتِ خَرَجْتِ طـائعةً فارْجِعى إلى منزلك ، وإن كنت أتيتِنا مُسْتـكرَهة فاستَعِينى بالنّاس .

وخرج شابٌّ من بنى سعد إلى طَلْحَة والزُّبَيْر فقال : أمّا أنت يازبير فحَوَارِىّ رسولِ الله صلّى الله عليه وسلّم ، وأمّا أنتَ ياطلحةُ فوقَيْتَ رسول الله صلّى الله عليه وسلم بيدك يوم أُحُد ، وأرى أمّـكما معكما ، فهل جئتُما بنسائـكما ؟ قالا : لا ، قال : فما أنا منـكما فى شىء . ثم قال :

صُنْتُمْ حَلاَئِلَـكُمْ وقُدْتُمْ أمّـكمْ ... هـذا لَعَمْرُكَ قِلّةُ الْإنصـافِ !
أُمِرَتْ بجرِّ ذُيُولهـا فى بَيْتِهَا ... فَهَوَتْ تَشُقُّ البِيدَ بالإيجافِ[٢]

---

(١) آل عمران ٢٣ .   (٢) الإيجاف : ضرب من سير الخيل والإبل .

غَرَضاً يُقاتِلُ دونها أبناؤُها ... بالنَّبل والخطِّيِّ والأسيافِ
هُتِكَتْ بطلحةَ والزُّبيرِ سُتورُها ... هذا المخبِّرُ عنهمُ والْكافى

وأقبل غُلامٌ من جُهينةَ على محمد بن طلْحة — وكان محمد رجلا عابداً — فقال: أخبِرْنى عن قَتلة عثمان، فقال: نعم. دَمُ عثمانَ على ثلاثة أثلاث: ثلث على صاحبةِ الهوْدج — يعنى عائشة — وثلث على صاحب الجمل الأحمر — يعنى طلحة أباه، وثلث على علىّ بن أبى طالب؛ فقال الغلام: لا أرانى على ضلال. ولحِق بعلىّ، وقال:

سألتُ ابنَ طلحةَ عن هالكٍ ... بجَوْفِ المدينةِ لم يُقْبَرِ
فقال: ثلاثةُ رَهْطٍ همُ ... أماتوا ابنَ عفّانَ واسْتُعْبِرِ
فثلث على تلك فى خِدْرِها ... وثلث على راكب الأحمرِ
وثلث على ابنِ أبى طالبٍ ... ونحن بدَوِّيَّةٍ قَرْقَرِ
فقلتُ صدَقْتَ على الأوَّلينِ ... وأخْطأْتَ فى الثَّالثِ الأزْهَرِ

* * *

وأقبل حَكيم بن جبَلة وهو على الخيل، فأنْشبَ القتال مع أصحاب عائشة، وقاتلهم أصحابُ عائشة إلى أن حَجَز بينهما اللَّيلُ؛ وأمَرَتْ عائشةُ أصحابَها فتيامَنُوا إلى مقبرة بنى مازن؛ ورجع عثمان إلى القصر؛ ورجع النّاسُ إلى قبائلهم.

وجاء أبو الجرباء التميمىّ، فأشار على طلحة ومَنْ معه بمكانٍ أمْثَل من مكانهم، فساروا إلى مقبرة بنى حِصْن، وباتوا يتأهّبون للحرب.

وأصبح حكيم بن جبَلة فناداهم وهو يسبّ وفى يده الرمح، فقال له رجل مِنْ عبد القيس: مَن هذا الذى تسبُّه وتقولُ له ما أسمع؟ قال: عائشة. قال: يا بْنَ الخبيثة؛

أَلِأُمِّ المؤمنين تقول هذا؟ فوضع حكيم السنان بين ثدييْه فقتله. ثم لامتْه امرأةٌ فقتَلها.

ثم اجتمع الفريقان ، واقتتلوا قتالًا شديداً من حين بزغت الشمس إلى أن زال النهار ؛ وكَثُر القتل فى أصحاب ابنِ حُنيف ، وفَشَتِ الجراحة فى الفريقين ، ومنادى عائشة يناشدهم ويدعوهُم إلى الكفّ فيأْبَوْن ؛ حتى إذا مسّهم الشرّ وعضّهم ، نادوْا أصحابَ عائشة إلى الصُّلح ؛ فأجابوهم ، وتهادَنُوا وتواعدوا ، وكتبوا بينهم كتاباً اشترطُوا فيه أن يَبْعَثُوا رسولاً إلى المدينة ليستخبر أهلَها ، فإن كان طلحةُ والزبير قد أُكْرِها على بيعة علىّ خرج عثمان وأَخْلَى لهما البصرة ، وإن لم يكونا أُكْرِها خرج طلحةُ والزبير ؛ وهذا كتاب الموادعة :

بسم الله الرحمن الرحيم ؛ هذا ما اصطلح عليه طلحةُ والزبير ومَنْ معهما من المؤمنين والمسلمين ، وعثمان بن حُنَيف ومَنْ معه من المؤمنين والمسلمين : إنّ عثمان يقيم حيث أدركه الصُّلْحُ على ما فى يده ، وإنّ طلحةَ والزبير يقيمان حيث أدركهما الصلح على ما فى أيديهما ؛ حتى يرجعَ أمينُ الفريقين ورسولُهم كعب بن سَوْر من المدينة ، ولا يُضَارّ واحد من الفريقين الآخرَ فى مسجد ولا سوق ولا طريق ولا فُرضة ، حتى يرْجعَ كَعْب بالخبر ؛ فإن رجع بأنّ القوم أَكْرَهُوا طَلْحَة والزبير فالأمرُ أمرهما ، وإن شاء عثمان خرج حتى يلحق بِطِيَّتِه ، وإن شاء دخل معهما . وإن رجع بأنَّهُمَا لم يُكرَها فالأَمْرُ أمر عثمان ، فإن شاء طلحةُ والزبيرُ أقاما على طاعة علىّ ، وإن شاءا خرجا حتى يلحقا بِطِيَّتِهما .

وخرج كَعْب حتى قدِم المدينة يوم الجمعة ، فاجتمع الناسُ لِقُدُومه ، فقام كعب فقال : إنى رسول أهْل البصرة إليكم ؛ أَأَكْرَهَ هؤلاء القومُ هذين الرجلين على بيعة على ، أم أَتيَاهَا طائعَيْن ؟ فلم يُجِبْهُ أحد من القوم ؛ إلا ما كان من أُسامة بن زيد فإنه قام فقال : اللّهمّ لم يبايعا إلّا وهما كارهان ؛ فواثبه سَهْلُ بن حنيف والناس

حتى خشِىَ عليه أصحابُ رسول الله القتلَ فقاموا ليمنعوه ، فانفرج عنه الناس .

وأخذ صُهيب بن سِنان بيده حتى أخرجه ثم أدخله منزلَه ، وقال : أمَا وَسِعَك ما وَسِعَنا من السكوت ! قال : لا ؛ والله ما كنتُ أرى أنّ الأمر يترامَى إلى ما رأيت .

ثم رجع كَعْب إلى البصرة بما وقف عليه بالمدينة . وبلغ عليًّا الخبرُ الذى كان بالمدينة من ذلك ، فبادر بكتابٍ إلى عثمان يقول فيــه : والله ما أُكْرِها على فرقة ، ولقد أُكْرِهَا على جَمَاعَةٍ وفَضْل ، فإن كانا يريدان الخَلْعَ فلا عذرَ لهما ، وإن كانا يريدان غير ذلك نظرْنا ونَظَرَا .

وقَدِم الـكتابُ على عثمان بن حُنَيْف وقدم كعب ، فأراد طلحة والزبير تنفيذَ الشَّرْط ، وأرْسلا إلى عثمان : أن اخرج عنَّا ، فاحتجّ عُثمان بالـكتاب وقال : هذا أمرٌ آخر غير ما كنّا فيه .

وجمع طلحة والزّبير الرّجال فى ليلةٍ مظلمة باردة ، ذات رياح ونَدًى ، ثمّ قصدا المسجد ، فوافقا صَلاة العشاء ، وكانوا يؤخّرونها ، فأبطأ عثمان بن حُنيف ، فقدّما عبد الرحمن بن عتّاب للصّلاة ، فشهر أصحاب عثمان بن حُنيف السِّلاح ؛ فأقبلوا عليهم ، واقتتلوا بالمسجد ؛ حتى قتلوهم . ثم أدخلا الرجال على عثمان ليخرجوه فأخرجوه إليهما ، وما بقيَتْ فى وجهه شعرة بعد أن ضربوه أربعين سوطا .

فاستعظما ذلك ، وأرسلا إلى عائشة بالذى كان ، واستطلَعا رأْيَها ؛ فأرسلت إليهما أَنْ خَلُّوا سبيلَه ، فليذهب حيث شاء ؛ ولا تحبِسُوه ، فمضى عثمان حيث لحق بعلىٍّ ، وصلَّى عبدُ الرحمن بن عتّاب بالناس العشاء والفجر .

وأصبح طلحة والزّبير وبيتُ المـال والحرسُ فى أيديهما ، والنّاس معهما ، ومَنْ لم يكن معهما مغمور . وأصبح حكيم بن جَبَلة فى خيله ، ومَنْ تبعه من عبدقيس

ومن نَزَعَ إليهم من أفْناء ربيعة ، وقد بلغه ما فُعِل بعثمان بن حُنَيْف فقال : لستُ بأخيه إن لم أنصُرْه ؛ ثم توجّه نحو دار الرّزق ؛ وبها طعامٌ أراد عبدُ الله ابن الزبير أن يُعْطِيَه أصحابه ، فقال له عبد الله : مالك يا حكيم ؟ قال : نريد أن نرتزِق من هذا الطعام ، وأن تخلّوا عثمان فيقيم فى دار الإمارة ، على ما كتبتم بينكم حتى يقدم عَلِىّ ، وايْمُ اللهِ لَوْ أجد أعواناً عليكم ما رضيتُ بهذه منكم حتى أقتلَكم بمن قتلتم ، ولقد أصبحتم وإن دماءكم حَلَالٌ لنا بِمَنْ قَتَلْتُم ؛ أَمَا تخافون الله ؟ بِمَ تستحلّون الدمَ الحرام ؟ قال : بِدَم عثمان بن عفان . قال : فالذين قتلتم هُمْ قَتَلَةُ عثمان ؟ أما تخافون مَقْتَ اللهِ ؟ فقال له عبد الله : لا نرزقكم من هذا الطعام ، ولا نخلّى سبيلَ عثمان بن حُنيف حتى نَخْلَعَ عَلِيًّا ، فقال حكيم : اللهمّ إنك حَكَمٌ عَدْلٌ فاشهد . وقال لأصحابه : لستُ فى شك من قتال هؤلاء القوم ، فمن كان فى شك فلْيَنْصَرِف ، وتَقَدَّمَ ليقاتِلهم .

فقال طلحة والزبير : الحمد لله الذى جمع لنا ثأرَنا من أهل البصرة ؛ اللهم لا تُبْقِ منهم أحداً ، وأَقِدْ منهم ، ثم اقتتلوا أشدّ قتال ، وجعل حكيم يضرب بالسيف ويقول :

أَضْرِبُهُمْ باليابِسِ ضربَ غلامٍ عابِسِ

فضرب رَجُلٌ رِجْلَهُ فقطعها ، ثم قُتل وهُزم أصحابه ، ولم يفلت إلا حُرْقوص ابن زهير فى نفر من أصحابه ، فلجئُوا إلى قومهم . ونادى منادى طَلْحَة والزبير : إن كان فى قبائلكم أحدٌ مِمّن غزا المدينة فلتأتونا بهم ، فجئَ بهم أذِلَّاء فقُتِلوا..

ثم أَمرَا للناس بأعْطِياتِهم وأَرْزاقهم وحقوقهم ، وفَضّلا بالفَضْل أهلَ السّمعِ والطاعة .

ثم كتبا لأهل الشام بما صَنَعُوا وصاروا إليه ، فقالوا : إنا خرجنا لوضْعِ الحرب وإقامة كتابِ الله عزّ وجلّ ، بإقامَةِ حدوده فى الشريف والوضيع والكثير والقليل ، حتى يكونَ اللهُ عزَّ وجل هو الذى يردُّنا عن ذلك ، فبايَعَنَا خيارُ أَهْل البصرة ونُجَباؤُهم ، وخالَفنا شِرَارُهم ونزّاعُهم ، فردُّونا بالسلاح وقالوا فيما قالوا : نأخذ أمَّ المؤمنين رهينة أَنْ أمرَتْهُم بالحقِّ وحثّتْهم عليه ، فأَعْطَاهم اللهُ سنّة المسلمين مرة بعد مرة ، حتى إذا لم يَبْقَ حُجَّةٌ ولا عُذْر استبسل قَتَلةُ أمير المؤمنين ، فخرجوا إلى مضاجعهم ، فلم يُفْلِتْ منهم إلا حَرقوص ، والله تعالى مُقيدُه إن شاء الله .

وإنا نناشدكم اللهَ فى أنفسكم إلّا نهضتم بمثل ما نَهَضْنَا به ، فنَلْقَى الله عز وجل وتلقوْنه ، وقد أَعْذَرْنَا وقَضَيْنَا الذى علينا .

وبعثوا به مع سَيّار العجلىّ ، وكتبوا إلى أهل الكوفة بمثله ، وإلى أَهْلِ اليمامة والمدينة ، وكتبت عائشة إلى أهل الكوفة مع رسولهم كتاباً طوَّلَتْه ، وحَثّتْهُم على مُتابَعَتِها .

***

ولما أَتى عَلِيًّا الخبرُ دعا إليه وجوهَ أهل المدينة، وخطبهم ، فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال : إن آخرَ هذا الأمرِ لا يَصْلُح إلا بما صلَح به أوله ، فانصروا الله يَنْصُرْكم ، ويُصْلِحْ لكم أمركم .

فتثاقلوا ، فلما رَأَى زيادُ بن حنظلة تثَاقُلَ الناس انتدبَ[1] لِعَلِىّ ، وقال له : إن تثاقلوا عنك فإنا نَخِفّ معك فنقاتل دونك . وقام أبو قَتَادة الأنصارىّ فقال :

---

(١) انتدَب إليه : خف لنصرته .

يا أميرَ المؤمنين ؛ إنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم قلّدنى هذا السيف ، وقد أغمدته زماناً ، وقد حان تجريدُه على هؤلاء القوم الظالمين ، الذى لا يألون الأُمّةَ غِشًّا ، وقد أحببت أن تقدِّمَنِى فقدّمْنى .

وقالت أمُّ سَلَمة : يا أميرَ المؤمنين ؛ لولا أن أعصى الله ، وأنّك لا تقبله لخرجتُ معك ، وهذا ابنُ عمّى ، وهو واللهِ أعزُّ علىّ من نفسى ، يخرجُ معك ، ويشهدُ مشاهدَك .

ثم تتابع النّاس استعداداً لنُصْرته ، فاستخلف على المدينة ، وسار فى تعبئته الّتى تعبّأها لأهل الشام ، آخرَ شهر ربيع الأول سنة ستٍّ وثلاثين .

وخرج من نَشِط معه من الكوفيين والبَصْريين ، فلقيه عبد الله بنُ سلَام ، فأخذ بعنانِه وقال : يا أميرَ المؤمنين ، لا تخرجْ منها ، فوالله إن خَرَجْتَ منها لا يعودُ إليها سُلطَانُ المسلمين أبداً ، فسبُّوه ، فقال علىّ : دَعُوا الرَّجُلَ فإنّه من أصحاب رسولِ الله صلى الله عليه وسلم .

وسار إلى الرَّبَذَة[(١)] ؛ فلمّا علم أَمْرَ عائشة وطلحة والزُّبير أقام بها يأتمِر ما يفعلُ ، وأتاه ابنُه الحَسَنُ فى الطريق ، فقال له : لقد أمرتك فَعَصَيْتَنِى ، وقد تُقْتَلُ غداً ولا نَاصِرَ لك ! فقال له علىّ : إنك لا تزال تَخِنُّ خنين الجارية ، وما الذى أَمرتنى فَعَصَيْتُك ؟ قال : أمرتُك يوم أُحيطَ بعثمان أن تخرجَ من المدينة فيُقتلَ ولستَ بها ؛ ثمّ أمرتُك يَوْمَ قُتِل ألَّا تبايِعَ حتى تأتيك وفودُ العرب وبيعةُ أهلِ كلّ مِصْر ، فإنّهم لن يَقْطعوا أمراً دونك ، فأَبَيْتَ علىّ ، وأمرتُكَ حين خرجَتْ هذه المرأةُ وهذان الرجلان أن تجلسَ فى بيتك حتى يصطلحوا ، فإنْ كان الفسادُ كان على يَدِ غيرك — فعصيتَنى فى ذلك كلِّه .

---

(١) الربذة هى التى جعلها عمر رضى الله عنه حمى لإبل الصدقة قرب المدينة (معجم ما استعجم ٢ — ٦٣٣) .

فقـال علىّ : أىْ بُنىّ ، أمّا قولُك : لو خرجتَ من المدينة حين أُحيطَ بعثمان ، فوالله لقـد أُحِيط بنا كما أُحِيط به . وأمَّا قولُك : لاتُبايعْ حتى تَأْتِيَ بيعةُ الأنصار ، فإنّ الأمرَ أمر أهل المدينة ، وكرِهْنَا أن يضيعَ هـذا الأمر ، وأمّا قولُك حين خرج طَلْحَة والزبير فإنَّ ذلك كانَ وَهْناً على أهل الإســلام ، ووالله مازلتُ مقهوراً منــذ وليت ، منقوصاً لاأَصِلُ إلى شىء ممّا ينبغى . وأما قولُك : اجلسْ فى بيتك ، فـكيف لى بما قد لزِمَنى ، وإذا لم أنظر فيما لَزِمَنى من هـذا الأمر ويَعْنِينِى فَمَنْ يَنْظُرُ فيه ؟ فـكُفَّ عنى يابنىّ .

ثم كتب إلى أهْل الـكوفة : بسم الله الرحمن الرحيم . أمّا بعد ، فإنّى اخترتـكم والنزولَ بين أظهركم ، لما أعرف من مودّتـكم وحبّـكم لله عز وجلّ ورسوله صلّى الله عليه وسلّم ، فَمن جاءنى ونَصرَنى فقدْ أجابَ الحقّ ، وقَضَى الّذى عليه .

ثمّ أرسل إلى الـكوفة محمد بن أبى بكر ومحمد بن عَوْف ، فمَضَيـا وبقِىَ على الرَّبذَة يتهَيَّأُ ، وأرسل إلى المدينـة فلحقه ماأراد من دابّة وسِـلَاح ، ثم خطب النّاس وقال :

« إن الله أَعزَّنا بالإسلام، ورفَعَنا به، وجعلَنا به إخواناً بعد ذلّةٍ وقلّة وتبَاغُضٍ وتباعُد ، فجرى النّاسُ على ذلك ماشـاء: الإسلامُ دِينُهم، والحقُّ فيهم، والـكتابُ إمَامُهم ، حتى أُصِيبَ هـذا الرجلُ بأَيْدِى هؤلاء القوم الذين نَزَغَهُم الشيطـانُ(١) لِيَنْزَغَ بين هذه الأمة . أَلَا إن هـذه الأمّةَ لابدّ مفترقة كما افترقت الأمم قَبْلهم ، فنعوذُ بالله من شرِّ ماهو كائن .

ثم عاد ثانية فقـال : أَلَا إنّه لابدّ مما هو كائن أنْ يـكونَ ، ألَا وإنّ هـذه

---

(١) نزغه : حركه ، ونزغ بينهم : أفسد وأغرى .

الأمة ستفترق على ثلاثٍ وسبعين فِرْقَة ، شرُّها فرقة تَنْتَحِلُنى ، ولا تَعْمَل بعملى ، فقد أدركتم ورأيتم ، فالزموا دينَكم ، واهتدُوا بِهَدْى نبيّكم ، واتَّبِعُوا سنَّتَه ، واعْرِضُوا ماأَشْكلَ عليكم على القرآن ، فما عَرفه القرآنُ فالزَمُوه ، وما أَنْكَرَه فرُدُّوه ، وارضُوا بالله عزَّ وجلّ ربًّا ، وبالإسلام ديناً ، وبمحمّد صلّى الله عليه وسلّم حَكَماً وإماماً .

ثم سار والناسُ من القبائل يتلاحقُون حتى نَزل بذِى قَار(١) ، وقد وَافَاهُ عثمان بن حُنيف ، وبلّغه ماصنع حَكِيم بن جبلة ، وما كان من شأن قَتَلة عثمان ، فقال : اللهُ أكبر ! ماينجينى من طلحة والزبير ، إذا أصابا ثأرهما ، أو يُنْجيهما !

ثم قرأ : ﴿ مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِى الْأَرْضِ وَلَا فِى أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِى كِتَابٍ من قبلِ أَنْ نبْرأها ﴾(٢) . وأقام بذى قار حتى يأتيه أمْرُ رسوليه إلى الكوفة .

أمّا رَسُولاه إلى الكُوفة فإنّهما أَتيَا أبا موسى الأشعريّ بكتاب علىّ ، وقاماَ فى النّاس بأمره ، فلم يُجابَا إلى شىء ؛ فلما أَمْسَوْا دخل ناسٌ من أهل الحِجَا على أبى موسى فقالوا : ما تَرَى فى الخروج ؟ فقال : كان الرأى بالأمس ، إنّ الذى تهاونتم به فيما مضى هو الذى جرَّ عليكم ماتَرَوْن ، وما بقى إنما هما أمران : القعودُ سبيلُ الآخرة والخروجُ سبيلُ الدنيا ، فاختاروا ، فلم يَنْفِرْ إليه أحد ، فغضب الرجلان وأغلظا لأبى موسى ، فقال لهما : والله إن بيعة عثمان لفى عُنُقى وعُنقِ صاحبكما ، فإن لم يكن بدٌّ من قتال، فلا نقاتل أحداً حتى نفرغ من قَتَلةِ عثمان حيث كانوا .

---

(١) ذوقار : ماء لبكر قريب من الكوفة . (٢) الحديد ٢٢ .

فانطلقا إلى علىٍّ بذى قَارٍ وأخبراه الخبرَ ، فقال للأَشتَر ـ وكان معه : أنت صاحِبُنا فى أبى موسى ، فاذهب أنت وابن عباس . فخرجا إلى الكوفة ، وكلَّمَا أَبا موسى ، فجمع الناس وخطبهم فقال : أَيُّهَا الناس ، إنّ أصحابَ النبىّ صلى الله عليه وسلم الذين صحبوه فى المواطن أعلمُ باللهِ وبرسوله مِمَّنْ لم يَصْحَبْه ، وإنَّ لكم علينا حقًّا ، فأنا مؤَدِّيه إليكم ، كان الرأْىُ أَلّا تستخِفُّوا بسلطان اللهِ عزّ وجلّ . وألا تجترئوا على الله عزّ وجلّ ، وكان الرأىُ الثانى أن تأخذوا مَنْ قدم عليكم من المدينة فتردّوهم إليها حتى يجتمعوا وهم أَعْلَم بمن تصلُح له الإمامة منكم ، ولا تكلَّفوا الدخول فى هذا . فأمّا إذْ كان ما كان فإنّها فِتْنَةٌ صماء ، النائمُ فيها خيرٌ من اليقظان واليقظان فيها خيرٌ من القاعد ، والقاعدُ خيرٌ من القائم ، والقائم خيرٌ من الراكب فَأَغْمِدُوا السيوف ، واقطعوا الأوتار ، وآووا المَظْلوم والمضْطهَد ، حتى يلتئمَ هذا الأمرُ وتَنْجَلِىَ الفِتْنَة .

فرجع ابنُ عباس والأشتر إلى علىٍّ فأخبراه الخبر ، فأرسل ابنَه الحسن وعَمّار ابن ياسر إلى الكوفة ، فلقيَهما مسروق بن الأجْدَع ، فأقبل على عمار وقال : ياأبا اليقظان ، علامَ قتلتم عثمان ؟ فقال : على شَتْمِ أعراضنا وضَرْب أبشارنا ! فقال : والله ما عاقبتم بمثل ماعوقبتم به ، ولئن صبرتم لكان خيراً للصابرين .

وخرج أبو موسى ، فقال له الحسن : لِمَ تُثَبِّط الناسَ عنا ، فوالله ما أردنا إلا الإصلاح ! فقال : صَدَقْتَ ، بأبى أنت وأمى ! ولكنّ المستشار مُؤْتمن ، سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: « إنّها ستكون فتنة ، القاعد فيها خير من القائم والقائمُ خير من الماشى ، والماشى خير من الراكب » . وقد جعلنا الله إخواناً ، وحرّم علينا أمْوالنا ودماءَنا ، وقال : ﴿ يا أيّها الذينَ آمنوا لا تأكُلوا أموالَكُمْ بينكُمْ

بالْبَاطِلِ إلّا أن تكون تجارةً عن تراضٍ منكُمْ ولا تَقْتُلُوا أنفسكمْ إنَّ اللهَ كان بكم رحيماً ﴾(١) ، وقال جلّ وعزّ : ﴿ وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِناً مُتَعَمِّداً فَجَزَاؤُه جهنم خالداً فيها ﴾(٢) .

ثم جاء زيد بن صُوحان بكُتُبِ عائشة فقرأها على النّاس ، فثارُوا وافترقوا فريقين ، فقام الحسنُ بنُ علىّ فقال : يَأَيُّهَا الناس ، أجيبوا دَعْوَةَ أميركم ، وسيروا إلى إخوانكم ، فإنّه سيوجد لهذا الأمر من ينفِر إليه ، والله لأنْ يَلِيَه أولو النُّهَى أمْثَلُ فى العاجلة ، وخيرٌ فى العاقبة ، فأجيبُوا دَعْوتَنا ، وأعينونا على ما ابْتُلينا وابتليتم به .

فأجاب الناس ورضُوا به ، وقال لهم الحسن : إنى غادٍ فمَنْ شاء منكم أنْ يخرُج معى على الظَّهر ، ومَنْ شاء فليخرج فى الماء . فنَفَر من أهل الكوفة تسعةُ آلاف أخذ بعضهم البرّ ، وأخذ بعضهم الماء .

ولما وصلت الجنود إلى ذى قَارٍ قال لهم علىّ : قد دَعوتكُم لتشهدوا معنا إخواننا من أهل البصرة ، فإنْ يرجعوا فذاك مانُريد ، وإن يَلجُوا دَاوَيْنَاهم بالرّفق ، وبَايَنَّاهُم حتَى يَبْدَءوا بظلم ، ولن نَدَع أمراً فيه صلاحٌ إلّا آثَرْناه على مافيه الفساد إن شاء اللهُ .

ثم دعا القعقاع بن عمرو للسِّفارة بينه وبين أهل البصرة ، وقال له : الْقَ هذين الرَّجُلين ، فادْعُهُما إلى الأُلْفَة والجماعة ، وعَظِّم عليهما الفُرْقَة ، ثم قال له : كيف أنت صانعٌ فيما ترى منهما ، مما ليس عندك فيه وَصاةٌ مِنِّى ؟ فقال : نلقاهم بالذى أمرتَ ، فإذا جاء منهما أمرٌ ليس عندى فيه رَأْىٌ منك اجتهدنا الرَّأْىَ ، وكلَّمناهم على قدرِ مانسمع ونرى أنه ينبغى ، فقال : أنت لها .

---

(١) النساء ٢٩ . (٢) النساء ٩٣ .

وقدم القَعْقَاع البصرة ، فبدأ بعائشة ، وقال لها : أىْ أمَّهْ ، ما أشخصَك ؟ وما أقدمك هذه البلدة ؟ قالت : أىْ بُنىَّ ، إصلاحٌ بين الناس ، قال : فَابْعَثِى إلى طلحة والزُّبير حتى تسمعى كلامِى وكلامَهما ، فبعثتْ إليهما فجاءا ، فقال : إنى سألتُ أمَّ المؤمنين : ما أشخصَها وأقدمها هذه البلاد ؟ فقالت : إصلاحٌ بين الناس ، فما تقولان أنتُما ؟ أمُتَابِعان أم مُخالفان ؟ فقالا : مُتابِعان ، قال : فأخبرانى ، ما وجه هذا الإصلاح ، فوالله إن عرَفْناه لَنُصْلِحَنّ ، وإن أنكرناه لا نصلح ، فقالا : قَتَلَة عثمان ، فإنَّ هذا إن تُرِكَ كان تَرْكا للقرآن ، وإن عُمل كان إحياءً للقرآن . فقال : قد قتلتما قتلة عثمان من أَهْلِ البصرة ، وأنتم قبل قتلهم أقرب إلى الاستقامة منكم اليوم ، قتلتم ستمائة رَجل إلا رجلا ، فغضب لهم ستة آلاف واعتزلوكم ، وخرجوا من بين أظهركم ، وطلبتُم الذى أفْلَت[1] ، فمنعه ستةُ آلاف ، وهم على رَجُل ، فإن تركتموهم كنتم تاركين لما تقولون ، وإن قاتلوكم والذين اعتزلوكم فأُدِيلُوا[2] عليكم ، فالذى حَذِرتم من هذا الأمر أعظم مما أراكم تكرهون ، وأنتم أحميتُم مُضَر وربيعة ، فاجْتَمعوا على حَرْبِكم وخِذْلانكم نَصْرةً لهؤلاء ، كما اجتمع هؤلاء لِأَهل هذا الحدَث العظيم والذنب الكبير .

فقالا وقالت عائِشَةُ : فما دَوَاء هذا الأمر ؟ فقال : لا أرى دواءً لهذا الأمر إلّا التسْكِين ، وإذا سكن اختلجوا ، فإن أنتم بايعتمونا فعلامةُ خير وتباشيرُ رَحْمة ودَرْكٌ بثأر هذا الرجل ، وعافيةٌ وسلامة لهذه الأمّة ، وإن أبيتمْ إلا مكابرةَ هذا الأمر واعتسافَه كانت علامةَ شرٍّ وذهابَ هذا الثأر ، فآثِرُوا العافية تُرزقوها ، وكونوا مفاتيحَ الخير ، ولا تعرّضونا للبلاء ، ولا تتعرّضوا له ؛ فيصرَعنا وإيّاكم !

(١) يعنى حرقوصا . (٢) أديلوا : نصروا .

فقال له القومُ : أَحْسَنْتَ وأَصَبْتَ ، فإن جاء عليٌّ بمثل ما قلت صلح الأمر .

ثم رجع القَعْقاع إلى عليّ وأَعْلَمه عِلْم القوم ، وما كان منه ومنهم . فأعجبه ذلك ، ثم أشرفَ القومُ على الصُّلْح .

وأمر عليٌّ بالرحيل ، وقال : أَلَا وإنى راحلٌ غدا فارتحلوا ، ولا يرحلَنّ غداً أحدٌ أعانَ على عثمان بشيء فى شيء من أمور الناس .

ثم جاءت وفودُ قبائل البصرة إلى قبائلِ الكوفة ، وهم لا يريدون حَرْباً ولا يظنّونها ، وأَمِنَ الناس بعضُهم بعضاً .

ولكنّ نَفَراً من الناس لم يَرُقْهم الصلح ، ولم يطمئنوا إلى حَقْنِ الدّماء ، فاجتمع نفرٌ ممّن سار إلى عثمان ، ومعهم ابن السَّوْدَاء ، وقال بعضهم لبعض : إن اجتمع الناس غداً واصطلحوا ؛ فليس الصُّلْحُ إلا علينا ، وقال ابنُ السوداء : إنّ عزّكم فى خُلْطَةِ الناس ، فصانِعُوهم ، وإذا الْتَقَى الناس غداً فأَنْشِبُوا القتال ولا تُفَرِّغوهم للنظر . واتّفَقوا عَلَى ذلك والناسُ لا يشعرون .

ولما وصل عليٌّ إلى البصرة بعث إلى القوم : إنْ كنتم على ما فارقتم القعقاع فكُفُّوا وأَقِرُّونا ننزل ، وننظر فى الأمر . فنزلوا ، والقوم لا يَشُكُّونَ فى الصلح ، ومشت السُّفَرَاء بين الفريقين ، وبات القومُ ينتظرون العافيةَ من هذا الحادث الجَلَل .

ولم يشعر الناس إلّا والذين أثارُوا أمرَ عثمان يقومون فى الغَلَس ، ويضَعونَ السّلاح فى عسكر أَهْلِ البصرة ، فسأل طَلْحَةُ والزبير : ما هذا ؟ قالوا : طرقَنا أهل الكوفة ليلا ! فقالا : قد علمنا أن عليًّا غيرُ مُنْتَهٍ حتى يَسْفك الدماء ويَستحلّ الحرْمة ، وأنّه لَنْ يُطَاوِعَنا .

وسأل عليّ عن الخبر — وكان السَّبَئِيُّون(١) قد وضعوا رجلا قريباً منه يُخْبره بما يريدون ، فقال له : فوجئْنَا بقومٍ بَيَّتونا ، فرددناهم من حيث جاءوا . فقال عليّ : قد علمت أنَّ طلحة والزبير غيرُ مُنْتَهِيَيْن حتى يسفكا الدماء ، ويستحلا الحرمة ، وأنهما لن يُطاوِعانا ، ولم يجد الفريقان بُدًّا من القتال ؛ إذ لم يكن ثمة مجالٌ لاستجلاء الواقع .

وكانت عائشة فى هَوْدَجِها ، قد جلّلته بالحديد وهى بمكَّة ، وجعلت فيه موضعا لعَيْنَيها ، وهى فى عسكر أَهْلِ البصرة ، وثار العسكران لبعضهما ، وكان القتال فى ذلك اليوم مِنْ أشدّ القتال هَوْلًا ، وصَدَق كلّ فريق الحملة على الفريق الآخر ، وأهل البصرة وشجعانهم وذوو النّجدة منهم يَلُوذون بجَمَلِ عائشة ، ويُدَافِعون عنها حتى لا تُصَابَ بشرّ ، فقُتِل حوله بَشَرٌ كثير ، وقطعت على زِمامه أَيْدٍ كثيرة ، ولا يدور بخَلَد أحدٍ من الناس أن ينهزم ، وراجز أهل البصرة يقول :

نحنُ بنى ضَبَّةَ أصحابُ الجملْ ... ننزِلُ بالموت إذا الموتُ نزلْ

ننعَى ابنَ عفّان بأطراف الأَسَلْ ... الموتُ أَحْلَى عندنا من العَسَلْ

رُدّوا علينا شَيْخَنا ثم بَجَلْ(٢)

ولما رأى عليّ كَثْرَةَ القتلى حَوْلَ الجمل وأن الناس يستميتون دونه ولا يُسْلِمونه أبدا وفيهم عَيْنٌ تَطْرِف نادى : اعْقِرُوا الجمل . فجاء إلى الجمل رجل من خَلْفِهِ وضرب عرقوبه فعَقَره ، وسقط وسقط الهَوْدَج ، وكأنه قنفذ لكثرة ما رُمِيَ به من النَّبل ، فجاء محمد بن أبى بكر وعَمّار بن ياسر واحتملا الهَوْدَج ، فنحَّيَاه عن القتلى ، وخرج محمد بعائشة حتى أدخلها البصرة .

---

(١) السبئيون : جماعة نسبوا إلى الله بن سبأ ، وكانوا من الغلاة .

(٢) بجل ، أى حسب .

وظهر الضعف فى الناس فتركهم الزبير بن العوام ، وولّى وجهه شطر المدينة ، فعلم بمسيره عَمْرو بن جُرْموز فاتّبعه حتى إذا كان بوادى السباع غافله وقَتَلَه .

وقُتِل فى هذا اليوم عشرةُ آلاف فيهم كثيرٌ من أعلام المسلمين وذوو الغَنَاء والنَّجْدة ، منهم طلحة وابنه محمد وعبد الرحمن بن عتّاب ، وكثير من رجال قريش .

ولما انتهت الموقعة مرّ علىٌّ بين القتلى فكلما رأى صرعى أهل البصرة وعرفهم قال : زعموا أنه إنما خرج معهم السفهاء والغوغاء ، وهذا فلان وهذا فلان ! ثم صلى على القتْلَى وأمر بدَفْنِهِم جميعاً .

وبعد ذلك زَارَ عائشة فى البيت الذى نزلَتْ فيه ، فسلَّم عليها ، وقعد عندها ، ثم أمر بأَن تُجَهَّز إلى المدينة فجُهِّزَت خَيْرَ جهاز ، ولما جاء يومُ رحيلها ودّعها بنفسه فقالت وسط مُشَيِّعِيها : إنّه والله ما كان بينى وبين علىّ فى القديم إلّا ما يكون بين المرأة وأحمائها ، وإنّه عندى على مَعْتَبَتى من الأخيار .

وقال علىّ : أيّها الناس ، صدقَتْ والله وبرَّتْ ! ما كان بينى وبينها إلا ذلك ، وإنها لزوجةُ نبيّكم صلّى الله عليه وسلّم فى الدّنيا والآخرة .

وخرجت من البصرة ، فشيّعها أميالًا ، وسرّح بنيه معها يوماً .

٣٢ – يوم صِفِّين *

لما عاد علىّ من البصرة بعد فراغه من الجمل قصد الكوفة ، وأرسل إلى جرير ابن عبد الله البجلىّ ، وكان عاملًا على هَمَذان[1] ، استعمله عثمان ، وأرسل إلى الأشعث بن قيس ، وكان على أَذْرَبيجان[2] ، استعمله عثمان أيضاً ، وأَمرَهما بأخذ البَيْعة والحُضور ، فلما حضرا عنده أراد علىّ أن يرسل رسولا إلى معاوية ، فقال جرير : أَرْسِلْنِى إليه فأدْعُوه إلى الدخول فى طاعتِك . فقال الأشْتَر لعلىّ : لاتبعثْه ، فوالله إنى لأظُنّ هواه معه ، فقال علىّ : دَعْه ، حتى ننظُرَ من الذى يَرْجِع به إلينا . فبعثَه إليه ، وكَتَب معه كتاباً يُعْلِمه فيه اجتماعَ المهاجرين والأنصار على بَيْعته ، ونَكْث طَلْحة والزبير ، وما كان من حَرْبه إيّاهم ، ويدعوه إلى الدخول فيما دَخَل فيه المهاجرون والأنصار من طاعته .

فشخَص جَرير حتى قدِم على معاوية ، فماطَلَه واسْتَنْظَرَه ، ودعا عمرو بن العاص فاستشاره فيما كتب به علىٌّ إليه ، فأشار عليه أن يُرسل إلى وُجوه الشام ، ويُلْزِم عليًّا دمَ عثمان ويقاتله بهم ، ففعل ذلك معاوية . وكان أهلُ الشام لمّا قدِم عليهم النعمان بن بَشير بقميص عثمان مضرَّجاً بدمه مع شىء من كَفّه وضعُوا القميص على المنبر ، كما أمرهم معاوية ، واستثاروا الجنود فبكَوْا على القميص وآلى رجالُهم

* الطبرى ٥ : ٢٣٥ ، ٦ : ١ ، كان فى صفر سنة ٣٧ . وصفين : موضع بقرب الرقة على شاطئ الفرات .

(١) همذان : أكبر مدن الجبال ، فتحت سنة ٢٤ .

(٢) أذربيجان : إقليم بفارس ، من أشهر مدائنه تبريز والمراغة .

ألّا يمسُّوا الماء ، ولا يناموا على الفرُش حتى يقتلوا قَتَلَة عثمان ، ومَنْ عرَض دونهم بشيء ، أو تفنَى أرواحُهم .

فعاد جرير إلى علىّ وأخبرَه خبرَ معاوية واجتماع أهلِ الشام معــه على قتالِه وبكائهم على عُثمان واتّهامِهم علياً بقَتْله وإيواء قَتَلَته ، فقال الأشتر لعلىّ : قد كنت نهيتُك أن تُرْسل جريراً ، ولو كنتَ أرسلتَنى لـكنتُ خيراً من هذا الذى أقام عنده حتى لم يدَعْ باباً يرجُو فتْحَه إلا فتَحه ، ولا باباً يخافُ منه إلا أغْلَقه .

فقال جرير : لو كنتَ ثَمَّ لقتلوكَ ، فقــد ذكروا أنك مِنْ قَتَلَة عثمان ، فقال الأشتر : واللهِ لو أتيتُهم لم يُعيِينى جوابُهم ، ولحملتُ معاوية على خُطَّةٍ أُعْجِله فيها عن الفِـكْر ، ولو أطاعنى أميرُ المؤمنين لحبسَك وأشباهَك حتى يستقيم هذا الأمر .

ثم خرج علىٌّ فعسْـكَر بالنُّخَيْلَة[1] ، وتخلَّفَ عنــه نفرٌ من أهل الـكوفة ، وقدِم عليه عبدُ الله بن العباس فيمَنْ معه من أهل البَصْرَة ، وبلغ ذلك معاوية فاستشار عمراً ، فقال : أمّا إذا سار علىٌّ فسِرْ إليه بنفسِك ، ولا تَغِبْ عنه برأيك ومكيدتك .

فتجهزَ معاوية ، وتجهزَ الناس ، وحضَّهم عمرو ، وضعّف علياً وأصحابه ، وقال : اللهَ اللهَ فى حقـكم أن تُضِيعوه ، وفى دمكم أن تُطِلّوه[2] .

واستنهض معاويةُ أهلَ الشام، وعقد لواءً لعمرو ، كما عقدَ لابنيه عبدالله ومحمد ، ولواءً لغلامه وَرْدان . وسار معاوية متأنّياً فى سيره .

وأخذ علىّ بجنوده طريق الجزيرة وعبرَ الفرات من الرَّقة ، ومن هناك قدَّم طلائعه أمامه ، حتى إذا كانوا بسور الروم التقوْا بطلائع معاوية ، فـكانت بين الفريقين مُناوشات قليلة ، ثم تحاجزوا .

---

(١) النخيلة : موضع قرب الـكوفة على سمت الشام .

(٢) أن تطلوه : أن تهدروه من غير ثأر .

وتلاحقت جنود علىٍّ ومعاوية ، وعَسْكَرت الطائفتان فى سهل صِفِّين ، وتواقفت الجنود الإسلامية بعضها أمام بعض .

وكان معـاوية قد سبق عليًّا ، فنزل منزلا اختاره واسعاً أَفْيَح ، وأخذ شريعةَ الفرات ، وليس فى ذلك الصُّقْع شريعة غيرها ، وجعلها فى حَوْزَته ، وبعث عليهـا أبا الأَعْوَر السُّلَمىّ يَحْمِيها ويَمْنَعها . فطلب أصحـابُ علىٍّ شريعة غيرها فلم يجدوا فأتوا عليا ، فأخبروه بِفِعْلِهم وبعطش الناس ، فدعا صَعْصَعَة بن صُوحان ، وأرسله إلى معاوية يقول له : إنا سِرْنا مسيرنا هـذا ونحن نَكْرَه قتالـكم قبل الإعذار إليـكم ، فقدَّمْت إلينا خيلَك ورجالَك فقاتلتنا قبل أن نقاتِلَك ، ونحن من رأينا الـكفّ حتى ندعوكَ ونحتجّ عليك ، وهذه أخرى قد فعَلْتُمُوها : منعتم النّاس عن الماء ، والناس غير مُنْتهين ، فابعثْ إلى أصحابِك فلْيخلُّوا بين الناس وبين الماء ، وليكفّوا لِننظر فيما بيننا وبينـكم ، وفيما قَدِمنا له ، فإن أردتَ أن نَتْرُكَ ما جِئْنا له ونَقْتَتِلَ على الماء حتى يكون الغالبُ هو الشارب فعَلْنَا .

فقال معاوية لأصحابه : ما تروْنَ ؟ فقال الوليد بن عُقْبة : امنعْهم الماء كما منعوه ابنَ عفّان ، اقتلهم عطشاً قتلهم الله ! فقـال عمرو بن العاص : خلّ بين القوم وبين الماء ، وإنّهم لن يعطشوا وأنت ريّان ، ولـكن بغير المـاء فانظر فيما بينك وبينهم . فأعاد الوليد بن عُقْبة مَقالَه ، وقال عبد الله بن أبى سَرْح : امنَعْهم الماء إلى الليل ، فإنّهم إن لم يَقْدِروا عليه رجعوا ، ولو رجعوا كان رجوعُهم هزيمة .

فقال صَعْصَعة : إنّما يمنعه الله الفَجَرة وشارِبى الخمر يومَ القيامة ، لعنك الله ولعن هذا الفاسق — يعنى الوليد — فشتموه وتهدَّدوه . فرجَع صعصعة إلى علىٍّ فأخبره بما كان ، وأن معاوية قال : سيأتيـكم رأيى . فلما سمع علىٌّ ذلك قال : قاتِلوهم على المـاء ،

فقال الأشعث بن قيس الكِنْدىّ : أنا أسيرُ إليهم ، فقال له علىٌّ : فَسِرْ إليهم ؛ فسارَ وسار معه بعضُ أصحابِ علىّ ، فلما دنوْا منهم ثاروا فى وجُوههم فرموْهم بالنَّبْل ، فترامواْ ساعة ، ثم تطاعَنُوا بالرِّماح ، ثم صاروا إلى السيوف فاقتتلوا ساعة ، ثم توالت الأَمْدَاد للفريقين ، وغلب أصحابُ علىٍّ حتى صار الماء فى أيديهم ، وقالوا : والله لا نَسْقيه أهلَ الشام ، فأرسل علىٌّ إلى أصحابه أنْ خذوا من الماء حاجتكم وخلُّوا عنهم، فإن الله نصركم بِبَغْيِهِمْ وظُلْمهم .

ثم إنَّ عليًّا دعا ثلاثة من رجاله ؛ وهم بشير بن عمرو الأنْصَارىّ ، وسعيد بن قيْس الهَمْدَانىّ ، وشبَث بن رِبْعىّ التَّميمىّ ، فقال : ائتوا هذا الرجل ، فادعوه إلى الله وإلى الطاعة والجماعة ، فقال له شبث : يا أمير المؤمنين، ألا تُطمِعُه فى سلطان توليه إياه ، أو منزلة يكون له بها أثَرَة عندك إن هو بايعك ؟ فقال علىّ : ائتوه فالقَوْه واحتجُّوا عليه وانْظُرُوا ما رأْيه .

فساروا حتى دخلوا عليه ، ثم قام بشير بن عمرو الأنصارىّ ، فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال : يا معاوية ؛ إن الدُّنْيا عنك زَائلة ، وإنك راجع إلى الآخرة ، وإن الله عزّ وجل مُحاسبك بعملك ، ومجازِيك بما قدّمَتْ يداك ، وإنّى أنشدك الله عزّ وجل أن تُفَرّق جماعَةَ هذه الأمة ، وأن تَسفِك دماءها بينها . . فقطع عليه معاوية الكلام وقال : هلاّ أوصيتَ بذلك صاحبك ! فقال بشير : إن صاحبي ليس مثلَك ، إنّ صاحبي أحقُّ البرّية كلِّها بهذا الأمر ، فى الفضل والدين والسابقة فى الإسلام والقرابة من الرسول صلى الله عليه وسلم . قال : فيقول ماذا ؟ قال : يأمُرك بتقوى الله عز وجل ، وإجابةِ ابنِ عمك إلى ما يَدْعوك إليه من الحق فإنه أسْلَمُ لك فى دنياك وخيرٌ لك فى عاقبةِ أمرك . قال معاوية : ونُطلّ دَمَ عثمان ! لا والله ، لا أفعل ذلك أبداً .

فقام سعيد بن قيس ليتكلّم، فبادره شبَث بن رِبْعى ، فتكلم وحمِد الله وأثنى عليه ثم قال : يا معاوية ، إنى قد فهمتُ ما رَدَدْت ، إنه والله لا يخفى علينا ما تغزو وما تطلبُ ؛ إنك لم تجد شيئاً تستغوى به الناسَ ، وتستميلُ به أهواءَهم ، وتستخلِصُ به طاعتَهم ، إلّا قولَك : قُتل إمامُكم مظلوماً ، فنحن نَطْلب دمه ، فاستجابَ لك سفهاء طَغَام(١) ؛ وقد علمنا أن قدْ أبطأتَ عنه بالنَّصْر ، وأحببتَ له القتل لهذه المنزلة التى أصبحت تَطْلب ، وربّ مُتمنى أمرٍ وطالبه يحول الله عزّ وجلّ دونه بقدْرته ، وربما أُوتِىَ المتمنّى أمنيّتَه وفوق أُمْنِيّته ، والله ما لَكَ فى واحدة منهما خير ؛ لئن أخطأتَ ما ترجو إنّك لشرُّ العرب حالا فى ذلكَ ، ولئن أصبتَ ما تتمنى لا تصيبُه حتى تستحلّ من ربك صَلَا النار ، فاتّق الله يا معاوية ، ودعْ ما أنت عليه ، ولا تُنازع الأمرَ أهلَه .

فقام معاوية ، وحمِد الله وأثنى عليه ؛ ثم قال : أمّا بعد ، فإنّ أولَ ما عرَفْتُ فيه سفَهك وخِفَّةَ حِلْمك قطعُك على هـذا الحسيب الشريف سيّد قومه منطقَه ، ثم عُنيتَ بعد فيما لا عِلْم لك به ، فقد كذبتَ ولَؤُمْتَ أيها الأعرابىّ الجلْف الجافى فى كل ما ذكرت ووصفت ، انصرفوا من عندى ، فإنه ليس بينى وبينكم إلا السيف . فقال شبث : أفعلينا تهوّل بالسيوف ! أقسم بالله لَيُعْجَلَنّ بها إليك ! ثم أتوا عليًّا فأخبروه الخبر .

* * *

كان القوم جميعاً يهابون أن تلتقى جموعُ الشام بجموع العراق خوفاً من الاستئصال والهلاك ، فكانت تخرجُ الفرقة من جيش أهلِ العراق ، فتخرج لها مثلها من جيش أهل الشام فيقتتلون ، وعلى هذه الحال كان شأنُهم فى ذى الحجَّة ،

(١) الطغام : أوغاد الناس .

فلما أهلّ المحرّم توادَعَ الفريقان على ترك الحرب فيه إلى انقضائه طمعاً فى الصلح ، واختلف بينهما الرسل .

فبعث علىٌّ عدىّ بن حاتم ويزيد بن قيس الأرْحبىّ وشبث بن رِبعىّ وزياد ابن خَصَفة . فلما دخلوا على معاوية حمِد الله عدىّ بن حاتم ، ثم قال : أمّا بعد ، فإنا أتيناك ندعُوك إلى أمرٍ يَجْمع الله به عزّ وجلّ كلمَتنا وأمّتَنا ، ويَحقِن به الدماء ، وتأمن به السبل ، وتُصْلَح ذات البين ؛ إنّ ابن عمّك سيّدَ المسلمين أفضلُنا سابقة ، وأحسننا فى الإسلامِ أثرا ، وقد استَجْمع له الناس ، وقد أرشدهم الله بالذى رأوْا ، فلم يَبْق أحدٌ غيرُك وغيرُ مَنْ معك ، فانْتَهِ يا معاوية ، لا يُصِبْك الله وأصحابَك بيوم مثل يوم الجمل .

فقال معاوية : كأنك إنما جئت متهدِّداً ولم تأْتِ مصلحاً ! هيهات يا عدىّ ! كلاّ والله إنى لابنُ حرب، ما يُقَعْقَع[1] لى بالشّنان؛ أما والله إنك لمن المجْلبين على ابن عفّان، وإنك لَمِنْ قتَلته ، وإنّى لأرجو أن تكون مِمَّن يقتلُ الله عزّ وجلّ به ، هيهات يا عدىّ ، قد حَلَبْتَ بالساعد الأشدّ .

فقال شبث بن ربعىّ وزياد بن خَصَفة : أتيناك فيما يصلحنا وإياك ؛ فأقبلْتَ تَضْرب لنا الأمثال ! دَعْ ما لا يُنْتَفَعُ به من القول والفعل ، وأجبنا فيما يعمُّنا وإياك نفعُه .

وقال زيد بن قيس الأرحبىّ : إنّا لم نأتك إلّا لنُبلِّغك ما بُعِثنا به إليك ولنؤدّىَ عنك ما سمعنا منك ، ونَحْنُ على ذلك لن نَدَعك إلّا بعد أن نَنْصَح لك ؛ ونَذْكُر ما ظَنَنَّا أنّ لنا به عليك حُجّة ، وإنّك راجع به إلى الأُلْفة والجماعة ، إنّ صاحِبنا

(١) مايقعقع لى بالشنان ، أى ما أخدع وما أروع ، وهو مثل . والشنان : الجلد اليابس ، والقعقعة به : تحريكه للبعير ليفزع .

مَنْ قد عرفْتَ وعَرَف المسلمون فضلَه ، ولا أظنّه يخفى عليك ؛ إن أهلَ الدين والفضل لن يعدِلوا بعلىّ ، ولن يُمَيِّلوا بينك وبينه ، فاتّقِ الله يامعاوية ، ولا تخالف عليًّا ؛ فإنّا والله مارأينا رجلا قطّ أعملَ بالتقوى ولا أزهد فى الدنيا ولا أجمع لخصال الخير كلّها منه .

فقال معاوية : أمّا بعد ؛ فإنّكم دَعَوْتُم إلى الطّاعة والجماعة ، فأمّا الجماعة التى دعوْتم إليها فمعنا ، وأما الطاعة لصاحبكم فإنا لانراها ؛ إن صاحبَكم قَتَل خليفتنا ، وفرّق جماعتنا ، وآوى ثأْرنا وقَتلتنا ، وصاحبكم يزعم أنه لم يقتله ، فنحن لانردّ عليه ذلك ، أرأيتم قَتَلة صاحبنا ؟ ألستم تعلمون أنهم أصحاب صاحِبكم . فلْيَدْفَعْهم إلينا فَلْنَقْتُلْهم به ، ثم نحن نُجيبكم إلى الطاعة والجماعة .

فقال له شَبَث : أيسرّك يامعاوية أنك مُكِّنت من عَمار تقتله ؟ فقال : وما يمنعنى من ذلك ؟ والله لوأمكنت من ابن سُمَيّة ماقتلته بعثمان ، ولكن كنت قاتله بنائل مولى عثمان .

فقال شَبَث : لاتصلْ إلى عمّار حتى تَنْدُرَ(١) الهام عن كَواهل الأقْوام ، وتضيقَ الأرضُ الفضاء عليك برُحْبِها . فقال له معاوية : إنّه لو قد كان ذلك كانتِ الأرضُ عليك أضيقَ .

ورأى معاوية أن يرسل لعلىٍّ أيضاً فبعث إليه حبيب بن مسلمة الفِهْرىّ وشُرحبيل بن السّمط ، ومعن بن يزيد بن الأخنس ، فدخلوا عليه وتكلّم حبيب ، فقال : أما بعد ، فإنّ عثمان بن عفّان كان خليفة مهديًّا يعمل بكتاب الله عزّ وجلّ ، ويُنيب إلى أمر الله ، فاستثقلتم حياتَه ، واستبطأتم وَفاته ، فعدوْتُم عليه فقتلتموه ، فادْفَعْ إلينا قتلة عثمان ـ إنْ زعمت أنك لم تَقْتله ـ نقتلهم به ، ثم اعْتَزِل أمرَ

(١) تندر : تقطع .

الناس ، فيكونَ أمرُهم شورى بينهم ، يُوَلّى النـاسُ أمرَهم مَنْ أجمع عليه رأيهم . فقال له : ماأنت لا أُمَّ لك والعزل وهـذا الأمر ، اسكُتْ فإنك لستَ هناك ، ولا بأهلٍ له ! فقام وقال : والله لتريَنّى بحيث تَـكره ! فقال علىّ : وماأنت وإن أجْلَبْتَ بخيلك ورَجلِك ؛ اذهب فصوِّب وصعِّد مابدَا لك !

وقال شُرحبيل بن السِّمْط : ما كلامى إلّا مثل كلام صاحبي ، فهلْ عنـدك جوابٌ غيرُ الذى أجبتَ به من قَبْل ؟ فقـال علىّ : نعم . ثم حمد الله وأثنى عليـه ، وذكر بعثةَ الرسول صلى الله عليه وسلم وهدايتَه للناس ، ثم ذكر أن الله قبضه إليه ، واستخلف الناس أبا بكر ، واستخلف أبو بكر عمر ، فأحسنا السّيرة وعَدلا فى الأمة ، وقد وجدْنا عليهما أن تولّيا عنا ، ونحنُ آل رسول الله ، فغفرنا ذلك لهما ، وولى عثمانُ فعمل أشياءَ عابها النّاس عليه ، فسارُوا إليه فقتلوه ، ثم أتانى الناسُ وأنا معتزل أمورهم ، فقالوا لى : بايعْ فأبيتُ عليهم ، فقالوا لى : بايعْ فإنّ الأمةَ لاترضى إلا بك ، وإنّا نخافُ إن لم تفعل أَنْ يَفترق الناس ، فبايعتهم ، فلم يرعنى إلا شِقاقُ رجلين قد بايعانى ، وخلافُ معاوية الذى لم يجعل الله له سابقة فى الدين ، ولا سَلف صدق فى الإسلام ، طليق ابن طليق ، حزب من هذه الأحزاب لم يزل لله ولرسوله وللمسلمين عدوا هو وأبوه حتى دخلا فى الإسلام كارهين ، فلا غرْو إلا انقيادُكم له وتَدَعون آل نبيكم الذى لاينبغى لكم شِقاقُهم ولا خلافهم ، ولا أن تعـدلوا بهم من الناس أحـدا ، ألَا إنى أدعوكم إلى كتاب الله وسنّة نبيه وإماتة الباطل وإحياء معالم الدين .

فقال له شُرحبيل : اشهد أنّ عثمان قتل مظلوما ، فقال لهما : لاأقول إنه قتـل مظلوما ، ولا إنه قتل ظالمـا . قالا : فمن لم يزعم أن عثمان قتل مظلوما فنحن منـه بُرآء ، ثم انصرفا .

فقال عليّ : ﴿ إنك لا تُسمِع الموتى ولا تُسمِع الصمّ الدعاء إذا ولوْا مدبرين * وما أنتَ بهادى العُمْيِ عن ضلالتهم إنْ تُسمعُ إلّا مَنْ يؤمنُ بآياتنا فهم مسلمون ﴾[1] .

ولما انسلَخ المحرم أمر عليٌّ من ينادى : ألا إنّ أمير المؤمنين يقول لكم : إنى قد استدمتكم لتراجعوا الحقّ وتنيبوا إليه ، واحتججتُ عليكم بكتاب الله ، فدعوتكم إليه فلم تَنْتَهُوا عن طغيان ، ولم تُجيبوا إلى حقّ ، وإنى قد نبذت إليكم على سواء ، إن الله لا يحب الخائنين .

ففزع أهلُ الشام إلى أمرائهم ورؤسائهم ،وخرج معاويةوعمرو يكتّبان الكتائب ويعبئان الجيوش ، وفعل عليٌّ فعلهما ، وقال : لا تقاتلوهم حتى يقاتلوكم ، فأنتم على حجة، وترْكُهم حتى يقاتلوكم حجة أخرى، فإذا هزمتموهم فلا تقتلوا مُدبراً ولا تُجهزوا على جريح ، ولا تكشفوا عَوْرة ، ولا تمثّلوا بقتيل ، وإذا وصلتم إلى رِحَال القوم فلا تهتكوا سِتْرا ، ولا تدخلوا داراً ، ولا تأخذوا شيئاً من أموْالهم ، ولا تُهيِجوا امرأة ، وإن شتمن أعراضكم وسبَبْن أمراءكم فإنهنّ ضعاف القوى والأنفس . وكان يقول هذا المعنى لأصحابه فى كل موطن .

وحرّض أصحابه فقال : عباد الله، اتقّوا الله ، وغُضُّوا الأبصار واخفضوا الأصوات وأقلّوا الكلام ، ووطّنوا أنفسكم على المنازلة والمجاولة والمبارزة والمناضلة والمعانقة والمكادمة والملازمة ، فاثبتوا واذْكُرُوا الله كثيراً لعلكم تفلحون ، ولا تَنَازعوا فتفشلوا وتذهبَ رِيحُكُمْ واصبروا إنّ الله مع الصَّابرين ، اللّهُمَّ أَلْهِمْهُم الصبر ، وأَنْزِل عليهم النَّصْر ، وأَعظم لهم الأجر .

وأصبح عليٌّ فجعل على خيل الكوفة الأشتر ، وعلى جند البصرة سَهل بن حُنَيف

---

(١) سورة النمل ٨٠ ، ٨١ .

وعلى رجّالة الكوفة عمار بن ياسر ، وعلى رجّالة البصرة قيس بن سعد ، وهاشم بن عُتبة معه الرّاية ، وجعل مِسْعَر بن فَدَكِىّ على قراء أهل البصرة .

وبعث معاوية على ميمنته ابن ذى الكلاع الحميرىّ ، وعلى ميسرته حبيب بن مسلمة الفِهرىّ ، وعلى المقدّمة أبا الأعور السُّلمىّ ، وعلى خيل دمشق عمرو بن العاص. وعلى رجّالة دمشق مسلم بن عُقْبة المُرِّىّ ، وعلى رَجّالةِ الناس كلهم الضَّحَّاك ابن قيس .

وبايعَ رجالٌ من أهل الشام على الموت ، فعقَلوا أنفسهم بالعمائم ، وكانوا خمسة صفوف، وخرجوا أول يوم من صفر فاقتتلوا، وكان على الذين خرجوا من أهل الكوفة الأشتر ، وعلى مَنْ خرج من أهل الشام حَبيب بن سلمة ، فاقتتلوا يومهم قتالاً شديداً معظم النهار ، ثم تراجعوا وقد انتصف بعضُهم من بعض .

ثم خرج فى اليوم الثانى هاشم بن عُتْبة فى خيل ورجال ، وخرج إليه من أهل الشام أبو الأعور السُّلَمِىّ ، فاقتتلوا يومهم ذلك ثم انصرفوا .

وخرج فى اليوم الثالث عمّار بن ياسر ، وخرج إليه عمرو بن العاص ، فاقتتلوا قتالا شديداً .

وفى اليوم الرابع خرج محمدّ بن علىّ بن أبى طالب ، وخرج إليه عبيد الله بن عمر ابن الخطاب فى جَمْعَيْن عظيمين ، فاقتتلوا أشدَّ قتال ، وأرسل عبيد الله إلى ابن الحنفِيّة يَدْعُوه إلى المبارزة ، فخرج إليه ، فحرّك علىٌّ دابته ، وردّ ابنه ، وبرز علىٌّ إلى عبيد الله ، فرجع عبيد الله ، وقال محمد لأبيه : لو تركتَنى لرجوت قتْله . ثم قال : يا أمير المؤمنين ، وكيف تبرُز إلى هذا الفاسق ؟ والله إنى لأرغب بك عن أبيه فقال علىّ : يا بنىّ ، لا تقل فى أبيه إلا خيراً . وتراجع الناس .

وخرج عبد الله بن عباس فى اليوم الخامس ، وخرج إليه الوليد بن عُقْبة، فاقتتلوا قتالا شديداً ؛ فسبّ الوليد بنى عبد المطلب ، فطلبه ابن عباس ليبارزه فأبى وقاتلَ ابن عباس قتالا شديداً .

وخرج فى اليوم السادس قيس بن سعد الأنصارىّ ، وخرج إليه ابن ذى الكلاع الحميرىّ ، فاقتتلوا قتالا شديداً ، وانصرفوا .

ثم إن عليًّا قال : حتّى متى لا نناهض هؤلاء القوم بأجمعنا ! ثم حمد الله وأثنى عليه ، ثم قال : الحمدُ لله الذى لا يُبْرَم مانقض ، وما أَبْرَم لا ينقضه الناقضون ، ولو شاء الله ما اختلف اثنان من خَلْقه ، ولا اختلفتِ الأمّة فى شىء ، ولا جَحَد المفضولُ ذا الفضل فَضْلَه ، وقد ساقتْنا وهؤلاء القوم الأقدار ، فنحن من ربّنا بمرأى ومَسْمَع ؛ فلو شاء عجّل النّقمة ، وكان منه التغيير حتى يكذِّب اللهُ الظالم ، ويَعلم الحق أينَ مصيرُه ! ولكنّه جعل الدنيا دار الأعمال ، وجعل الآخرة دار القَرار ، ليجزى الذين أساءوا بما عمِلوا ، ويجزِىَ الّذين أَحْسَنُوا بالحسنى . ألا وإنكم لاقُو القومِ غداً، فأطيلوا اللّيلة القيام ، وأكثروا تلاوة القرآن ، واسألوا الله النّصر والصّبر ، والقوهم بالجدّ والعزم ، وكونوا صادقين .

فقام القوم يصلحون سلاحهم ، فمرّ بهم كعب بن جُعَيل ، فقال :

أصْبَحتِ الأمّة فى أمرٍ عَجَبْ والمُلْك مجموعٌ غداً لمَنْ غَلَبْ
فقلتُ قولا صادِقاً غير كَذِبْ إنّ غداً تَهْلِك أعلامُ العربْ

وعَبّى علىٌّ الناسَ ليلته حتى الصباح ، وزحف بالناس ، وخرج إليه معاوية فى أهل الشام ، وعرّف على القبائل ، فقال للأزد : اكْفونا الأزد ، وقال لخثْعَم : اكفونا خَثْعم ، وأمرَ كل قبيلة أن تَكفِيَه أختَها من الشام ، إلّا أن تكونَ قبيلةٌ ليس منها بالشام أحد ، فيصرِفَها إلى قبيلة أخرى من الشام ليس منهم بالعِراق

أحد ، مثل بَجيلة ، إذْ لم يكن بالشّام منهم إلّا القليل ، فصرَفهم إلى لَخْم .

وتناهض الناسُ يومَ الأرْبِعاء ، واقْتَتَلوا قتالًا شديداً . ثم انصرفوا عند المساء وكلٌّ غير غالب . فلمّا كان يوم الخميس صلّى عليٌّ بغَلَس، وخرج بالنّاس إلى أهل الشام ، فزحف إليهم وزحفوا معه ، ثم انتهى هذا اليوم ، وقد انكشفت ميمنة أهل العراق، وانتهت هزيمتهم إلى عليّ ؛ فمشى نحو الميسرة ، فانكشفت عنه مُضَر فى الميسرة ، وثبتت معه ربيعة ، ودنا منه أهل الشام ، فما زاده قربُهم إلا إسراعا ، فقال له ابنُه الحسن : ما ضرّكَ لو سعيتَ حتى تنتهى إلى هؤلاء القوم من أصحابك ! فقال : يابنىّ، إن لأبيك يوماً لا يعدوه ، ولا يبطىء به عنه السعى ، ولا يعجل به إليه المشى ، إن أباكَ والله لا يبالى أوَقع على الموت أم وقع الموت عليه .

فلما وصل إلى ربيعة نادى بصوت عال كغير المكترث لما فيه الناس : لمن هذه الرايات ؟ قالوا : رايات ربيعة ، قال : بل راياتٌ عَصم الله أهلَها ، فصبّرهم وثبّت أقدامهم .

ومرّ بعلىٍّ فى ذلك الوقت الأشترُ النَّخَعىّ ، فقال له : ائتِ هؤلاء القومَ . فقل لهم : أين فرارُكم من الموت ؟ فذهب إليهم الأشْتر ، وهيّج الناسَ لخوض الغمَرات، فتابَعوه وكرُّوا معه ، فأخذَ لا يعمِد لكتيبةٍ إلا كَشَفها ، ولا لجمعٍ إلا حازَه وردَّه ، ولم يزلْ حتى كشف هذه الجموع الهائجة، وألحقهم بصفوف معاوية بين العصر والمغرب، ولم يزَل الأشتر فى هَجْمته حتى وصل إلى حَرَس معاوية ، وكان معاوية يقول : أردتُ فى هذا الوقت أن أنْهزم ، فذكرت قول ابن الإطنابة :

أبتْ لى عِفَّتِى وأبى بلائِى ... وإقدامِى على البَطَلِ المُشيحِ
وإعطائِى على المكروه مالِى ... وأخذِى الحمدَ بالثّمن الربيحِ
وقولِى كلما جشأتْ وجاشَتْ : ... مكانَكِ تُحْمَدى أو تستريحى

فمنعنى هذا القول من الفرار .

***

ولما أمسَى المساء على الفريقين لم يفترِقا ، واستمرّ القتالُ حتى الصباح ؛ وسُمِّيت هذه الليلةُ ليلةَ الهرِير ، يُشبِّهونها بليلةِ القَادسيّة ، فتطاعَنُوا حتى تقصَّفت الرِّماح ، وتراموا حتى نفدَ النَّبْل ، وأخذوا السيوف ، وعَلىٌّ يَسيرُ فيما بين الميمَنة والميسَرَة ، ويأمر كلَّ كَتيبة أن تقدِم على التى تَليها ، والأشْتَر يقول : مَنْ يشترى نفسَه ، ويقاتل مع الأشْتر يظهرْ أو يَلْحقْ بالله ! فاجتمع إليه ناسٌ كثير ، فقال لهم : شُدُّوا شَدَّة — فِدًى لكم خالى وعمى — تُرْضُون بها الرّب ، وتعزّون بها الدين ثم ضرب وَجْهَ دابته ، وقال لصاحب رايته : أَقْدِمْ بها ، وحمل على القوم ، وحملوا معه ، فضرب أهلَ الشام حتى انتهى بهم إلى عَسْكرهم ، فقاتلوه قتالًا شديداً .

ولما رأى علىٌّ الظَفَر من ناحية الأشتر أمدّه بالرّجال ، فقال عمرو بن العاص لوردان مولاه : أتَدرِى ما مَثلى ومَثلك ومَثل الأشتر ؟ قال : لا ، قال : كالأشقر ، إن تقدم عَقَر ، وإن تأخر عُقِر ؛ لئن تأخرتَ لأضربنّ عنقَك ، قال : أما والله يا أبا عبد الله ؛ لأورِدنّك حياضَ الموت ، ضَعْ يدكَ على عاتِقى . ثم جعل يتقدّم ويتقدّم ويقول : لأُورِدَنّك حياضَ الموت . واشتدّ القتال .

فلما رأى عمرو أنّ أَمْرَ أهل العراق قد اشتدّ وخاف الهلاك قال لمعاوية : هل لك فى أمر أَعْرِضه عليك ، لا يزيدُنا إلا اجتماعاً ، ولا يزيدهم إلا فُرْقة ؟ قال : نعم ، قال : نرفَعُ المصاحف ، ثم نقول : هذا حَكَم فيما بيننا وبينكم ، فإن أبى بعضُهم أن يقبَلَها وجدتَ فيهم مَنْ يقول : يَنْبغى لنا أن نقبل ، فتكون فُرقة بينهم ، وإن قَبِلوا ما فيها رَفعْنا القتالَ عنّا إلى أجل !

فوافق معاوية ، وأشارَ على أصحابه بهذا الرأى ، فرفعوا المصاحف على الرِّماح ،

وقالوا : هذا حُكْم كتاب الله عزّ وجلّ بيننا وبينكم ، مَنْ لثغور الشام بَعْدَ أهله ! مَن لثغور العراق بَعْدَ أهله .

فقال أهل الكوفة : نجيب إلى كتاب الله ، فقال لهم علىّ : عبادَ الله ! امضُوا على حقّكم وصدقكم وقتالِ عدُوِّكم ؛ فإنّ معاوية وعمْرًا والضَّحَّاك ومَنْ معهم ليسوا بأصحاب دِين ولا قرآن ، أنا أعرَفُ بهمْ منكم ، قد صحبتُهم أطفالا ، ثم رجالا ، فكانوا شرَّ أطفال وشرَّ رجال ، وَيْحَكُمْ ! واللهِ ما رفعوها إلا خديعة ووهناً ومكيدة .

فقالوا له : لا يَسَعُنا أن نُدْعى إلى كتاب الله فنأبَى أن نقبله . فقال لهم علىّ : فإنى إنما أقاتلهم ليَدِينوا لِحُكْم الكتاب ، فإنهم قد عَصوا الله فيما أمرهم ونسوا عَهْدَه ، ونبَذوا كِتابه . فقال له مسعر بن فدكىّ التميمى وزيد بن حصين الطائىّ فى عصابة من القُرَّاء الذين صاروا خوارج بعد ذلك : يا علىّ أجِبْ إلى كتاب الله عز وجل إذْ دُعِيت إليه ، وإلا دفعناك برُمَّتِك إلى القوم أو نَفْعل بك ما فعلنا بابن عفّان ! قال : فاحفظوا عنّى نَهْيِي إياكم ، واحفظوا مقالَتكم ، فإن تُطيعونى فقاتلوا ، وإن تعصونى فاصْنَعوا ما بدا لكم .

قالوا : ابْعَثْ إلى الأشتر فَلْيأتِك . فبعث علىٌّ يَزِيد بن هانىء إلى الأشْتَر يستدْعيه ، فقال الأشتر : ليستْ هذه الساعة بالساعة التى ينبغى لك أن تُزِيلنى عن موقفى : إنى قد رجَوْت أن يَفتَح الله لى .

فرجع يزيد فأخبرَه ، وارتفعَتِ الأصوات ، وارتفع الرَّهج[1] من ناحية الأشتر ، فقالوا : واللهِ ما نراك إلا أمَرْتَه أن يقاتل ، فقال علىّ : هَلْ رأيتمونى ساررته ؟ أمَا كلمتُه على رُءوسكم وأنتم تسمعون ! قالوا : فابعث إليه فلْيَأْتِك

---

(١) الرهج : الشغب .

وإلا والله اعتزلنــاك ، فقال له : ويلَك ! يايزيد قل له أقبل إلى ، فإن الفِتْنَة قد وقعت ، فأبلغه ذلك ، فقال الأشـتر : ألِرفع المصاحف ؟ قال : نعم ، قال : والله لقد ظننتُ أنها سترفع اختلافا وفُرقة ؛ إنهـا مَشورة ابن العاص ، ألا ترى إلى الفَتْح ، ألا ترى مايلقونْ ، ألا ترى ماصَنع الله لنــا ! لن ينبغىَ أن أدَع هؤلاء وأنصرفَ عنهم . فقال له يزيد : أتُحبّ أن تظفر وأميرُ المؤمنين يُسلَم إلى عدوّه أو يقتل ! قال : لا والله ، سبحان الله ، فأعلمه بقولهم . فأقبل إليهم الأشـتر وقال : يأهل العراق ، يأهل الذلّ والوهن ، أحِينَ علوتم القَوْم ، وظنّوا أنكم لهم قاهرون رفعوا المصاحف يدعونـكم إلى مافيها ! وهم والله قد تركوا ماأمر الله به فيها ، وسنّة مَنْ أنزلتْ عليه . فأمهلونى فُواقا[1] ؛ فإنى قد أحسست بالفتح . قالوا : لا ، قال : أمهلونى عَدْوَ الفرس فإنى قد طمِعتُ فى النصر . قالوا : إذَنْ ندخـلَ معك فى خطيئتك . قال : نخبّرونى عنكم ، متى كنتم مُحقين ! أحين تقاتلون وخيارُكم يُقتَلون ! فأنتم الآن إذا أمسكتم عن القتــال مُبْطلون . أم أنتم الآنَ مُحقون ، فقتلاكم الذين تنكِرون فضلَهم وهم خيرٌ منـكم فى النار .

قالوا : دعْنا منك يا أشْتَر ، قاتلناهم لِله ، ونَدَعُ قتالَهم لِله ؛ قال : خُـدِعتُم وانْخدعتم ، ودُعيتم إلى وضع الحرب فأَجبتم ، يا أصحابَ الجباهِ السود ، كنا نظن أن صلاتـكم زهادة فى الدنيا ، وشَوْقاً إلى لقــاء الله ، فلا أرى مُرادكم إلا قبحاً ، يأشبَــاه النّيب الجُلالة[2] ، ماأنتم بِرائين بعـدها عزّاً أبداً ، فابعدوا كما بَعُدَ القوم الظالمون .

فسبُّوه وسبَّهم وضربوا وَجْه دابته بسياطهم ، وضرب وجوه دوابّهمْ بسوْطه ،

---

(١) الفواق : مابين الحلبتين من الوقت . (٢) النيب الجلالة : النياق المسنة .

فصاح به وبهمْ علىّ فكَفّوا . وقال النـاس : قد قبلنـا أن نجعل القرآن بيننا وبينهم حكما .

فجاء الأشعث بن قيس إلى علىّ فقال : أرَى الناس قد رَضُوا بما دعَوْهم إليـه من حُكْم القرآن ، فإن شئت أتيتُ معاوية ، فسألتُه : ما يريد ؟ قال : ائته ، فأتاه فقال لمعـاوية : لأىّ شىء رفعتُم هـذه المصاحف ؟ قال : لنرجـعَ نحنُ وأنتم إلى ما أمر الله به فى كتابه ، تبعثون رجلًا ترضون به ونبعث نحن رجـلًا نرضى به ، نأخذ عليهما أن يَعْمَـلا بما فى كتاب الله لايَعْدُوَانه ، ثم نتّبع ما اتفقا عليه . قال له الأشعث : هذا الحق .

ثم عاد الأشعث إلى علىّ ، وأخبره بما قال معاوية ، وتراضى الفريقان على هـذا الرأى ، وقال أهل الشام : قد رضينا عمرو بن العاص . وقال الأشعث وأولئك القوم الذين صاروا خوارج : إنا قد رضينا بأبى موسى الأشعرىّ ! فقال علىّ : قد عصيتمونى فى أوّلِ الأمر ، فـلا تعصونى الآن ، لاأرى أن أُوَلِّىَ أبا موسى . فقـال الأشعث وزيد بن حصين ومسعر بن فـدَكى : لا نرْضَى إلّا به ؛ فإنه قد حـذّرَنا ماوقَعْنا فيه .

قال علىّ : فإنه ليس بثقة ، قد فارقنى وخَذّل الناس عنّى ، ثم هرب منى حتى أمَّنْتُه بعد أشهر ، ولـكن هـذا ابنُ عباس ، أُوَلِّيه ذلك ، قالوا : والله مانُبالى أنت كنت أم ابن عباس ، لانريد إلا رجـلًا هو منك ومن معاوية سواء . قال علىّ : فإنى أجعل الأشتر ، قالوا : وهلْ سَعَّر الأرضَ غـيرُ الأشتر ! فقال : قد أبيتم إلا أبا موسى ؟ قالوا : نعم ، قال : فاصنعوا ماأردتمْ .

فبعثوا إليه ، وقد اعتزَل القتال ، فدخل عليه مَوْلًى له ، فقال : إنّ النـاسَ قد

اصطلحوا ، فقال : الحمدُ لله ، قال: قد جعلوك حكماً ، قال: إنّا لله وإنّا إليه راجعون . ثم جاء أبو موسى حتى دخل العسكر .

ولما عَلِم الأشتر جاء إلى عليّ فقال : أَلِزَّنى[1] بعمرو بن العاص ، فوالله لئن ملأتُ عيني منه لأقتلنّه . وجاء الأحنف بن قيس فقال : يا أمير المؤمنين ، إنك قد رُميت بحجَر الأرض ، وإنى قد عجَمْتُ أبا موسى وحلَبْتُ أشطره ، فوجدته كليل الشَّفْرَة ، قريب القعْر ، وإنه لا يصلح لهؤلاء القوم إلا رجل يدْنو منهم حتى يصير فى أكُفِّهم ، ويبعدُ حتى يصيرَ بمنزلة النجم منهم ، فإن أبيتَ أن تجعلنى حكما فاجعلنى ثانياً أو ثالثاً ، فإنه لن يَعْقد عُقدة إلّا حللتها ، ولا يحلّ عقدة أعْقدُها لك إلا عقدتُ أخرى أحكمَ منها . فأبى الناس إلا أبا موسى والرضا بالكتاب ، فقال الأحنف : إن أبيتم إلّا أبا موسى فأدفئوا ظهرَه بالرجال .

***

وحضر عمرو بن العاص عند عليّ ليكتب العهد بحضوره ، فكتبوا : « بسم الله الرحمن الرحيم . هذا ما تقاضى عليه أمير المؤمنين . . . » فقال عمْرو للكاتب: اكتب اسمه واسم أبيه ، هو أميركم ، وأمّا أميرُنا فلا . فقال الأحنف : لا تمحُ اسمَ أمير المؤمنين ، فإنى أخافُ إن محوتَها ألّا ترجع إليك أبداً ، لا تمحُها وإن قتلَ الناسُ بعضهم بعضاً ! فأبى ذلك عليّ مليًّا من النّهار ، ثم إن الأشعث بن قيس قال للكاتب: امحُ هذا الاسم ، فمحاه ، فقال عليّ : الله أكبر ! سُنّة بسنّة ، وإنى لكاتب رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم الحُدَيبية ، فكتبت « محمد رسول الله » ، فقالت قريش : لستَ برسول الله ، ولكن اكتب اسمك واسم أبيك ،

---

(١) لزه وألزه : ألصقه .

فأمرنى رسول الله صلى الله عليه وسلم بمحوه ، فقلت : لا أستطيعُ ، فقال : أرِنيه ، فأريتهُ ، فمحاه بيده ، وقال : إنك ستُدْعَى إلى مثلها فتجيب ، فقال عمرو : سبحان الله ! أنُشبَّه بالكفّار ونحن مؤمنون ! فقال علىّ : ومَتَى لم تكن للفاسقين وليًّا وللمؤمنين عَدوًّا ! فقال عمرو : والله لا يجمع بينى وبينك مجلس بعد هذا اليوم أبداً ، فقال علىّ : أنى لأرْجُو أن يطهِّرَ الله مجلسى منك ومن أشباهك ، ثم كتب الكتاب :

« بسم الله الرحمن الرحيم . هذا ما تقاضَى عليه علىّ بن أبى طالب ومعاوية ابن أبى سفيان ، قاضى علىّ على أهل الكوفة ومَنْ معهم مِنْ شيعتهم من المؤمنين والمسلمين ، وقاضى مُعاوية على أهل الشام ومَن كان معهم من المؤمنين والمسلمين : إننا نَنْزِل عند حكم الله وكتابه ، وألّا يجمع بيننا غيره ، وأنّ كتاب الله بيننا من فاتحته إلى خاتمته ، نُحْيِى ما أحيا ، ونميت ما أمات ، فما وجد الحكمان ــ وهما أبو موسى عبد الله بن قيس وعمرو بن العاص ــ فى كتاب الله عزّ وجلّ عملا به ، وما لم يجداه فى كتاب الله عزّ وجلّ ، فالسُّنَّة العادلة الجامعة غير المفرِّقة . وأخذَ الحكَمانِ من على ومعاوية ومن الجندين من العهود والمواثيق والثقة من الناس أنهما آمنان على أنفسهما وأهليهما ، والأمة لهما أنصار على الذى يتقاضيان عليه . وعلى المؤمنين والمسلمين من الطائفتين كلتيهما عهدُ الله وميثاقه أَنَّا على ما فى هذه الصحيفة ، وأنْ قد وجَبَتْ قضيتُهما على المؤمنين فإن الأمْن والاستقامةَ ووضعَ السلاح بينهم أينما ساروا على أنفسهم وأهليهم وأموالهم وشاهدِهم وغائبهم . وعلى عبد الله بن قيس وعمرو بن العاص عهدُ الله وميثاقه أن يَحْكما بين هذه الأمة ، ولا يردَّاها فى حَرْب ولا فرقة حتى يعصيَا الله . وأجّلا القضاء إلى رمضان ، وإن أحبّا أن يؤخّرا ذلك أخّراه على تراضٍ منهما ، وإن تُوُفِّىَ أحد الحكمين فإن

أمير الشيعة يختار مكانه ـ ولا يألو ـ من أهل المعدلة والقسط ، وإنّ مكان القضية الذى يقضيان فيه مكانٌ عَدْل بين أهل الكوفة والشام ، وإن رضيا وأحبّا ، فلا يحضرها فيه إلّا مَنْ أرادا . ويأخذ الحكَمان مَنْ أرادا من الشهود ، ثم يكتبان شهادتهما على مافى هذه الصحيفة ، وهم أنصارٌ على مَنْ ترك هذه الصحيفة ، وأراد إلحاداً أو ظلماً ؛ اللهمّ إنّا نستنصرك على مَنْ ترك مافى هذه الصحيفة » .

وشهد الأشعث بن قيس وسعيد بن قيس الهَمْدانىّ وورْقاء بن سمىّ البَجَلىّ ، وغيرهم من أصحاب علىّ ، وأبو الأعور السُّلَمِىّ وحبيب بن مَسْلَمة وزَمْل بن عمرو العُذْرِىّ من أصحاب معاوية . وقيل للأشتر ليكتب فيها ، فقال : لاصحبتْنى يمينى ولا نفعتْنى بعدها شمالى ، إن خُطَّ لى فى هذه الصحيفة اسم . وكُتب الكتاب يوم الأربعاء لثلاث عشرة خلت من صفر سنة سبع وثلاثين ، واتّفقوا على أن يُوافِى أميرُ المؤمنين علىٌّ موضع الحكَمين بدوْمة الجندل فى شهر رمضان، وكذلك معاوية ؛ مع كلٍّ منهما أربعمائة من أصحابه وأتباعه .

وخرج الأشعث بالكتاب يقرؤه على الناس حتى مرَّ على طائفة من بنى تميم ، فيهم عُرْوة بن أُدَيّة ، فقرأه عليهم فقال عُرْوة : تحكِّمون فى أمر الله الرجال ! لاحكْم إلّا لله . ثم شَدَّ بسيفه ، فضرب به عَجُز دابّة الأشعث ضربةً خفيفةً ، واندفعت الدابّة ، وصاح به أصحاب الأشعث ، فرجع وغضب للأشعث قومهُ وناس كثير من أهل اليمن ، فمشى إليه الأحنف بن قيس ومِسْعر بن فَدَكىّ وناس من تميم ، فاعتذروا، فقبل وشكر .

وقيل لعلىّ : إن الأشتر لا يُقرّ بما فى الصحيفة ، ولا يَرى إلّا قتال القوم . فقال علىّ : وأنا والله مارضيت ، ولا أحببت أن ترْضَوْا ؛ فإذا أبيتمْ إلّا أن ترضَوْا

فقد رَضيت ؛ وإذْ رضيت فلا يَصْلُح الرجوع بعد الرضا ، ولا التَّبْديلُ بعد الإقرار ، إلّا أن يُعصَى الله ويتعدّى كتابه ، فقاتلوا مَنْ تَرَكَ أمرَ الله . وأمّا الذى ذكرتم من تركه أمرى وما أنا عليه فليس من أولئك ، ولستُ أخاف على ذلك ، ياليت فيكم مثله اثنين ، ياليت فيكم مثله واحداً ، يرى فى عدوّى ما أرى ؛ إذَنْ لخفّتْ علىّ مئونتكم ، ورجوْت أن يستقيم لى بعض أَوَدِكم ، وقد نهيتكم فعصيتمونى ، فكنت أنا وأنتم كما قال أخو هوازن :

وهلْ أنا إلّا من غَزِيَّة إن غوتْ غَوَيْتُ وإنْ تَرْشُدْ غَزِيَّةُ أرشُدِ[1]

والله ، لقد فعلتم فعلةً ضعضعت قوّة ، وأسقطتْ مُنّة ، وأورثت وهْنا وذِلّة ، ولمّا كنتم الأعلَيْن ، وخاف عدوّكم الاجتياح ، واستحرّ بهم القتل ، ووجدوا ألم الجراح رفعوا المصاحف ، فدعوْكم إلى مافيها ليفتنوكم عنهم ، ويقطعوا الحرب ، ويتربَّصوا بكم المنون خديعةً ومكراً ، فأعطيتموهم ماسألوا ، وأبيتم إلّا أن تُدهنوا[2] ، وايم الله ما أظنكم بعدها توفّقون إلى الرشد .

***

ثم رجع الناس عن صِفِّين ، وقد فشا فيهم النِّزاع ودبّ الشقاق ، وأخذوا يقطعون الطريق بالتشاتم والتضارب بالسياط ، يقول الخوارج : ياأعداء الله ، أَدْهنتم فى أمر الله ! ويقول الآخرون : فارقتم إمامنا ، وفرّقتم جماعتنا !

وساروا حتى جازوا النُّخَيْلَة[3] ، ورأوْا بيوتَ الكوفة ، فإذا بشيخ فى ظلّ بيتٍ عليه أثر المرض ، فسلّم عليه علىٌّ ، فردّ ردًّا حسناً ، فقال له علىّ : أرى وجهَك متغيّراً ، أمِنْ مرض ؟ قال : نعم ، قال : لعلّك كرهتَه . قال : ما أُحبُّ أنه

(١) لدريد بن الصمة ، ديوان الحماسة — بشرح التبريزى ٢ : ٣٠٦ .

(٢) الإدهان : المصانعة والنفاق .

(٣) النخيلة : موضع قرب الكوفة على سمت الشام .

بنعيرى ، فقال : أليس احتساباً للخير فيما أصابك ؟ قال : بلَى ! قال : فأبْشِرْ برحمة الله وغفران ذنبك ، مَنْ أنت يا عبد الله ؟ قال : صالح بن سُلَيم ، قال : مِمّن أنت ؟ قال : امّا الأصل فمن سَلامان طـيّئ ، وأمّا الدعوة والجوار فنى سُليم بن منصور ، فقال : سبحان الله! ما أحسن اسمك واسمَ أبيك، واسم مَن اعتزيت إليه ، واسمَ أدعيائك! هل شهدت معنا غَزاتنا هذه ؟ قال : لا والله ، ولقد أردتُها ، ولـكن ما ترى من أثر الحمّى منعى عنها ، فقال علىّ : ﴿ لَيْسَ عَلَى ٱلضُّعَفَاءِ وَلَا عَلَى ٱلْمَرْضَى وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ ؛ مَا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾(١) .

خبّرنى ، ما يقول الناسُ فيما كان بيننا وبَيْن أهل الشام ؟ قال : فيهم المسرور وهم يغشّون الناس ، وفيهم المـكْبوت الآسفُ بمـا كان بينك وبينهم ، وأولئك نُصحاء الناس لك . قال : صَدَقْت ، جعلَ الله ما كان من شكْوَاكَ حَطًّا لسيئاتك ، فإنَّ المرض لا أَجْرَ فيه ، ولـكن لا يَدَع على العبد ذَنْباً إلا حطَّه ، وإنما الأجْرُ فى القولِ باللِّسان والعمل باليد والرِّجْل ، وإن الله عزّ وجلّ لَيُدْخِل بِصِدْق النيـة والسريرة الصالحة عالَماً من عباده الجنة .

ثم مضى غير بعيد ، فلقيه عبد الله بن وَديعة الأنصارىّ ، فدنا منه ، وسلّم عليه ، وسايره فقال له : ما سمعتَ النـاس يقولون فى أمرنا ؟ قال : منهم المعجَب ، ومنهم الـكاره له ، قال : فـما قول ذَوِى الرأى ؟ قال : يقولون : إنّ علياً كان له جَمْعٌ عظيم ففرّقه ؛ وكان له حصن حصين فهدَّمه ، فتى يَبْنِى ما هدم ، ويجمَع ما فرّق ! ولو كان مضى بمَنْ أطاعه إذ عصاه مَنْ عصاه ، فقاتل حتى يظفر أو يهلِك كان ذلك الحزم قال علىٌّ : أنا هَدَمْت أم هم هَدَموا ؟ أنا فرّقْت أم هم فرّقوا ؟ أمّا قولهم : لوْ كان مَضى بمن أطاعه فقاتلَ حتى يظفر أو يهلِك ، فوالله ما خَفِىَ هذا عنّى ، وإن

(١) التوبة ٩١ .

كنت لَسخيًّا بنفسى عن الدنيا، طيِّب النفس بالموت ! ولقد همتُ بالإقدام على القوم، فنظرت إلى هَـذين قد ابْتَدَرانى ـ يعنى الحسن والحسين ـ ونظرتُ إلى هذين قد استقدَمانى ـ يعنى عبد الله بن جعفر ومحمد بن على ـ فعلمتُ أنَّ هذين إنْ هَلَـكا انقطع نسلُ رسول الله صلى الله عليه وسلّم من هذه الأمة ، وكرِهت ذلك ، وأشفقت على هذين أن يَهلـكا ، وايمُ الله لئن لقيتُهم بعد يومى هذا لأَلْقَيَنَّهم وليسوا معى فى عسكر ولا دار .

ثم مضى ، وإذا على يمينه قبور سَبْعة أو ثمـانية ، فقال علىّ : ما هذه ؟ فقيل : يا أمير المؤمنين ، إن خَبّاب بن الأرتّ تُوُفّى بعد مَخْرَجك ، وأوصى بأن يُدْفَن فى الظَّهْر ـ وكان الناس إنما يُدفنون فى دورهم وأفنيتهم ، وكان أول مَنْ دُفِن بظاهر الـكوفة ، ودفن الناس إلى جَنْبه ، فقـال علىّ : رحم الله خَبّاباً ، فلقد أسْلَم راغباً ، وهاجر طائعاً ، وعاشَ مُجاهداً ، وابتُلِىَ فى جسمه أحْوَالا ، ولن يضيع الله أجر من أحسن عملا ، ثم وقف على القبور فقال : السَّلام عليكم يا أهل الدِّيار الموحشة، والمحالّ المقفرة ، من المؤمنين والمؤمنات والمسلمين والمسلمات ، أنتم لنـا سَلَف فارط ، ونحن لـكم تبَع ، وبكم ـ عما قليل ـ لاحقون ، اللهم اغفرْ لنا ولهم ، وتجاوزْ بِعَفْوِك عنّا وعَنْهُمْ ، طوبى لمن ذكر الميعادَ ، وعمِل للحساب، وقنع بالـكَفاف ، ورضى عَنِ الله عزّ وجلّ .

ثم سار فسمِـع بكاءً ، فقال : ما هذه الأصوات ؟ فقيل : البُكاء على قَتْلى صِفِّين ، فقال : أما أنى أشهد لِمَنْ قتل منهم صابراً محتسباً بالشهادة .

ثم مرّ بالشِّبَاميين ، فسمع رَجَّة شديدة ، فوقف ، فخرج إليه حرب بن شُرحبيل الشِّبامىّ ، فقـال له علىّ : أيَغْلِبـكم نساؤكم ؟ ألا تَنْهَوْنَهُنّ عن هذا الرَّنين ! قال : يا أميرَ المؤمنين ، لو كانت داراً أو دارَيْن أو ثلاثا قدرْنا على ذلك ؛ ولـكن قُتِل

من هذا الحى ثمانون ومائة ؛ فليْس دارٌ إلّا وفيها البكاء ، فأما نحن معشرَ الرجال فإنا لانبكى ؛ ولكن نفرحُ بالشهادة . قال علىٌّ : رَحِمَ الله قَتْلَاكم وموتاكم . ثم سار فأقبل حَرْب يمشى معَه وعلىٌّ راكب ، فقال له علىّ : ارْجِع ووقف ، ثم قال : ارجع ؛ فإنّ مَشْىَ مثلكَ مع مِثْلى فتنة للوالى ، ومَذَلّة للمؤمن .

ثم مضى حتى مرّ بالناعطيين ـ وكان جُلّهم عثمانية ـ فسمعَ بعضهم يقول : والله ما صنع علىٌّ شيئاً ، ذهب ثم انصرف فى غير شىء . فلما رأوْه أبْلَسُوا[١] ، فقال علىٌّ لأصحابه : وُجوه قومٍ ما رأوا الشام ، ثم قال لأصحابه : مَنْ فارقناهم آنفا خيرٌ مِنْ هؤلاء ، ثم قال :

أخوكَ الذى إنْ أجْرضَتْكَ مُلِمَّةٌ　　من الدّهْر لم يبرحْ لبثّكَ وَاجما
وليسَ أخوكَ بالذى إن تشعَّبتْ　　عليك الأمورُ ظلَّ يلحاكَ لائما

ثم مضى ، حتى دخل الكوفة .

وقَبْل أن يدخل الكوفة فارقَه الخوارج ، وذهبوا إلى حَرُوراء[٢] ، ونزل بها منهم اثنا عشر ألفا ، ونادى مناديهم : إنّ أمير القتال شِبْث بن رِبْعىّ التميمىّ ، وأمير الصلاة عبد الله بن الكوّاء اليشكُرِىّ ، والأمر شورى بعد الفتح ، والبَيْعة لله عزّ وجلّ ، والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر .

فلمّا سمع علىٌّ بأمرهم بعث إليهم عبد الله بن العباس ، وقال له : لا تعجَلْ إلى جَوابهم وخُصومتهم حتى آتيَك .

فخرج إليهم ، فأقبلوا يُكلّمونه ، فلم يصبر حتى راجَعهم وقال : مانَقَمتم من

---

(١) أبلسوا : تحيروا .
(٢) حروراء : موضع بظاهر الكوفة .

الحكمين ؟ وقد قال تعالى : ﴿إِنْ يُرِيدَا إِصْلَاحاً يُوَفِّقِ اللَّهُ بَيْنَهُمَا﴾(١) ، فكيف بأمة محمد صلى الله عليه وسلم ! فقالوا له : أمّا ما جعل الله حكمه إلى الناس ، وأمَرَ بالنظر فيه والإصلاح له فهو إليهم كما أمَرَ به ، وما حَكَم فأمضاه ، للعباد أن ينظروا فى هذا. قال ابن عباس: فإن الله عز وجل يقول: ﴿يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِنْكُمْ﴾(٢) فقالوا له : أو تَجْعَلُ الحُكْمَ فى الصيد ، والحَدَث يكون بين المرأة وزوجها كالحُكْم فى دماء المسلمين ! ثم قالوا : إن هـذه الآية بيننا ، أعَدْلٌ عندك ابن العاص وهو بالأمس يُقاتلنا ويسفك دماءنا ؟ فإن كان عَدْلًا فلسْنَا بعدول ونحن أهل حَرْبه . وقد حكّمتم فى أمر الله الرجال ، وقد أمضى الله حكمه فى معاوية وحزبه : أن يُقْتَلوا أو يرجعوا . وقد كتبتم بينكم وبينهم كتاباً ، وجعلتم بينكم الموادعة ، وقد قَطَع الله الموادعة بين المسلمين وأهلِ الحرب مذ نزلتْ براءة ، إلّا مَنْ أقرّ بالجزية .

ثم جاء علىٌّ فوجد ابنَ عباس يُخاصمهم ، فقال له : ألم أنهك عن كلامهم ! ثم تكلم فقال : اللّهم هذا مقامٌ ، مَنْ يُفلِحْ فيه كان أوْلَى بالفلاح يومَ القيامة ، ثم قال لهم : مَنْ زعيمُكم ؟ قالوا : ابن الكوّاء ، قال : فما أخْرَجكم علينا ؟ قالوا : حُكومتك يوم صِفِّين ، قال : أنشدكم الله ، أتعلمون أنهم حيثُ رفعوا المصاحف ، وقلتم : نُجيبهم قلت لكم : إنى أعْلَمُ بالقوم منكم ، إنهم ليسوا بأصحاب دين ! ثم قال لهم : قد اشترطتُ على الحكَمين أن يُحْيِيَا ما أحْيَا القرآن ، ويُميتا ما أمات القرآن ، فإن حَكَمَا بحكم القرآن ، فليس لنا أن نخالف ، وإن أبيَا فنحن من حكمهما بُرآء .

قالوا : نخبّرنا ، أتراه عَدْلًا تحكيم الرجال فى الدماء ؟ فقال : إنّا لسنا حكّمنا الرجال ، إنما حكّمنا القرآن ، وهـذا القرآن إنما هو خَطٌّ مسطور بين دفتين ،

---

(١) النساء ٣٥ . (٢) المائدة ٩٥ .

لا ينطق ، إنما يتكلم به الرجال . قالوا : نخبّرنا عن الأَجَل ، لِمَ جملته فيما بينك وبينهم؟ قال : لِيَعْلَم الجاهل ، ويَتَثَبَّت العالم ، ولعلّ الله عزّ وجلّ يصلح فى هذه الهُدْنة الأمّة . ادْخُلوا مِصْرَكُمْ رحمكم الله !

* * *

ولما جاء وقتُ اجتماع الحَكَمَيْن أرسل علىٌّ أربعمائة رَجل؛ عليهم شُرَيح بن هانئ ، وأرسل معهم عبدَ الله بن عباس ليصلِّىَ بهم ، ويَلِى أمورَهم ومعهم أبو موسى الأشعرىّ ، وأرسلَ معاوية عمرو بن العاص فى أربعمائة من أهل الشام حتى توافوْا دَوْمَة الجندل[1] . وكان عمرو إذا أتاه كتاب مِنْ معاوية لا يُدْرَى ما جاء فيه ، ولا يَسْأله أهل الشام عن شىء ، وكان أهلُ العراق يسألونَ ابن عباس عن أىّ كتاب يَصله من علىّ ، فإنْ كَتَمهم ظنُّوا به الظنون وقالوا : أتراه كتب بكذا وكذا ؟ فقال لهم ابن عباس : أما تَعْقلون ! أما تروْن رسولَ معاوية يجىء ولا يَعْلَمُ أحد بما جاء به ، ولا يُسْمَع لهم صياح ، وأنتم عندى كل يوم تظنّون فىّ الظنون !

وقال المغيرة بن شعبة لرجال من قريش : أتروْن أحداً يستطيع أن يأتِىَ برأى يعلمُ به : أيجتمع الحكمان أمْ لَا ؟ فقالوا : لا ، فقال : إنى أعْلَمُه منهما . فدخل على عمرو بن العاص فقال : كيف ترانا ــ معشر مَن اعتزل الحرب ؛ فإنّا قد شككْنا فى الأمر الذى استَبان لكم فيها ؟ فقال له عمرو : أراكم خَلْفَ الأبرار ، وأمام الفجّار . فانصرف المغيرة إلى أبى موسى فقال له مثل قوله لعمرو ، فقال له أبو موسى : أراكم أثبتَ الناس رَأْياً ، فيكم بَقِيَّة الناس . فعاد المغيرة إلى أصحابه ، وقال لهم : لا يجتمع هذان على أمرٍ واحد .

---

(١) دومة الجندل : حصن وقرى بين المدينة والشام .

فلما اجتمع الحكمان قال عَمْرو : يا آبا موسى ، ألستَ تعلم أن عثمان قُتِل مظلوما ؟ قال : أشهد ، قال : أَلَسْتَ تعلم أن معاوية وآل معاوية أولياؤُه ؟ قال : بلى ، قال : فما يمنعُك منه وبيتُه فى قريش كما قد علمت ؟ فإن خِفْت أن يقولَ الناس : ليست له سابقة ، فقل : وجدتُه وَلِيّ عثمان الخليفة المظلوم ، والطالب بدمه ، الحسن السياسة والتدبير ، وهو أخو حبيبة زوج رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكاتبه ، وقد صحبه . وعَرَض له بسلطان .

فقال أبو موسى : يا عمرو ، اتَّقِ الله ، فأمَّا ما ذكرته من شرف معاوية فإن هذا ليس على الشرف تولّاه أهله ، ولو كان على الشرف لكان لآل أبرهة بن الصباح ، إنما هو لأهل الدّين والفضل، مع أنى لو كنتُ معطبه أفضلَ قريش شرفاً أعطيتُه عليّ ابن أبى طالب ، وأما قولُك : إن معاوية ولىّ دم عثمان ، فولّه هذا الأمر ، فلم أكن لأُوَلّيَه وأدعَ المهاجرين الأولين . وأما تعريضُك لى بالسلطان ، فوالله لو خَرج معاوية لى من سُلْطانه كلّه لما ولّيتُه ، وما كنتُ لأَرْتَشِيَ فى حكم الله ، ولكنك إن شئت أَحْيَيْنَا اسم عمر[1] بن الخطابِ رحمه الله .

قال له عمرو : فما يمنعُك من ابْنِى ، وأنت تعلم فضلَه وصلاحَه ؟ فقال : إنّ ابنك رجلُ صدق ، ولكنك قد غمستَه فى هذه الفتنة .

وكان عمرو قد عوّد أبا موسى أن يقدّمه فى الكلام ، يقول له : أنت صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلّم وأسنّ منّى، فتكلمْ وأتكلّم . وتعوّد ذلك أبو موسى. وأراد عمرو بذلك أن يُقدّمه فى خَلْع عليّ ، فلما أراده عمرو على ابنه أو على معاوية أَبَى، وأراد أبو موسى ابنَ عمر فأبى عمرو .

---

(١) يريد تولية عبد الله بن عمر .

ثم قال عمرو : مارأيُك ؟ قال : أن نَخْلع هذين الرجلين ، ونجعلَ الأمر شورى، فيختار المسلمون لأنفسهم مَنْ أحبّوا . فقال عمرو : الرأى ما رأيتَ .

فأقبلا إلى الناس وهم مجتمعون ، فقال عمرو : يا أبا موسى ، أعلِمْهم أنّ رأْيَنَا قد اتفق ، فتكلّم أبو موسى فقال : إنّ رأينا قد اتفق على أمرٍ نرجو أن يُصلح الله به أمرَ هذه الأمة .

فقال عمْرو : صدق وبرَّ ، تقدَّمْ يا أبا موسى فتكلّم .

فتقدّم أبو موسى ليتكلّم، فقال له ابن عباس : ويحك ! والله إنّى لأظنّه قد خَدَعك ، إن كنتما اتفقتما على أمرٍ فقدّمْه فليتكلمْ به قَبْلك ، ثم تكلّمْ به بعده ، فإنه رجلٌ غادر ، ولا آمنُ أن يكون قد أعْطاك الرضا بينكما ، فإذا قمت فى الناس خالفك .

وكان أبو موسى مغفّلا ، فقال : إنا قد اتفقنا ، ثم قال : أيّها الناس ، إنّا قد نظَرْنا فى أمر هذه الأمة ، فلم نرَ أصلحَ لأمرها ، ولا ألَمّ لشعثها من أمرٍ قد أجمع رأيى ورأى عمرو عليه ، وهو أن نَخْلَع عليًّا ومعاوية ، ويولِّىَ الناسُ أمْرَهم مَنْ أحبوا ، وإنى قد خلعت عليًّا ومعاوية ، فاستقبِلوا أمركم ، وولّوا عليكم مَنْ رأيتموه أهلا . ثم تنحّى .

وأقبل عمرو فقام وقال : إنّ هذا قد قال ما سمعتموه وخَلَع صاحبه ، وأنا أخْلَع صاحبَه كما خلعه ، وأُثبِتُ صاحبى معاوية ، فإنّه ولِىُّ عثمان بن عفان والطالب بدمه وأحقّ الناس بمقامه .

فقال سعد : ما أضْعَفَك يا أبا موسى عن عَمْرو ومكايده ؛ فقال أبو موسى : فما أصنع ؟ وافقنى على أمرٍ ثم نزع عنه . فقال ابن عباس : لا ذنب لك يا أبا موسى ، الذنبُ لمن قدّمك فى هذا المقام . قال : غَدَر ، فما أصنع ؟ فقال ابن عمر : انظروا

إلى ما صارَ إليه أمر هذه الأمة ، صار إلى رجل لا يبالى ما صَنع ، وإلى آخر ضعيف .
وقال عبد الرحمن بن أبى بكر : لو مات الأشعرىّ قبل هذا اليوم لـكان خيراً له .
وقال أبو موسى الأشعرى لعمرو : لا وفَّقك الله ، غَدَرت وفجرت ! إنمـا مثلك كمثل الـكلب إن تحمل عليـه يلهث ، أو تتركه يلهث ، قال عمرو : إنك مثل الحمار يحمل أسفارا .

ثم حمل شُرَيح بن هانئ على عَمْرو فضربه بالسّوط ، وحمل ابنٌ لعمرو على شريح فضربه بالسّوط أيضاً ، وحجز الناس بينهما ، فـكان شريح يقول بعد ذلك : ما ندمت على شىء نَدَامَتى على ضرب عَمْرو بالسَّوْط ، ولم أضربه بالسّيف .

والتمس أهل الـكوفة أبا موسى ، فإذا هو قد هرب إلى مكة ، ثم انصرف عمرو وأهل الشام إلى معاوية ، فسلّموا عليه بالخلافة . ورجع ابن عباس وشريح إلى علىّ ؛ وأبلغاه خبر الحـكَمين !

٥٣ — يوم النَّهروان*

لما أراد علىٌّ أن يبعث أبا موسى للحكومة أتاه رجلان من الخوارج : زُرْعة بن البُرْج الطائىّ ، وحُرْقُوص بن زهير السعدىّ ، فقالا له : لا حُكْمَ إلّا لله ! وقال حُرقوص بن زهير : تُبْ من خطيئتك ، وارجع عن قضيّتك ، واخرج بنا إلى عدوّنا فقاتِلْهم حتّى نلقى ربنا . فقال علىّ : قد أردتُكُمْ على ذلك فعصيتمونى ، وقد كتبنا بيننا وبين القوم كتاباً ، وشرطنا شروطاً، وأعطينا عليها عهوداً ، وقد قال الله تعالى: ﴿ وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ ﴾[1] فقال حُرقوص: ذلك ذَنْبٌ ينبغى أن تتوب عنه. فقال علىٌّ : ما هو ذنب ، ولكنّه عَجْزٌ عن الرأى ، وقد نهيتكُمْ ؛ فقال زرعة : ياعلىّ ، لئن لم تَدَعْ تحكيمَ الرجال لأقاتلنّك ؛ أطلب وجه الله تعالى .

فقال علىٌّ : بؤساً لك ، ما أشقاك ! كأنى بك قتيلا تسفِى عليك الرياح ! قال : وددت لو كان ذلك ـ وخرجا من عنده يحكِّمان[2] .

وخطب علىٌّ ذات يوم فحكّمت المحكِّمة فى جوانب المسجد ، فقال علىّ : الله أكبر ! كلمةُ حق أريد بها باطل ؛ إن سكتوا عَممْنَاهم ، وإن تكلّموا حَجَجْناهم ، وإن خرجوا علينا قاتلناهم .

فوثب يزيد بن عاصم المحاربىّ فقال : الحمد لله غير مودّع ربنا ، ولا مستغنًى عنه ، اللهمّ إنا نعوذ بك من إعطاء الدنيّة فى ديننا ، فإنَّ إعطاء الدنية فى الله إدْهان

---

* الطبرى ٦ : ٤٠ ، كان فى سنة ٣٧ . والنهروان : كورة واسعة بين بغداد وواسط ، من الجانب الشرقى ، وهو لعلى على الخوارج .

(١) النحل ٩١ . (٢) التحكيم : قولهم « لا حكم إلا لله » .

فى أمر الله ، وذلٌّ راجع بأهـــله إلى سخَط الله ، ياعلىّ ، أبالقتل تخوِّفنا ! أما والله إنى لأرْجو أن نضربكم بها عمّا قليل غير مُصْفَحاتٍ[١] ، ثم لتعلمنَّ أينا أولى بها صِلِيًّا[٢] .

ثم خطب علىٌّ يوماً آخر فقام رجـــل فقال : لا حُكْم إلا لله . ثم توالى عدّةُ رجال يحكِّمون ، فقال علىٌّ : الله أكبر ! كلمة حقٍ أريد بها باطل ، أما إنّ لـكم عندى ثلاثا ما صحبتمونا : لانمنعكم مساجدَ الله أن تذكروا فيها اسمَه ، ولا نمنعكم الفىء ما دامت أيديكم مع أيدينا ، ولا نقاتلـكم حتى تبدءونا ، وإنّما نتبع فيـكم أمر الله. ثم رجع إلى مكانه من الخطبة .

واجتمع الخوارج بعــد ذلك فى منزل عبد الله بن وهب الراسبىّ ، فخطبهم وزهّدهم فى الدنيـــا ، وأمرهم بالأمر بالمعروف ، والنّهى عن المنـكر ، ثم قال : اخرُجوا بنا من هــذه القرية الظالمِ أهلُها إلى بعض كُور الجبال[٣] ، أو إلى بَعْض هذه المدائن ؛ منـكرين لهذه البدع المضلّة ، فقال له حُرقوص بن زهير : إنّ المتاعَ بهذه الدنيـــا قليل ، وإن الفِراق لها وَشِيك ، فلا تدعونّــكم زينتُها وبَهجَتُها إلى المقام بها ، ولا تلفِتَنّــكم عن طَلَب الحقّ وإنـكار الظّلم ، فإنّ الله مع الذين اتَّقَوْا والذين هم محسنون .

وقال حمزة بن سنان الأسدىّ : ياقوم ؛ إنّ الرأى مارأيتم ، فولُّوا رجلا منكم ، فإنـكم لابدّ لـكم من عِماد وسِناد ورَاية تَحُفُّون بهـا وترجعون إليها ، فعرَضوها على زيد بن حصين الطائىّ فأبى ، وعَرضوها على حُرقوص بن زهــير فأبى ، وعلى

---

(١) يقال : أصفحه ؛ إذا ضربه بعرضه .

(٢) قال ابن الأثير : خرج هوَ وإخوة له ثلاثة فأصيبوا مع الخوارج بالنهر .

(٣) الجبال : اسم علم للبلاد المعروفة بالعراق فى اصطلاح العجم .

حَمْزة بن سنان وشُريح بن أوفى العبسىّ فأبيا . وعرضوها على عبد الله بن وَهْب فقال: هاتوها ، أمَا والله ، لا آخذها رَغْبَةً فى الدنيا ، ولا أدعها فَرقاً من الموت ، فبايعوه لعشرٍ خَلَوْن من شوال .

ثم اجتمعوا فى منزل شريح بن أَوْفَى العبسىّ ، فقال ابن وهب : اشخصوا بنا إلى بلده نجتمع فيها لإنفاذ حُـكْم الله ، فإنَّـكم أهلُ الحقّ . قال شُرَيح : نخرج إلى المدائن فننزلها ونأخذها بأبوابها ، ونُخرج منها سكانها ، ونبعث إلى إخواننا من أهل البصرة فيقدمون علينا .

فقال زيد بن حصين: إنـكم إنْ خَرجتم مجتمعين اتُّبِعتم ، ولـكن اخرجوا وحداناً مستخفِين . قالوا : هذا هو الرأى . وكَتَبَ عبد الله بن وهب إلى مَنْ بالبصرة منهم يُعْلِمهم ما اجتمعوا عليه ، يحثّهم على اللّحاق به ، وسيّر الـكتاب إليهم ؛ فأجابوه أنهم على اللّحاق به .

ولما عزموا على المسير تعبّدوا ليلتهم ـ وكانت ليلة الجمعة ـ وساروا يوم السبت . وخرج شريحُ بن أوفى وهو يتلو قول الله تعالى : ﴿ فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفاً يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِى مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ * وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَاءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَى رَبِّى أَنْ يَهْدِيَنِى سَوَاءَ السَّبِيلِ ﴾[1] .

* * *

ولما خرجت الخوارج من الـكوفة أتى علياً أصحابُه وشيعته فبايعوه وقالوا : نحن أولياء مَنْ واليتَ ، وأعداء مَنْ عاديتَ ، فشرط لهم فيه سنّة رسول الله صلّى الله عليه وسلّم ، فجاءه ربيعةُ بن أبى شداد الخثعمىّ ـ وكان شهد معه الجمل وصِفّين ومعه راية خثْعَم ـ فقال له : بايعْ على كتاب الله وسنّة رسول الله صلى الله عليـه وسلّم ،

(١) القصص ٢١ ، ٢٢ .

فقال ربيعة : وعلى سنّة أبى بكر وعمر . فقال له على : ويلَك ! لو أنّ أبا بكر وعمر عملا بغيرِ كتاب الله وسنّة رسول الله صلى الله عليه وسلّم لم يكونا على شىء من الحق ؛ فبايَعه ، فنظر إليه علىّ وقال : أما والله لـكأنّى بك ؛ وقد نفرتَ مع هذه الخوارج فقُتِلْت ، وكأنّى بك وقد وطئتك الخيل بحوافرها[1]

وأمّا خوارجُ البصرة فإنهم اجتمعوا فى خَمسمائة رجل ، وجعلوا عليهم مِسْعر ابن فَدَكى التميمىّ ، فعلم بهم ابن عباس ، فأتبعهم أبا الأسود الدؤلىّ ، فلحِقهم بالجسر الأكبر ، فتواقفوا حتى حجزَ بينهم الليل ، وأدْلَج مِسْعر بأصحابه ، وأقبل يعترِض الناس ، وعلى مقدّمتهم الأشرس بن عوف الشيبانىّ ، وسار حتى لحق بعبد الله بن وهب .

ولما ترامتْ إلى علىّ أنباء خوارج الكوفة والبصرة وهربُ أبى موسى إلى مكة قام فى الكوفة نخطب القوم وقال : الحمدُ لله وإن أَتَى الدهر بالخطْب الفادح والحدَثان الجليل ، وأشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ؛ أما بعد فإن المعصية تُورِثُ الحسرة وتُعْقِبُ النّدم ، وقد كنت أمرتُكمْ فى هذين الرجلين وفى هذه الحكومة أمرى ، ونخلتكم رأيى ، ولو يُطاع لقصير أمر ؛ ولكن أبيتم إلّا ما أردتم ، فكنت أنا وأنتم كما قال أخو هوازن :

أمرتهمُ أمرِى بمنعرَج اللّوى ... فلمْ يستبينُوا الرُّشدإلّاضُحَى الغدِ

ألَا إن هــذين الرجلين اللّذين اخترتموها حَكَمين قد نبذا حُكْمَ القرآن وراء ظهورها ؛ وأحْيَيا ما أمات القرآن ، واتّبع كل واحد منهما هواه بغير هدى من الله ؛ فحكما بغير حجّة بيّنة ، ولا سنّةٍ ماضية ، واختلفا فى حُكْمِهما ، وكلاهما لم يُرْشَد ،

---

(١) قتل مع الخوارج يوم النهروان .

فبرئ الله منهما ورسولُه وصالح المؤمنين . استعِدُّوا وتأهّبوا للمسير إلى الشام ، وأصبحوا فى معسكركم إن شاء الله يوم الاثنين .

***

ثم كتب إلى الخوارج بالنهر : « بسم الله الرحمن الرحيم . من عبد الله علىّ أمير المؤمنين إلى زيد بن حُصين وعبد الله بن وهب ومَنْ معهما من الناس ؛ أمّا بعد ؛ فإن هذين الرجلين اللذين ارْتَضَيْنَاهما حَكَمين قد خالفا كتابَ الله ، واتّبَعا هواهما بغير هُدى من الله ، فلمْ يَعْمَلا بالسنّة ، ولم ينفّذا للقرآن حُكْما ، فبرئ اللهُ ورسولُه منهما والمؤمنون ؛ فإذا بلغكم كتابى هذا فأقبِلوا إلينا فإنا سائرون إلى عدوّنا وعدوّكم ، ونحن على الأمر الأول الذى كنّا عليه ، والسلام » .

فكتبوا إليه : « أما بعد ؛ فإنك لم تَغْضَب لربِّك ، وإنما غضبتَ لنفسك ، فإنْ شهدتَ على نفسك بالكفر ، واستقبلتَ التوبةَ نَظَرْنا فيما بيننا وبينك ، وإلا فقد نابذناك[1] على سواء إن الله لا يحب الخائنين » .

فلما قرأ علىّ كتابَهم أَيِس منهم ، فرأى أن يَدَعهم ويمضىَ بالناس إلى أهل الشام ، حتى يلقاهم ، فيناجزهم ، فقام فى أهل الكوفة ، وحمد الله وأثنى عليه ثم قال: أما بعد فإنّه مَن ترك الجهاد فى الله ، وأدْهَن فى أمْرِه كان على شَفَا هَلَكَة[2] إلّا أن يتدارَكه الله بنِعْمَته ، فاتّقوا الله وقاتلوا مَنْ حادّ اللهَ ورسوله ، وحاوَلَ أنْ يُطفِئ نورَ اللهِ ؛ فقاتلوا الخاطئين الضالّين القاسِطين المجرمين الذين ليسوا بقُرّاء القرآن ، ولا فُقهاء فى الدين ، ولا علماء فى التأويل ، ولا لهذا الأمر بأهلٍ فى سابقة الإسلام؛ والله لَوْ وُلّوا عليكم لعملوا فيكم بأعمال كسرى وهرقل . تيسّروا للمسير إلى عدوّكم

---

(١) المنابذة : أن يكون بين فريقين مختلفين عهد وهدنة بعد القتال ، ثم أرادا نقض ذلك العهد فينبذ كل فريق منهما لصاحبه العهد الذى تهادنا عليه .

(٢) الهلكة : الهلاك .

من أهل المَغْرِب[1] ، وقد بعثنا إلى إخوانكم من أهل البصرة ليَقْدَموا عليكم ، فإذا اجتمعتم شخَصْنا إن شاء الله ؛ ولا حول ولا قوّة إلا بالله .

وكتب إلى ابن عباس : « أما بعد فإنا خرجنا إلى مُعسكرنا بالنُّخَيْلَة ، وقد أجمْعنا على المسير على عدوّنا من أهل المغرب ، فاشْخَص بالناس حتى يأتيَك رسولى ، وأقم حتى يأتيك رأيى ، والسلام » .

فقرأ ابن عباس الكتابَ على الناس ، وندَبهم مع الأحنف بن قَيْس ، فشَخَص ألفٌ وخمسمائة ، وخطَبَهم ابنُ عباس فقال : يا أهل البصرة ؛ أتانى كتابُ أمير المؤمنين ، فأمرتكم بالنفير إليه ، فلم يَشْخَص منكم إليه إلا ألفٌ وخمسمائة ، وأنتم ستون ألف مقاتل ، سوى أبنائكم وعُبْدَانكم ومَواليكم ؛ ألا انفِروا مع جارية بن قُدامة السَّعْدىّ ، ولا يَجعلَنّ رجلٌ على نفسه سبيلا ، فإنى مُوقِعٌ بكل مَنْ وجدته مُتخلِّفاً عن دَعْوته ، عاصياً لإمامه ، ولا يلومَنَّ رجلٌ إلا نفسَه » .

فخرج جارية فاجتمعَ إليه ألفٌ وسبعمائة ، فوافَوْا عليّاً وهم ثلاثة آلاف ومائتان ، فجمعَ إليه رءوسَ أهل الكوفة ورءوسَ القبائل ووجوهَ الناس ، ثم خطبهم ، وحمِد الله وأثنى عليه ثم قال : يا أهلَ الكوفة ، أنتم إخوانى وأنصارى وأعوانى على الحقّ ، وأصحابى إلى جهادِ عدوّى المُحِلِّين ، بكم أضْرِبُ المُدْبِرَ ، وأرْجُو تمام طاعةِ المُقْبِل ، وقد استنفرتُ أهلَ البصرة ، فأتانى منهم ثلاثة آلاف ومائتان ؛ فليكتبْ لى رئيسُ كلّ قبيلة ما فى عشيرته من المقاتِلة وأبناء المقاتِلة الذين أدركوا القتال ، وعُبْدَان عشيرته ومواليهمْ ، ويرفع ذلك إلينا .

فقام إليه سعيد بن قيس الهَمْدَانِىّ ، فقال : يا أمير المؤمنين ، سمعاً وطاعة ؛ أنا أولُ الناس جاء بما سألتَ . وقام مَعْقِل بن قيس وعدىّ بن حاتم ، وزياد بن خَصَفَة

(١) يريد بأهل المغرب هنا أهل الشام .

وحُجْر بن عدىّ وأشرافُ الناس والقبائل ، فقالوا مثلَ ذلك ، وكتبوا إليه ماطلبَ ، وأمروا أبناءهم وعَبيدهم أن يخرجوا ، وألّا يتخلّف منهم مُتَخَلِّف ، فرفعُوا إليه أربعين ألف مقاتل وسبعة عشر ألفا من الأبناء ، وثمانية آلاف من مواليهم وعبيدهم .

وكتب إلى سعْد بن مسعود بالمدائن يأمُره بإرسال مَنْ عنده من المقاتلة ، وبَلغ عليًّا أنّ الناسَ يقولون : لو سارَ بنا إلى قتال هذه الحَرُورِيَّة ، فإذا فرغنا منهم توجّهنا إلى قتال أهل الشام ! فقال لهم : بَلَغَنى أنكم قلتم كيت وكيت ، وإنّ غيرَ هؤلاء الخارجين أهمُّ إلينا منهم ، فدعوا ذكرَهم ، وسيروا إلى قوم يقاتلونكم ، كيما يكونوا جبّارين ملوكا ، ويتخذوا عباد الله خَوَلًا[1] ، فناداه الناس : أنْ سِرْ بنا ياأميرَ المؤمنين حيث أحببت .

وقام إليه صَيْفِىّ بن قيس الشيبانىّ ، فقال : ياأميرَ المؤمنين ، نحن حزبُك وأنصارُك ، نعادى مَنْ عاداك ، ونُشايع مَنْ أناب إلى طاعتِك ، فسِرْ بنا إلى عَدُوِّكَ مَنْ كانوا وأينما كانوا ، فإنّك إن شاء الله لن تُؤْتَى من قلّة عَدد ، وضَعْفِ نيّة أتباع .

* * *

هذا ما كان من أمر علىّ ، وأما الخوارجُ ، فقد رُوِى أنّ طائفة منهم كانت فى طريقها من البصرة إلى النَّهْرَوان ، فرأت عصابةٌ منهم رجلا يسوق بامرأة على حمار ، فانتهرُوه وأفزعوه وقالوا له : مَنْ أنت ؟ قال : أنا عبد الله بن خبّاب ، صاحب رسول الله صلّى الله عليه وسلّم ، فقالوا له : أفزعْناك ؟ قال : نعم ، قالوا : لاروْعَ

(١) الخول : العبيد .

عليك ! حدِّثنا عن أبيك حديثاً سمعه من رسول اللهِ صلّى الله عليه وسلّم تنفعنا به . فقال : حدّثنى أبى عن رسول الله صلّى الله عليه وسلّم أنه قال : « تكونُ فتنة يموتُ فيها قَلْبُ الرجل ، كما يموت به بدَنُه ، يُمسى فيها مؤمناً ، ويُصبح كافراً ، ويصبح كافرا ويمسى مؤمناً ». قالوا: لهذا الحديث سألناك، فما تقول فى أبى بكر وعمر؟ فأثنى عليهما خيراً. قالوا: ماتقول فى عثمان فى أول خلافته وفى آخرها؟ قال: إنه كان مُحِقًّا فى أولها وفى آخرها . قالوا : فما تقول فى علىٍّ قبل التَّحْكيم وبعده ؟ قال : إنّه أعلمُ بالله منكم وأشدّ تَوَقّياً على دينه ، وأنفذُ بصيرة ، فقالوا : إنّك تَتَّبِعُ الهوى وتُوالى الرِّجال على أسمائها لا على أفعالها ، والله لَنَقْتُلَنّك قِتْلة ماقتلناها أحداً . ثم أخذوه وكتّفوه ، ثم أقبلوا به وبامرأته وهى حُبْلَى مُتِمٌّ[1] ، حتى نزلوا تحت نخل فسقطت منه رُطبة ، فأخذها أحدهم فقذفَ بها فى فَمِه ، فقال أحدُهم : بغير حِلِّها وبغير ثمن ! فلفَظَها وألقاها من فمِه ، ثم أخذ سيفَه بيمينه ، فمرَّ به خِنْزير لأهل الذِّمّة ، فضرب بسيفه ، فقالوا : هذا فساد فى الأرض ، فأتى صاحب الخنزير فأرضاه من خِنْزيره .

فلمّا رأى ذلك منهم ابن خبّاب قال : لئن كنتم صادقين فيما أرى فما علىَّ منكم بأس ، إنى لمُسْلِم ، ماأَحدثتُ فى الإسلام حَدَثاً ، وقد آمنتمونى وقلتم : لارَوْعَ عليك . فجاءوا به فأضْجَعوه وذبَحوه وسال دمُه فى الماء وأقبَلُوا إلى المرأة ، فقالت : إنما أنا امرأة ، ألاتتَّقون الله ! فبَقَرُوا بَطنها ، وقتلوا ثلاث نسوة من طَيِّئ ؛ وقتلوا أمّ سنان الصَّيْداوية .

فبلغ ذلك علىّ بن أبى طالب ومَنْ معه من المسلمين . فبعث إليهم الحارث بن

---

(١) المتم : التى دنا ولادها .

مرّة العبدىّ ليأتيهم ، وينظر ما بلغه عنهم ، ويكتب إليه ولا يكتمه ، فلما دنا منهم يسائلهم قتلوه .

وأتى عليًّا الخبرُ والناسُ معه ، فقالوا : يا أمير المؤمنين ، علامَ نَدَع هؤلاء وراءنا يخلفوننا فى عيالنا وأموالنا ؟ سِرْ بنا إلى القوم ، فإذا فرغنا منهم سِرْنا إلى عدوِّنا من أهل الشام . وقام إليه الأشْعث بن قيس فكلّمه بمثل ذلك ، وكان الناس يظنّون الأشعث يرَى رأىَ الخوارج ؛ لأنه كان يقول يوم صِفِّين : أنْصَفَنا قومٌ يَدْعُون إلى كتاب الله ، فلما قال هذه المقَالة علم الناسُ أنه لم يَكُنْ معهم .

ثم أجمع رأىُ علىٍّ على الخروج إليهم ، فعبر الجِسْر وسار إليهم ، ولما صار قريباً منهم أرسل إليهم : ادفعوا إلينا قَتَلَة إخواننا أقتلهم بهم ، ثم أنا تارِككم وكافٌّ عنكم ، حتى ألقى أهل الشّام ، فلعلَّ الله يقلِّب قلوبكم ، ويردُّكم إلى خيرٍ مما أنتم عليه من أمركم .

فقالوا : كلّنا قتلهم، وكلّنا مُستحِلٌّ لدمائكم ودمائهم . فخرج إليهم قيس بن سعد ابن عبادة فقال لهم : عباد الله ، أخرِجوا إلينا طَلِبتنا منكم ، وادْخُلوا فى هذا الأمر الذى خرجْتم منه ، وعودوا بنا إلى قِتال عدوِّنا وعَدوِّكم، فإنكم ركبتم عظيماً من الأمر، تَشْهدون علينا بالشرك، وتسفكون دماء المسلمين . فقال له عبد الله بن شجرة السُّلَمىّ: إن الحقَّ قد أضاء لنا فلسنا مُتَابعيكم أوْ تأتونا بمثل عمر . فقال: ما نعلمُه غيرَ صاحبنا ، فهل تعلمونه فيكم ؟ قالوا : لا ، قال : نشدْتكم الله فى أنفسكم أن تُهْلِكوها ، فإنى لا أرى الفتنة إلّا وقد غلبتْ عليكم .

وخطبهم أبو أيوب الأنصارىّ ، فقال : عبادَ الله ، إنّا وإيّاكم على الحال

الأولى التى كنا عليها ، ليست بينا وبينكم فُرقة ، فعلام تقاتلوننا ؟ فقالوا : إنّا لو تابعناكم اليوم حكّمتم غداً . قال : فإنى أنشدكم الله أن تعجّلوا فتنة العام مخافة ما يأتى فى القابل .

وأتاهم علىٌّ فقال : أيتهـا العصابة التى أخرجها عداوة المِراء واللّجاجة ، وصدَّها عن الحقّ الهوى ، وطمع بها النَّزق ، وأصبحت فى الخطْب العظيم ، إنّى نذير لكم أن تُصْبِحُوا تلفيكم الأمة صرْعى بأثناء هذا الوادى ، بغير بيّنة من ربّكم ولا برهان مبين ، ألم تعلموا أنى نهيتكُم عن الحكومة ، ونبّأتكم أنها مكيدة ، وأن القوم ليسوا بأصحاب دِينٍ فعصيتموُنى ! فلما فعلتُ شرطت ، واستوثقت على الحْكَمين أن يُحْيِيَا ما أحيا القرآن ، ويُميتا ما أمات القرآن، فاختلفا وخالفا حكمَ الكتاب والسنّة فنبذْنا أمرهما ، ونحنُ على الأمر الأول ، فمن أين أُتيتم ؟ فقالوا : إنّا حكّمنا ، فلما حكّمنا أثِمْنا ، وكنا بذلك كافرين ، فإن تُبْتَ فنحن معك ، وإن أَبيْتَ فإنّا مُنابذوك على سواء .

فقال على : أصابكم حاصب[1] ، ولا بقى منكم وابر[2] ، أبَعْدَ إيمانى برسول الله صلّى الله عليه وسلّم ، وهِجْرَتى معه ، وجِهادى فى سبيل الله ، أشهد على نفسى بالكفر ! لقد ضللتُ إذاً وما أنَا من المُهْتَدِين . ثم انصرف عنهم .

* * *

ثم إنّ الخوارج قصدوا جَسْر النهر ، فعبّأ علىٌّ أصحابه ، وجعل على مَيْمنته حُجْر ابن عدىّ ، وعلى ميسرته شِبْث بن ربعىّ ، وعلى الخيل أبا أيوب الأنصارىّ ، وعلى الرجّالة أبا قَتادة الأنصارى ، وعلى أهل المدينة قيس بن سعد بن عبادة .

---

(١) الحاصب : الريح الشديدة تثير الحصباء . (٢) وابر : أحد .

وعبّأت الخوارج ، فجعلوا على ميمنتهم زيد بن حُصين الطائىّ ، وعلى الميسرة شُرَيح بن أوْفَى العبسىّ ، وعلى خيلهم حمزة بن سِنان الأسَدىّ ، وعلى رجّالتهم حُرقوص بن زهير السعدىّ .

وأعطى علىٌّ أبا أيوب الأنصارىّ رايةَ الأمان ، فناداهم أبو أيوب ، فقال : مَنْ جاء تحت هذه الراية منكم ، مِمَّنْ لم يَقْتُل ولم يستعرِض فهو آمن ، ومَن انصرف منكم إلى الكوفة أو إلى المدائن وخرج من هذه الجماعة فهو آمن ، لا حاجة لنا بعد أن نُصيب قَتَلَة إخواننا منكم فى سَفْك دمائكم .

فقال فَرْوة بن نَوْفل الأشجعىّ : والله ما أدرى على أىّ شىء نقاتل عليًّا ! أرى أن أنصَرِف حتى تَتَّضِح لى بصيرتى فى قتاله أو أتابعه ، وانصرفَ فى خمسمائة فارس . وخرجت طائفة أخرى متفرّقين فنزلوا الكوفة . وخرج إلى علىٍّ نحو مائة — وكان أربعة آلاف — وبقى مع عبد الله بن وهب ألف وثمانمائة ، وزحفوا إلى علىّ ، وكان علىٌّ قد قال لأصحابه : كُفُّوا عنهم حتى يبدءوكم . فتنادَوْا : الرَّواح إلى الجنة ، وحملوا على الناس ، فلم تثبت خيلُ المسلمين لشدّتهم ، وافترقت خيل علىٍّ فرقتين : فرقة نحو الميمنة ، وفرقة نحو الميسرة ، فاستقبلت رماةُ علىٍّ وجوهَهم بالنبل ، وعطفَتْ عليهم الخيلُ من الميمنة والميسرة ، ونهض إليهم الرجالُ بالرماح والسيوف .

فلما رأى حمزة بن سنان صاحبُ خيلهم الهلاكَ نادى أصحابه : أن انزلوا ، فذهبوا لينزلوا ، فلم يَلبثُوا أن حمل عليهم الأسود بن قيس المُرادىّ وجاءتهم الخيل من نحو علىّ ، فأُهلكوا فى ساعة ، فكأنما قيل لهم : موتوا فماتوا .

٥٤ — يوم كَربلاء*

كان معاوية بن أبى سفيان قد عَهِد إلى ابنـــه يزيد بالخلافة ، بعد أن استشار فى ذلك وفودَ الأمصار ، فبايَعه النّاسُ ، ولم يتخلّفْ عن البَيْعة إلّا نفر قليل من أهل المدينة ، وهم الحسين بن علىّ وعبد الله بن الزُّبير وعبد الله بن عمر .

ولما تُوُفِّىَ معاوية لم يكن ليزيدَ هَمٌّ إلّا مبايعةُ هؤلاء الثلاثة ، وأرسل إلى الوليد ابن عُتْبَة بن أبى سفيان أمير المدينة ، يقول له : أمّا بعد ، فخذ حُسينا وعبدالله بن عمر وابن الزبير أخذاً ليس فيه رُخْصة ، حتى يُبايعوا ، والسلام .

فلما أتى الوليدَ نعىُ معاوية فَظِـع(١) وكبُر عليه ، وأرسل إلى هؤلاء النَّفَر ، فأمّا الحسينُ فجاءه ، فلما عرَض عليه البيعة وأخبرَه بموت معاوية استرجَع وترحّم عليه ، وقال : أمّا البيعة ، فإن مِثْلى لا يُبايع سِرًّا ، ولا يُجتَزىُ بها منى سِرًّا ، فإذا خرجتَ إلى الناس ودعوتَهم إلى البيعة ، ودعوتَنا معهم كان الأمر واحداً ، فقال له الوليد وكان يحب العافية : انصرفْ ، فانصرف .

وأما ابن الزبير فترك الْمدينة ، وذهبَ إلى مكة ، وقال : إنى عائذٌ بالبيت ، ولم يكن يُصَلِّى بصلاتهم ، ولا يُفيض(٢) فى الحج بإفاضتهم ، وكان يقف هو وأصحابه ناحيةً . وخرج الحسين من بعده ، وأخذ معه بنيه وإخوتَه وبنى أخيـه ؛ إلا محمد ابن الحنفيّة فإنه أبى الخروجَ معه ، ونَصَحه فلم يقبل نُصْحه .

---

* تاريخ الطبرى : ٦ ــ ٢١٥ . كان فى سنة ٦١ ، وكربلاء : موضع طرف البرية ، قرب الـكوفة . (١) فظع بالأمر : ضاق به ذرعاً .

(٢) يقال : أفاض الناس من عرفات ؛ إذا أسرعوا منها إلى مكان آخر .

وأمّا ابنُ عمر فإنّه قال : إذا بايع النـاسُ بايعت . فتركوه ، وكانوا لا يتخوّفونه .

وبينا كان الحسينُ فى طريقه من المدينة إلى مكّة لقيَه عبـدُ الله بن مطيع ، فقال له : جُعِلْتُ فداءك ! أين تريد ؟ قال : أمّا الآن فمكّة ؛ وأمّا بعد ، فإنى أستخيرُ الله . قال : خار الله لك ، وجعلنا فداءك ! فإذا أتيت مكّةَ فإياك أن تقرُب الكوفةَ ؛ فإنّها بلد مشئومة ، بها قُتِـل أبوك ، وخُذِل أخوك . الزَم الحرَمَ ، فإنك سيّدُ العرب ، لا يَعدِل بك أهلُ الحجاز أَحـداً ، ويتَدَاعى إليك النّاسُ من كلِّ جانب ، لا تفارق الحرَم ، فِداك عمّى وخالى ! فوالله لئن هلـكتَ لَنُسْتَرَقَّنَّ من بعدك .

* * *

وأقبل الُحسين حتى نزل مكة ، وأهلُها يختلفون إليه ؛ ويأتُونه . وكان ابنُ الزُّبير بها ، قد لَزِم جانب الـكعبة ، فهو قائم يصلّى عندها عامة النّهار ، ويَطُوف ، ويأتى الحسين فيمن يأتيه ، ولا يزال يشيرُ عليه بالرأى ، وهو أثقَلُ خلق الله على ابن الزبير ؛ لأن أهل الحجاز لا يبايعونه ، ما دام الحسينُ باقياً بالبلد .

ولما بلغ أهلَ الـكوفة موتُ معاوية وامتناعُ الحسين وابن عمر وابن الزبير عن البيعة أرْجفُوا[1] بيزيد ، واجتمعتِ الشيعة فى منزل كبيرهم سليمان بنصُرَد ، واتفقوا على أن يكتبوا إلى الُحسين يستقدِمونه ليبايعوه ، فـكتبوا إليه : « بسم الله الرحمن الرحيم . سلامٌ عليك ، فإنّنا نحمدُ إليك اللهَ الذى لا إله إلا هو . أما بعد ، فالحمد لله الذى قَصَمَ عدوّك الجبّار العنيد ، الذى انْتَزى على هذه الأمة ، فابتَزّها أمرها ،

---

(١) أرجفوا به : خاضوا فيه .

وغَصبها فَيْئَها ، وتأمَّرَ عليها بغيرِ رضاً منها ، ثم قتل خيارَها ، واستبقى شِرَارَها ، وإنه ليس علينا إمام ، فأقْبِلْ لعلّ الله أن يجمعنا بك على الحقّ . والنّعمان بن بشير في قَصْر الإمارة ؛ لسنا نجتمع معه في جُمُعة ولا عيدٍ ، ولو بلغنا إقبالُك إلينا أخرجناه حتى نُلحِقه بالشّام إن شاء الله تعالى ، والسّلام عليك ورحمة الله وبركاته » .

وسيَّروا الكتاب مع عبد الله بن سبع الهمْدَانِيّ وعبد الله بن وأل ، ثم كتبوا إليه كتاباً آخر ، وسيَّروه بعد ليلتين ، وكتب الناس معه نحواً من مائة وخمسين صحيفة ، ثم أرسلوا إليه رسولًا ثالثاً يحثونه على المسير إليهم . ثم كتب إليه شِبْث ابن رِبْعيّ وحجار بن أبجر وغيرُهما بنحو ذلك .

فكتب إليهم الحسين عند اجتماع الكتب عنده : « أما بعد ؛ فقد فهمتُ كلَّ الذى اقتَصَصْتم ، وقد بعثتُ إليكم بأخى وابن عمّى وثقتى من أهل بيتى مُسلم ابن عَقيل ، وأمرتُه أن يكتُبَ إلَيَّ بحالكم وأمرِكم ورأيِكم ، فإن كتبَ إلَيَّ أنه قد اجتمعَ رأىُ مَلَئِكم وذَوِى الحِجَى منكم على مثل ما قَدِمَتْ به رُسُلكم أَقدَم وَشيكا إن شاء الله ؛ فلعمرى ما الإمام إلا العامل بالكتاب ، والقائم بالقسط ، والدائن بدين الحق ، والسلام » .

* * *

ثم دعا الحسين مُسلم بن عَقِيل ، فسيَّرهُ إلى الكوفة ، وأمره بتقوى الله وكتمانِ أمره والتلطّف ؛ فإن رأى الناس مجتمعين عجَّل إليه بذلك .

فسار مسلم نحو المدينة ، ولما دخلها صلّى فى مسجد رسولِ الله صلّى الله عليه وسلّم وودّع أهله ، واستأجر دليلَيْن من قَيْس ، فأقبلا به ، فضلّا الطريق ، وعطِشوا ، فمات الدليلان . فكتب مسلم إلى الحسين : إنى أقبلتُ إلى المدينة ، واستأجرتُ دليلين ،

فضلَّا الطريق ، واشتد عليهما العطش ، فماتا ، وأقبلنا حتى انتهينا إلى الماء ، فلم ننج إلا بحشاشة أنفسنا ، وقد تطيّرتُ ، فإن رأيتَ أعفيتنى وبعثتَ غيرى .

فكتب إليه الحسين : أما بعد ؛ فقد خشيتُ ألّا يكون حَمَلك على الكتاب إلّا الجبْن ، فامض لوجهك ، والسلام .

فسار مُسلِم حتى أتى الكوفة ، وأميرها يومئذ النّعمان بن بَشِير ، فأقبلت إليه الشِّيعة تختلف إليه ، فكلّما اجتمعت إليه جماعة منهم قرأ عليهم كتاب الحسين ، فيبكون ، ويَعِدونه القتال والنصرة .

ولما بلغ ذلك النُّعمانَ بن بشير صعِد المنبر وقال : أما بعد ، فلا تسارعوا إلى الفتنة والفرقة ، فإنّ فيهما تهلك الرجال ، وتُسْفَك الدماء ، وتُغْصَب الأموال — وكان النعمان حليماً ناسِكاً يحبُّ العافية — ثم قال : إنى لا أقاتل إلّا مَنْ يُقاتلنى ، ولا أثِبُ على مَنْ لايثِب علىّ ، ولا أنبهُ نائمكم ، ولا أتحرّشُ بكم ، ولا آخذ بالقَرْف[1] والظِّنة والتُّهَمَة ، ولكنكم إن أبديتم صفحتكم ، ونكثتُم بيعتكم ، وخالفتم إمامكم ، فوالله الذى لا إله إلا هو ؛ لأضرِبنَّكُمْ بسيفى ما ثبت قائمه بيدِى ، ولو لم يكن لى منكم نَاصِرٌ ولا مُعِين . أما إنّى أرجُو أن يكون مَنْ يعرف الحقّ منكم أكثرَ ممن يُرْدِيه الباطل .

فقام إليه عبد الله بن مسلم الحضْرمىّ ، من شيعة بنى أميّة ، وقال له : إنه لايُصلِح ماترى إلا الغَشْم ، إنّ هـذا الذى أنت عليه رأى المُستضعفين . فقال : أكون من المستضعفين فى طاعة الله أحبُّ إلىّ مِنْ أن أكون من الأعزّين فى معصية الله .

---

(١) القرف : الإيقاع .

فكتب عبد الله بن مسلم إلى يزيد يُخبره بقدوم مُسلم بن عَقِيل الكوفة ومُبايعة الناس له ، ويقول له : إن كان لك فى الكوفة حاجة فابعث إليها رجلًا قويًّا يُنفذ أمرَك ، ويعمَلُ مثل عملِك فى عدوّك ، فإن النّعمان رجل ضَعيف ، أو هو يتضعّف . وكان هو أول مَنْ كتب إليه . ثم كتب إليه عُمارة بن الوليد ابن عُقْبة وعمرو بن سعد بن أبى وقّاص بنحو ذلك .

فلمّا اجتمعت الكتب عند يزيد دعا سَرْجون ، مولى معاوية ، فأقرأه الكتاب واستشاره فيمن يُوَلِّيه الكوفة ـ وكان يزيد عاتبا على عبيد الله بن زياد ـ فقال له سرجون : أرأيت لو نُشِر لك معاوية كنت تأخذُ برأيه ؟ قال : نعم ، فأخرج عهد عبيد الله على الكوفة ، وقال : هذا رأى معاوية ، ومات ، وقد أمر بهذا الكتاب .

فأخذ برأيه ، وجمع الكوفة والبصرة لعبيد الله ، وكتب إليه بعهده ، وأمره بطلب مُسلم بن عقيل وقتله أوْ نفيه .

فلمّا وصل كتابُه إلى عُبيد الله أمر بالتّجهّز ليبرز من الغد ـ وكان الحسين قد كتب إلى أهل البصرة نسخةً واحدة إلى الأشراف ، فكتب إلى مالك بن مِسْمع البكرىّ ، والأحنف بن قيس ، والمنذر بن الجارود ، ومسعود بن عمرو ، وقيس ابن الهيثم ، وعمر بن عبدالله بن معمر ، يدعوهم إلى كتاب الله وسنة رسوله ؛ فكلهم كتموا كتابه إلا المنذر بن الجارود ؛ فإنه خاف أن يكون دسيساً من ابن زياد ، فأتاه بالرسول والكتاب ، فضرب عنق الرسول ، وخطب فى الناس وقال : أما بعد ، فوالله ما بى تُقرَن الصَّعْبة ، وما يُقَعْقَع لى بالشِّنَان ، وإنى لنِكْلٌ لمن عادانى ، وسَمٌّ لمن حاربنى ، وأنصف القارةَ مَنْ راماها . يا أهل البصرة ، إنّ أمير المؤمنين قد ولّانى

الكوفة وأنا إليها غادٍ بالغداة ، وقد استخلفتُ عليكم أخى عثمان بن زياد ، فإياكم والخلاف والإرجاف ؛ فوالله لئن بلغنى عن رجل منكم خِلاف، لأقتلنّه وعريفَه ووليَّه، ولآخذنّ الأدْنى بالأقصى حتى تستقيموا ، ولا يكون فيكم مخالف ولا مُشاقّ ، وإنى ابن زياد ؛ أشبهته من بين مَنْ وطىء الحصى ، فلم ينتزعنى شَبَه خال ولا عمّ .

ثم خرج من البصرة حتى دخل الكوفة وحدَه ، فجعل يمرّ بالمجالس ؛ فلا يشكّون أنّه الحسين ، فيقولون : مرحبا بك يا بن رسول الله ! وهو لا يكلّمهم . وخرج إليه الناس من دُورهم ؛ فساءه ما رأى منهم . وسمع النعمان ، فأغلق عليه الباب ؛ وهو لا يشك أنّه الحسين . وانتهى إليه عبيد الله ، ومعه الخَلْق يصيحون ، فقال له النعمان : أنشدك الله ؛ إلا تنحيتَ عنّى ؛ فوالله ما أنا بمسلمٍ إليك أمانتى ؛ ومالى فى قتالك من حاجة . فدنا منه عبيد الله ، وقال له : افتحْ لا فتحت ! فسمِعها إنسانٌ خلفه ، فرجع إلى النّاس وقال لهم : إنّه ابن زياد ! وفتح له النعمان ، وأغْلَقُوا الباب ، وتفرّق الناس .

وأصبح فجلس على المِنْبَر ، وقال : أمّا بعد ، فإنّ أمير المؤمنين ولّانى مِصْرَكم وثَغركم وفيئكم ، وأمرنى بإنصاف مَظْلُومكم ، وإعطاء محرومكم ، وبالإحسان إلى سامعكم ، ومطيعكم ، وبالشدّة على مُريبكم وعاصيكم ، وأنا متّبع فيكم أمره ، ومنفّذ فيكم عهدَه ؛ فأنا لمحسنكم كالوالد البرّ ، ولمُطِيعكم كالأخ الشقيق ، وسيفى وسوطى على مَنْ ترك أمرى وخالَف عهدى ؛ فليُبقِ امرؤ على نفسه .

ثم نزل ، وأخذ العرفاء والناس أخذاً شديداً ، وقال : اكتبوا إلى الغرباء ومَنْ فيكم من طَلِبة أمير المؤمنين ، ومَنْ فيكم من الحروريّة وأهل الرّيب الذين رأيهم الخلاف والشّقاق ، فمن كتبهم لنا فبرِئ ، ومَنْ لم يكتُبْ لنا أحداً فليضمن لنا مَنْ فى

عِرافته ؛ ألّا يخالفنا فيهم مخالف ، ولا يبْغى علينـا منهم باغ ؛ فمن لم يفعلْ برئتْ منه الذمّة ، وحلالٌ لنـا دَمُه ومالُه ، وأيمّا عريف وُجد فى عِرافته من بغية أمير المؤمنين أحد لم يرفعه إلينا صُلِب على باب داره ، وألغيتْ تلك العرافة من العطاء .

وسمع مسلم بن عَقِيل بمقالة عبيد الله ، فخرج مِنْ دار المختار ، وأتى دار هانئ بن عُرْوة المرادىّ ، فلمّا رآه هانئ كرِه مكانه ، فقال له مسلم : أتيْتك لتجيرَنى وتُضيفنى ، فقال هانئ : لقد كلَّفْتَنِى شططا ، ولولا دخولُك دارى لأحْببت أن تنصرفَ عنّى ؛ غير أنَّه يأخذنى من ذلك ذمام ، ادخل .

ثم آواه ، واختلفت الشّيعة إليـه فى دار هانئ ، فدعا ابنُ زياد مولى له ، وأعطاه ثلاثة آلاف درهم ، وقال له : اطلب مُسلم بن عَقيل وأصحـابه ، وألِّفْهم ، وأعطهم هذا المال ، وأَعْلِمْهم أنك منهم ، واعلَمْ أخبارَهم .

ففعل ذلك ، وأتى مُسلم بن عوسجة الأسدىّ بالمسجد ، فسمع الناس يقولون : هذا يُبايع للحسين ـ وهو يصلِّى ، فلما فرغ من صلاته قال له : يا عبد الله ، إنى امرؤ من أهل الشام، أنعم الله عليه بحبِّ أهل هذا البيت ، وهذه ثلاثة آلاف درهم ، أردت بها لقاءَ رجل منهم ؛ بلغنى أنه قدمَ الـكوفة يُبايع لابن بنت رسول الله ، وقد سمعت نفرا يقولون : إنّك تعلم بأهلِ هذا البيت ، وإنّى أتيتُك لتقبضَ المال ، وتُدخِلنى على صاحبك أبايعه ، وإنْ شئت أخذت بَيْعتى له قبل لقائى إياه ، فقال : لقد سرّنى لقاؤك إيّاى لتنال الّذى تحبّ ، وينصر الله بك أهل نبيّه ، وقد ساءنى معرفة النـاس هذا الأمر منّى قبل أن يتمّ مخافة هذا الطّاغية وسطوته .

ثم أخـذ بيعته والمواثيق المغظّمة لَيناصحنّ ولَيـكتمنّ . ثم أدخله على مُسلم بن عَقِيل ، فأخذ بيعته ، وقبض ماله ، وجعل يختلف إليهم ، ويعلم أسرارَهم ، وينقلها إلى ابن زياد .

وكان هانئ قد انقطع عن عُبيد الله بعذْر المرض ، فدعا عُبيد الله محمد بن الأشعث وأسماء بن خارجة وعمرو بن الحجّاج ، وسألهم عن هانئ وانقطاعه ، فقالوا : إنّه مريض ؛ فقال : بلغنى أنه يجلِس عَلَى باب داره ، وقد شفى ؛ فمُرُوه ألّا يَدع ما عليه فى ذلك من الحق . فأتوْه فقالوا له : إنّ الأمير قد سأل عنك ، وقال : لو أعلم أنه شاكٍ لعُدْته ، وقد بلغه أنّك تجلس عَلَى باب دارك ، وقد استبطأك ، والجفاء لا يحتمله السلطان ؛ أقسمنا عليك لو ركبت معنا !

فلبس ثيابه ، وركب معهم ، فلمّا دنا من القصر أحسّتْ نفسه بالشرّ ، فقال لحسان بن أسماء بن خارجة : يابن أخى ؛ إنّى لهذا الرجل لخائف ؛ فما ترى ؟ فقال : ما أتخوّف عليك شيئاً ، فلا تجعل عَلَى نفسك سبيلا ؛ ولم يعلم أسماء مما كان شيئاً ، وأما محمد بن الأشعث فإنّه علم به.

ولما دخل القوم عَلَى ابن زياد وهانئ معهم قال ابن زياد : أتَتْ بحائنٍ رجلاه ، ثم أنشد :

أريدُ حياتَه ويريد قَتْلى عذيرَكَ من خليلِكَ من مُراد[1]

وكان ابن زياد مكرماً له ، فقال هانئ : وما ذاك ؟ فقال : يا هانئ ؛ ما هذه الأمور التى تُدَبَّرُ فى دارك لأمير المؤمنين والمسلمين ؟ جئت بمُسلم بن عَقِيل ، فأدخلتَه فى دارك ، وجمعت له السلاح والرجال ، وظننت أن ذلك يخفى علىّ . قال : ما فعلت . قال : بلى . وطال بينهما النزاع ، فدعا ابنُ زياد مولاه ، ولمّا وقف بين يديه قال : أتعرف هذا ؟ قال : نعم ! وعلم هانئ عند ذلك أنّه كان عَيْناً عليهم ، فسُقِط فى يده ساعة ، ثم راجعتْه نفسه ، فقال : اسمَعْ مِنّى وصدّقنى ؛ فوالله لا أكذبك ؛ والله مادعوتُه ، ولا علمت بشىء من أمره ؛ حتى رأيتُه جالساً عَلَى بابى يسألنى النّزولَ علىّ ، فاستحييت من ردّه ، ولزمنى من ذلك ذِمام ، فأدخلته دارى ، وضفته ،

---

(١) البيت لعمرو بن معديكرب ، اللآلئ ٦٤ .

وقد كان من أمْرِهِ الّذى بلغك ؛ فإن شئت أعطيتك الآن موثقا تطمئنّ به ، ورهينةً تـكون فى يديك ؛ حتى أنطلق وأخرجه من دارى ، وأعود إليك . فقال : لا والله ، لا تفارقنى أبداً حتى تأتيَنى به ، قال : لا آتيك بضيفِى تقتله أبداً .

فلمّا كثر الـكلام قام مسلم بن عمرو الباهلىّ فقال : خَلِّنى وإياه ؛ حتى أكلمه ؛ لما رأى من لَجاجه . وأخذ هانئا ، وخلا به ناحية من ابن زياد بحيث يراهما ، فقال له : ياهانئُ ، أنشدك الله أن تَقْتُلَ نفسك ، وتُدخِلَ البلاء على نفسك ، إن هـذا الرجل ابن عم القوم ؛ وليسوا بقاتليه ولا ضائريه ؛ فادفَعْه إليه ، فليس عليك بذلك مخزاة ولا مَنْقَصة ؛ إنما تدفعه إلى السلطان ، قال : بلى والله؛ إن علىّ فى ذلك للْخِزْى والعار . أنا أدفع جارى وضيفى وأنا حىٌّ صحيح أسمع وأَرَى شـديد الساعد ، كثير الأعوان ! والله لو لم أكن إلا واحداً ليس لى ناصر لم أدفعه حتى أموت دونه ، فأخذ يناشده، وهو يقول: والله لا أدفعه إليه أبداً .

فسمع ابنُ زياد ذلك فقال : أدنوه منّى ، فأدنوْه منه ؛ فقال : والله لتأتينّى به أو لأضربنّ عنقك! قال: إذنْ والله تـكثر البارقة حول دارك؛ وهو يرى أن عشيرته ستمنعه ، فقال ابن زياد : أبالبارقة تخوفنى ! ثم قال: أدنُوه منّى ، فأُدْنِيَ، فاستعرض وجهَه بالقضيب ، ولم يزل يضرب أنفه وجبينه وخدّه حتى كسر أنفه ، وسيّل الدماءَ على ثيابه ، ونثَر لحم خدّيه وجبينه على لحيته ؛ حتى كسر القضيب . وضرب هانئُ بيده إلى قائم سيف شرطىّ وجَبذه ، فمُنـع منه ، فقال له عبيـد الله : أحرورىّ سائر اليوم ، أحْلَلْتَ بنفسك، قد حلّ لنا قتلُك؟ ثم أمر به فألقى فى بيت ، وأغلق عليه، فقام إليه أسماء بن خارجة وقال : أرسله ياغادِر ! أمرتَنا أن نجيئَك بالرجل ؛ فلما أتيناك به هشمتَ وجهه ، وسيلت دمه ! فأمَر به ابن زياد فحبس . وأمّا ابن الأشعث فقال : رضِينا بما رأى الأمير ؛ لنا كان أو علينا .

****

وأتى الخبرُ مسلم بن عَقِيل ؛ فنادى فى أصحابه : يا منصور ! وكان هذا شعارَهم ، وكان قد بايعه ثمانية أعشر ألفاً ، وحوله فى الدور أربعة آلاف ، فاجتمع إليه ناس كثير ، فعبّأهم ، وأقبل إلى القصر فأحاط به ، وامتلأ المسجد والسوق من الناس ، ولم يكن مع ابن زياد إلا ثلاثون رجلا من الشُّرَط ، وعشرون رجلا من الأشراف ، وأهل بيته ومواليه .

فرأى ابن زياد أن يُعمِل الحيلة ، فدعا كثير بن شهاب الحارثىّ ، وأمره أن يخرج فيمن أطاعه من مَذْحِج ، فيسير ويخذّل الناس عن ابن عقيل ويخوّفهم ، وأمر محمد ابن الأشعث أن يخرج فيمن أطاعه من كِنْدة وحضرموت ، فيرفع راية أمان لمن جاءه من الناس ، وقال مثل ذلك للقعقاع بن شُور ، وشِبْث بن رِبعىّ ، وترك وجوه الناس عنده استئناساً بهم لقلة عدد من معه .

وخرج أولئك النفر يخذِّلون الناس ، وأمر عبيد الله مَن عنده من الأشراف أن يشرفوا على الناس من القصر ، فيُمَنُّوا أهلَ الطاعة ، ويخوّفوا أهل المعصية ، ففعلوا .

فلمّا سمع الناسُ مقالة أشْرافِهم أخذوا يتفرَّقُون ؛ حتى بقى ابنُ عَقِيل فى المسجد فى ثلاثين رجلا . فلمّا رأى ذلك خرج متوجِّهاً نحو أبواب كِنْدة ، فلمّا خرج إلى الباب لم يبق معه أحد ، فمضى فى أزقَّة الكوفة لا يدرى أين يذهب . ثم انتهى إلى باب امرأة من كِنْدة فسلَّم عليها ، وطلب الماء فسقتْه ، ثم جلس ، فقالت له : يا عبد الله ، ألم تشرب ؟ قال : بلى ! قالت : فاذهب إلى أهلك ، فسكت ، فقالت له ثلاثاً فلم يبرح ، فقالت : سبحان الله ! إنى لا أحِلُّ لك الجلوس على بابى ، فقال لها : ليس لى فى هذا المصر منزل ولا عشيرة ، فهل لك إلىّ أجر ومعروف ؟ ولعلى أكافئك به بعد اليوم . قالت : وما ذاك ؟ قال : أنا مُسلم بن عقيل ، كَذبنى هؤلاء القوم .

وغرُّونى . قالت : ادخل ، فأدخلته بيتاً فى دارها ، وعرضت عليه العشاء فلم يتعشَّ .
وجاء ابنها بلال ، فرآها تكثر الدخول فى ذلك البيت ، فقال لها : إنَّ لك لشأناً فى ذلك البيت ! وسألها ، فلم تخبره ، فألحَّ عليها فأخبرته واستكتمته وأخذت عليه الأيمان بذلك . فسكت .

* * *

أمّا ابن زياد فإنّه لما سمع الأصوات قال لأصحابه : انظروا هل ترَون منهم أحداً ! فنظروا فلم يروا أحداً ، فنزل إلى المسجد قبل العَتَمة ، وأجلس أصحابه حول المنبر ، وأمر فنودى : برئت الذمَّة من رجل من الشّرطة والعُرَفاء والمقاتلة صلّى العَتَمة إلا فى المسجد .

فامتلأ المسجد ثم صلّى بالناس وقام ، فحمِد الله ثم قال : أما بعد ، فإن ابن عَقِيل السفيه الجاهل قد أتى ما رأيتم من الخلاف والشّقاق ، فبرئت الذمة من رجل وجدناه فى داره ، ومن أتانا به فله دِيَتُه . ثم أمرهم بالطاعة ولزومها .

ولما أصبح بلال ابن تلك العجوز التى آوت مسلم بن عَقِيل أتى عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث ، وأخبره بمكان مُسلم بن عَقِيل ، فأتى عبد الرحمن أباه وهو عند ابن زياد فأسرّ إليه بذلك، فأخبر به ابن زياد ، فقال له ابن زياد : قُمْ فائتنى به الساعة، وبعث معه عمرو بن عبيد الله بن عباس السلمى فى سبعين من قيس ، حتى أتوا الدّار التى فيها ابن عَقيل ، فلما سمع الأصوات عرف أنه قد أُتى ، فخرج إليهم بسيفه حتى أخرجهم من الدار ، ثم عادوا إليه فأخرجهم مراراً . وضرب بُكير بن حمران فم مُسلم فقطع شفتَه العليا ، وسقطت ثنِيَّتَاه ، وضربه مسلم على رأسه وثنّى بأخرى ، فلما رأوا ذلك أشرفوا على سطح البيت ، وجعلوا يرمونه بالحجارة

ويُلهبون النار فى القَصَب ويلقونها عليه . فلما رأى ذلك خرج عليهم بسيْفه ، فقال له محمد بن الأشعث : لك الأمان فلا تقتـل نفسَك ، فأقبل يقاتلهم فقال له محمد : إنك لاتُـكَذَّب ولا تُخدَع . إن القوم بنو عمك وليسوا بقاتليك ولا ضاربيك ـ وكان قد أُثْخِنَ بالجراحة وعَجَزَ عن القتـال ، فأسند ظهره إلى حائط تلك الدار فأمّنه ابن الأشعث والناسُ غيْرَ عمرو بن عبيد الله السّلمى فإنه قال : لاناقةَ لى فى هذا ولا جمل . وأتى ببغلة فحُمل عليها، وانتزعوا سيفه فـكأنّه أَيِسَ من نفسه فدمعت عيناه ثم قال: هـذا أول الغَدْر . قال محمد : أرجو ألّا يكون عليك بأس ، قال : أين أمانـكم ؟ ثم بـكى ، فقال له عمرو بن عبيد الله السُّلَمِيّ : مَنْ يطلب مثلَ الذى تطلب إذا نزل به مثلُ الذى نزل بك لم يَبْكِ ، فقال : ما أبكى لنفسى ، ولـكنّى أبـكى لأهلى المنقلبين إليكم ؛ أبكى للحسين وآل الحسين !!

ثم أدخِل إلى القَصْر ، وتقدّم محمـد بن الأشعث فأخبر عبيد الله بن زياد الخبر وبأمانه له ، فقال له عبيد الله : ماأنت والأمان ! ما أرسلْناك لتؤمنه ، إنّما أرسلناكَ لتأتينا به ، فسكت محمد .

ثم إن مُسلم بن عَقيل رأى جَرَّةً فيها ماء بارد ، فقال : اسْقُونِى من هذا الماء . فقال له مُسلِم بن عمرو الباهلىّ : أتَراها ؟ ماأبردها ! والله لاتذوقُ منهـا قطرة حتى تذوقَ الحميم فى نار جهنّم . فقال له ابن عَقِيل : مَنْ أنت ؟ قال : أنا مسلم بن عمرو الباهلىّ ، فقال له ابن عَقِيل : لِأُمِّك الثُّكْل ! ما أجفاكَ وأفظّـك وأقسى قلبك وأغلظَك ! أنت يابن باهلة أوْلى بالحميم والخلود فى نار جهنم . ثم أدخل على ابن زياد ، فلم يسلم عليـه بالإمارة ، فقال له الحرَسىّ : ألا تسلم على الأمير ؟ فقال : إن كان يُريد قتلى فما سلامى عليـه ! وإن كان لايريد قتلى فليَـكثُرَنَّ تسليمى عليه . فقال له

ابن زياد : لعمرى لتقتلنّ ! فقال : كذلك ؟ قال : نعم . قال : فدعنى أوص إلى بعض قومى ! قال : افعل .

فقال لعمر بن سعد : إن بينى وبينك قرابة ولى إليك حاجة — وهى سرّ — فلم يمكّنه من ذكرها . فقال ابنُ زياد : لا تمتنعْ من حاجة ابن عمك ، فقام معه فقال : إنَّ علىَّ بالكوفة ديناً استدنْتُه منذ قدمت الكوفة ، قدره سبعمائة درهم ، فاقْضه عنى ، وانظر جُثَّتى فاستوهِبْها من ابن زياد ، فوارِها ، وابعث إلى الحسين مَنْ يَرُدُّه .

فقال عمرُ لابن زياد : إنّه قال كذا كذا ، فقال ابنُ زياد : إنّه لايخونك الأمين ولكن قد يؤتمن الخائن ؛ أمَّا مَالُك فهو لك ، تصنع به ماشئت ، وأمّا الحسين فإن لم يُرِدْنَا لم نرده ، وإن أرادنا لم نكف عنه ، وأمَّا جُثَّتُه فإنا إذا قتلناه لانبالى ماصُنع بها .

ثم قال ابن زياد لمسلم : يابنَ عَقِيل ، أتيتَ الناس وأمْرُهم جميع ، وكلمتهم واحدة ، لِتُشَتِّت بينهم ، وتفرق كلمتهم ! فقال : كلّا ، ولكن أهل هذا المصر زعموا أن أباك قتل خيارَهم ، وسفكَ دماءهم ، وعمل فيهم أعمال كسرى وقيصر ، فأتيناهم لنأمر بالعدل وندعو إلى حُكْم الكتاب والسُّنة ، قال : وماأنت وذاك يافاسق ! ألم يكن يعمل بذلك فيهم إذْ أنت تشرب الخمر بالمدينة ؟ قال : أنا أشرب الخمر ! والله ، إن الله يعلم أنك تعلم أنك غير صادق ، وأنى لست كما ذكرت ، وأن أحق الناس بشرب الخمر مَنْ يَلغ فى دماء المسلمين ، فيقتل النفس التى حرم الله قتلَها على الغضب والعداوة ، وهو يلهو ويلعب ؛ كأنه لم يصنع شيئاً ! فقال له ابن زياد : قتلنى الله إن لم أقتلْكَ قتلة لم يُقْتَلْها أحدٌ فى الإسلام ، قال : أما إنك أحقّ من أحْدَث فى الإسلام حدثاً ؛ إنك لاتدع سوءا لقِتْلة وقبح المثلة وخبث السيرة ولؤم

الغلبة ، ولا أحد من النـاس أحق بها منك . فشتمه ابن زياد وشتم الحسين وعليًّا وعقيلا ، ثم أمر بابن عقيل فأصعد فوق القصر ، وضربت عنقه .

* * *

أما الحسين فإنه لماعَزَم على المسير إلى الـكوفة وتهيَّأ أتاه عُمَر بن عبـد الرحمن ابن الحارث المخزومىّ فدخل عليه وقال له : أتيتكَ يابن عمّ لحاجةٍ ؛ أريد ذكْرَها لك نصيحة ؛ فإن كنتَ تَرى أنك تَسْتَنْصِحُنِى ، وإلا كففتُ عمّا أريد أن أقول . فقـال : قُلْ ؛ فوالله ماأظنّك بِسَيِّئ الرأى ، فقال : بَلَغنى أنك تريدُ المسيرَ إلى العِراق ؛ وإنى مُشفِق عليك من مَسيرك ؛ إنك تأتى بلداً فيه عمّاله وأمراؤه ، ومعهم بُيوت الأموال ، وإنما الناسُ عَبيد لهذا الدرهم والدينار ، ولا آمن عليك أن يُقاتلك مَنْ وعدَك نصرَه ، ومَنْ أنتَ أحبُّ إليه مِمَّنْ يُقاتلك معه .

فقال الحُسين : جَزاكَ الله خيراً يابن عمّ ، فقد واللهِ علمتُ أنّك مَشَيْتَ بِنُصْح ، وتـكلَّمت بعقل ، ومهما يُقضَ مِنْ أمرٍ يكن ، أخذت برأيك أو تركته ، فأنت عندى أحْمَد مُشِير ، وأنصح ناصح .

ثم جاءه ابنُ عبـاس ، فقال : يابنَ عمّ ، قد أَرْجَفَ الناس أنّك سائرٌ إلى العراق ، فبيِّنْ لى ما أنت صانع ، قال : إنى قد أَجْمَعْتُ المسير فى أحـد يومىّ هذين إنْ شاء الله تعـالى . فقال له ابنُ عباس : فإنى أعيذُكَ بالله مِنْ ذلك ، أخبرنى ـ رَحِمك الله ـ أتسيرُ إلى قومٍ قتلوا أميرهم ، وضبطوا بلادَهم ، ونَفَوْا عدوَّهم ؟ فإن كانوا قد فعـلوا ذلك فسِرْ إليهم ، وإن كانوا إنمـا دَعَوْكَ إليهم ، وأميرُهم عليهم قاهرٌ لهم ، وعمَّاله تجىءُ بلادهم، فإنهم إنما دعوْكَ إلى الحرب والقتال، ولا آمنُ عليك أن يغزوك ويكذّبوكَ ويخالفوك ويخذُلوك ، وأن يستَنْفِروا إليك . فيـكونوا أشدَّ الناس عليك .

فقال له الحسين : إنى أستخير الله ، وأنْظرُ ما يكون .

ولما خرج ابنُ عبّاسٍ مِنْ عنده أتاه ابنُ الزبير ، فحدَّثه ساعة ، ثم قال : ماأدرى ماتَرْكُنا هؤلاء القوم ، وكفُّنا عنهم ، ونحن أبناء المهاجرين وَوُلاة هذا الأمر دُونهم ؟ خبِّرْنى ماتريد أن تَصْنع ؟ فقال الحسين : والله لقد حَدَّثت نفسى بإتيان الكوفة ، ولقد كتب إلىّ شيعتى بها وأشرافُ أهلها ، وأستخير الله . فقال له ابن الزبير : أما لو كان لى بها مثلُ شيعتك ماعدلتُ بها . ثم إنه خَشِيَ أن يَتَّهمه فقال له : أما إنك لو أقمتَ بالحجاز ثم أردت هذا الأمر هاهنا ماخُولف عليك إن شاء الله ، ثم قام فخرج من عنده ، فقال الحسين : إن هذا ليس شىء يؤتاه من الدنيا أحبَّ إليه من أنْ أخرُج من الحجاز إلى العراق ، وقد علِم أنه ليس له من الأمر معى شىء ، وإنّ الناسَ لم يَعْدِلوه بى فودَّ أنى خرجت منها لتخلوَ له .

ولما كان الغد أتاهُ ابنُ عباس ثانياً ، فقال له : يابن عمّ ، أتصبّر ولا أصْبِر ، إنى أتخوّف عليك فى هذا الوجه الهلاكَ والاستئْصَال ، إنّ أهلَ العراق قوم غدر ، فلا تقربنَّهم ، أقِمْ بهذا البلد ، فإنك سيِّدُ أهل الحجاز فإنْ كانَ أهلُ العراق يريدونك كما زَعموا ، فاكتُبْ إليهم ، فلينفُوا عَدُوَّهم ، ثم أَقْدِمْ عليهم ، فإن أبيت إلا أن تخرج ، فسرْ إلى اليمن ، فإن بها حصوناً وشِعاباً . وهى أرض عَريضة طويلة ولأبيك بها شِيعة ، وأنت عن الناسِ فى عُزْلة ، فتكتب إلى الناس ، وترسل وتبثّ دعاتكَ ، فإنى أرجو أن يأتيَك عند ذلك الذى تحبّ فى عافية .

فقال له الحسين : يابن عمّ ، إنى لأعلم والله أنك ناصح مُشْفق ، ولكنى قد أزمعت وأجمعت على المسير .

فقال له ابن عباس : فإن كنتَ سائراً ، فلا تَسِرْ بنسائك وصِبْيَتِك ، فوالله إنى لخائفٌ أن تقتل ، كما قُتِل عثمان ، ونساؤه وولده ينظرون إليه . فلم يفِدْ كلامه شيئا .

ثم سار بأهله وأولاده ، فقابله بالطريق الفرزدق ، فسأله الحسينُ عن خبر الناس بالكوفة ، فقال له : قلوبُ الناس معك ، وسيوفُهم مع بنى أمية ؛ والقضاء يَنْزِلُ من السماء ، واللهُ يفعل ما يشاء .

وبينما هو فى الطريق جاءه كتابٌ من عبد الله بن جعفر بن أبى طالب : أمّا بعد ؛ فإنى أسألك بالله لما انصرفت حين تنظر فى كتابى ؛ فإنى مُشْفِقٌ عليك من الوَجْه الذى تتوجّه له ، أن يكون فيه هلاكُكَ ، واستئصالُ أهلِ بيتك ؛ إن هلكت اليوم أطفئ نورُ الأرض ، فإنك عَلَمُ المهتدين ورَجاء المؤمنين ؛ فلا تعجل بالسَّيْر ، فإنى فى أثَر الكتاب ، والسلام .

ثم ذهب عبد الله بن جعفر إلى عمرو بن سعيد بن العاص ، فكلّمه وقال : اكتب إلى الحسين كتاباً تجعل له فيه الأمان ، وتمنّيه فيه البرّ والصِّلَة ، وتوثّق له فى كتابك ، وتسأله الرجوع ؛ لعله يطمئن إلى ذلك فيرجع ، فقال له عمرو بن سعيد — وكان عامل يزيد على مكة — : اكتب ما شئت ، وائتنى به ؛ حتى أختمه .

فكتب إليه : بسم الله الرحمن الرحيم . من عمرو بن سعيد إلى الحسين بن علىّ ، أما بعد ، فإنّى أسأل الله أن يصرفَك عمّا يُوبِقُك ، وأن يهدِيَك لِمَا يُرْشِدك ؛ بلَغنى أنك توجّهْت إلى العراق ، وإنّى أعيذك بالله من الشّقاق ؛ فإنى أخاف عليك فيه الهلاكَ ، وقد بعثت إليك عبدالله بن جعفر ويحيى بن سعيد ، فأقبل إلىّ معهما ؛ فإنّ لك عندى الأمانَ والصِّلة والبرّ وحسن الجوار لك ، والله علىّ بذلك شهيد وكفيل ومُراعٍ ووكيل . والسلام عليك .

فكتب إليه الحسين : أمّا بعد ؛ فإنّه لم يُشاقِقِ الله ورسولَه مَنْ دعا إلى الله عزّ وجل وعمل صالحًا، وقال : إنّنى من المسلمين، وقد دعوت إلى الأمان والبرّ والصلة؛ فخيرُ الأمان أمانُ الله ، ولن يُؤَمِّن الله يومَ القيامة مَنْ لم يَخَفْهُ فى الدنيا ، فنسأل الله مخافةً فى الدنيا ، توجب لنا أمانةً يوم القيامة ؛ فإنْ كنت نويْتَ بالكتاب صِلَتى وبِرّى ، فجُزيت خيراً فى الدنيا والآخرة ، والسلام .

ثم تمّ على طريقه ، فقابله عبد الله بن مطيع ، ولما علم بوجهه قال له : أذكرك اللهَ يابن رسول الله ، وحُرْمة الإسلام أن تُنْتَهك ، فوالله لئن طلبتَ ما فى أيدى بنى أمية ليقتلُنَّك ، ولئن قتلوك لا يهابون بعدك أحداً ، والله إنها لحُرْمة الإسلام ، وحُرْمة قريش ، وحُرْمة العرب ؛ فلا تفعلْ ، ولا تأتِ الكوفة ، ولا تعرِّض نفسَك لبنى أمية .

ثم إن الحسين لَمّا بلغه مقتلُ مسلم بن عَقِيل ، وتخاذلُ الناس أعلم أصحابه بذلك وقال : مَنْ أحبَّ أن ينصرف فلينصرف ؛ فتفرّقَ الناس عنه يميناً وشمالا . فقال له بعضُ أصحابه : ننشدُك الله إلا ما رجَعْت من مكانك ؛ فإنه ليس لك بالكوفة ناصرٌ ولا شيعة ، بل نتخوّف أن يكونوا عليك . فوثب بنو عقيل ، وقالوا : والله لا نبرح حتى ندرك ثأرنا ، أو نذوق كما ذاق مُسْلِم !

وسار حتى نزل بطن العقبة ؛ وهناك لقيه رجل من العرب ، فقال : أنشدك الله إلّا ما انصرفتَ . فوالله ما تقدم إلّا على الأسنّة وحدّ السيوف ؛ إن هؤلاء الذين بعثوا إليك لو كانوا كَفَوْكَ مئونَة القتال ، ومهدوا لك الأشياء فقدمت عليهم لكان ذلك رأيا . فأمّا على هذه الحال التى تَذْكر ؛ فلا أرى أن تفعل . فأبى أن يرجع .

ولما وصل الحسين إلى مكان يقال له شَراف[1] وصل إليه الحرّ بن يزيد التميمى صاحب شُرْطة عبيد الله بن زياد فى ألفَى فارس ، حتى وقفوا مُقابل الحسين فى حَرّ الظّهيرة ، فقال لهم الحسين : ما أتيتُ إلّا بكتبكم ، فإن رجعتم رجعتُ من هنا . فقال له الحرّ : إنَّا أُمرنا ألّا نفارقك حتى نوصلك إلى الكوفة ، بين يدى عبيد الله ابن زياد . فقال الحسين : الموت أهون علىّ من ذلك .

ثم أمر أصحابه فركبوا لينصرفوا ، فمنعهم الحرّ من ذلك ، فقال الحسين : ثكلتك أمّك ! ما تريد ؟ فقال له : أما والله لو غيرُك من العرب يقولها ما تركتُ ذكرَ أمّه بالثُّكْلِ كائنا مَنْ كان ، ولكنّى والله ما لى إلى ذِكْر أمِّك من سبيل ، إلّا بأحسن ما يُقْدَر عليه .

ثم سار الحسين والحرُّ يُراقبه ، حتى لا يتمكّن من الانصراف إلى المدينة ، وبينا هما فى الطريق ورد كتاب من ابن زياد إلى الحرّ يأمره أن ينزل الحسين ومن معه على غير ماء ، فأنزلهم فى الموضع المعروف بكربَلاء فى يوم الخميس ، ثانى المحرم من سنة إحدى وستين ، فلما كان من الغد قدم من الكوفة عمر بن سعد ابن أبى وقاص بأربعة آلاف فارس ، أرسله ابن زياد لحرب الحسين .

فقال له الحسين : اختر واحدةً من ثلاث ، إما أن تدَعنى فأنصرف من حيث جئتُ ، وإمّا أن تدعنى فأذهبَ إلى يزيد ، وإما أن تدَعنى فألحقَ بالثغور .

فقبلَ ذلك عُمَرُ بن سعد ، وأرسل بالخبر إلى عُبيد الله بن زياد ، فكتب إليه : لا ، ولا كرامة ، حتى يضعَ يده فى يده ، فقال له الحسين : لا يكونُ ذلك أبداً ، ثم دار القتال ، فقُتِل أصحابُ الحسين كلهم ، وهم لا يزيدون على ثمانين ، وفيهم

---

(١) شراف : ماء بنجد .

بضعة عشر شابًّا من أهل بيته . وجاءه سهم فأصاب ابناً له معه فى حجره ، فجعل يمسح الدَّمَ عنه ويقول : اللهم احْكُمْ بيننا وبين قومٍ دعوْنا لينصروا ، فقتلونا ، ثم أمر بحبرةٍ فشقَّقَها، ثم لبسها، وخرج بسيفه وقاتل ، حتى قُتِل ـ صلوات الله عليه ـ قتَله رجل من مَذْحِج ، وحَزَّ رأسه ، وانطلق به إلى عُبيد الله وقال :

أوقِرْ ركابى فِضّةً وذهَبا فقدْ قتلتُ الملِكَ المحجَّبا[١]

قتلتُ خيرَ الناس أمًّا وأبا وخيرَهم إذ يُنْسَبون نَسَبَا

وأوفده إلى يزيد بن معاوية ، ومعه الرأس ، فوضع رأسه بين يديه ، وعنده أبو برْزة الأسلمىّ . فجعل ينكت بالقضيب على فيه ، ويقول :

يُفلِّقن هاماً من رجال أعزّة علينا وهم كانوا أعقَّ وأظلما[٢]

فقال له أبو برْزة : ارفع قضيبك ، فوالله لرُبَّما رأيت فا رسولِ الله صلّى الله عليه وسلّم على فيه يلثمه !

---

(١) انظر العقد ٤ : ٣٨١ .

(٢) للحصين بن حمام المرى ، وانظر العقد ٤ : ٣٨٢ .

٥٥ — يوم الحَرَّة*

كان عَمْرو بن سعيد أَميراً على الحجاز فى عهد يَزيد[1] بن معاوية ، وعلى إثْر مقتل الحسين ـ رضى الله عنه ـ أخذ عبدُ الله بن الزبير يدعُو لنفسه بمكة . واشرأبَّت إليه الناس ، فأظهر عَمْرٌو معه تهاوناً ظنًّا منه أنَّ الأمورَ قد تئول إليه . فذهب ناسٌ من بنى أمية ومعهم الوليد بن عُتْبة إلى يزيد ، وحدَّثوه فى أمر عَمْرو بن سعيد ، وقالوا : لو شاء لأَخَذَ ابنَ الزبير وبَعَث بهِ إليك .

فسرَّح يزيدُ عمراً وصرفه عن الحجاز ، وولى الوليد بن عُتبة أَميراً ، وقدم عمرو على يزيد ، فلما دخل عليه رحَّب به وأَدْنَى مجلسه ، ثم إنه عاتبه فى تقصيره فى أَشياء كان يأمرُه بها فى ابن الزبير ، فلا ينفذُ منها إلا ما أَراد ، فقال : يا أميرَ المؤمنين ، الشاهدُ يَرى ما لا يَرى الغائب ، وإنَّ جُلَّ أَهلِ مكة وأهل المدينة قد كانوا مالوا إليه ، وهووه ، وأَعطَوْه الرِّضا ، ودعا بعضُهم بعضاً سِرًّا وعَلانيةً ، ولم يكن معى جند أَقْوَى بهم عليه لو نَاهَضْتُه ، وقد كان يَحْذَرنى ويتحرَّزُ منى ، وكنت أَرْفُق به وأُدَارِيه لأَسْتمْكن منه ، فأثبَ عليه ، مع أنى قد ضَيَّقْتُ

---

* ليزيد بن معاوية على أهل المدينة سنة ٦٣ هـ . والحرة : أرض ذات حجارة سود نخرة ، كأنها أحرقت بالنار ، والحرار كثيرة فى بلاد العرب ، أكثرها حوالى المدينة إلى الشام . والحرة التى وقعت فيها هذه الوقعة تقع شرقى المدينة ، اسمها حراة واقم .

تاريخ الطبرى ٧ : ١ ، معجم البلدان ٣ : ٢٦٢ ، الفخرى : ١٠٦ ، الأغانى : ١ : ٢٣ ، مروج الذهب ٣ : ٩٥ ، أبو الفدا ٢ : ١٩٢ ، العقد ٣ : ١٤١ .

(١) ولى يزيد الخلافة سنة ٦٠ بعد وفاة معاوية ، وتوفى سنة ٦٣ ، وكان موفور الرغبة فى اللهو والقنص والنساء ، وكان أيضاً فصيحاً كريماً شاعراً ، ولى ثلاث سنين ، فى السنة الأولى قتل الحسين ، وفى السنة الثانية نهب المدينة وأباحها ، وفى السنة الثالثة غزا الكعبة .

عليه ، ومنعته أشياء كثيرة لو تركته وإياها ما كانت له إلا معونةً ، وجعلت على مكة وطرقها وشعابها رجالا لا يدعون أحداً يدخلها حتى يكتبوا إلىّ باسمه واسم أبيه ، ومن أىّ بلاد الله هو ، وما جاء به وما يريد ، فإن كان من أصحابه أو ممن أرى أنه يريده رددته صاغراً ، وإن كان ممن لا أتهم خليت سبيله ، وقد بعثتَ الوليد وسيأتيك من عمله وأثره ما لعلك تعرفُ به فضلَ مبالغتى فى أمرك ، ومناصحتى لك . إن شاء الله . والله يصنعُ لك ، ويكبتُ عدوك يا أمير المؤمنين .

فقال له يزيد: أنتَ أصدقُ ممن رقّى هذه الأشياء عنك، وحملنى بها عليك. وأنتَ ممن أثق به ، وأرجو معونته ، وأدخره لرأبِ الصدْع ، وكفاية المهم ، وكشف نوازل الأمور العظام .

فقال له عمرو : وما أرى ياأميرَ المؤمنين أنّ أحداً أولى بالقيام بتشديد سلطانك، وتوهين عدوك ، والشدّة على من نابذك منّى .

وأقام الوليد بن عتبة يريدُ ابنَ الزبير فلا يجده إلا متحذراً متمنّعاً .

ثم إنّ ابن الزبير عمل بالمكرِ فى أمر الوليد بن عتبة ، فكتب إلى يزيد بن معاوية: إنك بعثتَ إلينا رجلا أخرق، لا يتّجه لأمر نافع ، ولا يرعوى لعظةِ حكيم. ولو بعثتَ إلينا رجلا سهلَ الخلقِ ، لينَ الكنف رجوتُ أن يسهل من الأمور ما استوعر منها ، وأن يجمعَ ما تفرّق . فانظر فى ذلك ، فإن فيه صلاحَ خواصّنا وعوامّنا إنْ شاءَ الله .

فبعث يزيدُ بن معاويةَ إلى الوليدِ فعزله ، وبعث عثمان بن محمد بن أبى سفيان فقدم المدينة وهو فتًى غِرّ حدَث غمْر ؛ لم يجرِّب الأمور ، ولم تحنّكه السنّ ؛

ولم تضرّسه التجارب ؛ وكانَ لايكاد ينظر فى شىء من سُلْطَانه ولا عمله .

وبعث إلى يزيد وَفْداً من أَهل المدينة ؛ فيهم عبدُ الله بن حنظلة الغسِيل[1] الأَنصارى ، وعبدُ الله بن أبى عمرو بن حفص بن المغيرة المخزومىّ ؛ والمنذر بن الزبير، ومنهم كثيرٌ منْ أَشْرافِ أهل المدينة .

فقدموا على يزيدَ فأكرمهم ، وأَحْسَن إليهم وأَعْظَم جوائزَهم ؛ ثم انصرفوا كلهم وقدموا إلى المدينة إلا المنذر بن الزبير ، فإنه قدِم على عبيد الله بن زياد بالبَصْرَة .

فلمّا دخلوا المدينة قالوا : إنَّا قدمنا من عند رجل ليس له دين ؛ يشربُ الخمر ، ويَعْزِف بالطَّنَابير ، وتَضْرِب عنده القِيان ، ويلعب بالكلاب، ويسامِرُ الخرّاب[2] والفتيان . وإنا نشهدكم أنَّا قَدْ خَلَعْناه . فتابعهم الناس ، وأَتَوْا عبد الله بن حنظلة الغسيل ، فبايَعوه ، ووَلَّوه عليهم .

ولما بلغ يزيدَ أمرُهم بعث إلى النعمان بن بشير الأنصارىّ ، فقال له : إيتِ الناس وقومَك ، فافْثَأْهُم[3] عَمّا يريدون ، فإنهم إن لم ينهضوا فى هذا الأمر لم يجترئ الناسُ على خِلافى . وبها من عشيرتى مَنْ لا أُحبُّ أَنْ يَنْهَض فى هذه الفتنة فيهلِك .

فأقبل النعمانُ بن بَشِير ؛ فأتى قومَه ، ودعا الناس إليه عامة ، وأَمَرَهم بالطاعة ، ولزومَ الجماعة وخوّفهم الفِتْنَةَ ؛ وقال لهم : إنه لاطاقَة لكم بأَهْلِ الشام .

فقال عبد الله بن مُطيع العَدَوِىّ : ما يحملك يا نُعمان على تَفْرِيق جماعتِنا ، وفسادِ ما أَصْلَح اللهُ من أمرنا ؟

---

(١) الغسيل : لقب حنظلة والد عبد الله ؛ وكان يسمى غسيل الملائكة ، استشهد يوم أحد وغسلته الملائكة . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : رأيت الملائكة يغسلونه . وآخرين يسترونه.

(٢) الخراب : اللصوص . (٣) افثأهم : سكنهم واصرفهم عما يريدون .

فقال النعمان : أمَا والله لكأنّى بك لو قد نزلت تلك التى تدعو إليها[1] ؛ وقامت الرجال على الرُّكَب تضرب مفارقَ القوم وجباهَهم بالسيوف ، ودارت رَحى الموت بين الفريقين — قد هربْتَ على بَغْلَتِك تضرب جَنْبَيْها إلى مكة ؛ وقد خلّفْتَ هؤلاء المساكين — يعنى الأنصار — يُقْتَلُون فى سِكَكِهم ومساجدهم وعلى أبواب دُورهم !

ولكن الناسَ عصوا النعمان ، ووثبوا على عُثْمان بن محمد ومَنْ بالمدينة من بنى أُمية ومَوَاليهم ، ومَنْ رأَى رَأْيَهم من قريش ؛ فكانوا نَحْوا من ألف رجل ؛ وخرجوا بجماعتهم حتى نزلوا دارَ مَرْوان بن محمد ؛ وحاصروا الأمويين فيها .

ودَعَتْ بنو أمية حبيبَ بن كُرّة ؛ وكان الذى بعث إليه منهم مَرْوان بن محمد وعَمْرو بن عثمان بن عفان ؛ وكان مَرْوان هو الذى يدبّر أمرهم ؛ وأما عمرو بن عثمان فإنما كان غلاماً حَدَثاً لم يكن له رَأْى .

قال حبيب بن كُرّة : كنتُ مع مروان فكتب معى هو وجماعة من بنى أمية كتاباً إلى يزيد بن معاوية ؛ فأخذ الكتاب عبدُ الملك بن مروان حتى خرج معى إلى ثَنِيّة الوَداع ؛ فدفع إلىّ الكتاب وقال : قد أَجّلْتُك اثنتى عشرة ليلة ذاهبا ؛ واثنتى عشرة ليلة مُقْبلا ؛ فوافِنى لِأَرْبَع وعشرين ليلة فى هذا المكان تجدْنى إن شاء الله فى هذه الساعة جالساً أَنْتَظِرُك .

وكان الكتاب : بسم الله الرحمن الرحيم ؛ أما بعد فإنّا قد حُصِرْنا فى دار مَرْوَان بن الحكم فيا غَوْثاه ياغَوْثاه !

قال : فأخذْت الكتاب ومضيت به حتى قَدِمتُ على يزيد ؛ وهو جالس على

---

(١) يريد الفتنة .

كرسيّ ؛ واضع قدميه فى ماء فى طَسْت من وجع كان يَجِدُه فيهما . فقرأه ثم قال متمثلا :

لقد بدّلوا الحِلْمَ الذى من سَجِيَّتى فبدَّلتُ قَوْمى غِلْظَةً . بلِيانِ

ثم قال : أمَا يكون بنو أميةَ ومَوَاليهم ألفَ رجلٍ بالمدينة ! قال حبيب : قلت : بلى . والله وأكثر ! قال : فما استطاعوا أن يُقاتِلوا ساعة من نهار ! فقلت : يا أميرَ المؤمنين ؛ أَجْمَعَ الناسُ كلُّهمْ عليهم . فلم يكُن لهم بجَمْعِ الناس طاقة .

قال حبيب : فبعثَ يزيدُ إلى عمرو بن سعيد فأقْرَأَه الكتاب وأخبره الخبر ؛ وأَمَره أن يسيرَ إليهم فى الناس . فقال له : قد كنت ضبطتُ لك البلاد ، وأحكمت لك الأمور ؛ فأمَّا الآن إذ صارت دِماء قريش تُهَراق ، فلا أُحِبّ أنْ أكونَ أنا أتوَلّى ذلك ؛ يَتوَلّاها منهم مَنْ هو أبْعَدُ منهم منّى .

قال حبيب : فبعثنى بذلك الكِتاب[١] إلى مُسلم[٢] بن عُقْبَة المُرّىّ — وهو شَيْخٌ كبير ضعيف مَرِيض — فدفعتُ إليه الكتاب ؛ فقرأه وسألنى عن الخبر فأخبرتُه ؛ فقال لى مثل مقالة يزيد : أما يكون بنو أمية ومواليهم وأنصارُهم بالمدينة ألفَ رجل ! قلت : بلى يكونون ، قال : فما استطاعوا أن يقاتلوا ساعةً من نهار ! ليس هؤلاء بأهل أن يُنصَروا حتى يُجْهِدُوا أنفسَهم فى جهادِ عدوّهم وعِزِّ سُلْطَانِهم .

ثم جاء حتى دخَل على يزيد ؛ فقال : يا أمير المؤمنين ؛ لا تنصُرْ هؤلاء ؛ فإنهم الأذِلّاء ؛ أما استطاعوا أن يُقاتِلوا يوماً واحداً أو شطرَه أو ساعةً منه !

---

(١) ذكر فى الفخرى أن يزيد بعد أن عرض الأمر على عمرو بن سعيد ولم يقبله ندب عبيدالله ابن زياد لذلك فاعتذرَ وقال : والله لاجمعتهما للفاسق ، أقتل ابن رسول الله (يريد الحسين) وأغزو مدينته والكعبة ! !

(٢) كان مسلم بن عقبة المرى من جبابرة العرب وشياطينهم ، وقيل : إن أباه قال له : إن خالفك أهل المدينة فارمهم بمسلم بن عقبة .

دَعْهُمْ يا أميرَ المؤمنين حتى يُجْهِدُوا أنفسهم فى جهاد عدوهم وعزِّ سلطانهم ؛ ويستبين لكَ مَنْ يُقاتِل منهم على طاعتك ، ويصبر عليها ، أو يستسلم .

قال يزيد : وَيْحَكَ ! إنّه لا خير فى العيش بعدهم ، فاخرج وأَنْبِئْنى نبأك وسِرْ بالناس .

فخرج مُنَادِيه ، فنادى : أَنْ سِيرُوا إلى الحجاز على أَخْذِ أعطياتكم كاملة ، ومعونةِ مائة دينار تُوضَعُ فى يدِ الرجل من ساعته . فانتدب لذلك اثنا عشر أَلْفَ رَجُلٍ(١) .

قال حبيب بن كُرَّة : فأقبلتُ حتى أُوَافى عبدَ الملك بن مرْوان فى ذلك المكان فى تلك الساعة أو بُعَيْدَها شيئاً ، فوجدتُه جالساً مُتَقَنِّعاً تحتَ شجرة ؛ فأخبرته بالذى كان ؛ فسُرَّ به ، فانْطَلَقْنَا حتى دخلنا دارَ مرْوان على جماعةٍ من بنى أُمية ، فنَبَّأْتهم بالذى قَدِمت به ، فحمدوا اللهَ عزّ وجلّ .

وفَصَلَ الجيشُ من عند يزيد ؛ وعليهم مُسْلِم بن عُقْبَة ، وقال له يزيد : إنْ حَدَث بك حَدَث فاسْتخلف على الجيش حُصَيْنَ بن نُمَير السَّكونىّ ، وادْعُ القومَ ثلاثاً فإنْ هم أجابوك وإلّا فقاتِلهم ؛ فإذا ظهرت عليهم ، فأَبِحْها ثلاثاً ، فما فيها من مال أو سِلَاح أو طعام فهو للجند ؛ فإذا مضت الثلاث فاكْفُفْ عن الناس . وانظر علىّ بن الحسين فاكْفُفْ عنه ، واستوصِ به خيراً ، وأَدْنِ مجلسه ؛ فإنه لم يدخل

---

(١) ذكر ابن عبد ربه فى العقد أن يزيد أرسل إلى أهل المدينة كتاباً قال فيه : بسم الله الرحمن الرحيم ، أما بعد . فإن الله لايغير مابقوم حتى يغيروا مابأنفسهم ، وإذا أراد الله بقوم سوءاً فلا مرد له ، ومالهم من دونه من وال . وإنى قد لبستكم فأخلقتكم ورفعتكم على رأسى ، ثم على عينى ، ثم على فمى ، ثم على بطنى ، والله لئن وضعتكم تحت قدمى لأوطئنكم وطأة أقل بها عددكم وأترككم بها أحاديث تنتسخ أخباركم مع أخبار عاد وثمود .

فى شىء مما دخلوا فيه ، وقد أتانى كتابه . وعلىٌّ لا يعرف شيئاً مما أوصى به يزيد مسلم بن عُقْبَة[١] .

وأقبل مسلم بن عُقْبَة بالجيش ، حتى إذا بلغ أهلَ المدينة إقبالُه وثَبُوا على مَنْ معهم من بنى أميّة ، فحصروهم فى دار مروان ، وقالوا : والله لا نكفّ عنكم حتى نستنزلكم ونضربَ أعناقكم ، أو تعطونا عَهْدَ الله وميثاقَه ، ألّا تبغونا غائلة ، ولا تدلّوا لنا على عَوْرة ، ولا تُظاهِروا علينا عدوًّا ، فنكفّ عنكم ونخرجكم عنّا .

فأَعْطَوْهم عهدَ الله وميثاقَه : لا نبغيكم غائلة ، ولا ندلّ لكم على عَوْرة .

فأخرجوهم من المدينة[٢] ؛ فخرجت بنو أُمية بأثقالهم حتى لقوا مسلمَ بن عُقْبَة بوادى القرى ، فدعا عَمْرَو بن عثمان أوّل الناس ، فقال له : أخبِرْنى خبرَ ما وراءك وأَشِرْ علىَّ . قال : لا أستطيع أن أخبرك ، أُخِذَتْ علينا العهودُ والمواثيقُ ألّا ندلّ على عورة ، ولا نُظاهر عدوًّا . فانتهره . ثم قال : والله لولا أنك ابن عثمان لضربتُ عنقك . وايْمُ[٣] الله لا أُقِيلُها قريشاً بعدك .

وخرج بما لقى من عنده إلى أَصْحابه ، فقال مَرْوان بن الحكَم لابنه عبد الملك : ادخل قبلى ، لعلّه يجتزئ بك عنى . فدخل عليه عبدُ الملك ، فقال : هاتِ ما عندك ، أخبرنى خبرَ الناس وكيف ترَى ؟ فقال له : نعم ، أَرَى أن تسيرَ بمن معك فتتنكّب

---

(١) قال أبو الفرج : لما أخرج أهل المدينة بنى أمية أتى مروان عبد الله بن عمر فقال : ياأبا عبد الرحمن ، إن هؤلاء القوم قد ركبونا بما ترى ، فضم عيالنا ، فقال : لست من أمركم وأمر هؤلاء فى شىء . فقام مروان وهو يقول : قبح الله هذا أمراً وهذه دنيا ثم أتى على بن الحسين فسأله أن يضم أهله وثقله ففعل ، ووجهه وامرأته أم أبان بنت عثمان إلى الطائف ومعهما ابناه : عبدالله ومحمد . قال ابن جرير الطبرى: وكان مروان شاكرا لعلى بن الحسين مع صداقة كانت بينهما .

(٢) قال فى الأغانى : حينما أراد أهل المدينة إخراج أميرها عثمان بن محمد بن أبى سفيان قال لهم : أنشدكم الله فى دمائكم وطاعتكم ، فإن الجنود تأتيكم وتطؤكم ، وأعذر لكم ألا تخرجوا أميركم إنكم إن ظفرتم وأنا مقيم بين أظهركم فما أيسر شأنى وأقدركم على إخراجى ! وما أقول هذا إلا نظراً لكم أريد به حقن دمائكم . فشتموه وشتموا يزيد .

(٣) أصله : وأيمن ، وهو جمع يمين . والخبر محذوف والتقدير : وايمن الله قسمى .

هـذا الطريق إلى المدينة ، حتى إذا انتهيتَ إلى أدنى نَخْل بها نزلتَ ، فاستظلّ الناس بظلّه ، وأكلوا من صَقْرِه(١) ، حتى إذا كان الليل أذْكيْتَ الحرسَ الليل كلّه بين أهل المسكر ، حتى إذا أصبحت صلّيت بالناس الغداة ، ثم مضيتَ بهم وتركت المدينة ذات اليسار ، ثم أدرْتَ بالمدينة حتى تأتيهم من قبل الحرّة مُشرِّقاً ، ثم تستقبل القوم ، فإذا استقبلتهم وقد أشْرَقتْ عليهم الشمسُ طلعت بين أكتاف أصحابك فلا تؤذيهم ، وتقع فى وجوههم فيؤذيهم حرُّها ، ويصيبهم أذاها ، ويَرَوْنَ ـ مادمتم مُشرِّقين ائتلاقَ بَيْضِكم وحِرابكم وأسنّة رماحكم وسيوفكم ودُرُوعكم ، مما لا ترَوْنه أنتم لشىء من سلاحهم ماداموا مُغرِّبين . ثم قاتِلْهم ، واستَعِنْ بالله عليهم ، فإن الله ناصرُك إذ خالفوا الإمام وخرجوا من الجماعة .

فقال له مسلم : لِلهِ أبوك ! أىّ امرىء وَلَد إذ ولدك ! لقد رأى بك خَلَفاً .

ثم إنّ مروان دخل عليه ، فقال له : إيهٍ ! قال : أليس قد دخل عليك عبدُ الملك ؟ قال : بَلَى ! وأىّ رجل عبد الملك ! قلّما كلّمْتُ من رجالِ قريش رجلًا شبيهاً به ! فقال له مروان : إذا لقيتَ عبد الملك فقد لقيتَنِى . قال : أجَلْ !

ثم ارتحل مُسلم من مكانه ذلك ، وارتحل الناسُ معه حتى نزل المنزلَ الذى أمره به عبد الملك ، فصنع فيه ما أمره به ، ثم مضى فى الحرّة حتى نزلَهَا ، فأتاهم من قبل المشرق ، ثم دعاهم مُسْلم بن عُقْبة ، فقال : يٰأهْلَ المدينة ، إن أميرَ المؤمنين يزيد بن معاوية يزعمُ أنكم الأصل ، وإنى أكره هراقةَ دِمائكم ، وإنى أؤجلكم ثلاثاً ، فمن ارْعَوَى وراجَع الحقّ قَبِلْنا منه ، وانصرفت عنكم وسرت إلى هـذا

---

(١) الصقر : عسل الرطب .

المُلْحِد[1] الذى بمكّة، وإن أَبَيْتُمْ كنا قد أَعْذَرْنا إليكم .

ولما مضت الأيام الثلاثة قال : يأَهْل المدينة ، قد مضت الأيام الثلاثة ؛ فما تصنعون ؟ أَتُسَالِمُونَ أم تحاربون ؟ فقالوا : بل نُحارِب .

فقال لهم : لاتفعلوا ، بل ادْخُلوا فى الطاعة ، ونجعل حدّنا وشوكتنا على هذا المُلحِد الذى قد جمع إليه المُرّاق والفُسّاق من كل أَوْب .

فقالوا : ياأعداء الله؛ والله لو أردتُمْ أن تجوزوا إليهم ماتركناكم حتى نقاتلكم، أنحنُ نَدَعكم لِتَأْتُوا بيتَ اللهِ الحرام ، وتُخيفوا أَهله ، وتُلْحِدوا فيه ؛ وتستحلوا حرمتَه ! لا والله لانفعل .

وقد كان أهلُ المدينة اتّخذُوا خندقاً فى جانبِ المدينة ، ونزله جمع عظيم ، وكان عليهم عبدُ الرحمن بن زُهير بن عبد بن عوف وعبد الله بن مُطيع ومعقِل بن سنان ، وأمير جماعتهم عبد الله بن حَنْظلة الغَسِيل .

وصمد مُسلم بجميع مَن معه ، وأَقبل من قِبَل الحَرّة ، وضرب فُسْطاطَه على طريق الكوفة ، ثم وجَّه الخيلَ نحو عبد الله بن حنظلة الغسيل ، وحمل ابن الغسيل على الخيل فى الرجال الذين معه ؛ حتى انتهوْا إلى مسلم بن عُقْبَةَ ؛ فنهض فى وجوههم بالرجال ، وصاح بهم فانصرفوا، فقاتلوا قتالًا شديداً .

ثم إن الفضل بن عباس بن ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب جاء إلى عبد الله ابن حنظلة الغسيل فقاتل فى نحو من عشرين فارساً قتالًا شديداً حسناً ، ثم قال لعبد الله : مُرْ مَنْ معك فارساً فليأتنى وليقف معى ، فإذا حملت فليحملوا ، فوالله لاأنتهى حتى أبلغ مسلماً ، فإما أن أقتله ، وإما أن أُقْتَل دونه .

---

(١) يريد عبد الله بن الزبير ، وكان قد اعتصم بمكة .

فقال عبدُ الله بن حَنظلة لعبدالله بن الضّحاك : نادِ فى الخيل ، فَلْتَقِفْ مع الفضل ابن العباس ، فنادى فيهم الضحاك ، فجمعهم إلى الفضل ؛ فلما اجتمعت الخيلُ إليه حمل على أهـل الشام فانـكشفوا ، فقال لأصحابه : احملوا أُخْرَى جُعِلْتُ فِدا كم ! فوالله لئن عاينت أميرهم لأقتلَنّه أو لأقْتَلَنَّ دونه . إنّ صبر ساعةٍ مُعْقِبٌ سروراً ، إنه ليس بعد صَبْرِنا إلا النصر .

ثم حمل وحمل أصحابهُ معه ، فانفرجت خيلُ أهلِ الشام عن مسلم فى نحو خمسمائة راجل جثاة على الركب ، مُشْرِعى الأسنة نحو القوم .

ومضى الفضلُ كما هو نحو رَايته حتى يضرب رأسَ صاحبِ الراية ، وإنّ عليه لمِغْفَراً ، فقطَّ المغفر وفلق هامَته ، نخرّ ميتا . فقال: خُذْها منى وأنا ابن عبد المطلب! وظنّ أنه قتل مسلماً ، فقال : قتلتُ طاغيــةَ القوم وربِّ الـكعبة . فقـال مسلم : أخطأتْ ضربتك ـ وإنمـا كان ذلك غلاماً له شجاعاً . وأخـذ مسلم رايتَه ونادى : يأهلَ الشام ، أهـذا القتال قتال قوم يريدون أن يدفعوا به عن دينهم ، وأن يُعزّوا به نَصْرَ إمامهم ، قبح الله قتالـكم منذ اليوم ، ما أوجعه لقلبى ، وأغيظه لنفسى ! أما والله ماجزاؤكم عليه إلّا أن تُحرَموا العطاء ، وأن تجمّروا(١) فى أقاصى الثغور . شدّوا مع هذه الراية ، ومشى برايته ، وشدّت الرجال أَمام الراية ، وصُرِع الفضـل بن عباس وما بينه وبين أَطْنَاب مسلم إلا عشر أذرع ، وقتل معـه زيد بن عبد الرحمن بن عوف وإبراهيم بن نُعَيم العَدَوِىّ فى رجـال من أهْل المدينة كثير .

ثم إن خيلَ مسلم ورجالَه أقبلت نحو عبـد الله بن حنظلة الغسيل ورجاله حتى

---

(١) جمروا فى أرض العدو : أى حبسوا

دَنَوْا منه ، وركب مسلم بن عُقْبة فرساً له ، فأخذ يسير فى أهل الشام ، ويحرِّضهم ويقول : يأهلَ الشام ، إنكم لستم بأفضل العرب فى أحسابها وأنسابها ، ولا أكثرها عدداً ، ولا أوسعها بلداً ، ولم يخصصكم الله بالذى خصَّكم به من النصر على عدوكم وحسن المنزلة عند أئمتكم إلا بطاعتكم واستقامتكم ، وإنّ هؤلاء القوم وأشباههم من العرب غيَّرُوا فغير الله بهم ، فتموا على أحسن ما كنتم عليه من الطاعة يتمم الله لكم أحسنَ ما ينيلكم من النصر والظفر .

ثم جاء حتى انتهى إلى مكانه الذى كان فيه ، وأمر الخيل أن تقدم على ابن الغسيل وأصحابه ، فأخذت الخيلُ إذا أقدمت على الرجال فثاروا فى وجوهها بالرماح والسيوف نفرت وأحجمت ، فنادى فيهم مسلم : يأهلَ الشام ، ما جعلهم الله أولى بالأرض منكم . يا حصين بن نُمير ، انزِل فى جندك ، فنزل فى أهل حمص ، فمشى إليهم ، فلما رآهم ابنُ الغسيل قام فى أصحابه فقال : يا هؤلاء ، إن عدوكم قد أصابُوا وَجْهَ القتال ، الذى كان ينبغى أن تقاتلوهم به ، وإنى قد ظننتُ ألّا تلبثوا إلا ساعة ، حتى يفصل الله بينكم وبينهم ، إما لكم وإما عليكم ، أمَا إنكم أهل البصيرة ، ودار الهجرة ، والله ما أظنُّ ربكم أصبح عن أهل بلد من بلدان المسلمين بأرضى منه عنكم ، ولا على أهل بلد من بلدان العرب بأسخَطَ منه على هؤلاء القوم الذين يقاتلونكم ، إنّ لكل امرئ ميتة هو ميت بها ، والله ما مِنْ ميتة بأفضلَ من ميتة الشهادة ، وقد ساقها اللهُ إليكم فاغْتَنِمُوها ، فوالله ما كلّما أردتموها وجدتموها .

ثم مشى برايته غيرَ بعيد ووقف ، وجاء ابن نُمير برايته حتى أدناها ، وأمر مسلمُ ابن عقيل عبد الله بن عضاه الأشعرى ، فمشى فى خمسمائة ، حتى دنوْا من ابن الغسيل وأصحابه ؛ وأخذوا يَنْضَحونهم بالنبل ، فقال ابنُ غسيل : علامَ تستهدفون لهم ؟

من أراد التعجل إلى الجنة فليلزم هذه الراية . فقام إليه كل مستميت ، فقال : اتّعِدوا إلى ربكم ، فوالله إنى لأرجو أن تكونوا بعد ساعة قريرى عين .

فنهض القومُ بعضهم إلى بعض فاقتتلوا أشدَّ قتال رُئى فى ذلك الزمان ساعة من نهار . وأخذ يقدم بنيه أمامه واحداً واحداً حتى قتلوا بين يديه . وابن الغسيل يضرب بسيفه ويقول :

بُعـداً لِمَنْ رامَ الفساد وطَغَى   وجانَبَ الحقَّ وآياتِ الهُدَى

* لا يُبْعِدِ الرحمنُ إلا من عَصَى *

فقتل وقتل معـه أخوه لأمه محمد بن ثابت ، وقُتِل معه محمـد بن عمرو بن حَزْم الأنصاريّ ، فمرَّ عليه مرْوان بن الحـكم ، فقال : رحمك الله ! فربّ سارية قد رأيتك تُطيل القيام فى الصلاة إلى جَنْبها .

وغلبت الهزيمة على أهل المدينة ، وأباحها مسلم ثلاثا ، يقتلون الناسَ ، ويأخذون الأَموالَ ، فأفزع ذلك من كان بهـا من الصحابة ، فخرج أبو سعيـد الُخدريّ حتى دخل فى كَهْفٍ فى الجبل ، فبصُر به رجلٌ من أهـل الشام فجاء حتى اقتحم عليه الغَار .

قال أبو سعيد : دخل إلىّ الشامى يمشى بسيفه ، فانتضَيْتُ سيفى ، ومشيتُ إليه لأرْعِبه لعله ينصرف عنى ، فأبى إلا الإقدام علىّ ، فلما رأيتُ أن قد جَدَّ شِمْتُ سيفى ، ثم قلت له : لئن بسطتَ إلىّ يدك لتقتلنى ما أنا بباسط يدى إليك لأقتلك إنى أخاف الله رب العالمين . فقال لى: من أنت ؟ لله أبوك ! فقلت : أنا أبو سعيد الُخدرى . قال: صاحبُ رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ قلت : نعم ! فانصرف عنى .

ثم دعا الناسَ مُسلم بقُبا إلى البيعـة وطلب الأمان لرجلين من قريش : ليزيد ابن عبد الله بن زمعة ومحمد بن أبى الجهم ، ولمعقل بن سنان الأشجعىّ ، فأُتى بهم

بعد الوقعة بيوم ، فقال القرشيّان : نُبايعك على كتاب الله وسنةِ نبيّه ، فقال: لاوالله لاأُقيلكم ، وقدّمهما فضربت أعناقهما . فقال مروان : سبحان الله ! أتقتل رجلين من قريش أتيا ليؤمنا فضربت أعناقهما ؟ فنخسه بالقضيب فى خاصرته ثم قال : وأنت والله لو قلتَ بمقالتهما فعلتُ بك مافعلته معهما .

وجاء مَعْقِل بن سنان فجلس مع القوم، ودعا بشراب ليُسْقى . فقال له مسلم: أى الشراب أَحبّ إليك ؟ قال : العسل . قال : اسقوه ، فشرب حتى ارْتوَى فقال له : أقضيتَ ريَّك من شرابك ؟ قال : نعم . قال : لاوالله ، لاتشرب بعده شراباً أبداً إلا الحميم فى نار جهنم ، أتذكر مقالتَك لأمير المؤمنين : سرتُ شهراً ، ورجعت شهراً ، وأصبحت صفراً ، اللهم غيِّر ! تعنى يزيد ، فقدَّمه فضرب عنقه .

وأُتِى بيزيد بن وهب بن زمْعة ، فقال : بايع ، قال : أبايعك على سنّةِ عمر . قال : اقتلوه . قال : أنا أُبايع ! قال : لا ، والله لا أُقيلك عَثْرَتك ، فكلّمه مروان ابن الحكم لصهر كان بينهما ، فأمر بمروان فوُجِئَت عنقه ، ثم قال : بايعوا على أنكم خولٌ ليزيد، ثم أمر به فقُتل .

ولما أُتى بعلى بن الحسين إلى مسلم قال : من هذا ؟ قالوا : هذا علىّ بن الحسين . قال : مرحباً وأهلا ، ثم أجلسه معه على السرير والطِّنْفِسة ، ثم قال : إن أميرَ المؤمنين أَوصانى بك قبلًا ، وهؤلاء الخبثاء شغلونى عنك وعن صلتك ، ثم قال لعلى : لعل أَهلك فزعوا ! فقال : إى والله ، فأمر بدابته فأسرجت ، ثم حمله فرده عليها .

وأُتى بعمرو بن عثمان بن عفان، فقال مسلم: يأهل الشام؛ تعرفون هذا ؟ قالوا: لا. قال : هذا الخبيث ابن الطّيب ؛ هذا عمرو بن عثمان بن عفان أمير المؤمنين ، هيه ياعمرو ! إذا ظهر أهل المدينة قلت : أنا رجل منكم ، وإن ظهر أهل الشام قلت : أنا ابنُ أمير المؤمنين عثمان بن عفان . ثم أمر به فنتفت لحيتُه .

٥٦ – يوم مَرْج راهط*

مات يزيدُ بن معاوية فكانت بيعتان : إحداهما بالشام لمعاوية بن يزيد ، والثانية بمكة والحجاز لعبد الله بن الزُّبير .

فأما معاوية فقد اختاره أهلُ الشام للخلافة ، وبعد قليل من خلافته نادى : الصلاة جامعة . فاجتمع الناس ، فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال : أما بعد ، فإني قد ضعفت عن أمركم ، فابتغيْتُ لكم مثلَ عمر بن الخطاب حين استخلفه أبو بكر فلم أجِدْه ؛ فابتغيت ستةً مثل ستةِ الشورى فلم أجدهم ، فأنتم أَولى بأمركم فاختاروا له مَنْ أحببْتُم .

ثم دخل منزلَه وبقى فيه حتى مات بعد ثلاثة أشهر من خلافته .

هكذا فعل ذلك الشابُّ حين رأى المسلمين تصدَّعَتْ وحدتهم وتشعثت أمورهم وتفرَّقت أهواؤهم ، ولم يرَ في نفسه القدرةَ على جبر صدْعهم ، ولَمِّ شعثهم ، وإصلاح أمرهم. وبذلك صار الشام لاخلافة فيه .

أما ابن الزُّبير فقد كان الْحُصَين بن نُمير(١) محاصِراً له حين مات يزيد ، وعرف ابنُ الزبير الخبر قبل أن يعرفه الْحُصَين ، فناداه وقال له : علام تقاتلون وقد هلك طاغيتُكم ؟ فلم يصدِّقوه .

ولما عرف الحصين وفاة يزيد بعث إلى ابن الزُّبير يريد محادثته ، فجاءه ، فكان فيما قال له : أنت أحقُّ بهذا الأمر ، هَلُمَّ فلنبايِعْك ، ثم اخرُجْ معنا إلى

* مرج راهط : بالشام . وكان ذلك اليوم بين الضحاك بن قيس ومروان بن الحكم ، في المحرم سنة ٦٥ : محاضرات تاريخ الأمم الاسلامية للخضرى ٢ ـ ٢٤٣ ، الطبرى : ٧ ـ ٣٧

(١) الحصين بن نمير : شجاع من المقدمين في العصر الأموى . توفى سنة ٦٧ هـ .

الشام ؛ فإنّ هـذا الجندَ الذين معى هم وجوهُ الشام وفُرْسانه ؛ فوالله لا يَخْتَلِفُ عليكَ اثنان ، على أن تؤمِّن الناسَ وتُهْدِرَ هذه الدماءَ التى كانت بيننا وبينك .

فقال ابنُ الزبير : أنا أُهدِرُ الدماء ! والله لا أرضى أن أقتلَ بكلِّ رجـل منهم عشرةً منـكم . وأخـذ الحُصَيْنُ يكلِّمُه سرًا ويكلِّمُه ابن الزبير جَهْراً ، وهو يقول : والله لا أَفْعَـلُ .

فقال له الحُصَيْن : قد كنتُ أظنُّ لك رأياً ! أ كلِّمك سرًّا وتـكلِّمنى جهراً ! وأدعوكَ إلى الخلافة وأنت لا تريدُ إلّا القتل والهَلَـكة ! ثم فارقه ، ورحل إلى الشام هو ومَن معه ، وقد بُويعَ لمعاوية .

هذا فى الحجاز ، أمّا فى العراق فإن عُبيد الله بن زياد لمـا بلغه نَعْىُ يزيد نادى : الصلاةُ جامعةً ! فلمّا اجتمع الناس قال : يَأهـلَ البَصْرَة ؛ إن مُهاجَرَنا إليـكم ، ودارَنا فيـكم ، ومولدى بينـكم ، وقد وليتُ أمورَكم ، وما يُحصى ديوانُ مقاتلتـكم إلّا سبعين ألفا ، ولقد أحصَى اليـوم مائةَ ألف ، وما كان يُحصى ديوانُ عُمّالـكم إلا تسعين ألفا ، ولقد أَحصَى اليومَ مائةً وأربعين ألفا ؛ وما تركتُ لـكم قاطبةً مَنْ أخافه عليـكم إلّا وهو فى سجنـكم ؛ وإنّ يزيد قد تُوُفِّىَ ، وقد اختلف الناس بالشام ، وأنتم اليومَ أكثرُ الناسِ عدداً ، وأعرضُهم فِناء ، وأغناهم عن الناس ، وأوسعهم بلادا ؛ فاختاروا لأنفسكم رجلاً ترضَوْنه لدينكم وجماعتـكم ، فأنا أوّلُ راضٍ مَنْ رَضِيتموه ؛ فإن اجتمع أهلُ الشامِ على رجل ترضَوْنه لِدينـكم ، وجماعتـكم دخلتم فيما دخـل فيه المسلمون ، وإن كرهتم ذلك كنتم على أَحَدٍ يليـكُم حتى تقْضُوا مآربـكم ؛ فما بكم إلى أحد من أهل البُلْدان حاجة ، ولا يستغنى عنـكم الناس .

فقالوا : قد سمعنـا مَقالَتَك ، وما نعلمُ أحداً أَقْوَى على هذا الأمرِ منك ؛ فهلُمَّ خلنبايِعْك ! فأَبَى عليهم ذلك ثلاثا ، ثم بسط يَدَهُ فبايعوه . ثم انصرفوا عنه يمسحون

أيديهم بالحيطان ويقولون : أَظنّ أننا نَنْقَادُ له ! ودعا بعضُهم إلى بَيْعة ابن الزبير ؛ ثم ضعف أمرُ ابن زياد ، نخاف وفرّ إلى الشام ؛ فدخل أهلُ الكوفة والبَصْرة فى بَيْعة ابن الزُّبَيْر .

أمّا فى الشام فكان أمير دِمَشْق الضَّحَّاك بن قيس ، وأمير حِمْص (١) النعمان بن بشير ، وأمير قِنَّسْرِين(٢) زفر بن الحارث ؛ وهَوَاهُم جميعاً مع ابن الزّبير .

أما أميرُ فلسطين فكان حسّانَ بن مالك الكَلْبىّ ، وهَوَاه فى بنى أميّة ؛ وقد بايَعَه على الدّعوة لهم أهل الأُرْدُنّ .

فكتب حسّان هذا إلى الضَّحّاك بن قيس كتاباً يعظِّم فيه حَقَّ بنى أُميّة ويذكر الطاعةَ والجماعةَ ، وحُسْنَ بلاء بنى أميّة عنده ، وصنيعَهم إليه ، ويدعوه إلى طاعتهم ، ويذكر ابنَ الزبير ويقعُ فيه ويشتمه ، ويذكر أنه منافق قد خلع خليفتين ، وأمره أن يقرأ كتابه على الناس .

ودعا رجلاً(٣) فسلّمه الكتاب ، وأعطاه صورةً منه ، وقال له: إنْ قرأ الضّحاك كتابى على الناس ، وإلّا فقُمْ فاقرأ هذا الكتاب على الناس .

وقدِم الرسول بالكتاب على الضحّاك ، ودفعه إليه ، فلمّا كان يوم الجمعة صعد الضحاك المنبر ، وخطب الناس ؛ ولما رآه الرسول قد أَغْفَل كتاب حسان ، ولم يقرأه على الناس قام فقال : أصلحَ اللهُ الأمير ! ادْعُ بكتاب حسّان فاقْرَأْه على النـاس ؛ فقال له الضّحّاك : اجلس . فجلس . ثم قام إليه الثانية فقال له : اجلس . ثم قام إليه

---

(١) مدينة بالشام على نهر العاصى .

(٢) مدينة ببلاد الشام بين حلب ومعرة النعمان .

(٣) يسمى ناغضة .

الثالثة ، فقال له : اجلس . فلمّا رآه الرسول لن يفعل أخرج الكتاب الذى معه ، فقرأه على الناس .

فقام الوليد بن عُتْبَة بن أبى سفيان فصدَّقَ حَسَّانَ ، وكذّب ابن الزبير وشتمه، وقام غيرُه فقال مثل مَقَالَتِه ، واضطرب الناس تَبَعًا لهم ؛ فأمر الضحّاك بهؤلاء الذين صدَّقوا مقالة حسّان وكذَّبوا ابن الزبير فَحُبِسوا . ولكنّ القوم ثاروا فأخرجوهم من السجن[١] .

ودخل الضحّاك دار الإمارة وأصبح الناس ، فلم يخرج إلى صلاة الفجر ، وكان من الأجناد ناسٌ يَهوَوْن هَوَى بنى أميّة ، وناس يهوَوْن هوى ابن الزبير ، فبعث الضحّاك إلى أنصار بنى أميّة فدخلوا عليه ، فاعتذر إليهم ، وذكر حسن بلائهم ، وأنه لا يريد شيئاً يكرهونه . وأشار عليهم أن يكتبوا إلى حسّان ، ووعدهم أن يكتب إليه ، وقال لهم : نوافيه جميعا بالجابية[٢] ، فَنُبَايِع لرجل منكم ، فرضيت بنو أمية ، وتوجّهوا يريدون الجابية .

وجاء ثَوْر بن مَعْن إلى الضحاك ، فقال : دعوتَنا إلى طاعة ابن الزبير فبايعناك على ذلك ، ثم تنكث ! فقال الضّحّاك : فما الرأىُ ؟ قال : الرأىُ أن نُظْهِر ما كنا نُسِرّ ، وندعو إلى طاعة ابن الزبير ، ونقاتل عليها ، فمال الضحاك بمن معه من الناس فعطفهم ، ثم أقبل يسير حتى نزل بمرج راهط ، وأظهر البيعة لابن الزبير .

واجتمع حسّان وبنو أمية بالجابية فتشاوروا فيمَنْ يلى أمورَ المسلمين ، واتفقت كلمتهم على تولية مروان بن الحكم فبايعوه .

ولما تمت البيعة لمرْوان سار بالناس إلى مَرْج راهط ، وبه الضحاك بن قيس ومَنْ على رأيه ، وكانت بين الفريقين مواقع هائلة ، كتبت فيها الغَلَبة لمرْوان ،

---

(١) كان ذلك اليوم يسميه أهل الشام يوم جيرون الأول . (٢) الجابية : موضع بدمشق .

وقُتِل الضحاك ، وفَنِىَ من قيس عدد لم يُقتَل مثله فى موقعة قطٌّ .

ولما وصلت أخبار الهزيمة إلى النعمان بن بشير أمير حِمْص خرج هارباً ومعه أهله وأصبح أهل حِمْص فطلبوه وقتلوه . وخرج زُفَر بن الحارث من قِنَّسْرِين هارباً فلحق بقِرْقيسيا(١) وتحصّن بها ، واجتمعت إليه قيس فرأّسوه عليهم ، وقال زُفَر فى ذلك :

أرِينى سـلاحى لا أبَا لَكِ إننى … أرى الحربَ لا تزدادُ إلا تمادِيَا
أتانِىَ عن مرْوَانَ بالغيْب أنّه … مُقيدٌ دمِى أو قاطعٌ من لسانِيا
فنى العِيسِ مَنْجاةٌ،وفى الأرض مَهربٌ … إذا نحنُ رفَّعْنَا لهنَّ المَثانيا
فلا تحسبُونى إن تغيَّبْتُ غافلًا … ولا تفرَحُوا إن جئتُكم بلقائِيَا
فقد ينبُتُ المرعى على دِمَن الثَّرى … وتَبقَى حزَازاتُ النفوس كما هِيَا
أتذهبُ كَلْبٌ لم تَنَلْها رِماحُنا(٢) … وتُترك قتلى راهطٍ هى ماهِيَا
لَعَمْرِى لقد أبقتْ وقيعةُ راهطٍ … لحسّانَ صَدْعاً بيِّناً متنائيا
فلم تَرَ مِنِّى نبْوَةٌ قبل هذهِ … فِرارى وترْكى صاحبيَّ ورائيا(٣)
عشيّةَ أغْدُو بالقِرَان فلا أرَى … من النّاس إلّا مَنْ عَلَيَّ ولا لِيَا
أيذهبُ يومٌ واحدٌ إن أسأتُه … بصالِحِ أيّامى وحسنِ بلائيا !
فلا صُلْحَ حتى تَنْحِط(٤) الخيلُ بالقَنَا … وتَثْأَرَ من نسوان كلبٍ نسائيا
أَلَا ليتَ شِعرى هل تصيبنَّ غارَتى … تَنوخاً وحيَّىْ طيِّءٍ من شفائيا !

(١) قرقيسيا : مدينة بالجزيرة على مصب نهر الخابور بالفرات .

(٢) كانت كلب مع بنى أمية .

(٣) لما فر زفر كان معه شابان من بنى سليم ، فجاءت خيل مروان تطلبهم ، فلما خاف السلميان أن تلحقهما خيل مروان قالا لزفر : ياهذا ، انج بنفسك ، فأما نحن فمقتولان ، فمضى زفر وتركهما حتى أتى قرقيسيا .

(٤) النحيط : صوت الخيل من الثقل والإعياء .

٥٧ — يوم عين الوردة*

أراد سليمان بن صُرَد(١) الشُّخوص إلى عبيد الله بن زياد للطَّلَب بدم الحسين ، فبعث إلى وجوه أصحابه ، فأتَوْه ، وخرج فدارَ فى الناس ، فلم تعجبه عُدَّتهم ، فبعث حكيم بن مُنقِذ الكندىّ ، والوليد بن غُضَين الكنانىّ ، وقال لهما : اذهبا حتى تَدْخُلَا الكوفةَ فناديَا : يا لَثَارَاتِ الحسين ! وابلُغا المسجدَ الأعظمَ فناديا بذلك .

فأقبلا حتى مرَّا ببنى كَثِير ، فسمع صوتَهما عبدُ الله بن خازم ـ وكان جالساً مع امرأته سهلة ، وكانت من أجمل الناس وأحبهم إليه ـ فدعَا بسلاحه ، وأمر بإسراج فرسه . فقالت له امرأته : وَيْحَك ! أجُنِنْتَ ؟ قال : لا ، والله ، ولكنى سمعتُ داعِىَ الله ، فأنا مجيبُه ، أنا طالِبٌ دَمَ هذا الرجل حتى أموتَ أو يقضى اللهُ فى أمرى ما هو أحبُّ إليه . فقالت له : إلى من تَدَعُ بنيَّك هذا ؟ قال : إلى الله وَحْدَه لا شريكَ له ، اللهمّ إنى أستَوْدِعُك أهلى وولدى . وخرج حتى لحق بهم ، فقعدت امرأتُه تبكيه ، واجتمع إليها نساؤها ، ومضى مع القوم .

وطافت تلك الليلةَ الخيلُ بالكوفة حتى جاءوا المسجد بعد العَتَمةِ وفيه ناسٌ كثيرون يصلّون ، فنادَوْا : يا لَثَارَاتِ الحسين ! فلم يصبح سليمان حتى أتاه نحو ممن

---

* بلد فى وسط الجزيرة . الطبرى : ٧ ـ ٦٦ ، مروج الذهب : ٢ ـ ١١٠ ، لعبيد الله بن زياد على سليمان بن صرد وأصحابه التوابين سنة ٦٥ .

(١) سليمان بن صرد صحابى من الزعماء القادة ، شهد صفين مع على وسكن الكوفة ، ثم كان ممن كاتب الحسين وتخلف عنه ، ثم خرج بعد ذلك مطالبا بدمه فترأس التوابين ، وكانوا يطالبون بقتل عبيد الله بن زياد ، وعرفوا بالتوابين لقعودهم عن نصرة الحسين حين دعاهم ، وقيامهم بطلب ثأره بعد مقتله .

كان فى عسكره ، وأقام ثلاثاً يبعثُ ثقَاته من أصحابه إلى مَنْ تخلّف ، يُذَكِّرُهُم اللهَ وما أَعطَوْه من أنفسهم ، فخرج إليه نحوُ ألفِ رجل .

فقام المُسَيَّب بن نَجَبَة[1] إلى سليمان بن صُرَد فقال : رحِمَك الله ! إنه لا ينفعك الـكارِه ، ولا يقاتلُ معك إلا من أخرجته النيَّةُ ، فلا تنظرنَّ أحداً ، واكْمُشْ[2] فى أمرك .

قال سليمان : نِعْمَ ما رأيتَ ! وقام فى الناس مُتوَكِّئاً على قَوْس له عربية ، فقال : أيُّها الناس ، من كان إنما أخْرَجَتْهُ إرادة وجه الله وثواب الآخرة فذلك منا ونحنُ منه ، فرحمةُ الله عليه حيًّا وميتاً ! ومَنْ كان إنما يريدُ الدنيا وحَرْثها فوالله ما نأتى فَيْئاً نستفيئه ، ولا غنيمةً نغنمها ، ما خلا رضوانَ الله رب العالمين ، وما معنا من ذهب ولا فضة ولا خزٍّ ولا حرير ، وما هو إلا سيوفُنا فى عواتِقِنا ورماحنا فى أكُفِّنا ، وزادٌ قدرَ البُلْغَة[3] إلى لِقاء عَدُوِّنا ، فمن كان ينوى غير هذا فلا يَصْحَبنا .

فقام صُخير بن حذيفة ، فقال : أتاكَ اللهُ رُشْدَك ، ولقَّاك حجتك ، والله الذى لا إله غيره ما لنا خير فى صحبة مَن الدنيا هِمَّته ونيَّته ، أيها الناسُ ، إنما أخْرَجَتْنا التوبةُ من ذنبنا والطلب بدم ابن بنت نبيِّنا ، ليس معنا دينارٌ ولا درهم ، إنما نقدَمُ على حدّ السيوف وأطراف الرماح .

فتنادى الناسُ من كل جانب : إنا لا نطلبُ الدنيا وليس لها خَرَجْنا .

وقام عبدُ الله بن سعد فقال ــ وحوله رُءوسُ أصحابه : إنى قد رأيتُ رأياً

---

(١) المسيب بن نجبة : شهد القادسية وفتوح العراق ، وكان مع على فى مشاهده . وسكن وثار مع التوابين من أهلها فى طلب دم الحسين وقتل مع سليمان بن صرد سنة ٦٥ هـ .

(٢) اكمش : أسرع . (٣) البلغة : مايتبلغ به .

إن يكن صوابا فالله وفّقَ ، وإن يكن غير صواب فمن قِبلى ، فإنى لا آلُوكم ونفسى نصحاً ؛ إنما خرجنا نطلب بدم الحسين ، وقَتَلةُ الحسين كلهم بالكوفة ، فأَنَّى نذهب ونَدَعُ الأَوْتَارَ !

فقال سليمانُ بن صُرَد : فماذا تروْنَ ؟ قالوا : والله لقد جاء برَأْى ! والله ما نلْقى من قتلة الحسين ـ إن نحنُ مضينا نحو الشام ـ غير ابن زياد ، وما طِلبتنا إلا ها هنا بالِمصْر .

فقال سُليمان : لكنى لا أرى ذلك لكم، إن الذى قتل صاحبكم ، وعبَّى الجنودَ إليه ، وقال : لا أمانَ له عندى دون أَنْ يستسلم فأمضى فيه حكمى ، هو عبيد الله ابن زياد ، فسيروا إلى عدوّكم على اسم الله ، فإن يُظْهِرْكم الله عليه رَجَونا أن يكون مَن بعده أهونَ شوكةً منه ، ورجْونا أن يدين لكم مَنْ وراءكم من أَهل مصرِكم فى عافية ، فتنظرون إلى كل من شَرِكَ فى دمِ الحسين فتقاتلونه ولا تَغْشِموا[1] وإن تُستشهدوا فإنما قاتلتم المحلين ، وما عند الله خيرٌ للأبرار والصدِّيقين . إنى لا أُحِبُّ أن تجعلوا حدَّكم وشوكتكم بأوَّلِ المُحِلِّينَ القاسطين ، والله لو قاتلتم غداً أهل مصركم ما عدم رجل أن يرى رجلا قتل أخاه وأباه وحَميمه ، أو رجلا لم يكن يُرِيدُ قتله ، فاستخِيرُوا الله وسِيرُوا .

وبلغ عبدَ الله بن يزيد وإبراهيم بن محمد خروجُ ابن صُرَد وأصحابه ، فبعثا إليه أنهما قادمان إليه . ثم جاءا[2] ودخلا عليه فحمد الله عبد الله بن يزيد وأثنى عليه ، ثم قال : إن المسلم أخو المسلم لا يخونُه ولا يَغُشُّه ، وأنتم إخواننا وأهلُ بلدنا وأحبّ

---

(١) لاتغشموا : لا تظلموا .

(٢) جاء عبد الله فى أشراف أهل الكوفة والشرطة وكثير من المقاتلة ، وإبراهيم بن محمد فى جماعة من أصحابه .

خلق الله إلينا ، فلا تَفْجَعُونا بأنفسكم ، ولا تستبدُّوا علينا برأيكم ، ولا تنقصوا عَددنا بخروجكم من جماعتنا ، أقيموا معنا حتى نتيسَّر ونتهيأ ، فإذا علمنا أنَّ عدونا قد شارف بلدَنا خرجنا إليهم بجماعتنا فقاتلناهم . وتكلم إبراهيم بن محمد بنَحْو من هذا الكلام .

فقام سليمانُ بن صُرَد فحمد الله وأثنى عليه ثم قال لهما : إنى قد علمتُ أنكم مَحَضْتُما(١) فى النصيحة واجتهدتما فى المشورة ، فنحن بالله وله ، وقد خرجنا لأمر ، ونحن نسألُ الله العزيمة على الرُّشْدِ والتسديد لأصْوَبِه ، ولا ترانا إلا شاخصين إن شاء الله ذلك .

فقال عبدُ الله بن يزيد ، فأقيموا حتى نُعَبِّئ معكم جَيْشاً كثيفاً فتلقَوْا عدوكم بكَثْفٍ(٢) وجمعٍ وحَدّ . فقال له سليمان : تنصرفون ونرى فيما بيننا ، وسيأتيكم إن شاء الله رَأْى . فانصرفا إلى الكوفة .

وأجمع القومُ على الشخوص واستقبال ابن زيادٍ ، ونظروا فإذا شيعتهم من أهل البصرة لم يوافوهم لميعادهم ، وكذلك أهل المدائن ، وأقبل ناسٌ يلومونهم ، فقال سليمان : لاتلوموهم فإنى لا أراهم إلا سيُسرعون إليكم لو قد انتهى إليهم خبرُكم وحِينُ مسيركم ، ولا أراهم خلَّفَهم ولا أقعدَهم إلا قلةُ النفقة وسوءُ العُدَّة ، فأقيموا ليتيسَّرُوا ويتجهزوا ويلحقوا بكم ، وبهم قوة ، وما أسرع القوم فى آثاركم !

ثم قام فى الناس خطيبا ، فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال : أمّا بعد ! أيها الناس ، فإن الله قد علم ما تنوون ، وما خرجتم تطلبون ، وإنّ للدنيا تجّاراً وللآخرة تجارا ،

---

(١) محضتما : أخلصتما .

(٢) كثف : جماعة .

فأما تاجر الآخرة فساعٍ إليها مُتَنَصِّبٌ[1] بتطلابها ، لايشترى بها ثمناً ، لايُرَى إلا قائماً وقاعداً ، وراكعاً وساجداً ، لا يطلبُ ذهباً ولا فضة ، ولا دُنيا ولا لذة .

وأما تاجرُ الدنيا فمكبٌّ عليها راتعٌ فيها ، لايبتغى بها بَدَلًا ، فعليكم — يرحمكم الله فى وجهكم هذا — بطول الصلاةِ فى جَوْف الليل ، وبذِكْرِ الله كثيراً على كلّ حال ، وتقرّبوا إلى الله جَلّ ذكره بكلّ خير قَدَرْتُم عليه ، حتى تلقَوْا هذا العدوّ ، والمحِلّ القاسِطَ ، فتُجَاهدوه ، فإنكم لن تتوسّلوا إلى ربكُم بشيء هو أعظم عنده ثواباً من الجهاد والصلاة ، فإنّ الجهاد سنامُ العمل ، جعلنا الله وإياكم من العباد الصالحين المجاهدين الصابرين على اللَّأْوَاء[2] ! وإنا مُدْلِجُونَ الليلةَ من منزلنا هذا إن شاء الله ، فأَدْلِجوا[3] .

وخرج سليمان وأصحابه حتى انتهوا إلى قبر الحسين ، فنادَوْا صيحةً واحدة : يارب ، إنا قد خذلنا ابنَ بنت نبيّنا فاغفرْ لنا مامضى منّا ، وتُب علينا إنك أنت التّوابُ الرّحيم ، وارحَمْ حسيناً وأَصْحابه الشهداء الصدِّيقين ، وإنّا نُشهدكَ يارب أنّا على مثل ماقتلوا عليه ، فإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونَنّ من الخاسرين .

وأقاموا يَوْماً وليلة يصلّون عنده ويبكونَ ويتضرّعون ، فما انفكّ الناسُ من يومهم ذلك يترحّمون عليه وعلى أصحابه حتى صلّوا الغداةَ عند قبره ، وزادهم ذلك حَنَقاً .

ثم ركبوا فأمر سليمانُ النـاسَ بالمسير ، فجعل الرجلُ لايمضى حتى يأتى قبر الحسين فيقومَ عليه ويستغفرَ له ، وازدحموا على قبره أكثر من ازدحام الناس على

---

(١) متنصب : أى قد نصب نفسه طالبا لها . (٢) اللأواء : الشدة .

(٣) أدلج : سار من أول الليل ، فإن سار فى آخره فهو مدلج بتشديد الدال .

الحجر الأسود ، ووقف سليمان عند القبر ، فكلما دعا قومٌ وترحموا قال لهم : الحقوا بإخوانكم رحمكم الله ! فما زال كذلك حتى بقى نحوٌ من ثلاثين من أصحابه فقام فيهم وقال :

الحمد لله لو شاء أكرمنا بالشهادة مع الحسين ، اللهمّ إذ حرمتناها معه فلا تحرمناها فيه بعده . وقال عبد الله بن والٍ : أما والله إنى لأظنّ حسينا وأباه وأخاه أفضلَ أمةِ محمد عند الله يوم القيامة ، أفما عجبتم لما ابتُليَتْ به هذه الأمة منهم ! إنهم قتلوا اثنين وأشفَوْا بالثالث على القتل .

وسار سليمانُ من موضع القبر ومعه أصحابه ، وبينما هو فى الطريق جاءه كتاب من عبد الله بن يزيد فوقف وأشار إلى الناس فوقفوا ثم أقرأهم الكتاب فإذا فيه :

بسم الله الرحمن الرحيم . من عبد الله بن يزيد إلى سليمان بن صُرَد ومَنْ معه من المسلمين . سلام عليكم ، أما بعد فإن كتابى هذا إليكم كتاب ناصح ذى إرعاء ، وكم من ناصحٍ مستغشّ ٍ، وكم من غاشّ ٍمستنصح محب ، إنّه بلغنى أنكم تريدون المسيرَ بالعددِ اليسير إلى الجمع الكثير ، وإنه من يرد أن ينقل الجبال عن مراتبها تكلّ معاوله ، وينزع وهو مذموم العقل والفعل . ياقومنا، لا تُطْمِعوا عدوكم فى أهل بلادكم ، فإنكم خيارٌ كلكم ، ومتى ما يصبكم عدوكم يعلموا أنكم أعلامُ مصركم فيُطمِعهُم ذلك فيمن وراءكم . يا قومنا ، إن يظهروا عليكم يرْجُمُوكم أو يعيدوكم فى مِلّتهم ولن تفلحوا إذاً أبدا . يا قوم ، إن أيدينا وأيديكم اليوم واحدة ، وإن عدوّنا وعدوّكم واحد ، ومتى تجتمع كلمُتنا نظهرْ على عدونا ، ومتى نختلف تهنْ شوْكَتنا على مَن خالفنا . ياقومنا ، لاتستغشّوا نُصْحى ، ولا تخالفوا أمرى ، وأقبلوا

حين يُقرَأ عليكم كتابى أقبل الله بكم إلى طاعته ، وأَدْبَرَ بكم عن معصيته . والسلام .

فلما قرِئ الكتاب على ابن صُرَد وأصحابه قال للناس : ما ترَوْن ؟ قالوا : ماذا نَرى ؟ قد أبينا ونحن فى مِصْرِنا وأهلنا ، فالآن حين خرجنا ووطَّنَّا أنفُسَنا على الجهاد ، ودَنَوْنا من أرض عدونا ! ما هذا برأى . ثم نادوه : أن أخبرنا برأيك . قال : رأْيى والله أنكم لم تكونوا قط أقربَ من إحدى الحسنيْين منكم يومكم هذا ؛ الشهادة أو الفتح ، ولا أرى أن تنصرفوا عمّا جمعكم الله عليه من الحقّ وأردتُم به من الفضل ، إنّا وهؤلاء مختلفون . إنّ هؤلاء لو ظهروا دَعَوْنا إلى الجهاد مع ابن الزبير . ولا أرى الجهاد مع ابن الزبير إلّا ضلالا ، وإنّا إن ظهرنا رددْنا هذا الأمر إلى أهله ، وإن أُصبنا فعلى نيَّاتنا تائبين من ذنوبنا ، وإنّ لنا شكلا ، وإنَّ لابن الزبير شكلا ، وإنا وإياهم كما قال أخو بنى كنانة :

أرى لكِ شكلا غير شكلى فأَقصرى ... عنِ اللوم إذ بُدِّلْتِ واختلفَ الشَّكلُ

فانصرف الناسُ معه حتى نزل هِيت ، فكتب إلى عبد الله بن يزيد :

بسم الله الرحمن الرحيم . للأمير عبد الله بن يزيد من سليمان بن صرد ومَنْ معه من المؤمنين . سلام عليك ، أمّا بعدُ فقد قرأنا كتابك وفهمنا ما نَوَيْتَ ، فنعم والله الوالى ونعم الأمير ، ونعم أخو العشيرة أنت والله مَنْ نأمنه بالغيب ونستنصحه فى المشورة ، ونحمده على كل حال ، إنَّا سمعنا الله عز وجلّ يقول فى كتابه : ﴿ إنَّ اللهَ اشترى من المؤمنين أنفسَهم وأموالَهم بأنّ لهم الجنةَ يقاتلون فى سبيل الله فيَقتلون ويُقتَلون وعداً عليه حقًّا فى التوراة والإنجيل والقرآن ومن أَوفى بعهده من الله فاستَبْشِرُوا ببيعِكُمُ الذى بايَعْتم به وذلك هو الفوز العظيم ، التَّائِبُونَ العَابِدُونَ

الحَامِدُونَ السَّائِحُونَ الرَّاكِعُونَ السَّاجدونَ الآمِرُونَ بالمعْرُوفِ والنَّاهُونَ عَنِ المُنكَرِ والحافِظُونَ لحدُودِ اللهِ وَبَشِّرِ المؤْمنينَ ﴾(١) . إنَّ القوم قد استبشروا ببيعتهم التي بايعوا ، إنهم قد تابوا من عظيم جُرْمِهم ، وقد توجهوا إلى الله وتوكَّلوا عليه ورضوا بما قضى الله ، ربنا عليكَ توكَّلنا وإليك أَنَبْنَا وإليك المصير . والسلام عليك .

فلما أتاه هذا الكتاب قال: استمات القوم ! أوّل خبر يأتيكم عنهم قتْلُهم . وايمُ الله ليُقْتَلُنَّ كراماً مسلمين، ولا والذى هو ربهّم لايقتلهم عدوُّهم حتى تشتدَّ شوْكتهم وتكثر القتلى فيما بينهم .

وساروا حتى انتهَوْا إلى قِرْقيسيا،ونزلوا قريباًمنها، وبها زُفَر بن الحارث الكلابىّ وقد تحصَّن بها القوم ، ولم يخرج إليهم ، فبعث سليمان المسيَّب بن نَجَبَة وقال له : ائت ابنَ عمِّك فقل له : ليخرج إلينا سوقاً فإنا لسنا نُريده ، إنما صَمدْنا لهؤلاء المحلين . فخرج المسيب حتى انتهى إلى قرقيسيا فقال : افتحوا ، ممن تتحصَّنون ؟ فقالوا : من أَنت ؟ قال : أنا المسيّب بن نَجَبَة . فأتى الهذيل بن زُفر أباه فقال : هذا رجل حسنُ الهيئة يستأذن عليك ، وسألناه من هو؟ فقال : المسيب بن نجبة. فقال أبوه: أما تدرى يابنى من هذا؟ هذا فارسُ مُضَر الحمراء كلها؛ وإذا عد من أشرافها عشرة كان أحدهم، وهو بعدُ رجل ناسك له دين ، ائذن له .

فلما دخل المسيّب أجلسه زُفَر إلىجانبه وساءَلَهُ وأَلْطَفَه فى المسألة ، فقال له المسيّب : ممّن تتحصّن ؟ إنا والله ما إياكم نريد ، وما نريدُ إلا أَنْ تعيننا على هؤلاء القوم الظَّلَمة المحُلِّين . فأخرج لنا سوقاً ، فإنّا لا نقيمُ بساحتكم إلا يوماً أو بعض يوم .

---

(١) التوبة ١١١ ، ١١٢ .

فقال له زُفر بن الحارث : إنا لم نُغْلِق أبواب هــذه المدينة إلّا لنعلم إيّانا اعْتَرَيتم (١) أم غيرنا ، إنا والله ما بنا عجزٌ عن الناس مالم تدهمنا حيلة ، وما نحبّ أنّا بلينا بقتالكم ، وقد بلغَنا عنكم صلاحٌ وسيرةٌ حسنة جميلة ، ثم دعا ابنه فأمره أن يضعَ لهم سوقاً ، وأمر للمسيَّب بألف درهم وفرس ، فقال له المسيَّب : أمّا المالُ فلا حاجة لى فيه ، والله ماله خرجنا ولا إياه طلبنا ، وأما الفرسُ فإنى أقبله لعلى أحتاجُ إليه إن ظَلَع فرسى أو غمز تحتى ، فخرج به حتى أتى أصحابه .

وأخرجت لهم السوق فتسوّقوا ، وبعث زفر بن الحارث إلى المسيب بن نجبة ـ بعد إخراج الأسواق والأعلاف والطعام الكثير ـ بعشرين جَزُورا ، وبعث إلى سليمان ابن صرد بمثل ذلك ، وأخرج للعسكر عيرا عظيمة وشعيرا كثيراً ، وقال غلمانُه لهم : هذه عير فاجتزروا منها ما أحببتم ، وهذا شعيرٌ فاحتملوا منه ما أردتم ، وهذا دقيق فتزودوا منه ما أطَقتم .

فظلّ القوم يومهم ذلك مُخْصِبين ، لم يحتاجوا إلى شراء شىء من هذه الأسواق التى وضعت ، وقد كُفوا اللحم والدقيق والشعير إلا أن يشترى الرجل ثوباً أو سوطا .

ثم ارتحلوا من الغد ، وبعث إليهم زُفَر : إنى خارج إليكم فَمُشَيِّعكم . فأتاهم وقد خرجوا على تعبية حسنة فسايرهم ، وقال لسليمان : وايمُ الله لقَلَّما رأيت رجالاً هم أحسنُ هيئة وعُدّة ، ولا أخلق بكل خير من رجالٍ أراهم معك ، ولكنّه قد بلغنى أنه قد أقبلت إليكم عدة لاتُحصى .

فقال سليمان : على الله توكلّنا ، وعلى الله فليتوكل المتوكلون .

---

(١) اعتريتم : طلبتم .

فقال زفر : هل لكم فى أمر أَعرِضُه عليكم ، لعلّ الله أن يجعل لنا ولكم فيه خيراً ! إن شئتم فتَحْنا لكم مدينتنا فدخلتموها فكان أمرُنا واحداً وأيدينا واحدة ، وإن شئتم نزلتم على باب مدينتنا ، وخرجنا فعسكرنا إلى جانبكم ، فإذا جاء هذا العدوُّ قاتلناهم جميعاً . فقال سليمانُ لزفر : أرادنا أهلُ المصر على مثل ما أردتنا عليه ، وذكروا مثل الذى ذكرت ، وكتبوا إلينا به بعد ما فصلنا ، فلم يوافقنا ذلك ، فلسنا بفاعلين .

فقال زُفَر : فانظروا ما أشيرُ به عليكم فاقبلوه وخذوا به ، فإنى للقوم عدوٌّ ، وأحبّ أن يجعل الله عليهم الدائرة ، وأنا لكم وادٌّ ، أحب أن يحوطكم الله بالعافية . إن القومَ قد فصلوا من الرَّقَّة(١) فبادِروهم إلى عين الوردة فاجعلوا المدينة فى ظهوركم ، ويكون الرُّسْتَاق(٢) والماء والمادة فى أيديكم ، وما بين مدينتنا ومدينتكم فأنتم آمنون له ، والله لو أنّ خيولى كرجالى لأمددتكم ، اطووا المنازل الساعة إلى عَيْنِ الوردة ؛ فإن القوم يسيرون سير العساكر ، وأنتم على خيول والله لقلّما رأيت جماعة خيل قط أكرم منها ، تأهبوا لها من يومكم هذا ، فإنى أرجو أن تسبقوهم إليها، وإن بدرتموهم إلى عين الوردة فلا تقاتلوهم فى فضاء ترامونهم وتطاعنونهم، فإنه ليس لكم مثلُ عددهم ، فإن استهدفتم لهم لم يلبثوا أن يصرعوكم ، ولا تصفُّوا لهم حين تلقونهم ، فإنى لا أرى معكم رجّالة ، ولا أراكم كلكم إلا فرسانا ، والقوم لاقُوكم بالرجال والفرسان ، فالقَوْهم فى الكتائب والمقَانب(٣) ثم بثوها ما بين ميمنتهم وميسرتهم، واجعلوا مع كل كتيبة كتيبة إلى جانبها، فإن حُمل على إحدى

---

(١) فصلوا : خرجوا . والرقة : من مدن العراق .

(٢) الرستاق : السواد والقرى .

(٣) المقنب ، كمنبر من الخيل : مابين الثلاثين إلى الأربعين أو زهاء ثلاثمائة .

الكتيبتين ترجّلت الأخرى فنفست عنها الخيل والرجال ، ومتى ما شاءت كتيبة ارتفعت ، ومتى ما شاءت كتيبة انحطّت ، ولو كنتم فى صف واحد ، فزحفت إليكم الرجال فدفعتم عن الصفّ انتقض وكانت الهزيمة .

ثم وقف فودعهم وسأل الله أن يصحبهم و ينصرهم .

فأثنى الناس عليه ودعوا له ، وقال له سليمان : نعم المنزول به أنت ! أكرمت النزول ، وأحسنت الضيافة ، ونصحت فى المشورة .

ثم إن القوم جدّوا فى المسير ، وعبّى سليمان الكتائب كما أمره زُفَر ، ثم أقبل حتى انتهى إلى عَيْن الوَرْدة فنزل فى غربيها ، وسبق القومَ إليها فعسكر بها خمساً لا يبرح . واستراحوا واطمأنوا وأراحوا خَيْلهم .

وأقبل أهلُ الشام فى عساكرهم حتى كانوا من عَيْنِ الوردة على مسيرة يوم وليلة ، فقام سليمانُ فى جنده فحمد الله فأطال وأثنى عليه فأطنب ، ثم ذكر السماء والأرض والجبال والبحار وما فيهن من الآيات ، وذكر آلاء الله ونعمه ، وذكر الدنيا فزهّد فيها ، وذكر الآخرةَ فرغّب فيها ، فذكر من هذا ما لم يُحْصِه ولم يَقْدر على حفظه أحد ، ثم قال : أما بعد فقد أتاكم الله بعدوكم الذى دأبتم فى المسير إليه آناء[1] الليل والنهار ، تريدون — فيما تظهرون — التوبة النَّصوح ، ولقاء الله مُعْذرين ؛ فقد جاءوكم ، بل جئتموهم أنتم فى دارهم وحيّزهم ، فإذا لقيتموهم فاصدُقوهم واصبروا إن الله مع الصابرين ، ولا يولينّهم امرؤٌ دُبره إلا متحرِّفا[2] لقتال أو متحيِّزاً[3] إلى فئة . لا تقتلوا مدبرا ولا تُجْهزوا على جريح ، ولا تقتلوا أسيرا

---

(١) آناء الليل : ساعاته .

(٢) متحرفاً : أى منعطفاً يريد الكر بعد الفر والتغرير بالعدو ، فإنه من مكايد الحرب .

(٣) متحيزا : منحازا إلى جماعة ليستنجد بهم .

من أهل دعوتكم إلا أن يقاتلكم بعد أن تأسروه أو يكون من قتلة إخواننا بالطَّفِّ[1] رحمة الله عليهم ، فإنّ هذه كانت سيرة أمير المؤمنين على بن أبى طالب فى أهل هذه الدعوة .

ثم قال : إن أنا قُتلت فأمير الناس المسيَّب بن نَجَبة ، فإن أُصيب فأمير الناس عبد الله بن سعد ، فإن قُتل فأمير الناس عبد الله بن والٍ ، فإن قتل فأمير الناس رفاعة بن شدّاد ، رحم الله امرأً صدق ما عاهد الله عليه .

ثم بعث المسيَّب فى أربعمائة فارس ، وقال له : سرْ حتى تلقى أول عسكر من عساكرهم ، فشُنّ فيهم الغارة ، فإذا رأيت ما تحبه وإلّا انصرفتَ إلىّ فى أصحابك .

فسار المسيَّب بجنده حتى أشرف على أدنى عسكر من القوم وهم غارّون[2] ، فحمل عليهم ، فما قاتل كثيرَ قتال حتى انهزموا ، وأصاب منهم رجالا ، جَرَحَ منهم فأكْثَر الجراح ، فخرجوا عن عسكرهم وخلوه له ، فأخذ منه ما خفّ ، وصاح المسيَّب فى جنده : الرجعة ، إنكم قد نصرتم وغنمتم وسلمتم ، فانصرفوا .

وانصرفوا حتى أتوْا سليمان ، وأتى الخبرُ عُبيد الله بن زياد ، فسرح إليهم الحصين بن نُمير فى اثنى عشر ألفا ، وتقابل الجيشان ، فانهزم جيش عُبيد الله بن زياد وما زال الظفر لجيش سليمانَ حتى حَجَزَ الليلُ بينهم .

فلما كان من الغد أمدَّ عبيد الله جيشه بالمدد والعوْن ، وتقاتل الجيشان قتالا لم يرَ الشِّيبُ والمُرْدُ مثله قط ، حتى جاء المساء ، فتحاجزوا وقد أكثروا فى جيش سليمان الجرّاح .

---

(١) موضع قرب الكوفة . (٢) غارون : غير مستعدين للقائهم .

وأصبحوا وقد كثرهم أهلُ الشام ، وتعطّفوا عليهم من كلّ جانب ، ورأى سليمان ما لقي أصحابه فنزل فنادى : عباد الله ! مَن أراد البكورَ إلى ربه والتوبة من ذنبه والوفاء بعهده فإليّ ، ثم كسر جفن سيفه ، ونزل معه ناس كثير ، فكسروا جفونَ سيوفهم ومشوْا معه ، ونزلت خيلهم حتى اختلطت مع الرجال فقاتلوهم حتى نزلت الرجالُ تشتدّ[1] مُصْلَتة بالسيوف ، وقد كسَروا الجفون ، فحمل الفرسان على الخيل فقاتلوهم وقتلوا من أهل الشام مقتلة عظيمة ، وجرحوا فيهم فأكثروا الجراح .

فلما رأى الحصين بن نُمير صَبْرَ القوم وبأْسَهم بعث الرجال ترميهم بالنبل واكتنفتهم الخيلُ والرجال، فقُتل سليمان بن صرد ، فأخذ الراية المسيب بن نجبة ، وقال : رحمك الله يا أخي فقد صدقت ووفيت بما عليك ، وبقي ما علينا ، ثم أخذ الراية فشدّ بها فقاتل ساعة ، وفعل ذلك مراراً يشد ويرجع ثم قُتل .

فأخذ الراية عبد الله بن سعد وقال: رحم الله إخواني ! منهم من قضى نَحْبه ومنهم من ينتظر وما بدّلوا تبديلا. وأقبل بمن كان معه فحفُّوا برايته، وإنهم لكذلك إذ جاءهم البشير يقول: قد جاء إخوانكم من أهل المدائن وأهل البصرة. فقال عبد الله بن سعد: لو جاءونا ونحن أحياء !

واشتدّ القتال وطُعن عبد الله بن سعد في ثغرة نحره[2] فقُتل ، وبقيت الراية ليس عندها أحد ، فنادوا عبد الله بن والٍ فإذا هو قد استلحم في عصابة معه وهو يقولُ : منْ أراد الحياة التي ليس بعدها موت ، والراحة التي ليس بعدها نَصَب ، والسرور

---

(١) تشتد : تسرع . (٢) ثغرة نحره : أى وسط .

الذى ليس بعده حَزَن فليتقرب إلى ربه بجهاد هؤلاء المُحِلِّين والرَّواح إلى الجنة - وقاتل حتى قُتل .

ثم أخذ أهل الشام يتنادوْن : إنّ الله قد أهلكهم فأَقْدِموا عليهم لتفرغوا منهم ؛ وأخذوا يقدمون عليهم فيقدمون على شوكة شديدة ويقاتلون فرسانا شجعاناً ليس فيهم سقط رجل ، وليسوا لهم بمضجرين فيتمكنوا منهم ، فقاتلوهم قتالاً شديداً فهُزموا وفروا .

وساروا حتى مروا بقِرْقيسيا ، فبعث إليهم زُفَر من الطعام والعلف مثل ما كان بعث إليهم فى المرة الأولى ، وأرسل إليهم : أن أقيموا عندنا ما أحببتم ، فإنّ لكم الكرامة والمواساة . فأقاموا ثلاثا ، ثم زود كلَّ امرئ منهم ما أحبّ من الطعام والعلف .

ثم انصرف أهلُ المدائن إلى المدائن وأهل البصرة إلى البصرة ، وأقبل أهلُ الكوفة إلى الكوفة .

ولما أُتى عبد الملك بن مروان ببشارة الفتح صعد المنبر ، فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال : أما بعد فإن الله قد أهلكَ من رءوس أهل العراق مُلْقِحَ فتنة(١) ورأس ضلالة سليمان بن صرد ، ألا وإن السيوف تركت رأس المسيب بن نجبة خذاريف(٢) ، ألا وقد قتل الله من رءوسهم رأسين عظيمين ضالين مضلين عبد الله بن سعد أخا الأزد، وعبد الله بن وال أخا بكر بن وائل ، فلم يبق بعد هؤلاء أحد عنده دفاع ولا امتناع .

---

(١) أى مشعل الفتنة والحرب ضده .

(٢) أى قطعاً : جمع خذروف ـ كعصفور : شئ يدوره الصبى بخيط فى يديه فيسمع له دوى.

٥٨ — يوم بنات تَلَّى*

كان مروان بن الحكم قد أرسل عُبيد الله بن زياد فى جيش إلى العراق ، وجعل له ما غلب عليه ، وأمره أن ينهب الكوفة إذا هو ظفر بأهلها . فمرّ بأرض الجزيرة وبها قَيْس عَيْلان(١) ، فلم يزل مشتغلا بهم نحواً من سنة .

ثم أقبل إلى المَوْصل ، فكتب عبد الرحمن بن سعيد ـ عامل المختار على المَوْصل ـ إلى المختار : أما بعد ، فإنى أخبرك أيها الأمير أن عبيد الله بن زياد قد دخل أرض الموصل ، وقد وجه قِبَلى خيله ورجالَه ، وإنى انحزتُ إلى تكْرِيت حتى يأتينى رأْيك وأمرُك ، والسلام عليك .

فكتب إليه المختار : أمّا بعد ، فقد بلغنى كتابُك ، وفهمتُ كلّ ما ذكرت فيه ، وقد أصبت بانحيازك إلى تكْرِيت ، فلا تبرحَنَّ مكانك الذى أنتَ به حتى يأتيك أمرى إن شاء الله ، والسلامُ عليك .

ثم بعث المختارُ إلى يزيد بن أنَس فدعاه وقال له : يا يزيدُ ، إنّ العالِمَ ليس كالجاهل ، وإن الحقّ ليس كالباطل ، وإنى أخبرُك خبرَ من لم يكذِّب ولم يكذَّب ، ولم يخالف ولم يرتب ، وإنَّا المؤمنون لَمَيَامِين ، وأنك صاحبُ الخيل التى تَجُرُّ جعابها وتضفر أذنابها ، حتى تُورِدَها منابت الزيت غائرةً عيونها ، لاحقة بطونها ، اخرج إلى الموصل حتى تنزل أَدَانيها ، فإنى مُمِدُّك بالرِّجال بعد الرِّجال .

---

* تاريخ الطبرى : ٧ ـ ١١٢ ، لعبد الله بن زياد على المختار الثقفى .

(١) كانت قيس عيلان على طاعة ابن الزبير ، وقد كان مروان أصاب قيساً يوم مرج راهط وهم مع الضحاك بن قيس مخالفين عليه .

فقال له يزيد : سَرِّحْ معى ثلاثة آلاف فارس أنتخبُهم ، وخلِّنى والجهة التى تُوَجِّهُنا إليها ، فإن احتجتُ إلى الرجال فسأكتب إليك .

قال له المختار : فاخرج فانتخبْ على اسم الله من أحببتَ .

فخرج فانتخب ثلاثة آلاف فارس ، وأمَّر عليهم الأُمَراء .

ثم إنه فصل من الكوفة ، وخرج معه المختار والناسُ يشيعونه ، فلما بلغ دير أبى موسى ودَّعه المختار وقال له : إذا لقيتَ عدوك فلا تناظِرْهم ، وإذا أمكنتك الفرصةُ فلا تؤخّرْها ، وليَكُن خبرُك فى كلّ يوم عندى ، وإن احتجت إلى مددٍ فاكتب إلىّ ، مع أنى مُمِدُّك ولو لم تَستَمْدِد ، فإنه أشدُّ لعضدك ، وأعزُّ لجندك ، وأرْعَبُ لعدوك .

فقال له يزيد : لا تمدّنى إلا بدعائك فكفى به مدداً ! وقال له الناس : صحبك الله وأيّدك ؛ وودّعوه ، فقال لهم يزيد : سلوا الله لى الشهادة ، وايم الله لئن لقيتهم ففاتنى النصر لن تفوتنى الشهادة إن شاء الله .

وكتب المختار إلى عبد الرحمن بن سعيد(١) : أمَّا بعد فخلِّ بين يزيد وبين البلاد إن شاء الله . والسلام عليك .

وسار يزيد حتى قطع أرض الموصل ، ونزل ببنات تَلَّى .

وبلغ عبيد الله بن زياد مكان يزيد ومنزله الذى نزل به ، فسأل عِدّة جيوشه ، فأخبرته عيونه أنه خرج من الكوفة فى ثلاثة آلاف فارس . فقال : سأبعثُ إلى كلّ ألف ألفين ، ودعا ربيعة بن المخارق الغَنَوِىّ ، وعبد الله بن حملة الخَثْعَمِىّ ، فبعث كُلًّا منهما فى ثلاثة آلاف . ثم كتب إليهما : أيهما سبق فهو أميرٌ على صاحبه

---

(١) عامل المختار على الموصل — كما تقدم .

وإن انتهيتما جميعاً فأكبرُكما سناً أميرٌ على صاحبه وعلى الجماعة .

وسبق ربيعة وعبّى جيشه أحسن تعبية ، وخرج فى الخيل والرّجال ، وقال : يأهلَ الشام ، إنكم إنما تقاتلون العبيدَ الأُبّاق[1] ، وقوماً تركوا الإسلام وخرجوا منه ، ليست لهم تقية ، ولا ينطقون بالعربية .

وخرج إليه يزيد بن أنس وهو مريض على حمار يمسكونه عن يمينه وعن شماله بفخذيه وعضديه وجنبيه ، فجعل يقف بين الجنود ويقول : يا شُرْطة الله ، اصبروا تُؤْجَرُوا ، وصابروا عدوكم تَظْفَرُوا ، وقاتلوا أولياء الشيطان ، إنَّ كيد الشيطان كان ضعيفاً ؛ إن هلكتُ فأميرُكم ورقاء بن عازب ، فإن هلك فأميركم ...

ونزل فوُضع على سرير بين الرجال ، ثم قال لهم : ابرزوا لهم بالعَرَاء ، وقَدِّمونى فى الرجال ، ثم إن شئتم فقاتلوا عن أميركم ، وإن شئتم ففرُّوا عنه .

واقتتل الناسُ عند شفق الصبح ، فلم يرتفع الضُّحَا حتى غَلَبَتْ جنود يزيد بن أنس على جيش عبيد الله بن زياد وهزموهم هزيمةً قبيحة ، وقتلوهم قَتْلًا ذريعاً ، وفروا حتى انتهوا إلى عبيد الله فحدَّثوه بما لَقُوا .

ولكنَّ عبد الله بن حملة[2] أخذ ينادى : الكَرّةَ بعد الفرّة ! يأهل السمع والطاعة . فكَرُّوا عليهم ، واقتتل القوم فغلبت جنود عُبَيْد الله ، ولم يأت المساء حتى مات يزيد .

ولما رأى أصحابه ما حلّ بهم وبأميرهم أُسقِط فى أيديهم ، وانخلعت قلوبهم ، فقال لهم ورقاء بن عازب : ماذا تَرَوْن يا قوم ؟ إنه قد بلغنى أن عُبيد الله بن زياد قد أَقبلَ إلينا فى ثمانين ألفاً من أهل الشام ! ثم دعا فُرْسانَ أصحابه وقال لهم :

---

(١) الأباق : جمع آبق .

(٢) هو ثانى الرجلين اللذين بعثهما عبيد الله إلى يزيد كما تقدم .

يا هؤلاء ، ماذا ترون فيما أخبرتكم به ؛ إنما أنا رجل منكم ، ولستُ بأفضلكم رأيا ، فأشيراو عليّ ، فإن ابنَ زيادٍ قد جاءكم فى جند أهل الشام الأعظم وبجلتهم وفُرسانهم وأشرافهم ، ولا أرى لنا ولكم بهم طاقة على هذه الحال ، وقد هلك يزيد بن أنس أميرُنا ، وتفرّقت عنا طائفةٌ منا ، فلو انصرفنا اليوم من تلقاء أنفسنا ـ قبل أن نلقاهم وقبل أن نبلغهم ـ علموا أن الذى ردنا عنهم هلاكُ صاحبنا فلا يزالون لنا هائبين . وإنا إن لقيناهم اليومَ كنا مُخاطرين ، وإن هُزِمنا اليوم لم تنفعنا هزيمتنا إياهم من قبل اليوم .

قالوا : نِعْم ما رأيتَ ؟ انصرف رحمك الله !

فانصرف ، وبلغ منصرفُهم ذلك المختار وأهل الكوفة ، فدعا المختار إبراهيم ابن الأشتر ، وعقد له على سبعة آلاف رجل ، ثم قال : سِرْ حتى إذا لقيتَ جيش ابن أنس فارددْهم معك ثم سر حتى تلقى عدوّك فتناجزهم .

فخرج إبراهيم فوضع عسكره فى حمام أعين ، ولكنه لم يلبث أن ثار أهل الكوفة بالمختار فأرسل رسولا إليه يقول له : لا تَضَعْ كتابى من يدِك حتى تُقْبِل بجميع من معك إليّ . فرجع ومن معه من أصحابه أهل القوةِ والجَلَد .

٥٩ — يوم جَبَّانة السَّبِيع*

لما مات يزيد بن أَنَس التقى أشرافُ الناس بالكوفة فأرْجَفُوا بالمختار وقالوا : قُتل يزيد بن أنس ولم يصدقوا أنه مات ، وأخذوا يقولون : والله لقد تأمَّر علينا هذا الرجلُ بغير رضاً منا ، ولقد أدنَى موالينا فحملهم على الدوابِّ وأعطاهم وأطعمهم فَيْئَنَا ولقد عصتنا عبيدُنا ... واتَّعدُوا عند شَبث بن رِبْعى ، فاجتمعوا وأَتوْا منزله ، فصلى بهم ثم تذاكروا هذا النحو من الحديث(١) .

فقال لهم شَبث : دعونى حتى ألْقَاه . وذهب فلقيه فلم يَدَع شيئاً مما أنكره أصحابُه إلا وقد ذاكره إياه ، فأخذ لايذكر خصلة إلا قال له المختار : أُرْضيهم فى هذه الخصلة وآتى كلّ شىء أحبُّوا ، وذكر المماليك . فقال له : أنا أردُّ عليهم عبيدهم . وذكر الموالى ، وقال : عمدتَ إلى موالينا وهم فَىْءٌ أفاءه الله علينا فأَعْتَقْنَا رقابهم نأملُ الأجرَ فى ذلك والثوابَ والشكر فلم ترض لهم بذلك حتى جعلتَهم شركاء فى فيئنا .

فقال المختار : إن أنا تركتُ لكم مواليكم وجعلتُ فيئكم فيكم ، أتقاتلون معى بنى أُمية وابنَ الزبير ، وتعطون عَلَى الوفاء بذلك عهدَ الله وميثاقَه ، وما أَطمئنُّ إليه من الأيمان ؟ فقال شبث : ما أدرى حتى أخرج إلى أصحابى فأذاكرهم ذلك .

---

* الطبرى : ٧ — ١١٦ ، للمختار على أهل الكوفة ، وكان هذا اليوم لست ليال بقين من ذى الحجة سنة ٦٦ هـ . وجبانة السبيع : من مواضع الكوفة .

(١) لم يكن فيما أحدث المختار عليهم شىء هو أعظم من أنه جعل للموالى من الفىء نصيباً .

وخرج ولـكنه لم يعُدْ ، إذ أجمع أهل الـكوفة على قتال المختار .

وذهب بعضُ أشرَافِ الـكوفة إلى عبـد الرحمن بن مِخْنف ، فدعوه أن يجيبهم إلى قتال المختار، فقال لهم: ياهؤلاء ، إنـكم إن أبيتم إلا أن تخرجوا لم أَخْذُلْـكم وإن أنتم أَطعتمونى لم تخرجوا . فقـالوا : ولِمَ ؟ قال : لأنى أخاف أن تتفرقوا وتختلفوا وتتخاذلوا ، ومع الرجل شجعانكم وفرسانـكم ، ثم معه عبيدُكم ومواليكم وكلمة هؤلاء واحدة ، وعبيدكم ومواليكم أشدُّ حنقاً عليـكم من عدوكم ، فهو مقاتلـكم بشجاعة العرب وعداوة العجم . وإن انتظرتموه قليلا كُفيتموه بقدوم أهل الشام ، أو بمجىء أهل البصرة فتـكونوا قد لقيتموه بغيركم .

قالوا : ننشدك الله أن تخالفنا ، وأن تفسد علينا رأينا ، وما قد اجتمعت عليـه جماعتنا . قال : فأنا رجل منكم ، فإذا شئتم فاخرجوا .

وذهبوا إلى كعب بن أبى كعب الخَثْعمىّ فتـكلم شبث عنده ، فحمد الله وأثنى عليه ، ثم أخبره باجتماع رأيهم على قتال المختار ، وسأله أن يجيبهم إلى ذلك ، وقال فيما يعتب به على المختار : إنه تأمّر علينا بغير رضاً منا ، وزعم أن ابن الحنفية بعثه إلينا ، وقد علمنا أن ابنَ الحنفيّة لم يفعل ، وأطعم موالينا فيئنا ، وأخـذ عبيدَنا ، وأظهر الـبراءة من أسلَافنـا الصالحين . فرحّب بهم كعب وأجابهم إلى ما دَعَوْهُ . .

وسار بعضهم إلى بعض . وقالوا : ننتظر حتى يذهبَ عنـه إبراهيم بن الأشتر وما أن بلغ إبراهيم بن الأشتر ساباط[1] حتى وثبوا بالمختار ، فخرج عبـد الرحمن

---

(١) حين خرج لقتال عبيد الله بن زياد .

ابن سعيد[١] مع أَهـل اليمن فى جبّـانة السَّبِيع ، ونزل شبث بن ربعىّ فى مُضَر بالـكناسة ، وخرج غيرهم . . .

وبلغ الذين نزلوا بجبّانة السَّبِيع أن المختار قد عَبّى لهم خيلا لتسير إليهم ، فبعثوا الرسل يتلو بعضها بعضا إلى الأزد وبجيلة وخَثْعَم، يسألونهم الله والرَّحِم لما عجّلوا إليهم فساروا إليهم واجتمعوا جميعاً بجَبَّانةِ السَّبِيع .

ولما بلغ المختارَ اجتماعُهم سرَّه ذلك . وبعث رسولاً من يومه إلى إبراهيم بن الأشتر : لا تضع كتابى من يدك حتى تُقبل بجميع مَنْ معك إلىّ .

وبعث إليهم المختارُ فى ذلك اليوم : أخبرونى ما تُرِيدون ، فإنى صانع كلّ ما أحببتم . قالوا : نريد أن تعتزلنا ، فإنك زعمت أن ابنَ الحنفية بعثك ! ولم يبعثك ؟ فأَرسلَ إليهم المختارُ : أن ابعثوا إليه منْ قبلـكم وفداً ، وأبعث إليه من قبلى وفدا ثم انظروا فى ذلك حتى تتبينوه . وإنمـا أراد بذلك أن يُرَيِّثَهم حتى يقدم عليه إبراهيم ابن الأشتر .

ولمـا قدم إبراهيم بن الأشتر نزل المختار فعبّى أصحابه ، وقال لإبراهيم : أى الفريقين[٢] أحبّ إليك أن تسير ؟ قال : إلى أىِّ الفريقين أحببت . فـكره المختار أن يسير ابن الأشتر إلى قومه فلا يبالغ فى قتالهم ، فقـال : سِرْ إلى مُضَر بالـكُناسة[٣] وأنا أسيرُ إلى اليمن .

وسار المختار إلى جَبَّانَة السَّبِيع ، وعلم أهلُ اليمن بمسيره فاستعدوا لملاقاته، وتقاتل الجيشان كأشد قتال اقتتله قوم ، ودارت الدائرة على أصحـابِ المختار ، فلم يرع

(١) كان عبد الرحمن بن سعيد عاملا للمختار على الموصل . (٢) يريد أهل اليمن أو مضر .
(٣) الكناسة : موضع بالـكوفة .

إلا وقد جاءه الفَلُّ فقال : ما وراءكم ؟ قالوا : هزمنا . فصاح بهم أن انصرفوا ، ورجعوا فاقتتل القوم كأشد قتال .

أما ابنُ الأشتر فقد لقى شِبث بن ربعىّ ومَنْ معه من مضر ، فقال لهم : ويحكم ! انصرفوا ، فوالله ما أحبُّ أن يصاب أحدٌ من مضر على يدىّ ، فلا تُهلكوا أنفسكم ، فأَبَوْا وقاتلوه فهزمهم .

وبعث المختار البشرى من قبله إلى المقاتلة فى جبّانةِ السَّبِيع ، فحمل الجندُ حتى دخلوا الجبانة وهم ينادون : يالثارات الحسين ! فأُجيبوا : يا لثارات الحسين ، فسمعها يزيد بن عمير ، فقال : يا لثارات عثمان ! فقال لهم رفاعة بن شداد : ما لنا ولعثمان ! لا أقاتل مع قوم يبغون دم عثمان . فقال له أناسٌ من قومه : جئت بنا وأطعناك حتى إذا رأينا قومنا تأخذهم السيوف قلت : انصرفوا ودَعْهم ، فعطف عليهم وهو يقول :

أنا ابنُ شدّادٍ على دينِ عَلِى لستُ لعثمانَ بن أَرْوَى بِوَلى

لأَصْلَيَنَّ اليوم فيمن يَصْطَلِى بحرِّ نَارِ الحرب غيرَ مُؤْتلِى

وقاتل حتى قُتل ، ثم قتل غيره من شجعان الكوفة وقوادهم .

واستخرج من دور الوادعيِّين خمسمائة أسير فأُتى بهم إلى المختار مكتّفين ، فأخذ عبد الله بن شَرِيك(١) لا يخلو بعربىّ إلا خلّى سبيله ، فرُفع ذلك إلى المختار ، فقال : اعرضوهم علىّ ، وانظروا كلّ من شهد منهم قتل الحسين فأعلمونى به ، فأخذوا لا يمرّ عليه رجل قد شهد مقتل الحسين إلا قيل له : هذا ممن شهد قتله ، فيقدمه فيضرب عنقه حتى قتل منهم مائتين وثمانية وأربعين قتيلا .

---

(١) رجل من بنى نهد من رؤساء أصحاب المختار .

وأخذ أصحابه كلما رأوْا رجلا كان يؤذيهم أو يماريهم أو يضرُّ بهم خَلَوْا به فقتلوه، حتى قُتل ناس كثير منهم وما يشعر بهم المختار .

ولما أُخبر بذلك بعدُ دعا بمن بقىَ من الأسارى فأعتقهم (١) ، وأخذ عليهم المواثيق ألّا يساعدوا عليه عدوًّا ، ولا يبغوه ولا أصحابه غائلة . ونادى منادى المختار : إنه من أَغلق بابه فهو آمن إلا رجلا شرك فى دم آل محمد صلى الله عليه وسلم .

وسار المختار إلى القصر ، فأخذ سراقةُ بن مرداس يناديه بأعلى صوته :

امْنُنْ علىَّ اليومَ يا خيرَ مَعَدّْ   وخيرَ من حلَّ بشِحْر والجَنَدْ

* وخير من حَيَّا ولبَّى وسجدْ *

فبعث به المختارُ إلى السجن ، فحبسه ليلة ثم أرسل إليه من الغد فأخرجه ، ودعا به فأقبل وهو يقول :

ألا أَبْلغ أبا إسحاق أنَّا   نزوْنا نَزْوَةً كانت علينا
خرجنا لا نرى الضعفاءَ شيئاً   وكان خروجنا بَطَرًا وحَيْنَا
نراهُم فى مصافهمُ قليلًا   وهم مثلُ الدَّبَا حين التقَيْنَا
بَرَزنا إذ رأيناهم فلما   رأينا القوم قد برزوا إلينا
لقينا منهمُ ضرباً طِلَحْفاً (٢)   وطعناً صائباً حتى انثنينا
نُصِرْتَ على عدوّك كل يوم   بكل كتيبة تنعَى حسينا
كنصْرِ محمدٍ فى يوم بدرٍ   ويوم الشِّعْبِ إذ لاقى حُنَيْنَا

---

(١) أعتقهم إلا سراقة بن مرداس فإنه أمر أن يساق معه إلى المسجد .

(٢) طلحفا : شديداً .

وأَسْجِح إذ ملكتَ فلو ملكْنا لَجُرْنَا فى الحكومة واعتدينا
تقبل توبةً منّى فإنى سأشكُرُ إن جعلتَ النَّقْدَ دَيْنا

ولما انتهى إلى المختار قال له : أَصلحك الله أيها الأمير ! سراقة بن مرداس يحلف بالله الذى لا إله إلا هو ، لقد رأى الملائكة تقاتل على الخيول البلق بين السماء والأرض . فقال له المختار : فاصعد المنبر فأعلم المسلمين . فصعد فأخبرهم ، ثم نزل فخلا به المختار . فقال له : إنى قد علمتُ أنك لم تر الملائكة ، وإنما أردتَ ألّا أقتلك ، فاذهب عنّى حيث أَحببت ، ولا تفسد علىّ أصحابى !

وخرج أشراف الكوفة فلحقوا بمصعب بن الزبير بالبصرة ، وخرج سراقة ابن مرداس من الكوفة وهو يقول :

ألا أبلغْ أبا إسحاق أنّى رأيتُ البُلْقَ دُهْماً مصمَتاتِ
كفرْتُ بوحيكم وجعلت نَذْرًا علىّ قتالكم حتى المماتِ
أُرى عينىّ ما لم تُبْصِرَاهُ كلانا عالمٌ بالتُّرَّهاتِ
إذا قالوا أقول لهم كذبتم وإن خرجوا لَبِسْتُ لهم أداتى

٦٠ – يوم خازر*

كان مَرْوَان بن الحكم قد جهّز جيشاً يقوده عبيد الله بن زياد إلى الجزيرة ومحاربة زفر بن الحارث بقِرْقيسيا ، فإذا فرغ منها توجّه إلى العراق وأخذه من ابن الزُّبَيْر .

ولما وصل عبيد الله إلى الجزيرة بلغه موت مروان ، وأتاه كتابُ عبدالملك يستعمله على ما استعمله عليه أبوه ويحثُّه على المسيرِ إلى العراق .

فسار حتى إذا كان بعين الوَردة قابلته جنودٌ مقبلةٌ من العراق ، لم يبعثهم أمير ؛ ولكنهم خرجوا للمطالبة بدم عثمان ، وسمَّوا أنفسهم التوَّابين ، وهم جماعة من الشِّيعة ندموا على خِذْلانهم الحسين بن عليّ ، ولم يروا أنهم يخرجون من هذا الذَّنْبِ إلا إذا قاموا للمطالبة بثأره ، وقتلوا قَتَلَتَهُ ، وكان رئيسهم كبير الشيعة بالكوفة سليمان ابن صُرَد الخزاعيّ .

وكانت بين الفريقين موقعة عظيمة قتل فيها سليمان بن صرَد ، ومعظم من معه ولم ينجُ منهم إلا قليل .

ولما بلغ عبدَ الملك قَتْلُ سليمان قام خطيباً فى أهل الشام ، فقال : إن الله قد أهلك من رُءوس أهل العراق ملقِّح فتنة ورَأْسَ ضلالة سليمان بن صُرَدَ ، ألا وإن السيوف قد تركت رأس المسيب خذاريف ، وقد قتل الله منهم رأسين عظيمين

(*) تاريخ الطبرى : ٧–١٤٢ ، وخازر : إلى جنب قرية بينها وبين الموصل خمسة فراسخ ، وكان هذا اليوم لابن الأشتر على ابن زياد سنة ٦٧ هـ .

ضالَّيْن مضِلَّيْن : عبد الله بن سعــد الأزدىّ ، وعبد الله بن والٍ البــكرىّ ، ولم يبْقَ بعدهم مَنْ عنده امتناع .

وبعد مقتل هؤلاء ثار بالـكوفة المختار بن عبيد الله الثقفىّ[١] ، زاعماً أَنَّ محمــد ابن الحنفيّة أرسله للأخذ بثأْرِ الحسين ، وأنه لقَّبه بالإمام المهدىّ ، واتفق مع إبراهيم ابن الأشتر[٢] على الخروج للثأْرِ لمقتل الحسين .

ولما حان الموعد وثبوا جميعاً وغلبُوا على الـكوفة .

ثم بعث المختار العمال إلى أمصار الـكوفة ، وتتبّع قَتَلَة الُحسين فقتلهم قتلا ذرِيعاً ، وتخيَّر الجند لمقاتلة ابن زياد ، وجعل قائدهم إبراهيم بن الأشتر ، فأخــذ يسير بهم حتى نزل بخازَر[٣] ، وجاء عبيد الله بن زياد حتى نزل قريباً منهم .

وأَرسل عمير بن الحبــاب إلى ابن الأشتر : إنى معك ، وأنا أريدُ الليلةَ لقــاءك .

فأرسل إليه ابنُ الأشتر : أن الْقَــنِى إذا شئت . فأتاه عمير ليلا فبايعه ، وأخبره أنه على مَيْسَرة صاحبه ، ووعده أَنْ ينهزم .

فقال له ابنُ الأشتر : ما رأيك ؟ أُخنْدِق علىّ وأتلوَّم يومين أو ثلاثة ؟ قال عمير : لا تفعل ؛ هل يريدُ القوم إلا هذه ! إن طاولوك وماطَلُوك فهو خيرٌ لهم ، هم كثيرٌ أضعافُــكم ، وليس يطيق القليــل الـكثير فى المطــاولة ، ولـكنْ ناجز القوم ،

---

(١) كان خروجه فى الرابع عشر من ربيع الأول سنة ٦٦ هـ ، وأخرج منها عامل ابن الزبير وهو عبد الله بن مطيع .

(٢) أرسل إليه المختار من يعرض عليه انضمامه إليه فقبل أولا على شرط أن يكون هو ولى الأمر ثم استطاع المختار أن يضمه اليه بخدعة تجد تفصيلها بمحاضرات الخضرى بك صفحة ٢٤٩ .

(٣) خازر ، بجوار قرية بينها وبين الموصل خمسة فراسخ كما تقدم .

فإنهم قد مُلِئوا منكم رُعبا فأْتِهم ، فإنهم إن قاتلوا أصحابك يوماً بعد يوم ومرة بعد مرة أنِسُوا بهم واجْتَرءوا عليهم .

قال ابنُ الأشتر : الآن علمتُ أنك لى مناصح . صدقت ! الرأىُ ما رأيت ، أما إنّ صاحبي بهذا أوصانى ، وبهذا الرأى أمَرَنى .

قال عُمَير : فلا تعدُونّ رأْيَه ، فإنّ الشيخَ قد ضرّسَتْه الحروب وقاسى منها ما لم نقاس ، وأَصبِحْ فناهِض الرجُلَ .

ثم انصرف عمير ، وأذكى ابنُ الأشتر حرسه تلك الليلة اللَّيْلَ كلَّه ، ولم يَدْخُل عينيه غَمْضٌ ، حتّى إذا كان فى السَّحَرِ الأول عَبّى أصحابَه وكتّب كتائبه وأمّر أُمراءه .

فلما انفجر الفجر صلّى بهم الغداةَ بغَلَس ، ونزل يقولُ للناس : ازْحَفوا ، فزحف الناس معه حتى أشرف على تلٍّ عظيمٍ مُشْرِفٍ على القوم ، فجلس عليه ، وإذا أصحاب عبيد الله لم يتحرك منهم أحد .

وكان ابنُ الأَشْتَرِ قد سرّح عبد الله بن زُهير السَّلولىّ ، وقال له : قرِّب[1] على فرسك حتى تأْتِيَنى بخبر هؤلاء .

فانطلق فلم يلبث إلا يسيرا حتى جاء فقال : قد خرج القومُ على دهش وفشل ، لقينى رجلٌ منهم ، فما كان له هِجِّيرَى إلا : ياشيعة أبى تراب ! ياشيعة المختار الكذّاب ! فقلت له : ما بيننا وبينكم أجلّ من الشّتم . فقال لى : ياعدوَّ الله ، إلامَ تدعوننا ! أنتم تقاتلون مع غير إمام ! قلت له : يالثارات الحسين ! ابن رسول الله ! ادفعوا إلينا عُبيد الله بن زياد فإنه قتل ابنَ رسول الله ، سيد شباب أهل الجنة ، حتى نقتله

---

(١) التقريب : ضرب من العدو .

ببعض موالينـا الذين قتلهم مع الحسين ، فإنّا لا نراه ندًّا فنرضى أن يكونَ منه قَوَداً ، وإذا دفعتموه إلينا فقتلناه ببعض موالينا الذين قتلهم جعلنا بيننا وبينكم كتابَ الله ، أو أىّ شىء صالح من المسلمين شئتم حكما . فقال : قد جرّبناكم فى مثل هذا فغدرتم . فقلت له : ما جئتَ بحجة ، إنما كان صُلْحنا على أنهما[1] إذا اجتمعا على رجل تبِعْنا حكمهما ، ورضينا به ، وبايعناه ، فلم يجتمعا على واحد ، وتفرّقا فكلاهما لم يوفقه الله للخير ، ولم يسدّده .

فقال : من أنت ؟ فأخبرته ، وقلت له : من أنت ؟ فقال : عَدَسْ ـ لبغلته ـ يزجرُها فقلت له : ما أنصفْتَنِى ! هذا أوّلُ غَدْرِكَ .

ودعا ابنَ الأشتر بفرسٍ له فركبها ، ثم مرّ بأصحاب الرّايات كلها ؛ فكلّما مرّ على رايةٍ وقف عليها ، ثم قال : يا أنصارَ الدين ، وشيعةَ الحقّ ، وشرطة الله ، هذا عبيدُ الله بن مَرْجانة قاتل الحسين بن علىّ وابن فاطمة بنت رسول الله ، حال بينه وبين بناته ونسائه وشيعته وبين ماء الفرات أن يشربوا منه ، وهم ينظرون إليه ، ومنعه أن يأتى ابن عمه فيصالحه ، ومنعه أن ينصرف إلى رَحْله وأهله ، ومنعه الذهاب فى الأرض العريضة حتى قتله ، وقتل أهْلَ بيته ، فوالله ما عمل فرعون ببنى إسرائيل ما عمل ابن مرجانة بأهْل بيت رسول الله الذين أذهب الله عنهم الرِّجْسَ وطهّرهم تطهيرا . قد جاءكم اللهُ به ، وجاءه بكم ، فوالله إنى لأرجو ألّا يكونَ الله جمع بينكم فى هذا الموطن وبينه إلا ليَشْفِىَ صدوركم بسفك دمه على أيديكم ، فقد علم الله أنكم خرجتم غَضَباً لأهل بيت نبيكم .

---

(١) يريد الحكمين .

وسار بين الميمنة والميسرة ، وسار فى الناس كلهم فرغّبهم فى الجهاد ، وحرّضهم على القتال ، ثم رجع حتى نزل تحت رايته ، وزحف القومُ ، واحتدم القتالُ ، فكان بين الفريقين موقعة هائلة انتصر فيها ابنُ الأشتر ، وقتل عبيد الله بن زياد بعد أن ذهب من جند الشام عدد وافر قتلا وغرقا فى نهر الخازَر (١) .

* * *

وتمَّ الأمرُ للمختار ، ولكنّ ابنَ الزبير وَلَّى أخاه مصعبا على البصرة ، فجاءها مُلثِماً حتى أناخ على باب المسجد ، ثم دخل فصعد المنبر وقال للناس ، بعد أن حمد الله وأثنى عليه : ﴿ طسم * تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ * نَتْلُو عَلَيْكَ مِنْ نَبَإِ مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ * إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعاً يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ ﴾ ـ وأشار بيده نحو الشام ـ ﴿ وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ ﴾ ، وأشار بيده نحو الحجاز ـ ﴿ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُمْ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ ﴾ (٢) وأشار بيده إلى الشام.

وخرج أهلُ الكوفة الذين كان المختار قاتلهم فلحقوا بمُصْعَبِ (٣) بن الزبير بالبصرة ؛ وكان فيمن قدم شبث بن رِبعىّ ، قدم عليه وتحته بغلة قد قطع ذَنَبها

---

(١) فقال سراقة بن مرداس البارقى يمدح إبراهيم بن الأشتر وأصحابه فى قتل عبيد الله بن زياد :

أتاكم غلام من عرانين مذحج ... جرىء على الأعداء غير نكول
فيابن زياد بؤ بأعظم مالك ... وذق حد ماضى الشفرتين صقيل
ضربناك بالعضب الحسام بحدة ... إذا ما أبأنا قاتلا بقتيل
جزى الله خيراً شرطة الله إنهم ... شفوا من عبيد الله أمس غليلى

(٢) سورة القصص ١ ـ ٦ .

(٣) وروى أن مصعباً لما قدم البصرة خطبهم فقال : يأهل البصرة ؛ بلغنى أنكم تلقبون أمراءكم وقد سميت نفسى الجزار .

وقطع طَرَف أذنها وشقّ قباءه ، وهو ينادى : يا غوثاه ! يا غوثاه ! فأُتِىَ مصعب فقيل له : إن بالباب رجلا ينادى : يا غوثاه ! يا غوثاه ! مشقوق القباء ؟ من صفته كذا وكذا . فقال لهم : هذا شبث بن رِبْعِىّ ، لم يكن يفعل هذا غيرُه ، فأَدخِلُوه . فأُدْخِلَ عليه ، وجاءه أشرافُ الكوفة ، فدخلوا عليه ، فأخبروه بما اجتمعوا له ، وبما أُصيبوا به ، وسألوه النصرَ لهم والمسير إلى المختار معهم (١) .

وجنّد مصعب جنداً عظيما قادهم بنفسه وسار نحو الكوفة . وبلغ ذلك المختار ، فقام فى أصحابه ، وحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال : يأهلَ الكوفة ، يأهلَ الدّين ، وأعوان الحق ، وأنصار الضّعيف ، وشيعةَ الرّسول وآل الرّسول ، إن فُرَّاركم الذين بَغَوْا عليكم أتوا أشباههم من الفاسقين فاستَغْوَوْهم عليكم ليَمصَحَ (٢) الحق ، وينتعش الباطل ، ويقتل أولياء الله ، والله لو تهلكون ما عُبد الله فى الأرض إلا بالفِرَى على الله واللعن لأهل بيت نبيه ، انتدبوا مع أحمر بن شُميط ، فإنكم لو قد لقيتموهم لقد قتلتموهم إن شاء الله قَتْلَ عادٍ وإرَم .

وبعث المختار مع ابن شُميط جيشاً كثيفاً ، وسار حتى ورد المذار (٣) ، وجاء مصعب حتى عسكر قريباً منه . وتزاحف الجيشان ، فقُتِل ابن شميط ، وهزم جند المختار ، وسار جند الكوفة الذين كان المختار طردهم وراءهم ليأخذوا بثأرِهم ،

---

(١) كان فيمن قدم على مصعب محمد بن الأشعث ، ولم يكن شهد وقعة الكوفة ، كان فى قصر له مما يلى القادسية ، فلما بلغه هزيمة الناس تهيأ للشخوص وسأل عنه المختار فأخبر بمكانه فسرح إليه عبد الله بن قراد ، فلما علم بمسيره خرج نحو مصعب حتى لحق به واستحثه على الخروج وأدناه مصعب وأكرمه لشرفه ، وطلب منه أن يضم إليه المهلب بن أبى صفرة عامله على فارس فاستماله وانضم إليه فى جموع كبيرة .

(٢) ليمصح ، أى ليذهب .

(٣) هذا هو يوم المذار لمصعب على أحمر بن شميط . والمذار : قصبة ميسان بينها وبين البصرة مقدار أربعة أيام .

فكانوا عليهم أشدّ من أهل البصرة ، لا يدركون منهزما إلا قتلوه ، ولا يأخذون أسيراً فيعفوا عنه ، ولم ينجُ من ذلك الجيش إلا طائفة من أصحاب الخيل؛ وأما رَجَّالتهم فأُبيدوا إلا قليلا[١] .

وسار مصعب يحمل الرجال وضعفاء الناس فى السفن نحو الكوفة .

ولما بلغ المختار أنهم قد أقبلوا عليه فى البحر وعلى الظهر ، وسار إليهم حتى نزل حَرُوراء ، ليحول بينهم وبين الكوفة ، وجاء مصعب يسير إليه وهو بحَرُوراء ، وتزاحف الناس ، ودنا بعضُهم من بعض ، وتحطم أصحاب المختار حطمة منكَرة ، وانقصفوا انقصافة شديدة ، كأنهم أَجَمَة فيها حريق ، وقاتل المختار حتى انصرف عنه القوم، فقال له أصحابُه: أيها الأمير ، قد ذهب القومُ فانصرف إلى منزلك إلى القصر[٢] فقال المختار : والله ما نزلتُ وأنا أريد أن آتىَ القصر ، فأما إذا انصرفوا فاركبوها بنا على اسم الله ، فجاء حتى دخل القصر .

ولما أصبح المُصَعب أقبل يسيرُ بمَنْ معه من أهل البصرة ومن خرج إليه من أهل الكوفة فأخذ بهم نحو السَّبَخَة ، فمرّ بالمهلّب ، فقال له المهلب : ياله فتحاً ما أهنأه ، لو لم يكن محمد بن الأشعث قتل ! قال : صدقتَ ، فرحم الله محمداً ! وسار غير بعيد ، ثم قال : يا مهلب ، قال : لبيك أيها الأمير ! قال : هل علمتَ

(١) فى ذلك يقول الأعشى :

ألا هل أتاك والأنباء تنمى ... بما لاقت بجيلة بالمذار
أتيح لهم بها ضرب طلحف ... وطعن صائب وجه النهار
كأن سحابة صعقت عليهم ... فعمتهم هنالك بالدمار
فبشر شيعة المختار إما ... مررت على الكويفة بالصغار
أقر العين صرعاهم وفل ... لهم جم يقتل بالصحارى
وما إن سرنى إهلاك قومى ... وإن كانوا وجدك فى خيار
ولكنى سررت بما يلاقى ... أبو إسحاق من خزى وعار

(٢) كان قد حصن قصره والمسجد ، وأدخل فى قصره عدة الحصار .

أن عبيد الله بن عليّ بن أبي طالب قد قتل ؟ قال : إنا لله وإنا إليه راجعون ! ومضى حتى نزل السبخة فقطع عنهم الماء والمادة ، وبعث عبدالرحمن بن الأشعث فنزل الكُناسةَ ، وبعث عبد الرحمن بن مِخْنف إلى جَبَّانة السبيع . وضيّقوا الحصار على المختار وأصحابه حتى إنهم كانوا يعطون الدينار والدينارين في الراوية لما أصابهم من الجَهْد ، وكانت معايشهم أفضلها من نسائهم ، فكانت المرأة تخرج من منزلها ، معها الطعامُ واللَّطَف والماء قد التخفت عليه ، فتخرج كأنها تريد المسجد الأعظم للصلاة ، وكأنها تأتي وتزور ذات قرابة لها ، فإذا دنت من القصر فُتح لها ، فدخلت على زوجها بطعامه وشرابه ولَطَفِه .

وبلغ ذلك مصعباً وأصحابه فقال له المهلب : اجعل عليهم دروبا حتى تمنع من يأتيهم من أهليهم وأبنائهم وتدعهم في حصنهم حتى يموتوا فيه ، ففعل .

وكان القومُ إذا اشتدّ بهم العطش في قصرهم استقوْا من ماء البئر ، ثم أمر لهم المختار بعسل فصُبَّ فيه ليغيّرَ طعمه فيشربوا منه .

ثم أمر مصعب أصحابه فاقتربوا من القصر ، واشتدّ الحصار ، فقال لهم المختار : ويحكم ! إن الحصارَ لا يزيدكم إلا ضعفاً ، انزلوا بنا فلنقاتل حتى نُقْتَل كِراماً إن نحن قُتِلْنا ، والله ما أنا بآيس إن صدقتموهم أن ينصركم الله . فضعفوا وعجزوا . فقال لهم المختار : أما أنا فوالله لا أعطى بيدى ولا أحكمهم في نفسي .

وأزمع الخروج حين رأى من أصحابه الضعف . وأرسل إلى امرأته ؛ فأرسلت إليه بطيب كثير ، فاغتسل وتحنَّط ، ثم وضع ذلك الطيب على رأسه ولحيته وخرج .

ولما خرج من القصر قال للسائب(١) : ماذا ترَى ؟ قال : الرأْى لك . فماذا

(١) كان السائب بن مالك الأشعرى خليفته على الكوفة إذا خرج إلى المدائن .

ترى ؟ قال : أنا أرى أم الله يرى ؟ قال : بل الله يرى . قال : وَيْحَك ! أحمق أنت ، إنما أنا رجل من العرب ، رأيتُ ابن الزبير انتزى على الحجاز ، ومروان على الشام ، فلم أكن دون أحدٍ من رجال العرب ، فأخذتُ هذه البلاد فكنت كأحدهم ، إلا أنى قد طلبت بثأرِ أهلِ بيت النبى صلى الله عليه وسلم إذ نامت عنه العرب، فقتلتُ من شرك فى دمائهم ، وبالغتُ فى ذلك إلى يومى هذا ، فقاتِلْ على حسبك إن لم تكن لك نيَّة . فقال : إنَّا لله وإنا إليه راجعون ! وما كنتُ أصنع أن أقاتل على حسبي ؟ فقال المختار يتمثل بقول غَيْلان بن سلمة :

ولو يرانى أبو غيلانَ إذ حَسَرَتْ عنّى الهمومُ بأمرٍ ماله طبقُ
لقال رُهبا ورُغْباً يجمعان معاً غنم الحياة وهول النفس والشَّفَق
إما تُسِفّ على مجد ومكرُمةٍ أو أسوةٌ لك فيمن تهلك الوَرَق

وخرج فى تسعة عشر رجلا ، وضارب بسيفه حتى قُتل(١) . وبذلك صار أمر العراق إلى ابن الزبير .

* * *

وبعث مُصْعب عماله إلى الجبال والسواد ، وكتب إلى ابن الأشتر كتاباً فيه :

أما بعدُ ، فإن الله قد قتل المختار الكذاب وشيعته الذين دانوا بالكفر ، وكادوا بالسحر ، وإنا ندعوك إلى كتابِ الله وسنة نبيه ، وإلى بيعة أمير المؤمنين ، فإن أجبتَ إلى ذلك فأقبلْ إلىّ ، فإن لك أرض الجزيرة وأرض المغرب كلها ما بقيت وبقى سلطان آل الزبير ، لك بذلك عهد الله وميثاقه ، وأشد ما أخذ على النبيين من عهْدٍ أو عقْدٍ ، والسلام .

---

(١) قتل المختار ، وهو ابن سبع وستين سنة لأربعة عشر خلت من رمضان سنة ٦٧ .

وكتب إليه عبد الملك بن مروان : أما بعد ، فإنَّ آل الزبير انْتَزَوْا على أئمة الهدى ، ونازعوا الأمر أهلَه ، وألْحَدُوا فى بيت الله الحرام ، والله ممكِن منهم وجاعلٌ دائرة السَّوْء عليهم ، وإنى أدعوك إلى الله وسنةَ نبيه ، فإن قبلت وأجبْتَ فلك سلطانُ العراق مابقيتَ وبقيتُ لكَ ، علىّ بالوفاء بذلك عهدُ الله وميثاقه .

فدعا ابنُ الأشتر أصحابه فأقرأهم الكتاب ، واستشارهم فى الرأى ، فقائل يقول : عبد الملك . وقائل يقول : ابن الزبير . فقال لهم . كيف أتَّبع أهل الشام ، وليست هناك قبيلة إلا وقد وترتها ، ولستُ بتاركٍ عشيرتى وأهل مصرى .

وأقبل إلى مُصْعب ، فلما بلغ مصعباً إقباله وجه المهلب بن أبى صفرة على الموصل والجزيرة وأذربيجان وأرمينية وأقام بالكوفة .

وأراد عبدُ الملك بن مروان أن يجمع كلمة الناس عليه[1] ، فلما أجمع المسير إلى مصعب خطب الناس ، وأمرهم بالتهيؤ إلى مُصْعب ، فختلف عليه رؤساء أهل الشام من غير خلافٍ لما يريده ، ولكنهم أحبوا أن يقيمَ ويقدم الجيوش ، فإن ظفروا فذاك ، وإن لم يظفروا أمدَّهم بالجيوش خشية على الناس ألا يكون وراءه ملك ، إن أُصيب . وقالوا : ياأمير المؤمنين ، لو أقمتَ مكانك ، وبعثتَ على هؤلاء الجيوش رجلا من أهل بيتك ، ثم سرَّحته إلى مصعب ! فقال عبد الملك : إنه لايقوم بهذا الأمر إلا قرشى له رأى ، ولعلى أبعث من له شجاعة ولا رأى له . وإنى أجدُ فى نفسى أنى بصيرٌ بالحرب ، شجاع بالسيف ، إن أُلجئتُ إلى ذلك . ومصعب فى بيت شجاعة ، أبوه أشجع قريش ، وهو شجاع ، ولا علم له بالحرب ، يحبُّ الخفض ، ومعه من يخالفه ومعى من ينصحُ لى .

---

(١) كان ذلك سنة ٧٠ أو ٧١ أو ٧٢ هـ على خلاف فى ذلك .

وسار نحو العراق ، ولما أراد الخروجَ ودّع زوجه عاتكة ، فبكت وبكى معها جواريها ، فقال : قاتل الله كُثَيِّراً ! والله لكأنه يرانى ويراك يا عاتكة حيث يقول :

إذا ما أرادَ الغَزْوَ لم تَثْنِ همَّهُ　　حَصَانٌ عليها عقد درٍّ يزينُها
نَهَتْهُ فلما لم تَرَ النهىَ عاقَه　　بكَتْ فبكى مما شجاها قطينُها

ثم نهض وسار حتى نزل مَسْكِن[١] . وسار مصعب إلى باجُمَيْرا . وكتب عبد الملك إلى شيعته من أهل العراق .

وأقبل إبراهيم بن الأشتر بكتاب عبد الملك إلى مصعب مختوماً ، فدفعه إليه . فقال: مافيه ؟ قال : اقرأه . فقرأه ، فإذا عبد الملك يدعوه إلى نفسه ، ويجعل له ولايةَ العراق. فقال لمصعب : إنه والله ما كان أحد آيس منه منى . ولقد كتب إلى أصحابك كلهم بمثل الذى كتب إلىّ فأطِعْنى فيهم فاضربْ أعناقهم . قال : إذن لا تُناصحنا عشائرُهم . قال : فأوقرهم حديداً ، وابعث بهم إلى أَبيض كسرى فاحبسهم هناك ، ووكِّل بهم من إن غُلِبتَ ضرب أعناقهم ، وإن غلبتَ منيْتَ بهم على عشائرهم . فقال : يا أبا النعمان ، إنى لفى شغل عن ذلك ، يرحم الله أبا بحر ! إنه كان ليحذِّرنى غَدْرَ أهل العراق ، كأنه كان ينظر إلى ما نحن فيه .

وهمَّ أَهلُ العراق بالغدرِ بمصعب . فقال قيس بن الهيثم : ويحكم ! لا تدخلوا أهل الشام عليكم ، فوالله لئن تطعَّموا بعيشكم ليصفِيُنَّ عليكم منازلكم . والله لقد رأيتُ سيد أهل الشام على باب الخليفة يفرح إن أرسله فى حاجة ! ولقد

---

(١) هذا هو يوم مسكن لعبد الملك على مصعب ، ومسكن : موضع على نهر دجيل .

رأيتنا فى الصوائف وأحدُنا على ألف بعير ، وإنّ الرجل من وجوههم ليغزو على فرسه وزاده خلفه .

وتدانَى العسكران والتقى القومُ ، وبدأت الدائرة تدور على مصعب ، فقال لابنه عيسى : يابنىّ ، اركب أنتَ ومن معك إلى عمك بمكة، فأَخبرْه ماصنع أهلُ العراق ودعنى فإنى مقتول . فقال ابنه : والله لا أُخبرُ قريشاً عنك أبدا ؛ ولكن إن أردت ذلك فالْحقْ بالبصرة فهم على الجماعة، أو الحق بأمير المؤمنين. قال مصعب: والله لا تتحدث قريش أنى فررت حتى دخلت الحرَم منهزما ، ولكن أُقاتل ، فإن قتِلتُ فلعمرى ما السيفُ بعار ، وما الفرار بعادة وخُلُق ، ولكن إن أردتَ أن ترجعَ فارجع فقاتل ، فرجع فقاتل حتى قُتل .

واشتدَّ القتال بين الفريقين حتى قُتل مصعب ، ودخل عبد الملك الكوفة ، وفرق أعمال العراق والكوفة والبصرة على عماله . . .

ولما قُتل مصعب ، ودخل عبد الملك الكوفة أمر بطعام كثير فصُنع وأمر به إلى الخوَرْنَق وأذنَ إذناً عامًّا ، فدخل النـــاس ، فأخذوا مجالسهم فدخل عمرو بن حريث المخزومىّ ، فقال له : إلىّ وعلى سريرى ، وأجلسه معه ، ثم قال : أىّ الطعام أكلت أحبّ إليك وأشهى عندك ؟ قال : عنَاق[1] حمراء قد أُجيد تمليحها وأحكِم نضجها ! قال: ماصنعتَ شيئاً . فأين أنت من عمْروس[2] راضع قد أُجيد سمطه، وأحكِم نضجه؛ اختلجت إليك رجله فأتبعتَها يده ، غذى بشريجين من لبن وسمن ، ثم جاءت الموائد فأكلوا ، فقال عبد الملك بن مروان : ما ألذّ عيشنا لو أن شيئاً يدوم ؛ ولكنا كما قال الأول :

---

(١) العناق : الأنثى من ولد المعز .   (٢) العمروس : الخروف .

وكلُّ جديدٍ يا أُميم إلى بِلًى وكلُّ امرئٍ يوماً يصير إلى كان

فلما فرغ من الطعام طاف عبد الملك فى القصر يقول لعمرو بن حريث : لمن هذا البيت ؟ ومن بنى هذا البيت ؟ وعمرو يخبره فقال عبد الملك :

وكلُّ جديدٍ ياأُميمَ إلى بِلًى وكلُّ امرئٍ يوماً يصيرُ إلى كانْ

ثم أتى مجلسه فاستلقى ، وقال :

اعمــل على مَهَل فإنك ميّتٌ واكدحْ لنفسك أيها الإنسانْ

فكأن ماقد كان لم يكُ إذ مضى وكأنَّ ماهو كائنٌ قد كانْ

ثم دُعى الناسُ إلى البيعة ، فجاءت قضاعة فرأى قِلّة فقال : يامعشر قُضَاعة ، كيف سلمتم من مُضَر مع قِلّتِكُم ؟ فقال عبد الله بن يعلى : نحن أعزُّ منهم وأمنَعُ ، قال : بِمَنْ ؟ قال : بِمَنْ معك منا ياأمير المؤمنين .

ثم جاءت مَذْحِج وهَمْدان ، فقال : ماأرى لأحدٍ مع هؤلاء بالكوفة شيئاً . ثم جاءت جُعْفِىّ ، فلما نظر إليهم عبد الملك : قال : يامعشر جعفىّ اشتملتم على ابن أختكم[1] وواريتموه ! قالوا : نعم . قال : فهاتوه . قالوا : وهو آمن ؟ قال : وتشترطون أيضا ! فقال رجل منهم : إنّا والله مانشترط جهلاً بحقّك ، ولكننا نتسحَّبُ عليك تَسحُّبَ الولد على والده . فقال : أَمَا والله لنعم الحىّ أنتم ! إن كنتم لَفرسانا فى الجاهلية والإسلام ! هو آمن . فجاءوا به ، فلمّا نظر إليه عبد الملك قال : أبا قَبيح ! بأىّ وجه تنظر إلى ربك وقد خلَعْتنى ! قال : بالوجه الذى خلقه . وبايع ثم ولّى ، فنظر عبد الملك فى قفاه فقال : لله درُّه أىّ ابن زَوْمَلةٍ[3] هو !

---

(١) يعنى يحيى بن سعيد بن العاص. (٢) كان يكنى أبا أيوب . (٣) ابن زوملة هو ابن الأمة.

وتقدمت إليه عَدْنان ، وقدّموا رجلا وسيما جميلا ، وتأخّر معبد بن خالد ، وكان دَمِيما ، فقال عبد الملك : مَنْ ؟ فقال الكاتب : عَدْوان . فقال عبد الملك :

عذيرَ الحىّ من عَدْوَا ... نَ كانُوا حَيّةَ الأرضِ
بَغَى بعضُهمُ بعضا ... فلم يرعُوا على بعضِ
ومنهم كانت الساداتُ ... والموفُون بالقَرْضِ

ثم أقبل على الرجل الوَسِيم فقال : إيه ! فقال : لا أدرى ، فقال معبد بن خالد من خلفه :

ومنهم حكمٌ يقضِى ... فلا يُنْقَضُ ما يقضى
ومنهم من يجيزُ الحـــجَّ بالسُّنّة والفرضِ
وهمْ مُذْ وُلِدوا شَبُّوا ... بسِرِّ النسبِ المَحْضِ

فتركه عبد الملك ، وأقبل على الجميـل ، فقال : من هو ؟ قال : لا أدرى ، فقال معبد من خلفه : ذو الإصبع . فأقبل على الجميل فقال : ولم سُمّى ذا الإصبع ؟ فقال : لا أدرى ، فقال معبد من خلفه : لأنّ حيّة عضّتْ إصبعه فقطعتها . فأقبلَ على الجميل فقال : ما كان اسمه ؟ فقال : لا أدرى . فقال معبد من خلفه : حُرْثان بن الحارث . فأقبل على الجميل فقال : من أيـكم كان ؟ قال : لا أدرى . فقال معبد : من بنى ناج ، فقال :

أَبَعْدَ بنى ناجٍ وسعيُك بينهمْ ... فلا تُتْبِعَنْ عَيْنَيْك ما كان هالـكا
إذا قلتُ معروفاً لِأُصلِحَ بينهمْ ... يقول وُهَيْب : لا أصالح ذَلِـكا
فأضحى كظَهْرِ العينِ جُبَّ سنامُهُ ... تُطِيفُ به الوِلْدان أحدَبَ بارِكَا

ثم أقبل على الجميـل فقال : كَمْ عطاؤكَ ؟ قال : سبعمائة . فقال لمعبد : فى كم

أنت ؟ قال : فى ثلاثمائة ، فأقبل على الكاتِبَيْن ، فقال : حُطّا من عطاء هـذا أربعمائة ، وزِيدَاها فى عطاء هذا .

ثم صعِد منبر الكوفة ، وخطب الناس ، فقال : إن عبد الله بن الزُّبير لو كان خليفة كما يزعم لخرج فآسى بنفسه ، ولم يغرز ذنَبه فى الحرَم . ثم قال : إنى قد استعملت عليكم بِشْر بن مَرْوان ، وأمرته بالإحسان إلى أهل الطاعة ، والشدة على أهل المعصية ، فاسمعوا له وأطيعوا . ثم رجع إلى الشام .

أما عبد الله بن الزُّبير فإنه لما انتهى إليه قتلُ مصعَب قام فى الناس ، فقال : الحمد لله الذى له الخلْق والأمر ، يُؤْتِى المُلْك مَنْ يشاء وينزع الملك ممّن يشاء ويعزّ مَنْ يشاء ويذل من يشاء . ألا وإنه لم يذِلِل الله مَنْ كان الحقّ معه وإن كان فرداً ، ولم يعزّ من كان وليّه الشيطان وحزبه ، وإن كان معه الأنام طرًّا . ألَا وإنّه قد أتانا من العراق خبرٌ حزَنَنا وأفرحنا ؛ أتانا قتْل مصعب رحمة الله عليه ، فأما الذى أفرحنا فعلمنا أن قَتْلَه له شهادةٌ ، وأمّا الذى أحزننا فإن لفراق الحميم لوعة يجدها حميمُه عند المصيبة ثم يرعوى من بعدها ذو الرأى إلى جميل الصبر وكريم العزاء ، ولئن أُصِبتُ بمصعب لقد أَصِبتُ بالزبير قبله ؛ وما أنا من عثمان بخِلْوٍ من مصيبة ؛ وما مُصْعب إلا عبدٌ من عبيد الله وعون من أعوانى . إلا أن أهل العراق أهل الغدر والنفاق أسلموه وباعوه بأقل الثمن ، فإن يُقْتَل فإنّا والله ماتموتُ على مضاجعنا كما تموت بنو أبى العاص . والله ماقتِل منهم رجل فى زحف فى الجاهلية ولا الإسلام . وما نموت إلا قعْصا بالرماح وموتاً تحت ظلال السيوف . ألا إنما الدنيا عارية من الملك الأعلى الذى لا يزول سلطانُه ولا يَبِيد مُلْكه ، فإن تُقْبِل لا آخذها أخذَ الأشر الْبَطِر ، وإن تُدْبِرْ لا أبكِ عليها بُكاء الخرق المهين . . أقولُ قولى هذا وأستغفر الله لى ولكم .

٦١ — يوم دِير الْجَمَاجِم*

رأى عبدُ الرحمن بنُ محمد بن الأشعث[١] مَنْ معه من الجيش بالبَصْرَةِ ، وقد نازَلَه الحجّاجُ بها ؛ فخرج يريدُ الكوفة ، لِأَنّ أهلَها أطوعُ لَهُ من أهل البصرة لبُغْضِهم الحجّاج ، ولأنه يجدُ بها من عشائره ومواليه أَنْصارًا .

فسار إليها ، وسايَرَهُ الحجّاجُ ، فنزل ابنُ الأشعثِ ديرَ الجماجِم ونزل الحجّاجُ بإزائِه بدير قُرَّة[٢] ، ووقعت الحربُ بينهما .

واشتدَّ القتالُ ، فلما بلغ ذلك رءوسَ القبائل وأهلَ الشام قِبَلَ عبدِ الملك قالوا له : إن كان يُرْضِي أهلَ العراقِ أن تَنزعَ عنهم الحجاجَ فإنّ نَزْعَ الحجّاج أَيْسَرُ من حرب أهلِ العِراقِ ، فانْزَعْهُ عنهم تَخلُصْ لك طاعتُهم ، وتَحْقِنْ به دماءَنا ودماءَهم .

فبعث ابنَه عبدَ الله بنَ عبد الملك وأخاه محمدَ بن مروان ، وأمرها أن يَعْرِضا

(*) للحجاج على عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث ، كان فى شعبان من سنة ٨٢ ، وفى قول بعضهم : كان فى سنة ٨٣ ، ودير الجماجم : دير بظاهر الكوفة ، على طريق البر الذى يسالك إلى البصرة ، وسمى بدير الجماجم بوقعة إياد على أعاجم كسر بشاطىء الفرات الغربى حيث قتلت جيشه فلم يفلت منهم إلا الشريد وجمعوا جماجمهم فجعلوها كالكوم فسمى ذلك المكان دير الجماجم . معجم مااستعجم ٢ : ٥٧٣ ، تاريخ الطبرى : ٨ — ١٤ .

(١) أمير من القادة الشجعان الدهاة ، سيره الحجاج بجيش لغزو بلاد رتبيل بسجستان فدخلها، واتفق مع قادة جيشه على إخراج الحجاج من أرض العراق ، فانتقض عليه ونشبت بينهما معارك ظفر فيها عبدالرحمن، وتم له بذلك ملك سجستان وكرمان والبصرة وفارس إلا خراسان، وكان عليها المهلب والياً لعبد الملك بن مروان . ثم خرجت البصرة من يده فاستولى على الكوفة ، وقصده الحجاج ، فحدثت بينهما وقعة دير الجماجم .

(٢) هو بإزاء دير الجماجم .

على أهلِ العراقِ نَزْعَ الحجّاج عنهم ، وأَنْ يُجْرِىَ عليهم أَعطياتِهم كما تُجْرَى على أهل الشـام ، فإن هم قَبِلُوا ذلك عزل عنهم الحجّاج ، وإن أَبَوْا أَن يَقْبَلُوا فالحجّاجُ أميرُ جماعة أهلِ الشـامِ ووليُّ القِتَالِ ؛ ومحمد بن مروان وعبد الله بن عبد الملك فى طاعته .

فلم يأتِ الحجّـاجَ أمرٌ قطّ كان أَشدَّ عليـه ولا أغْيَظَ له ، ولا أَوْجَع لقلبه من ذلك ، مخافةَ أن يقبلوا فيُعزَل عنهم .

فكتب إلى عبـد الملك يقول : يا أمـيرَ المؤمنين ، واللهِ لئن أَعطيتَ أهلَ العراق نَزْعِى لا يلبثون إلا قليلا حتى يخالفوكَ ويسيروا إليـك ، ولا يزيدهم ذلك إلا جُرْأة عليك . أَلَمْ تَرَ وتسمع بوثوب أهلِ العراق على ابن عفّان ؛ فلما سألهم مايريدون قالوا : نزع سعيـد بن العاص ! فلمـا نزعه عنهم لم تتمّ لهم السَّنَةُ حتى ساروا إليـه فقتلوه . إن الحديدَ بالحـديد يُفْلَح . خَارَ اللهُ لكَ فيما ارتأيتَ ! والسلام عليك .

فأَبَى عبدُ االملك إلا عَرْضَ هـذه الخصالِ على أَهلِ العراقِ إرادةَ العافيـةِ من الحرب .

وسار إلى الحجّاج محمدُ بن مروان وعبدُ الله بن عبد الملك ، فلمّا اجتمعا عنـده خرج عبد الله بن عبد الملك فقال : ياأهلَ العراق ، أنا عبدُ الله ابنُ أميرِ المؤمنين ، وهو يُعطيكم كذا وكذا ...

وقال محمـدُ بن مَرْوان : أنَا رسولُ أمـيرِ المؤمنين ، وهو يَعْرِضُ عليـكم كذا وكذا ...

قالوا : نرجعُ العشيّة ؛ فرجعوا فاجتمعوا عنـد ابن الأَشعث فلم يَبْقَ قائدٌ

ولا رَأْسُ قوم ولا فارسٌ إلّا أتاه ، فحمِدَ اللهَ وأثنى عليه ، ثم قال : أمّا بعدُ ، فقد أُعطِيتم أمراً انتهازُكم اليومَ إياه فُرْصةٌ ، ولا آمَنُ أن يكونَ على ذى الرأى غداً حسرةً ، وإنكم اليوم على النّصف ، فاقبلوا ما عرضوا عليكم وأنتم أعِزّاء أقوياء ، والقومُ لكم هائبون ، وأنتم لهم منتقِصون . فلا واللهِ لا زلتم عليهم أجْرِياء ولا زلتم عندهم أعِزّاء ، إن أنتم قبلتم .

فوثب الناسُ من كلّ جانب فقالوا : إن اللهَ قد أهلكهم فأصبحوا فى الأَزْلِ(١) والضَّنْكِ والمجاعةِ والقلّةِ والذّلّةِ ، ونحن ذَوُو العددِ الكثير والسعر الرفيع والمادة القريبة ؛ والله لا نَقْبَل .

فرجع محمدُ بن مروان وعبد الله بن عبد الملك إلى الحجاج فقالا : شأنك بعسكرك وجُنْدك فاعْمَلْ برأيك ؛ فإنا قد أُمِرْنا أن نسمعَ لك ونُطِيعَ ، فقال : قد قلتُ لكما إنه لا يُرَاد بهذا الأمرِ غيرُكما ، ثم قال : إنما أقاتِلُ لكما ، وسُلْطَانى سلطانكما . وخَلَّيَاه والحرب فتولّاها .

وأخذ الفريقان يتزاحفان ويقتتلان ، وأهلُ العراق تأتيهم موادّهم من الكوفةِ ومن سَوَادِها فهم فيما شاءوا من خِصْبهم وإخوانهم من أهل البَصْرَةِ ؛ وأهلُ الشامِ فى ضيقٍ شديد قد غَلَتْ عليهم الأسعارُ وقلَّ عندهم الطعامُ وفقدوا اللّحمَ ؛ وكانوا كأنهم فى حصار . وهم على ذلك يُغَادُون أهلَ العراق ويُرَاوحونهم فيقتتلون أشدّ قتال .

وحمل أهلُ الشام على خيلِ جَبَلَة بن زَحْر(٢) مَرةً بعد مرةٍ ، فناداهم

---

(١) الأزل : الشدة وسوء الحال .

(٢) كان على كتيبة القراء ، وكان معه خمسة عشر رجلا من قريش فيهم عامر الشعبى ، وسعيد ابن جبير ، وأبو البخترى الطائى ، وعبد الرحمن بن أبى ليلى .

عبد الرحمن ابن أبى ليلى الفقيه ، فقال : يا معشر القُرَّاء ؛ إنّ الفِرار ليس بأحدٍ من الناس بأقبح منه بكم ، إنّى سمعت عليًّا رفع اللهُ درجتَه فى الصالحين وأثابه أحسن ثواب الشهداء والصديقين يقول يوم لقينا أهلَ الشام : أيّها المؤمنون ، إنّه من رأى عُدْواناً يُعمَل به ، ومنكَراً يُدْعى إليه فأنكره بقلبه فقد سَلِم وبرئ ، ومَنْ أنكره بلسانه فقد أُجر ، وهو أفضلُ من صاحبه ، ومَنْ أنكره بالسيف لتكون كلمةُ اللهِ العليا وكلمةُ الظالمين السفلى فذلك الذى أصاب سبيلَ الهدى ، ونَوَّر فى قلبه باليقين ، فقاتلوا هؤلاء المحلِّين المحدثين المبتدعين الذين قد جهلوا الحق فلا يعرفونه وعملوا بالعدوان فلا يُنكِرونه .

وقال أبو البَخترىّ : أيها الناس ، قاتِلوهُم على دينكم ودُنياكم ، فوالله لئن ظهروا عليكم ليُفسِدُنّ عليكم دينكم ، وليغلبُنّ على دنياكم .

وقال الشعبىّ : يا أهلَ الإسلام ؛ قاتلوهم ، ولا يأخذكم حَرَجٌ من قتالهم ، فوالله ما أَعْلَمُ قوماً على بسيط الأرض أعملَ بظلم ولا أجورَ منهم فى الحكم . فليكُنْ بهم البدار .

وقال سعيدُ بن جُبَيْر : قاتِلُوهم ولا تأثَمُوا من قتالهم ، بنيّةٍ ويقين على آثامهم قاتلوهم ، وعلى جَوْرِهم فى الحكم وتجبُّرهم فى الدين واستذلالهم الضعفاء وإماتتهم الصلاة .

وتهيَّأَ أصحابُ جبلة للحَمْلة فقال جَبَلة : إذا حملتُم فاحملوا حَمْلَةً صادقة، ولا تردُّوا وجوهَكُمْ عنهم حتى تُوافِقُوا صفَّهم .

وحملوا عليهم بجدٍ وقوّة . وضربوهم حتى أزالوهم عن صفوفهم ، ثم انصرفوا ؛ فرأَوْا وهم مارُّون جَبَلة صريعاً لا يَدْرُونَ كيف قُتِل ! فهدَّهُمْ ذلك ، وكأنما فَقَدَ

كلٌّ منهم أباه أو أخاه ، بل هو فى ذلك الموطن كان أشدّ عليهم فَقْداً .

فقال لهم أبو البَخْترىّ الطائىّ : لا يستبينَنّ فيكم قتلُ جَبَلة ؛ فإنّما كان كرجلٍ منكم أَتَتْه منيّته ليومها ، فلم يكن ليتقدّم يومه ولا ليتأخَّرَ عنه ، وكلكم ذائق ما ذَاقَ ، ومَدْعُوٌّ فمجيب .

وسمع القُرّاء ذلك ، فإذا الكآبةُ على وجوههم بيّنَة ، وإذا ألسنتهم متقطّعة ، وإذا الفشلُ فيهم قد ظهر ، وإذا أَهلُ الشام قد سُرُّوا وجَذِلوا ونادَوْا : يا أعداء الله قد هلكتم ؛ وقد قتل اللهُ طاغوتكم .

ورأى بِسطام بن مصقلة بن هُبَيرة الشيبانىّ يَأْسَ الناس بعد قتل جَبَلة فشجّعهم فقالوا : هذا يقومُ مقامَ جَبَلة[1] .

فسمع هذا القول من بعضهم أبو البَخترىّ ، فقال : قبّحتم ! إن قُتِل منكم رجلٌ واحدٌ ظننتم أَنْ قد أُحيط بكم ، فإن قُتِل الآن ابنُ مصقلة ألقيتم بأيديكم إلى التهلكة ، وقلتُم : لم يَبْقَ أحدٌ يقاتل ، ما أَخْلقكم أن يخلف رجاؤنا فيكم !

وجيء برأس جَبَلة إلى الحجّاج ، فحمله على رُمْحَين ثم قال : يأهل الشام ؛ أَبْشِرُوا فهذا أولُ الفتح ؛ لا واللهِ ما كانت فتنةٌ قطّ فخَبَتْ حتى يُقْتَلَ فيها عظيمٌ من عظماء أهل اليمن ، وهذا من عظمائهم .

ثم اقتتلوا ذات يوم ، فخرج رجلٌ من أهل الشام يدعو للمبارزة ، فخرج إليه الحجاج بن جارية فحمل عليه فطعنه فأذراه ، وحمل أصحابه فاستنقذوه ؛ فإذا هو رجلٌ من خثْعم يقال له أبو الدَّرداء ، فقال الحجاج بن جارية : أما إنى لم أعْرِفه حتى

---

(١) كان بسطام قد قدم من الرى فالتقى هو وقتيبه فى الطريق فدعاه قتيبة إلى الحجاج وأهل الشام ، ولكنه قال : لأن أموت مع أهل العراق أحب إلى من أن أعيش مع أهل الشام .

وقع ، ولو عرفْتُه ما بارزْتُه ، ما أُحِبّ أن يُصَاب من قومى مثله .

وخرج عبد الرحمن بن عوف الرّؤاسىّ ، فدعا إلى المبارزة فخرج إليه ابنُ عمٍّ له من أهل الشام ، فاضطربا بسيفيهما ، فقال كلٌّ واحد منهما : أنا الغلامُ الكلابىّ . فقال كلٌّ منهما لصاحبه : من أنتَ ؟ فلما تساءلا تحاجزا .

وخرج عبدُالله بن رِزَام الحارثىّ إلى كتيبة الحجاج فقال: أَخْرِجوا إلىّ رجلا رجلا، فأُخْرِج إليه رجل فقتله ، ثم فعل ذلك ثلاثة أيام ؛ يقتلُ كلَّ يومٍ رجلا ، حتى إذا كان اليوم الرابع أقبل ، فقالوا : قد جاء لا جاءَ اللهُ به ! فدعا إلى المُبارزةِ فقال الحجاج للجرّاح : اخرج إليه ، فخرجَ إليه فقال له عبدُ الله بن رِزَام ـ وكان صديقاً له ـ وَيْحَك يا جَرّاح ! ما أَخْرَجك إلىّ ؟ قال : قد ابتُليتُ بك . قال : فهل لك فى خير ؟ قال : ما هو ؟ قال : أَنهزِمُ لك فترجع إلى الحجاج وقد أَحسنتَ عنده وحمِدك ! وأما أَنا فأحتملُ مقالةَ الناسِ فى انهزامى عنك حُبًّا لسلامتك ؛ فإنى لا أُحِبُّ أن أَقْتُلَ من قومى مثلَك .

قال: فافعَلْ . فحمل عليه فأخذ يستَطْرِد له ، فأطرد له عبدُ الله ، وحمل عليه الجراحُ حملةً بجِدٍّ لا يريد إلّا قتْلَه ، فعطف عليه فضربه بالعمود على رأْسه فصرعه وقال : يا جرّاحَ ؛ بئس ما جزيتنى ! أَرَدْتُ بك العافيةَ وأردتَ أن تزيرنى المنِيّة ! فقال : لم أُرِدْ ذلك . فقال : انطلق فقد تركْتُك للقرابة والعشيرة .

وخرج رجلٌ من أهلِ العراق يقال له قدامة بن الحريش التميمىّ ، فوقف بين الصّفين فقال : يا معشر جرامِقَة الشام ، إنا ندعوكم إلى كتاب الله وسنة رسوله ، فإنْ أَبيتم فليخرج إلى رجل .

فخرج إليه رجل من أهل الشام فقتله ، وكرّرَ ذلك حتى قتل أربعة ، فلمـ

رأى ذلك الحجاج أمر منادياً فنادى : لا يخرج إلى هذا الكلب أحدٌ . فكفَّ الناس .

ورأى ذلك سعيد الحرَشيّ ، فدنا من الحجاج وقال له : أصلح اللهُ الأمير ! إنك رأيتَ ألا يخرج إلى هذا الكلب أحد ، وإنما هلك مَنْ هلك مِنْ هؤلاء النفر بآجالهم ؛ ولهذا الرجل أجلٌ وأرجو أن يكون قد حضر فأْذَنْ لأصحابى الذين قدموا معى فليخرُج إليه رجل منهم .

فقال الحجّاج إنّ هذا الكلب لم يزَلْ هذا عادة له ، وقد أرعب الناس ، وقد أذنتُ لأصحابك ؛ فمن أحَبّ أن يقومَ فليقُمْ .

فرجع سعيد الحَرِشىّ إلى أصحابه فأعلمهم ؛ فلمّا نادى ذلك الرجُل بالمبارزة برَزَ إليه رجلٌ من أصحاب الحَرِشيّ ، فقتله قدامة ، فشقّ ذلك على سعيد ، وثقُل عليه لكلامه الحجاج .

ثم نادى قدامة : مَنْ يبارز ؟ فدنا سعيد من الحجّاج ، فقال أصلح اللهُ الأميرَ ! ائذن لى فى الخروج إلى هذا الكلب . فقال : أو عندك ذلك ! قال سعيد : نعم ، أنا كما تحبّ . فقال الحجاج : أرنى سيفكَ ، فأعطاه إيّاه فقال الحجاجُ : معى سيفٌ أثقلُ من هذا . وأمر بالسيف ، وأعطاه إياه .

ثم قال الحجاج — وقد نظر إلى سعيد — ما أجْوَدَ دِرْعَك ، وأقْوى فرسك ! ولا أدرى كيف تكون مع هذا الكلب ؟ قال سعيد : أرجو أن يُظفِرنى الله به : قال الحجاج : اخْرُجْ عَلَى برَكة الله . قال سعيد : فخرجتُ إليه ، فلمّا دنوتُ منه قال : قِف يا عدوّ الله ، فوقفتُ فسرَّنى ذلك منه . فقال : اختَر ، إمّا أن تمكِننى فأضربك ثلاثا . وإما أن أُمكِنَكَ فتَضْرِبنى ثلاثا . ثم تمكننى . قلتُ :

أَمْـكِنِّى ، فوضع صدره على قَرَبُوسِه[1] . ثم قال : اضْرِب ، فَجَمَعْتُ يدى على سيفى ، ثم ضربت على المِغْفَرِ متمكّنـا ، فلم يصنعْ شيئًا ، فساءنى ذلك من سيفى ومن ضَرْبتى ، ثم أَجْمَع رأيى أن أضرب به على أَصْلِ العاتق ، فإمّا أن أَقْطَع وإمّا أَنْ أُوهِنَ يَدَه عن ضَرْبته . فضربته فلم أصنع شيئًا ، فساءنى ذلك . وكانت الثالثة مثل الثانية .

ثم قال : أَمْـكِنِّى . فأمْـكَنْتُه ، فضربنى ضربةً صَرَعَنِى منها ، ثم نزل عن فَرَسه ، وجلس على صدرى وانتزع من خُفَّيه خِنْجَراً أو سكيناً فوضعها على حَلْقى يريد ذَبْحى . فقلت له : أنشدك الله ! فإنّك لستَ مصيباً من قتلى الشرف والذِّكر مثل ما أنتَ مصيبٌ من تَرْكى .

قال : ومَنْ أنتَ ؟ قلتُ : سَعيد الحُرشىّ ، قال : أولى لك ياعدوَّ الله ! فانْطَلِقْ يا عــدوَّ اللهِ وأَعْلِم صاحبك مالقيتَ ، قال سعيد : فانطلقت أَسْعَى حتى انتهيتُ إلى الحجّاج ، فقال : كيف رأيتَ ؟ فقلتُ : الأميرُ كان أعلم بالأَمر .

ثم خرج أَهلُ العراق يوم الأربعـاء لأربع عشرة مضت من جمـادى الآخرة عند امتداد الضحى ، وخرج إليهم أَهلُ الشام واقتتلوا عامّةَ النهار .

وخرج سفيان بن الأبرد الـكلبىّ فى الخيل من قِبَل مَيْمَنة أهل الشام ، ودنا من الأبرد بن قرة التميمى وهو على ميسرة عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث ؛ ولم يقاتله هذا كبيرَ قتال حتى انهزم ، فأنـكرها الناسُ منه ـ وكان شجاعا ، ولم يكن الفرار له بعادة .

فلمّا فعلها تقوّضت الصفوف ، وركب الناس وجوههم ، وأخذوا فى كل وجه ،

---

(١) القربوس : حنو السرج .

وصعد عبد الرحمن بن محمد بن الأشعثِ المِنْبر فأخذ ينادى الناس : عبـاد الله إلىّ ، أنا ابن محمد ، فأتاه عبد الله بن رِزام الحارثىّ ، فوقف تحت منبره ، وجاء عبد الله بن ذؤاب السلمىّ فى خيلٍ له ، فوقف منه قريبا ، وثبت حتى دنا منه أهلُ الشام ، فأخـذَت نَبْلهم تَحُوزُه ، فقال : يابْنَ رِزَام ، احْمِلْ على هــذه الرجال والخيل ، فحمل عليهم حتى أمعنوا ، وثبت لا يبرح منبره ، ودخل أهلُ الشام العسكر فـكبّروا فصعد إليه عبد الله بن يزيد بن المغفّل الأزدى ـ وكانت مليـكة ابنة أخيـه امرأة عبد الرحمن ـ فقال : انزل فإنى أخاف عليك إنْ لم تنزل أن تؤْسَر ، ولعلك إن انصرفْتَ أن تجمع لهم جمعاً يهلـكهم الله به بعد اليوم .

فنزل وخلّى أهلُ العراقِ العسكر وانهزموا لا يَلْوُونَ على شىء .

ومضى عبدُ الرحمن بن محمد بن الأشعث حتى انتهى إلى بيته وعليــه السّلاحُ ، وهو على فرسه لم ينزل عنه ، فخرجت إليه ابنته فالتزمها ، وخرج إليه أهلُه يبكون ، فأوصـاهم بوصيته وقال : لاتبكوا ، أرأيتم أن تركـكم ، كم عسيت أن أبقى معكم حتى أمُوتَ ؟ وإن أنا متُّ فإن الذى يرزقـكم الآن حىٌّ لا يموت ، وسيرزقـكم بعــد وفاتى كما رزقـكم فى حياتى ، ثم ودّع أهلَه وخرج إلى البصرة .

ولما رأى الحجـاجُ انهزامَ أهل العراق قال : اتركوهم فليتبددُوا ولا تتّبعوهم ، ونادى المنادى : مَنْ رجع فهو آمن .

ورجع محمد بن مروان إلى الموصل وعبدُ الله بن عبد الملك إلى الشام بعد الموقعة وخلّيا الحجاج والعراق .

وجاء الحجـاجُ حتى دخل الـكوفة وأجلس مَصقلة البعدىّ إلى جنبه ـ وكان خطيبــا ـ فقال : اشتم كلّ امرئ بمـا فيه ، فإن كنا أحسنّا إليه فاشتُمْه بقلّة

شكره ولُؤْمِ عهده . ومن علمتَ منه عَيْباً فعِبْه بما فيه وصَغِّرْ إليه نَفْسَه . وكان لا يُبايِعه أحدٌ إلا قال له : أتشهدُ أنك قد كفرتَ ؟ فإذا قال : نعم ، بايَعه ، وإلّا قتله .

فجاء رجل من خَثْعَم قد كان معتزلا للناس جميعاً من وراء الفُراتِ ، فسأله عن حاله ، فقال : ما زلتُ معتزلا وراء هذا النهر ، منتظراً أمر الناس حتى ظهرتَ فأتيتُك لأُبايعَك مع الناس . قال : أتشهدُ أنك كافر ؟ قال : بئس الرجل أنا إن كنتُ عبدتُ اللهَ ثمانين سنةً ثم أشهدُ على نفسي بالكُفْر . قال : إذن أقتلَك . قال : وإن قتلتَني ، فوالله ما بقِيَ من عمرى إلا ظِمْءُ حِمَارٍ[1] ، وإنى لأنْتَظِر الموتَ صباح مساء . قال : اضربوا عُنقَه ، فضُرِبت عنقه .

فزعموا أنه لم يَبْقَ حولَه قرشيٌّ ولا شاميٌّ ولا أحدٌ إلّا رحمه ورثى له من القتل .

ثم دعا بكُمَيْل بن زياد النَّخَعيّ ، فقال له : أنتَ المقتصّ من عثمان أمير المؤمنين ! قد كنتُ أحبُّ أن أجِدَ عليك سبيلا . فقال: والله ماأدرى على أيِّنا أنت أشدّ غضباً ! ثم قال : أيّها الرجل من ثقيف ، لا تصرِفْ علىّ أنيابَك ، ولا تهدَّم علىّ تهدُّم الكثيب ، ولا تكشر كَشَران الذئب ، والله ما بقِيَ من عمرى إلا ظِمْءُ حمار ، فإنّه يشرب غدوة ويموت عَشِيّة، ويشرب عشيةً ويموتُ غَدْوة . اقْضِ ما أنتَ قاضٍ، فإنّ الموعدَ اللهُ ، وبعد القَتْلِ الحساب .

قال الحجّاج : فإنّ الحجّةَ عليكَ ، قال : ذلك إن كان القضاء إليك ، قال : بلى ، كنتَ فيمن قَتل عثمان وخَلَعْتَ أمير المؤمنين . اقتلوه .

---

(١) الظمء : ما بين السقيتين ، أى لم يبق من عمره إلا اليسير ، لأنه ليس شيء أقصر ظمئا من الحمار .

فقُدِّم فقُتِـل .

وأُتِيَ بآخر من بعده ، فقال الحجاجُ : إنى أَرى رجلا ما أُظنه يَشْهَدُ على نفسه بالـكفر ! فقال : أَخادِعِى عن نفسى ؟ أنا أَكفرُ أَهْلِ الأَرْض وأَكفرُ من فرعون ذى الاوتاد .

فضحك الحجاجُ وخَلّى سبيلَه .

---

٦٢ — يوم الهاشميّة*

كان مَعْنُ بنُ زائدة[1] مختفياً من أبى جعفر المنصور ، لِمَا كان منه من قتاله المسوّدة مع ابن هُبَيْرَة مرةً بعد مرة .

وكان اختفاؤه عند مرزوق أبى الخصيب ، ليطلبَ له الأمان .

فلما خرج الرّاوَنْدِيّة[2] أتى معنٌ البابَ فقام عليه[3] ، فسأل المنصورُ أبا الخصيب — وكان يلى حِجابة المنصور يومئذ — : مَنْ بالباب ؟ فقال : مَعْنُ بن زائدة . فقال المنصور : رجل من العرب ، شديد النّفس ، عالم بالحرب ، كريم الحسب ؛ أَدخِلْه .

فلما دخل ، قال : إيه يا معن ! ما الرأْيُ ؟ قال : الرأيُ أن تُنَادِىَ فى الناس وتأمرَ لهم بالأموال . قال : وأين الناسُ والأموال ؟ ومَن يُقدم على أن يعرّض نفسه لهؤلاء العُلُوج ! لم تصنع شيئاً يا معن ! الرأى أن أخرجَ فأقف ، فإنّ الناس إذا رأونى قاتلوا وأبلَوْا وثابوا إلىّ ، وإن أقمتُ تخاذلوا وتهاونوا .

---

* الهاشمية موضع بالكوفة أسسها السفاح ، وكان هذا اليوم سنة ١٣٦ أو ١٣٧ الطبرى ٩ — ١٨٣ .

(١) كان معن بن زائدة من مشهورى قواد العرب ، وكان منقطعا إلى يزيد بن عمر بن هبيرة الفزارى . فلما جاءت الدولة العباسية وحوصر يزيد أبلى معه بلاء حسناً ، ولما قتل يزيد خاف معن على نفسه من المنصور فاستتر مدة طويلة إلى أن كان هذا اليوم .

(٢) هم قوم من أهل خراسان منسوبون إلى بليدة قرب قاشان ، وكانوا على رأى أبى مسلم صاحب دعوة بنى هاشم يقولون بتناسخ الأرواح ، ويظهر أنهم كانوا يريدون أن يأخذوا بثأر أبى مسلم ويقتلوا أبا جعفر .

(٣) فى رواية أخرى أن المنصور خرج وهو يريدهم فجاء معن فانتهى إليه ورمى بنفسه وترجل وأخذ بلجام دابة المنصور .

فأخذ مَعْنٌ بيده وقال : يا أمير المؤمنين إذًا والله تُقْتَل الساعة ، فأنشدك الله في نفسك !

وأتاه أبو الخصيب ، فقال مثل قَوْلَةِ معن ، فاجتذب ثوبه منهما ؛ ثم دعا بدابّته ووثب عليها من غير ركاب ؛ ثم سوّى ثيابه ، وخرج ومعن آخذ بلجامه وأبو الخصيب مع رِكابه ، فوقف .

وتوجّه إليه رجل ، فقال : يا معن ، دونك العِلْج ؛ فشدّ عليه معن فقتله . ثم والَى بين أربعة .

وثاب الناس إلى المنصور ، فلم تسكن إلا ساعة حتى أفنوهم .

وتغيّب معنٌ بعد ذلك ، فقال أبو جعفر لأبي الخصيب : ويلك ! أين معن ! فقال : والله ما أدري أين هو من الأرض ! فقال : أيظنّ أن أمير المؤمنين لا يغفرُ ذَنبه بعد ما كان من بلائه ! أَعطِه الأمان وأَدْخِلْه عليّ .

فلما دخل لقّبه أسد الرجال ، فقال معن : والله يا أمير المؤمنين ، لقد أتيتُك وأنا وجِلُ القلب ، فلما رأيتُ ما عندك من الاستهانة بهم ، وشدّة الإقدام عليهم رأيتُ أمراً لم أره من خلق في حَرْبٍ ، فشدَّ ذلك من قلبي ، وحملني على ما رأيتَ منّي.

فأمر له بعشرة آلاف درهم وولّاه اليمن .

فهرس الموضوعات

---

١ – فهرس الأعلام

(ت)

(ث)

(ج)

(خ)

(ن)

٢ – فهرس القبائل

٣ - فهرس الأماكن

(ك)

(م)

(ن)

٤ – فهرس الشعر

٥ – فهرس الرجز

القافية	القائل	عدد الأبيات	الصفحة
	(ب)		
غَلبْ	كعب بن جميل	٢	٣٦١
الحلائبُ	. . .	٣	١٩٧
واقترابُها	جعفر بن أبى طالب	٥	٩٠
	(ت)		
تموتِى	عبد الله بن رواحة	٤	٩١،٩٠
	(د)		
محمدَا	عمرو بن سالم الخزاعى	١٧	٩٣
معدّ	سراقة بن مرداس	٣	٤٤٩
	(ر)		
عبد الدّارْ	هند بنت عتبة	٣	٣٥
بدرِ	هند بنت عتبة	٨	٣٩
بدرِ	هند بنت أثاثة	٩	٤٠
	(س)		
باليابسِ	حكيم بن جبلة	٢	٣٤٠
	(ع)		
جذعْ	دريد بن الصمّة	٢	٣٢٥،١٠٥
	(ق)		
نمانقْ	هند بنت عتبة	٤	٣٥

٦ – المراجع

الإصابة فى تمييز الصحابة لابن حجر العسقلانى ، نشرة المكتبة التجارية سنة ١٩٣٩ م
الأغانى لأبى الفرج الأصفهانى : مطبعة التقدم سنة ١٣٢٣ هـ ، مطبعة دار الكتب .
تاريخ ابن الأثير ، نشرة إدارة الطباعة المنيرية سنة ١٣٤٨ هـ .
تاريخ ابن خلدون ، مطبعة بولاق سنة ١٢٤٨ هـ .
تاريخ الطبرى ، المطبعة الحسينية سنة ١٣٢٦ هـ
تاريخ أبى الفدا ، المطبعة الحسينية سنة ١٣٢٥ هـ
تاريخ ابن كثير (البداية والنهاية) ، مطبعة السعادة سنة ١٩٣٢ م
السيرة الحلبية (إنسان العيون) ، المطبعة الأزهرية سنة ١٩٣٢ م
سيرة دحلان (على هامش السيرة الحلبية) ، المطبعة الأزهرية سنة ١٩٣٢ م
سيرة ابن هشام ، مطبعة حجازى سنة ١٩٣٧ م
العقدة لابن عبد ربه ، مطبعة لجنة التأليف سنة ١٣٧٠ هـ
الفائق للزمخشرى ، مطبعة عيسى الحلبى سنة ٩١٤٥ م
فتوح البلدان للبلاذرى ، نشرة المكتبة التجارية .
لسان العرب لابن منظور ، مطبعة بولاق سنة ١٣٠٠ هـ
محاضرات فى تاريخ الأمم الإسلامية ، نشرة المكتبة التجارية سنة ١٩٢٦ م
مروج الذهب للمسعودى ، بولاق سنة ١٢٨٣
معجم البلدان لياقوت ، مطبعة السعادة سنة ١٩٠٦
معجم ما استعجم للبكرى ، مطبعة لجنة التأليف سنة ١٩٥٤ م